



ج . قنـدريس

اللغة

ميراث الترجمة

ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

محمد القصاص

تقديم: فاطمة خليل

يمثل كتاب "اللغة" للعلامة جوزيف فندريس - رئيس الجمعية اللغوية الفرنسية - علامة فارقة في نقل المعارف الإنسانية من اللغات الأجنبية إلى لغتنا العربية؛ فهو بمثابة الدراسة المرجعية المتخصصة في البحث اللغوي؛ إذ يتناول: الأصوات، والنحو والصرف، وتكوين اللغات، ثم أصل الكتابة وتطورها، وتقدم اللغة من خلال النظر في تاريخ الإغريقية واللاتينية، وفي متابعة دءوبة لما طرأ من تطورات حادثة في مجال البحث اللغوي.

اللغة

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1889
- اللغة
- ج. قنديل
- عبد الحميد الدواخلي
- محمد القصاص
- فاطمة خليل
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة 2014

هذه ترجمة كتاب:

Le Langage, Introduction Linguistique à l'histoire
Par: Joseph Vendryes

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

اللغة

تأليف: ج. قنـدریس

ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

محمد القصاص

تقديم: فاطمة خليل



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

قندريس؛ ج.
اللغة / تأليف: ج. قندريس، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي،
ومحمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل؛
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٥٠٠ ص، ٢٤ سم
١ - اللغة - تاريخ ونقد
(أ) الدواخلي، عبد الحميد (مترجم)
(ب) القصاص، محمد (مترجم مشارك)
(ج) خليل، فاطمة (مقدمة)
(د) العنوان

٤٠٠,٩

رقم الإيداع: ٢٠١١/٥٣٢٢

التسجيل الدولي: I.S.B.N -978-977-704-510-0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم
ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

يقوم مشروع المركز القومي للترجمة بوزارة الثقافة المصرية ، من بين أنشطة أخرى، من خلال إعادة نشر وتقديم الإبداعات الفكرية والأدبية، على الرؤية الثاقبة للقائمين على هذه المؤسسة الواعدة في إطار إحياء الموروث الثقافي والإبداعي لصفوة الكتب المختارة بعناية فائقة تتجاوز حدود الزمن والرؤية المستقبلية لدراسات البحث العلمي.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن بعنوان "اللغة" للباحث العلامة جوزيف فندريس، العميد الأسبق لكلية الآداب بجامعة باريس، وعضو المعهد الفرنسي ورئيس الجمعية اللغوية الأسبق بباريس، يمثل علامة فارقة في نقل المعارف الإنسانية من اللغات الأجنبية إلى لغتنا العربية، وهو بمثابة الدراسة المرجعية المتخصصة في البحث اللغوي. وقد قام بتعريبه كل من الدكتور عبد الحميد الدواخلي، بكلية دار العلوم، جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) والدكتور محمد القصاص بكلية الآداب بنفس الجامعة، حيث كانا من أعضاء الجمعية اللغوية بباريس، ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٥٠.

اللغة نظام من العلامات المرتبطة بالتواصل بين البشر. وحسبما وصفها عالم اللغويات فرديناند دي سوسير فإن اللغة هي " كثر قائم يتم الاستفادة منه في مجتمع ما وهي نظام مبني على الأجرومية في عقول مجموعة من الأفراد، ومن ثم فإن اللغة ليست كاملة لدى شخص واحد، ولكنها مشتركة في عقل مجموعة من الأشخاص" (دراسات في علم اللغة العام، ١٩٤٥). وفيما يتعلق بالكلام فإن اللغة هي "نظام اجتماعي ومستقل

للفرد" وهي ضرورة حتى يكون الكلام ملموساً وفعالاً. ومع ذلك، فاللغة التي ندرکها باعتبارها نظاماً أو مجموعة من القوانين والقواعد الصرفية والنحوية التي تحكم أداءها ودورها الوظيفي لا يمكن أن تكون هدفاً للبحث التجريبي وإنما من خلال الكلام، أي من خلال الظواهر الملموسة للمتحدث الفرد في مجتمع ما محدد. وعند محاولة دراسة هذه الظواهر للإنجازات اللغوية الملموسة قال عالم اللغة الإسباني كوسريو (دراسات في علوم اللغات الرومانية، ١٩٦٣) إن هناك لغة وسيطة بين اللغة والكلام إشارة إلى مجموعة الاستخدامات الشائعة والدائمة التي تشكل إخراج اللغة المعيارية من لغة الكلام إلى اللغة داخل مجتمع ما. والقاعدة الأساسية هي التركيز على صحة وسلامة أفعال الكلام. ومن أمثلة ذلك تغير القاعدة الأساسية لكل لغة في مراحل تطورها التاريخي أو وفقاً لمناطقها الجغرافية.

وعند تناول تحليل بنية اللغة، فإن المفهوم الأساسي المطروح من جانب اللغويين قد قام على المستويات المختلفة للغة. والنموذج الأكثر شيوعاً لتحليل بنية اللغة يركز على المستويات التالية، وهي:

(أ) مستوى الظواهر الفيزيائية المتعلقة بأجهزة النطق والنقل الصوتي والاستماع إلى الأصوات، من الظواهر التي تشكل المجال المختص بعلم الأصوات؛ إلى الشكل حول كيفية تنظيم اللغات المختلفة لهذه المكونات الصوتية، وهو ما نطلق عليه علم توظيف الأصوات، الذي يعالج "الأصوات وتآلفاتها الممكنة مع استقلالية المعنى الذي تنقله" (ألاركوس يوراتش، (الأصوات في اللغة والدلالة، ١٩٩٤)؛

(ب) مستوى تحليل الوحدات الصوتية العليا (الفونيم) والوحدات الصوتية الصغرى (المونيم)، التي تنظم في تسلسل محدد للتعبير عن العلاقات المختصة

بالمعنى وهو الجانب الذي يختص بعلم القواعد الذي ينقسم إلى فسرعين للتحليل: الصرف الذي يتركز حول بناء المفردات، والنحو الذي يختص بترتيب المفردات في الجملة؛

(ج) والمستوى الثالث للتحليل هو المختص بالوحدات اللغوية التي هدفها دراسة علم الدلالة من حيث الدال والمدلول وعلم المعاجم الذي يقوم على الدراسة التجريبية والعلمية للمفردة من حيث الأصل والشكل، ومعنى الكلمات، وعلم تأليف المعاجم الذي يختص بوضع قواميس اللغة وهدفه هو إحصاء وتعداد المفردات الوافدة على اللغة مع إضافة معلومات من حيث الاشتقاق والنوع والتماثل والدلالة والسياق، إلخ؛

(د) والمستوى الرابع للتحليل هو ما يختص بالموقف الاتصالي أو السياق الذي تطرحه الحمل وهو الهدف الذي يقوم عليه علم اللغة التداولي (ج. ديوا، اللغة والنص، ١٩٧٩).

ومن بين التصنيفات المختلفة للغة التي قدمها الدارسون في هذا التخصص الحيوي في العلوم الإنسانية، من خلال النظام الاجتماعي، هناك العلاقات بين اللغة الأم واللهجة، إلى جانب اللغة المعيارية واللغة الرسمية والعلاقات الاستبدالية؛ حيث تدخل كل كلمة من الكلمات المختارة في علاقة استبدالية مع غيرها من الكلمات الممكنة التي تم استبدالها، وقد يكون استخدام الكلمة متوقفاً على خيار المتكلم، أو على متطلبات السياق مثل كلمة "حضر" بدلاً من "غاب"، ومن ثم كل كلمة من الكلمات التي كان من الممكن أن تحل محلها هي علاقة تغاير. وعلاقة التغاير هي إحدى علاقيتين تدرجان تحت علاقة الاستبدال، والعلاقة الأخرى هي علاقة التشابه التي يمكن أن نوضحها من المثال السابق

حيث كان على المتكلم أن يقول "حضر"، وليس له أن يقول "حضرا"، أو "حضروا"، أو "حضرت"؛ لأن قواعد اللغة العربية تفرض هذا الشيء دون غيره في هذا السياق. أما العلاقات الانتلافية ويسميتها دي سوسير بالعلاقات الترابطية، وشبه بهذا العلاقة النحوية بين الكلمات، ففي اللغة العربية - كما هو معلوم - تتأثر الكلمات المتواليّة بعضها ببعض. هذا إلى جانب اللغة الاصطناعية، التي تحاكي الأنظمة اللغوية التي تطورت طبيعياً خلال مدى زمني أطول؛ ولغة البرمجة، وهي أساليب معيارية لإيصال التعليمات إلى الحواسيب الآلية، وغيرها. وكما يقول ج. ديوا إن اللغة تتنوع من حيث كونها لغة ثقافة، أو تقنية، أو شعبية، أو دارجة، أو اصطلاحية... إلخ. سواء على المستوى الشفاهي أو المكتوب، فضلا عن اللغات الخاصة المتعلقة باللغة العلمية والفنية والقانونية والإدارية والأدبية. وقد أشار الباحث اللغوي ت. لوان دوفيسكي (اللغة الشفاهية واللغة المكتوبة، ١٩٨٢) إلى التمييز بين لغة الكلام واللغة المكتوبة، حيث إن الأولى سابقة على الثانية، ليس فقط من حيث الترتيب الزمني وحسب، وإنما لكونها لغة ذات قدرات اتصالية، حيث إن اللغة المكتوبة لم تكن مؤهلة لإنتاج هذا الكم الكبير من تنوعات اتسمت بها اللغة الشفاهية مثل نبرات الصوت ولهجة الكلام والوقفات الصوتية،... إلخ. بمعنى أن المتكلمين بإمكانهم أن يجزئوا العلامات اللغوية، ويعيدوا تركيبها للتعبير عن معنى مغاير، مثلما يفعل الطفل بألعاب الفك والتركيب حين يرسم أشكالاً مختلفة بإعادة الفك والتركيب. وتسمى هذه الخصوصية اللغوية التجزئة المزدوجة، ويشير اللغويون عادة إلى نوعين من التجزئة: تجزئة التراكيب إلى مصرّفات (مورفيمات)، وهي المسماة بالتجزئة الأولى، وتجزئة المصرّفات إلى أصوات وهي ما تسمى بالتجزئة الثانية. فمثال الأولى تجزئة جملة "الولد يبكي" إلى (ال) الذي هو مصرف قواعدي، و(ولد)، وهو مصرف

معجمي، والمصرف المعجمي المقيد (ب ك ي)، وصيغة (يفعل)، وهو مصرف قواعدى مقيد. ومثال الثانية تجزئة كلمة ولد إلى (و + فتحة + ل + فتحة + دال). ومع ذلك، يجب أن نبرز الاهتمام باللغة المكتوبة، إلى جانب الشهرة التي اتسمت بها من حيث أصالتها وبداياتها من خلال جوانبها المهمة مثل نقل المعلومات المتخصصة (العلمية والفلسفية والعقائدية والسياسية والصحفية،...إلخ). إلى جانب مصداقيتها للقواعد والنظام اللغوي والحفاظ على هويتها. وخير دليل على اللغات الخاصة ما يتعلق باللغة الأدبية، حيث استطاع رولان بارت (١٩٧١)، أن يشير إلى أن الخطاب الأدبي هو وسيلة الاتصال في النقد الأدبي المعاصر، وقد تبني هذا المنهج عدد كبير من البنيويين وعلماء السيميوطيقا بتحليل النصوص الأدبية ووضع المفاهيم وآليات التحليل اللغوية انطلاقاً من بنية الرواية، حيث إن لغة الرواية أكثر حضوراً من اللغة ذاتها.

وقد أثارت نظرية رولان بارت عدداً من الباحثين الذين اتجهوا إلى دراسة نماذج داخل علوم الأدب، ومن بينهم ج. شмит (دراسات في علم اللغة والبنويّة، ١٩٧٨) الذي ارتأى فشل التعريف البنيوي للبيوطيقا اللغوية. وعلى الرغم من ذلك، ظهرت دراسات لاحقة تتعلق بالسيميوطيقا والبراجماتية ونظرية التلقي (حامد أبو أحمد، نظرية التلقي ١٩٩٧) التي قامت على تحليل النصوص الأدبية من وجهة النظر الاتصالية مثل العلامات الفنية المركبة باعتبارها أفعال الكلام في موقف اتصالي معين مثل الرسائل الموجزة والمختصرة التي يدركها ذهن المتلقي داخل السياق والشفرات المتعارف عليها والقدرات الثقافية والمعرفية وجماليات اللغة (صلاح فضل، شفرات النص، ١٩٩٦). ومن ثم فإن النصوص الأدبية يمكن اعتبارها شكلاً خاصاً من أشكال الاتصال اللغوي وهي بمثابة العمل الفني للغة.

ونستمد من التقدم لهذا الكتاب ما ذكره المعربان المصريان بضرورة أن تتضافر الأفكار في المؤسسات العلمية المصرية والعربية، وأن تتعاون من أجل وضع بنية قسوي للدراسات اللغوية لخلق "الوعي اللغوي" بين الناطقين بلغة الضاد، هذا إلى جانب إنشاء جمعيات لغوية من المتخصصين تعاون في الدراسات اللغوية مع الهيئات الرسمية وإصدار مجلات تهتم بالدراسات المتخصصة في علوم اللغة لعرض الآراء والنظريات الجديدة مثلما يحدث في الغرب. وهذه الأمنيات طرحها الباحثان في عام ١٩٥٠، منذ أكثر من ستين عاماً. ونقول إنه وإن كان قد تحقق منها الجزء اليسير إلا أننا نطمح إلى المزيد، حيث الألفية الثالثة بتقنياتها وتطورها الكبير في مجال البحوث الإنسانية والاجتماعية والعلمية على مختلف مستوياتها.

ويتضمن هذا الكتاب القيم التصدير الذي عرضه الباحث الفرنسي الفذ هنري بر تحت عنوان "اللغة وأداة التفكير" تناول فيه مشكلة أصل اللغة وتطورها والحاجة إليها بالتعاون مع الآخر وارتباطها الوثيق بالظروف التاريخية، هذا إلى جانب سيكولوجية اللغة وعلاقتها بالفكر الذي يستمر بالحياة. وتلا ذلك مقدمة للباحث فندريس أثني فيها على من سبقوه في هذا المجال من الدراسات المتعلقة باللغة ومقارنتها باللغات الأخرى بما يخدم الهدف الذي من أجله ألف هذا الكتاب. وفي التمهيد تناول أصل اللغة من حيث لغة الكلام واللغة المكتوبة.

ويتناول الجزء الأول من الكتاب "الأصوات"، حيث أشار في الفصل الأول إلى المادة الصوتية وتصنيفاتها التي مازلنا نعتمد عليها حتى اليوم، إلى جانب الدراسات الصوتية التي قام بها النحاة العرب في اللغة العربية. ويأتي الفصل الثاني ليعرض "النظام الصوتي وتغييراته" حيث أشار إلى أنه في كل لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطاً

وثيقًا، فهي تكون نظامًا متجانسًا مغلقًا، تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها؛ وهذه أول قاعدة من قواعد الصوتيات؛ وهي ذات أهمية قصوى، لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة، بل هي نظام من الأصوات. ويقوم الفصل الثاني على عنوان "الكلمة الصوتية والصورة اللفظية"، حيث أشار إلى أننا لا نعبر بأصوات عن كل ما في ذهننا من وحدات تصورية. فالتأمل مثلاً لا يقتضي تمرين الأعضاء المنتجة للصوت؛ ولكن التأمل كلام داخلي فيه تتسلسل الجمل كما في الكلام المنطوق (ف. أجيجيه: الكلام الداخلي، باريس ١٨٨١). وانتهى لتألف الصورة اللفظية والجملية من عناصر واحدة تسمى في النحو بالكلمات، وأن الكلمة الصوتية قد تشتمل على عدة كلمات بالمعنى المقصود في النحو المعتاد، بل إن حدودها قد تكون جلية الواضح تبعاً للغات.

ويتناول الجزء الثاني من هذا الكتاب "النحو" عدة فصول، الأول منها بعنوان "الكلمات والأصوات"، حيث بدأ بالإشارة إلى أن كل جملة تنتظم في نوعين من العناصر المتميزة: أولاً التعبير عن عدد ما من المعاني التي تمثل أفكارًا، وثانيًا الإشارة إلى بعض العلاقات التي بين هذه الأفكار. فإذا قلت: الحصان يجري، ففي ذهني فكرة الحصان وفكرة الجري، وقد جمعت بين الاثنين في هذا الإثبات الذي هو "الحصان يجري". والفصل الثاني بعنوان "الفصائل النحوية" حيث يراد بهذا المصطلح المعاني التي يعبر عنها بواسطة دوال النسبة (ث. جوبل: الفصائل النحوية: رقم ٣٢، ج ٥، ص ١٨٩ وما يليها. يارنجر ٣ فرع ١؛ فان جنينكن: رقم ٧٧، ص ٦ وما يليها). فالنوع والعدد والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة... إلخ، كلها فصائل نحوية في اللغات تسمى دوال النسبة إلى التعبير عنها. وعنوان الفصل الثالث "الأنواع المختلفة للكلمات" مثل الاسم والفعل والصفة... إلخ. والفصل الرابع بعنوان "اللغة الانفعالية" باعتبار أن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكارًا فحسب، بل يتكلم أيضًا ليؤثر في

أمثاله وليعبر عن مشاعره. وأشار الباحث إلى ضرورة أن نفرق بين اللغة المنطقية واللغة الفاعلة واللغة الانفعالية، بمعنى التفريق بين الذكاء والشعور، حيث إن اللغة الفاعلة لها أهميتها التي تظهر لنا بجلاء حينما نحاول أن نتصور اللغة الإنسانية في مهدها. هذا إلى جانب أنها في مجرى التاريخ تسير على قوانين خاصة بها: فمبدأها من الوجهة النحوية هو ميدان الأمر في الفعل وميدان المنادى في الاسم، وكل منهما له في فصيلته صيغ واستعمالات خاصة. واللغة الفاعلة مع كونها تستمد غذاءها في أحيان كثيرة من اللغة المنطقية التي تستعير منها بعض العبارات النحوية الجامدة في صورتها، تستحق رغم ذلك أن تميز عنها؛ لأنها تقوم بدور قد قصر عليها وحدها وتملك آلات خاصة بها. وأن الفرق الأساسي بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية في تكوين الجملة. وهذا الفرق ينبثق جلياً عندما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة. ويأتي الفصل الخامس تحت عنوان "التغيرات الصرفية" ويركز على أن النظام الصرفي لدى كل متكلم يحمل في نفسه من أسباب التغير بقدر ما يحمله النظام الصوتي، حيث إن التغيرات الصرفية إنما تصيب الكلمات لا العناصر الصرفية، وذلك على عكس التغيرات الصوتية التي قد تصيب الأصوات مستقلة عن الكلمات. ولا يرجع ذلك فحسب إلى أن العناصر الصرفية تكون في أغلب الأحيان جزءاً لا يتجزأ من الكلمة، بل يرجع ذلك على وجه الخصوص إلى أن السبب في التغيرات الصرفية ليس في المهارات العقلية، بل في استعمال اللغة لهذه المهارات. أما الجزء الثالث في هذا الكتاب بعنوان "المفردات" فقد تناول فندريس في الفصل الأول منه "طبيعة المفردات ومداها"، حيث أشار إلى أن المفردات هي مجموع الكلمات في إحدى اللغات باعتبار قيمتها المعنوية، وأن الصرف مستقل عن قيمة الكلمات المعنوية وقيمتها الصوتية على السواء، وأن هذه النظم الثلاثة: نظام النطق، ونظام الصيغ النحوية، ونظام المفردات تستطيع أن تصوّر منفصلة كل منها عن الآخرين، تحت تأثير أسباب مختلفة. وبعض

اللغات تجدد مفرداتها دون أن تغير شيئاً من صوتياتها أو من نظامها الصرفي. فنجد مثلاً في الأردية الأدبية (وهي فرع من الهندستانية) جملاً بأسرها ليس فيها من الهندية إلا النظام النحوي، أما الكلمات فكلها فارسية. والفجر الأرمنيون يستعملون لغة أرمنية نطقاً ونحواً، وإن كانت مفرداتها غريبة عن أرمنية. وذلك أن القالب النحوي الواحد يمكن أن تصب فيه مفردات مختلفة. والفصل الثاني من هذا الجزء جاء تحت عنوان "كيف تغير المفردات معانيها؟" حيث أشار إلى استقرار النظام الصوتي منذ الطفولة واستمراره طول الحياة والنظام الصرفي ثابت أيضاً، إلا أن استقراره يتطلب وقتاً أطول. أما المفردات فعلى العكس من ذلك لا تستقر على حال، لأنها تتبع الظروف. فكل متكلم يكون مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمدامته على الاستعارة ممن يحيطون به. والفصل الثالث "كيف تغير الأفكار أسماءها؟" حيث عرض فندريس مقارنة بين مجموعة من المفردات في عصرين متباعدين من تاريخها، ومقابلة بين المفردات الفرنسية والمفردات اللاتينية أو بين هذه الأخيرة والمفردات الهندية الأوروبية، إذ وجد أن بعض الكلمات التي تدل على أشياء واحدة قد استمر بقاؤها باضطراب تام، غير خاضعة إلا للتغيرات الناجمة عن التطور الصوتي؛ وأن البعض الآخر قد جدد مرة أخرى أو أكثر من مرة.

والجزء الرابع من الكتاب تحت عنوان "تكون اللغات"، تناول في الفصل الأول منه "اللغة واللغات" مبيناً الفرق بين اللغة واللغات، حيث إن اللغة هي مجموعة الإجراءات الفسيولوجية والإجرائية التي في حوزة الإنسان لتمكنه من الكلام. أما اللغات فهي استعمال هذه الإجراءات بصورة عملية. ثم عرج على فكرة الربط بين اللغة والجنس، والربط بين اللغة والمجتمع. أما الفصل الثاني "اللهجات واللغات الخاصة" فيشير إلى بعض الصعوبة في حال محاولة رسم الحدود بين الفرنسية والبروفنسالية، أو بين الألمانية العليا والألمانية السفلى، أو بين الصربية والبلاغارية، لأننا هنا لم نعد أمام لغتين من

أصلين مختلفين وصلت بينهما مكانياً مصادفات التاريخ، بل أمام لغات منبعثة من أصل واحد وقد فرقت بينهما ظروف تاريخية. فالانتقال بين إحداها والأخرى انتقال غير محسوس، وليس هناك معارضة جسيمة بين لغتين وضعت إحداها في مواجهة الأخرى، وزودت كل منهما بوسائل للتعبير مشتركة. والصعوبة تعظم إذا أردنا أن نضع حدوداً بين اللهجات التي في داخل مجال لغوي واحد. ويؤكد الفصل الثالث " اللغات المشتركة" على أن تعبیر توحيد اللغة ضرورة اجتماعية. ولولا تفكك المجتمع لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التي لا تزيدها إلا تفرقاً. ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائماً إلى المحافظة عليها كما هي؛ وكذلك التبادل الكلامي الذي يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدي إلى توحيد اللغة. ومن هنا تنشأ اللهجات، وكذلك اللغات المشتركة التي تسير مع اللهجات جنباً لجنب. وتناول الفصل الرابع "احتكاك اللغات واختلاطها" باعتبارها ضرورة تاريخية، وهذا بالتالي يؤدي حتماً إلى تدخلها. وقال فندريس من الخطأ أن نتصور كون المنافسة بين لغتين متماستين تحدث دائماً على وتيرة واحدة في كل الحالات؛ لأن قوة اللغات ليست واحدة، ومن ثم كانت تختلف قدرتها على المقاومة. وأشار إلى عامل آخر له قوته العظيمة في المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقاءها: هو عامل الهيبة. فما كان من اللاتيني أن يرضى بتعلم إحدى لغات البربر، وأن كثيراً ما يكون لهيبة اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية. والفصل الخامس "القراءة اللغوية والمنهج المقارن" حيث أفاد بأنه لا يتأتى لإحدى اللغات أن تلد لغة أخرى؛ وليس في وسع أي عالم لغوي أن يحدد الساعة التي وقع فيها هذا الميلاد. فإذا قلنا إن اللغة الفرنسية قد خرجت من اللاتينية، فمعنى ذلك أن الفرنسية هي الصورة التي صارت إليها اللاتينية خلال العصور في إقليم من الأقاليم. إذن فليست الفرنسية في كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها. وكلما أوغلنا في تاريخ اللغة الفرنسية، وجدنا حالات

متنوعة يتلو بعضها بعضاً وتقربنا شيئاً فشيئاً من اللغة اللاتينية. ومع ذلك فمن المحال أن نعين الحد الذي تنتهي عنده اللاتينية وتبدأ الفرنسية. وتاريخ اللغة الفرنسية مشحون بالثغرات؛ فهناك فترات لا نعرف عنها إلا القليل، وكانت ذات أثر حاسم في تكوين هذه اللغة. ومن جهة أخرى لم تكن الحركة التي ابتعدت بالفرنسية عن اللاتينية متماثلة الأجزاء، ومع ذلك فبين اللاتينية والفرنسية، رغم تنوع الأحوال التي تقلبت على الفرنسية، استمرار تاريخي هو الذي يُكون القرابة بين اللغتين. وهذا هو الوجه الأول من وجهي المسألة، ويمكننا أن نسميه بالتتابع. وهناك وجه آخر يجب أن يحسب حسابه، وهو الوجه الوضعي وهو ما نسميه بالتزامن.

أما الجزء الخامس "الكتابة" فقد تناول فيه فندريس في الفصل الأول منه "أصل الكتابة وتطورها"، حيث أشار إلى أن فهم مسألة أصل الكتابة يقود إلى التخلص من عوائدنا العقلية بوصفنا قومًا متحضرين. فالذي في ذهننا هو أن القيمة الرمزية للكتابة أمر طبيعي. إذا لا يلزم لأطفالنا إلا بعض المراتب وشيء التفكير ليفهموا ما يريدونه مكتوباً ليس إلا صورة الكلمات التي تسمعها آذانهم. ولا يمر بهم وقت طويل حتى يتعودوا هذه الرياضة النفسية التي تنحصر في التوفيق بين الرسم والصورة، وفي الجمع بين دائرة الإدراك، وبين التصورات البصرية والتصورات السمعية. والزمن الذي قضيناه في طفولتنا لإخضاع عقولنا لهذه الرياضة كان من القصر بحيث لم يبق منه شيء في ذاكرتنا. فالفكرة في أذهاننا عن اللغة المكتوبة، قد حصلناها دون مجهود، وبصورة قريبة من الطبيعية. وفي الفصل الثاني "اللغة المكتوبة والرسم" تناول فندريس اللغة المكتوبة باعتبارها هي الطابع المميز للغات المشتركة. واللغة المشتركة بطبيعتها في نزاع دائم مع اللغة المتكلمة؛ لأن هذه الأخيرة، في خضوعها للتأثيرات الفردية، تميل دائماً إلى الابتعاد عن المثل الأعلى الذي تحتضيه اللغة المشتركة. واللغة المكتوبة معرضة بدورها للغة المتكلمة، لأن اللغة المشتركة

تعتمد في مقاومتها على الكتابة أولاً وقبل كل شيء. ومن جهة أخرى تستعمل الكتابة في التعبير عن كثير من اللغات الخاصة، بل لا وجود لبعض هذه اللغات الخاصة إلا في صورة مكتوبة. ولهذا الاعتبار أيضاً كان الخلاف بين الكلام والكتابة أمراً مقررًا ثابتاً. ومع ذلك لا يوجد رسم واحد يمثل اللغة المتكلمة كما هي. فإننا إذا تصورنا رسمًا مما يُسمى بالرسم الصوتي، وقد زود بحروف متنوعة وعلامات للتشكيل، فإن هذا الرسم لا يتيح معرفة النطق الحقيقي معرفة تامة لشخص لم يسمع الكلام باللغة التي يقرأها. ومن ثم كان المعتاد في كتب الأصوات أن تصور الأصوات اعتمادًا على لغة معروفة للقارئ لا على الجهاز الصوتي للإنسان.

وفي خاتمة هذا الكتاب المهم تناول "تقدم اللغة"، حيث أشار إلى أنه من المناسب أن نحدد ماذا نعني بكلمة "تقدم اللغة". فأولئك الذين يستعملونها لا يفعلون أكثر من إدخالهم في علم اللغة مصطلحًا من تاريخ الأدب. إذ إن العادة قد جرت وقتًا طويلًا على اعتبار معني التقدم في الأدب نظامًا مذهبياً؛ فكان الناس لا يرون في تطور الأنواع الأدبية إلا صعودًا نحو الكمال أو انحدارًا إلى الانحلال. وهذا هو الرأي الكلاسيكي الذي يذهب إلى أن الفن والذوق بعد أن يصل إلى درجة كمالهما ينتهي بحال إلى الانحدار والفساد. وقد نقل علماء الفيلولوجيا الكلاسيكيون هذه الفكرة إلى الدراسة اللغوية متخيلين أنه يوجد في تاريخ الإغريقية واللاتينية نقطة كمال وصلت إليها هاتان اللغتان بعد مجهودات طويلة، ومن بعدها سارتا في طريق الاضمحلال.

وفي نهاية هذا الكتاب للعلامة جوزيف فندريس عرض ثلاثة ملاحق تناول فيها بعض الإضافات المهمة لهذا الكتاب الذي فرغ من تأليفه عام ١٩١٤، حيث استدعى عدة تصحيحات ليجاري علم الدراسات اللغوية عام ١٩٢٤، منها كتاب "دراسة في

اللغويات العامة" لسوسير، الذي نشر عام ١٩١٦ وطبعته الثانية عام ١٩٢٢. وكتاب "اللغة" للعالم والباحث اللغوي سابير، وآخر لجسيرسن، وكتاب "علم اللغة واللهجات الرومانية" للباحث مياردية الذي نشر في مونييليه وباريس عام ١٩٢٣، وغيرها من الكتب المهمة في مجال البحث اللغوي والتي صدرت تباعاً.

وجاء تصنيف المراجع والمصادر المتعددة من مختلف اللغات التي استند عليها، منها الفرنسية التي أفرد لها مكاناً كبيراً نسبياً لتبين الدور الذي اضطلعت به فرنسا في مجال تطور الدراسات اللغوية، إلى جانب اللغات الإنجليزية والألمانية والإيطالية والداغماركية.

ويأتي فهرس هذا الكتاب الموسوعي بشكل متماسك يعرض فيه أهم النقاط التي طرحها. وهذا الكتاب الذي نقدم له يعد من المراجع المهمة في الدرس اللغوي وفي تاريخ سابق على الدراسات اللغوية الحديثة، حيث إن إصداره في عام ١٩١٤ يؤكد على الرؤية المستقبلية لهذا الباحث، ومن ثم فهو كتاب جدير بالاقترناء والاطلاع لكل راغب في البحث اللغوي.

من الله نستمد الهداية وعلى الله قصد السبيل،،

فاطمة خليل

إلى الذالدين الذين يفارون على العربية وبهملونه

في صمت وهدير .

إلى المصلحين الذين يجاهدونه حقا في أنه يسرق .

العرب طاب لهم النفاق وأزهرهم القوي المحفوظ في الضيقة .

العربية ، نهرى هذا الكتاب .

المعربان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذا كتاب فى اللغة قدمه لقراء العربية ليروا منهجاً جديداً فى البحوث اللغوية نمتد أنه لو طبق على اللغة العربية لأفادت منه كثيراً .

ومؤلفه الأستاذ جوزيف قندريس — عميد سابق لكلية الآداب بجامعة باريس وعضو المعهد الفرنسى ورئيس الجمعية اللغوية بباريس — لا يبالغ لئمة بعينها ، وإنما يؤيد آراءه بضرب أمثلة من لغات متعددة قديمة وحديثة .

وهذه البحوث لا تمد جديدة كلها على المتخصصين فى الدراسات اللغوية ، فقد أثار مسائل منها بعض حضرات أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وحاولوا جاهدين تطبيقها على اللغة العربية ليخرجوا بها إلى مضمار اللغات الحية بعد أن وقف بها الزمن ووقف بها أبناؤها وقفة كان من الجائز أن تودى بها لو لم تكن لئمة دين قويم ، وحضارة عريقة ، تستمد هيتها من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة .

يرى اللغويون المحدثون أن « اللغة من أعجب المبكرات التى أظهرها التطور البشرى ، فيجب الوقوف عندها ، بل وإطالة الوقوف لئرى الدور الذى تؤديه على وجه الدقة والنصيب الذى تقوم به فى التطور العقلى ، ثم ما هى صلات الفرد بالجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وإكمال ما فيها من قصص على مر الأزمنة » . وليس السبيل إلى ذلك دراسة نحو اللغات وصرفها وبلاغتها لحسب لأن مثل هذه الدراسة تمد ناقصة ، طبقها اللغويون القدامى على اللتين اللاتينية واليونانية فأفادتهما لكنها لم تحل دون ضعفهما أولاً ثم القضاء عليهما بعد ذلك ، وطلبت على اللغة العربية لكنها لم تحل دون انقسامها إلى لهجات ، ولم تستطع مدارس

النحو العربي من بصرية وكوفية وبسدادية ومصرية أن تمتنع انتشار اللحن لا في البلاد العربية المفتوحة ولا في جزيرة العرب نفسها .

لسنا بذلك ننكر فضل القداى على اللغة العربية وإنما ندعو إلى مسامرة الطرق العلمية الحديثة في البحوث اللغوية وأن ننظر إلى اللغة على أنها نظام اجتماعى « تتأثر بالمجتمع وتؤثر فيه » . ثم علينا أن ندرس العلاقات التى توجد بين اللغة وبين العقل البشرى على أسس علمية صحيحة ، لنطمئن إلى أن العربية ستظل بقواعدها ومفرداتها وأدبها لغة حديثة تسار كل نهضة علمية أو أدبية أو فنية .

يبدل مجمع فؤاد الأول للغة العربية جهداً مشكوراً فى تعريب المصطلحات العلمية والفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة ؛ وهو حين ينتهى من هذه المهمة الشاقة ويذبح مصطلحاته على الناس ، يكون قد أدى للغة العربية أجل الخدمات لأنه سينقل بها من العصور الوسطى حيث وقف بها أبناؤها إلى عصرنا الحديث الذى تخلفت فيه عن اللغات الحية ، وأصبحت تنافسها فى معاهدنا العلمية الشرقية والمصرية اللغتان الفرنسية والإنجليزية منافسة قوية . إن أبناء العربية جميعاً يتطلعون إلى اليوم الذى تصبح فيه لغتهم لغة علمية ؛ ولن يكون هذا اليوم قريباً إلا إذا اقتنع أبناؤها تماماً بضرورة الأخذ بالطرق الحديثة فى الدراسات اللغوية .

أما إذا ظلوا يدرسونها معتمدين على الكتب القديمة وحدها فلن تكون دراستهم مجدية ، لأن هذه المصادر ، مهما كانت مفيدة نافعة ومهما احتفظت بقيمتها التاريخية ، فستظل ناقصة إذا طبقت عليها مقاييس العلم الحديث .

نريد أن تصبح العربية لغة من يعيشون فى الشرق من الشرقيين والأجانب على السواء ، لأننا نكره كراهية شديدة أن تجرح اللغات الأجنبية آذاننا فى معاهدنا ومنازلنا وطرقنا . إنه لمظهر يسىء حقاً إلى قوميتنا وكرامتنا ويدعونا إلى التفكير الدائم والعمل المتواصل حتى يوجد « رعى لغوى » فى البلاد العربية كلها .

على أن الوصول إلى ذلك ليس أمراً يسيراً ؛ فاللغوى يجب أن يكون على معرفة بالعلوم التى تصل باللغة اتصالاً وثيقاً ، لأن اللغة كما يقول الأستاذ فندريس : « مركب معقد تمس فروعاً من المعرفة مختلفة وتعنى بها طوائف متفرقة من العلماء . فهي

(هـ)

فعل فسيولوجى من حيث أنها تدفع عدداً من أعضاء الجسم الإنسانى إلى العمل ؛
وهى فعل نفسانى من حيث أنها تستلزم نشاطاً إرادياً للعقل ، وهى فعل اجتماعى من
حيث أنها استجابة لحاجة الاتصال بين بنى الإنسان . ثم هى فى النهاية حقيقة تاريخية
لا مرأى فيها نثر عليها فى صور متباينة وفى عصور بعمدة الاختلاف على سطح
العمورة أجمع .

هذا هو الاتجاه الحديث الذى نرجو تخلصين أن يطبق على اللغة العربية تطبيقاً
صحيحاً ، وأن يأخذ به اللغويون العرب أنفسهم لترقى لغتنا إلى المستوى الذى نرجوه
لها . وأما الجزء الذى نود أن نناله لا صادفنا من عنت شديد فى تعريب هذا الكتاب
لكثرة ما فيه من مصطلحات لغوية لا عهد للعربية بها ، هذا الجزء يتمثل فى
أمنيتين :

الأولى : أن تتضمن الأفكار على اختلاف المعاهد والثقافات وتعاون فى هذه
السييل ليكون للدراسات اللغوية طابع قوى يخلق « الوعى اللغوى » فى الشرق .
الثانية : أن تنشأ جمعيات لغوية من التخصصين تعاون فى الدراسات اللغوية ؛
وآلا نعتد على الهيئات الرسمية وحدها فى مثل هذه الدراسات العلمية . ثم نرجو
أن تنشأ مجلة لغوية تكون مجالاً لإثارة المشكلات المختلفة وعرض الآراء والنظريات
الجديدة على نهج المجالات اللغوية فى أوروبا وأمريكا .

ديسمبر سنة ١٩٥٠ عبد الحميد الرواهلي محمد الفحاص

عضوا الجمعية اللغوية بباريس

تصدير

اللغة وأداة التفكير

قلنا في التصدير الذى قدمنا به لكتاب البشرية قبل التاريخ (L'Humanité Préhistorique) : « اليد واللغة : فيهما تنحصر البشرية : نعتقد أن أول ما ينبغي أن يراعى عنه الستار فى هذا المؤلف شيان ، وهما اللذان يفصلان بين نهاية التاريخ الحيوانى وبداية التاريخ البشرى . ونعنى بهما اختراع اليد — إذا جاز لنا هذا التعبير — واختراع اللغة ؛ وهذا هو التقدم الحاسم للمنطق العملى والمنطق العقلى^(١) . » وهنا يجب أن نذكر القارئ بأن الدعوى الأساسية التى نذهب إليها ، هى أن التاريخ منطقي فى جوهره ، وأن تفسيره العميق ينحصر فى ميل الكائن الحى إلى التثبت بكيانه والمضى فى رقيقته ؛ ولكننا لا نقدم دعوانا فى هذا المؤلف إلا على أنها فرض يحتاج إلى التحقيق ، ولا يتم إلا بالاعتراف بالعوامل الأخرى ودراستها ، تلك العوامل التى تلعب دورها فى التاريخ ، والتى تحمل التاريخ على ما هو عليه : أعنى شبكة معقدة غير متجانسة قد لا يرى فيها الناظر السطحى أو العالم النارق فى التفاصيل إلا مجموعة من الأحداث العارضة .

إبان المجلد السابق أهمية المنطق العملى : اليد ، تلك الأداة التى لا تبارى والتى مكنت للإنسان من استعمال العدة المادية التى تترجم عن التقدم النفسى وتسرع به على السواء ؛ والفرد هو الباعث الحقيقى لهذا التقدم الذى لا تستطيع البيئة إلا أن تدعو إليه وتثبته .

واللغة من ناحية أخرى تمد واحدة من أعجب الابتكارات التى أظهرها التطور الإنسانى ، فيجب الوقوف عندها ، وإطالة الوقوف : ما هو الدور الذى

(١) البصرية قبل التاريخ من ٦ من التصدير .

تلمبه على وجه الدقة ؟ ما هو النصيب الذى تقوم به فى التطور العقلى ؟ ما هى صلات الفرد بالجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وإكمالها ؟ هذه هى الأسئلة التى يجيب عنها المجلد الذى بين أيدينا .

* * *

الفرض الذى قصدنا إليه كان ممكن التحقيق بصور شتى . فلو أن هذا الكتاب كان من وضع عالم سيكولوجى أو مؤرخ يهوى الباحث اللغوية ، لكان من الممكن إلحاقه بالدعوى التى قدمها مشرع (L'Evolution de l'Humanité) « تطور البشرية » فى صورة أحكم وأظهر مما هو عليها . ولكنه عمل عالم لنوى ، وهذا العالم اللغوى يتعلق بالوقائع ويتحرز من النظريات : لقد أتاحت له الفرصة من قبل ^(١) ليعلم عن ذلك ، وها هو ذا يقول هنا أيضاً نفس القول . إنه إنما يقدم لنا ، ولا يريد أن يقدم لنا إلا دراسة فنية لتلك الآلة المعقدة المرنة ، ألا وهى اللغة فى تنوع أشكالها وتطوراتها التاريخية . وتتصل بالضرورة بهذه الدراسة للمسائل التى تثيرها اللغة وتسمى التاريخ التأليقي ، ولو أنها لا تبحث فيها عمداً لذاتها . لأن الأستاذ فنديريس Vendryes لا يريد أن يكون إلا عالماً لنوياً بحسب .

ونعتقد أن فى معاونة هذا الإخصائى لنا — وهو مع ذلك إخصائى واسع الأفق — خير ضمان لعم التاريخ كما نفهمه . فتجربتنا فى الأجزاء السابقة من سلسلة « تطور البشرية » قد برهنت على ضمان النجاح فى مثل هذه الظروف بأكثر مما لو كنا قد اخترنا مفكراً آخر معتنقاً نفس الدعوى التى تقدمها . ومع ذلك ينبغى لنا أن نناقش قليلاً الأفكار العامة التى يقدمها لنا كتاب الأستاذ فنديريس القيم ، وذلك من وجهة النظر التأليفية .

* * *

الأمر الذى اضطلع الأستاذ فندريس ببيانه ، والذى أبانه فى قوة وبراهينه
بيّنة تدعو إلى الإعجاب ، هو كيف أن اللغة نشأت من الحياة ، وكيف أن الحياة
راحت « تنمذها » بعد أن خلقتها .

إن الإدراك القديم ، الذى يقول بأن اللغة قد أنزلت على الناس عن طريق
معجزة أو أنها شيء خلقه الإنسان خلقاً صناعياً ، قد ترك آثاراً فى ذلك النوع
من علم اللغة الذى يعدها شيئاً سامياً مستقلاً ، ويضفى على قوانينها نوعاً من
الحتمية الكامنة ، لا على القوانين الصوتية أو قوانين النطق التى ترتبط بالأعضاء
فحسب ، بل على القوانين الصرفية أيضاً ، أى قوانين النحو ، وعلى القوانين
المعنوية ، أى قوانين المفردات . ولكن « من الباطل أن تعتبر اللغة كائناً
مثالياً يسير فى نظوره مستقلاً عن بنى الإنسان متجهاً نحو غايته الخاصة ^(١) » .
فالحقيقة أن اللغة على صلة وثيقة بالحياة النفسية ، وأنها منذ نشأتها سيكولوجية
فعمالة .

يعلم الأستاذ فندريس أن مشكلة أصل اللغة لا تدخل فى اختصاص العالم
اللغوى ، ولا يدلى فى هذا الموضوع إلا بإشارات يحوطها الحذر الشديد .
والواقع أنها مسألة سيكولوجية ؛ وأن أصل اللغة كأصل اليد تعوزه تماماً
الأدلة التاريخية . هذا فضلاً على أنه لم يكن هناك أصل بمعنى الكلمة لأنه لم
يوجد هناك خلق من العدم ، بل تحوّر — فى اتجاه إنسانى — لظاهرة وجدت
عند الحيوان . فاللغة بمعنى الكلمة الضيق ، اللغة السمعية — التى ليست إلا حالة
من موهبة إنتاج العلامات — موجودة عنده . ^(٢) فالحيوان يعبر عن حالاته
الانفعالية بأصوات ؛ وأغلب الظن أن اللغة خرجت من الصيغة التى تترجم
عن الانفعالات بطريقة فجائية . ولعل الانطباعات المهادنة والمواطف المعتدلة هى

(١) فندريس : الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب .

وكوتيرا « Conturat » : مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية عدد فبراير ١٩١٢ ؛

ص ٥٤ ، وعدد مايو ١٩١٣ ، ص ١٤٠ .

(٢) ريبو « Ribot » : تطور الآراء العامة ، ص ٦٦ .

التي — كما أشار البعض ^(١) — تنتج الأصوات الملوقة ، أما الصياح فيقابل الانفعالات المتينة . ولكن لابد أن اللغة كانت انفعالية في مبدأ الأمر ، وقد بقيت إلى حد كبير انفعالية مرتبطة بالفرد وبما هو من نصيب الفرد : وهذا كله يبينه الأستاذ قنديل بحجج لا تنازع في صفحات بارعة نقادة ، فهو يشير إلى اللغة الانفعالية عند الطفل ويبين أنها نقطة البدء ، ويشير في لغة الكلام إلى الفجائية التي تكسو التعبير عن الفكر « وتلونه » وتجعل النحو غير مستقر . ^(٢) ولا بد أن اللغة الفاعلية أخذت تختلط منذ زمن مبكر باللغة الانفعالية ، وذلك عند ما كفت الصيحة عن أن تكون ترجمة لحالة شعورية لتصبح وسيلة للمعمل أو النداء أو الرجاء أو الأمر . ^(٣)

وهذه مرحلة هامة في تطور اللغة وقد لعبت الحاجة إلى الاحتفاظ بالوجود أو إلى توسيع نطاق هذا الوجود بالتعاون مع الآخرين أو باستخدام الآخرين دوراً جوهرياً في هذا السيل . « الكائن الحي معنى دائماً بالاحتفاظ بحياته وبوقاية نفسه من التأثيرات الضارة وبعدم سلطانه على ما يحيط به من كائنات » وبير جانيه (Pierre Janet) الذي أوضح هذه الصفة من صفات الحدث ، التي يصح أن نسميها « العلية الفاعلة » (L' Efficience) يعد اللغة صورة من صور النشاط مسببة فاعلة ، ويعتبر أن « سلوك الشخص الذي يتكلم وسلوك الشخص الذي يخاطب مستهدان من حدثي الأمر والطاعة الموجودين من قبل عند

(١) كرنيجو « Cornejo » : علم الاجتماع العام ، ج ١ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) انظر الفصل الرابع من الجزء الثاني من هذا الكتاب ، وقد سجل أوجست كونت « Auguste Comte » ملاحظات قيمة عن تكون اللغة ودور المواطن قبل أن تصير اللغة عقلية . انظر أوجست جورج : « بحث في النظام السيكلوجي عند أوجست كونت » : Auguste Georges : « Essai sur le système Psychologique

« d' Auguste Comte. » ٥٢ .

(٣) انظر كرنيجو المرجع السابق ، ٢٣ .

الحَيوان « (١) فالكلام والإشارة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في بادئ الأمر ولكن اللفة السمية تنمو وتتطور بفضل تفوقها من الناحية العملية (٢) ؛ وإذا كان الكلام الخارجي ينتج الحدث الخارجي فإن الكلام الداخلي يتحقق في الإرادة ويكشف عن نفسه في الاعتقاد والرغبة . فهو لا يزداد إلا لصوقاً بجميع النشاط الإنساني .

وقد تمت آخر خطوة من خطوات التقدم الذي حققته اللغة الإنسانية في الواقع عند ما اعترف للصوت بصفة العلامة ، وذلك حينما أتيح للفجائية التي خلقت العلامة المفيدة أن تُستكمل بانضمام الإرادة إليها ؛ تلك الإرادة التي تستخدم العلامة . وهذا التقدم ، وهو تقدم عملي من حيث أصله ويخدم غايات الحياة بطريق مباشر ، قد أفاد ثراء نفسانياً غير محدد (٣) . ولا شك أنه يجب أن تكون الذاكرة قد وصلت إلى درجة من التطور لتتمكن من فصل الصوت عن الخاطر الذي كانت تصحبه مبدئياً ، ولا بد من وجود شعور حاد اليقظة لتحقيق رابطة العلامة بالشيء الذي تشير إليه (فالأشياء في ذاتها لا تشير إلى شيء) : ولكن الشعور يقوى ويمرن بدرجة عميقة إذا كانت لديه رموز تعمل على تثبيت صور الأشياء . فاستعمال الرمز يعين الإنسان على سهولة التصور لا سيما أنه عند ما ينتقله إلى ذهن آخر فإنما ينتقله إليه مستقلاً عن الانطباع المباشر . وهذا الذكاء الناشئ يجعل من اللغة شيئاً فشيئاً آتته الخاصة وأداة التفكير ، وبذلك يسمح للتفكير أن يعمل دون ضلة مباشرة بوظيفة ما هو

(١) أنظر : P. Janet : « La Tension Psychologique, ses-degrés et ses oscillations . » وهي محاضرات أُلقيت في لندن ونشرت في : The British Journal of Psychology أكتوبر ١٩٢٠ ويناير ١٩٢١ .

(٢) أنظر ريبو المرجع سالف الذكر ، ص ٦٢ .

(٣) عن ضيق حدود الإدراكات عند ارتباطها بحركة اليدين ، أنظر هنري ولون Henri Wallon في البحث : « La conscience et la conscience de moi » المنشور في مجلة علم النفس ، عدد يناير ١٩٢١ ص ٦١ .

واقِع^(١) . فالكلمة بقيمتها التصويرية وقدرتها على الإيهام ، لها نفس الزايا التي للورق النقدى ، ولكنها مخوفة مثله بالأخطار بمعنى أنها إن كانت خالية من الحقيقية صارت مجرد « أنفاس صوتية » (Flatus vocis) أى خيالاً باطلاً^(٢) .

فاللغة وقد خلقتها الحياة والحاجة والرغبة ، تقوم فى بادىء أمرها على نظام التأليف « Synthèse » . ويبين لنا الأستاذ فندريس أن التفكير وهو غريب عن التصنيفات النحوية يبدأ وهو فى حالة توهجه بالانصباب فى قالب اللغة . فالصورة الكلامية أو الكلمة الصوتية لها نفس القيمة التى للجملة ، وذلك لأن اللغة فى أصلها حدث : ففيها تنشأ الأسماء التى تمثل الأشياء وصفاتها ، والأسماء التى تمثل الأحوال والأدوات النحوية التى تشير إلى الروابط . فالجملة قد سبقت الكلمة النحوية ، والكلمة قد سبقت المقطع .

واللغة تظل خاضعة للحياة « فى تطورها الذى لا ينتهى إلى حد » . ولاشئ أكثر إمتاعاً من أن نلاحظ مع الأستاذ فندريس تنوع الوسائل ، وأحياناً كثيرة خرق تلك الوسائل التى تترجم عن العلاقات التى تلتقط فى الحياة الواقعية ، وعدم ثبات المفردات الذى يصل إلى حد التطرف ، وتلك الخاصة التى تجعل اللغة تتفرق دون توقف وتنمو دون حد عند جميع أولئك الذين يتكلمونها فى التعبير عن حياتهم الخاصة بكل ما فيها من شخصى بحث . واللغة المكتوبة — حتى لغات كبار الكتاب الذين يبدون كأنهم يثبتون هذه الأداة بما يخلعون عليها من كمال — لا تستطيع أن تقف الحياة ، « فقرة الحياة التى لا تُقهر ، تغلب على القواعد وتحطم قيود التقاليد » . الكلمات لا يحيا برغم كل ما يقال : بل إن العقل هو الذى يحيا ويغير معناها ، كما أن حياة العقل هى التى تغير أسماء الأشياء وتجدها . « فليس من الباطل إذن أن يقال بأنه يوجد من اللغات

(١) العبارة لجانيه ؟ وانظر ملاحظة ل . ديوى فى مجلة علم النفس ، عدد يناير ١٩٢١ :

« La memoire des noms propres et la fonction du réel »

(٢) أنظر ريبو ، المرجع سالف الذكر ، صفحة ١٢٥ . وانظر ماسيان فى هذا

التصدير .

قدر ما يوجد من الأفراد » .

* * *

ومن ثم معنى الأستاذ فندريس بلفت النظر إلى ما في اللغة من صفة العرضية . ولكن كمال تمكنه من موضوعه وحسه الحاد بالحقيقة الواقعية يمنحانه من أن يحيد عن وجهة النظر الأخرى التي تلزم الباحث الناظر . « فهناك من اللغات قدر ما هناك من أفراد » : ومع ذلك فهناك اللغات ، اللغات المشتركة واللغات الخاصة ، وهناك اللغة « إذ يقوم اتجاه آخر يعمل على البوam على مناهضة التفريق ، ألا وهو الاتجاه إلى التوحيد الذي يعيد التوازن » . فعمل اللغة يمكنه إذن من أن يجد أمامه حالات من الاطراد ، من العموم على درجات متفاوتة .

هذه الاطرادات يعتبرها الأستاذ فندريس من محض صنع المجتمع ، وإذا كان يرتاب في النظريات ، وإذا كان نصيب التعميم في كتابه يعمد إليه في حذر ، فإننا نحس بعظيم ركونه إلى السيولوجيا ؛ إلى ذلك النوع من السيولوجيا الذي اعترفنا نحن أيضاً بمجدواه وكشفنا عن مزاياه ^(١) — وأنه يميل إلى أن يشبع بالعنصر « الاجتماعي » تلك الحاجة إلى التفسير التي تبسود عنده في كثير من المواضيع ، وإن كان ذلك في صورة مكتوبة نوعاً ما . وهو باهتمامه بهذا العنصر يتفق مع بعض علماء اللغة — ومنهم أستاذ كبير — أولئك الذين وإن لم ينضموا إيجابياً إلى مدرسة دركهيم « Durkheim » فإنهم قد تأثروا بجاذبية هذا العقل اللطيف الجبار ^(٢) . وإذا كان « من القول المباد أن تؤكد أن الإنسان كائن اجتماعي قبل كل شيء » فإنه يجدر بنا تحديد ما يخلع عليه ذاتياً هذا الطابع ، ويجب أن يميز فيه ما هو اجتماعي خالص وما هو جماعي وما هو إنساني . والأستاذ

(١) أنظر La synthèse dans l' Histoire ، ص ١٢٤ — ١٢٧ .

(٢) ظل الأستاذ ميه يقوم بتحرير الفصل الخامس باللغة في مجلة : L' année sociologique ابتداء من المجلد الخامس (١٩٠٢) .

فندريس لا يعنى بتحرير هذه العناصر ^(١) . ولكن يمكننا مع ذلك أن نجد في مؤلفه التصحيحات والتحفظات التي أملاها عليه ميله السبيلولوجي : ذلك لأن الخبرة والمباشرة للحقائق اللغوية أقوى عنده من كل حماس نظري .

* * *

وفي رأينا أنه يجب الالتفات إلى التفرقة الآتية أولاً وقبل كل شيء .
إن المجتمع ، من جهة كونه مجتمعاً ، له حياته الخاصة التي تشمل حياة الأفراد وتتجاوزها وتكسبها ثراء : فحاجاته المينة تملن عن نفسها بأوضاع ضرورية يتضمن فيها الأفراد وإن اختلفوا فيما بينهم . فالجماعة والأمة ، لها طابعها الخاص الذي يطبع الأفراد بوجوه مقررّة من التشابه ^(٢) . طابع الأمة — ومن باب أولى السمات الخاصة بوحدة من تلك الجماعات الثانوية التي تتمتع بحظ ما من الدوام والتي توجد داخل الأمة — ينعكس على اللغة (سواء أكانت لغات مشتركة أم لهجات أم لغات خاصة) ؛ وذلك بأن تدخل فيها أعراضاً من أنواع شتى لا صلة بينها وبين « التكون الاجتماعي » أو « التفتت الاجتماعي » . ولقد استطننا أن نقول بأن اللغة « موطن الفكر » والموطن شيء آخر غير المجتمع .
الأستاذ فندريس الذي ينتقد بحق إقحام فكرة الجنس في علم اللغة ينتقد أيضاً فكرة العقلية الجنسية . ومنع ذلك فإنه يعترف بوجود صلة بين عقلية الشعب ولغته . ويمكننا أن نتصور علماً لسيكولوجية الشعوب يقوم على اختبار التغيرات المعنوية المختلفة التي تشاهد في اللغات التي يتكلمونها . وقد تكون هذه الدراسة شاقة ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء .

(١) كذلك في كتاب فردينان دي سوسير Cours de : F. de Saussure « linguistique générale » الذي نشر بعد وفاته ، لا نجد المؤلف يفرق بوضوح بين عبارات « القوى الاجتماعية » و « السيكولوجية الجماعية » و « العوامل التاريخية » التي تقوم عليها اللغة . انظر خاصة صفحات : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ .
(٢) عن صورة هذه الأمراض ، انظر • La Synthèse en Histoire • ص ٦٩ وما يليها .

الواقع أن هناك ثلاث تجريدية ولفات تشخيصية تقابل عقليات جنسية متعارضة . ومن أشد ما يستعري النظر في هذا الصدد ملاحظات الأستاذ م . جرانيه M. M. Granet عن « بعض خصائص اللغة والتفكير الصينيين » التي نشرتها المجلة الفلسفية^(١) وفيها بين « أن دراسة المفردات تكشف عن طابع التصورات الصينية السرف في التشخيص » . « الكلمات في جلتها تدل على أفكار فردية وتعبّر عن حالات منظور إليها من وجهة نظر خاصة كل المخصوص ، هذه المفردات لا تعبّر عن حاجات تفكير من دأبه أن يصنّف ويجرّد ويعمّم ، تفكير يريد أن يعمل في مادة واضحة متميزة ومعدة لتطبيق نظام منطقي عليها ، بل على العكس من ذلك تعبّر عن حاجة ملحّة إلى التفصيل والتخصيص ، وإلى ما هو معجب ... يبدو أن كلمات اللغة الصينية كما تلوح لنا وكما يشرحها الصينيون أنفسهم ، تقابل صوراً إدراكية Concepts images مرتبطة ، من جهة بالأصوات التي كأنها مزودة بالقدرة على إثارة التفاصيل المميزة للصورة ومن جهة أخرى بالكتابة المثلة للإشارة التي تسجلها الذاكرة المحركة كأنها أمر جوهري » .

هذا العامل السيكولوجي الجنسي ليس العامل الوحيد الذي له أثر عام في تشكيل اللغة « التطور اللغوي يعتمد اعتماداً وثيقاً على الظروف التاريخية » . فهو يعتمد على السكن ، ويعتمد على نوع الحياة ، ويعتمد على تشابك حياة الشعوب^(٢) . ولكن لا يتحتم كما رأينا أن ترجع السمات التي تميز مجموعة من المجموعات أو وطناً من الأوطان بأسره إلى أصل اجتماعي . فكلمة « تاريخية » هنا هي الكلمة الخفية .

ومن بين الآثار التي تلتقاها المفردات وتسجلها بوصفها جهازاً حساساً أثر المسائل الاجتماعية بمعناها الحقيقي . وقد قدم لنا الأستاذ ميه أدلة بارعة في هذه الناحية : « يرجع الجزء الأكبر من تغيرات المعنى إلى توزيع التكلمين في طبقات اجتماعية مختلفة وإلى انتقال الكلمات من مجموعة اجتماعية إلى أخرى »^(٣) . ولكن

(١) يناير — فبراير ومارس — أبريل عام ١٩٢٠ .

(٢) من ٤١٤ و ٣٣٠ وقارن كرينيجو Cornejo للمرجع السالف الذكر من ٦٦ .

(٣) L'année sociologique ، مجلد ١١ من ٧٩١ ؛ وانظر في هذه النقطة أيضاً

نفس المرجع ، مجلد ٥ من ٦٠٠ ومجلد ٧ من ٦٧٦ ومجلد ٨ من ٦٤٣ ومجلد ٩ من ١٥

وما يليها ومجلد ١٢ من ٨٥٠ .

أيكنى هذا القدر الذى تمكسه اللغة من « الظروف الاجتماعية » لحياة الشعوب — وكذلك الحال بالنسبة للظروف التاريخية — لنقول بأن اللغة اجتماعية ؟ نحن لا ننظن ذلك .

لا تكون اللغة اجتماعية حقاً في نظرنا إلا إذا كانت من خلق المجتمع ، وإلا إذا كانت نظاماً ملتصقاً بالمجتمع . يقول الأستاذ فندريس : « في أحضان المجتمع تكونت اللغة ... فاللغة وهى الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعاني ، تنتج من الاحتكاكات الاجتماعية ؛ هذه هى أمّ المسائل : فما نصيب المجتمع ، بوصفه مجتمعا في تكوين اللغة وتقدمها ؟

يعترف الأستاذ فندريس بأن في تكوين اللغة عملية سيكولوجية « في نقطة البدء » وأنه « لم يأت لثلاثين بشريين أن يخلقوا لغة فيما بينهما إلا إذا كانا مهيبين مقدما لهذا العمل » ، يقول إن اللغة تنشب جذورها في أقصى أعماق الشعور الفردى ؛ ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاه بنى الإنسان . وإذن فإن كان يريد بهذا الاهتمام بأثر المجتمع الذى يندبه في كثير من الفقرات ، أنه يبين لحسب مقدار المعونة التى لقيتها المنظمة الاجتماعية في تلك الوسيلة للتفاهم بين البشر ، وكيف أدى التوفيق بين المواهب الإنسانية والحاجات الاجتماعية إلى تقدم المجتمع واللغة على السواء ، إذا كان ذلك ما يرمى إليه ، فإنه لا يسمنا إلا أن نتفق معه .

الواقع أن المجتمع استعمل اللغة . وقد استعمل شيئا من الضنط — ولا نقول من القسر^(١) — في سبيل جعلها مناسبة من الوجهة العملية وفي سبيل استكمالها . بل لقد ساعد بشئ الطرق على جعلها من مؤسساته : إذ يجب علينا أن نميز بين المؤسسات الرئيسية والمؤسسات الثانوية^(٢) ولكننا نرى أن اللغة في الأصل عامل

(١) أظن مثلا ما يقول الأستاذ موس Mauss في مجلة « L'Année sociol. » مجلد ٤ من ١٤١ من أن « اللغة إلزامية لجميع الأفراد الذين تتكون منهم جماعة ، فيمكن القول بأنها توجد خارج الأفراد » . وما يقوله الأستاذ ميه في مجلد ٩ من ٢ من أن خصائص المروج عن الفرد والقدرة على السكبت التى يحدد بها دركهم الحقيقة الاجتماعية . . . تدل عليها اللغة أوضح دلالة » .

(٢) أظن La synthèse en Histoire من ١٣٣ .

من عوامل المجتمع وليست من منتجاته . فاللغة ومعها اليد قد مكنت للمجتمع التوسع الذى هو عليه الآن وأن ما فيه من الترابط يبلغ من درجات الإحكام قدر ما يبلغ فيه التخالف من عظم ، وهذا التخالف نفسه تساعد عليه اللغة كما تساعد عليه اليد .

ولكن الأستاذ فندريس لا يحمل دور المجتمع مقصورا على الإثارة . فبعد أن يقول : « لا وجود للغة خارج من يفكرون ومن يتكلمون . ففى تنشب جذورها فى أقصى أعماق الشعور الفردى ، لا يلبث أن يقول : « ولكن الشعور الفردى ليس إلا عنصراً من عناصر الشعور الجماعى الذى يفرض قانونه على كل فرد » فيؤخذ من كثير من قراءه أن اللغة بوصفها أداة الفكر وآلة العقل من خلق المجتمع حقاً . « يعزو إميل دركهيم وجود الكليات إلى نوع من الضرورة تعرف بالنسبة للحياة العقلية موقف الالتزام الأخلاقى من الإرادة : يعنى أن الكليات اجتماعية الأصل وتتوقف على المجتمع » فالأستاذ فندريس يقبل هذه الفكرة من أفكار المدرسة الدركهيمية التى يوضحها الأستاذ لىفى بريل Lévy - Bruhl فى كتابه : (Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures) « الوظائف العقلية فى الجماعات البدائية » . فيها نحن أولاء فى صميم مسألة ذات أهمية جوهرية بالنسبة للتفسير التاريخى ، وهى دور المجتمع فى تكوين المنطق .

* * *

نحن نرى من جانبنا أن الفكر يستمر بالحياة ؛ وأن التفكير العملى وهو شعورى إلى حد ما ، يسبق التفكير النظرى ، وأن اللغة ، وهى التى تدعم التفكير العملى وتسمح وحدها بتقدم التفكير النظرى ، تعبر أساساً عن الطبيعة البشرية . فالإنسان بوصفه إنساناً هو خالق المنطق العقلى والمنطق العملى . فاللغة والتفكير ، وكلاهما مرتبطان بالآخر تمام الارتباط ، إنما يترجمان عنه حين يَنْصَفُ الأشياء ويقرر ما بينها من روابط . ولا يمكن أن يكون المجتمع هو الذى خلق الكليات المنطقية (Catégories logiques) : فالمجتمع له حاجاته ولكنه لا يفكر إذا كان فى اللغة اطرادات ذات أهمية مختلفة عن أهمية الاطرادات التى تنشأ عن الرواية وعن

الظروف المحيطة وعن المحاكاة ؛ فإنها ترجع إلى الوحدة الأساسية التي تتصف بها الحياة التصورية عند جميع البشر^(١).

تكلمنا في التصدير الذي قدمنا به للمجلد الثاني عن نصيب اليد في التطور النفساني ، فالتقدم التدريجي في استعمال اليد استعمالاً ينطوي على الذكاء يقابل تقدماً مثله في التكوين النفساني وفي درجة الوضوح الداخلي . لم تساعد اليد باختلاف عملها على تيسير التعاون بين أفراد البشر فحسب : بل ساهمت بقسط وافر في معرفة العالم الخارجي . لأن المعرفة العملية المحضة المؤسسة على المنفعة والتي هي وليدة الميل ماصرة للحياة ، والهيئة ما هي إلا المعرفة . وهناك معرفة الواقع الجسم في كل تكوين عضوي ، وهناك ميكانيكا وفيزيكا بالفعل في كل ممارسة للجهود العضلية « قانون السببية قبل أن يدرك كان يحس به شيئاً فشيئاً ، وذلك باتساع نطاق النشاط الإنساني في عالم يحكمه هذا القانون ويكون الإنسان جزءاً منه ، مكلاً له » .

ولكن التفكير النفساني وصورة العليا ، كل ذلك مرتبط باللغة وكلمة *lógos* تطلق عند الإغريق ، كما لاحظ كورنو Gournot على اللغة وعلى العقل على السواء . فاللغة ابتكار مزدوج الأثر : إذ هي أداة للاتصال ، وأداة للتسجيل تعمل بواسطة التجريد والتعميم على تثبيت المعرفة في الإدراكات وتسمح لها بتطور لاحد له .

وليس معنى ذلك أن موهبة التجريد والتعميم لاتستيقظ إلا مع اللغة ؛ فبدون اللغة يقوم الانتباه والذاكرة بدورها تحت تأثير الميل . والإنسان الفطري (الخام) *Homō alalus* كالحَيوان يستخلص إدراكات شتى من الأحاسيس المختلطة التي لا تحصى . وهذه الإدراكات تنتج عن نوعها من الاختيار « فالذي يكون له أهمية عملية » من بين هذه الإحساسات « هو الذي يُنحَصُّ بالعناية »^(٢) وهو الذي يستثير الانتباه . هذا إلى أن الذاكرة تنمي الانطباعات التي تستقبلها بتلك

(١) أظنر الحواطر القبية التي نشرها د . بارودي D. Parodi في مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية فبراير ومارس عام ١٩١٤ صفحة ٩٠ — ٩١ .

(٢) إبنجهاوس Précis de Psychologie : Ebbinghaus ص ١٥٩ ؛ وفارن ريبو في المزجج السالف الذكر ص ٩ .

التصورات التي تستقيها من الاختبارات السابقة . وبذلك تنفصل من الأشياء بعض السمات البارزة ، تلك السمات المشتركة بين مجموعة من الأشياء ^(١) . وفي هذه الحياة التصويرية الأولى تلك الحياة الفردية الخاصة للمصلحة ، تتكون بعض الصور النوعية وتصير آلات عملية كآلات المادية تماماً ، آلات تعمل على جعل الأشياء ملكاً للشعور ومسودة له — وهي النواة المتواضعة للمعرفة النظرية .

اللغة ، وهي في مبدأ أمرها انفعالية وفاعلة ثم تأليفية ، كلما تنوعت لتقوى على تمييز الأشياء والصفات والحالات . وكلما زادت مرونة بالتعبير عن علاقات العالم الواقعي المتنوعة أشد التنوع بكلمات قد جردت من معناها الحقيقي لتتخذ قيمة الأدوات النحوية ، تلك القيمة التجريدية العامة ، تقول كلما تقدمت اللغة في هذا المضمار ، صارت قوة لا تبارى ؛ وأمكنها أن تدير الملكة التي تميز الشبيه من المخالف ، والتي من بعد ذلك تجرد وتعمم ، تلك الملكة اللاصقة بالحياة لصوق الحاسة التي تميز بها رائحة الطيب من الخبيث ، واللغة على هذا النحو تمكننا من « الاستيلاء على الأشياء استيلاءً أنقذ وأشمل من ذي قبل » .

الإنسان لم يكن « الإنسان المفكر » (Homo sapiens) لأنه « الإنسان المائل » (Homo faber) فحسب ، بل أكثر من ذلك لأنه « الإنسان الناطق » (Homo loquens) ويظهر أن تطور اللغة كان يقتضي عن كسب أثر تطورات الآلات المصنوعة . ويرى الأستاذ بول M. Boule أن « الإنسان الهيدلبرجي » (Homo heidelbergensis) كان الحلقة الوسطى بين الإنسان الذي يتكلم والحیوانات التي تصيح ، أما « الإنسان النيندرتالي » Homo neanderthalensis فيظهر أنه كان يملك مبادئ فكرية من اللغة المفوطة ^(٢) . ولكننا لسنا في حاجة إلى القول بأن الانتقال من الصورة النوعية إلى الإدراك المحض كان متناهيًا في البطء فالكلمة في بادئ الأمر كانت « ضئيلة الشأن » ثم

(١) أحدث ما أخرج في سيكولوجية الإنثيا يبرز دور الميائل العامة أو الصور المخملخة التي تميز بخصائصها الفردية البحتة وبعدم قابليتها للتألف أصلاً . أنظر ريفودلون Revault d' Allonnes في مجلة « الصور العليا للانتباه » في مجلة علم النفس من ٢٣٢ .

(٢) بول ، Les Hommes Fossiles : Boule من ١٥٤ و ٢٣٧ .

ازدقت بالتجريد حتى صار ينطوى تحتها أعم الخصائص وأخفاها على المعرفة وهي التي ثبتت أكثر الأفكار عمراً « بالمعرفة التي بالقوة » من المدد والمكان والزمان والسبب والقانون والتنوع . « تنتقل الكلمة من العدم إلى السيادة المطلقة ، والشخص ينتقل من الكينونة الكاملة إلى العدم ^(١) » .

ومما لا يحتاج إلى تقرير أيضاً أن دور المجتمع هنا كان حاسماً ، وإن لم يكن مباشراً . والكلام قد مكن للدراك من أن ينتقل من دماغ إلى آخر : والمجتمع يجذب وينشط تعاون الأفرام ، أو (التمويل) العقلي . ولكن إذا كان هذا التعاون المنطقي مما ينتج في المجتمع فإنه ليس ظاهرة اجتماعية . بل على العكس من ذلك يجب أن نقرر أن الكلام بتسخيره للذكاء ، الفردي في خدمة المجتمع ، يزيد في شعور المجتمع شعوراً واضحاً بحاجاته النوعية ، ويسمح له بأن يتطور تطوراً معقولاً .

والقدرة على التجريد والتعميم التي هي من خصائص الإنسان والتي تفتح في العقل ، ليست عند جميع البشر على السواء . المخترعون « أولئك الذين يولدون بموهبة التجريد أو عبقرية التجريد » ^(٢) والقدرة على التجريد التي كانت عند المخترعين عملية محضة في بادئ أمرها تصبح نظرية على التدرج بمساعدة الذخيرة المتجمعة والممارسة الفجائية ولعب الملكات العقلية . وذلك دون أن تحتج الحاجة الأولى ، أي المصلحة . لا نريد بذلك أن نقول إن هناك نشاطاً عملياً يبقى ، ويصل أحياناً إلى درجة لا نظير لها من الأهمية والسطوع فحسب ^(٣) بل إن أشد أنواع النشاط إينالاً في الناحية التأملية يتجه في نهاية الأمر — بناء على المبدأ الذي بنينا عليه رأينا — في أغراضه الخفية وفي غايته القصوى ، نحو التسلسل على الأشياء ، ونحو تحرير العقل ، نحوقة الإنسانية العليا . فالعلم « أداة حيوية » حتى في أبعد صورة من الوجهة العملية من حيث الظاهر ، ولا سيما في هذه الصورة . « إذا كان الإنسان يسجل له في كل يوم انتصاراً

(١) ريبو : المرجع السالف الذكر ، صفحات ١٠٠ و ١١٦ و ١٤٨ .

(٢) ريبو : المرجع السالف الذكر ص ٢٤٦ .

(٣) أنظر ل . Le rythme du Progrès : L. Weber فيير

جديداً على الطبيعة ، بينما يستأنف الحيوان في كل يوم جهاده القاصر ضدها دون نتيجة حاسمة ، فذلك لأن الإنسان يعرف في بعض الأحيان كيف ينظر إلى العالم منزهاً عن الفرض ؛ أما الحيوان ، ذو الروح السرف في الناحية العملية فإنه عبد إدراكه الذي يحمله دائماً على القيام تقريباً بعمل واحد آلى بعينه . فالبحث عن الحقيقة المنزهة عن الفرض هو آكد الوسائل للوصول إلى المنفعة^(١) .

أما عن الدور الذي قامت به الكتابة والطباعة في سبيل البحث عن الحقيقة — وهما كما هي الحال في اللغة ، خليط من اختراعات عديدة قد حوكت وتنوقت وطبعت بالطابع الاجتماعي — فذلك ما ستكشف عنه المجلدات التالية . فالكتابة قد خلقت أشياء متكلمة ، والطباعة أكرثت من غدها إلى غير ما حدّ وخلدتها . وهكذا أمكن للفكر أن ينتصر على المكان والزمان والموت^(٢) ولكن كثيراً ما ينتهي التفكير المجرد إلى سراب وإلى الاعتماد عن الجادة . فالفكر في هذه الحال يحول في « عالم غير مخلوق يرجع إلى عهد الإنسان البدائي » . عالم الأفكار ، الذي هو أيضاً عالم الألفاظ . واللفظ مع ماله من مزايا لا يخلو من أضرار . إذ لما كان مصدره من الأشياء — من حيث البدأ — وكان يمثل الأشياء^(٣) ظن الإنسان بطبيعة الحال أن كل كلمة تقابلها حقيقة واقعية : ومن هنا نشأ الاعتقاد في الأسنام وفي جوهر الأشياء المحقق عملياً . ولما كانت بعض الألفاظ تحدث آثاراً معينة ، كان من الطبيعي أن يظن بأن كل كلمة لها هذه الصفة . « فالشخص الذي يدعو إليه صاحباً له موجوداً على بعد منه ، ويراها يهرول ملياً نداءه ، يسخر في ذلك قوة تختلف اختلافاً واضحاً عن القوى المادية ، عن القوة

(١) أنظر د . رستان La science comme instrument : D. Roustan vital ، في La Revue de Mét. et de Mor. سنة ١٩١٤ صفحة ٦١٢ — ٦٤٣ .

(٢) أنظر كورتو : Essai sur les fondements de nos connaissances من ٣١٧ ولا كمب La combe : L' Histoire . considérée comme Science ، صفحة ١٩٧ وما يليها ؛ و د . ماجوسكي D. Majewski : La science et la civilisation ، من ٢٤٢ .

(٣) بل يبدو أنه يحفظ بعض من حقيقة هذا الشيء ؛ ومن ثم نشأت حوله بعض الأعمال السحرية — أنظر فيبير في المرجع السالف الذكر من ٩٢ ، وفي مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية من ٧٤ — ٧٥ ، ريبو المرجع السالف الذكر من ٨ — ١٠ .

الناجمة عن سلاح الطعن أو سلاح الرمي ، لا شك أن هناك نصيباً من الحقيقة في هذه الفكرة التي يقول بها الأستاذ ل . فيبير من أن ممارسة اللغة قد ساهمت في استخراج معنى للسبب الفاعل يختلف عن ذلك الذي ينتج عن ممارسة الفنون المادية .

هذه العقليّة التي تستخدم الكلمات استخداماً تحكيمياً أطلق عليها اسم العقليّة « قبل المنطقية » وقيل إنها من أصل اجتماعي خالص^(١) . ويبدو لنا أنها آتية في الواقع من حياة الفرد الانفعالية ، ولكن الذي يستقيها ويساعدها على التطور إنما هي الحياة الاجتماعية التي هي حياة انفعالية في أصلها إلى حد كبير والتي تخلق ، بتقويتها لحالات الفرد الانفعالية ، نوعاً من الوسط النبوي لا يتطرق إليه الاختبار ، إن قليلاً وإن كثيراً . ففي المجتمع تنمو التصنيفات وترداد قوة ، وليست التصنيفات قبل المنطقية هي التي نمنها هنا ، بل التصنيفات الغريبة على المنطق التي يوجددها « الفن الكلامي » إلى جانب الفنون المادية . والسلطة الاجتماعية التي تقوم مقام رقابة الواقع الخارجي بتأسيسها للتفكير تشل العقل إن قليلاً وإن كثيراً ، وبعد أن يتحرر العقل ويشد في وقت ما يظل زمناً طويلاً يحتفظ بدرجة مسرفة من الثقة في بعض الأسس الخداعة وفي سراب الألفاظ^(٢) .

يجب أن تظل الإدراكات منطقية على الحقيقة الواقعة حتى يستطيع العقل أن يشتغل بالكلمات بطريقة مجدية . فالمثل الأعلى في كل صورة يتولد من اللغة ، ولكن هناك من المثل العليا ما هو فارغ أجوف . وبعضى الزمن يصل العقل في كفاحه المنطقي ، إلى تشبيه الأشياء بالمقول وبالتالي إلى تشبيه المقول بعضها ببعض . ولعل المجتمع النهائي سيقوم على وحدة المقول ، ويمكننا أن نقول بأن العلم لم يؤد من خدمات اجتماعية بقدر ما أدى منذ أن تحرر من كل سلطة اجتماعية بل من كل نظام اجتماعي ليصير موضوعياً محضاً ، أي ليصير في نفس الوقت

(١) أنظر لوسيان ليفي بربل L. Lévy-Bruhl المرجع السالف الذكر . جرائبه :
القالات سالفه الذكر ، مارس ، أبريل ١٩٢٠ ، ١٨٧ ، La synthèse en Histoire
ص ١٩٥ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٨ - ٢٦٣ ؛ فيبير وريبو وجانيه في المراجع السالفه الذكر .

فردياً وعاماً لا اجتماعياً ، لأن هذين أمران مختلفان كل الاختلاف .

قامت حول المنطق ، وحول تقدم اللغة ، مناقشات حارة في سنتي ١٩١٢ ، ١٩١٣ في الجمعية الفلسفية الفرنسية ، وقد ساهم فيها الأستاذ فندريس .. وكان الباعث عليها وأساسها تلك الأعمال المتممة الثيرة التي قام بها المأسوف على حياته لويس كوتيرا في اقتناع يقوم على التفكير العميق . عمل كوتيرا على أن يخرج للوجود لغة دولية تفرض نفسها على جميع الشعوب وجميع المقول بمملها على تحقيق الاتجاهات العميقة التي يتجهها التطور اللغوي . والواقع أنه كان يمتد أن التفكير الإنساني واللغة يرتبطان أحدهما بالآخر بمرى وثيقة ، وقد كان يجمع إلى تبجهر 'العظيم في مسائل المنطق اطلاقاً دقيقاً على المسائل اللغوية ، فراح يبين أن بعض « الحدود أو الفصائل » الأساسية يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة لجميع اللغات الإنسانية ، معتمداً في ذلك على دراسات الأستاذ مييه Meillet أكثر اللغويين اصطفاً بالفلسفة . تلك الدراسات البارعة في سعة المعرفة وخطورة النتائج . فمنده أن هناك نحواً عاماً (*grammaire générale*) لأن هناك عقلاً إنسانياً « الإنسان ليس له عقل لأنه حيوان اجتماعي أو سياسي » كما يقول أرسطو ، بل إنه حيوان اجتماعي لأن له عقلاً ^(١) .

* * *

فلنحدد موقف الأستاذ فندريس في المناقشات الدائرة حول الفصائل لنرى كيف تستقيم ، في هذه النقطة سسيولوجيته البادية ، وتقلص بسبب الحقائق المكتشفة — كما وقع لدركهيم Durkheim نفسه في كتيبه الممنعة في التقرير ، واللفي بريل ^(٢) . « فتصور عقل إنساني ذي قوانين ثابتة لا تتغير ومماثل تمام التماثل

(١) أنظر كوتيرا : *La logique et La philosophie contemporaine* : La Revue de Mét. et de. Mor. ، مايو ١٩٠٩ ، وعن البنية المنطقية أنظر نفس المرجع يناير ١٩١٢ . وفارن ما في مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، فبراير ١٩١٢ ، ومايو ١٩١٣ . وأنظر لالاند L'oeuvre de Louis Couturat : Lalande في المجلة السابقة ، عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ .

(٢) أنظر *La synthèse en histoire* من ١٧٤ مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، عدد فبراير ١٩١٢ من ٦٤ .

في كل الأجزاء ، يبدو له - وهو على حق - موضع نظر : ولكنه يعلن بأنه لا ينكر إنسان وجود بعض سمات أساسية مشتركة مهما اختلفت العوائد العقلية بين شحوب الأرض ، ؛ ويفوض الأمر إلى المناطق ليقرروا « ما إذا كان وراء الفصائل النحوية المختلفة الألوان فصائل منطقية تجري على كل اللغة وتُفرض عليها جميعاً بحكم تركيب المخ الإنساني »^(١) .

أما عن الأصول فإنه يجمع الاعتراضات تلو الاعتراضات ضد الجهود التي عملت لإرجاع اللغات إلى الوحدة ويبدى تحفظاً شديداً أمام نتائج الطريقة المقارنة : ويعترف مع ذلك « بأن العلماء قد نجحوا في تكوين عائلات لغوية كبيرة » ؛ وبضيف قائلاً : « وليس من شك في أن تقدم الفيلولوجية المقارنة سيؤدي إلى ازدياد عدد الأسر اللغوية الصحيحة التكوين »^(٢) .

وأما عن التطور فيقول : « فنحن نحني ثمار التجسّسات العقلية التي قام بها أسلافنا النابرون ؛ فهم الذين سهّلوا مهمتنا بتحضيرهم لعقليتنا فإ أكثر ما بذلوا من وقت ومن مجهود في تمرين الدماغ الذي ورثونا إياه ، تمريناً جعلنا لا نشعر حتى بوقوع هذا التمرين ! »^(٣) .

ويعترف الأستاذ فندريس على رغم النية التي « تحيط بالعقلية البدائية من كل جانب » بأن هناك « عنصراً عقلياً » يتدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بالغلبة^(٤) . وبين بقوة عظيمة في أي اتجاه تسير اللغة : فهي تسير من الشخص إلى المجرد ، ومن النقي إلى العقلي . ولغات المتوحشين مفعمة بفصائل التشخيص والتخصيص ، أما لغات المتحضرين فلا يكاد يوجد فيها إلا الفصائل التجريدية ، وإن وجدت غيرها فهي في سبيل الانقراض . وفكرة الزمن ، ودرجتها من حيث التجريد

(١) أنظر آخر الفصل الثاني من القسم الثاني والصفحات الأخيرة من الفصل الثاني من القسم الثالث .

(٢) أنظر آخر الفصل الخامس من القسم الرابع .

(٣) أنظر أول الفصل الأول من القسم الخامس .

(٤) أنظر الصفحات الأولى من الفصل الأول بالقسم الخامس ، وانظر La synthèse en histoire

أعلى من درجة الفكرة الكائنة ، تلعب في لغات التمدنين دوراً أهم من الدور الذى تلعبه في لغات البدائيين^(١) .

وعندما تتحلل ذاكرة الفرد نرى «المجرد أثبت عنده من الشخص . ولعله يمكن تفسير ذلك بأن التجريد ينفذ إلى الدماغ» - مجهود عقلى ويتطلب من الذهن تركيزاً ، أما الشخص فليس إلا انمكاس الأشياء في مرآة الوجدان^(٢) .

القول بأن التطور اللغوى مرتبط بالمدنية بصلات وثيقة ليس معناه إنكار المجهود المنطقى ، أو دور العامل الإنسانى ؛ وإنما معناه الحد من دور العامل الاجتماعى . فالمدنية شىء ، والمجتمع شىء آخر .

ولكن ما هى المدنية على وجه التحقيق ؟ هل يترتب على المدنية وجود ترتيب تصاعدى للغات ، أو تقدم لغوى ؟ يقابل الأستاذ فندريس هذا السؤال بريب شديد ، ريب يجب أن نقابله بدورنا بالاحترام التام ، لأنه يقوم على إحساس حاد بتفاصيل الواقع اللغوى المتفرقة المتحركة ، وعلى الحذر من الأفكار السائرة التى تعرض على أنها معرفة نقية خالصة . ووجهة نظره فى ذلك هى وجهة نظر العالم اللغوى المرتبط بواقع الأشياء ، فتراه يطيل القول عن الفصائل النحوية فى اللغات المختلفة وعن المقبات التى يلائمها المنطق وعن سراب اللغة الصناعية الخداع .

ويذهب إلى حد القول « بأننا لا حق لنا فى اعتبار لغة معقولة تجريدية تفوق لغة أخرى مشخصة غيبية ، لمجرد أن تلك الأولى هى لغتنا . إنهما فى الواقع عقليتان مختلفتان يمكن لكل منهما أن يكون لها ناحيتها من الفضل إذ لا شىء أمام شخص من أهالى سريوس (Sirius) يستطيع أن يبرهن له على أن عقلية التمدنين عقلية منحلة^(٣) . »

ولنقرر مرة أخرى أنه يروقنا فى كتاب الأستاذ فندريس هذا النصيب المبالغ فيه من الشك العلمى ؛ لأنه فى رأينا لا يرفع من قدر كتابه فحسب ، بل يرفع جميع

(١) انظر الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

(٢) انظر آخر الفصل الثالث من القسم الثانى .

(٣) انظر الصقحتين الأخيرتين من الكتاب .

أجزاء المؤلف الذى يتشرف بإشتراكه فيه . وهكذا تجد منه الدعاوى التى تقترحها ولا تفرضها محضاً ثاقباً . ونعتقد أنها ستخرج من بين يديه وقد زادت قوة لاضمناً ، وذلك برغم بعض المظاهر ، ودون أن يعتمد الأستاذ فندريس إلى الوصول إلى هذه النتيجة ، (وتلك هى عين الخبرة) .

مسألة التقدم مسألة معقدة ، ومن العسير تحديد « القيم » التى تتحقق بها المدنية : إن تطور البشرية بأسرها هو الذى يقدم لنا حلاً لهذه المشكلة .

* * *

رأينا مقدار المسائل العامة التى يثيرها كتاب الأستاذ فندريس ومقدار العناصر القيمة التى حشدها لحلها . أما المسائل الخاصة فقد أبرزها جيماً وعالجها فى فصول رزينة مشبعة ، بطريقة تظهر النتائج التى وصل إليها وتشير إلى البحوث التى ينبغى أن تعمل . ولم يخصص فصل لهذه الناحية ، لأن الكتاب كله ، كما تصوره مؤلفه ، إحصاء لما عمل فى هذا الميدان ولما يجب أن يعمل .

كانت الجمعية الفلسفية قد رغبت فى المناقشات التى أشرنا إليها إلى لويس كوتيرا أن يلخص مسائل علم اللغة فى مجلد يكون « فى متناول الجمهور » . ولكننا قرأ فى آخر العدد الصادر من المجلة فى مايو سنة ١٩١٣ ما يلى :

« عدل الأستاذ كوتيرا ، مؤقتاً على الأقل ، عن مشروع وضع المتن الذى كان قد اعترم إخراجه فى المنطق اللغوى ... لأنه علم أن الأستاذ فندريس يعمل على إخراج مؤلف فى علم اللغة ، يسندو أنه يجب رغبات أساتذة الفلسفة ويسد حاجتهم ... » .

ها هو ذا الكتاب : سيكون مفيداً للغويين ولكل من يهتمون بعلم اللغة على اختلاف مشاربهم ، ولكن لعل فائدته الأساسية ، وهو على النظام الذى هو عليه ، تقوم على بيان أن علم اللغة ليس علماً قائماً بذاته ، وأنه يتدمج فى التاريخ . فالحياة والفكر ينصبان فى اللغة . واللغات اليتة مثلها مثل الحفريات التى تحتفظ بطابع الكائن الحى . واللغات الحية تعبر فى قوالب متغيرة ولكن النصوص

تسجلها ، عن جميع العمل الداخلي ، وعن جميع الآثار الخارجية للحياة الفردية والجماعية . فإذا كان العالم اللغوي في حاجة إلى التاريخ ، فإن المؤرخ في حاجة إلى علم اللغة : إذا كان يتصور التاريخ على أنه تفسير عميق لتلك الحياة الموهلة في التعقيد ، لاعلى أنه مجرد حكاية أمينة لما كان^(١) .

هنري بر

ملاحظة :

لاستكمال مراجع هذا الكتاب من ناحية السيكولوجيا ، نعتقد من المفيد أن نشير إلى المرجعين الآتين (*Traité de Psychologie*) ذلك المؤلف الذي تخرجه طائفة من علماء النفس تحت إرشاد ج . ديما G. Dumas ، ففيه مقالان عن اللغة في الجزء الأول (*Le langage, association sensitivo-motrice*) بقلم بارا Barat وشالان Chaslin . وفي الجزء الثاني (*Le langage, opération intellectuelle*) بقلم دلacroix Delacroix . هذا إلى أن ال (*Journal de Psychologie*) الذي يصدره ب . جانيه و ج . ديما ، سيصدر قريباً عدداً خاصاً باللغة .

(١) خير من أدرك هذه الفكرة وعبر عنها من المؤرخين هو لوسيات فيفر Lucien Febvre أنظر ذلك في : *Revue de synthèse historique* ، مجلد ٢٣ ، أكتوبر ١٩١١ و *Histoire et linguistique* ؛ مجلد ٢٧ ، أغسطس - أكتوبر ١٩١٣ .
Le développement des langues et l' Histoire و

اللغة

مقدمة لغوية للتاريخ

« إن لغة البشر المرنة : ألفاظها كثيرة ومختلفة ؛
إنها بمثابة مرعى فسيح ، تتناثر الكلمات في جميع أرجائه » .

الإلياذة : النشيد العشرون
البيان ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

كنت قد اعتزمت إهداء هذا الكتاب إلى
أستاذي وصديقي أنطوان ميه Antoine Meillet
واليوم أقدمه بالاتفاق معه تحية لذكرى علماء
اللغة الفرنسيين الذين ماتوا في سبيل فرنسا ، وخاصة
لذكرى زميلي روبرجوتيو Robert Gauthiot .
ج . ث

مقدمة

لسنا في حاجة إلى تقديم طويل لتبرير المكان الذي يخصص للغة في مؤلف يكرس لتاريخ البشرية . فالأجزاء السابقة قد عرفت القارىء بالمرح الذي مثلت عليه درامة هذا التاريخ الكبرى ، وقدمت له ممثلها الرئيسي وهو الإنسان والوسائل المادية التي كان مزوداً بها . ولكن الإنسان ، رغم هذه الوسائل المادية ، كان يظل عاجزاً عن تمثيل الدور الذي قدر له أن يلعبه لولا تملكه لناصية اللغة . فاللغة وهي أداة الفكر ومساعدته ، هي التي مكنت للإنسان من الشعور بذاته ومن الاتصال بأمثاله ، وجعلت من اليسور تكوين الجماعات . ومن الميسر أن تتصور حالة أولية للإنسان كان فيها محروماً من مثل هذه الوسيلة الناجمة للعمل . فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود لغة منظمة ، وما كان في وسعه أن يسير في طريق التطور دون اللغة .

إذا كانت دراسة تحتل مكانها المرموق الذي لا ينازعها فيه منازع في قبة كل تاريخ عام ، فإن الآراء قد تختلف حول الصورة التي تتصور عليها هذه الدراسة . لأن اللغة مركب معقد عمن فروعاً من المعرفة مختلفة وتعنى بها طوائف متفرقة من العلماء . فهي فعل فسيولوجي من حيث إنها تدفع إلى العمل عدداً من أعضاء الجسم الإنساني . وهي فعل نفساني من حيث إنها تستلزم نشاطاً إرادياً للعقل . وهي فعل اجتماعي من حيث إنها استجابة لحاجة الاتصال بين بني الإنسان . ثم هي في النهاية حقيقة تاريخية لا مرء فيها نمثر عليها ، في صور متباينة وفي عصور بعيدة الاختلاف ، على سطح المعمورة قاطية . ومن ثم كان لنا أن نتصور دراسة للغة يقوم بها عالم من علماء وظائف الأعضاء . فيصنف الطرائق التي تؤدي بها أعضاء الكلام وظيفتها ، أو عالم من علماء النفس فيحلل حركة التفكير مهتدياً بنتائج علم الأمراض العقلية ، أو عالم من علماء الاجتماع

فيظهر لنا أثر التنظيم الاجتماعي في تطور اللغات ، أو مؤرخ فيصنف اللغات في أسر ويحدد توزيعها الجغرافي . كل واحد من هؤلاء العلماء يستطيع أن يكتب كتاباً يدخل في علم اللغة ولو أن نقطة البدء التي صدر عنها توجد خارج هذا العلم والتأنيج التي يصل إليها تمتد حتى تخرج من حدوده .

وأما مؤلف هذا الكتاب ، وهو عالم لغوي بحكم مهنته ، فقد أراد أن يمحصر مجهوده في ميدان العلم اللغوي وحده دون سواء ؛ فأتخذ من الواقع اللغوي كما تمدنا به الخبرة نقطة الارتكاز التي صدر عنها . فن تحليل الواقع اللغوي استخرج خطة كتابه . وعلماء اللغة يميزون فيها ثلاثة عناصر مختلفة : الأصوات والنحو والمفردات . ومن هنا قصر الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب على دراسة هذه العناصر الثلاثة على التوالي ، وهي دراسة تعنى في نفس الوقت بحالة اللغة الراهنة كما هي من جهة ، كما تعنى بحالتها التطورية من جهة أخرى . وقد قصد بها استخلاص أسباب التغير من الوقائع اللغوية التي تنطوي عليها ، والتمهيد للجزء الرابع الذي يتناول موضوعه دراسة اللغات . فهو يعالج على الترتيب تعريف اللغات وأنواع اللغات المختلفة وطرق تكون اللغات وتطورها وانشعابها بعضها من بعض وتداخل اللغات والأثر الذي تحدثه بعضها في بعض ، وأخيراً القرابة اللغوية . فتسلسل الكتاب يقوم إذن على الانتقال من البسيط إلى المعقد . فالواقع أن الأصوات أبسط من الكلمات ومن الجمل التي تتكون اللغات . وينجم عن هذا الترتيب أن كانت الفصول الأولى ، وهي أكثر فصول الكتاب إينالاً في الفنية ، أشد الفصول جفافاً . وعلى العكس من ذلك فإن الفصول الأخيرة تقدم للقارئ الذي لم تثبط الفصول الأولى همته آفاقاً أكثر تنوعاً واتساعاً . أما الجزء الخامس ، وهو أشبه مايكون بالملحق ، فخاص بالكتابة . وأخيراً يحيط بالكتاب فصلان : فصل تمهيدى وفيه تعرض مسألة أصل اللغة ، وفصل ختائى وفيه تناقش مسألة تقدم اللغة .

وهكذا تراض جميع التفرعات التي يتكون منها هذا الكتاب حول الواقع اللغوي باعتباره مركزاً لها . ومع أن مادة هذا الكتاب شديدة التنوع وكثيراً

ما تمتد إلى فروع مجاورة من فروع المعرفة ، فإنه يمكن للنظر فيه أن يترف بما له من وحدة جاءت بها وجهة النظر التي وضعها المؤلف نصب عينيه . وقد بدا من المفيد للمؤلف ، في بعض مناسبات نادرة ، أن بكل النتائج المستخرجة من علم اللغة بالإغارة على حرمة أحد العلوم المتصلة بعلم اللغة ؛ وهو يرجو ألا تكون مخالفته للقاعدة خالية مما يبررها . فهو ، على وجه العموم ، قد اقتصر على عرض الوقائع عرض عالم لنوى ، متبراً أن تلك خير الوسائل لإفادة أصحاب العلوم الأخرى الذين لا يستطيع أن يأتهم بشيء ذي بال في ميدانهم الخاص .

هذا وأن المبدأ الذي اتخذناه كان من شأنه أن يجعل مهتنا على جانب من الصعوبة . لأن من يدرس اللغة بوصفه عالماً لنوياً يجد نفسه مسوقاً بكل بساطة إلى وضع رسالة في اللغويات العامة . ولكن بكل من له اتصال بالنواحي اللغوية يعلم أنه لا يكاد يوجد مشروع أكثر خطورة من هذا المشروع . إذ لا بد لنجاحه من إنسان قدير على الإحاطة بكل صيغ الكلام المعروفة ، منقطع لممارسة جميع اللغات المتكلمة على وجه الكرة الأرضية ؛ فهل يمكن العثور على هذا الإنسان المثالي ؟ إن هذا ليدعو إلى الشك . أما لو كان الأمر يدور حول تعيين واحد من بين الأحياء يكون قريباً من هذا المثل أكثر من جميع من عداه ، فربما لم يتعذر الاختيار كثيراً على المارفين . لكن الواقع أنه لم يظهر حتى الآن كتاب واحد حقق منهاجاً كاملاً لعلم اللغويات العامة^(١) .

لا حاجة إلى القول بأن هذا الكتاب لم يبلغ في تحقيق هذا الحلم أكثر من غيره . فالمكان المحدود الذي منح للمؤلف يفسر تفسيراً كافياً ، دون حاجة لذكر أسباب أخرى ، لماذا لم يحاول المؤلف الإقدام على هذه التماسرة . فقد تظاهر بأن اعتبر كل واحدة من الوقائع التي يدرسها قطعة منفصلة من تاريخ شاسع لم يدون بعد . ومع أنه قد استعرض مسائل علم اللغة الأساسية دون أن يهمل منها واحدة ،

(١) لم يصبح ذلك كله حقا منذ أن نشر في سنة ١٩١٦ كتاب فرديناند دي ساسور رقم ١٢١ ؛ ولكن هذا الكتاب ، الذي لم ينشر إلا بعد موت المؤلف ، رغم وفرة الآراء التي يقدمها ليس عرضاً منهجياً كاملاً لعلم اللغويات العامة (أنظر فيه رقم ٤ ، مجلد ٢٠ ، ص ٣٢) .

إلا ما قد يكون من خطأ أو نسيان ، فإنه لم يزلماً عليه أن يبسط منها إلا بضعة أمثلة لها طابعها الخاص . كان يمكن لهذه الطريقة التفريقية أن تجر إلى عيب تمزيق المادة بقطع العرى التي تربط مواضع الاستيعاب والبسط بعضها ببعضها ؛ ولكن المؤلف تجنب هذا العيب بطريق التحايل . لأن اللغة ، ككل ما يمت إلى التاريخ والحياة بسبب ، تكون ميداناً متصلاً بمعنى أن ظواهرها لا تفصل بينها حدود متميزة . وأن الإنسان يتدرج بين القيم التي فيها يتجلى كل واقع على أعمه في سلسلة من المراتب غير المحسوسة . ومن ثم كان يكفي أن يشغل ما بين مواضع البسط والاستيعاب بمراحل انتقال طبيعية ، بمعنى أنها مستعارة من طبيعة الحقائق الدروسة نفسها . فلو أن هذا الكتاب قد ادعى أنه يحوى الحقيقة الواقعة كاملة في قوالب قد تكون تجريدية محكمة التسلسل ، فربما كان قد بدا عليه مأخذ من الجهل الفاضح ؛ لكنه سترها باختياره لنظام مرص يطبقه على حقائق اختيرت مقدماً ، ويتتبع معالمها عن كسب بدلا من أن يتبع نظاماً صارماً كاملاً واضح المعالم متميز الخطوط .

يستطيع المؤلف ، وقد سلك هذا السلك ، أن يفتبط بأن جعل مهمته ممكنة دون أن يقلل ذلك من قائدها . فهو لا يقدم للقارىء ، متافى علم اللغويات العامة ، بل أراد فقط أن يعطيه فكرة عن هذا العلم وعن المسائل التي يعالجها والنتائج الأساسية التي وصل إليها .

لكن المشروع رغم تحديده بهذا النهاج قد يبدو على جانب كبير من الجراءة . أما ما حفر المؤلف على المضى فيه فهو العون القيم الذى لقيه من طائفة من الأصدقاء ، تفضلوا بالاهتمام بمؤلفه ، فيسره هنا أن يقدم لهم شكره . فالأستاذ ا . ميه ، وهو الذى أوحى إلى المؤلف بعمل هذا الكتاب ، قد أخذ على عاتقه عبء قراءة المخطوط وناقش المؤلف فى أكثر من مسألة من بين المسائل التي عالجها ؛ فلعل القارىء ، بلمس معالم تأثيره ! كذلك راجع المخطوط كاملاً زميل وصديق آخر هو الأستاذ جيل بلوك Jules Bloch . وأفاد المؤلف بملاحظات عديدة . وأخيراً لا يسع المؤلف إلا أن ينوه بما فى عنقه من دين

زملائه الأعزاء من أعضاء الجمعية اللغوية ، وهم الأساتذة ديلافس وديني وجود
فروا ديمنين وإيزيدور ليفي وليفى بريل وبيليوه ؛ فبفضلهم زاد عدد من فصول
الكتاب ثراءً بوثائق جديدة متصلة بموضوعاتها اتصالاً مباشراً ، وفي النقط التي
ساهموا فيها متفضلين أفاد الكتاب دقة ترجع إليهم وحدهم . وإذا لم يكن
الكتاب في مجلته قد تحسنت حاله ، فليس مراد ذلك لهم .

ج . قنـدریس — میلان فی یولیه ١٩١٤

ملاحظة — انتهى هذا المؤلف في سنة ١٩١٤ ، ولم تقدم مخطوطاته للطبع
إلا في سنة ١٩٢٠ ، وإن الحوادث تكفي لتفسير هذا التأخر لدرجة تسمح بفقرانه .
لكن المؤلف يصر على إخطار القارئ بأنه يقدم له مؤلفاً مضى عليه سبع
سنوات ، والواقع أنه لم يمض شيئاً من نظام الكتاب العام ، بل اكتفى بإدخال
إصلاحات في التفاصيل على بعض النقط ساعده فيها الأساتذة موريس مارتان
Maurice Martin ، وأرنست ماركس Ernest Marx ، وهنري جريبان
Henri Grappin ، فإليهم جميعاً يمر المؤلف عن عرفانه بالجميل .

٤٤٥ — مـ يـ د

أصل اللغة (١)

يشير الإنسان دائماً ذهنية السامع كلما قال بأن مسألة أصل الكلام ليست من مسائل علم اللغة . ومع ذلك فليس هذا القول إلا الحقيقة بعينها . فغالبية أولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام منذ مائة عام يهيمنون في تيه من الضلال ، لأنهم لم يتنبهوا إلى هذه الحقيقة : وغلطهم الأساسية أنهم يواجهون هذه المسألة من الناحية اللغوية ، كما لو كان أصل الكلام يختلط بأصل اللغات .

إن اللغويين يدرسون اللغات التي تتكلم والتي تكتب ، ويتتبعون تاريخها بمساعدة أقدم الوثائق التي كشف عنها ؛ ولكنهم مهما أوغلوا في هذا التاريخ ، فإنهم لا يصلون إلا إلى لغات قد تطورت وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً . أما فكرة الوصول إلى إعادة بناء رطانة بدائية بمقارنة لغات موجودة بالفعل فسراب خداع . ولكن هذا السراب ، الذي ربما كان مؤسسو علم النحو المقارن يتطلعون إليه قديماً ، قد هجر منذ زمن طويل .

هناك لغات تنسب إلى تواريخ منها القديم ومنها الأقدم . ونحن نعرف بعض لغاتنا الحديثة في صور قديمة ترجع إلى أكثر من عشرين قرناً ولكن أقدم اللغات المعروفة « اللغات الأمهات » ، كما تسمى أحياناً ، لا شيء فيها من

(١) تاريخ طيب لهذه المسألة في بورنسكي Borinski رقم ١٤٦ ، ص ٣ — ٢٠ وانظر أيضاً جيسپرسن Jespersen رقم ١٣٤ ، ص ٣٢٨ — ٣٦٥ . وقد كتبت عن هذه المسألة مؤلفات كثيرة . والأسماء الرئيسية التي تهرن بالاتجاهات أو الخطى الرئيسية في الماضي هي :

J. J. Rousseau, Essai sur l'origine des langues (ouvrage Posthume)
Herder, Geburt der Sprache mit der ganzen Entwicklung der menschlichen Kräfte, 1770, J. Grimm, Über den Ursprung der Sprache, 1851, Steinthal, Ursprung der Sprache in Zusammenhang mit der letzten Fragen alles Wissens, 1851 (الطبعة الرابعة ١٨٨٨) ، Renan رقم ١١٠

البداية . ومهما اختلفت عن لغاتنا الحديثة ، فإنها لانفيدنا علماً إلا بالتغيرات التي طرأت على الكلام ؛ ولا ندلنا على شيء من كيفية نشوئها .

كذلك لا يمكن استخلاص شيء في هذا الصدد من لغات التوحشين . فالتوحشون ليسوا بدائيين ، رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان . فهم يتكلمون أحياناً لغات على درجة من التقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيداً ؛ ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسد على أكثر لغاتنا بساطة . فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تنجب عنا نقطة البدء التي سدرت عنها . وإذا كان هنالك من فرق بين لغات الشعوب التي تسمى متحضرة ولغات التوحشين ، فهو في الأفكار التي تعبر عنها أكثر مما هو في العبارة نفسها . فلغات التوحشين في وسعها أن تفيدنا في معرفة ما بين الكلام والفكر من روابط^(١) وليس في معرفة ما كانت عليه الصورة البدائية للكلام . وقد يمنح الإنسان في البحث عن هذا المطلب في كلام الأطفال^(٢) ، وهذه المحاولة أيضاً سيكون نصيبها الفشل . لأن الأطفال لا يعلموننا إلا كيف تحصل لغة منظمة ، ولا يعطوننا أية فكرة عما كان عليه الكلام عند أصل نشوئه . فحيناً نلاحظ المحوودات التي ينفقها أحد الأطفال ليميد ما يسمعه مما يقال للدركين ، فإننا نلاحظ أكثر من علامة دالة على أسباب التغيرات التي يتعرض لها الكلام . ولكن الطفل لا يؤدي إلا ما قيل أمامه ، فهو يشتغل بالناصر التي يحده بها من حوله ، ومنها يركب كلماته وجمله . إنه يقوم بعمل المحاكاة لا الخلق ، عمل يخلو من

(١) ليفي بريل ، رقم ٨٨ ، ص ٧٦ وما يليها .

(٢) عن الكلام عن الأطفال ، أنظر خاصة :

وفارن أيضاً : Clar und william Stern' Die Kindersprache leipzig (1907). consuletr Meumann: Die Sprache des Kindes, Zurich (1903) (Abhandlungen herausgegeben Von der Gesellschaft für deutsche Sprache in Zürich); Ch. Roussey, Notes sur L'apprentissage de la parole chez un enfant, M. Grammont, Observations sur le langage des enfants, ٦١ -- ٨٢ ، رقم ٩٩ ، ص ٦١ و ١٨٩٩ و ١٩٠٠ ، O. Bloch : Notes sur le langage d'un enfant, رقم ٦١ ، ص ١٨ من المقدمة و ص ٣٧ ، J. Ronjat, le développ. Pement du langage observé chez un enfant bilingue, باريس ١٩١٣

الارتجال خلواً تاماً . أما هذا النصيب من التجديد الذى يدخله فى الكلام فغير شعورى ؛ ناتج عن كسل طبيعى يقنع بما يكون على وجه التقريب ، وليس ناشئاً عن إرادة تحت سلطانها قدرة خالقة .

فالعالم اللغوى سواء ألبأ إلى أقدم اللغات المعروفة أم إلى لغات التوحشين أم إلى اللغات التى يتعلم الأطفال بها الكلام ، فلن يجد أمامه فى كل حال إلا بنياناً شيد منذ زمن طويل وتماقت على العمل فيه أجيال عديدة خلال قرون طويلة . فتبقى مسألة أصل الكلام خارجة عن نطاق خبرته . والواقع أن هذه المسألة تختلط بمسألة أصل الإنسان وأصل الجماعات البشرية ؛ فهى من اختصاص تاريخ البشرية البدائى . لقد نشأ الكلام بالتدرج مسيراً لتطور دماغ الإنسان ولتكوّن الجماعة ، فمن المستحيل أن نقول فى أى صورة بدأ الكائن الإنسانى يتكلم ، لكن من الممكن أن نحاول تحديد الظروف التى سمحت للإنسان بأن يتكلم : وهى ظروف نفسية واجتماعية فى نفس الوقت .

أعمّ تعريف يمكن أن يعرف به الكلام أنه نظام من العلامات^(١) . فدراسة أصل الكلام ترجع إذن إلى البحث عن أى أنواع من العلامات كانت بطبيعتها فى متناول الإنسان ثم كيف أُعمل على استخدامها .

ويجب أن يُعنى بالعلامة أى رمز قابل لأن يستخدم للتفاهم بين البشر... ولما أمكن للعلامات أن تكون متنوعة الطبيعة ، أصبح هناك عدة أنواع من اللغات . فكل أعضاء الحواس يمكن استخدامها فى خلق لغة . فهناك لغة الشم ولغة اللمس ولغة البصر ولغة السمع ، وهناك لغة كلما قام شخصان فأضافا معنى من المعانى إلى فعل من الأفعال بطريق الاتفاق وأحدنا هذا الحديث بقصد التفاهم بينهما . فمطر ينشر على ثوب ، أو منديل أحمر أو أخضر يطل من جيب ستر أو ضغطة على اليد يطول أمدها قليلاً أو كثيراً ، كل هذه تكون عناصر من لغة مادام هناك شخصان قد اتفقا على استعمال هذه العلامات فى تبادل أمر أو رأى .

(١) ب . لروا رقم ٨٧ .

ومع ذلك فهناك لغة من بين مختلف اللغات الممكنة تظنى على جميع ما عداها
بقتوع وسائل التعبير التي في طوقها : وهى اللغة السمعية التى تسمى أيضاً لغة
الكلام أو اللغة الملفوظة ؛ تلك وحدها هى التى سنتحدث عنها فى هذا المؤلف .
وقد تصحبها بعض الأحيان اللغة البصرية ، وغالباً ما تكون مكملة لها . والإشارة
عند جميع الشعوب تقطع الكلام ، وهىئة الوجه تترجم فى آن واحد مع الصوت
عن الانفعالات والأفكار . والتعبير بالحركات لغة بصرية ؛ ولكن الكتابة بدورها
لغة بصرية أيضاً وكذلك على العموم كل نظام من نظم الإشارات .

ولعل اللغة البصرية توازى اللغة السمعية فى قدم العهد . فليس لدينا ما يخلينا
على الاعتقاد بأن إحداها متقدمة عن الأخرى وأكثر من هذا ليس لدينا أية
وسيلة للبرهان على ذلك .

وغالبية اللغات البصرية المستعملة اليوم مشتقة من اللغة السمعية ، وهذا ينطبق
على الكتابة كما سنرى فى الجزء الخامس ، وينطبق على قانون الإشارات . وقانون
الإشارات البحرية مثلاً قد جُمِلَ ليزودنا بمادلات بصرية بدلاً من الكلمات والجمل
فى جميع اللغات القائمة . وهو لا يعدنا بمعلومات عن أصل العلامات باعتبارها
تصويراً للأفكار . فإن اختيار هذه العلامة دون تلك بطريق الأفضلية مبنى على
الاتفاق ، على الاتفاق التحكمى . وإن كان قد قيّد منذ البداية ببعض الشروط .
مثل هذه اللغات بنص حدها لغات صناعية .

إننا نعرف حالة من الاستعمال الطبيعى للغة البصرية ألا وهو لغة الحركات
المستعملة إلى جانب اللغة السمعية^(١) عند بعض الشعوب المتوحشة . وهنا لا يتوقفت
الأمر على أن يكون الكلام مصحوباً بالإشارة كما هو الحال لدى الشعوب المتحضرة ،
بل يدور الأمر حول نظام من الحركات لا تستطيع وحدها التعبير عن الآراء التى
يراد توضيحها ، مثلها فى هذا مثل الكلمات عاماً . وبذلك لغة فطرية إلا أن لها
مزاياها : إذ يمكن استعمالها على بعد بين مكانين لا يقدر الصوت على أن يصل بينهما
وإن استطاعت العين التقاط الحركات ، ثم يمكن على وجه الخصوص من عدم إثارة

اقتباه الحاضرين بضوضاء الأصوات . وتلاميذ المدارس يستعملون هذه الوسيلة الصامتة لفهامهم داخل غرف الدراسة . فاللغة بالحركة يمكن إذن أن يكون لها أصل نقى . ومع ذلك فكون استعمالها عند الشعوب المتوحشة من شأن النساء على وجه الخصوص يوحى بتفسير آخر . ذلك أن السبب الذى يدعو عادة إلى التفريق فى اللغة بين الجنسين يكون سبباً دينياً^(١) فلما كانت النكبات التى يستعملها الرجال محظورة على النساء ، فقد وجب على هؤلاء أن يستعملن مفردات خاصة ، وجب عليهن أن يخلقنها بأنفسهن حتى ولو اضطررن عند الحاجة إلى إحلال الحركة محل الصوت . وهكذا يمكن أن يفسر استبقاء لغة الإشارات بالإلزام الناشئ عن النواهى ولكنها ليست ، مها كان أصلها ، إلا عوضاً عن اللغة السمعية التى يجب أن تسير لغة الإشارة على نهجها .

ولغة الإشارات التى يستعملها الصم البكم هى الأخرى منسوخة عن اللغة السمعية . فبالحركة يعلم هؤلاء المجزأة إجراءات اللغة عند الآخرين : حيث يوضمون فى حال تمكنهم من التخاطب فيما بينهم ومن قراءة ما يكتبه من يتكلمون ويسمعون . فانما يجرى لهم استبدال حاسة مكان حاسة لوضمهم فى حال يتفهمون فيها بالعلامات .

حالة الصم البكم تدعو إلى التفكير فى أصل الاستعمال اللغوى للعلامات ، ويستطيع المرء بمناسبة أن يتساءل عما إذا كانت اللغة عند الإنسان شيئاً مكتسباً ناشجاً من التعليم ، أم على العكس من ذلك شيئاً فطرياً تلقائياً . الأطفال الماديون لا يعلموننا شيئاً عن هذا السؤال ، فإنهم منذ ميلادهم متيقظون أمام العالم الخارجى ؛ وهم قبل أن يصدروا أصواتاً ، على صلة بمن يحيطون بهم بواسطة حاسة السمع ؛ ويجدون أنفسهم فى اللحظة التى يتكلمون فيها ، منغمسين فى تيار التبادل الاجتماعى . أما الصم البكم فهم فى حاجة إلى أن يوقف عندهم الشعور بالعلامة . فهم لمجزم عن تعلم اللغة السمعية من جراء عاهتهم فى منجى من كل تأثير يقع على الأطفال الذين يسمعون من الأشخاص الذين يتكلمون . ولكنهم يرون ، ويدركون عندما

(١) Van Gennep رقم ٧٤ ص ٢٦٥ وما يليها .

يفتحون أعينهم ما يمكن أن تكون عليه العاملة التي تشترك فيها اللغة بنصيب .
فللاجابة على السؤال المتقدم ، يجب أن يستطاع النفاذ في شعور كأن إنسانى قد بنى
بفضل عاهات موروثة معلقاً أمام العالم الخارجى ، أو قد أقصى منذ ولادته إقصاء
تاماً عن تأثير بنى جنسه . الفرض الثانى لا يمكن ذكره دون الإحساس بسخفه ؛
وإلا فكيف يمكن الحكم على كائنات بشرية بالاعزلة عن غيرهم من بنى الإنسان
ويحرم عليهم على طريقة ما استعمال حواسهم إلى درجة أن يصير خهم وكأنه يدور
فى غرفة مظلمة دون أى اتصال بالخارج .

نحن نعرف الاختبار الشاذ الذى قام به إسمتيك ملك مصر كما رواه هيرودوت
(ح ٢ رقم ٢) أراد الملك أن يعرف ما إذا كان الفريجيون أسبق فى العالم من
المصريين ، فأمر بتربية طفلين حديثين فى عزلة منذ ميلادها وحرم أن يسمعا أى
كلام . وعند اختبارهما بعد بضعة أشهر وجد أن الطفلين يطلبان الطعام بقولهما
« βexos » ومعناها « خبز » بالفريجية . فاستنتج إسمتيك من ذلك أن اللغة
الفريجية أقدم من المصرية . وكان يمكن أن يستخلص من ذلك أيضاً أن ملكة
اللغة فطرية فى الإنسان . لولا أن تجربة إسمتيك تعوزها سيما الصدق وروح الجد .
هناك اختباران تبدو عليهما منذ الوهلة الأولى صفة الإقناع . وهما التجريتان
اللتان أجريتا على طفلين ولداً أصميين كفيفين ، وكانا بذلك محرومين من الاتصال
بالمالم الخارجى . فكلنا يعرف مثلاً حالة الفرنسية ماري هيرتان^(١) Marie
Heurtin أو الأمريكية هيلين كير^(٢) Helen Keller . حالة هذه الأخيرة لها أهمية
خاصة ، فقد استطاعت الحصول على درجة كافية من التعليم ، مكنتها من قراءة
وكتابة عدد من المؤلفات فى الأدب والفلسفة بعدة لغات . وإن كتاباتها بقدر
ما تكون خالية من روح البالغة التى أسبغها عليها الأشخاص المحيطون بها لتسمح
لنا باستخلاص دلائل غريبة .

(١) Ames en prison : Louis Arnould : الطبعة المأخرة ١٩١٩ .

(٢) Die Entwicklung und Erziehung : Helen Keller ' W. Stern

einer Taubstummblinden برلين ١٩٠٥ .

كانت اللغة عند هيلين كار نتيجة للتربية . يصف لنا في شيء من التأثير كتاب نشر عنها^(١) ذلك النظر الذي توصل فيه بمد عدد من المحاولات الفاشلة إلى إقحامها قيمة العلامة . في ذلك اليوم تمزق الحجاب الذي كان يحول بينها وبين الكون ، وتجلي الكون أمام عقلها بتلك الشبكة من العرى المعقدة التي تربط الأشياء بالكلمات . لكن فائدة هذا النظر فردية قبل كل شيء . فهيلين كار وجدت نفسها خارج الظروف المادية للحياة ، فظلت حالتها متسمة بسما الاستثناء . أما الأولون الذين تكلموا من البشر فلم تفتح نفوسهم لإدراك العلامة كما وقع لتلك البائسة . فنشوء اللغة عند من حرمتها عاهاته حتى ذلك الحين من الاتصال بالعالم ، لا يستطيع أن يمطينا فكرة عن التطور الذي حدث في مجتمع من الكائنات المادية . في أحضان المجتمع تكونت اللغة . وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم . وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعها الطبيعة تحت تصرفهم : الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة والنظرة إذا لم تكف الإشارة . فالاختبار الذي يمكن إجراؤه ، إذا ما أريد استلزام إسمتيك ، هو أن يوضع طفلان أو عدة أطفال بعضهم مع بعض يجهلون جهلاً تاماً كل شيء ، عن اللغة بعد إقصائهم أقصاء تاماً عن كل مؤثر تعليمي . عندئذ إذا غضضنا النظر عما قد يكون عندهم من استمدادات موروثة ، فليس من شك مهما كانت جنسياتهم ، في أن يخلقوا بفطرتهم لغة لحسابهم الخاص ؛ وهذه اللغة لن تكون الفريجية . ذلك بأن الحاجة توجه المضوحتاً إلى العمل . ولا بد أن الأشياء عند البدء وقعت على هذا النحو . فاللغة هي الواقع الاجتماعي بمناه الأوفى ، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي . وصارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات وقد دانت بنشوتها إلى وجود احتشاد اجتماعي .

لم تولد اللغة كحدث اجتماعي إلا يوم أن وصل المخ الإنساني إلى درجة من النمو

(١) Les miracles des hommes : Gerard Harry ، باريس ، لاروس .

تسمح له باستعمالها . فلم يأت لكائنين بشريين أن يخلق لغة فيما بينهما إلا لأنها كانا مهدين لهذا العمل . فحال اللغة حال جميع المحترعات البشرية . كثيراً ما احتدم الجدل حول معرفة ما إذا كانت اللغة الإنسانية واحدة الأصل أم متعددة وهذه مسألة لا طائل من ورائها . ففي اليوم الذي يضيف تقدم الذكاء، الإنسانى درجة جديدة من الكمال ، يحدث الكشف الجديد من ذاته وفي بقاع متعددة في نفس الوقت . فهو منتشر في الهواء كما يقول العلماء ويشعر الإنسان بمجيشه ، كما يتوقع وقد أقبل الخريف، سقوط الفواكه الناضجة في أحد البساتين .

من الوجهة النفسية ، ينحصر الفعل اللغوى الأساسى فى إعطاء قيمة رمزية للعلاقة . هذه العملية النفسية تميز لغة الإنسان من لغة الحيوان ^(١) فمن الزيف أن يقال فى المقارنة بين تلك وهذه بأن الثانية لغة طبيعية فى حين أن الأولى لغة صناعية توافقية . لغة الإنسان ليست أقل طبيعية من لغة الحيوان ، ولكنها من درجة أعلى من حيث إن الإنسان ، وقد أعطى للعلامات قيمة موضوعية ، جعل هذه القيمة تنوع بالموافقة إلى مالا نهاية . الفرق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان مستقر فى تقويم طبيعة العلامة ^(٢) . والكلب والقرد والطائر تتفاهم مع نبات جنسها ؛ فإن لها صيحات وحركات وأغاني تقابل حالات نفسانية خاصة من الفرح والرعب والرغبة والشبهة ؛ بعض هذه الصيحات تلتئم مع بعض حاجات خاصة إلتئاماً يكاد يمكن من ترجمتها فى جملة من لغة الإنسان ؛ ومع ذلك فإن فصائل الحيوان لا تصدر جملاً ^(٣) ؛ لأنها عاجزة عن تنوع عناصر صيحاتها ، مهما بلغت هذه الصيحات .

(١) Steinthal ، رقم ٢٠٧ ، ص ٣٢٤ — ٣٥٨ R. M. Heyer ، رقم ٣٠

جلد ١٢ ص ٣٠٧ .

(٢) هذا الرأى قد أوضحه بوسويه إيضاحاً تاماً ، إذ يقول : « يمكن أن تتأثر لغات الحيوان بالصوت باعتباره هواء مدفوعاً مثاراً ، لا باعتبار أنه دال بنظامه على ذلك الذى يسمى كلاً وسماعاً بمعنى الكلمة » . (المنطق ج ١ ، ٢٤) . وفارن *Traité de la Connaissance de Dieu et de soi-même* فصل ٥ الفقرة ٥ : « أما أن يقرع الصوت أو الكلم الأذن ثم المخ من حيث إنه يشير الهواء ، فهذا شئ ، وشئ آخر هو أن ينظر إليه على أنه علامة اتفق الناس عليها ، وأن يتذكر بواسطته الأشياء التى يدل عليها . هذه الناحية الأخيرة هى التى تسمى سماع اللغة ؛ وليس منها أى أثر عند الحيوان » .

(٣) *Pseudo-langage* : L. Boutan بوردو ١٩١٣ ، *Actes de la société* (٣)

linnéenne de Bordeaux) ؛ وفارن فيه رقم ٤ جلد ١٨ ص ١٧٧ .

من التعقيد ، على نحو ما نرى نحن كائناتنا التي تكون في الجملة عناصر استعاضة . أما بالنسبة لها فإن الجملة لا تتميز عن الكلمة ولكن هناك ما هو أهم من ذلك : فهذه الكلمة نفسها ، صحيحة أكانت أم إشارة ، كما يحولنا أن نسميها ، ليست لها قيمة موضوعية . ومن ثم لم تكن موضوعاً للمواقة ، وينجم عن ذلك أن لغة الحيوان ليست قابلة للاقلاب ولا للتقدم ؛ وليس هناك ما يدل على أن صرخة الحيوان كانت في الماضي تختلف عما هي عليه اليوم . فالطائر الذي يدفع بصيحة يتأدى بها اليد التي تحمل له ورقة من الخس ، لا يشعر بصيحته على أنها علامة .^(١) ولغة الحيوان تستبوع نوعاً من التلازم بين العلامة والشيء المدلول عليه بها . وينبغي للتخلص من هذا التلازم وحتى تأخذ العلامة قيمة مستقلة عن الشيء أن تكون هناك عملية نفسية ، هذه العملية النفسية هي نقطة البدء في لغة الإنسان . كان على مسائل الاتروپولوجيا أن تنير لنا بعض ما غمض علينا من لغز التطور النفسي في الإنسان . فهذا العلم يقرر أن جاجم سكان الكهوف من البشر تشبه جاجم القروء العليا : في الجمجمة التي عثر عليها في «La Chapelle aux-Saints» ، نرى أن المكان المخصص للتلايف التي يقرر أنها مركز الكلام ضئيل غاية الضآلة . وإذاً يجوز أن يفترض أن نشوء الكلام قام على تطور طبيعي للمخ الإنساني . مثل هذا الفرض لا يلزمنا أن نسلم دون تحفظ بنظرية بروكا Broca الشهيرة في تحديد المراكز المخية^(٢) . فن المروف أن هذه النظرية قد فقدت الكثير من سلطانها القديم ؛ بل أن بعض الحوادث الحديثة قد رأت أن تظمنها في الصميم . ولكن الذي يمكن أن يؤخذ عليها بوجه خاص أنها تبالغ في تبسيط مسألة في غاية من التعقيد . فبروكا ، عند ما يعين مركز الكلام في التلفيف الثالث من ناحية الجهة

(١) في لغة الطير ، أنظر الملاحظات الفنية التي كتبها الأستاذ بريال في «Revue des revues» مجلد ٣٣ عام ١٩٠٠ من ٦٢٩ — ٦٣٢ (وأعيد نشرها في رقم ٤ مجلد ١١ ص ١١٥ — ١١٠ .

(٢) عن هذه المسألة ، أنظر العرض الإجمالي المتم الذي نشره Dagnan - Bouveret رقم ١٠ مجلد ١٦ عام ١٩٠٨ ص ٤٦٦ وما يليها . وراجع أيضاً أعمال الدكتور ب. ماري P. Marie وكتاب الدكتور L'aphasie de Broca : F. Moutier باريس ١٩٠٨

اليسارية لا يقرر إلا شيئاً تقريبياً بعيداً كل البعد عن الدقة ، وبوجه خاص عندما يقول بأن المخ يحتوى على مناطق كبرى متميزة تقابل مناطق العقل الكبرى ، يندفع نفسه فيما يخص الروابط التي بين اللغة والتفكير . من الزيف أن تتصور أن المخ قد بنى على مثال النحو وأنه قد قسم إلى أقسام لكل جزء من أجزاء الكلام قسم منها . فجملة الحقائق اللغوية موزعة في المخ ، على طريقة أكثر حرية ، وأكثر اتساعاً مما افترض بروكا . أغلب الظن أن حوادث تعطل الكلام من ناحية الحركة ، تلك الحوادث التي تركز عليها نظرية بروكا ، ترجع عادة إلى خلل موسمى ؛ أما تعطل الكلام من ناحية الحس كما عرفه فرنكه Wernicke يفترض غالباً نقصاً عقلياً عاماً ؛ ومن جهة أخرى غالباً ما يحصل في مثل تلك الحال ظواهر تعويضية حيث تقوم مراكز مجاورة بوظيفة المراكز التي أصيبت بالخلل . وأخيراً فإن الطبقات الغلافية مرتبة على نحو ما يؤدي إلى أن أى خلل يمكن أن يحدث اضطرابات مختلفة حتى ولو كان في تلفيفة الجهة اليسرى ، وذلك على حسب النقطة التي يصيبها الخلل من التلفيفة .^(١) وبالاختصار ، إذا كانت محمية الكلام لا ينازع فيها من حيث المبدأ فإن تفاصيل التحديد في حاجة إلى إعادة النظر فيها من جديد .

إذن يجب الحذر في تفسير المسائل التي تقدمها لنا أثروبولوجية ما قبل التاريخ . فإننا إذا أخذناها على شكل ضيق وأخذنا نقيس حجمه إنسان الماور على نحو ما نقيس حجمه واحد من المعاصرين ، نعرضنا لاستنتاج أن صاحب الجمجمة الأولى كان فاقداً للكلام . ومن اليقين أن ذلك يتقهقر بمبدأ تطور اللغة والإنسانية إلى أمد بعيد . ولكن الذي لا شك فيه أن مخ رجل الماور كان أقل اعتماداً للنشاط اللغوي من مخنا .

عند هذا السلف البعيد الذي لم يكن مخه صالحاً للتفكير بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة . ولعلها كانت في الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة الشيء أو العمل اليدوي^(٢) أو صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح وتكشف عن

(١) Wundt رقم ٢٢٣ مجلد ١ ص ٤٩٤ .

(٢) K. Bücher : Arbeit und Rhythmus الطبعة الثالثة ليزر ١٩١٢ .

خوف أو رغبة في الغذاء . بعد ذلك ، لعل الصيحة اعتبرت بعد أن زودت بقيمة رمزية ، كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون ؛ ولعل الإنسان قد وجد في تناول يده هذا السلك المريح ، قد استعمله للاتصال بيني جنسه أو لإثارتهم إلى عمل ما أو لنعمهم منه . ولا بد أن اللغة ، قبل أن تكون وسيلة للتفكير ، كانت في الواقع وسيلة للفعل وواحدة من أنجع الوسائل التي يمكن منها للإنسان . وما أن استيقظ في ذهن الإنسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب ؛ وكان تقدم الجهاز الصوتي يسير بنفس الخطى مع تقدم المخ . وكان تثبيت اللغة في داخل الحشود الإنسانية الأولى يسير على نفس القوانين التي تحكم كل مجتمع . وبوجه خاص كان أعضاء كل جماعة يلتزمون في احتفالاتهم الجماعية نفس المظاهر الصوتية أو الغنائية^(١) . وهكذا كانت عناصر الصياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقها كل فرد في نفسه لاستعماله الشخصي . ثم قليلا قليلا ، وبفضل الاتساع التزايد في التبادل الاجتماعي تكون أخيراً هذا الجهاز المعقد الذي لا يجارى في ثرائه ليكون وسيلة للتعبير عن المواطن والأفكار ، عن كل المواطن والأفكار .

هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق وإن لم يكن مما يمكن البرهان عليه . ومن مزاياه أنه يفهمنا كيف كانت اللغة نتاجاً طبيعياً للنشاط الإنساني نتيجة لتطابق ملكات الإنسان على حاجاته الاجتماعية^(٢) . غير أنه يجب البدء من الشعور بالعلامة . وإذا ما حصل على هذه الحقيقة تنابت اللغة كلها بطريق التنوعات المتتابعة .

* * *

إنه لمن المجازفة بعد الذي قيل في الصفحات السابقة أن نعمد إلى تحديد أدق وأن نسمى إلى معرفة الكيفية التي جرى عليها التخالف (Différenciation) والمراحل التي مر بها منذ صيحة الإشارة حتى وسائل التعبير الكثيرة التنوع التي تقوم عليها لغة كاللغة الفرنسية . ومما يطلب إلى العالم اللغوي ، اعتماداً على

(١) بورنسكي رقم ١٤٦ ص ٣٨ .

(٢) « لما كان الكلام هو النظام الاجتماعي الأول فإنه لا يدين بصورته تلك إلا لأسباب طبيعية » . ج . ج . روسو : « بحث في أصل اللغات » .

الفكرة القائلة بأن كل لغة فيها أجزاء أساسية تتميز عن الإضافات اللاحقة ، أن يحدد هذا العالم طبقات اللغة المختلفة وأن يميز منها الأجزاء التي كانت لها الأولوية في التكوين . وقد يجازف العالم فيلتي بالجواب في بعض الأحيان . ولكن يجب أن نترف في شجاعة بأن كل هذه الأجوبة لا قيمة لها . فالطريقة التي تقوم على الانتقال من المعلوم إلى المجهول عاجزة هنا ، لأن المبادئ التي يبنى عليها تطور اللغات التي نعرفها لا تنطبق ضرورة على لغات كان يتكلمها أفراد تتجه عقليتهم اتجاهات يخالف اتجاهنا . ودراسة اللغات تعلمنا أن نشوء اللغات ونموها لا يتم في تتابع منطقي ملتزم في سيره طريقاً مستقيماً . فن الخطأ أن تصور أن الخطوة التي بنيت عليها دراسة « البور رويال » النحوية قد فرضت نفسها منذ البداية على العقل الإنساني ليتخذ منها إطاراً يملؤه بالتدرج وعن طريق التتابع المنظم .

هذا وإنه ليوجد بين العلامة والشيء الدلول عليه بها ، بين الصيغة اللغوية ومادة التصوير أي رباط مستمد من الطبيعة ، ولكنه رباط مأخوذ من الظروف فحسب . ولقد ساد زمناً طويلاً الاعتقاد بأن الحقيقة الأولى للغة كانت تقوم على إعطاء أسماء للأشياء ، أي على خلق مفردات . وتلك هي الفكرة التي عبر عنها لكريس Lucrèce في بيته الذي كثيراً ما ينشد وهو :

Utilitas expressit nomina rerum,

« إن الضرورة هي التي تخلق التسميات » .

الذي يعزو فيه بحق اللغة إلى سد الحاجات . وفي القرن الثامن عشر في فرنسا حاول الرئيس دي ريس De Brosses^(١) أن يفهر الصورة الخارجية للكلمات بالمعاني التي تعبر عنها هذه الكلمات . وكان غرضه أن يكتشف للأصوات نوعاً من الرمزية ، رغم أن الأولين من البشر استخدموها في خلق كلماتهم . هذا المشروع لا يثير في أيامنا هذه إلا الابتسام . فإن ما هو مهم ليست تسمية الأشياء بهذه الكلمة أو تلك ، وإنما هو إعطاء الكلمات بنوع من الاتفاق الضمني بين المتكلمين قيمة اسمية ، إما هو اتخاذها وسائل للتبادل ، كما استعويض عن مقايضة الأشياء بعضها ببعض بالنقود أو بالأوراق النقدية .

(١) Traité de la formation mécanique des langues باريس ١٧٦٥ ،

وقارن R. M. Meyer رقم ٣٠ مجلد ١٢ ص ٢٤٣ .

بعض علماء اللغة ممن هم أقرب إلينا قد تخيلوا نظريات ذهبوا بمقتضاها إلى أن كل المفردات قد خرجت من صيحة تشبه نباح الكلب أو من سلسلة من الأصوات توحى بتمثيل الأشياء عن طريق المحاكاة^(١). وكان في هذا الوقت نفسه أن راح العلماء المشتغلون بالقيدا يفسرون كل الأساطير بنار البرق أو مسير الشمس. وكلا الفريقين من علماء اللغة وعلماء الأساطير كانوا في ذلك الحين يمتنون بإدراك الأشياء على نحو ساذج. وكانوا يتناقشون لمعرفة ما إذا كانت اللغة قد بدأت بالاسم أم بالفعل: الفعل الذي يعبر عن الحدث والاسم الذي يعبر عن ماهية الأشياء وسفاتها. ولكن مما بدا لنا من الاختلاف بين الاسم والفعل، فإن التمارض بين «قطبي» نحونا هذين ليس أمراً ضرورياً؛ وإلا فإذا يعنى نباح الكلب: أيعنى «أنا جوعان» أو «أعطى ما آكل» أو «هذا حسن» أو «انتهت من الأكل»؟ لا هذا ولا ذاك أو كل هذا معاً؛ ويمكننا أن نفسره على السواء بفعل أو باسم، بالأمر أو بالماضي. وقد بقي، رغم كل ما بذل من جهود بين النباح البدائي وأقدم ما عرف من لغاتنا، فراغ يتعذر سده.

وما أغرى العقول بالبحث عن الصور البدائية للغة إلا المقارنة التي كانت تقام بين علم اللغة والعلوم الطبيعية، من جغرافية ونبات وحيوان. وقد جرت هذه المقارنة غير الصحيحة إلى أخطاء مرذولة؛ فإذا أريد إيجاد نوع معادل للغة وجب البحث عنه على الأصح في التاريخ الاجتماعي. وكان ميشيل بريال Michel Bréal مأخوذاً بمقارنة تصريف الفعل في اللغة الهندية الأوروبية «بتلك النظم السياسية والقانونية الكبيرة — البرلمانات أو مجلس الملك — التي رأت نفسها بعد أن ولدت من حاجة أساسية تتنوع وتمتد من سلطان اختصاصاتها حتى حل زمن جديد فوجد هذا الدولاب ثقيلاً في مجموعه، فشطر منه جزءاً ومزق وظيفته بين عدد متباين من هيئات حرة ومستقلة، وإن كانت لا تزال تشترك في الخطة التي

(١) أنظر التفاصيل في جيبسن Jespersen، رقم ١٣٤ الطبعة الثانية، ص ٣٣٠.

وما يليها، وبورنكي، رقم ١٤٦، ص ١١ وما يليها ثم ص ٣٩.

بنيت عليها منذ المبدأ إلى حد ما وبشكل يدلّ بوضوح على تضامنها القديم. (١) «
هذه المقارنة يمكن أن تطبق على اللغة في عمومها لأن اللغة إحدى هذه النظم
ومع ذلك ففي اللغة عناصر أكثر ثباتاً وأقل خضوعاً للتحكم الإنساني مما في النظم
السياسية. وهذه العناصر هي في الواقع الأصوات التي سنبدأ بها هذه الدراسة .

الجزء الاول الاصــــــــــــــــوات

الفصل الأول

المادة الصوتية^(١)

إن ما يسمى صوتنا هو الأثر الواقع على الإذن من بعض حركات ذبذبية للهواء .
والذبذبات في اللغة يحددها الجهاز الصوتي للمتكلم . والعلم الذي يبحث في الأصوات ،
أو بمباراة أخرى علم الصوتيات ، يجب أن يشتمل على ثلاثة أجزاء : الجزء الخاص
بإنتاج الصوت والجزء الخاص بانتقاله ، والجزء الخاص باستقباله . فالإنتاج والاستقبال
ظاهرتان متساويتا الأهمية في اللغة إذ أنه يجب لتكون هناك لغة ، أن يوجد متحدثان
على الأقل وأن يوجد السكلام مقصوداً به أن يسمع . هذا إلى أن استقبال الصوت ،
أو بمباراة أخرى السماع يلعب دوراً هاماً في انقلابات اللغة ؛ فن طريق الأذن يحصل
كل متكلم نظامه الصوتي ويثبته . فن الوجهة النظرية لا يمكن أن يستكثر على السماع
أى مكان ، مهما كبر ، يخصص له في دراسة اللغة .

ومع ذلك فالواقع أن علم الصوتيات قد حصر مجهوده زمنياً طويلاً في دراسة
إنتاج الصوت .

علماء اللغة لا يكادون يشغلون بالسماع ؛ بل يتركون دراسته إلى علماء وظائف
الأعضاء . وهذا التحديد له ما يبرره ففياً يخص اللغة لا يكون للصور السمعية لسماع
قيمة إلا إذا كان هذا الأخير جديراً بتحويلها إلى صور محركة ليصير بدوره

(١) راجع بصفة عامة مؤلفات رسلو Rousselot وروديه Roudet وبوارو Poirot
وباسيه Passy وسويت Sweet وجيرسن وأ . هيلر سكريتر E. Wheeler Scripture
وفيتور Victor وجوتزمان Gutzmann وسيفرز Sievers وتروتمان Trautman .

متكلماً . وبعبارة أخرى يجب أن يكون السامع حائزاً بالقوة على ما يحقّقه التكلم بالفعل . على هذا الشرط يتوقف وجود الكلام . ويترتب على ذلك أنه يمكن إسقاط الجزء السمعي من اللغة في دراسة الصوتيات مادام السامع يفترض وجود قوة مساوية من إحداث الصوت عند ما يتكلم شخصان لغة واحدة فيما بينهما . فليس هناك في الواقع إلا وجهان من وظيفة واحدة ؛ وحدودهما واحدة . نعم أغلب الظن أن تحليل المراكز العصبية يسمح بالتمييز بينهما ؛ ولكن هذا التحليل ليس من اختصاص علم الصوتيات .

يظهر أن انتقال الصوت يكون في أيامنا هذه الموضوع الأساسي من دراسة علماء الصوتيات^(١) ؛ فالواقع أنهم أميل إلى الاشتغال بالتموجات ؛ ذلك الميدان الشاسع من البحوث الذي يمنح نحو علم الطبيعة البحتة ولا يمكن الاقتراب منه دون تحضير رياضي متين . ومن هنا اكتسب علم الصوتيات دقة غريبة ؛ فقد أصبحت لديه الوسيلة لتحديد الأصوات بعدد الذبذبات التي تحددها صورها ؛ أما نحن فسنقف هنا عند عادات المدرسة القديمة فنقتصر على دراسة إنتاج الصوت ، أعني التصويت phonation ، وعلى وصف نتائج التصويت ، يعني « الأصوات » .

* * *

يشتمل جهاز الإنسان الصوتي على الأجزاء الرئيسية الآتية : منفاخ ، هو الرئتان ، وقناة صوتية هي القصبة الهوائية ، وهي مغلقة من طرفها الأعلى بواسطة تضخم مزدوج ، وهو ما يسمى بالأوتار الصوتية ، أو فتحة الحنجرة Glotte بالاختصار ؛ فهو آلة هوائية ، آلة ذات مبسم مزدوج . ويبدو من نظام الحنجرة سمو الجهاز الإنساني على جميع الآلات الأخرى . والأوتار الصوتية على جانب من المرونة لا يصل إليها مبسم الزمار الموسيقي الذي هو صلب بالضرورة . وتستطيع هذه الأوتار ، بفضل نظام للحركة لطيف التدبير يدير عدة أزواج من العضلات ، أن تأخذ أوضاعاً مختلفة . فيمكن إبقاؤها مغلقة أو فتحها فتحاً تاماً أو شبه تام

(١) أنظر خاصة رسالتي رقم ١١٥ و١١٦ ورقم ١٩١ .

وجعلها تتذبذب كلاً أو جزءاً والتمديد من مقدار توترها . ومن هنا تنتج تنوعات المصادر التي يغترف منها التكلم .

ومع ذلك فإن هذا الجهاز الصوتي يكون ناقصاً لو أنه كان مكوناً من الحنجرة وحدها ؛ وما كان يستطيع في هذه الحال أن يسمع إلا الحركات ويسمها على درجة من التخالف أقل بكثير مما ننطقها به عادة .

الواقع أن التيار الهوائي الذي تدفعه الرئتان يحدث الصوت بذبذبة للأوتار الصوتية . ولما كانت الذبذبات تستطيع الاستمرار بقدر ما تسمح به كمية الهواء المهتزة^(١) وكان يمكنها من جهة أخرى تغيير الصوت من حيث الإشباع amplitude والقوة force ، كان للصوت إذن ثلاث صفات مميزة وهي : الطول durée والحدة الموسيقية hauteur musicale والشدة intensité كما أنه يختلف هو نفسه تبعاً للحركات ، من حيث أن حركة العضلات تسمح بارتفاع فتحة الحنجرة وانخفاضها بحيث تطيل القناة الصوتية أو تقصرها .

ولكن التكملة اللازمة للجهاز الصوتي تأتيه من التجاويف التي تفتح عليها الحنجرة ، أعني تجاويف الحلق pharynx والحفر الأنفية وخاصة تجويف الفم . وجوانب هذه التجاويف جميعها ، وهي مطاطة إلى حد كبير ، تقوم للصوت مقام فراغ رنيني فتخلع على كل صوت طابعه الخاص . ويوجد في هذا التجويف الرنان أعضاء مرنة قابلة للسحب تستطيع أن تعدل أبعاده وتغير من طاقته ؛ فعندنا أولاً غشاء سقف الحلق ويستطيع أن يغلظ الطريق المؤدى إلى الحفر الأنفية فيمنع حدوث أي رنين من هذه الناحية ؛ ولكن اللسان بوجه خاص هو الذي يلعب مع الحنجرة الدور الرئيسي في التصويت . فمعد إصدار الحركة (a) أى الفتحة يكون اللسان على وجه التقريب مسجى في الفم في وضع مسطح؛ ولكن عندما يدور الأمر من حول حركات أخرى ، يغير اللسان من وضعه ليكون الرنين المناسب لكل منها . فتارة يتقدم إلى الأمام ويرتفع ليقبل من سعة الجزء الخلقى من الفم ،

De la dépense d'air dans la parole et de ses : Roudet (١)

Conséquences phonétiques رقم ٧ المجلد ٢ عام ١٩٠٠ ص ٢٠١ — ٢٣٠ .

وتارة يرجع إلى الخلف مقلداً من سمة الجزء الأمامي . في الحالة الأولى يصير اللسان عامل الرنين للحركات السمة بالحركات الخلفية أو حركات أقصى الحنك وهي ، ابتداءً من a ، e مفتوحة و o مقفولة و i مفتوحة و u مقفولة . وفي الحالة الثانية تنتج الحركات السمة بالحركات الأمامية أو حركات مقدم الحنك . أعني ، ابتداءً من a أيضاً ، المفتوحة و o المقفولة و u المفتوحة و u المقفولة .^(١) في كل واحدة من السلسلتين ، الخلفية والأمامية ، نرى أن ال i وال u هما أكثر الحركات انفتاحاً ، وهما الحركتان اللتان فيهما يصل وضع اللسان إلى أقصى حد في الارتفاع ، أي إلى أقرب وضع من غشاء الحنك . أما ال a فهي أكثر الحركات انفتاحاً . هذا إلى أنه يوجد لكل حركة أنواع مختلفة الطابع تقابل عوامل الرنين المتباينة وتتبع أوضاع اللسان المتنوعة . فال a في فرنسية باريس تنطق على صور ثلاث من اليسير على الأذن أن تفرق بينها : ففحن نطق a مقفولة في pâte و a مفتوحة في patte ومتوسطة في carotte .

ليس اللسان وحده هو الذي يلعب دور تكوين عامل الرنين الخاص بكل حركة إذ لا ينبغي أن ننسى الشفتين اللتين يختلف وضعهما مع كل حركة . وهناك منظر مشهور من مناظر مسرحية مولير « النبيل البرجوازي » « Bourgeois Gentilhomme » يملأنا في شيء كثير من الدقة أوضاع الشفتين عند إصدار الحركات . وفقرة لديني داليكرناس Denys d'Halicarnasse ، ربنا كيف كان الإغريق يعرفون في هذا الصدد بقدر ما عرف معاصرو مولير ، وإن لم يكن الإغريق من البرزين في الصوتيات . والواقع أنه يلاحظ أن الشفتين ، عند ما تنطق بال u تمتدان إلى الأمام وتستديران كما في حالة (التبوريز) ؛ وعند نطق ال i تنفجر زاويتي الشفتين لترجما بهما إلى الوراء . هذان هما الوضعان المتطرفان ، وبينهما أوضاع تقابل نطق ال o (مفتوحة أو مقفولة) وال e (مفتوحة أو مقفولة) . وقد استفادت اللغة من وجود الأوضاع الشفوية

(١) يرسم هنا « U » على حسب التبع في الصوتيات ، ما يكتب بالفرنسية « OU » أي الضمة الصريحة .

والأوضاع اللسانية معاً لخلق سلسلة مركبة منهما ، هي سلسلة ال eu . فتركيب الوضع الذى يتخذه اللسان فى نطق الحركات الخلفية (i , é , e) ، والوضع الذى يتخذه الشفتان فى الحركات الأمامية (u , ô , ô) ، يمكن إلى حد يكاد يكون مضبوطاً من النطق بالأصوات الفرنسية الثلاثة eu مفتوحة فى (beurre) و e u مقفولة فى (queue) و u فى (flûte) ، وهذه الأخيرة ترسم فى الكتابة الصوتية على العموم ii .

وتختلف أنواع الحركات من ائمة إلى أخرى اختلافاً كبيراً ، فالإنجليزية مثلاً لا يكاد يكون فيها حركة واحدة تشترك فيها مع الفرنسية .

* * *

تقسم الأصوات عادة إلى سواكن وحركات . هذا التفريق يمكن تبريره من الوجهة العملية بتعريف المقطع (أنظر الصفحة الرابعة من الفصل الثالث) ؛ ومع ذلك فإن نفس الأصوات يمكن أن تلعب فى المقطع دور الساكن أو دور الحركة على السواء . وإذا كان بين الاثنين فرق فى الوظيفة ، فليس بينهما فى الواقع أى فرق فى الطبيعة ، والحد الذى يفرق بينهما ليس حدّاً قاصداً . فالسواكن والحركات تكون جزءاً « من سلسلة طبيعية ولا يتضح الفرق بين عراها بجلاء فى طرفها » .

فى أحد طرفى السلسلة توجد الحركات a أو e أو o على نحو ما عرفناها ، وفى الطرف الآخر توجد السواكن الانفجارية p و t و k . هذه السواكن ليست إلا نوعاً من الضوضاء ؛ وتقوم على أن الهواء يتوقف مؤقتاً بفعل عقبة تصادفه لدى عبوره . والعقبة توجد فى الفم على وجه العموم ؛ وتكونها الشفتان أحياناً وطرف اللسان تارة وظهر اللسان تارة أخرى . فى الحالة الأولى يكون الانفجار شفويّاً وفى الثانية أسنانياً وفى الثالثة حقلياً . ولكن هناك من الانفجارات أيضاً ما تكون نقطة نطقه فى أقصى الفم : وهى أصوات من وسط الحلق أو من أدناه أو من أقصاه .

ولما كان إغلاق الفم يقع فى نقطة انطباق واحدة لا تتغير ، لم يكن هناك

انغلاق شفوى إلا واحد فقط صامت ؛ ومن ثم كانت الباء P من حيث نقطة الإغلاق واحدة في كل اللغات إذا استثنينا الاختلافات في القوة . أما طرف اللسان فتتحرك على العكس من ذلك ، وظهر اللسان يستطيع أن يتنقل على طول امتداد الحنك الصلب والحنك الرخو . فهناك إذاً مواضع تماس متنوعة ، ويمكن أن نتصور ، تبعاً لنقطة الإغلاق ، عدة أنواع من الأسنان والحلقية . وفي غالب الأحيان ينطبق طرف اللسان على الأسنان العليا ، ولذلك يسمى الساكن الذي ينتج على هذا النحو أسنانياً ، كما هي حال التاء العربية و « t » الفرنسية . ولكنه يستطيع أن يرتكز أيضاً على أصول الأسنان ، كما هي الحال بالنسبة للأسنان الإنجليزية « t » take وفي tire الذي هو من أصول الأسنان . وأخيراً يمكنه شئ من التقلص أن يمس سقف الحنك ، فنحصل على ما يسميه بعض علماء اللغة بالقمية *Cacumiales* أو الحية *Cérébrales* وما هي إلا فروع من الأسنان كذلك التي تخرج من أصول الأسنان .

أما ما نسميها بالحلقية فإنها تتضمن فروعاً أكثر من تلك عدداً ؛ إذ يمكن أن يمس أى نقطة من ظهر اللسان أى نقطة من سقف الحنك حتى نحصل على صوت حلقى . فإذا حصل الانفجار على جزء الحنك الصلب ، حصلنا على واحد من أدنى الحنك (الكاف k في الكلمة الفرنسية *qui*) ؛ وإذا وقع على الحنك الرخو في اتجاه النشاء الحنكى حصلنا على واحد من أقصى الحنك كالكاف k الألمانية في *kuh* . وأصوات أقصى الحنك وأدنى الحنك تشمل عدة فروع ؛ فيمكننا أن نميز مثلاً بين الأصوات الحنكية الأمامية والحنكية الخلفية ، بحسب ما إذا كانت نقطة التماس متقدمة قليلاً أو كثيراً بالنسبة للحنك الصلب .

بعد أن عرفنا نقطة التماس على هذا النحو ، لنبحث الآن آلية الانفجار . يطرد الهواء من الرئتين ؛ فيعبر الحنجرة وهي مفتوحة ساكنة ؛ وينفذ إلى التجويف الحنكى حيث يوقف فجأة عند الشفتين أو عند الأسنان أو في الحنك على النحو الذى وصفناه . ثم فجأة يكف التماس ، ويستطيع الهواء أن يستمر في مسيره نحو الخروج . ففي كل ساكن انفجارى إذن ثلاث خطوات متميزة :

الإغلاق أو الحبس ، والإمساك الذي قد يكون طويل المدى أو قصيره والفتح أو الانفجار^(١) عند إصدار ساكن بسيط مثل التاء t ، فإن الانفجار يتبع الحبس مباشرة ؛ والإمساك يضؤل إلى مدى لا يكاد يحس . وعلى العكس من ذلك ؛ تظهر الخطوات الثلاث بوضوح فيما يسمى بالسواكن المضعفة ، وهي ليست إلا سواكن طويلة ، كما أنها تنطق بقوة أشد مما في حالة القصيرة . فإذا تركنا مسألة الشدة جانبا وجدنا أن مجموعة مثل (ata آتا) تتميز عن المجموعة (ata آتا) بوجود مسافة بين الحبس والانفجار يمكن للأذن أن تقدرها . ومن الخطأ أن يقال بأنه يوجد ساكنان في آتا ata وساكنا واحد ata آتا ، فالعناصر المحصورة بين الحركتين في كلتا المجموعتين واحدة : عنصر انحباسي يقيمه عنصر انفجاري . ولكن بينما نجد العنصر الانحباسي في ata يتبعه العنصر الانفجاري مباشرة ، نجد في ata يفصل عنه بإمساك يطيل مدى الإغلاق .

الفرق بين عنصرى الانحباس والانفجار يكون محسوساً عند ما يكون هناك انتقال في نقطة التماس . نتصور أن طرف اللسان أعتمد على الأسنان في لحظة مرور الهواء ، ولكن ظهر اللسان انطبق فجأة - بعد أن تم الإغلاق - على الحنك ليحصل الفتح وهو في هذا الوضع ؛ في هذه الحال نحصل على تاء t انحباسية وكاف k انفجارية أى على المجموعة tk تك ، في atka مثلاً . وبالعكس إذا حصل تماس أولاً بظهر اللسان واعتمد طرف اللسان على الأسنان في أثناء الانفجار ، فإننا نحصل على كاف k انحباسية تتبعها t انفجارية كما في المجموعة akta أكتا .

ويمكننا مما سبق ، أن نحكم على الفرق الذى يفصل بين حركة مثل الفتحة a وبين ساكن مثل التاء t . من جهة وظائف الأعضاء ، لا يوجد اشتراك بين هذين الصوتين إلا في كونهما ناتجين من هواء مدفوع من الرئتين . غير أنه يوجد بين هذين الطرفين من سلسلة الأصوات مكان اسكثير من الأصوات الوسطى .

(١) روزابلي Rosapelly : Valeur relative de l'implosion et de l'explosion :

dans les consonnes occlusives رقم ٦ مجلد ١٠ ، ص ٣٤٧ - ٣٦٣ .

لنتصور أولاً أن الإغلاق غير محكم وأنه يسمح للهواء بمنفذهما كان ضيقاً ،
فبدلاً من أن نحصل على انفجاري أى مؤقت فإننا نحصل على رخو أو احتكاكي
spirante ، الذي يسمى أيضاً احتكاكياً fricative لأنه يتميز بضوضاء احتكاك .
لم يعد الأمر هنا يدور حول الباب المغلق الذي يفتح فجأة ليسمح للهواء المختزن
بالمرور ؛ بل هو الباب الذي يظل على معارضته ويسمح للهواء بالصغير .

وبالطبع تسمح الاحتكاكيات بجميع نقط النطق التي للانفجارية ؛ ففي كل
نقطة من نقط التماس التي تنتج فيها هذه الأخيرة يمكننا أن تصور انغلاقاً
مقابلاً طالما تدع الشفتان أو طرف اللسان أو ظهره منفذاً لتسرب الهواء . وهناك
انتلاقية أسنانية شفوية (الفاء f الفرنسية) وأسنانية (السين s الفرنسية)
ومن أصول الأسنان (الثاء الإنجليزية th في thick و thank) وحنكية مثل
(ch الألمانية في ich) ومن وسط الحنك médio-palatale (الشين ch الفرنسية
في cheval) ومن أقصى الحنك Velaire (مثل الخاء ch الألمانية Buch) ،
مع كل الفروع التي تحتلها الاختلافات في الوضع . وهناك أيضاً في أقصى
التجويف الحنكي احتكاكيات أو حلقية أو من أدنى الحلق أو من الحنجرة مثل
العين العربية .

وتوجد سلسلة من الأصوات اللغوية المتوسطة بين الانفجارية والاحتكاكية ؛
وهي ما تسمى شبه الانفجارية Semi-occlusives أو بعبارة أوضح الانفجارية
الاحتكاكية affriquées وتتميز بالإغلاق الذي لا يستمر إحكامه . وفيها كما في
الانفجارية حبس ؛ ولكن هذا الحبس يتبعه حركة خفيفة من الفتح ، بحال يجعل
الانفجاري ينتهي بالاحتكاكي . فالانفجاري الاحتكاكي affriquée انفجاري
فاشل . بعض اللغات يكثر من استعمال الانفجارية الاحتكاكية ، ويمكن رسمها
صوتياً هكذا pf ، و ts كـ ch^k وقد بقي هذان الأخيران في لهجات ألمانيا
الجنوبية زمناً طويلاً ؛ ويمكن حتى الآن أن نسمع بوضوح الـ ch^k في الألمانية
المتكلمة في بياريا وسويسرا .

وإننا مع الانفجارية الاحتكاكية ، بل حتى مع الاحتكاكية ، مازلنا بعيدين

جداً عن الحركات . ومع ذلك فإنه لا كانت الاحتكاكية والحركات تشتركان في المدة ، كانت المسافة بينهما أقرب من المسافة التي بين الحركات وبين الانفجارية ، إذ يمكننا إطالة الفاء f والسين s والشين ch كما نشاء على قدر ما تسمح به الرئتان . ولكن هناك وسيلة لتقريب ما بين الحركات وبين الانفجاريات أو الاحتكاكيات أو الاحتكاكيات الانفجاريات : وذلك بأن نمدّها بالرين .

لقد افترضنا حتى هنا بقاء الشفتين والحنجرة في حالة سكون عند إصدار الساكن . لذلك لم نحصل إلا على سواكن صامتة بمعنى مجردة من الصوت «Voix» (stimulos, unvoiced) كما يقول الإنجليز والألمان) . ولكن لندع الأوتار الصوتية تتذبذب كما تفعل في الواقع ، لكي تزود الحركات بالصوت فمندثذ نحصل على سواكن مجهورة (stimmhaft, voiced) . فالفرق الذي يميز المجهورة من المهموسة أنه عند إصدار الأولى تكون الأوتار في حالة ذبذبة ، مع التساوي في غير ذلك من الأشياء . ونحس هذا الفرق بكل يسر عند ما ننطق على التتالي الانفجاريات p (ب) و b (ب) أو t (ت) و d (د) أو k (ك) g (ج) أو — وذلك أحسن دلالة — الاحتكاكيات (ف) f و v (ف) أو (س) s و (ز) z أو ش ch و (ج) j . وإذا راى الإنسان أن يسد أذنيه ، عند النطق ، فإنه عند ما يصل إلى المجهورة يسمع الرنين الذي تنشره الذبذبات الحنجرية في تجاويف الرأس . بالطبع كل السواكن التي عدناها حتى الآن من انفجارية وانفجارية احتكاكية واحتكاكية ، تقبل الجهر . فإذا ما حسبنا حساب السواكن الممكنة ، وجب أن نضاعف عدد تلك التي ذكرناها في القائمة بإضافة المجهورة إلا المهموسة .

* * *

نصل الآن إلى سلسلة من الأصوات اللغوية وسط بين السواكن والحركات تسمى عادة أشباه الحركات (حروف اللين) لهذا السبب . ويمكن أن نسميها بالعبارة المعكوسة شبه السواكن ، لأن المسألة مسألة حركات مشوبة بمناصر سكونية أكثر منها مسألة سواكن مزودة بالجهر . في قائمة الحركات المذكورة

في الفصل الخاص بالفصائل النحوية ، اعتبرت الحركات *u* (الضمة) و *i* (الكسرة) و *ü* (الضمة المشمومة الكسر) حركات مقفولة تتميز بأن اللسان عند نطقها يرتفع في الفم (إلى الخلف أو إلى الأمام على حسب الأحوال) مقلداً من المسافة التي تفصله عن الحنك ، وذلك ليكون عامل الرنين الخاص بها . وينتج من ذلك أن إصدار الضمة (*u*) والكسرة (*i*) والضمة المشمومة الكسرة (*ü*) تصحبه ضوضاء احتكاك ناتجة من مرور الهواء بين اللسان والحنك ، وضوضاء الاحتكاك تلك عنصر سكوني . وهي على وجه التأكيد أقل ظهوراً عند إصدار هذه الحركات الثلاث منها عند إصدار أحد الاحتكاكيات المجهورة ؛ ولكنه مع ذلك يصير محسوساً إذا قورنت الحركات *u* أو *i* ، *ü* بالحركة *a* (الفتحة) . وعلى كل حال ، هناك وسيلة لسماعها وذلك بأن تنطق على التوالي الحركات المختلفة موشوشة . ففي الكلام الموشوش الذي ليس فيه رنين وبالتالي يخلو من الجهر (الصوت *voix*) ، يصير كل شيء إلى هذه الضوضاء البسيطة^(١) ولذلك تكون الفتحة (*a*) في مثل هذه الحال أقل الحركات سماعاً ، بينما ترى الضمة (*u*) والكسرة (*i*) والضمة المشمومة (*ü*) تسمع بيسر بفضل العنصر السكوني الذي تشتمل عليه . وكثيراً ما تستخدم اللغة هذا العنصر السكوني لتجمل من الضمة (*u*) والكسرة (*i*) والضمة المشمومة (*ü*) سواكن . والصوت هو هو دائماً ولكن في استمالين مختلفتين . والساكن الذي يقابل الكسرة (*i*) والضمة (*u*) يرمز له عادة بالياء (*y*) والواو (*w*) ونجد في الفرنسية في *yeux* (عيون) و *meilleur* (أحسن) و *oui* (نعم) و *ouate* (قطن) . أما الساكن من الضمة المشمومة (*ü*) ، وهو نادر ، فليست له علامة خاصة : ويوجد في الفرنسية في *Cuire* (ينضج أو جلد) *lui* (إليه و *tuer* صيغة المصدر من قتل) و *Puier* (استقى) .

ويمتد في طائفة شبه الحركات أيضاً اللام والراء *l, r* اللائتين ، والأخيرة منهما

(١) أنظر ، عن الصوت الموشوش ، بول أليف Paul Olivier ، رقم ٧ سنة ١٧٩٩ ، ص ٢٠ وما يليها .

تدعى أحياناً بالتذبذبة ، وهى تسمية أكثر دقة من الأولى .. فهما ساكنان لها نقطة نطق محدودة فى الفم وتعتمد على وضع ما للسان ويمكن أن تصحب أو لا تصحب بذبذبات حنجرية تنتج الجهر . وهما مجهوران أغلب الأحيان ؛ غير أنه يوجد فى بعض اللغات لامات وراءات مهموسة (صامتة) اللام المائنة حرف جانبي (حافى) وتتميز بأن طرف اللسان يرتفع فى النطق بها حتى يعتمد على الحنك وتنخفض حواف اللسان الجانبية بطريقة تسمح للهواء أن يمر من جوانبه . فيرى من هذا أن بينهما وبين الأسنان نقطة اشتراك . والواقع أن الحركة التى يقوم بها طرف اللسان واحدة بالنسبة للام وللدال فى الفرنسية . وهناك نوعان آخران من اللام المائلة mouillée ، وتتميز باستعلاء الجزء الأمامى من اللسان نحو الحنك الصلب ؛ والأخرى من أقصى الحنك وفيها يتحدب الجزء الأوسط الخلقى من اللسان فى شكل ملقعة من جهة الحنك الرخو . واللام التى فى أقصى الحنك كانت توجد فى اللاتينية ؛ وهى مستعملة فى اللغات السلافية حتى الآن .

والراء المائنة ترجع إلى ذبذبة فى الأجزاء المطاطة التى يشتمل عليها التجويف الحنكى وإلى ذبذبة اللسان أولاً وقبل كل شئ . . وهناك الراء الأسنانية الناتجة من ذبذبة طرف اللسان ، والراء الحلقيّة التى فيها ظهر اللسان هو الذى يقوم بالذبذبة . وهذه الراءات لها بالطبع نفس التفرعات التى للأصوات الانفجارية الأسنانية والحلقية . وأخيراً هناك الراء التى من اللهاة ، الناتجة من تذبذب اللهاة ، وهى الراء المسماة بالذئمة (grasseyée) ، وأحد الأصوات التى يصعب إنتاجها على من لم يستحوذ عليها بالطبيعة . والراء الأسنانية هى الراء التى فى الإنجليزية الحديثة : ونقطة نطقها ، كما هى الحال فى كل الأسنانية الإنجليزية ، فى أصل الأسنان .

بعد ما تقدم من وصف ، يمكن الحكم بأن الحرفين المائنين لهما كل صفات السواكن ؛ والواقع أن المائنين فى الكلمات loquet, crapaud, claquer, tarin, milan, article, râteau يلعب نفس الدور الذى يلعبه الانفجاري فى الكلمات : laquin, mitan, tact, aptitude, bateau, coquet . ولكن وضع الفم فى إصدار اللام والراء يقتضى إيجاد عامل رنين كما فى حالة الحركات ؛ هذا إلى أن الموائن ليست من الأصوات التى يمكن إطالتها وعند ما تحتوى على الجهر ،

وهي الحالة المادية ، يمكن استعمالها استعمال الحركات لتكوين القطع .
ففي الكلمتين الألمانية Löffel, Acker لا يكاد القطع الأخير يحتوى غير اللام
والراء اللذين يلعبان فيه دور الحركة . وبعض اللغات التي تستعمل الراء على أنها
حركة مثل التشيكية إنما ترسمها بعلامة الراء الساكنة مثل krk « رقية »
و pst « أسبغ » و vrch « قة » .

الأصوات التي نكلمنا عنها حركات كانت أم سواكن ، قابلة لاستعمال آخر
هو استعمال العنصر الثانى من حرف اللين المستعمل استعمال الساكن أو ما يسمى
diphthong (الحركة المركبة) . وما يسمى بالحركة المركبة هو الجمع بين
حركتين فى مقطع واحد ، ولكن الحركتين لا يستويان قيمة فى هذا المركب ؛
إذ يحتوى حرف اللين هذا diphthong على عنصر قوى وعنصر ضعيف هو
الثانى عادة . والحركتان المقولتان الكسرة i والضممة u أصلح من غيرها للقيام
بدور العنصر الضعيف ، أى العنصر الثانى . وهكذا فإن ما يلى الحركة فى (١)
ي ey وأى oy وآى ay أو ew أو ow وآو aw ليس من الحركات
ولا من السواكن بمعنى الكلمة ؛ بل عنصر من المركب diphthong وبعض
اللغات الهندية الأوروبية تدل على أن دور العنصر الثانى من هذا المركب يتميز عن
دور الحركة أو دور الحرف الساكن . وهذه اللغات نفسها قد أتاحت فى نفس
الوقت للام والراء المائتين أن يستعملا كعنصر ثان للمركب : فاللتوانية حتى أيامنا
هذه قد احتفظت لـ آر وا آل (er, el) بنفس المعاملة الخاصة بال diphthong
وهى نفس المعاملة التى على المركبين آى ey وآو ew بالضبط (٢) .

وأخيراً هناك فصيلة هامة من الأصوات اللغوية لم نقل عنها شيئاً حتى الآن ،
وهى الأصوات الأنفية nasales (أو أصوات الفتحة) ، إذ أنه قد افترض فى كل
الأوصاف القديمة أن يبق حجاب الحنك لاصقاً بقمة القبو ، أى أنه بالتالى يمنع
تسرب الهواء إلى الحفر الأنفية . غير أن حجاب الحنك يمكن له أن يسقط نحو

(١) المقصود بالفتحة والكسرة الدلالة على الإمالة .

(٢) ميه رقم ٩٤ ص ٨٩ .

قاعدة اللسان ؛ وحينئذ ينفذ الهواء المدفوع من الرنين إلى الحفر الأنفية ،
فينصرف من الأنف كما ينصرف من بين الشفتين . والواقع أن الإغلاق التام نادر
التحقق ؛ بل حتى إنتاج الحركات التي تكلمنا عنها حتى الآن ينطوي على السماح
لكمية ضئيلة من الهواء بالنفاذ إلى الحفر الأنفية . غير أن اللغة تستخدم الفتح
الكامل لإنتاج ما يسمى بالحركات الأنفية . كل الأصوات اللغوية التي ذكرت
سابقاً سواء أكانت حركات أم سواكن ، ما عدا بعض المستثنيات الناجمة من
طبيعة الأعضاء ، لها فروع أنفية . وعند ما يبقى حجاب الحنك هابطاً أثناء إصدار
الصوت اللغوي ، دون أن يمتري عملية النطق أى تغيير أو أن يعدل اللسان عن
وضعه ، فإننا نحصل على صوت أنفى ساكناً أكان أم حركة . وكل فرنسى على معرفة
كافية بالحركات الأنفية ، بفضل لفته القومية التي عمك عدداً عظيماً منها . فالأشياء
التي رسمها an, on, in, un إنما تمثل أصواتاً مفردة وقد أُضيف إلى الطابع
الخاص بكل حركة منها أنواع من الرنين الأنفى . فمعنى كون الحركة أنفية أن
حجاب الحنك يبقى عند الإصدار هابطاً وأن جزءاً من الهواء الخارج من الحنجرة
يتخذ طريق الحفر الأنفية . ومن الخير أن نلاحظ أن الحركات الأنفية an, in, un
رغم الكتابة ، لا تقابل بالضبط الحركات a (فتحة) و i (الكسرة) و u (الضمة الشمة الكسرة) بل تقابل u و o و eu على التوالي .

هذه الآلية نفسها تستخدم لإنتاج السواكن الأنفية . وكل السواكن يمكن
أن تصير أنفية : فنحن نعرف في بعض اللغات قاءات (v) ولامات l وراءات
r أنفية ولكن يحتفظ عادة بمصطلح الأنفية للانفجاريات المجهورة المصحوبة
بأنواع من الرنين الأنفى : فعند ما يبقى حجاب الحنك هابطاً في أثناء انفجار الباء b
أو الدال d أو g تراناً نحصل على الأنفيات m (ni) ون (n) والنون المنة n̄
(وتكتب gn في الفرنسية) ؛ هذه الأصوات اللغوية يمكن إطالتها ولكن الهواء
في هذه الحالة لا يخرج إلا من الأنف بالطبع لما كان الانفجار الحنكى يمنع من مرور
الهواء . يوجد من الأنفيات بقدر ما يوجد من الانفجاريات المجهورة . أما تلك الأنفيات
التي تقابل الانفجارية المهوسة والتي تعدّ ممكنة الوقوع من الوجهة النظرية
فلا تستعمل في الواقع إلا نادراً .

رأينا أن الأنفيات ، وهي قابلة للمدة ومزودة بالصوت *voix* (مجهورة) ، تستدعى رنين الحفر الأنفية : أى أنها مستعدة لأن تقوم بدون الحركات أو المائعات على السواء . والواقع أن هناك عدداً من اللغات التى تملك حركات أنفية ، ونحن نعرف أنها كانت موجودة فى اللغة الهندية الأوروبية . واليوم نستطيع أن نسميها بوضوح تام فى المقطع الثانى من النكات الألمانية *Atem, bieten* . ومن جهة أخرى ، كانت الهندية الأوروبية تستعمل النون *n* والميم *m* الأنفيتين استعمال العنصر الثانى فى المركب ، فكانت تعامل مثلاً *on om* و *en em* كما كانت تعامل *oi ou* و *eu ei* ، واحتفظت الأغريقية القديمة فى نبرها بآثار من هذا الاستعمال ، وتستطيع اللتوانية حتى يومنا هذا أن تمدنا ببعض الأمثلة ^(١).

الأنفيات تزيد زيادة محسوسة فى قائمة الأصوات التى يصدرها الجهاز البشرى . ومع ذلك فإننا لم نصل بعد إلى قائمة الحساب . ومما يجعل قائمة الأصوات الممكنة لاتكاد تحد أن العناصر التى تكونها عناصر تغيير إلى حد كبير ، وهي مزودة بكثير من أوجه الخلاف .

فالحركة تنطق على نغمة معينة بشدة معينة وتستمر مدة معينة : فهناك الحدة والشدة والكمية وهي تسمح بمضاعفة وجوه الاختلاف فى حركة . وكما يمكن أن يوجد عدد من الكميات فى كل لغة ، وبما أن الدرجة والشدة تسمحان بتنويع التنعيم والجرس ، فإن هذه التشكيلات المختلفة تحمل فى نفسها مبادئ تنويع أخرى يتضاعف عددها . ^(٢)

لمبت الكمية فى اللغات الكلاسيكية دوراً يستطيع النظم «Versification» أن يطينا فكرة عنه ؛ ونقول مثل ذلك فى السنسكريتية أيضاً . أما عن الحدة

(١) ميه رقم ٩٤ ص ٨٩ .

(٢) فيما يختص بالكمية والحدة والشدة وعلاقة بعضها ببعض فى اللغات السلافية والبلطية : أنظر خاصة الدراسات المفيدة فرديناندى سوسير ، رقم ٦ ، مجلد ٨ ص ٤٢٥ ؛ ورقم ٣٠ أنز ، مجلد ٦ ص ١٥٧ ؛ وجونيو رقم ٦ مجلد ١١ ص ٣٣٦ ؛ وأنظر أيضاً فورتيانوف رقم ٢٢ مجلد ٢٢ ص ١٥٣ .

الموسيقية فلدينا منها أمثلة بينة في لغات الشرق الأقصى ، حيث يكفي الجرس وحده في تميز المعاني والقيم التي تؤديها بمض الكلمات مع اتفاقها في الأصوات .
حين نرى أحد المقاطع مثلاً في الصينية يُنطق بست نهات مختلفة أو بستة وجوه مختلفة الجرس ، فعنى هذا أن القطع يدل على ستة مسميات مختلفة . أما في اللغة الألمانية^(١) فالتنوع أوسع من ذلك : فقد أمكن أن يعد للقطع (كو Co) خمسة عشر وجهاً من النطق مختلفة ، تقابل دلالات يبين بعضها بعضاً كل التباين .^(٢)

هنالك أيضاً تنوعات أخرى ممكنة حتى في تكوين عامل الرنين الخاص بكل حركة . فهناك البدء الشديد « *attaque dure* » الذي يسميه الألمان *fester Einsaltz* والبدء اللطيف المسمى *attaque douce* وعند الألمان *leiser Einsaltz* والفرق بينهما ينحصر في الطريقة التي يجري عليها افتتاح الحنجرة عند إصدار الحركة البدئية . ففي حالة البدء الشديد تفتح الحنجرة فجأة وتزل الحركة عن كل ما تقدمها ؛ وهذا هو السلك المعتاد عند ألماني الشمال . وهو ذو طابع مميز حتى أنه يكفي لتمييز نطق ألماني من نطق الفرنسي والإنجليزي اللذين يمارسان البدء اللطيف . يستعمل أحد علماء الصوت الإنجليز وهو Ellis تشبيهاً جميلاً للإشعار بهذا الفرق : وصول النور في غسق الصباح يكون تدريجياً غير محسوس حتى ليستحيل تعيين النقطة التي عندها ينتهي الليل ويبدأ النهار ؛ هذا هو البدء اللطيف في الحركات . أما إذا فتحت أبواب النافذة فجأة عند الظهيرة ، فإن ضوءاً قوياً يندلع في الغرفة حتى ينمرها في لحظة واحدة ، ذلك هو البدء الشديد . بل إن هذا السلك ليس مقصوراً على افتتاح الحنجرة . فبعض اللغات مثل الدنمركية يستعمله أيضاً عند الإغلاق . هنالك لا يحصل الارتخاء أو الصدمة « *Choc* » كما تسمى *Stoss* بالألمانية و *Stod* بالدنمركية إلا في نهاية الحركات بعد أن يتم الإصدار . وقد نشر في الدنمركية على كلمتين مثل *anden* (ذكر البط) و *anden* (الآخر) ، لا يختلفان فيما بينهما إلا بوجود الصدمة *stod* أو عدم وجودها . وبعض اللهجات الإنجليزية ، ولا سيما اللهجة المتكلمة في اسكتلنده ، تقدم لنا

(١) كاديير Cad'ère رقم ٥٨ ص ٧٩ وما بعدها .

(٢) جرامون رقم ٦ مجلد ١٦ ص ٧٥ .

كذلك أمثلة حسنة على مايسمونه «glottal stop» أى التوقف الحنجري^(١) .
نطق السواكن أيضاً يحتمل اختلافات هامة جداً غير تلك الناشئة من الاختلاف
فى حركات الجهاز الصوتى التى تكلمنا عنها فيما سبق . ونوعان منها على الأقل
يستحقان الذكر هنا : تلك التى تنتج من المجهود العضلى وتلك التى تتوقف على
درجة انفتاح الحنجرة .

يجب أن ينبق الكثير من الجهد للوصول لإنتاج الحركات التصويتية فى كل
اللغات بقوة عضلية واحدة . وفى بعضها يقل المجهود إلى حد ضئيل ، فينتسلل
الكلام مستمراً هادئاً فى تبادل متصل . وفى بعضها على العكس من ذلك ، يوجد
احتجاز عضلى يعطى للسمع طابع المنف وتخلله أنواع من الاسترخاء المفاجئ
ومواقع الوزن والاصطدام .

وفى داخل كل لغة ، تتطلب بعض الأصوات اللغوية توتراً عضلياً أشد من غيرها .
هذه الحقيقة قد لفتت نظر الإغريق القدماء ، فجعلتهم يميزون فى سواكنهم بين
اللطيفة والقوية . وعلى العموم ، فالفرق فى الشدة مرتبط بالتضاد الذى بين المجهورات
والمهموسات . كانت تلك الحال موجودة فى الإغريقية القديمة ، وتلك هى الحال
فى الفرنسية حيث نجد السواكن الثلاثة ب p و t و k مهموسة وقوية فى
آن واحد ، والسواكن الثلاثة ب b و d و g على العكس منها مجهورة
وضعيفة . ولكن من اللغات ما يجهل هذا التوزيع أو ينظمه على نحو آخر . فأحد
الفروق التى تميز الانفجاريات الفرنسية من الانفجاريات الألمانية ، ولا سيما ألمانية
الجنوب ، أن الانفجاريات المجهورة ب b و d و g قوية فى الألمانية مما ينجل
لأذن الفرنسى أنها أصوات وسط بين المهموسة والمجهورة ، بل وفى بعض الأحيان
أنها أقرب إلى المهموسة منها إلى المجهورة . وعلى العكس من ذلك الانفجاريات
المهموسة ب p و t و k لطيفة غالباً فى ألمانية الجنوب ، إذا لم تكن
منفوسة كما سنرى .

هناك مبدأ آخر لإحداث وجوه الاختلاف فى نطق السواكن يحدث من

(١) جيسرسن ، رقم ١٧٣ ، ص ٧٩ .

درجة انفتاح الحنجرة . فتوجد انفجاريات من حنجرة مفتوحة وأخرى من حنجرة مغلقة .

في النطق مع انغلاق الحنجرة ، كما هي الحال في الفرنسية وفي اللغات السلافية والإغريقية القديمة ، تقترب شفتا الحنجرة أو الأوتار الصوتية أثناء إصدار الانفجاريات . فهي إذن مستعدة تماماً للدخول في الذبذبة من أجل الحركة التي تتلوها إذا كان الانفجاري مهموساً ، ومنذ بدء الانحباس لإحداث الرنين من أجل الانفجاري ، إذا كان الانفجاري مجهوراً على العكس من ذلك . في النطق مع انفتاح الحنجرة الذي تتميز به اللغات الجرمانية على العموم ^(١) ، يلزم للأوتار الصوتية بعض الزمن لتتمكن من اتخاذ الوضع الذي يسمح بالذبذبة ، سواء أكان ذلك في أثناء الحبس لإجهار الساكن أو بعد الانفجار مباشرة لإنتاج الحركة . وفي أغلب الأحيان يحدث تأخر طفيف ، نقص في التنسيق بين الانفجار وبين وضع الذبذبات الحنجرية في حالة المسير . الفرق الأساسي بين الانفجاريات الألمانية والفرنسية يقوم على أن الذبذبات الحنجرية في الألمانية تنتج في وقت متأخر عنه في الفرنسية . وهذا سبب آخر يجعل الفرنسيين عند ما يسمعون ألمانياً ينطقون باء ، دا ، جا ، ba, da, ga. يفسرونها على أنها با ، تا ، كا pa, ta, ka ؛ لأن الساكن مجهور في الفرنسية منذ بدء الانحباس ؛ وفي الألمانية الجزء الأول من الساكن مهموس ، لأن الجهر لا يبدأ إلا بعد الانحباس بوقت محسوس .

النطق مع فتح الحنجرة يجر إلى نتيجة أخرى . فطوال مدة الانفجار لا يكفّ الهواء المدفوع من الرئتين عن التراكم في الفم ، إذ لا شيء يعترض طريقه عند طرف القصبة ، بينما في حالة النطق مع انغلاق الحنجرة تعترض شفتا الحنجرة خروج الهواء ولو جزئياً . وينتج عن ذلك أن الهواء يخرج من الفم عند الانفجار بمنف في حالة النطق مع انفتاح الحنجرة ؛ لأنه في حالة النطق مع انغلاق الحنجرة تقوم الحنجرة في صورة ما بدور الملطف لتسيار الهواء . ويكون عنف الهواء من القوة بحيث نسمع عادة عند الانفجار تلك الضوضاء المميزة لخروج الهواء والتي

(١) ميه : رقم ٩٥ ، ص ٣٦ ، ورقم ٤ مجلد ١٦ ص ١٥٣ ؛ وجرامون رقم ٧٨ ص ٨٤ .

تسمى بالشهيق «aspiration» وما هي إلا تسمية خاطئة . هذا ولما كان وضع الذبذبات الحنجرية في حالة السير على نحو ما رأينا يقع متأخراً قليلاً بالنسبة للحركة التالية ، فإنه تنقضي مسافة زمنية طويلة أو قصيرة لا تكون الحركة خلالها قد وجدت بعد ، فيما يكون الساكن قد انتهى . هذه المسافة يشغلها الشهيق بطبيعة الحال ، فتحصل في نهاية الأمر على ساكن يسمى بالنفَس ؛ فبدل الباء p والياء y والكاف k تنطق به ph و th و kh . من السهل أن يسمع هذا التخالف من فم الثاني من الجنوب إذا طلب منه أن ينطق بالمبارات التالية : le pavé de paris, une tasse de thé, un Carreau de Cassé نحن يبيدون في هذا السرد عن استيفاء جميع الاحتمالات التي للأصوات اللغوية فإننا لم نمن حتى الآن إلا بالأصوات اللغوية الناتجة من زفر النفس . ولكن هناك أيضاً الأصوات اللغوية المسماة بالشهيقية . يمكننا من الوجهة النظرية أن نأخذ جميع أصوات القاعة السابقة ونصور أنها أنتجت بواسطة الشهيق ؛ وعندئذ يتضاعف عددها . هذا وإن عبارة الشهيق أو المشقة عبارة غير صالحة ؛ لأنه ليس في إنتاج الأصوات اللغوية التي نحن بصدد إدخال للهواء في القناة التنفسية ، فهذه الأصوات تقوم على حركة من المص ؛ وتسمى لذلك أصوات المصصة « clics » (١)

الأصوات اللغوية المشقة أو أصوات المصصة نادرة الاستعمال . ويؤكد بعضهم أن بعض لغات إفريقية تستعملها بصورة عادية ؛ ولكنها غير موجودة في النظام الصوتي للغات الهندية الأوروبية . وإنما يُقابل هنا وهناك من باب المصادفة المحضة . ومما ثبت أن نشوء الباء P في آخر الأفعال المسندة لمج التكلم في لغة أهل بريتانيا الفرنسية جاء من حدوث مصمصة clic (مثل karomp « يحب » ، من karom) (٢) . وهذه حالة استثنائية في لغات أوروبا الحديثة . وعلى العكس من ذلك تستخدم المصصات في كل اللغات لإحداث حالات

(١) ل . هاثي : رقم ٦ مجلد ٢ ص ٢٢١ ؛ ساكلو Sacleaux : رقم ١١٨ ص ٤٤ .

(٢) رسلو : رقم ١١٥ ، ١ ص ٤٩٢ ؛ وانظر أيضاً لوث Loth رقم ٨ مجلد ١٦ ص ٢٠١ .

التمجيد . فالفرنسية تستخدم تاء « ا » مشبهة للتعبير عن الشك أو لإثارة الانتباه ؛
وتشبه تاء « ا » من أصل الأسنان للدلالة على الإعجاب أو الدهشة ؛ وتشبه
الفاء يعبر أحياناً عن رضا الهم وأحياناً أخرى عن الإحساس بجهد أو ألم حاد
قصير ؛ وكلمة oui « نعم » تنطق بالتنفيس إذا كانت تعبر عن الشك أو المجاملة ،
وكذلك الحال في كلمة « لا » non إذا نطق بها بصوت منخفض وفي غير
الكرات .

الفصل الثاني

النظام الصوتي وتغييراته

عدد الأصوات اللغوية الممكنة يكاد يمتد إلى ما لا نهاية . وليس هناك من آلة موسيقية تساوى الجهاز الإنسانى فى تنوع الأصوات التى يصدرها . ولكن اللغات بعيدة عن أن تستعمل فى وقت واحد جميع المصادر التى فى حوزة الكلام . وعلى العكس من ذلك فإن الأصوات المستعملة فى كل لغة محدودة العدد .

لسنا فى حاجة إلى القول بأننا لا نستطيع إحصاء الأصوات المستعملة فى لغة ما بعدد الحروف الموجودة فى أبجديتها . فكل لغة فيها من الأصوات أكثر مما فى كتابتها من العلامات . تلك حال الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية . ومع ذلك فإن عدد الأصوات فى أية لغة لا يكاد يتعدى الستين عادة ؛ بل يمكن أن ينزل عن ذلك نزولاً محسوساً .

هذا الرقم ليس مما يشير الدهشة ؛ فإنه يُفسَّر بداهة بتنوع الأصوات فى الجهاز الإنسانى ، تلك الأصوات التى لا يمكن استعمال عدد كبير منها فى لغة واحدة دون أن تسبب مشقة لمن يتكلمها . هذا إلى أن من بين الأصوات الممكنة ما يستبعد بعضه بعضاً بسبب تكوين أعضاء النطق .

فى كل لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، فهى تكون نظاماً متجانساً متعلقاً ، تسجىم أجزاءها كلها فيما بينها ؛ هذه هى أول قاعدة من قواعد الصوتيات ؛ وهى ذات أهمية قصوى ، لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منفردة ، بل من نظام من الأصوات .

أولئك الذين يمارسون لغات أجنبية يشعرون جيداً بوجود نظام لغوى خاص بكل لغة . وعند ما ينتقلون من إحداها إلى الأخرى لا يشغلون أنفسهم ، لحظة النطق بكل كلمة ، بوضع أعضائهم الوضع الذى يناسب الأصوات المكونة لهذه

الكلمة ، وإلا لتعذر عليهم الكلام بسلاسة تعذراً تاماً : بل يكف في اللحظة التي ينتقلون فيها من لغة إلى أخرى أن يزودوا أعضاءهم بنوع من التوجيه العام مرة واحدة . وإذا كانت اللغة التي يتكلمونها أليفة لهم ، حصل في أعضائهم بصورة غير شعورية ، نوع من التحول يجعل جميع الأصوات الصادرة تصدر على طريقة اللغة الجديدة . فمثل التكلم بعدة لغات مثل لاعب الهرمونيوم الذي يستطيع بنقله للمشط أن يخلع على جميع الأصوات التي يخرجها قيمة خاصة . ويُحَسَّ هذا الانتقال من التعب الذي يعانيه الإنسان بعد أن يتكلم شطراً من الزمن لغة لما يمتد التكلم بها تماماً . لأن الأعضاء تكون قد قُمرت على أوضاع جديدة تستلزم جهوداً عضلية جديدة أيضاً . وإذا طالت هذه الممارسة التي تفرض عليها فإنها تعجل باتهاب هذه الأعضاء . وأولئك الذين يودون محاكاة نطق أجنبي في كلامهم بلغتهم هم ، يعرفون كذلك أنه يكفيهم الحصول على الأثر المطلوب بما يمكن أن يسمى بالتحول الصوتي ؛ فإدام هذا التحول قد وقع فعلاً أمكن قراءة صفحة من الفرنسية وقد بدا عليها طابع النطق الإنجليزي أو الألماني . وجود النظام الصوتي نتيجة لقانون من التوازن ، إذ ينشأ بين جميع الأعضاء التي تتعاون على التصويت نوع من الاتفاق الذي بمقتضاه يميل كل واحد منها بالوضع الذي يتخذه إلى أن ينسجم مع أوضاع الأعضاء الأخرى . بل إن الاتفاق لا يقتصر على وضع الأعضاء ، وإنما يمتدّاه إلى الاتفاق العضلي ؛ فبعض الأصوات مثلاً يلزم لنطقها نفس أكثر مما يلزم للأخرى ، أو يتطلب مجهوداً أعظم من حركات الأعضاء الصوتية . هذا إلى أن فروق الكمية تربط بها عادة فروق طابعية .

في الفرنسية تختلف الفتحة (a) والضمّة التي ترسم (u) في الطابع بوجه عام حسب إختلافهما في الطول والقصر : فلنلاحظ مثلاً إختلاف النطق بين patte وpâte وبين cote و cote ؛ وبين saute و sotte الخ ... ويوجد في الألمانية فرق مشابه بين القصيرة والع الطويلة ، وبين القصيرة والع الطويلة : هكذا في Reh, stehen في مقابلة retten, Stelle أو في Boden Sohu في مقابلة Gott و Kommen ، الخ . ويجرى الحال على هذا الذوال في كثير من اللغات .

النظام الصوتى بعيد كل البعد من أن يكون ثابتاً طوال تطور لغة من اللغات . ويستطيع الإنسان أن يفهم ذلك بسهولة إذا فكر فى الصورة التى ينتقل بها وفى الشروط التى تمسك عليه توازنه .

يستقر النظام اللغوى فى السنين الأولى من العمر . ويظل سليماً طوال الحياة ، إذا صرفنا النظر عن الحوادث العرضية التى قد تصيب الأعضاء . ولكن تحصيل اللغة لا يقع دفعة واحدة . فى أثناء هذه السنين الأولى التى لها أهمية عظيمة فى نشوء الكلام يخزن الطفل يوماً بيوم وبشكل مستمر الكلمات التى يجتهد فى إرازها كما حفظها . فليست الأصوات هى التى يتعلم النطق بها ، بل يتعلمه بالكلمات أو مجموعات من الكلمات . وإذن يجب على أعضائه أن تخضع للنطق بترتيب من الأصوات قد تكون فى بعض الأحيان على درجة كبيرة من التعقيد . ولما يصل إلى الصواب من أول خطوة ، بل عليه أن يراجع الكرة مراراً مصححاً نطقه على نطق الأشخاص الذين يكلمونه حتى يعتقد أنه قد وصل تماماً إلى محاكاة مسمع . والصورة التى يتخذها نهائياً فى ختام تعلمه هى التى تكون نظامه الصوتى ، وهو يقيمه على محاسن متتابعة واستبعاد للأصوات التى التقطها فى صورة خاطئة وبما يكسب أعضائه من مرونة قصد الوصول إلى نطق كامل^(١) . بعد ذلك يتم له تنفيذ الحركات فى صورة آلية . فهناك ذاكرة للأعضاء يمكن أن تقارن بذاكرة أصابع لاعب البيانو التى تنتقل بين الأزرار بصورة آلية كلما وقعت عينه على النغمات المسجلة فوق الصحيفة .

انتقال النطق من جيل إلى جيل غير متصل ، بمعنى أن الطفل مضطر إلى حفظ كل شيء . وأغلب الظن أن استمدادات الطفل الموروثة تلعب دورها فى هذا التعلم . ولكن يمكننا أن نقدر دون عناء العوارض التى يمكن أن تمرض لسلامة النطق فى كل جيل . فمن النادر جداً أن يكون نظام الطفل الصوتى بعد أن تنتهى مرحلة التعليم مماثلاً تماماً لنظام والديه . بل إن من علماء الصوت من يذهب إلى أن ذلك لا يقع مطلقاً .

(١) أنظر المؤلفات التى ذكرناها فى نهاية الفصل السابق وسما ١ . فيه رقم ٩ ج ١

في هذا اللعب بالحركات المعقدة الذي يكون النظام الصوتي ، قد يحدث لأحد الأعضاء أن يبالغ أو أن يقصر في أداء عمله ولو بقدر ضئيل ، أو قد يمرض لعضلة شئ ، من التراخي أو الإبطاء في إخراج إحدى الحركات ، أو قد يمرض لها على العكس من ذلك زيادة في القوة أو السرعة . ومن ثم ينجى الاختلاف في النظام الصوتي بين جيلين متتابعين . هذا الاختلاف قد يضؤل وقد لا يثير لدى السامع أى تغير محسوس ؛ ومع ذلك فهو خطير النتائج لأنه لا يشتر بشئ ، أقل من انقطاع التوازن في النظام : هذا إلى أن الاختلاف قد يلحظ بوضوح في بعض الأحيان : الطفل ينطق مختلفاً عن أبويه ، فيحلّ سلسلة جديدة من الأصوات محل السلسلة التي كان يملكها أبواه . وهكذا يرى الطفل الذي يضغط بظرف لسانه على قبة أصول الأسنان بدلا من الضغط على الأسنان نفسها يصدر سلسلة الأسنان الإنجليزية ت ، د ، و دله بدلا من السلسلة الفرنسية .

هذا النوع من التنوير الصوتي يقدم لنا عدة صفات على جانب من الأهمية . فهو أولاً غير شعورى . فالطفل الذي يتقدم لسانه إلى مدى بعيد أو إلى حد غير كاف لا يلتفت إلى ما يقع فيه من إسراف أو نقص . يعتقد أنه يقوم بنفس الحركات التي يقوم بها أبواه مع أنه يخالفهما . فعدم شعورية التنوير هو الذى يفسر لنا استمرار لأن الطفل قد يسمى إلى تصحيح خطئه لو أنه شعر به .

يزيد على هذا أن التنوير مطلق ، ومعنى ذلك أنه يتحقق في صورة تامة لا مرد منها ، فليست المسألة خلقاً اختيارياً يضيف إلى النظام عنصراً جديداً ؛ بل إنها مسألة تحول في عنصر موجود . هذا التحول يفترض أن الطفل قد عجز عن تكرار الصوت المسموع تكراراً مضبوطاً . بل إنه لما يلفت النظر أن الصوت الذى استبدل به غيره يصير أشق الأصوات الغريبة على النظام وأعسرهما على من يريد النطق به . وليس أصعب على فرنسى اليوم من نطق اللام المائنة بعد أن فقدوا هذا النطق .

وأخيراً فالتنوير مطرد ، بمعنى أنه يتم في اتجاه محدد بالتغيرات السابقة . هذا الطابع يفسر بطبيعة العناصر التي يقوم عليها توازن النظام . يوجد في كل نظام (م — ٥)

صوتى عناصر غالبية تسود غيرها . فيمكن دائماً ، إذا أريد وصف نظام للهجة ما ، إرجاع كل تفاصيل هذه الهجة إلى بضع قواعد عامة من وضع اللسان وشدة النفس والمجهود العضلي . . . الخ . هذه القواعد العامة ذات قيمة مؤقتة مادام النظام الصوتى يتغير إن قليلاً وإن كثيراً من سن إلى أخرى ؛ ولكنها ما دامت موجودة فإنها تكون أساس اللغة وكأنها بمثابة هيكلها العظمى . فإذا ما نظرنا إليها باعتبار توالى العصور رأينا أنها تنبئ عن اتجاهات اللغة . ومن هنا نلاحظ ، إذا فهمنا حالات اللغة التاريخية المتتابة ، أن التغيرات التى تبدو فى حالات اللغة المتأخرة كانت توجد أجثة فى حالاتها السابقة .

المثال الكلاسيكى الذى يذكر عادة لاطراد التغيرات الصوتية هو « الاستبدال المباشر للسواكن » فى الجرمانية ، ذلك الذى يسميه الألمان Lautverschiebung^(١) وتلاحظ هذه الظاهرة فى لغات أخرى غير الجرمانية مثل الأرمنية والأوسية^(٢) . وتنحصر نقطة البدء فى هذا الحذف فى الفرق بين النطق مع إغلاق الحنجرة والنطق مع فتحها (أنظر ص ٥٨) .

إذا اعتاد شعب على النطق مع فتح الحنجرة كما يفعل الجرمانيون ، تعرضت الانفجاريات المجهورة والمهموسة لسلسلة من التغيرات ناجمة عن التأخر فى وضع الذبذبات الحنجرية فى حالة الحركة (أنظر ص ٥٩) . فمن جهة لما كان تذبذب الأوتار الصوتية لا يبدأ بعد الحبس مباشرة فى مجموعه مثل با ba أو دا da ، صار جزء من الساكن مهموساً ، سواء أكان هذا الجزء صغيراً أم كبيراً . وأخيراً ينتهى هذا الميل بتحويل المجهور كله إلى مهموس . ومن جهة أخرى فى مجموعة مثل تا ta pa ، يوجد بين انفجار الانفجارى وإنتاج الفتحة التى تليه وقت طويلاً أكان

(١) التفسير الذى ثبتته هنا هو الذى يقول به عامة علماء اللغة الفرنسيين لهذه الظاهرة (ميه : رقم ٩٥ ص ٢٧ ؛ جوتيو : رقم ٦ مجلد ١١ ص ١٩٢ ؛ فندريس : رقم ٩٩ ص ١٣٠) . ولكنه ليس رأى الجميع ؛ ف . فونت : رقم ٢٢٣ ج ٢١٥ ص ٤٠٥ ؛ ه . مير : رقم ٣٥ ج ٤٥ ص ١٠٧ وما يليها ؛ هيرت : رقم ١٦٧ ص ٦١٦ ؛ س . فيست : رقم ٢٦ مجلد ٣٦ ص ٣٠٧ ومجلد ٣٧ ص ١١٢ .

(١) لغة أهل بلاد القوقاز الوسطى ، ويبدو أنهم من ذرية الإيرانية الأقدمين .

أم قصيراً . ولكن الانفجار يترك للهواء حرية المرور . ومن هنا ينجى المبل الطبعي نحو تحول الانفجارى إلى تنفسى أو حتى إلى احتكاكى انفجارى إذا كان الانفجار على درجة شديدة من الحدة ولم تستطع الأعضاء أن ترجع مباشرة إلى وضعها في حالة الاستراحة رغم اندفاع الهواء المفاجئ باحثاً عن سبيل للخروج . وعندئذ يتحول النطق إلى tha ، بها pha أو إلى tsa و pfa ؛ والمآل الطبيعى للتنفسية والانفجارية الاحتكاكية أن تصير الاحتكاكية (فاو ثا) إذا كان دفع الهواء يجعل الانفجار غير تام .

كلتا العمليتين اللتين عرضناها الآن تلعبان دوراً كبيراً في تاريخ اللغات الجرمانية . فهما يجب أن نفسر كون الانفجاريات المجهورة في الهندية الأوروبية يقابلها دائماً مهموسات في الجرمانى المشترك (في القوطية skapjan « يشكل » itan « يأكل » ، وفي الألمانية العليا القديمة melkan « يحلب » وذلك في مقابلة الكلمات اللاتينية mulgeo , edo , scabo) ، والانفجارية المهموسة تقابلها دائماً احتكاكية ، (في القوطية hilfan « يسرق » ، thahan « يسكت » في مقابلة الإغريقية χύπτω واللاتينية taceo) . هذان وحدهما النوعان من أنواع الإبدال المباشر الميزان للجرمانية^(١) . لكن الاحتكاكى الناتج من الانفجارى المهموس لا يكون مهموساً دائماً ، فهناك حالات يكون فيها مجهوراً . وقد بين العالم اللغوى الدنمركى فرز Verner^(٢) ، أنه لا يكون مجهوراً إلا في الكلمات التى لا يكون فيها القطع التالى منبوراً في الهندية الأوروبية .

الواقع أن عدداً من الاتجاهات الأخرى قد وجدت فاختلطت بأثر الإبدال المباشر . منها مثلاً ذلك الاتجاه الذى يظهر في بعض اللغات الأخرى ويعمل على أن تصير الاحتكاكية المهموسة مجهورة إذا وقعت بين حركتين (اكتشاف فرز لا يضيف إلى ذلك إلا بعض التصحيح) . ومنها ذلك الذى ينحصر في أن

(١) اعتاد الألمان ، وتبهم علماء اللغة في البلاد الأخرى في غالب الأحيان ، أن يسموا قوانين الإبدال المباشر في الجرمانية قوانين جريم مع أن راسك Rask الدنمركى قد اكتشفها قبل جاكوب جريم ؛ أنظر پدرسِن Pedersen : رقم ٢٣٠ ص ٥٢ ومايلها .

(٢) في مقال مشهور رقم ٣٧ ج ٢٣ ص ٩٧ .

الاحتكاكيات المجهورة تقاوم الضعف الذى يصيبها ، وذلك بفضل استبدراك التكلم ، فتصير انفجارية مجهورة . والحالة الثانية قد وقعت فى الألمانية ، فالكلمات الانجليزية thin (رفيع) و thumb (إبهام) أو thorn (شوكه) يقابلها فى الألمانية الكلمات dünn و Daumen و Dorn التى كانت تبدأ باحتكاك قبل أن يصير انفجاريًا . ولكن هذا التطور يظهر فى أوضح صورة فى حالة الأصوات الأسنانية ؛ بل إنه يمتد فى شكل مبهر خارج الميدان الألماني (فى الإنجليزية gold « ذهب » wild « متوحش » فى مقابلة guth و wiltheis فى القوطية) . فى هذا الميدان يلاحظ أن نفس التطور موجود بالنسبة لبعض الاحتكاكيات الأخرى ^(١) : ففى بعض اللهجات نرى القاء w تصير باء b إذا كانت فى أول الكلمة (bas بدلا من was أو beil بدلا من weil) أو الـ l تصير g إذا وقعت بعد الـ r (Ferge « قائد طيارة ، دليل » ، Scherge « جاويز » ، وهما مشتقتان من الكلمتين القديمتين verjo و scerjo) .

هذه الأمثلة ترينا أنه لا ينبغى أن نعزو إلى مبدأ واحد جميع التغيرات التى طرأت على السواكن الألمانية . ولكن مما تجدر ملاحظته أن الاتجاه العام الذى يظهر فى حالات الإبدال منذ ما قبل التاريخ يظل خلال جميع التقلبات الناتجة من ظروف خاصة ، محسوس الأثر فى تاريخ اللغات الجرمانية بأسره : فثلا بعد أن آمنت الألمانية العليا القديمة حوالى القرن السادس بعد الميلاد إبدالا مباشرا فى الساكن للمرة الثانية ، نرى الألمانية الحديثة — فى الأقاليم الجنوبية على الأقل — تمهد لإبدال ثالث ؛ وهناك إبدال جديد فى سبيل التحقق فى مكان آخر من هذا الميدان ، أعنى اللغة الدنمركية ^(٢) .

ظاهرة مثل ظاهرة الإبدال المباشر فى السواكن ، وهى من خير الأمثلة على الاطراد والاستمرار ، ترينا فى عين الوقت أن التغير الصوتى يمكن أن يمتد على مجموعة من السكان هامة فى غالب الأحيان . فلا يكتفى إذن لتقويم طبيعة تنير من التغيرات

(١) بهاجل Behaghet : رقم ١٤٤ س ٢٠١ و ٢٠٢ .

(٢) براونه Braune : رقم ٢٦ ج ٣٦ س ٥٦٤ .

أن تقارن نطق طفل بنطق أبويه ، بمعنى أن نعتبر فرداً واحداً منزهلاً في كل جيل .
لأن التنمير الوحيد الذي يعتبر في عين العالم اللغوي هو التنمير الذي يظهر في كلام
مجموعة من الأفراد .

التغيرات اللغوية تنتج على وجه الخصوص في الانتقال من جيل إلى جيل آخر .
ولكن لا بد من التفرقة بين التغيرات الفردية والتغيرات المشتركة بين جميع
الأطفال في نفس الجيل . فقد يحدث أن أحد الأطفال لا يستطيع النطق ببعض
الأصوات نتيجة لاستعداد خبيث مسرورث ، أى أن يكون عنده بعبارة أخرى
نقص في النطق . هذه الحالات من النقص الفردي ، في غالب الأحيان ، لا تعنى
غير الطبيب . وغاية ما يعنى العالم اللغوي من أمرها أنه قد يستدل بها على اتجاهات
اللغة . فأحياناً لا تكون هذه الأنواع من النقص في الواقع إلا مبالغة في ميل طبيعي .
وفي هذه الحال يكون شأنها شأن الأعراض من حيث إنها تعلن عن قطع الضعف
في النظام ؛ فهي تربنا في أى مكان تنهار المقاومة وفي أى اتجاه تهتد بعض الاتجاهات
الجديدة أن تخرج إليها اللثة . ولكن هذه الحال تتطلب من العالم اللغوي أشد الحذر
ويمكن بوجه عام أن تترك خارج دائرة البحث ، فللتعرف على وجود أى اتجاه يجب
أن تشمل الدراسة أكثر من فرد .

ساد شرطاً طويلاً من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتي إنما يصدر عن الفرد
وأنه لم يكن إلا تنميراً فردياً ثم عُمِّم . وهذا إدراك للأشياء غير صحيح . فليس في
وسع أن فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تنبؤ عنه فطرتهم ؛ وليس هناك من قسر
جدير بتعميم تغير صوتي . فلاجل أن يصير تنمير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية ، يجب
أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تلقاء أنفسهم (١) .
بل إن سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شيء . فإن النطق الشاذ لا يجلب
أتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه .

قد يعترض معترض بتأثير الجدة ذلك التأثير الذي لا يمكن إنكاره في بعض
الحالات . فكلنا نعرف أن المجتمع الراقى في عهد حكومة الديركتوار كان يعمد

(١) ميه ، رقم ٩ ج ١ ص ٣١١ ، وج ٢ ص ٨٦٠ ؛ ورقم ٢ ج ٩ ص ٥٩٥ .

إلى عدم النطق بالراء محاكاة لآل بوهارنيه الذين كانوا لا ينطقون بهذا الحرف لعادة المولدين Créoles : وقد أدى ذلك إلى « بدعة الأنكوبايل » Les incroyables التي لم تستمر إلا وقتاً قصيراً ، ولم يبق منها إلا بعض الأساطير في الرسومات وكتب الأقاصيص . وقد عرف العالم القديم بدعاً مماثلة . فالسياد كان من عادته أن ينطق الراء لاماً (أرسطوفان ، الزناير ، ص ٤٤ و ٤٦) ، فظن ابنه من الخير أن يحاكيه (أرشيپوس Archippos ونقل عنه بولتارك Plutarque في حياة ألسياد ، ص ٤١) . وبتهكم كاتول Catulle على روماني معاصر له ، اسمه Arrius ، كان ينقّس حرف C في اللنة اللاتينية ، محاكاة للاغريق ، فيقول chommoda بالشين بدلاً من commoda بالكاف .

هذه حالات استثنائية ، إذا فسّرت تفسيراً لائقاً أثبتت صحة القاعدة . إذ يلاحظ أن هذه التغيرات الصوتية لم تنته إلى نتيجة . فقد استمر الرومان على نطق الحرف C انفجارياً ؛ وتاريخ حرف C في اللغات الرومانية لا يبدو فيه أى اضطراب من جراء البدعة التي مثلها أريوس . بل ظلّ النطق الشاذّ لهذا المتحدث غريباً على النظام الصوتي عند اللاتينيين نعم لقد كان من الممكن أن يستمرّ في بعض الكلمات المنعزلة وقتاً طويلاً أو قصيراً . ولكن المسألة في هذه الحال لا تكون مسألة صوتيات بل مسألة مفردات . هذا إلى أنه يجوز لنا أن نتساءل إذا لم تكن الهواية التي يسخر منها كاتول إنما هي في الواقع مسألة مفردات لا أكثر من ذلك . إذ يبعد عن الاحتمال أن يكون أريوس قد غيّر جميع C (ك) في لسانه إلى oh (ش) ، أى أن يكون قد أبدل نطقاً من نطق بطريقة منظمة : بل لعله أحلّ الشين ch مكان الكاف C في بضع كلمات ليخلع عليها طابعاً إغريقياً .

تختلف عن ذلك حالة الأنكوبايل الذين أدخلوا في الفرنسية العادية ، فرنسية باريس ، عادة نطقية من لهجة فرنسية أخرى ، هي لهجة المولدين في جزيرة المرتليك . وإذن فإبعاد الراء من الفرنسية يبدو حينئذ مطابقاً لاتجاه عام في اللغة ،

على الأقل فيما يخصّ الرأء الحلقية التى تتميز بها فرنسية باريس . واليوم نرى هذه الرأء لا تحس إلا بقدر ضئيل فى بعض الأوضاع ، إذا جاءت بعد ساكن فى نهاية الكلمة أو وقعت بين حركتين . ولعلها كانت قد اختفت من اللغة الفرنسية لولا تأثير المدرسة والكتابة التقليدية . والرأء الإنجليزية التى من أصول الأسنان فى طريق الاختفاء أيضاً وإن كانت من مخرج آخر . فكثير من الإنجليز لا ينطقونها اليوم ، وإن كانوا لا يعرفون ذلك .

* * *

جرت العادة فى علم اللغة على أن يطلق على التغيرات الصوتية اسم القوانين^(١) ، مثل تلك التى تسمى قوانين « جريم Grimms » المتعلقة بالإبدال المباشر فى السواكن الجرمانية . ومن ذلك يستطيع المرء أن يكون فكرة عن القيمة التى يجب أن تعطى لكلمة « قانون » هنا .

وهناك جملة ظلت شهيرة ، تعلن أن « القوانين الصوتية تسير فى صورة عمياء ، وبمحتمية عمياء (die Lautgesetze wirken blind , mitblinder) ، وبمحتمية (Notwendigkeit)^(٢) .

هذه الجملة التى أثارَت فى حينها مناقشات حادة لا تغير اليوم سوى الا بتسام . وأقل ما يقال فيها أنها جريئة ، إذ تضفى على القانون الصوتى سلطة لا مبرر لها . فالقانون الصوتى لا يمارس حدثاً وليس « ضرورياً » بالمعنى العلمى للمصطلح . وكلمة « قانون » ، وقد استعملت هنا على ضلال ، هى التى جرت إلى الخطأ . يُسنّ القانون إيهيمن على أعمال الإنسان ، ومن ثمّ كان فعله متبجحاً نحو :

(١) أنظر مراجع Van Ginneken رقم ٧٧ س ٦٢ ، وخاصة ميبه : القوانين الصوتية رقم ٩ ج ١ س ٣١١ ؛ Wechessler : Gibt es Lautgeretze ? (هل توجد قوانين صوتية ؟) Das Wesen der Lautgesetze : B. Delbrück ; (ماهية القوانين الصوتية) رقم ٢٤ ج ١ س ٢٧٧ — ٣٠٨ عام ١٩٠٢ ؛ ج . فندريس : تأملات فى القوانين الصوتية ، رقم ٩٩ س ١١٥ — ١٣٠ عام ١٩٠٢ ، Baudouin de Courtenay رقم ١٤٢ .
(٢) هى للعالم القنوى الإنسانى هرمن ستوف Hermann Stoff (١٨٩٠) . وكان البدء فى إقامة القوانين الصوتية بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٨٠ بوجه عام . أنظر شوخارت ، رقم ٢٠٤ .

المستقبل : فقانون المقويات يصنف حسب الجناة ، والقانون الذى يعلى على المواطنين مسلحهم . لذلك كان من الاتساع السىء أن أطلقت كلمة قانون على الحقائق الطبيعية الناتجة من الاختبار ؛ كما فى الطبيعة أوفى الكيمياء . والذى ساعد على هذا الاتساع أن العلاقات التى يكشف عنها الاختبار فى هذه العلوم بين الظواهر المختلفة هى علاقات دائمة ، حتى ليدو كأن القانون ، وهو تعبير مجرد عن هذه العلاقات ، سابق على الاختبار وإن كان فى الواقع متأخراً عنه . ولكن من إساءة الإستعمال فى اللغة على كل حال أن تضفى على القانون صفة الإلزام .

إن القوانين الصوتية لا تشبه حتى قوانين الطبيعة والكيمياء . فالذى يجمع بين حالين متباينين فى لنة واحدة إنما هو رباط تخلقه وليس رباطاً طبيعياً ؛ لذلك لا يمكن أن نعرف مقدماً كيف يتطور هذا الصوت أو ذاك ، لأنه يوجد دائماً فى تطور الأصوات عدد يكثر أو يقل من العوامل غير المنظورة التى تنتج أثرها . ومع ذلك فالقانون الصوتى ، بوصفه تعبيراً عن تغير وقع فى الماضى ، له صفة الإطلاق . هذه الصفة نتيجة لانسجام النظام الصوتى واطراد التغيرات (أنظر ص ٦٥) . ولما كان التغير لا ينحصر فى كلمة منمثلة ، بل فى آلية النطق نفسها ، فإن جميع الكلمات التى تتبع آلية واحدة فى النطق تتغير بنفس الصورة . هنا مبدأ القوانين اللغوية بأسرها ؛ وهذه القوانين ليست إلا عبارات تلخص هذه العمليات ، وإلا قواعد من الارتباطات .

بواسطة القوانين الصوتية يمكننا أن نصوغ فى بضع عبارات تاريخ الأصوات فى لنة من اللغات أو أن نكشف عن سر التغيرات التى أصابها . وإذا عرفت من اللغة كلمة يرر القانون صيغتها ، عرفت مقدماً صيغة جميع الكلمات الأخرى التى تقع تحت طائلة هذا القانون . وإذا كان هناك لهجتان صادرتان عن لنة واحدة تبعاً لقوانين خاصة ، فإن مظهرهما الصوتى يستبين بمعرفة هذه القوانين . وإذا عرفت أن الألمانية قد أبدلت ال z « تس » من ال t « ت » القديمة الواقعة فى أول الكلمة والتى احتفظت الإنجليزية بها ، أمكن تفسير Zähre فى مقابلة tear « دمة » ولكننا نفهم أيضاً المقابلة التى بين Zehn و ten « عشرة » وبين Zwingen « بقسر »

و twinge « يضنط » ، وبين Zunge و tongue « لسان » الخ : فالواحدة من هذه الكلمات تنبئ عن الأخرى . وقد حدث لبعض علماء اللغة أحياناً أن يبنوا بادئ ذي بدىء صيغة لكلمة غير موجودة ، ثم وجدوا لها فيما بعد ما يبررها باكتشاف نص جديد . فالقوانين اللغوية أساس كل عمل يمس الاشتقاق . والاشتقاق الذى يسقطها من حسابها يضيع وقته عبثاً .

من السهل أيضاً إثبات ما يمكن أن تقدم هذه القوانين من خدمات فى دراسة اللغات الأجنبية . إذ يمكن فى تعلم لغة جديدة ، أن نحصل على مساعدة قيمة من معرفة قواعد الصلات التى بين هذه اللغة الجديدة واللغات التى نعرفها من قبل . وهكذا إذا عرفت أن الإسبانية تبدل من الفاء f اللاتينية هاء (h) عند ما تكون فى أول الكلمة ، فإنى أعرف مقدماً أن hacer هى فى الفرنسية faire « يعمل » و harina هى « farine دقيق » و heno هى foin « دريس » hierro هى fer حديد و hijo هى fils « ابن » و hoja هى feuille « ورقة » و humo هى fumée « دخان » ، الخ . وهناك فى مثل هذه الأحوال نوع من الحس يقود إذا كررته بل يستماض به عنها عند الحاجة فى العثور على صيغة الكلمة مع شئ من ضمان صحتها . ومع ذلك فبحال الخطأ موجود . بل هنالك من أخطاء الكلام ما هو ناجم من تطبيق القوانين الصوتية تطبيقاً خاطئاً أو مبالغاً فيه (من ذلك حالات المبالغة اللهجية أو المبالغة المدنية التى سنتكلم عنها فى أواخر هذا الفصل) . ففى الحالة البالفة الذكر يخطئ الإنسان إذا أراد أن يبنى بادئ ذي بدء اسم النار « feu » بالإسبانية اعتماداً على الصيغ المقابلة لها فى اللاتينية focus والإيطالية fuoco والفرنسية feu . لأن الصيغة الحقيقية هى fuego وليست fuego ذلك بأن انتقال الفاء f البدئية إلى هاء h لا يقع فى الإسبانية قبل حرف " إذا تلتته حركة . واللهجات الفسقونية تذهب فى هذا الصدد إلى أبعد مما تذهب إليه الإسبانية فتقول فى feu « نار » huec . محققة انتقال الفاء f البدئية إلى هاء h فى جميع الأوضاع ^(١) .

(١) أنظر فيه : علم اللغة التاريخى وعلم اللغة العام ، رقم ٢٢ ، (١٩٠٨) ، ص ٥ .

أول ما يجب العناية به على العالم اللغوى أن يحدد بالضبط شروط تطبيق القانون ومدى انتشاره فى المكان والزمان .

الواقع أن التغيرات الصوتية محدودة بالزمان : فإدام التغير قد أصاب جميع الكلمات التى تقع تحت طائلته ، يصيب القانون الذى يفسره وكأنه قد نسخ . ويمكن للغة أن تخلق مركبات صوتية جديدة مشابهة كل الشبه للمركبات التى كان التغير يعمل فيها سابقاً . هذه المركبات تبقى دون تغير ؛ فيقال إنها لم تعد واقعة تحت سلطة القانون . وهكذا يوجد فى كل اللغات مزدوجات ، تمثل كلمات من منبع واحد دخلت اللغة فى حقب مختلفة ؛ وتعرف أقدمها بكونها أكثر تشويهاً ، فهى قد عانت فعل التغيرات الصوتية التى توقفت عن العمل فى التاريخ الذى دخلت فيه الأخرى . فمعدنا فى الفرنسية *avoué* ^(١) و *avocat* (محام) وكذلك *loyal* (وفى) و *légal* (مشروع قانوناً) ويرجع كل زوج منهما إلى أصل لاتينى واحد . وعندما دخلت الكلمة الثانية من كل زوج منهما فى اللغة الفرنسية ، وكان دخولها بطريق يخالف دخول الأولى ، كانت التغيرات الصوتية التى أثرت فى الأولى قد كفت عن العمل منذ زمن طويل .

وقد يحدث لبعض القوانين الخاصة بالعلاقات المقررة بين بعض اللغات أن تصير فى حالة نقص بسبب استعارات عديدة . فى الألمانية تقابل السين المضمّنة ss التاء البسيطة أو المضمّنة فى الإنجليزية إذا كانت داخل الكلمة : فكلمة *besser* « أحسن » تقابل *better* (أحسن) ، كما تقابل كلمة *wasser* (ماء) كلمة *water* . ولكننا نجد اللتين تعبّران عن كلمة زبد بلفظ واحد هو *butter* كما نجد فى الألمانية *Messe* وفى الإنجليزية *mass* « عيد » فى الكلمتين (*Lammas* و *Christmas*) وكل حالة من الحالتين تناقض القانون الصوتى السالف الذكر فى اتجاه مخالف . ذلك أن *butter* و *mass* (*Messe*) مستعارتان من اللاتينية .

(١) المراد بهذا المصطلح رجل القانون الذى يعهد إليه الموكلون بمباشرة القضايا ، وهو نظام متبع فى القضاء الفرنسى . العربان .

وحتى لو أننا حاولنا أن نعمل حساب الشروط التي تحرر طاقة القوانين الصوتية ومدى انتشارها وتسمح بتفسير الحالات التي ظاهرها الشذوذ على أنها أحداث طبيعية ، فإننا لا نتجح دائماً في تجنب جميع الصعاب ؛ لأن منها ما هو لاصق بالطريقة نفسها . ولأن القانون الصوتي من جهة أخرى لا يعطينا إلا معلومات ناقصة عن طبيعة التغير الذي يسجل نتيجة ، وليس هو بعد كل هذا إلا حلاً وسطاً يلخص عمليات مختلفة معقدة .

يجب في التغيرات الصوتية أن تميز تلك التي تحدث بالاستبدال من تلك التي تحدث بالتطور . فهناك تطور عند ما يتحول صوت إلى صوت من تلقاء نفسه بطريق التجدد الطبيعي . في فرنسية الإيل دي فرانس^(١) ، نرى ال « e » اللاتينية (فتحة مماله) وهي الطويلة المقفولة قد صارت على التوالي « e » ثم « wa » (تكتب اليوم oi) وفقاً لرسم قديم أصبح منذ القرن الثالث عشر لا يمثل النطق تمثيلاً صحيحاً) . فنحن نطلق « لوا » و « روا » و « pwar » « بوار » و « lwar » « لوار » الكلمات التي تكتب « loi » « قانون » و « roi » « ملك » و « Poire » « كثرة » و « loir » « حيوان قارض » . هذا هو النطق الطبيعي في باريس . فإذا سمع هذا النطق في لهجات بعض الأقاليم الثانية ، فذلك ناشئ في غالب الأحيان استعارة من كلام باريس وليس تجديداً طبيعياً في هذه اللهجات . وبرهان تلك الحقيقة موجود في ذلك الكلام نفسه الذي لا يزال يحتفظ بنطقه الطبيعي في صورة أقدم عهداً أو في كلمات خاصة متفرقة : فمثلاً قد نسمع في إحدى لهجات الريف . un lèr « ليه » بدلاً من loir (لوار) إلى جانب كلمة une poire (پوار) . فنطقه « پوار » على هذا النحو من عمل المحاكاة ، يعني الإستعارة^(٢) .

أهمية الاستعارة فيما يتعلق بالتغيرات الصوتية تتجلى في تكوين جميع اللغات الأدبية . فن عمل الإستعارة ما نراه في لهجة ألمانيا الشمالية من استبدال « ai »

(١) الإيل دي فرانس : مقاطعة فرنسية قديمة كانت تشمل باريس والمقاطعات المحيطة بها المرين .

(٢) عن طابع الاستعارات في اللهجات أنظر جرامون ، رقم ٧ ، مجلد ١٠٠ ، ص ٢٩٣ وتراشيه Terracher ، رقم ١٢٤ ، المقدمة .

و au-أو مكان الكسرة ؛ والضمة u البسيطتين ؛ فالنغير لم يقع من تلقاء نفسه .
كذلك الحال عند ما يعتق النسكونى النطق الألمانى المادى فيقول müssen
(بالضمة المالة إلى الكسرة) و schon بدلاً من أن يقول missen (بالكسرة)
و schen (بالكسرة المالة للفتحة) ، فهذا تنير بالاستبدال لا بالتطور^(١).

ولكن نص القانون الصوتى لا يكشف عن طبيعة النغير ؛ فلا بد إذن من
دلائل إضافية وتحقيق خاص لمعرفة إلى أية بقعة من الإقليم يكون النغير طبيعياً ناتجاً
من تلقاء نفسه ، وابتداء من أى حد يكون ناتجاً من الاستبدال بالمحاكاة . ولعله
مما يحدث غالباً في تاريخ اللغات القديمة أنه عندما يصاغ قانون صوتى يشمل جميع
الإقليم فإنه يدخل تحت هذا القانون أشياء مختلفة وذلك يؤدي إلى خلط الاستبدال
بالتطور عن غير قصد .

وهناك أسباب أخرى كثيرة تنحى على القانون الصوتى . فعندما نقول بأن الهاء
المنفصلة h أو القاء w (digamma) قد اختفت من اليونانية فإننا نلخص
في بضع كلمات تطوراً في غاية التعقيد لا يعنى الصوتيات وحدها . فيجب أن نرجع
إلى المرض الجمل الذى عمله منبه^(٢) لرى التقلبات التى مر بها نطق هذين
الصوتين . وكيف ساعدت ظروف سياسية أو اجتماعية على الاحتفاظ به أو إحيائه
من جديد في بعض اللهجات ، وعلى استبعاده في البعض الآخر . والواقع أنه إذا
كانت الهاء h المبدئية قد اختفت من لهجات اليونان الحديثة فإن تاريخ اختفائها
يمتد على حقبة طويلة من الزمن ؛ لقد اختفى النطق بهذه الهاء في يونية آسيا
وإبولية لسبوس في زمن مبكر ، ولكننا نجد آثاراً أكيدة من وجودها بعد الميلاد .
وأطول من ذلك الوقت الذى لزم لإختفاء القاء w ؛ فقد فقدتها اليونانية والأتيكية
في فترة ما قبل التاريخ ، أما في لاكونيا فقد ظلت تنطق حتى العهد الذى جمع فيه
للقاموس الذى نقل عنه هيرخيوس Hésychius ولعلها تنحى اختفاء تاماً من
هذا الإقليم في يوم من الأيام ، إذ يبدو أن التساكونية الحديثة ما زالت محتفظة

(١) يوارو : رقم ٢ ، مجلد ٩ ، ص ٦١٣ ؛ وانظر برنير ، رقم ١٤٧ ، ص ١١ ؛
وعن اللغة الإنجليزية أنظر سنورم ، رقم ٢٠٩ ، ص ٨٢٠ .
(٢) رقم ٩٣ ، صفحات ٢٤ ، ٢٧ ، ١٦٧ .

بها إذ أننا نراها تنطق Vanne فان « سَمَكْل » (وهي الإغريقية القديمة Faqviou) ومع ذلك فن الحق أن اتجاه الإغريقية العام في كل لهجاتها كان يذهب إلى إسقاط هذه الهاء h وهذه القاء معاً ؛ ولذلك حق للعالم اللغوى أن يذهب إلى أن إسقاطها قانون من قوانين اللغة الإغريقية ، رغم شذوذ التساكنونية عنه حتى يومنا هذا . فصيغة القانون على هذا النحو تعبر عن اتجاه اللغة وتلخص التطور الصوتى الذى مرّ فى الواقع بمدد من العمليات والمظاهر اختلفت باختلاف المصور والأماكن .

لعل اختبار الجزء الأعظم من القوانين الصوتية الكبيرة التى تتميز بها اللغات يقودنا إلى تقرير هذه النتيجة .

فالقوانين اللغوية التى يصوغها علماء اللغة لا تعبر إلا عن حالات وسطى ، سواء أكان ذلك فى الزمان أم فى المكان . إذ لا يتم التحول الصوتى دفعة واحدة على رقعة من الأرض مترامية الأطراف كتلك التى تتكلم فيها الفرنسية أو الألمانية ، الإغريقية أو اللاتينية . ومع ذلك فى وسعنا أن نقرر بأن الفرنسية قد غيرت الفتحة المائلة المقفولة (e) — التى كانت فى اللاتينية — إلى (o) وأن الألمانية تستعمل فى داخل الكلمات السين المضممة مكان التاء t فى الإنجليزية سواء أكانت بسيطة أم مضممة . لأننا إذا رجعنا إلى القاموس واستعرضنا جميع الأمثلة واحدا واحدا بعد أن نستبعد منها بالطبع المستثنيات الناتجة من الإستعمارة ، لم نجد فيها واحداً فقط ينقض هذه القاعدة .

فالقانون يكاد يكون مطلقاً بالنسبة لمؤرخ اللغة الذى لا يختبر إلا النتائج ولا يشمل بنظره إلا تطور اللغة فى جملته . أما من يلاحظ اللغة المتكلمة ويحجوب فى إقليم على درجة ما من الاتساع ، إقليم يشهد تحولاً صوتياً ، فإنه يرى الأشياء بعين مختلفة : فإذا ما أراد أن يثبت تاريخ ذلك التطور الصوتى من حيث المكان والزمان رأى محتوماً عليه أن يكتفى باعتبار فرد واحد مع مقارنته بأسلافه وأولاده المباشرين .

إذا جمنا النتائج التى تقدمها لنا لهجات لغة واحدة فى أطوار تاريخها المختلفة ،

حصلنا على خط يأتى مطرد لتطور كل صوت لغوى (ص ٦٥) . بل حتى لو اعتبرنا السألة من وجهة نظر جغرافية محضة وراقبنا تغيراً صوتياً ، على رقعة معينة من الأرض لوجدنا خطوات هذا التطور تتدرج من قرية إلى قرية .

فهناك ميل فى البريتانية الحديثة نحو تغيير الصوت اللغوى المعقد الذى رسم c'hw إلى f . وهذا الصوت يشتمل على احتكاكى حلقى مهموس متبوع بشبه حركة w « و » ينطق كما فى الإنجليزية . فى شمال المنطقة البريتانية ، فى ليونار ، يمكننا حتى الآن أن نسمع هذا الصوت بوضوح : c'hwech « ستة » و c'hwero « مر » ؛ وفى الجنوب الغربى من هذه المنطقة ، بين دوارنيتر Douarnenez ورأس الاز Pointe du Raz ، نسمع نفس الكلمتين تنطقان fero و féc'h بالفاء الاحتكاكية كما نراها فى fève « فول » و faire « يعمل »^(١) .

يمكننا من الوجهة النظرية أن تمثل خطوات التطور دون مشقة فلا بد أن ال c'h قد مرت أولاً بخطوة التنفيس البسيط ، على نحو الصوت اليونانى المقابلسمى بالفرنسية : « esprit rude » والهاء الألمانية h . ونحن نعرف هذا الانتقال فى لغات أخرى ، وفى الألمانية نفسها بوجه خاص . وفى الوقت نفسه اتجه ميل الواو w إلى أن تصبح احتكاكية أسنانية شفوية لتنتهى إلى الفاء v البسيطة ؛ وهو تغير معروف أيضاً خير معرفة نستطيع أن نسميه تغيراً تقليدياً ، لأنه وقع فى كثير من اللغات ابتداء من اللاتينية الدارجة والألمانية . ومن ثم تحولت المجموعة القديمة c'hw إلى hv . ثم عانت المجموعة الأخيرة بدورها تحولاً كان منتظراً . إذ أخذ النفس الدفوع للنطق بالهاء h يوقف الذبذبات الحنجرية ويطنى على الفاء v فجعل منها فاء مهموسة f . وهذا ما وقع فى الإيرلندية القديمة حيث نجد المجموعة hv (الصادرة من sw س ولا من c'hw كما فى البريتانية) تنمخض عن فاء F . فتطور المجموعة البريتانية c'hw بفترض إذن عدداً من الخطوات الانتقالية ، ولكنها جميعاً مشروعة ومتفقة مع وقائع شوهدت فى غيرها .

(١) ج . لوث ، رقم ٨ مجلد ١٨ ، س ٢٣٨ وفندرين رقم ١ مجلد ١٦ من ٣٩٠ .

فإذا تركنا إقليم الليونار متجهين نحو دوارنيز Douarnenez مارين
بشاتولان Chateaulin ولكرونان Lacroan قابلتنا عمليا ، مبشرة في أماكن
متباعدة ، هذه الخطوات التي وصلنا إلى استنباطها من اعتبارات نظرية . على هذا
النحو يستعيد الإنسان تاريخ اللغة في نفس المكان الذي حدثت فيه التغيرات :
فَيُنْتَقَل إذن من c'hw إلى hw ، ثم إلى hu ، ثم إلى f ؛ والمناطق الجغرافية
للأصوات تهبط إذن في درجات متتابة . ومن العدل أن نقول بأن انتقال
c'hw إلى الفاء f ناتج من أحد اتجاهات اللغة البريتانية الحديثة ، ولكن هذا
الانتقال لا يتحقق تحقّقاً تاماً إلا في جزء واحد من الإقليم ؛ ويفترض حدوث
سلسلة من العمليات المتّصلة التي لا يشير إليها علم الصوتيات .

وحالات الاستثناء من التغيرات الصوتية أمر لا يستطاع تجنبه . ونحن نعرف منها
عدة أمثلة كان سببها في غالب الأحيان أن كلمات دخلت اللغة بعد ما توقّف تأثير
القوانين التي كانت تستلزم تعديلها . فتلك مسألة استعمارة ولها تاريخها في ميدان
الألفاظ المستعمارة . فيوجد في تاريخ جميع اللغات عدد كبير من المستثنيات ناتجة
من الاستعمارة ، أي أنها ترجع إلى تأثيرات خارجية .

كثير منها أيضاً يرجع إلى تلك التأثيرات الداخلية التي تلخص فيما يسمونه
القياس analogie . وينحصر القياس في أن التغير الذي يفرضه القانون الصوتي على كلمة
من الكلمات قد يتوقّف أو يعدل تحت تأثير كلمات أخرى من اللغة . فمثلا يفرض
قانون فرنسي مطرد أن تصير الكاف اللاتينية c شيئا ch في الفرنسية إذا كانت
واقعة قبل فتحة قديمة (a) فنقول chien « كلب » و chèvre « عذرة »
و cheval « حصان » و chantre « منن » من canem و capram
و caballum و cantor . ومن كلمة capsa اللاتينية جاءتنا كلمة chûsse
« صندوق معدّ لحفظ مخلفات الصالحين » . وقد جاءنا منها ، بطريق الاستعمارة
عن إحدى اللهجات الجنوبية ، كلمة caisse « صندوق » التي دخلت الفرنسية في
تاريخ كان فيه القانون الذي نحن بصددّه قد توقّف عمله : هذه حالة تدخل تحت
ما سميناها سابقاً بالتأثير الخارجي . ولكن من vinet اللاتينية (سيفة النصب من

vinco ومعناه مهزم) كان يمكن أن يقال في الفرنسية *qu'il vainche* «لأن يهزم»
بالشين : فإذا كنا نقول *qu'il vainque* بالكاف فذلك لأننا أثبتنا الانفجاري
في هذا الفعل المنصوب قياساً على صيغ أخرى كاسم المفعول *vaincu* «مهزوم»
الذي أبقى فيه على الانفجاري اطراداً لأنه واقع قبل *u* . القياس لا يكف عن أن
يصحح أثر القوانين الصوتية أو أن يموقها . فكثيراً ما يعرقل تطور الأصوات
في سيره المطرد ؛ مما جعل عالماً اشتقاقياً لامماً محباً للنظام والوضوح يقول بأنه في
بعض الأحيان «تتميز نوبات من الغضب من جراء تخريبات القياس»^(١) .
والواقع أنه لا تكاد تمر عملية صوتية دون أن يصيبها منه بعض الاضطراب إن
قليلاً وإن كثيراً . وغالباً ما يكون معنى الكلمات هو الذي يحدث أثره : ومن
هنا تولد أحداث من الاشتقاق الدارج الذي هو أيضاً من «آفات» الصوتيات .
وسنعاود الكلام في هذا في الفصل الأول من الباب الثالث .

يجب أن نلتحق بهذا الباب حالات الإسراف في المدنية والإسراف في
اللهجية^(٢) . وما يسمى الإسراف في المدنية هو البانسة التي يؤدي إليها ولع صحة
الكلام عند من يفخر بجمال العبارة . كالذي حدث أن فلاحا إيطاليا أراد أن يتكلم
لاتينية روما ، وكان يعرف أن حركة *o* الطويلة في لهجته يقابلها غالباً *au*
diphtongue في لغة العاصمة فراح يقول *plaustrum* (بلوسترم) بدلا من
plostrum و (كودا) *cauda* بدلا من *Coda* (كودا) و *plaudere* (بلودير)
بدلا من *plodere* (بلوديره) ذلك هو الإسراف في المدنية فحركة *al* هنا أقدم
من الناحية الاشتقاقية . ولكن المدني أيضاً كان ميالا بطبعه إلى المبالغة في المدنية
حتى لا يتهم بالكلام على طريقة الفلاحين ؛ فكان يستعمل عن طيب خاطر
الكلمات التي ذكرناها بالنطق الذي أشرنا إليه . إذ الواقع أننا نعرف أن مثل هذه
الطرائق من النطق كانت تستعمل في رومانيستها ، وربما كان الناطقون بها من
قدماء الرومان . فيروى أن السباتور فلوروس *Florus* كان قد أخذ يوما

(١) ١ . توما : رقم ١٢٥ ، مجلد ٣ من ٣٢ .

(٢) ٢ . أورتل *H. Oertel* : رقم ١٣٧ ، من ١٤٨ وما يليها .

على فسبيان Vespasien أنه يقول plaustrum فأجاب الأخير السنانور
مازحاً وهو يستجوبه : « تحية يا فلورى Salve, Flaure » . والحق في جانب
فسبيان لأن plostrum هي الصيغة الصحيحة ؛ أما پلوسترم plaustrum
فهى من إسراف في المدينة كما يمكن أن تكون فلورس Flaurus
كذلك .

وإذا تكلم الإنسان لهجة أجنبية تعرض للأخطاء بسبب التردد في صيغة
الكلمات ؛ فمن الأخطاء الشائعة الغلو في مراعاة الصحة ؛ أو خطأ التطرف في
الحنبلية . هذا الخطأ كان كثيراً ما يقع من الإغريق عندما يحاولون الكتابة بلغة
غير لغتهم . ففي دورية المؤلفين الفيثاغوريين يوجد الكثير من الإسراف في
اللعجية ؛ إذ لا كان هؤلاء المؤلفون (أو ناسخوهم ؟) يعرفون أن η في الأتيكية
يقابل غالب الأحيان α في الدورية ، فقد غيروا α إلى η في أحوال كثيرة يبق
فيها الحرف η في الدورية على ما هو عليه . ويمكننا من ذلك أن نتصور وقوع أخطاء
كثيرة من هذا القبيل في الفترة التي فيها أخذت اللهجات اليونانية تندمج بعضها
في بعض لتكون اللغة المشتركة . كلما أريد الكتابة بإحدى اللهجات الخالصة .
ومن الأسباب التي كانت توقع في الخطأ اختلاف الألوان في داخل اللهجة وامتلاؤها
بصيف مشترك ، فيصعب عند الكتابة التمييز بين ما هو من صميم اللهجة مما ليس
منها . بل حتى الأشخاص الذين يتكلمون اللهجة منذ ميلادهم يمرضون لأخطاء
الإسراف في اللهجة .

* * *

رأينا في العرض المتقدم حالات كثيرة تصطدم فيها النزعات الصوتية المطردة
مع نزعات من طبيعة مختلفة . ولا بد أن مثل هذه الحالات قد مرّت كثيراً في
تاريخ اللغات ؛ وإليها يجب أن نمرى الشواذ التي تقابلها في التاريخ الصوتي قاطبة .
وقد كان يحدث ، على وجه الخصوص ، أن يغير شعب لنته وبالتالي كانت اللغة
الواحدة تتكلمها شعوب مختلفة . فتارة يفرض قاطح لنته على مهزوم . وتارة تحمل
الظروف السياسية والاجتماعية شعباً من الشعوب على اتخاذ لغة جارة . ومن هنا
(٢ - ٦)

كانت الانقلابات السريعة الغريبة في تطور بعض اللغات . لأن الشعب الذي يتخذ لغة جديدة يطبق عليها أحياناً عوائد النطق في اللغة التي تركها . وعلى هذا الأساس اضطر الدارسون إلى البحث عن تأثير لغة الجول^(١) في اللغة اللاتينية الدارجة التي كانت تتكلم في بلاد الجول ؛ ولكن يجب الاعتراف بأن علماء اللغات الرومانية غير متفقين في هذه النقطة^(٢) . غير أنه من المحقق ، من جهة أخرى ، أننا نلاحظ وجود تطورات صوتية مشابهة في لغات شعوب مختلفة الجنس ولكنها متجاوزة جغرافياً كما في الليفونية (وهي لغة فينية) والليتوانية^(٣) (وهي لغة هندية — أوربية) ، وكما في الأرمنية (لغة هندية أوربية) والهجورية .

كان بعض علماء اللغات يميلون إلى المبالغة في تأثير تغيير اللغة فيجملونه أصلاً للتغيرات الصوتية الرئيسية^(٤) . والواقع أن هناك تغيرات صوتية ذاتية تنتج من انحمار طبيعي في النظام ويدعو إليها استعمال اللغة نفسه ويبررها كذلك .

دراسة تطورات اللغات تسمح لنا بأن نميز في سلسلة من التحولات الصوتية ما يرجع فيها إلى ظروف أجنبية . والعالم اللغوي الذي دأب بادی، ذي بدء على معرفة النظام الصوتي للغة من اللغات في فترة من فترات تطورها معرفة عميقة ، يستطيع دون مشقة أن يتعرف في التاريخ اللاحق لهذه اللغة آثار الاتجاهات الطبيعية التي كانت تحتويها اللغة بذوراً في عهد سابق . هذه الدراسة تبشر بدراسة ذات قيمة عامة . فإن من ينجح في استخراج التعليقات التي تقدمها له جميع اللغات التي يعرف تاريخها ، وفي تنسيقها ، يستطيع أن يحرر العمليات المطردة للتغير الصوتي . ولكن هذا العمل لم يعمل حتى الآن . ومع ذلك فأى عالم لغوي على علم بالصوتيات التاريخية لعدد من اللغات لا يكاد منذ الآن يتردد إذا ما رأى أمامه حالتين صوتيتين واردتين ، في أن يقرر أيها أسبق وفي أى اتجاه قد وقع التغير .

(١) الراد بالجول هنا فرنسا القديمة قبل الفتح الروماني . المرابان .

(٢) ماير لويكه Meyer - Lübke رقم ١٨١ من ١٧٠ . عن تأثير اللغة السلاوية على لغة رومانيا أنظر دنسيانو Dansusianu رقم ٦٦ ، مجلد ١ صفحة ٢٤١ .

(٣) جيسبرسن : رقم ١٧٣ ، صفحة ٧٩ .

(٤) أنظر خاصة Jamillscheg : عن تبادل الأصوات (المسائل الأساسية لعل اللغات الرومانية صفحة ١٦٢ — ١٩١) عام ١٩١١ ؛ وفارن دلبوك : رقم ١٥٣ صفحة ١٥٢ .

الفصل الثالث

الكلمة الصوتية والصورة اللفظية

التغيرات الصوتية التي تكلمنا عنها حتى الآن تنتج من التحول في النظام الصوتي للغة . وسبب التحول الواقع في الأصوات اللغوية كان يبحث عنه في الصلة بين هذه الأصوات وبين النظام الصوتي . ولكن هذا النوع من التغير ليس الوحيد الذي ينبغي للعالم اللغوي أن يحسب حسابه .

لا توجد في اللغات أصوات لغوية منعزلة . وهذا لا يعني فقط أن الأصوات اللغوية لا توجد مستقلة وأنها لا تحلل على أفراد إلا بنوع من التجريد إذ أنها في كل لغة تكون نظاماً مترابطاً . ولكن معنى ذلك أيضاً أنها لا تستعمل على أفراد : فلا يتكلم إلا بمركبات من الأصوات اللغوية . فأقل جملة ، وأقل كلمة تفترض سلسلة من الحركات النطقية المقدة وقد تركبت فيما بينها . ومن هذه المركبات تنتج أفعال متبادلة تؤدي إلى أنواع مختلفة من التخوير . والتغيرات التي تصيب الأصوات من جهة الصلات التي تربط هذه الأصوات بعضها ببعض في كلمة واحدة هي ما يمكن أن نسميها بالتغيرات التركيبية . وأهميتها في تاريخ اللغة لا تقل عن أهمية التغيرات السابقة^(١) . ولكن يجدر بنا قبل أن نبدأ في درسها أن نبين حدود المجموعة الصوتية التي في داخلها تحدث التغيرات التركيبية ، أو بمباراة أخرى ، أن نحدد الكلمة الصوتية .

* * *

السؤال الذي يتطلب الإجابة سؤال مزدوج . ويختصر في أن نبحث أولاً عما إذا كانت الجملة في لغة من اللغات ، إذا ما اعتبرت من جهة الأصوات اللغوية التي

(١) سيقس : رقم ٢٠٥ من ٣٧٧ . والعرض القيم للاختلافات السابقة لبرون ، رقم ١٤٩ من ١٨٥ .

تتركب منها فحسب ، تتضمن أقساماً يحسمها التكلم أم لا ؛ ثم عما إذا كانت هذه الأقسام تطابق أقساماً نفسانية أم نحوية .

أما عن النقطة الأولى فيمكننا أن نجيب بالإيجاب دون تردد . فليس مما يشك فيه أنه توجد في كل جملة أيًا كانت أقسام صوتية طبيعية . بل إن هذه الأقسام عديدة الأنواع .

التقسيم إلى مقاطع يعد واحداً من أظهر هذه الأقسام . كل متكلم يشعر به كما يبرهن عن ذلك علم الأمراض العقلية^(١) . فقد لوحظت حالات من فقدان الذاكرة ظل فيها الإحساس بالمقاطع حياً بعد نسيان الكلمة نسياناً تاماً . مثل هذا المريض لا يستطيع تعيين الأشياء إلا بعد المقاطع التي تكون الكلمة الدالة عليها ؛ فعجزه عن التعبير بكلمة غطاء أو مقعد ، فإنه يعرف مع الإشارة بأصبع يده أن كل واحدة من الكلمتين تتكون من مقطعين . فقد ضاعت من ذاكرته الحركات النطقية التي يجب القيام بها للنطق بالكلمة ولكنه مازال يعرف كم عددها . نعم قد يمكن أن ترد شهادة هذا الاختبار بحجة اختلاطه بمادات محصلة لدى تعلم القراءة وأنه من المستحيل التمييز بين ما يرجع إلى اللغة المكتوبة وما يرجع إلى اللغة المتكلمة ؛ فقد يمكن لموائد اليد التي تخط الحروف وعوائد العين التي تدركها أن تختلط هنا فتفسد نقاء الصلات التي تربط الحقائق بعضها ببعض .

يستخرج من النظم نتائج أخرى أكثر قوة من سابقتها . ففي عدد كبير من اللغات يقوم الوزن على عدد المقاطع ، وذلك في لغات كانت تجهل الكتابة وحياة الشعر فيها كانت قائمة على تقاليد شفوية . ففي الهند وفي اليونان ، أول ما بدأت الآداب ، كانت تنظم قصائد طويلة يحسب فيها عدد المقاطع بشدة صارمة . وهذا على الأقل إذا جاز لنا أن نبني حكماً على ورثة كتاب القيدا المباشرين أو على مؤسسي الشعر الغنائي اللسبي^(٢) . وبدايات الكتابة تركى هذه الشهادة ، ففي الكتابة الصوتية بدى في تسجيل اللغة بتسجيل المقاطع . فالتقسيم إلى مقاطع سبق التقسيم

(١) أنظر روسلو ، رقم ١١٥ ، ج ٢ ، ص ٩٦٩ .

(٢) ل . هاغية : رقم ٨٠ ص ١٦٦ .

إلى حروف ، بل عاقه مدى طويلا أو قصيرا (أنظر الجزء الخامس) . وكان لا بد من تحليل طويل دقيق لتمييز عناصر القطع . أما الأبجديات الأولى فمماثلة على هذا العمل : فهي مقطعية .

بَلْ إن التقسيم إلى مقاطع قد سبق التقسيم إلى كلمات . ففي أقدم النصوص لكثير من اللغات لا يفصل بين الكلمات . ففيها آخر كل كلمة مركب مع مبدأ الكلمة التالية تبعا لقواعد الكتابة المقطعية ؛ تلك هي الحال في كتابات الهند القديمة ، وكذلك في الكتابة القبرصية ، وهي بدورها كتابة مقطعية .

يبدو أن التقسيم إلى مقاطع هو أول ما يحتل ذهن القارئ ، الذي يود أن يقيد بالكتابة جملة سمها أو نطقها : ونحن نعرف مقدار الشقة التي يمانها أشخاص غير مثقفين لفصل الكلمات فصلا صحيحا ، وعلى العكس من ذلك مقدار دقة حسهم في التقسيم إلى مقاطع : فيظهر أن هذا الأخير أقرب إلى الطبيعة وأن الأول فيه قسطن من التوافق الذي يحتاج إلى دراسة ومراعاة .

ومنع ذلك فإن تعريف القطع أمر عسير^(١) .

فلنأخذ أبسط الحالات : الحالة التي تحتوى على سلسلة من السواكن والحركات مرتبة ترتيبا تبادليا ، ولكن مجموعة مثل المجموعة الفرنسية *L'Académie des Beaux-arts* ، منطوقة هكذا *Lekadémidébozar* « لا كاديمي ديوزار » . يمكننا من التحديد الذي حددناه فيما سبق للسواكن والحركات أن نستخلص قاعدة تنظم هنا التقسيم إلى مقاطع . فالحركات تقتضى فتح الفم : وهذا الفتح مهما اختلف سمته ، فهو دائما أكبر من ذلك الذي يصحب السواكن . بل إن بعض السواكن ، وهي الانفجارية ، لا يصحبها فتح قط ؛ والأخرى التي يصحبها فتح في التجويف الحلقى تتميز بضوضاء احتكاكية ، مما يفترض ضيق فتح الفم نسبيا . تقدم إذن مجموعة الأصوات التي افترضناها سلسلة متتابعة من الفتح والتضييق الذي يذهب أحيانا إلى حد الإغلاق . فحالات الفتح تقابل

(١) هذه الطور كانت قد كتبت عندما نشر كتاب فردينا ندى سوسير ، رقم ١٢١

حيث تعرض في ص ٦٤ ومايليها (ولا سيما ص ٨٩) نظرية عن القطع تعد جد غريبة .

الحركات وحالات الإغلاق تقابل السواكن . هذه الحقيقة تتجلى بشكل مقنع في الصورة التي ترسمها الإسطوانة المسجلة . فإذا تتبعنا حركات الريشة ، أمكننا قراءة التقسيم إلى مقاطع . فالحركات ترسم منحنيات تختلف فيما بينها في درجة الانحناء . ويدل مكان النزول منها على أوقات الإغلاق التي تكون السواكن .

أما موضع الدقة فينحصر في تحديد النقطة التي تبدأ وتنتهي عندها المقاطع . يرى الأستاذ روديه M. Roudet أن التقطيع يظهر في ثلاثة وجوه تبعاً لوجهة النظر التي يرى منها . يقول : « يوجد عند الانتقال من مقطع إلى مقطع تغير مفاجئ ، يصيب كلا من الجهاز التنفسي والحركة النطقية والإدراك السمعي معاً ^(١) » . هذا التغير الثلاثي يسمح ، في بعض الأحوال ، بتعيين حدود المقاطع ؛ ويكون التقسيم تحكيمياً في أحوال كثيرة أخرى . لذلك يكون من العبث أن نسى إلى تحديده كما لو أردنا أن نحدد النقطة التي يوجد عندها قاع واد يقع بين جيلين .

أما تعريف الكلمة الصوتية فالتحكم الذي يعتريه لا يقل عن سالفه ، بمعنى أن كثيراً من المقاطع بل ومن مجاميع المقاطع لا نعرف ما إذا كنا نندها كلمات مستقلة أو أن نصلها بالكلمات المجاورة لها . فالتقسيم يكون قاطعاً أو غير قاطع تبعاً لللغات المختلفة .

كان يجب أن نجد في النبر وسيلة لحل المسألة . لقد رأينا أن إصدار النفس ، عند خروجه من القصبة ، لا يحدث بصورة مطردة متساوية . فتصريف كمية الهواء غير متصل لأن العضلات التي تهيمن على النفخ الصوتي تعجل حركته تارة وتبطئ فيها تارة أخرى .

وإذن فهناك حالات من الإسراع ومن التقطيع الوزني ومن تخفيف السرعة ومن أوقات التوقف ، يقع كل هذا بعدد يقل أو يكثر تبعاً للغات وتبعاً للمتكلمين . وبمباراة أخرى بنطوى الكلام في حد ذاته على مبدأ من الوزن مع فترات من القوة وأخرى من الضعف . كما نستطيع تقسيم الجملة الموسيقية ، باستثناء الميلودية Mélodie ، إلى تقاعيل (وحدات) Mesures ، كذلك يمكننا أن نجد في كل

جلة أيا كانت ، إذا استثنينا المعنى ، عدداً من التقسيمات لعلها أقل اطرادا وطولها أشد اختلافاً منها في الوسيق ، ولكنها كذلك قابعة على التكرار المنتظم لفترات القوة . فاللغة فيها قم وأغوار .

ولكن هذه القيم لها في الغالب قيمة سيكلوجية . حتى ليجد الإنسان نفسه مسوقاً في بعض الأحيان إلى القول بأن الحركات المضطربة التي تنتج الشدة والعلو تسيرها أسباب سيكلوجية . فكأن النبر ينفث الحياة في هيكل الأصوات العظيم أو على حد تعبير مجازي لقدامى النحاة ، النبر « روح » الكلمة . فهو الذي يعطي للكلمة طابعها وشخصيتها ، سواء أكان نبر علو أم نبر شدة . ولكن النبر مع كل هذا لا يكفي لتحديد الكلمة ^(١) .

أولاً لأنه لا يمتن حدودها إلا بصورة ناقصة : نعم إن النبر في بعض اللغات يتوقف على آخر الكلمة ، وفي البعض الآخر مبدأ الكلمة هو النبر . ولكن هذه الحالات لا تستغرق جميع الإمكانيات . فمن اللغات ما لا يشير نبرها التغير إلى نهاية الكلمة . هذا إلى أنه قد لا يوجد في مجموعة من الكلمات إلا نبر واحد ، وعلى العكس من ذلك قد يوجد نبران في كلمة واحدة . فقد كان في الهندية الأرية ، كما نبرهن عليه الإغريقية والسنسكريتية ، ما يسمى بالكلمات الملحقة ، وهي كلمات قصيرة لا توجد مستقلة بل توصل بما قبلها . وفي لغاتنا الحديثة التي تستخدم نبر الشدة تنطق بعض مجاميع الكلمات بدفع صوت واحد يرتفع فيه النفس على مقطع واحد من المجموعة كلها . ومن جهة أخرى فإننا نعرف في السنسكريتية كلمات مزودة بنبرين ، وإنه كثيراً ما ينشأ في اللغات التي تستخدم نبر الشدة ، نبر ثانوي إلى جانب النبر الأساسي .

فن التمدد أن نجد رابطاً نهائياً دائماً بين النبر والكلمة ، إذ نجد في بعض اللغات التي تستخدم نبر العلو كلمات أساسية تخلو من النبر ، كالفعل السنسكريتي في كثير من استعمالاته : فمنها كانت أهمية الفعل في الجملة السنسكريتية ، فإنه لا ينفرد في الجملة الرئيسية . فينبغي إذن ألا نخلط بين استقلالية الكلمة وتعبيرتها وتبنيها . فهناك أمثلة من الروسية يوصل فيها الاسم بالحرف ، مثل « morja » « قريب من

(١) عن النبر في الفرنسية انظر الملاحظات التي كتبها الأستاذ جرامون رقم ٧٨ ، ص ١٢١ .

البحر » ، nà zemljú ، « على الأرض » ، pò gorodu « في المدينة » (١) .
وسنرى من جهة أن النبر لا يقع بالضرورة على أهم مقطع في الكلمة ؛ فعندنا النبر
في الفرنسية على المقطع الأخير في أغلب الأحيان ، بمعنى على عناصر تكوينية أى
لواحق بينما يبق الجزء الأصلي من الكلمة غير منبور (٢) .

كل ذلك يحملنا على تحديد الكلمة الصوتية مستقلة عن النبر .
في كثير من اللغات تنفرد « القطعة » النهائية من الكلمة — على حد تعبير
علماء الأصوات — بمعاملات خاصة لا تعرفها القطعة البدئية ، ولا القطع
الداخلية (٣) . ذلك على وجه التأكيد أمثل حجة للبرهان على وجود الكلمة
الصوتية . والقطعة النهائية من الكلمة خاتمة القوى من حيث هي نهائية ، بصرف
النظر عن قيمة الكلمة الصوتية وأبعادها ونبرها ، وذلك ما يسنه جوتيو . هذا
البدأ العام لخوارزمية النهايات يستتبع مظاهر مختلفة ؛ والخوارزمية قد يكون خطيراً وقد يكون
مُثلياً . ولكن يمكننا أن نجد في الظروف التي نخضع لها هذا البدء ما يقوى
البدأ نفسه ؛ لأن نتائج الخوارزمية تزيد جلاء بقدر استقلال الكلمة وقيامها بنفسها .
فنطق النهايات بطريقة خاصة ناجم عن وجود الكلمة وبعين حدودها .

* * *

ما دمنا قد سلمنا بوجود الكلمة الصوتية ، فقد أمكننا أن ندرس التعديلات
التي تحدث فيها بسبب ما للعناصر التي تكونها من فعل متبادل .
والواقع أن الحقيقة الأخيرة التي لفتنا النظر إليها هي إحدى الحقائق العامة
التي تنتج من وجود الكلمة الصوتية ؛ ونصلح مثالا على ما يسمى التغيرات التركيبية .
فالنهاية تتطور في اللغات الهندية الأوروبية بوصفها نهاية ، أى بسبب المكان الذي
تحتله بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ؛ وإذا وجد في بعض اللغات حالات مخففة
من مبدأ الضعف العام ، بل وحالات من الاستثناء أتاحت لهذه النهاية أو تلك أن

(١) بويه Boyer وسبيرنسكي Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ٣١ هامش ٢ و ص ٩١
هامش ٢ .

(٢) جيسرسن ، رقم ١٣٣ ، ص ٢٦ وما يليها .

(٣) جوتيو ، رقم ٧٣ ، ص ٣٤ — ٣٥ .

تبقى سليمة ، فذلك لأن جميع اللغات ليست سواء في الاحتفاظ التام لنهاية الكلمة بطابعها من جهة ؛ ومن جهة أخرى لأن آثارا خاصة عارضت الأثر العام الذي يضمف النهايات .

وهكذا سقطت اليم m النهائية من النطق في اللغة اللاتينية منذ عهد مبكر ؛ ولكن كلمة rem احتفظت بأنقيتها التي بقي منها آثار في الكلمة الفرنسية rien « لا شيء » . وذلك لأنها كلمة قصيرة ، وحيدة المقطع ؛ والكلمات القصيرة كثيراً ما تقاوم الانحرافات التي تصيب الكلمات الطويلة باطراد . أما الكلمات الطويلة فعلى العكس من ذلك ، تقدم لنا في بعض الأحيان انحرافات خاصة ناجمة من طولها^(١) . هذه بوجه خاص هي الحال بالنسبة لكلمات كثيرة الاستعمال ، ومن ثم يمكن فهمها قبل النطق بها إلى حد أن التكلم يستطيع أن يعنى نفسه من توضيح النطق بها ، مكتفياً بنطقها في صورة مختصرة . فاليلي الصوتى واضح فيها بدرجة خاصة . هذه الألفاظ في عمومها إما آلات مساعدة في اللغة وإما عبارات محفوظة متداولة ولذلك ليست في حاجة إلى وضوح النطق الذي تقتضيه الرغبة في الإفهام . ويوجد في كل اللغات أدوات وحروف جر وحروف وصل أصلها في غالب الأمر كلمات قادمة بنفسها تحولت إلى آلات نحوية (أنظر الفصل الخامس من الجزء الثاني) . ففي الإغريقية الحديثة مثلاً الأداةان θά & الأولى علامة لاستقبال الفعل والثانية علامة لنصبه^(٢) مثل : « أفقد » θάξανα و « سأفقد » εἶμαι و « أكون » εἶμαι & « لأكون » . الأولى تنحدر من θῆναι التي بدأت تظهر في القرن الثالث عشر وليست إلا مركبة من θῆναι « أريد أن » ؛ والثانية من ἀπερ بعد أن تقلصت ، وهي في الإغريقية القديمة فعل أمر معناه « دع » (قارن العبارة الإنجليزية let us go « لنذهب » let him write « دعه يكتب ») ، فالتقلص في الحالتين يتجاوز ، ويتجاوز بكثير القواعد العادية للغة ؛ ويمكن تفسيره بالطابع النحوي للكلمات التي تقع في حوزته .

(١) ميه : رقم ٦ ، مجلد ١٣ ، ص ٢٦ .

(٢) يرنو : رقم ١٠٩ ، ص ١٢٥ ، ٢٣٦ ، ملاحظة رقم ١ .

ومن الشائع في الفرنسية أن يقال ومسييه « wimsyoe » و « wimmel »
 وميزل بدلاً من oui, monsieur « نعم سيدى » و oui, mademoiselle « نعم آنسى » وفي الأسبانية يقال « أُستد » usted بدلاً من vestra merced ؛
 وفي الألمانية moen gmoen بدلاً من Guten Morgen (جوتن مورجن)
 (صباح الخير) و phyatdigot ، « حفظك الله » بدلاً من behüte dich Gott .
 وقد جرت محاولات لتفسيرها بنظرية حركة الكلام Sprech tempo .
 وعند أصحاب هذه النظرية الصيغتان gmoen, wimsyoe ، من صيغ السرعة
 « الأللجرو allegro » أما الصيغتان oui, Monsieur و guten Morgen
 من صيغ البطء « اللنتو lento » . ولكن هذا التفسير لا يقنع أحداً .
 نعم إن سرعة إرسال الكلام تختلف من لغة إلى أخرى : فالفرنسيون أو الإنجليز
 أسرع من الألمان في الكلام ، والألمانيو الشمال أسرع من الألماني الجنوب . ولكن
 من غير الصواب أنه توجد في داخل اللغة نفسها صيغتان في أن واحد وأنه يمكن
 استعمال هذه أو تلك تبعاً لسرعة المحادثة . والواقع أن هناك كلمة morgen أو كلمة
 monsieur وكتاتهما موجودة في الفكر ، وكلمة moen أو msyoe وهما اللتان
 تنطق بهما الأعضاء . وقد نشأت الصيغتان الأخيرتان من اتجاه في اللغة طُبِقَ
 إلى أبعد الحدود ؛ وهما تبيينان إلى أى حد يصل تأثير الاتجاه الصوتى في اللغة إذا
 لم يمه عائق : فهما في الواقع من الصيغ المتطرفة في اللغة ^(١) .
 من الغريب أن تكون عناصر الكلمة الصوتية متساوية القيمة في داخلها .
 ففها القوى ومنها الضعيف ؛ منها مايسود ومنها مايساد ؛ ومنها مايقاوم آثار
 العوامل الهدامة ومنها مايسلم لها بسرعة ^(٢) . السيادة والغلبة ، هاتان هما الصفتان
 الجوهريتان اللتان على مؤرج اللغة قبل كل شئ ، أن يبين حدودهما وأسبابهما في
 في داخل النظام الصوتى للغة التى يدرسها : والواقع أن التكوين الصوتى لكل
 لغة يقضى بوجود أنواع من السيادة ومن المقاومة الخاصتين . ولا يمكن أن تختلف
 اللغات بعضها عن بعض في التطور الصوتى إلا بصراع ينشأ بين الأصوات من

(١) انظر قندريس : خواطر عن القوانين الصوتية ، رقم ٩٩ من ١٢٢ .

(٢) انظر جوريه Juret رقم ٨٦ .

جاء التوازن . غير أنه فيما عدا التأثيرات الصوتية الخاصة بكل لغة ، توجد تأثيرات عامة تتجلى في كل اللغات وهي نتيجة لانجاهات طبيعية فسيولوجية ونفسية معاً .
ففى الأصوات الانفجارية يوجد فرق بين العنصر الانحباسى والعنصر الانفجارى ، فالأول أقل حساسية للسمع لأن انطلاقه أقل صلابة من الثانى .
هذا الفرق يمرض الانحباس لموارض مختلفة . فجموعة مثل « أ كتا » akta فيها الكاف k وهي انحباسية أقل مقاومة من التاء t الانفجارية (أنظر ص ٢٩) .
ويمكن لاتجاهين متعارضين أن يؤثرأ معاً ، وتكون النتيجة تعديلاً فى المجموعة .
فإما أن يتخلل التكلم كلاماً عن تحقيق الحركات النطقية للكاف k فينتقل طرف لسانه توتاً منذ الاحتباس إلى موضع التاء t فنحصل فى النهاية على akka (أتا) بتاء طويلة .
هذه العملية قد وقعت فى اللغة الإيطالية حيث نجد الكلمات اللاتينية actus (اكتُس) و Strictus (ستركُتُس) قد صارت akka (أتا) و stretta (ستِرْتَا) . وإما أن تدفع التكلم الرغبة فى توضيح نطق الكاف k إلى أن يُتبع الكاف الانحباسية بانفجار طفيف يقوم به فى نفس النقطة قبل الانتقال إلى انفجار التاء t ؛ وهذا النطق نسمعه فى الفرنسية غالباً عند أولئك الذين يغالون فى صحة الأداء ، ويمكن رسمه بكتابة faqueteur (فكثير) بدلاً من facteur (فكثير) « ساعى البريد » . فانفجار الكاف k فى الواقع مهما بلغ من القصر ، يقع حتماً على شبه حركة ، هى الحركة الضامرة المنخوقة التى يشار إليها بال e الصامتة . فى الحالة الحالية الأولى حدث توافق^(١) وفى الثانية انفصال .

هناك مسلك ثالث : وذلك بالآ يتجه الصوتان التماسان إلى التوافق بين عناصرهما بزيادة المشابهة التى بينهما ، تلك المشابهة التى تصل أحياناً إلى التماثل التام ، ولا أن يتحصن كل منهما ضد الآخر بوضع نوع من العازل يكون عقبة فى سبيل التأثير المتبادل بينهما ، بل على العكس من ذلك ، بأن يستغلا ما بينهما من فروق فيعمقاها إلى حدّ ألا يبقى بينهما شئ ، مشترك ، ثم يزبلا كل نقطة للتشابه . وتلك هى عملية المفارقة^(٢) التى هى ضد التوافق . وهكذا ، فى مثل المجموعة السابقة kt (كت)

(١) فندريس ، رقم ٦ مجلد ١٦ ، ص ٥٣ (١٩٠٩) .

(٢) ميه : رقم ٤٥ مجلد ١٢ ، ص ١٤ وما يليها (١٩٠١) .

نجد بعض اللغات كالإيرانية والكلتية قلب الانفجاري الأول إلى احتكاكي فحصل في نهاية الأمر على *cht* — (شت) . وطبيعة التغير في حالة التوفيق أو الفصل أو التخالف تتوقف على الشروط العامة لنظام اللغة الصوتي . هذه العمليات الثلاث كثيراً ما تتدخل لإزالة المجاميع الصوتية التي يصعب نطقها .

وتعمل اللغات على إبعاد الأصوات أو مجاميعها التي من هذا القبيل لأسباب عضوية على وجه العموم . وعسر النطق كعكسه ، وهو اليسر ، من المسائل النسبية المحضة التي يحسمها التكلم بوضوح على ما يبدو ، ولكنها تختلف في كل لغة عنها في الأخرى . ولا يمكن تقويمها دون معرفة اللغة معرفة دقيقة . والواقع أن أصلها يرجع إلى العادات المكتسبة من الحركات النطقية . لذلك كانت هذه المجموعة أو تلك التي يصر نطقها على شعب من الشعوب ، ينطق بها جاره دون صعوبة .

يبد أن هناك مجاميع عسيرة النطق بصفة عامة ، وبسبب الاستعداد الطبيعي للأعضاء . ويمكن أن تطلق عليها اسم المجاميع غير الثابتة . فكما أدت الظروف إلى نشوئها في اللغة ، أمكننا أن تنبأ بأن اللغة ستدبر الأمر للتخلص منها ولكن خطة التخلص منها تختلف .

فالمجموعة *tn* — (تن) مجموعة غير ثابتة . فلما كانت نقطة الحركة النطقية للتاء هي عين نقطة النون في تركيب مثل *atna* ، كان على اللسان ألا يتحرك بين الفتحيتين : وتكفي حركة بسيطة من غشاء الحنك مع وضع الذبذبات الحنجيرية في حالة حركة للتفريق بين التاء والصوت الأنفي . وهذه آلية على جانب من اللطف تتطلب كثيراً من الدقة . ويستطيع الإنسان أن يستمد لها عندما يدور الأمر حول كلمة علمية ، مثل اسم العلم *Etina* ، والحقيقة أن أسماء الأعلام تقاوم أكثر من غيرها الانحرافات الصوتية التي تنشأ من التغيرات التركيبية . ولكن الإنسان في الكلمات الكثيرة الدوران في الكلام على العموم يدير أمره للتخلص من المجموعة غير الثابتة *nt* (نت) . فطوراً يحصل توافق ؛ ينخفض حجاب منذبده المجموعة — وتستمر الأوتار الصوتية في الذبذبة دون توقف بين الفتحيتين فتكون النتيجة — *anna* (آنا) ، (هذه هي الحال في الكلمة اللاتينية *annus*

« آئس » إذا قورنت بالقوطية athnus « أنس » وكلتاها مأخوذتان من atnos « أنس » التي تمدّ أقدم منهما) . وطوراً يحصل تخالف يتجه على حسب الأحوال إما نحو الانفجاري وإما نحو الأنفي ، فيوسع اللسان من شقة الخلاف بين الصوتين ليتجنب البقاء في وضع من التوازن يصعب عليه الإحتفاظ به : فتحصل مثلاً في بعض الأحيان على akna (كما في الأمبرية^(١)) حيث نجد فيها كلمة aknus (أكنس) تقابل annus (أنس) في اللاتينية) ، وفي بعض الأحيان atra (أترا) ، كما وقع في عدد من اللغات السكتية ، وعلى الخصوص في اللهجة البريتانية ، حيث تنحدر كلمة traon (تراؤن) « قاع ، واد » من الكلمة الأقدم منها tnaou (تناؤو) . وهناك مسلك ثالث للتخلص ينحصر في الفصل . إذ لما كان تلامس التاء والنون هو مصدر الصعوبة في النطق ، أمكن حذف هذه الصعوبة بإدخال حركة بينهما مثل : lyno (لنو) في الغالية (تنطق بالفرنسية teno بـ e صامته) إلى تقابل traon في اللهجة البريتانية .

في الأحوال السابقة كان الأمر يتعلق بأصوات متلامسة ؛ ولكن حالات التوازن وتبادل التأثير تصيب أيضاً أصواتاً يفصل بينها عدة عناصر ، بل أصواتاً أيضاً تنسب لمقطعين مختلفين وتوجد في أما كن يبعد بعضها عن بعض في الكلمة الصوتية ؛ والعمليات التي تنتج هنا هي عمليات التشابه والانتقال والتخالف^(٢) .

يقال إن هناك تشابهاً عندما يستمر واحد من صوتين منفصلين عنصراً أو أكثر من عناصر الآخر إلى حدّ الاختلاط به . والصوت المشبه يسبق في أغلب الأحيان الصوت المشبه به . أي أن هناك في الواقع حالة تمجّل : فالمقل يشتغاله بنطق صوت ما في داخل مجموعة صوتية يجعله يصدره قبل أوانه ، وينتج صرتين

(١) الأمبرية ombrien : لهجة إيطالية قديمة عرفت من بعض نصوص منقوشة على الآثار . المرابان

(٢) انظر خاصة جرامون ، رقم ٧٩ . والمقالات المديدة التي نشرها عن الانتقال السكاني في كثير من اللغات ولا سيما في رقم ٦ مجلد ١٣ ، ص ٧٣ وما يليها ، رقم ١٠١ ص ١٧٩ . وانظر أيضاً برنو Pernot رقم ١٠٨ ، ص ٥٤٠ .

متتابعتين الحركات الصوتية التي يقتضيها هذا الصوت . ويكون الصوت المشبه عادة قريباً من الآخر إلى حد ما لتبرير الخطأ . وهكذا كان أسلاف اللاتينيين يقولون quequo كوكوا بدلا من pouco ومن ثم جاءت coquo (كوكو) « أنضج » في النصوص التاريخية . ولكن التشابه يستطيع أن يسير في طريق عكسي ؛ فنجد في الفرنسية الدارجة juchque (جُشك) بدلا من jusque (جُسك) « حتى » ؛ على أن التشابه هنا ينحصر فقط في إحلال موشوس محل صغيري دون تأثير على صفة الجهر .

والانتقال المكاني يصدر عن نفس الأصل الذي صدر عنه التشابه . إذ أن مراد الأمر في كليهما إلى الخطأ ونقص الالتفات . ولكن النتيجة مختلفة كل الاختلاف بدلا من تكرار الحركة النطقية مرتين ، يُقتصر على تغيير مكان حركتين ، وأخيراً يبدو الانتقال المكاني كما لو أن جزأين في كلمة واحدة قد تبادلا أحد العناصر . بدلا من « فِستْرا » festra « نافذة » يقال في البرتغالية fresta (فِرستا) ؛ ويقال في بعض اللهجات البرتغالية drebi بدلا من debri (دِبري) « يأكل » .

وأخيراً ينحصر التخالف ، وهو المسلك المضاد للتشابه ، في أن يعمل التكلم حركة نطقية مرة واحدة وكان من حقها أن تعمل مرتين^(١) : — فن الكلمة اللاتينية arborem (أَرْبورِم) « شجرة » نشأت الكلمتان الأسانية arbol (أَرْبُل) والپروفنسية albre (أَلْبِر) فالذي حدث في كلتا الحالتين ، مع اختلاف الترتيب ، هو أن التكلم اقتصر على القيام بحركة واحدة فقط من الحركات التي يتطلبها إنتاج الراء r بدلا من أن يقوم بحركتين ، واستعاض عن الأخرى بحركة من الحركات التي تنتج اللام المائعة . بل كثيرا ما يحدث أن تكون نتيجة التخالف اختفاء الصوت لا أكثر ولا أقل : كما في الإغريقية القديمة « δρύραχος » « سور من الخشب » جاءت من δρύραχος .

(١) فضلا عن كتاب جرامون ذلك الكتاب الأساسي ، انظر ك . برجان : « معنى التشابه الصوتي » . لينرج ١٩٠٩ .

والنظام الذى تم به العمليات الثلاث المتقدمة يتوقف على أسباب خاصة على العالم اللغوى أن يحررها فى كل حالة على حدة : فضنط الشدة أحد الأسباب التى تتحكم فى آلية الانتقال الكائى والتخالف . كما يجب ألاّ نسقط من حسابنا طبيعة الأصوات ولا مكان كل منها فى داخل الكلمة .

التغيرات التركيبية لا تنتج منها أصوات لغوية جديدة . فالتخالف مثلاً لا يخلق أبداً أصواتاً جديدة غير معروفة فى اللغة التى يحدث فيها ؛ « عندما يكون على فعل التخالف الطبيعي أن ينتهى بإنتاج صوت جديد ، يحدث أحد أمرين : إما أن يستعاض فى الحال عن هذا الصوت المريب بأقرب صوت إليه تعرفه اللغة ، وإما أن يبقى الصوت أو مجموعة الأصوات التى كانت عرضة للتخالف على حالها دون تغير ، وذلك عندما تتمذر الاستعاضة ، أى عندما يكون أقرب الأصوات إليه فى اللغة لا زال يبعد عنه بعداً شامعاً » . (م . جرامون) فى هذه الحال لا يحدث التخالف ؛ أو إذا حدث ، حدث فى اتجاه عكسى . وإحساس الإنسان اللاشعورى بأنه سيحمل على نطق ما لا يُنطق ، يمسكه عن المضى فى طريق التخالف ، ويقلب كيان القوى التى فى الكلمة ويخلع على الحرف الذى كان يجب أن يختفى فضلاً من القوة يميل بكفة الميزان فى مصلحته : ويقال حينئذ إن التخالف قد انعكس .

وكذلك لا ينتج التخالف لباعث نفساني ، إذا كان اشتقاق الكلمة جلياً بالنسبة للمتكلم . وإذا كان هذا الأخير يعرف اشتقاق جزء الكلمة الذى يجب أن يقع عليه التخالف فحسب ، حصل التخالف عادة فى طريق عكسى : أما إذا كانت أجزاء الكلمة كلها وانحة الاشتقاق بالنسبة إليه ، لم يحصل تخالف قط . وتكون القوة أحياناً فى جانب الجزء اللاحق باللفظ وأحياناً فى جانب جزئه الأصلي . فكلمة *pruneraie* « برُنيريه » كان يجب أن تكون عند التخالف *pluneraie* (بلنريه) فى الفرنسية ولكنها صارت *prunelaie* (برُنيليه) « مزرعة برقوق » لتكون الجزء الأصلي أقوى الجزأين ؛ هذا إلى أن وجود كلمة *prunelle* (بروينل) « نوع من البرقوق الوحشى صغير الحبة » قد ساعد على حدوث التخالف . أما

في حالة الكلمة الأسبانية *sombrero* «مُخبريرو» «قبعة» فلم يحدث تخالف لأن العناصر القطعية التي فيها الراء *r* ذات دلالة بالنسبة لمن يتكلم . وقد استطاع الأستاذ جرامون أن يجمع كل أحوال التخالف تحت قانون واحد هو : الصوت اللغوي القوي يقتضى بالتخالف على الضعيف . وإذا كان الصوتان في قوة واحدة بقي كل منهما .

فتحن أمام صراع من السيطرة والمقاومة . ولكن هذا الصراع لا عس الأعضاء وحدها . نعم يوجد في بنية كل لغة عناصر تفوق غيرها قوة (أنظر الفصل السابق) ولكن القوة الخاصة بكل عنصر مقرها المخ على وجه الخصوص . فالتنيرات التركيبية تأتي من نقص في التناسق بين الفكر والأعضاء ، وتنتج من خطأ في الالتفات . فأحياناً يصل الالتفات إلى درجة كبيرة ويتركز بإسراف في نقطة واحدة على حساب غيرها أو يوزع نفسه بصورة غير متساوية على العناصر المختلفة التي تكون الكلمة ؛ وأحياناً على العكس من ذلك يفر تاركاً المعضو لكسله الطبيعي .

لتقدير قيمة هذه التنيرات على حقيقتها ، يجب أن تكون لدينا معرفة دقيقة بعلم الصوتيات العام وكذلك بالنظام الصوتي الخاص بكل لغة ؛ ولكن يتبقى لنا فضلاً عن ذلك أن نستطيع إرجاع التنير إلى عملية نفسانية . لأن عقل المتكلم هو المسئول عن ذلك في نهاية الأمر .

تسوقنا هذه الخاتمة إلى أن نقول كلمة عن الصلة بين الكلام وبين الفكر : إذ أن هذه المسألة وإن كانت مسألة سيكلوجية قبل كل شيء . فلا يسوغ للعالم اللغوي أن يهملها . بأية حال^(١) . عندما نسمع لغة أجنبية لانرفها لاندرك أذننا منها إلا مجاميع من الأصوات على شيء من الطول يقل أو يكثر ، ويفصل بينها

(١) انظر خاصة ب . إردمان B. Erdmann : « الأسس السيكلوجية بين الكلام والفكر » في (Archiv . f . system . philosophie) مجلد ٢ ، عام ١٨٩٦ ، ص ٣٥٥ — ٤١٦ . وموتنر Mauthner رقم ١٧٨ مجلد ١ ، ص ١٦٤ . ويوجد في فان جينيكين van Ginneken رقم ٧٨ ، مراجع عديدة عن هذه المسألة في أماكن منفردة .

فترات من الصمت . فإذا كنا نفهم اللغة التي يتكلم بها أيقظت في ذهننا هذه المجموع من الأصوات بجميع تصورية مرتبطة كل منها بالأخرى وتكون مايسمى جملة في الاصطلاح النحوي . أصوات وجل ، هاتان هما الحقيقتان اللتان يميزهما للوهلة الأولى تحليل الكلام تحليلاً سريعاً مبنياً على الفرق بين الأثر الذي يحدثه فينا سماع لغة نجهلها وبين الذي يحدثه سماع لغة نفهمها .

من الحق أننا لانعبر بأصوات عن كل ما في ذهننا من وحدات تصورية . فالتأمل مثلاً لا يقتضي تمرين الأعضاء المنتجة للصوت ؛ ولكن التأمل كلام داخلي فيه تتسلسل الجمل كما في الكلام المنطوق ^(١) . وكل واحدة من جمل التأمل تنطوي بالقوة على جميع الحركات النطقية للكلام . فالتفكير يسير معتمداً على الأصوات ، حتى عند ما تكون الأصوات غير منطوقة . لذلك نرى أنفسنا في بعض لحظات التأمل مسوقين بطريقة غير شعورية إلى نطق بعض الكلمات التي تقابل تفكيرنا . فكان الفكرة ، وقد ثقلت وطأتها على العضو ، قد وضعت الآلية في حالة حركة على غير إرادة منها ؛ على نحو ما يفعل أخرق أو أهوج وقد أراد أن يجرب جهازاً ما فلم يكتبف بالتمثيل التوضيحي ، بل راح ينفذ العمل على حقيقته .

يجب أن تترك لعلماء النفس أن يبينوا إلى أي حد تكون الإمكانات الصوتية ضرورية للكلام الداخلي . هذه الضرورة ناتجة من المادة على وجه التأكيد ، وليس إلزاماً من الطبيعة . ولكن يمكن الجزم بأن تأمل الأصم الأبكم يختلف عن تأمل الإنسان السليم الذي وهب الكلام . فالصورة التي نبر بها تسجن التفكير بشكل يجرده من الوجود المستقل ولا يسمح له بالانفصال عن الأصوات التي تحقق ماديته ، ولا بالانفصال عن إمكانات الأصوات عندما لا يحدث في الواقع التحقق للمادى . والحالة التي فيها تدور الأعضاء في الفراغ ، دون عمل التفكير ، لاتناقض هذا المذهب . فإذا أردنا أن نسمع سلسلة من أصوات متنوعة مجردة من المعنى ، فإن تنوعها لا يساوى أبداً ذلك التنوع الذي يستلزم التعبير المنطوق عن فكرة من الأفكار . وأغلب الأمر ، أن يقتصر الإنسان على إنتاج

(١) ف . إيجيه (V. Egger) : الكلام الداخلي ، باريس ١٨٨٦ .

بجاميع من الأصوات موجودة في اللغة ، أى مما اعتادت الأعضاء على النطق بها ويجرى استعمالها مزودة بمعنى من المعانى .

يمكننا أن نسمى الوحدة النفسانية السابقة على الكلام بالصورة اللفظية ، وهى تصوير أعدّه الفكر قصد التعبير الكلامى ، وهى فى الوقت نفسه مجموعة من الإمكانيات الصوتية على استمداد للتحقق الفعلى . فالصورة اللفظية صورة مزدوجة الوجه تنظر بإحدى ناحيتيها فى أعماق الفكرة وتنمكس بالأخرى فى الآلية المنتجة للصوت . إذا اعتبرت من وجهة تحققها المادى ترجمت بالأصوات ؛ ولكنها بأصولها النفسانية من نتاج عمل العقل . فيها يتحد طرفا الثنائية التى كنا فى سبيل الكلام عنها فيما سبق ؛ وفيها يلتقى ميدان العالم اللغوى بميدان العالم النفسى . علماء النفس^(١) يعتبرون الصورة اللفظية نتاجاً معقداً ناشئاً من انطباق صور أربع بعضها فوق بعض أو من اشتراكها ، وهى صورة شفوية وصورة سمعية وصورة بصرية وصورة يدوية . وهذا التمييز بين الصور الأربع قديم جداً ؛ قال به منذ سنة ١٧٤٠ دافيد هارتلى David Hartley فى ملاحظاته عن الإنسان Observations on man . ونحن نعرف المكان الذى احتله هذا التمييز فى أعمال مدرسة Charcot . فهذا الأخير كان يعلم أن كل كلمة تتكون من عناصر أربعة مجتمع مثنى مثنى فى صور حسية (سمعية وبصرية) وحركة (شفوية ويدوية) أو — وذلك بنوع من التوزيع الذى يتلاقى مع السابق — فى صور صوتية (سمعية وشفوية) وكتابية (بصرية ويدوية) . هذا التحديد يمكنه أن يدافع عن نفسه إذا طبق على الصورة اللفظية لا على « الكلمة » (قارن الصفحة الأخيرة فى هذا الفصل) . ومع ذلك فإن تحليل الصورة اللفظية تافه الأهمية بالنسبة للعالم اللغوى . لأن أحوال النشاط الخفى التى هى شغل العالم النفسى الشاغل تخرج عن دائرة اختصاص العالم اللغوى .

نستطيع هنا أن نعتبر الصورة اللفظية كلاً ينبى عنها تكوينه . فنصنر أن على الأقل من العناصر التى يعرفها لها علماء النفس (أعنى البصرى واليدوى)

(١) أنظر دنيان بوفريه ، رقم ١٠ ، مجلد ١٦ ، ص ٤٦٦ وما يليها .

لا يدخلان في حسابنا لأنهما لا يعنيان غير الكلام المكتوب . ولا يدخل في الحساب بالنسبة للشخص الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة إلا الصورتان الشفوية والسمعية ؛ ولكنا ، حتى منذ ابتداء الفصل الأول ، قد ذكرنا من البواعث ما يدفعنا على جعلهما صورة واحدة (انظر ص ٤٤) .

ومن جهة أخرى ليس علينا أن نعمل حساباً للاختلافات التي تنتج في نشأة تكوين الصور اللفظية . فنحن نعتبرها مكونة نهائياً في مخ المراهق الذي يتكلم لفته القومية . ونحن نأخذ كلام المراهق كما يسير سيره المادى ، بناء على التحصيل الذي تلقاه منذ طفولته الأولى .

على كل طفل أن يخلق هو نفسه ومن كل وجه كلامه ؛ وإذن فالصور اللفظية التي ليست إلا بعض وقائع الاختبار تحولت في المخ إلى إمكانيات لغوية ، وعلى الطفل أن يحصلها شيئاً فشيئاً وأن يربها . وإنه ليتعذر علينا أن تتمثل أطوار هذا التحصيل بناء على الصورة التي بها نتعلم لغة أجنبية في سن المراهقة . لأن تعلم لغة أجنبية يقوم دائماً على أساس اللغة القومية . فإن الإنسان يسير بطريقة الاستبدال ، ويسمى إلى تكوين معادلات بأن يرص في ذاكرته كلمات وجلا من اللغة التي يتعلمها إلى جانب كلمات لغته القومية وجلاها . كما يعتمد هذا التحصيل في غالب أحيانه على الكتب ؛ فيمتد على الكلمات المكتوبة ويتخذ أساساً له نوعاً من البنية النحوية المصطنعة إن قليلاً وإن كثيراً .

أما العمل الذي يتم في دماغ الطفل فيختلف عن هذا اختلافاً كلياً . فإن الطفل يتلقى عن محيطون به جلا جاهزة تفيد التعبير عن بعض الأوامر أو بعض الحاجات ، أو عن بعض الوقائع فحسب : « انصرف » ، « أنا جوعان » ، « الجو صحو » . . . الخ . كل هذه تختزن في الدماغ وتكون بعددها صوراً لفظية ، صوراً تُصقل وتتحدد كلما تكاثرت : لأن هذه الصور تصير — بواسطة الاستبدال الذي يعتاد عليه عقل الطفل بسرعة — جذيرة بالتعبير عما في الأشياء والأفكار والمواطف من تنوعات جمّة ، وتتلون بجميع ألوان التفكير على اختلافها . فإذا ما انتهت مرحلة التحصيل ، كان في حوزة الطفل مجموعة من الصور اللفظية التي تظهر من تلقاء نفسها في الدماغ كاملة التكوين ، وعلى استعداد تام لتحقيقها عملياً

في الكلام ، كلما عن له أن يلقى أمراً أو أن يعبر عن حاجة أو أن يصوغ واقعة من الوقائع . ولا يلبث المجهود العقلي الذي تتمخض عنه الصورة اللفظية أن يصير من البساطة والألفة بحيث لا يشعر به الإنسان وبحيث يتبع مباشرة إنتاج الصورة اللفظية الإحساس بالحاجة أو استيقاظ الإرادة ، ثم تنلى الصورة نفسها على التو بالتحقق العملي في اللغة .

يستلم الطفل في مرحلة التحصيل التي تفرض عليه إلى رياضات معقدة . فيموّد أعضائه على إنتاج الأصوات التي يسميها . ولكنه لا يسمع إطلاقاً أصواتاً منزلة ، بل تقدم إليه الأصوات في كل ذي معنى ، فيتعلم في نفس الوقت كيف يخضع أعضائه إلى أوضاع متنوعة تقابل الأصوات المختلفة وكيف يربط بجميع الأصوات التي تصدر على هذا النحو بمعنى من المعاني . والأصوات ليست جميعاً على درجة واحدة من الأهمية ؛ بل منها ما يدور غيرها كما رأينا في دراسة التغيرات الصوتية . ولكن العناصر العنقية التي تكون تلك المادة التي تصاغ في الأصوات تحمل بدورها درجات مختلفة من السيطرة ؛ فمنها ما تطفو وتفرض نفسها على الانتباه بدرجة من الوضوح أعلى مما لغيرها . ويترتب على ذلك أن الصور اللفظية ، من وجهة نظر العناصر التي تؤلفها نفسها ، تكون شيئاً فشيئاً بواسطة تحسينات متتابعة تضاف إلى التجربة الأولى التي تعدّ بطبيعة الحال غير كاملة ولا تظهر في تلك التجربة البدئية إلا بعض الملامح المميزة ، وهي تلك الملامح التي تقابل قم السيطرة سواء في الصوتيات أو في العقليات ثم تمثل في الصورة شيئاً فشيئاً الملامح الثانوية في أدق تفاصيلها .

ومهما كان الوقت الذي يستغرقه التحصيل حتى يصل إلى التكوين النهائي للصورة اللفظية ، بل مهما كانت الفترة التي تقدر لاستكمالها ، فإن الذي يميزها في عين العالم الذنوي إنما هي وحدتها . فكل العناصر المكونة لها تندمج في عمل واحد هو العمل اللغوي الجوهرى ، الذي لا يملك العالم اللغوي أية وسيلة يستطيع بها أن يتمده . فمتدما يقول الطفل « pas poupe » يقصد أن يقول بأنه لا يحب الحساء الذي يقدم إليه ، أو أنه يرفض شربه ، فإن الصورة اللفظية التي في ذهنه والتي

نهيمن على التعبير بجملته تمتد كلاً بحكم التناسق وإن كان بدائياً . بعد ذلك في سن المراهقة ، يستطيع أن يقول على حسب الأحوال : « لا آخذ حياء » أو « أحب ألا آخذ حياء » أو « أفضل ألا تعطوني حياء » . الصورة اللفظية التي تقوم على أساسها كل واحدة من هذه الجمل أغنى وأعمر بالألوان المتنوعة من جملة الطفل . وهذه تلك تنطوي على نفس الوحدة .

يمكن تعريف الجملة بالصيغة التي يعبر بها عن الصورة اللفظية والتي تدرك بواسطة الأصوات . والجملة ، كالصورة اللفظية ، عنصر الكلام الأساسي . فبالجل يتبادل المتكلمان الحديث بينهما . وبالجل حصلنا لغتنا ؛ وبالجل نتكلم ، وبالجل نفكر أيضاً . الصورة اللفظية يمكن أن تكون في غاية التعقيد ؛ والجملة تقبل بمرورها أداء أكثر المبارات تنوعاً ؛ فهي عنصر مطاط . وبعض الجمل يتكون من كلمة واحدة : « تمال » و « لا » و « وأسفاه » و « صه ! » ؛ كل واحدة من هذه الكلمات تؤدي معنى كاملاً يكتب بنفسه .

غير أن الجملة لها امتداد الصورة اللفظية بالضبط ؛ بل إنها غير محدودة بالطاقات الصوتية ، إذ أنه في غالب الأحيان لا يكفي نفس واحد لنطق جملة بتمامها ، وقد يحدث أن تشمل جملة واحدة بعينها مجموعتين تنفسييتين أو أكثر . وعمل العقل يسيطر على عمل الأعضاء ، ولا يمكن أن نكون عدم كفايتها سبباً في وقوفه ، كما لا ينبغي أن يكون في ضرورة أخذ الشهيق عائق لنافخ الناي أو « للسلامية » . والجملة تنتظم جميع الدرجات ، من الحركات النطقية البدائية التي يصوغ بها الطفل حاجة من حاجاته إلى الصورة المستكاملة المؤتلفة ألطف ائتلاف تلك التي تكسو فكرة فنان من نوع ديموستين أو شيشرون أو بوسويه .

يرى من كيفية تعريفنا للجملة أنها تشمل الصورة اللفظية ؛ فنكتأها لاحد لها إلا في موهبة التأليف التي للعقل . فيجب بناء على ذلك أن يعطى للصورة اللفظية امتداد أوسع مما يعطى لها عادة وألا تقصر على الكلمة . ولا خلاف بين الصورة اللفظية والجملة إلا في أنه لا كانت الجملة حقيقة واقعية مشخصة ، كانت معرضة لكل الموارض التي يستتبها التحقق الواقعي . فالخزاف الذي يضع في فرنه فنجاناً .

من الخبز لا يمكنه أن يقطع بالنتيجة التي سيحصل عليها بعد الحريق ؛ لأنه يخشى دائماً من نار عادية تحيل الطينة لها أو من نار ضعيفة لا تقوى على إبراز اللون . كذلك الصورة اللفظية ، وقد حُضرت في المراكز المصيبة ، لا تستطيع المرور بالأعضاء دون التعرض للأحداث .

ويمكننا أن نضرب مثلاً نوضح به ما تقدم : أنخيل أن جاراً لي وخزني غير عامد ، فأصبح قائلاً : « آه ! لقد خزنتني ! » .

من اليسر أن نستعيد تتابع الأفعال التي تمت . فهناك إحساس بالوخزة ، نُقل إلى المراكز المصيبة ، واستدعاء مفاجئ لصورة لفظية ، ترجت على الفور في اللغة بالجملة الآتية الذكر . وكان التابع من السرعة بحيث تمت الصيحة الوخزة مباشرة . فاسميه صورة لفظية إنما هي الصورة التي أعطاها الفكر ، وفقاً للموائد المكتسبة ، إلى الصيحة التي صحتها . وتختلف الصورة اللفظية في لغة ليس فيها أفعال متمذبة أو تعبر عن الحدث في صيغة المبني للمجهول : « أنا ملدوغ منك » . واختلاف الصورة اللفظية كثيراً ما يكون الاختلاف الوحيد الموجود بين اللغات . وهكذا يقال في الألمانية « أنا هو » على حين يقال في الفرنسية : « إنه أنا » . فالصورة اللفظية مختلفة التركيب . جملة « آه ! لقد خزنتني ! » تقابل الصورة اللفظية للفرنسية السليمة . فلنفترض الآن أن لساني قد انمرف فقلت : « آه ! لقد خزنتني ! » مرتكباً « قلباً صوتياً » (بالألمانية Schüttelform^(١)) . ومع ذلك فالصورة اللفظية لم تتغير . وإذا كانت لم تتحقق إلا تحقّقاً ناقصاً ، فرجع ذلك إلى خطأ قد عرض في التنفيذ . فالجملة التي نطقت بها لا تتفق مع الصورة ؛ وقد وقع الخطأ في الانتقال من إحداها إلى الأخرى .

لسنا في حاجة إلى القول بأنه توجد حالات تكون فيها الصورة اللفظية مسئولة عن الخطأ المرتكب . فرغم معرفتي التامة لاسم صديق ديران ، أراني أدعوه في المحادثة باسم لبران ، وهو اسم شخص آخر من أصدقائي . فمثل هذا ليس عارضاً مادياً يمكن أن يمزى إلى الأعضاء . وإذا اتفق مثل ذلك لفرد

(١) قانون ميرنجف Merxengef وماير Mayer ، رقم ١٨٠ .

من أفراد الشعب لسمعناه يقول : « لا أدري لماذا كان لبران في ذهني » . والواقع أن انزلاق اسم مكان آخر قد حدث في نفس الصورة اللفظية التي يؤلفها العقل . وهذا هو وجه الاختلاف .

إذن تتألف الصورة اللفظية والجملة من عناصر واحدة . هذه العناصر هي التي تسمى في النحو المعتاد بالكلمات . وقد درسنا في هذا الفصل الكلمة الصوتية ؛ ولكن الكلمة الصوتية قد تشتمل على عدة كلمات بالمعنى الذي يقصد في النحو المعتاد ؛ بل إن حدودها قد تكون جلية الواضح تبعاً للغات . فلأجل أن نحددتها تحديداً كاملاً يجب أن نحلل عناصرها من وجهة نظر نحوية . وذلك هو موضوع الفصل التالي .



الجزء الثانى،

النحو

الفصل الأول

الكلمات والأصوات

تنظّم كل جملة نوعين من العناصر المتميزة : أولاً التعبير عن عدد ما من المعاني التى تمثل أفكاراً ، وثانياً الإشارة إلى بعض العلاقات التى بين هذه الأفكار . فإذا قلت : الحصان يجرى ، ففى ذهنى فكرة الحصان وفكرة الجرى ، وقد جمعت بين الاثنين فى هذا الإثبات الذى هو « الحصان يجرى » . وإذا قلت منزل بطرس كبير ، فإن الأفكار البيت و بطرس والكبر تتركب كذلك فى الإثبات الذى يكون جلتى . ويحسن أن نذكر أننا نأخذ الأحداث كما يقدمها لنا الكلام ، أى أننا ننظر إلى الصور اللفظية فى نفس الصورة التى تظهر عليها فى الكلام . هذا هو المعنى الذى يجب أن نفهمه من الفكرة التى عبرنا عنها فيما تقدم بقولنا « نحن نفكر بجمل » . فنحن نفترض أن الفعل العقلى الذى يضيف اسماً إلى أحد الأشياء (هنا الحصان) ويجعل هذا الشيء متعلقاً بحدث من الأحداث ، ويحصر هذا الحدث فى حدود من الزمن ليقول : الحصان يجرى ، فأما نفترض أن هذا الفعل العقلى يتم فى الدماغ تبعاً لمواند لايشعر بها التكلم نفسه .

هذا الفعل العقلى الذى يفترضه اللغة ينتظم عمليتين متتابعتين : عملية تحليل عندما يميز العقل فى البصوّر ، وقد أعطى ، عدداً ما من العناصر التى تقوم بينها

علاقة (هي هنا الحصان والجري) ثم عملية تأليف — عندما يروح العقل وقد انتهى من تعرف هذه العناصر المختلفة وتحليلها — يؤلف بينها من جديد ليكون الصورة اللفظية . والتأليف وحده هو الذى يهيم علم اللغة ، ويهيم بدرجة قصوى : لأن الاختلافات فى البنية بين اللغات تنتج من الكيفيات المتنوعة التى تتوقف عليها عملية التأليف^(١) .

لنفترض أن جميع الأدمغة الإنسانية تتلقى كلها على السواء ، عين الطابع البصرى للحصان الذى يجرى ولنسلم — وذلك مما لا نزاع فيه — بأنها تحلل هذا التصور بطريقة واحدة بعينها ، وأنها تقيم بين الحصان وبين الجرى نفس العلاقة بالضبط ، فإن التعبير عن هذه العلاقة يحصل فى كل لغة بطريقة خاصة : الصورة اللفظية تؤلف تأليفاً مختلفاً . فالتفريق المشار إليه فى أول هذا الفصل ليس إذاً نظرياً بحتاً وهو يقابل ما يصح أن نسميه دوال النسبة Morphèmes ودوال الماهية sémantèmes . ويجب أن نفهم من دوال الماهية تلك العناصر اللغوية التى تعبر عن ماهيات التصورات : فهنا ماهية الحصان أو ماهية الجرى ؛ ونفهم من دوال النسبة العناصر التى تعبر عن النسب بين الماهيات : هنا كون الجرى النسند إلى الحصان على العموم محمولاً على الشخص الثالث المفرد الإخبارى . وعلى ذلك تعبر دوال النسبة عن النسب التى يقيمها العقل بين دوال الماهية . هذه الأخيرة ليست إلا عناصر التصور الموضوعية ؛ وستدرس على حدة فى الجزء المخصص للمعردات من هذا الكتاب .

دال النسبة فى غالب الأحيان عنصر صوتى (صوت أو مقطع أو عدة مقاطع أحياناً) يشير إلى النسب النحوية التى تربط الأفكار الموجودة فى الجملة بعضها ببعض .

فى جملة من اللغة الإغريقية القديمة مثل : « سيفونيد أقام عراباً جيلاً » ، من السهل علينا أن نعرف أنه يوجد إلى جانب المقاطع التى تعبر عن الأفكار الأساسية

(١) فنك Finck ، رقم ١٦١ ، ص ٤ .

في الجملة وهي : سيمونيد والإقامة والمحراب والجبل ، مقاطع أخرى ينحصر دورها في الإشارة إلى أن صفة جبل تنسب إلى المحراب وأن سيمونيد هو الذي فعل في الماضي حدث إقامة المحراب المذكور . فأول هذه المقاطع من دوال الماهية والثانية من دوال النسبة . لناخذ أيضاً من العربية مجموعة من الكلمات مثل مجموعة أن يعطى ، أُعْطِيَ ، الإِعْطاء ، مُعْطُون ، إلى المُعْطَى : فالتحليل يجد فيها دون عناء عنصراً دائماً هو « ع ط ي » الذي يصل كل هذه الكلمات بفكرة الإِعْطاء . ولكنه يجد فيها فضلاً على ذلك عدداً من العناصر الصوتية التي تستخدم للإشارة إلى أن الكلمة فعل أو اسم ، ومن أي نوع هي ، أو للدلالة على الفصيلة النحوية (النوع والعدد والشخص) التي تنتمي إليها الكلمات ، وكذلك على العلاقة التي تربطها بكلمات الجملة الأخرى فهذه العناصر دوال للنسبة .

وبعض هذه الدوال ليس له وجود مستقل ، فيجب تحليل الكلمة لاكتشافها وهذه تسمى لواحق أو زوائد ، والبعض الآخر كالضائر والأدوات (في الفرنسية مثلاً) منفصلة عن الكلمة في الكتابة . ولكن هذا الفرق عديم الأهمية هنا . وإذا أدخلنا على الجملة الإغريقية المتقدمة كلمة « لكان » لتغير المعنى في الحال . فهذه الكلمة « لكان » دالة نسبة تلون الجملة بلون فرضي من طابع خاص ؛ فبإضافة هذه الكلمة التي تستعمل للتعبير على ما لم يقع ، تصير الجملة : « لكان أقام محراباً جميلاً » . كذلك لو أضفنا إلى أية جملة في السنسكريتية المقطعين *ai* (إيتي) لدلت هذه الزيادة على أن الجملة حكاية مباشرة لكلام قائل : فإيتي *ai* من دوال النسبة . والفرنسية العامية فيها دالة من هذا القبيل في صورة « كيدى » *quidi* (المذكر) أو *quédi* كيدى (للمؤنث) : قارن العبارتين « *tu as tort* » أنت مخطئ ، و « *tu as tort, quidi* » أنت مخطئ ، قيل . « فتحس على الفور أن الجملة الأولى خطاب مباشر والثانية جزء من اقتباس ، وعليها طابع الحكاية .

ولا يهمننا هنا النظام الذي بمقتضاه تستعمل دوال النسبة في الجملة ، ولا المكان الذي تحتله فيها ، ولا المدى أو الأهمية اللذان تحملهما اللغة عليها . فنحن نمد من

هذه الفصيلة الزائدة — ε واللاحقة σ — واللاصة ev — من الإغريقية εποισεν « هو عمل » (بالفرنسية Il a fait) ، كذلك نمدّ منها القطعين الأولين في Il a fait . وهذه العناصر مهما اختلف أصلها فإنها تلعب دوراً بيمينه كلّ منها في لفته .

ولأنهم كذلك بأن تكون دالة النسبة كما يعرب أو مما لا يعرب . ففي العربية البصيغة « كان زيد يقتل » معناها فقط « Zaid tuait » . ذلك أن المضارع في العربية يُسبق بفعل السكون ليدل على الاستمرار في الماضي ؛ ويتصرف الفعلان كلّ منهما على حدته ^(١) :

الشخص الأول	كنت أقتل
الشخص الثاني المفرد المذكر	كنتَ تقتل
الشخص الثاني المفرد المؤنث	كنتِ تقتلين
الشخص الثالث المفرد المذكر	كان يقتل
الشخص الثالث المفرد المؤنث	كانت تقتل

فالعقل يحس الفعلين وكأنهما وحدة رغم أنه يمكن وضع كلمة بينهما ؛ فالفعل الأول من دوال النسبة .

وأخيراً لا يهمنا أن تكون دالة النسبة تشتمل على عنصر واحد أو على عنصرين صوتيين منفصلين . فهناك دوال نسبة تنتج من كلمتين ، نعرلتين يجمع بينهما العقل وتكون لها رغم انفصالهما وحدة لا تقبل التمزيق . ففي الفرنسية يعبر عن النوى بمنصرين لا يكادان يتجاوران مطلقاً في الجملة : ومع ذلك فإن « je ne mange pas » « لا آكل » في الفرنسية لها من الوحدة ما « nitoinlim » في الأيرلندية .

كل دوال النسبة هذه ، سواء أ كانت مفردات أم مجموعات ، تمدّ من الفصيلة الأولى لدوال النسبة ، تلك التي يعبر عنها بعناصر صوتية تدخل في الجملة وتوصل بدوال الماهية .

هناك فصيلة ثانية ، دوال النسبة فيها تتكون من طبيعة العناصر الصوتية الدالة

(١) أنظر بركان Brockelmann رقم ١٤٨ ، خذ ٢ ص ٥٠٩ .

على الماهية أو من ترتيبها . وهذه الفصيلة تمدّ أكثر خفاء من السابقة وإن كانت لا تقل عنها أهمية في اللغة .

ونجد في تبادل الحركات في اللغات الهندية الأوربية أو في السامية خير الأمثلة لتوضيح هذه الفصيلة . لسا هنا نضيف عنصراً صوتياً إلى دالة الماهية ليخلع عليها قيمة صرفية . بل يكتفى في الإشارة إلى دور دالة الماهية العرفي بالعناصر الصوتية لهذه الأخيرة نفسها . فالإنجليزية تقابل بالجمعين men و feet المفردين man « رجل » و foot « قدم » ، و تقابل اسمى المفعول held و struck بالمصدرين hold « يمسك » و strike « يضرب » — فالاختلاف الذي بين هذه الصيغ اختلاف في جرس الحركة الذي يلعب على هذا الوضع دور دالة النسبة ، إذ أنه وحده يشير إلى قيمة الكلمة الصرفية . ونجد نفس الشيء في اللغة الألمانية حيث نرى wir . gaben « كنا نمطى » تقابل wir geben « نمطى » و gib « أعط » . وكذلك في الغالية الوسطى حيث نرى الجوع myr و brein و wyn تقابل المفردات bran « غراب » و mor (بحر) و oen (خروف) . فالتبادل الصوتي عنصر صرفي ضروري في أقدم اللغات الهندية الأوربية كالإغريقية والسنسكريتية . ويمكننا أن نقول بأن القيمة الصرفية لكل كلمة في الهندية الأوربية كانت محددة تحديداً تاماً أو ما يقرب من التام بجرس حركة الأصل . وكذلك الحال في السامية ، كما نمطينا عنها العربية هذه الفكرة حتى يومنا هذا : حمار جمعها حمير ^(١) . وهذا على درجة من الحياة في العربية جعلتها تطبقه على كلمات مستعارة منذ تاريخ حديث من الألبانية أو الفرنسية : رسيبو resibu « إيصال » والجمع رواسيب ؛ بابور والجمع بواير ؛ شميت « حارس رينى » ، والجمع شوميت .. الخ . وهذا ما يسمى بجمع « التكسير » أو الجمع « الداخلي » .

ويشير المصطلح « إعراب داخلي » بوضوح إلى أن تبادل الحركة يلعب نفس الدور الذي يلعبه المنصر الإعرابي الذي يمكن أن يضاف للكلمة . والواقع أن علامة الجمع في الأسماء تكون في الإنجليزية والغالية على وجه العموم بإضافة لاصقة

(١) بركلان ، رقم ١٤٨ ، مجلد ١ ، ص ٤٣١ .

خاصة : في الإنجليزية boot « حذاء » وجمعا boots ؛ loss « خسارة » وجمعا losses ؛ وفي النالية penn « رأس » وجمعا pennau « coed » « خشب » والجمع coedydd ، الخ . وفي العربية تجمع الكلمات المؤنثة كلها بإضافة زائدة . كذلك في الألمانية يختلف الماضي غير التام عن الحاضر باستعمال لاحقة ، هي « ت » . Ich rede « أتكلم » والماضي غير التام Ich redte (كنت أتكلم) Ich lebe « أحيأ » والماضي غير التام ich lebte (كنت أحيأ) الخ . بمقارنة هذه الأمثلة بالأمثلة السابقة نرى أن تبادل الحركات واللواحق نوعان متساويان من دوال النسبة .

النبر أيضاً من دوال النسبة الهامة جداً ، فهو يشترك في بعض اللغات في تحديد القيمة الصرفية للكلمات . ونقصد بالنبر هنا نبر الارتفاع أى النعمة . فالنعمة في الإغريقية والسنسكريتية عنصر يميز الكلمة بقدر ما يميزها اللاحقة أو اللاحقة . وشهادة هاتين اللغتين تركبها لغات أخرى من نفس الأسرة كالسلافية واللواتية . فبعض الصيغ المتماثلة كل التماثل لا تتميز بعضها عن بعض في الغالب إلا بالنعمة : إذ أن النعمة هي التي تعطى $\tau\acute{\alpha}\mu\epsilon\iota\nu$ « أن يكتب » قيمة الحاضر ؛ والنعمة هي التي تميز $\tau\acute{\alpha}\mu\epsilon\iota\nu$ « قطع » من $\tau\acute{o}\mu\omicron\varsigma$ « قاطع » ؛ وهي وحدها أيضاً التي تكون الفرق بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول في الأفعال الإغريقية المركبة . دور النعمة هذا يلفت نظرنا إلى أن اللغات الهندية الأوربية كانت ، لثرائها بنظامها الصرفي ، تلك وسائل شتى للتعبير عن الروابط التي بين الكلمات وعن دور الكلمات في الجملة .

نفهم أن النعمة تلعب دوراً أخطر في لغات الشرق الأقصى حيث العناصر النحوية قليلة العدد . فهذه اللغات استعملت صرورة النبرات التي تحتملها أصواتها ، واتساعها وتنوعها للغايات الصرفية خير استعمال^(١) . وتوجد هذه الظاهرة نفسها في بعض اللغات الإفريقية^(٢) في اللغة الفهلية يعبر التنعيم عن النفي^(٣) : مجموعة

(١) انظر عن الألمانية جرامون ، رقم ٦ مجلد ١٦ ، ص ٧٥ .

(٢) الدكتور وسترمان Westermann ، رقم ٢٢١ ، ص ٣٧ وما يليها .

(٣) اللغة الفهلية هي لغة قوم من البربر اختلفوا بالعرب والزنج ، ويقيدون الآن في إفريقيا الغربية الفرنسية . المرابان

مثل : مِي وَرَتَ mi warata معناها « سأقتل » (أو « أقتل » في الحاضر الدال على العادة) إذا نطقت الفتحة النهائية بنفس النغمة التي لباقي الجملة ؛ ويصير معناها « لن أقتل » إذا نطقت الفتحة النهائية بنغمة أعلى . فارتفاع الصوت له إذن من القيمة ما لدالة النسبة .

من النغمات المختلفة ذات القيمة الصرفية ، نغمة لها أهمية في بعض اللغات ، وهي نغمة الصفر ، أى عدم وجود النغمة . ففي السنسكريتية مثلاً يكون الفعل منتهماً أو غير منتهم تبعاً لبعض شروط الاستعمال في الجملة . ولكنه بالطبع في استعمالاته المختلفة يتميز تميزاً واضحاً بغياب النغمة كما يتميز بوجودها .

وهذا يؤدي بنا إلى أن نضيف إلى دوال النسبة المشار إليها فيما سبق نوعاً من هذه الدوال أكثر من غيرها دقة ولكنها ليست أقل منها تعبيراً ، ونعني تلك التي يصح أن نطلق عليها دوال النسبة الصفرية . ففي الميدان الضرفي تلعب درجة الصفر دوراً هاماً . والقيمة التي تملكها هي قيمة تقابل على وجه الخصوص ؛ ولكن ذلك لا ينقص من خطرها . فكثيراً ما يكون للصمت في الموسيقى من التعبير ما للميلودية التي يعترض طريقها ويقطع تدرجها ؛ وفي الحديث لحظات من الصمت البليغ . في اللغة تعتبر دالة النسبة الصفرية دالة نسبة كغيرها من دوال النسبة . فقد كان في الهندية الأوربية بعض الأسماء التي لا يحمل مرفوعها أية لاصقة مميزة ؛ أى أنها كانت تحمل في هذه الحالة لاصقة الصفر . فعدم وجود اللاصقة يكفي ، في مقابلة اللواحق المتنوعة التي تتمتع بها الحالات الأخرى ، لتمييز المرفوعات التي نحن بصدددها . بل إن هناك حالة من حالات الإعراب في الهندية الأوربية تتميز دائماً بتلك الصورة في الفترة القديمة على الأقل : ألا وهي حالة المنادي . وتقابلنا هذه الخاصة أيضاً في صيغة فعلية قريبة من المنادي ، وهي صيغة الشخص الثاني المفرد في حالة الأمر . فدرجة الصفر تلعب دوراً لا يقل عن دور غيرها في تبادل الحركات في اللغات الهندية الأوربية والسامية .

وأخيراً نصل إلى فضيلة أخرى من دوال النسبة أقل تشخصاً أيضاً من السابقة وتتكون فقط من المكان الذي تحتله في الجملة كل واحدة من دوال الماهية .

إذا قلنا باللاتينية *regis domus* « بيت الملك ». كانت علاقة الإضافة التي تجمع بين هاتين الكلمتين معبراً عنها بالصيغة الإعرابية ؛ فاللواحق تشير إلى الدور الذي تلعبه كل كلمة من هاتين الكلمتين بالنسبة للأخرى . أما في العبارة الفرنسية *la maison du roi* « البيت [بتاع] الملك » ، فإن المنصرين الصغيرين *la* « أل » و *du* « بتاع أل » يقومان بنفس الوظيفة التي تقوم بها اللواحق في اللاتينية . وفضلاً على هذا الاختلاف يوجد اختلاف آخر بين اللاتينية والفرنسية ينحصر في أن ترتيب الكلمات في الأولى أكثر حرية منه في الثانية : فيمكننا أن نقول دون تفريق *regis domus* « الملك بيت » أو *domus regis* « بيت الملك » . أما في الفرنسية فلا يكاد يسمح بالقلب على هذا النحو ، *du roi la maison* « [بتاع] الملك البيت » إلا في الشعر . ومع ذلك فإن ظهر هذا القلب غريباً بمض الشيء ، فإنه لا يصدم الحس وتبقى العلاقة بين الكلمتين مفهومة . على العكس من ذلك توجد لغات لا يعبر فيها عن هذه العلاقة إلا بمكان كل من الكلمتين بالنسبة للأخرى ؛ فيقال في الغالية مثلاً *ti brenhin* (من *ti* ، تي « منزل » و *brenhin* برهنين « ملك ») مع وضع المالك دائماً بعد الشيء المملوك ، ويقال في العينية *wang tien* (من *wang* ونج « ملك » و *tien* « بيت » مع وضع الشيء المملوك قبل المالك على عكس المثل السابق . وفي كلتا هاتين اللغتين لا يعبر عن علاقة التبعية بأية علامة خارجية ؛ ولا يشار إليها إلا بترتيب وضع الكلمات الذي يجب لذلك بالطبع أن يكون ثابتاً لا يمتريه تغيير . فاللغات التي قدت إعراب الحالات على وجه عام ؛ استعاضت في تأدية العلاقات التي كان يعبر عنها بالإعراب إما بكلمات مساعدة (حروف جر ، أدوات .. الخ) وإما بوضع كل كلمة بالنسبة للكلمات الأخرى ^(١) .

إذا قلنا في الفرنسية *Pierre frappe Paul* « پير يضرب پول » كانت دالة النسبة الوحيدة المبر عنها صوتياً هنا هي الصفر : فالصيغة الفعلية *frappe* « فراب » يضرب » تنفرد في الواقع بعدم وجود اللاصقة ، وبذا تتميز عن الصيغ

(١) عن الإيرانية أنظر جوتيو Gauthio رقم ١٠٠ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

الفعلية الأخرى مثل *frappons* فرّبن « لنضرب » و *frappez* فرّبيه « اضربوا » أو *frapperont* فرّبرا « سيضرب » و *frappant* فرّبن « ضارب » الخ . فقدم وجود اللامعة هو الذى يبيّن هنا أن لدينا فعلاً إخبارياً حاضراً مستنداً إلى الشخص الثالث المفرد . ولكن نسبة الفاعل إلى الفعل والفعل إلى المفعول لا تدل عليها علامة خارجية : وذلك ما يميز الفرنسية عن اللاتينية حيث نرى اللاصقتين *us* « أُس » « علامة الرفع » وأم « *um* » « علامة النصب » في جملة *Petrus caedit Paulum* تكشفان عن الدور الذى يلعبه الاسمان في الجملة ، دالتين على أيهما الفاعل وأيهما المفعول . أما القرينة الوحيدة التى تقدمها الفرنسية فهى في ترتيب الكلمات : فترتيب الكلمات هنا دالة من دوال النسبة . لذلك يمكننا أن نغير في اللاتينية وضع كل كلمة من الكلمات الثلاث كما نشاء دون أن نغس وضوح الكلمة بأدى ضرر ، أما في الفرنسية فيستحيل أن نغس نظام الكلمات دون أن نغيّر المعنى ؛ فلو قلنا في الفرنسية *Paul frappe Peirre* « بول يضرب بير » بدلا من *Peirre frappe Paul* « بير يضرب بول » لارتبكنا نفس الغلطة التى رتكبها في اللاتينية لو أخطأنا في استعمال الإعراب قلنا : *Paulus caedit Petrom* « بولص يضرب بطرس » بدلا من *Paulum caedit Petrus* « بولص يضرب بطرس » .

* * *

بعد أن عرفنا الفصائل الثلاث الأساسية من دوال النسبة ، نجد بنا أن نبحت مسلك هذه الدوال بالنسبة لدوال الماهية .

يتركّب المنصران في بعض اللغات بشكل يجعل كل كلمة تتضمن التعبير عن قيمتها المعنوية ، وعن دورها الصرفى في آن واحد . وكانت السامية والهندية الأوربية لغات من هذا القبيل . فكلمة مثلا كالكلمة الإغريقية *ἔδωκε* فيها شئ يمدّ كاملا ونهائياً : دالة الماهية ممثلة فيما يسمى الأرومة ، وهى هنا *ἔδωκε* التى تبر عن فكرة الإعطاء ؛ وعناصر الكلمة الأخرى تدلنا على أن هذه الفكرة ترجع إلى الماضى وأن لها فاعلا مفرداً : « أعطى » . وكل واحد من عناصر

الكلمة ليس له وجود مستقل : لا الأصل الذى سبق ولا اللاحقة -٧- ولا اللاحقة -٨- ولا الزائدة : كلها لا توجد خارج ذلك التركيب أو التراكيب المائلة له . ففى قطع تنفير لا أكثر ، إذ أننا نستطيع تنويع الأصل واللاحقة والزائدة على السواء . ولكن الذى يعطى للكلمة وحدتها وتآلفها رغم تعدد عناصرها ، إنما هو كون كل واحد من هذه العناصر له ترتيب ثابت لا يقبل التغيير : ففى تمسك بعضها بعضها وتقوى بعضها بعضاً ، وتظهر للعقل فى طابع تصوّر واحد ، هو الطابع الذى يراه فى الفرنسية فى « Il a donné » « هو أعطى » بما فى ذلك من تعبير عن الزمن والعدد .

وتصريف الفعل فى السامية يقدم لنا أمثلة مشابهة : فإدما قد تحققنا من السواكن الثلاثة الأصلية فى كل الصيغ المشتقة من أصل واحد ، لم يبق علينا إلا النظر فى اختلاف الحركات والواضق والعلامات . فالصيغة العربية قتل صيغة واحدة كما رأينا فى الإغريقية تماماً ؛ إذ أنها تشتمل على دالة ماهية ، هى الأصل ق ت ل ، ودوال نسبة تميز صيغة قَتَلَ عن جميع الصيغ المأخوذة من نفس الأصل : قاتل وقتلنا ومقتول واقتل ويقتل وقاتل الخ . يزيد على ذلك أن تصريف الفعل فى السامية يعبر عن الجنس أيضاً : فقَاتَلَ للمذكر فى مقابلة قَاتَلَ للمؤنث ؛ وفى الشخص الثالث أيضاً مثل قتل فى مقابلة قَتَلَ .

تركب اللغات الهندية الأوربية والسامية نوعين من دوال النسبة كما رأينا : تبادل الحركة والاصاق ، ولكن بدرجات مختلفة . فتبادل الحركة يلعب فى السامية دوراً أوسع مما فى الهندية الأوربية . « نخاصة هذه اللغات فى تمييزها بالسواكن عن أساس الفكرة وعن تفرعاتها الثانوية بالحركات يجعلنا فى حل من القول بأن التصريف فى هذه اللغة يقع داخل الكلمات ^(١) » . « الأصل فى العربية لا يميز إلا بسواكنه ؛ أما عن الحركات فكل ساكن من سواكن الأصل يمكن أن يتبع بالفتحة القصيرة أو الطويلة أو بالكسرة القصيرة أو الطويلة أو بالضممة القصيرة أو الطويلة أو بالفتح ، فعندنا سبع صور . وكل واحدة من هذه الصور السبع تستخدم للدلالة على الوظيفة النحوية ^(٢) » . وذلك يسمح للغات السامية بصياغة

(١) رينان : رقم ١١٦ . (٢) ميه : رقم ٩٤ ، الطبعة الرابعة ، ص ١٣٣ .

عدد من الكلمات المشتقة دون حاجة إلى لواصلق : ففي العربية كَتَبَ و كَاتَبَ وكتاب . . . الخ .

توليد الكلمات على هذا النحو في الهندية الأوروبية لا يقع دون التجاء إلى لواصلق . ولكن من أرتبادل الحركات في الهندية الأوروبية والسامية كلتيهما ، أن تعطى قيمة خاصة لما يستمى الأصل بتخليصه من شبكة اللواصلق إذا أردنا أن نركز عليه أعلى درجة من التعبيرية ، إن صح لنا هذا التعبير . الأصل حقيقة حساسة بالنسبة للمتكلم من جهة أنه ينتظم حالات مختلفة من الحركات ، كل حالة منها تقابل استعمالاً مختلفاً . وحقيقته الأصل ترجع إلى قبوله للتنوع ، ومبدأ التبادل يجعل هذه العناصر تلعب دور التمارض . وهو لعب في غاية اللطف والدقة اعتادته عقول الساميين والهنديين الأوروبيين .

يبغى ألا نخلط بين الأرومة « racine » والأصل radical . ففي الفرنسية نستطيع بعد التحليل أن نثر على العناصر Part, aim, recev في المصادر recevoir, partir, aimer ؛ ولكن هذه العناصر ليست إلا كائنات نحوية وليس لها وجود حقيقى في شعور المتكلم . ويسمى النحويون الفرنسيون «أصولاً» . وفى الألمانية تُدخل قاعدة تبادل الحركات فى الأصول قيمة أوضح : فالقابل الذى بين geben « أن يعطى » و gab « أعطى » أو ين nehmen « أن يأخذ » و nahm « أخذ » و genommen « مأخوذ » يمكن إلى حد ما أن يعطينا فكرة عن عنصر بعينه يتميز بالساكنين « g . ج . ب » أو « n . م » . وفى داخله تبادل بعض الحركات تبعاً للمعنى الذى يراد التعبير عنه : أما عن الأرومة فيجب فى اللغات الهندية الأوروبية الصعود حتى الإغريقية القديمة وحتى السنسكريتية على وجه خاص لتكون على بيّنة منها .

ومع ذلك فالهندية الأوروبية بل والسامية تضيف عادة إلى التبادل فى الحركات استعمال لواصلق (لواصلق أو علامات) . ومن النادر جداً فى الهندية الأوروبية أن يكون تبادل الحركات وحده هو المميز للكلمة . وإذا وقع ذلك فإن على العالم اللغوى أن يسلّم بأن الكلمة مزودة باللاحقة الصفية . فالأرومة فى الهندية

الأوربية إذن ، رغم مالها من أهمية صرفية عظيمة ، ليس لها وجود مستقل ؛ فلا شيء غير الموافقة ، الموافقة القائمة على نوع من التحليل للحقائق الذي كثيراً ما يكون تخمينياً ، هذه الموافقة هي التي عودت النحويين الهنود تحليل كلماتهم ليكتشفوا فيها أرومات حتى لرى القواميس السنسكريتية ترجع الصيغ الفعلية إلى صورة مثالية تسمى الأرومة وتفترض أن جميع الصيغ قد خرجت منها بواسطة اللواحق .

واللاحقة أيضاً ليس لها وجود مستقل ، وإنما تستمد كيائها جميعه كالأرومة من تبادل الحركات ومن المعنى الذي يسند إليها ، وهو معنى محدد في غالب الأحيان . نرى تبادل الأصوات في كلمة عبرية مثل كاتب وكاتبون يحدد معنى اللاحقة (— و ن في كاتبون) في جميع الحالات التي يمثّل فيها .

أما العلامات فيمكن مقارنتها باللواحق من كل وجه ؛ فهي أيضاً عناصر تُضم إلى الأرومة . ولا يمكن تمييزها عن اللواحق إلا بالاستعمال ، فاللاحقة تشير إلى النوع العام الذي تنسب إليه الكلمة (اسم فاعل ، مصدر ، اسم آلة ، مكبّر ، مصغّر . . . الخ) بينما تشير العلامة إلى مجرد الدور الذي تلعبه الكلمة في الجملة . فالعلامات تقوم بدور يخالف لدور اللواحق ؛ ولكنها جميعاً ، من جهة بناء الكلمة ، دوالّ نسبة من طبيعة واحدة في الهندية الأوربية والسامية على السواء . اللواحق والعلامات تضاف إلى الأرومة ، ذلك هو المسلك المعتاد في تركيب الكلمات في الهندية الأوربية ؛ ولكنه ليس المسلك الوحيد . فالزائدة التي توضع قبل الأصل يمكن أن تعتبر استثناء من ذلك : ففي الفعل λύω ، εἶλω ، تشير الزائدة ο إلى الماضي كما تشير λύω إلى المستقبل تماماً .

ولا ينبغي لنا أن ندهش إذا قابلنا لغات أخرى يجري فيها التغيير من الأمام على عكس الهندية الأوربية . فالفرنسية مثلاً تعطينا فكرة ما يجمعها الذي يعبّر عنه ، في الكلمات التي تبدأ بحركة ، بصوت صفيري يضاف من الأمام : (آربر) arbre « شجرة » ، والجمع ز - آربر arbres - z « شجر » ؛ homme (أم) « رجل » ، z - hommes (ز - م) « رجال » ، oie (وَا) « وزّة » z - oies « ز - وَا » « وُرْ » . واللغة الدارجة تقدم لنسباً مثلاً غربياً للتوسع في هذا

الانحياز وذلك في الفعل zyeuter (يلتهم بعينه) « زِيَّتِيَه » المأخوذ من z-yeux « عيون » جمع wil (أى) « عين ». ويقال في بعض لهجات اللورين zous et zelles (زوس إى زل) بدلا من eux et elles « هم وهن » و zout « زوت » (إلهم) (قياساً على no vont)^(١).

ولكنها في الفرنسية حالة استثنائية معدومة الأثر. وهناك على العكس من ذلك لغات سامية كاللغة العربية تملك نظاماً حقيقياً من التنكير الذى يضاف إلى أول الكلمة. وهكذا نرى الأشخاص في أحد الزمنين اللذين يصرف إليهما الفعل في العربية، وهو المضارع، يشار إليهم بلاسقة تضاف إلى أول الكلمة :

الشخص الأول المفرد	أَقْتُلُ	الجمع	تَقْتُلُ
الشخص الثانى المذكور المفرد	تَقْتُلُ	»	تقتلون
الشخص الثانى المؤنث المفرد	تقتلين	»	تقتلن
الشخص الثالث المذكور المفرد	يقتل	»	يقتلون
الشخص الثالث المؤنث المفرد	تقتل	»	يقتلن

ومجد كذلك في الجرعية، وهى من عائلة غير العائلة السامية، أمثلة لاقعة للنظر للتغيير الواقع في أول الكلمة. نستنبط من هذا أن مسلك الإلصاق ينحصر في إضافة عناصر صرفية إلى الأصل توضع تارة في رأس الكلمة وتارة في ذيلها دون تفريق.

وفي مقابلة اللغات التى من قبيل الهندية الأوروبية والسامية التى فيها تقدم لنا الكلمة المكونة من الأصل واللواحق كلاً كاملاً قائماً بذاته، نجد سلسلة أخرى من اللغات فيها دوال النسبة مستقلة عن دوال الماهية استقلالاً قد يكون كبيراً وقد يكون ضئيلاً. وأوضح أمثلة هذا النوع تلك اللغات التى تميز بين طائفتين من الكلمات، طائفة الكلمات الفارغة وطائفة الكلمات المليئة — على حد تمييز

(١) ١. رولان E. Rolland ، رقم ٨ ، مجلد ٥ ، من ١٥١٠.

المصطلحات الصينية . فالكلمات المليئة هي دوالّ الماهية والكلمات الفارغة دوالّ النسبة . والكلمات الفارغة لا تنبر إطلاقاً . فكلمة ta تي التي تشير إلى الإضافة كلمة فارغة : wo tieul — tseu ووتى أول تسي « ابني » وكلمة وو « أنا » أعلى الأصح باء التكلم ، وأول — نسي « ابن » . و « تي » تلعب نفس الدور الذي يلعبه في الفرنسية الحرف de أو s : في الإنجليزية ؛ بل إنها تستخدم أيضاً في الإشارة إلى تعلق جملة بجملة ، وفي هذه الحال تكون مساوية لحرف الوصل . وليست الكلمات الفارغة في غالب الأحيان إلا صيغاً متخصصة (وغير منقّمة) من الكلمات المليئة . فالكلمتان المثلثتان تسي وأول ، ومعناها معاً « ابن » تضمان بوصفهما كلمتين فارغتين وتفقدان معناها فقداناً تاماً : فكلمة men من « باب » وكلمة tao تاوو « سكين » تصيران بعد إضافة اللاحقة الاسمية : أول أو تسو ، men - eul (وتنطق mòl مول) أو tseu * tao (وتنطق تاووزة . taoze) . والفعل leao « يَم » لياو يستعمل بوصفه كلمة فارغة (في صورة la لا) للتعبير عن الماضي : فعبارة lai la ومعناها الحرفي « بجيء إتمام » « مصدر » تعبر عن « جيء » ؛ ويمكن تركيب صيغتين من كلمة واحدة ، مرة تكون مليئة ومرة أخرى تكون فارغة : leao la لياو ولا « أَرَم » .

وايس معنى هذا أننا لا نقابل في اللغات الهندية الأوروبية أمثلة ممتازة للكلمات الفارغة . فالكلمة السنسكريتية ili التي تشير إلى اقتباس كلمات متكلم بنصها ليست إلا كلمة فارغة . كذلك كلمة av في الإغريقية القديمة وكلمة θα أو α في الإغريقية الحديثة . (انظر ص ٦٩) . ومن المستحيل ترجمة هذه الكلمات في قاموس ؛ إذ ليس لها معنى مشخص ، بل هي عوامل تقويم أو أسس أو قيم خبرية أكثر منها كلمات . ومن ثم لم تكن توجد منعزلة ؛ أو تأخذ معناها إلا إذا وُصلت بمنصر لغوي آخر فتكون منه كلاً يظهر للعقل كأنه وحدة ؛ و av الإغريقية لا معنى لها إذا كانت وحدها ؛ ولكن ἀνέποιεί , ἀποποιῇ لها في الإغريقية معناها المحدد . والفرنسية مثلاً فيها كلمات فارغة هي حروف الجر . فن المستحيل أن ترجم الحرف الفرنسي à بحرف واحد يعينه من الألمانية ؛ à peid

« على القدم » (في الألمانية zu Fuss) ، « إلى برلين » (في الألمانية nach Berlin !) ، « على الشاطئ » (في الألمانية an der Küste) ، « إلى ضيق » (في الألمانية in der Enge) ، « أو بالأسف » (في الألمانية à regret) ، « على نفقتي » (في الألمانية à mes frais) ، « إلى جانب » (في الألمانية bei Seite) ، « في الساعة السادسة » (في الألمانية um sechs Uhr) ، الخ .
وأفاننا المساعدة être « فعل الكون » و avoir « فعل الملك » ليست إلا كلمات فارغة ، مثلها في ذلك مثل الأفعال المساعدة الإنجليزية to do « فعل الفعل المطلق » و to will و to shall ؛ كذلك في الدغركية المساعد mon (مُنْ) الذي بعد أن كان في وقت ما يعبر عن فكرة الاستقبال في شيء من التأموض ، صار يصحب الفعل مجرد صحة ، ولا سيما في حالة الاستفهام حتى قيل بأن mon أصبح الآن أداة استفهام أكثر منه فعلا : mon han kommer ؟ ، « من هن كومت ؟ » « هل سيأتى ؟ » بمعنى « لو يعرف أنه سيأتى ! » .

مع أن اللغات الهندية الأوربية قد خلقت لها على هذا النحو كلمات فارغة ، فإن الذى يميز الكلمة الهندية الأوربية بوجه عام وكذلك الكلمة السامية إنما هي وحدتها : ففيهما دوال النسبة ودوال الماهية متصلة بعضها ببعض بصورة لا تقبل الانفصام . وعلى العكس من ذلك توجد لغات فيها العروة التي تجمع بين دالة النسبة ودالة الماهية مغلخلة إن قليلا وإن كثيراً .

ومع أن مكان الكلمة الفارغة في الصينية محدد بصورة مطلقة وأنه لا يستطيع نقل الكلمة الفارغة فيها من مكانها بأكثر مما يستطيع ذلك في الفرنسية أو الإنجليزية ، فإن للكلمة الفارغة فيها مع ذلك شيئا من الاستقلال ، أولا من قبل أنه يمكننا إسقاطها ، إذ يمكن أن نقول على السواء من men أو men - eul « مول » باب ، وثانيا من قبل أنه يمكننا — على عكس الحالة السابقة — تكرارها في بعض الأحيان لإبراز الفكرة التي تعبر عنها وذلك بفصلها عن الكلمة التي تتصل بها : leao la che la ، « لياؤ لا تشه لا » « قد انتهى الشيء » .

ولعل اتصال دوال النسبة بدوال الماهية على أقل ما يكون إحكاماً في اللغات الفنلندية الأوجرية واللغات التركية التترية . ففي بعض الحالات في اللغة المجرية إذا كان هناك سلسلة متتالية من الكلمات المتفقة فيما بينها والتي تلعب دوراً واحداً في الجملة ، لا يوضع دال النسبة إلا مرة واحدة في نهاية الكلمة الأخيرة فيقال (az - nak jo - بدلا من - nek ember nek) (آيو أمبر نك) للرجل الطيب ، بدلا من - nek ember - nek) (آز - نك - يو - نك إمبر نك » و a nagy varos - ban « نجى فأرس بن » في المدينة الكبيرة ^(١) ، وفي التركية تحشر علامة الجمع - lar - كز في داخل كلمة مثل Kizlari (بناته) ، حيث توضع بين دال الماهية kiz كز ، ابنة ، ولاحتة الملكية i = ي (kizi « ابنته » بالفرد ^(٢)) .

وفي التركية أيضاً نجد ارتباط المنصرين مغلخلا إلى حد يجعل نظام دوال النسبة غير ثابت . فمثلا لا نستطيع أن نقول في الفرنسية nous avons le vu « نحن رأينا » بدلا من nous l'avons vu « نحن رأيناه » ولا j'aime te « أحب لك لا » بدلا من Je ne t'aime pas « لا أحبك » . بينما يقال في التركية دون تفريق : sevmishlerdir « أحبوا » أو : sevezeklerdir , sevmishdirler , « سيحبون » أو seviyorlar idi « كانوا يحبون » أو seviyor idiler ؛ و sevdim idi « كنت قد أحببت » أو sevdim idi : sevsem idi « لو أحببت » أو sevse idim .

يمكن لكل واحدة من هذه المجموعات أن تحلل وتفرق عناصرها ؛ فالأرومة لها مكانها الثابت في رأس الكلمة ، أما باقي العناصر التي تعبر عن الزمان والشخص والعدد فعلى جانب من الاستقلال بالنسبة للأصل وبالنسبة للعناصر المجاورة ، لذلك يمكن أن توزع داخل الكلمة في شيء من الحرية . وليس لها على وجه العموم أى

(١) شليشر Schleicher وف . ثمن V. Thömsen في اقتباس عنهما ليجرسن رقم

١٣٤ ، ص ٣٧ .

(٢) جوتيو : رقم ٧٣ ، ص ٣١ — ٣٢ .

وجود مستقل ؛ فالمنصر لار (lar, ler) لا يستعمل منفرداً كما لا تستعمل العلامات الإغريقية واللاتينية منفردة . ولكن ارتباطه بدالة الماهية أكثر تحللاً من من ارتباط العلامة الإغريقية بالمنصر المقابل . فالمنصر dir هو الشخص الثاني المفرد من فعل الكينونة ؛ وإذا ما أريد بناء الجمع المقابل منه أضيف إليه ler . ولكن قبول هذين المنصرين لتبادل الوضع كان يبتأ في العمانية الفصيحة القديمة حتى عند استعمالهما في دورها الأصل ، بمعنى في التعبير عن جمع الشخص الثالث من فعل الكينونة .

* * *

يكثر عدد استعمال دوال النسبة أو يقل باختلاف اللغات . فالتركية كما رأينا تنقل هذه الفالة أو تلك من مكان إلى مكان دون ضرر ، ولكنها لا تكررهما أكثر من مرة . : فهي تقول دو تفريق seviyor - idifer أو seviyorlar idi ولكنها لا تتركب المبارتين قط لتقول seviyorlar idiler . وعلى العكس من ذلك فإن مسلك التكرار ، هذا الذي ذكرنا سابقاً أنه موجود في الصينية ، مسلك محبب في بعض اللغات كما في مجموعة لغات البنتو « Bantou » التي فيها كل فصيلة نحوية يقابلها معلّم يذكّر مع كل كلمة مهما كان عدد الكلمات . فجملة مثل « البنات عشرين » تقال في السوية با — كازانا — با إندا ba - enda ba - kazana أو ba - o - ba - kazana ba - enda — أبا — كازانا با — إندا ، وبا ba هي معلم الشخص في حالة الجمع ؛ « والرجل الجليل » يقال mu - ntu - mu - lotu مؤ تومو لتو ، mu معلم الأشخاص في حالة الأفراد . ويوجد في البنتو من هذا القبيل سبعة عشر معلماً ؛ ويصل عددها إلى ثلاثة وعشرين في بعض اللغات .

والسوابق في البنتية يقابلها : لواحق في الفهلية وفي مجموعة اللغات الغربية في إفريقية ، التي تسمى مجموعة اللغات القلتية . ويوجد من ذلك في الفهلية إحدى وعشرون فصيلة منها أربع للجمع . فن الأرومة لام lam التي تنبر عن فكرة الرئاسة يمكن أن يشتق ما يلي : لام دو lam-do (فصيلة الضمير أ o) « رئيس » ولام — أو lam-u (فصيلة الضمير نجو ngu) « ملك » ، لام

— دِه lā-m-de (فصيـلة الضمير دِه) «nde» «رياسة أو قيادة» ولام —
يَه lā-m-be (فصيـلة الضمير ب) «ملوك» رؤساء» الخ. ولا توجد الأرومات
منعزلة في هذه المجموعة من اللغات، بل تكون دائماً مصحوبة بما يدل على الفصيـلة.
وهذا الدال على الفصيـلة يتكرر في كل عنصر من عناصر الجملة : debb-o-dan
e - dyo e دَب — أو دن — إَي دَيُو آه «هذه المرأة البيضاء» rew - be
ran - ú - be رَو — يَه رَن — آي — يَه يَه «هؤلاء النساء البيض» الخ.
قواعد الصرف في هذا النوع من اللغات مختلطة اختلاطاً دقيقاً؛ ولا يمكن
تمييز دوال النسبة فيها إلا بنوع من التحليل في غاية الدقة فيه يُشرّح الجملة
تشریحاً تاماً ويفتحها حتى تفقد معالمها في نهاية الأمر.

يضاد ذلك على خط مستقيم بعض اللغات الأمريكية التي تدرك دوال النسبة
على انفصال وتذكرها منفصلة. فهناك تجمع مقدماً، وفي مبدأ الجملة، جميع الدلائل
الصرفية فكأنهم يبدأون على نحو ما يخلص جبري للفكرة، فيه كل شيء ما عدا
التصورات التي لا تأتي إلا تالية. فلاجل أن يقال : الرجل قتل المرأة بسكين،
نصير الجملة على هذا النحو : هو هي هذا ب || قَتَلَ رجل امرأة سكين (لغة
الشنوك^(١)).

فكل ما تقدم الخططين الرأسيين إنما يشتمل على دلائل محوية، أي دوال نسبة؛
أما دوال الماهية فلا تذكر إلا بعد.

لا ينبغي أن ندهش من بنية على هذا النحو من الترابية. فلتة الكلام في
الفرنسية فيها حالات من التركيب تقرب من تلك الحالات كل القرب. فنحن
نسمع من الشعب : Elle n'ya encore pas le voyage, la cousine, en :
Afrique «هي لم فيها بعد || تسافر قريبتك إلى إفريقية» أو Il l'a - ti jamais
Il attrapé le gendarme, son voleur ? «هو ألَمْ إطلاقا || يحسك
الشرطي سارقه؟» فكل ما هو سابق على الخططين الرأسيين لا يشتمل أيضاً إلا
على دوال نسبة : إشارات إلى الفاعل أو إلى المفعول (مباشراً كان أو غير مباشر)

(١) عن بواس Boas : رقم ١٣٠، المقدمة، من ٣٨.

أو إلى النوع أو إلى العدد أو إلى الزمن أو إلى صفة الجملة أهي استفهام ، أم نفي : فلدينا هنا ، وقبل أن نعرف عن وعماداً يدور الأمر ، جميع العناصر النحوية للجملة . فلا يبقى إلا تعيين الأشخاص والحدث الذي ساهموا فيه ، وبالاختصار الوقائع والفاعلين ؛ وهكذا نوضع المعاني التجريدية في رأس الجملة والشخصات في ذيلها .

* * *

تنوع الإجراءات الصرفية يحمل تعريف الكلمة بتنوع على حسب اللغات . وإذا كانت هناك لغات يسهل فيها تحديد الكلمة كوحدة لا تتجزأ فهناك لغات أخرى تذوب فيها الكلمة على نحو ما في جسم الجملة ولا يمكن تحديدها حقاً إلا بشرط أن تدمج فيها كتلة من العناصر المتنوعة . ففي الجملة الفرنسية je ne l'ai pas vu ، يوجد بالتحليل سبع كلمات مختلفة على رأى النحو الجارى ؛ والحقيقة أن ليس هناك إلا كلمة واحدة ولكنها كلمة معقدة مكونة من عدد من دوال النسبة وقد اشتبك بعضها ببعض ، وليس لها وجود مستقل ؛ وإنما قيمتها في أنها لدى العقل قابلة للتبادل ولأن يحل بعضها محل البعض على حسب الحاجة مادام في الإمكان أن يقال Je ne l'ai pas vu « لم أرك » ، tu ne m'as pas vu « كنت لم ترى » nous ne vous aurons pas vu « سنكون لم نركم بعد » الخ ، مع تنويع عناصر الإبدال في الكلمة على حسب الإرادة . مما لا ريب فيه أنه لا ينبغي لنا أن نقطع من حسابنا ما بين هذه العناصر من فروق نسبية : فالضائر je « ضمير الشخص الأول في حالة الدفع » و me « الشخص الأول في حالة النصب » و tu « الشخص الثانى في حالة الرفع » ، و ta « الثانى في حالة النصب » و le « الثالث المذكور في حالة النصب ما هي إلا مجرد دوال نسبية محرومة من كل وجود ذاتى ؛ ولا تستعمل منفصلة إطلاقاً . قال je لا توجد إلا في تراكيب من مثل je parle « أنكم ، حيث je تقابل الهمزة » و je cours « أجرى » ولا تستعمل me إلا في مثل Je me dis « حرفياً : أقول لى » tu me frappes « تضربنى » فلم يكن في الإمكان وضع بعض العناصر بين الضمير والفعل

« Je dis » أقول ، « Je le dis » أقوله ، « Je ne le dis pas » لا أقوله .
 لأنما كنا اعتبار Je في Je dis كالنهاية اللاتينية O « أ » في قوله o - dic .
 « أقول » وتصورنا أن الفرنسية فيها تصريح في مبدأ الكلمة : Je dis « أقول »
 tu dis « تقول » ، il dit (وتنطق idi يدي) « يقول » ولكننا لم نصل
 إلى هذا الحد ، وإن كنا نلاحظ أن ضمير الفاعل لا يزداد منذ عدة قرون إلا ميلا
 إلى اللصوق بفعله . فلن نستطيع اليوم أن نقول كما قال ربلية Rabelais :
 « Je dit Picrochole, je les prendrai à merci » قال بكروشول :
 سأضعهم تحت رحمتي (مع وضع عبارة قال بكروشول بين الفاعل وفعله) . على
 العكس من ذلك اللغة العامية فكثيراً ما تستعمل ضمير الشخص الثالث حتى عندما
 يكون الفاعل اسماً صريحاً : « الوالد ، هو يقول ما يريد » ، « البرجوازيون هم لهم
 حظ سعيد » ، الخ . من جهة أخرى دوال النسبة التي مثل nous « نحن » ،
 نا مفعولاً أو مجزوراً « و vous « أنتم ، كم - (مفعولاً أو مجزوراً » قريبة من
 الكلمة إلى حد ما إذ أنها تستعمل بصورة واحدة للتوكيد ، وتقابل في نفس
 الوقت je و me من جهة moi « أنا » أو tu , te , toi « أنت » أو lui
 il , le . وذلك يعقد من تحديد الكلمات ، على نحو ما بمقده وجود ظروف
 تتأرجح بين دوال النسبة وبين الكلمات وسط صيغة فمالية . فيمكننا القول بأن
 الكلمة في اللغة الفرنسية لا تخلو من سوء في التحديد .

ذلك صحيح أيضاً بالنسبة للغات من قبيل اللغة التركية حيث تتذبذب العناصر
 الصرفية بين دالة وأخرى من دوال الماهية ، أو تتعلق بعضها ببعض في صورة واضحة
 من الحرية . والذي يحمل للكلمة التركية وحدتها إنما هي ظاهرة صوتية ، هي
 اختلاف الحركات ، تلك الظاهرة التي تنسق تحريك المقاطع المختلفة وفقاً لمقطع
 مسيطر . أما وحدة الكلمة في لغات البنتو فتتعلق بسبب آخر ، هو استعمال المعالم
 التي تتبع في كل فصيلة صرفية الدور الذي تلعبه الكلمة في الجملة . ولكننا
 مضطرون إلى أن نجعل تحت مصطلح الكلمة في البنتو أو الفرنسية أو التركية ،
 عناصر استبدالية متنوعة ، هي عناصر يحسبها بصفها هذه ، ولذلك لم ترتبط بدوال

الماهية إلا برابط مغلغل^(١) . كذلك الحال في بعض اللغات الأمريكية كالجرينلاندية حيث يعجز الإنسان عن تقسيم الجملة فيها إلى أقسام وحيث ينلب الاتجاه فيها إلى عد كلمات بقدر الجمل وجل بقدر الكلمات^(٢) .

أما اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية القديمة كالسنسكريتية أو القيدية أو الإغريقية القديمة فالكلمة فيها استقلال مطلق يظهر في كثير من المعاملات الصوتية التي تميزها ، مثل معاملتها من جهة الأجزاء الأخيرة ، أو مثل ذلك التوازن الدقيق الذي للنبر . فالكلمة تحمل في نفسها علامة استعمالها والتعبير عن قيمتها الصرفية ؛ فهي على درجة من الامتلاء لا تحتاج معها إلى مزيد . والكلمة الصينية يمكن تحديدها دون عناء أيضاً لأسباب أخرى غير السابقة ؛ ولكنها إذا ترعت من النص التي هي فيه فقدت كل قيمتها التعبيرية ولم يبق فيها إلا معنى غامض مجرد لا يمكن إرجاعه إلى أى استعمال .

ليس للكلمة إذن حد عام يمكن تطبيقه على كل اللغات ، اللهم إلا إذا كان هذا الذي يقترحه الأستاذ ميبه ، وهو يترك الصورة التي يعبر بها عن الاستعمال النحوي للكلمة : « تنتج الكلمة من ارتباط معنى ما بمجموع ما من الأصوات قابل لأن يستعمل استعمالاً محوياً ما^(٣) » .

(١) جوتيو ، رقم ٧٣ ، ص ٣٤ و ٣٥ .

(٢) فنك Finck رقم ١٦١ ، ص ٣١ .

(٣) رقم ١٠ ، ١٦١٣ ، ص ١١ .

الفصل الثاني

الفصائل النحوية

يراد بمصطلح الفصائل النحوية المعاني التي يعبر عنها بواسطة دوال النسبة^(١). فالنوع والمند والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة... الخ، كلها فصائل نحوية في اللغات تسمى دوال النسبة إلى التعبير عنها. ويستطيع كل منا أن يتصور ضخامة عددها وتنوع مذاهبها بالرجوع إلى معارفه اللغوية. وكما يختلف عدد دوال النسبة تبعاً للغات، كذلك يختلف بطبيعة الحال عدد الفصائل. وكلما ضؤل نحو اللغة، بالعلمي المشار إليه في الفصل السابق، قلّت الفصائل النحوية في هذه اللغة. ولكن بعض اللغات فيها عدد كبير منها.

مهما كانت اللغة التي نظرفيها إلى الفصائل النحوية، لا يمكن تحديدها إلا بالصيغة التي تعبر عنها. ففي الإغريقية حالة فعلية تسمى حالة التخيير، وهي تقابل في بعض استعمالاتها حالة الشرط في الفرنسية، وتستعمل على وجه العموم للتعبير عن الرغبة. وليس من حقنا أن نتكلم عن حالة التخيير في لغة لا نملك صيغة خاصة للتعبير عن هذه الحالة؛ وفي اللغات التي اختلطت فيها حالة النصب subjunctif بحالة التخيير — كما هي الحال في أغلب اللغات الهندية الأوربية — لا يميز أولئك الذين يتكلمونها في الصيغة الوحيدة بين الاستمالين اللذين كانا يقتضيان صيغتين متميزتين في زمان سابق. بل لم يبق إلا حالة واحدة يمكن تسميتها، دون تفريق، حالة التخيير أو حالة النصب إذا شئنا. هذا الإحساس يرجع إلى وحدة الصيغة مهما اختلفت الاستمالات. وهذا لا يمنع من خلق صيغ جديدة فيما بعد تقابل استمالات لم تكن لها عبارات خاصة في اللغة من قبل. وهكذا أدى اختلاط الأورست

(١) ف. جوبل: الفصائل النحوية (رقم ٣٢، ج ٥، ص ١٨٩ وما يليها. يارنجر ٣ فرع ١)؛ فان جينكن: رقم ٧٧ ص ٦ وما يليها.

(من أزمان الفعل) بالتام أو بالأحرى تحول التام القديم إلى زمن تاريخي قد أدى إلى حذف وسيلة التعبير عن التام في كثير من اللغات . وبعض اللغات استسلمت إلى عدم وجود التام فيها وعاشت دونة ؛ وبعض آخر خلق لنفسه تاماً جديداً ، بطرق جديدة ، تبعاً لخطة تختلف عن التام القديم الذي قد نسخ .

الفصائل النحوية إذن شيء نسبي تبعاً للغة التي تتصل بها ووفقاً لفترة ما من تاريخ هذه اللغة . فلم يكن هناك حالة اختيار فعلية في الإغريقية القديمة إلا في فترة من الزمن يمكن تحديدها على وجه الدقة . ونحن نعترف في أي فترة خلقت الجرمانية ، إلى جانب صيغة الماضي الوحيدة ، صيغة جديدة تقابل التام القديم من جهة المعنى . فتاريخ الفصائل النحوية يمكن تحقيقه بالضبط في غالب الأحيان في كل لغة . ولكن نظام الفصائل يظهر في أشكال مختلفة تبعاً للغات . وقد قام ببناء النحو عندنا في القرنين السابع عشر والثامن عشر على مثال كتب النحو في الإغريقية القديمة أو اللاتينية ؛ وقد خرج من ذلك زائفاً وبقى زائفاً . فنحن لا نزال نعصده بسميات لا تتفق مع الحقائق وتمطى عن بنية لغتنا فكرة غير صحيحة . فلو أن المبادئ التي نتخذها مقياساً لنا كانت قد وضعها قوم من غير أتباع أرسطو ، إذن لتغيرت معالم النحو الفرنسي على وجه التأكد .

تصنيف الفصائل النحوية عمل من أعمال الصرف العام الذي لا يزال حتى الآن ينشد من يقوم بعمله . وإذا سلمنا بأن هناك من الفصائل النحوية بقدر ما يوجد من دوال النسبة في كل اللغات ، اضطررنا إلى توسيع عدد الفصائل إلى أقصى حد . فستقتصر عملنا هنا ، أتباعاً لطريقة أملتنا علينا ظروف البحث ، على دراسة عدد من الفصائل اختيرت من بين أعمها ، الجنس والعدد والزمن والبناء للمعلوم أو للمجهول . وسنخرج من هذه الدراسة ببعض معلومات سنعمل على تلخيصها . فصيلة الجنس كما توجد في الهندية الأوربية والسامية منذ أقدم عهدها^(١)

(١) عن الجنس ، أنظر آدم Adam ، رقم ٤٤٣ هـ . فنكلر H. Winkler ، رقم ٢٢٢ ، ك. درجمان K. Drugmann ، رقم ٣١ ، مجلد ٤ (١٨٨٩) ص ١٠٠ — ١٠٩ ؛ بارون Barone ، رقم ٢٢٤ .

تفرض نفسها بدرجة من الصرامة تجعل العقل لا يكاد يستحضر اسماً حتى يبدو الاسم أمامه مزوداً دائماً بنوع يميزه بجلاء ، بل كثيراً ما يكون النوع هو المميز الوحيد الذى يملكه هذا الاسم . فبالجنس وحده نستطيع أن نميز في الفرنسية « le poids » « الوزن » من « La poix » « القار » و « le père » « الأب » من « La paire » « الزوج » التى لا تختلف كل منها عن قرينتها إلا بالرسم ، ومن باب أولى « le livre » « الكتاب » و « la livre » « الرطل أو الخنيه » أو « le poêle » « بساط الرحمة » و « la poêle » « موقد أو مقلاة » التى يرسم كل زوج منها بصورة واحدة ، كما في الألمانية « die Kiefer » « البلوط » و « der Keifer » « الفك » . وليس هناك من غلطة تصدم السامع من فم أحد الأجانب أكثر من الخلط في الجنس . فإذا ما تجاوز تكرارها تعذر فهم الكلام . ومع ذلك فالتبميز بين الأجناس النحوية لا يقوم على شيء من العقل : إذ لا يمكن لإنسان كأننا من كان أن يقول لماذا كانت « table » « مائدة » و « chaise » « مقعد » و « salière » « إناء الملح » مؤنثة ، في حين كانت « tabouret » « مقعد مطبخ » و « fautenil » « مقعد بحوانب » و « sucrier » « إناء السكر » مذكرة . وكثيراً ما تختلف الآية في لغة مجاورة فيقال في الألمانية « der Sessel » « المقعد ذو الجوانب » و « der stuhl » « المقعد » ، وتقدم لنا الكلمتان « der Löffel » « ملعقة » و « der kegel » « وتد » جنساً مضاداً لما يقابلهما في الفرنسية على خط مستقيم : « la quille , la cuiller » .

هذا ونحن نعرف مقدار السهولة التى يتغير بها الجنس خلال العصور . فقد كانت تغيرات الجنس عديدة في تاريخ اللغات الرومانية والجرمانية والكتية ؛ وفي الفرنسية كثيراً ما جرت نهاية التذكير أو التأنيث معها الجنس المقابل لها ؛ يقع ذلك إلى درجة أن عدداً كبيراً من الكلمات المنتهية بنهاية مؤنثة والتي تعتبرها اللغة الصحيحة مذكرة حتى يومنا هذا ، استعملت أو ما زالت تستعمل في اللغة الدارجة على أنها مؤنثة ولا سيما إذا كانت مبدوءة بحركة تمنع اصطحابها بالأداة المؤنثة ، مثل الكلمات : « exercice » « تمرين » و « orage » « عاصفة » و « ouvrage » « عمل » ، الخ . بل إن الكلمتين « prophète » « نبي » و « pape » « بابا » استعملتا

مؤنثتين في المصور الوسطى بسبب النهاية المؤنثة في آخرها . وهذا يرينا مقدار اختلاف الجنس الطبيعى عن الجنس النحوى . وما زلنا نستعمل *ordonnance* « جندى مراسلة » و *sentinelle* « حارس » بالتأنيث مع أن الكلمتين تعينان أفراداً من الجنس القوى ، وذلك جرباً على عادة اللاتين إذ يقولون : *auxilia* و *vigilie* .

الجنس النحوى عندنا قليل الصلاحية للتعبير عن الجنس الطبيعى حتى أننا لا نحمد في أغلب الوقت آية وسيلة في الفرنسية للتعبير بواسطة الجنس النحوى عن الفرق بين الجنسيتين الحقيقيين . فالكلمتان *médecin* « طبيب » و *professeur* « أستاذ » ، لا مؤنث لهما ، ونجدنا في غاية الارتباك لتطبيقهما على المؤنث . إذ لا نستطيع أن نقول *médecine* و *professeuse* (بنهاية المؤنث) . ولعلنا لا نستطيع تفسير ذلك في حالة الكلمة الأولى فقط لوجودها بعينها مستعملة في معنى مختلف هو الطب ، ولكننا لا نستطيع أيضاً استعمالها على حالتهما مصحوبتين بالأداة المؤنثة مع أداة التأنيث كما كان اللاتينيون يقولون *illum senium* (Terence) فكان ذلك يزيل الإشكال : ذلك بأن *la professeur, la médecin* (مع أداة التأنيث) تصدم آذاننا . فيضطر الفرنسى المذهب إلى أن يقول *la femme professeur* « المرأة الطبيب » و *la femme médecin* « الأستاذ » معتبراً كلمة *femme* « امرأة » دالة نسبة تشير إلى الجنس . فثأنتنا في ذلك شأن لغة لا تميز مطلقاً بين الجنسيتين : في هذه الحال تستعمل اللغة الإنجليزية الضميرين *he* « هو » و *she* « هي » استعمال دوال النسبة فتقول *he-goat* « حرفياً هو عز أى جدى » و *she-goat* (حرفياً هي عز أى مزة) وتستعمل الإيرلندية السابقة *ban* بن (مأخوذة من *ben* بن « امرأة ») : *ban-dia* « إلهة » و *ban-file* « شاعرة » *ban-tuath* « ماحرة » ، الخ . ونحن نقول *cocher* « حوذى » *femme cochère* « امرأة حوذية » متمسكين إلى هذا الحد بدالة النسبة : امرأة ؛ وإذا قلنا *cochère* « حوذية » دون *femme* « امرأة » بدا ذلك لنا مستهجنًا .

حالة الفرنسية الراهنة كانت هي الحال في الهندية الأوروبية ، حيث لم يكن يعبر عن الجنس الحقيقي فيها بوسيلة صرفية ^(١) . وأكثر من هذا أنه لم تكن في الهندية الأوروبية كلمة واحدة تتميز من ناحية الجنس بصيغتها الخارجية : toga « ثوب أشرف الرومان » و scriba « كاتب » أو aesculus « سنديان » و famulus « خادم » أو arbor « شجرة » و dolor « ألم » ، تتصرف في اللاتينية على صورة واحدة ؛ مع أن كل مجموعة منها فيها الكلمة الأولى مؤنثة والثانية مذكرة . وإذا كانت هناك لغات اختص فيها كل من الجنسين بنوع من من اللواحق كالتوطية مثلا التي تعتبر كل الكلمات المقابلة للتصرف اللاتيني الأول (نوع toga) مؤنثة وكل الكلمات المقابلة للتصرف الثاني (نوع famulus) مذكرة ، فإن ذلك يعدّ ضرباً من التجديد . إذ أن الكلمات الإغريقية πατήρ « أب » و μήτηρ « أم » أو υἱός « ابن » و νύξ « كنة » كانت تتصرف في الهندية الأوروبية على صورة واحدة .

نعم ، يجب أن ندع البهيم neutre جانباً . فهذا الجنس هو الوحيد الذي تحدده صيغته : ففي الإغريقية τέκνον « طفل » و σίναπι « مستردة » و μέθυ « شراب من العسل » ، وفي اللاتينية templum « معبد » و corpus (في حالة الإضافة corporis) « جسم » و mare « بحر » و cornu « قرن » ، كل هذه الكلمات تعلن عن أنها من جنس مبهم . والبهيم في الهندية الأوروبية جنس على حدته ، فهو يقابل الجنسين الشخصيين معاً ، ولكنه أقل انتشاراً منهما : فليست له صيغة خاصة به إلا في حالة واحدة ، ويظهر أن هذا يشير إلى كونه من فضيلة في سبيل الانقراض ، وليس لها في هيكل النظام استقلال تام . ويلعب في مقابلة الجنسين الآخرين دوراً تكميلياً من حيث أنه يعبر عن بعض المعاني المستقلة في التقابل بين المذكر والمؤنث ، فهو مثلاً يدل في غالب الأمر على أشياء تعتبر غير فاعلة ولا قابلة لأن تزود بقدرة شخصية ؛ ويظهر أنه في بعض الأحيان يعبر عن معنى جمعي .

(١) إيرنو Ernout ، رقم ٩٨ ، ص ٢١١ .

فما معنى الجنس في المهدية الأوربية إذن ؟ إنه ينحصر في مسألة الاتفاق . فالذى يحمل *πατήρ* مذكراً في الإغريقية أننا نقول *πατήρ* و *δπατήρ* *αγαθός* و *μήτηρ* مؤنثاً أننا نقول *μήτηρ αγαθή* ؛ فالأداة والصفة اللتان تصحبان الاسم يختلفان في الصيغة تبعاً لاختلاف الجنس . هذه الحقيقة كان لها في تاريخ الجنس نتيجة هامة . لأن الجنس قد تبع تقلبات العبارة الصوتية الناشئة عن المطابقة : بحيث كفت المطابقة عن الظهور أو عن الظهور الكامل بسبب عوارض صوتية مات الجنس أو بلى . ولا يبق على الجنس في الفرنسية إلا الأداة والصفة ، كما كانت الحال في الإغريقية القديمة ، غير أن صورة الأداة واحدة أمام الكلمات التي تبدأ بحركة مثل : *l'aurore* « نور الفجر » و *l'abîme* ، « بئيم » « الهاوية » . فالجنس في هذه الكلمات ليس له وضوحه في غيرها ؛ لذلك كانت الكلمات التي تبدأ بحركة على وجه العموم هي التي تعرضت لتغير الجنس في تاريخ اللغة الفرنسية . وإذا كانت الصفة التي تصفه غامضة الجنس ، لم يبق شيء يعبر عن الجنس مثل : *l'aurore est splendide* « ضوء الفجر بديع » . ولا يكون لهاتين الكلمتين *abîme* ، *aurore* جنس إلا عندما نقول *L'aurore est belle* « ضوء الفجر جميل » ، *l'abîme est profond* « الهوة عميقة » [حيث الصفة تختلف نطقاً في حالة التذكير عنها في حالة التأنيث] .

وكانت الإنجليزية في ذلك أوغل من الفرنسية . فقد كانت الإنجليزية القديمة تميز في الأداة ثلاث صيغ مختلفة للأجناس الثلاثة المختلفة : *sé* و *séo* و *thaet* ؛ بل كانت تحتوي على تصريف كامل للأداة ، فيه أربع حالات مختلفة لكل فرع من فروع العدد . ولكنها ما لبثت أن بسطت هذا التصريف . إذ أنها قالت أولاً في حالة الرفع بتأثير القياس : *théo* ، *thó* ، *thaet* ؛ ثم جمعت بين المذكر والمؤنث في صيغة واحدة *thó* ؛ وأخيراً أسقطت البهم ، فلم يبق لها في المفرد إلا صيغة واحدة ، وفضلاً على ذلك كانت هذه الصيغة هي صيغة الجمع . ولما فقدت الأداة تصرفها حرمت اللغة من التعبير عن الجنس لأن الصفة من جهتها صارت مجردة من التصريف . أما المرحلة التي وصلت إليها الدنمركية فأقل تقدماً من تلك ؛ فهي

تقول den دِنَ للمذكر — المؤنث ، و del دَتِ للمبهم ؛ وللجمع بأجناسه الثلاثة دِهَ de . فقد سمح لها تطورها الصوتي بالاحتفاظ بمجنسين ولكنها ، من حيث أصلها ، لا تقابل المذكر والمؤنث كما في الفرنسية .

ليس هنا مكان البحث عن أصل الجنس النحوي في الهندية الأوربية^(١) . وقد حاول ذلك بعض اللغويين دون أن يصلوا إلى نتيجة مرضية . ذلك بأن المسألة تتعدى نطاق النحو الهندي الأوربي ؛ إذ أنها مسألة من مسائل علم اللغة العام وتتطلب البحث في مجموعات أخرى من اللغات . ومن علماء الأتروپولوجيا من زعم ، مثل فريرز بأنه حل المسألة بتصوره أن الخلاف بين الجنسين يتصل بلغة النساء الخاصة ؛ فعند هؤلاء العلماء أن الاسم كان على صيغتين : صيغة تتكلمها المرأة وصيغة يتكلمها الرجل^(٢) . وهذا تبسيط ساذج للمسألة : فالأجناس لا تنحصر في المقابلة بين المذكر والمؤنث فحسب ، إذ أن الهندية الأوربية فيها جنس ثالث ، هو المبهم .

يبدو الجنس في مظهر خاص في بعض لغات إفريقية أو أمريكا . فلغة الألجونكين algonquin تميز بين جنس حي و"جنس غير حي"^(٣) . ولا يهتمها بعد ذلك ما يدخل تحت كل واحد من الجنسين من أشياء : فقد تضع الألجونكين بين الأشياء السدلول عليها بالجنس الحي إلى جانب الحيوان : الأشجار والأحجار والشمس والقمر والنجوم والرعد والثلج والجليد والقمح والخبز والطباق والزحافة والولاعة . الخ . والحقيقة « أن هذا التمييز في الجنس مطلق وأساسي ، لأنه يطبق

(١) أنظر خاصة المؤلفات المذكورة في (٥ . نسكر H. Winkler و ك . برجان K. Brugmann ، وماريو بارونه Mario Barone ، وأنظر أيضا ب . ا . هويلر B. I. Wheeler ، The origin of gram matical gender: رقم ٢٣ ، مجلد ٢ ، ص ٥٢٨ — ٥٤٥ (١٨٩٩) .

(٢) فان جنب Van Gennep ، رقم ٧٤ ص ٢٦٥ .

(٣) ج . ب . ب دى چلان دى چنج DeWaa : J. P. B. de Josselin de Jong .
• deeringsonderscheiding van (levend) en (levenloos) in het Indoeuro .
• peesch vergeleken met hetzelfde perschijsnel in enkele Angonkiintalen
رسالة في ليون (١٩١٢) .

على الأسماء والتعبير عن الملكية وضمائر الإشارة والأفعال والصفات ^(١) . أما في توزيع الأشياء بين الجنسين فقد حدثت أحداث قياسية خاصة . ويوجد في السلافية جنس للأحياء أيضاً يمكن تفسير نشوئه وخاصة شيوعه بتطور صرفي مطرد توجد آثاره في الهندية الأوروبية ^(٢) . وهناك اتجاه لمقابلة المادة الحية بالمادة غير الحية في الأرمنية ^(٣) والأسبانية بعد الفعل ، بل في الفرنسية القديمة أيضاً بعد الاسم : (le bourg le roi, les maisons du bourg) « البلد الملك ، منازل البلد » . وعلى العكس من ذلك توجد في غير هذه اللغات مقابلات أخرى : ففي لغة الماساي Masai ، من شعوب شرق إفريقية ، يوجد جنس لا هو كبير وقوى وجنس آخر لا هو صغير وضعيف ^(٤) ؛ وهذا ما يترجمه بعضهم تحكما بالمقابلة بين الذكر والمؤنث : ol tungani « الرجل الكبير » en dungani ، « الرجل الصغير » ؛ ولعل من الأوفق أن يقال بكل بساطة : جنس قوى وجنس ضعيف . والفصيلة هنا مجاور ما نسميه في غير هذا المكان بالمصترات .

في الميدان الإفرنجي يطلق على الجنس اسم « الطبقة » . فاللغات البنطية يسيطر عليها وجود « الطبقات » ، التي تمتاز كل منها بلاصقة خاصة ، وعليها توزع جميع الكلمات الموجودة في اللغة . وقد رأينا أمثلة من ذلك فيما سبق (ص ١٢١) . والإشارة إلى الطبقة ، لها أهمية الإشارة إلى الجنس في كلمة إفريقية أو لاتينية . إنها ضرورة فرضها الفعل على نفسه . ومعلم كل كلمة (هكذا نسمى العنصر الصوتي الذي يشير إلى الطبقة) من الأهمية بحيث نراه يتكرر في أثناء الجملة مع جميع الكلمات التي تتعلق بهذه الكلمة : فكان الكلمة الأساسية تفرض لون زيتها على جميع الكلمات التي تتعلق بها .

(١) ل. آدم L. Adam ، رقم ٤٣ .

(٢) ميه : رقم ٩٦ .

(٣) أدجاريان ، Classification des dialectes arméniens : Adjarian ، باريس ، ص ١٨ و ٤٧ .

(٤) مركز Die Masaj ، Merker ، يقتبس عنه فايت Feist ، في رقم ٣٦ ، ٣٧ ، ص ١١٨ .

الجنس في لغاتنا الأوربية ليس إلا طبقة على طريقة البنطو . فهو محاولة قام بها العقل لتصنيف المعاني المتنوعة التي يعبر عنها بواسطة الأسماء . وأغلب الظن أن هذا التصنيف يقوم على التصور الذي كان في ذهن أسلافنا الفارين عن العالم ، وقد ساعدت عليه بواعث غيبية ودينية ، وقد احتفظ بهذا التقليد حتى بعد أن عجز من يستعملونه عن فهم علته .

هناك فصائل نحوية بينها وبين الواقع علاقة أحكم مما في حالة النوع ، ولها ما يبررها عقلياً في تصورها الحال للعالم : من ذلك فصيلة العدد وفصيلة الزمن . فعلى حسب ما أقول : المواد بأكل أو الجياد ستأكل ، أرائى أعبر عن فكرتين فيها الوحدة [المفرد] تقابل الجمع والزمن الحاضر يقابل الزمن المستقبل . وذلك يقوم على حقائق الاختيار . ولكن إذا ناقشنا كيف يعبر في اللغات المختلفة عن هاتين الفصيلتين ، وهما من أهم الفصائل ، أدركنا أولاً أنهما يظهران فيها على صور متحد من عموميتهما وثانياً أنه من النادر أن نجد لهما في الاستعمال العبارة الدقيقة التي كنا ننتظرها .

عندنا في الفرنسية مفرد وجمع . ولكن التمييز بين الوحدة والجماعة ، وهو ما يكون العدد عندنا ، ليس مظهر هذه الفصيلة الوحيد . فن اللغات ما كان فيها أو ما يزال فيها مثنى . والهندية الأوربية كان فيها مثنى أبقى عليه في الزمن التاريخي فترة طويلة أو قصيرة على حسب اللغات ، ثم أبعد منها جميعاً تقريباً شيئاً فشيئاً^(١) . ففي الهند نجد المثنى في السنسكريتية ، فيدية كانت أم كلاسيكية ، وذلك على عكس البراكريتية Prakrits والبياليه Pali اللتين فقدتاها . وكانت الفارسية القديمة والزندية تستعملانه في صرامة ، ولا يوجد منه أثر في اللغة الفهلوية . ولا يوجد المثنى في الأرمنية ولا في اللاتينية منذ أقدم تاريخ نعرفه لها . أما في السلافية القديمة فهو يتمتع بالحياة ، بكل الحياة ، ولا زالت بعض لهجاتها تستعمله حتى يومنا هذا مثل السلوفاينية [من لهجات يوغسلافيا] أو صورايبية اللوزاس [إقليم مشترك بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا] . وهو في بعض اللهجات اللتوانية في سبيل الاقراض . وكانت القوطية

(١) بروجران : رقم ١٥٠ ، مجلد ٢ الجزء الثاني .

تعب عنه في الضمير والفعل فحسب ؛ ولم يبق منه في الألمانية العالية القديمة إلا آثار في الضمير وحده ، ولكن هذه الآثار بطيئة الاختفاء : إذ أننا لا زلنا نقابل في بعض لهجات بشاريا الحالية الضميرين *os* أو *enk* ، بعد أن اختفيا من لغة الكتابة منذ آخر القرن الثالث عشر . ولم يحتفظ بالثنى من اللغات الكلتية إلا الأيرلندية في أقدم عصورها ، وذلك في نصريف الأسماء ؛ ولكن هذا العدد لا يشغل فيها إلا مكاناً ضئيلاً ، لأن الاسم الثنى يجب أن يكون مصحوباً باسم العدد « اثنين » . وتقدم لنا الإغريقية القديمة مجموعة في غاية التنوع تفيدنا علماً من نواح شتى ، ولكنها انتهت مع ذلك بإقصاء الثنى ^(١) . وذلك هو الميل العام في اللغات الهندية الأوروبية . فإذا كان هذا الاستبعاد قد تمّ في أزمان مختلفة اختلافاً محسوساً تبعاً للغات ، فردد ذلك إلى أسباب تاريخية .

يجب أن نعتقد أن استعمال الثنى كان يسد حاجة أخرى غير الحاجات التي يمكن أن توحى بها عوائد تفكيرنا الحديثة . فنحن لا نرى اليوم أية علة لمقاومة التثنية بالجمع . ولكن هناك في فصيلة العدد مائة أخرى متميزة لا نمر بها وإن كانت تستحق أن يكون لها صيغة نحوية . من ذلك معنى الجمعية ومعنى الإفرادية . فليس لدينا في الفرنسية وسيلة للتعبير عن هذين المعنيين ؛ وذلك نقص كثيراً مانعنا من آثاره . فكل المناقشات التي تثار بين بعض النحاة عما إذا كان يجب أن نكتب *gelée de groseille* « مربى عنب الذئب » أم *gelée de groseilles* « مربى عنبات الذئب » و *confiture de pomme* « مربى التفاحة » أم *confiture de pommes* « مربى التفاح » ترجع هذه المناقشات كلها إلى الخلط بين الجمع والجمي ، وسببها عدم وجود فصيلة نحوية للجمعي . كذلك نشر بشيء من الضيق حيناً لا نستطيع أن نعرف على وجه التخصيص من قولنا *le cheval court* « الحصان يمدو » إذا كان يراد حصان ما مأخوذ على انفراد أو يراد الخيل في مجموعها بوجه عام . فنحن لا نميز الفرد من الجنس ولا الخاص من العام .

(١) كوني Cuny رقم ٦١ ، وانظر الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

واللغات الهندية الأوروبية كلها تقريباً^(١) على نفس الحال التي عليها اللغة الفرنسية ،
ليس فيها عبارة مطردة لبعض المعاني الهامة من فصيلة العدد .

فصيلة الزمن أيضاً فيها نواح من النقص^(٢) . والذي يعبر عنه الفعل أساساً
في لغة كالفرنسية أو الألمانية إنما هو الزمن . ويسمى الفعل في الألمانية Zeitwort
(كلمة الزمن) فعدنا في الفرنسية سلم من الأزمان المتنوعة ، لانبر فقط عن أقسام
الزمن الثلاثة من ماض وحاضر ومستقبل بل أيضاً عن الفروق النسبية للزمن : إذ لدينا
الوسيلة للتعبير عن المستقبل في الماضي والماضي في المستقبل . ولا توجد إلا لغات
قليلة لها ثروة اللغة الفرنسية في هذا الضدد . فلا يكاد يوجد في الألمانية إلا زمن
ماض واحد ؛ إذ أنها تخلط في صيغة واحدة غير التام imparfait^(٣) والماضي
المحدد défini ؛ هذه الصيغة هي : ich liebte « أحببت أو كنت أحب » وهذه
الصيغة الوحيدة تميل إلى أن تحمل محل الماضي التحليلي من نوع Ich habe geliebt
« أحببت » في بعض أجزاء ألمانيا بينما يسمى الماضي التحليلي لاحتكار التعبير عن
الماضي بأسره في بعض الأجزاء الأخرى . وثروة اللغة الفرنسية تلك قد أتت من
اللغة اللاتينية التي كانت من جهة الأزمان مزودة بسلسلة زاخرة من الصيغ .
غير أن التعبير عن الزمن تجديد من اللاتينية . لأن النحو المقارن يعرفنا أن
الهندية الأوروبية كانت لا تهتم خاصة إلا بالتعبير عن صفة الحدث aspect^(٤) .
يطلق اسم صفة الحدث على فصيلة الاستمرار^(٥) . والأزمان الفرنسية تعبر

(١) أوجدت اللغات السكتانية لنفسها اسماً فرادياً ؛ أنظر بدرسن ؛ رقم ١٨٩ ، مجلد
٢ ، ص ٥٨ .

(٢) أنظر هربج Herbig ، رقم ٣٠ ، مجلد ٤ ، ص ١٧٠ وما يليها .

(٣) غير التام يشبه في العربية « كان يكتب » والماضي المحدد هو الماضي التام المحدد
بزمن صراحة أو ضمناً ويسمى أيضاً الماضي البسيط أو الماضي التاريخي . وهو أحد المعاني العديدة
التي تعبر عنها العربية بصيغة الفعل الماضي .

(٤) بروجان ؛ رقم ١٥٠ ، ج ٢ ، مجلد ٣ ، ص ٦٨ .

(٥) برلينيه ؛ رقم ٤٧ ؛ وبارونه ؛ رقم ٢٢٥ .

عن اللحظة التي فيها تمّ أو يتمّ أو سيتمّ أحد الأحداث ؛ ولا تدخل في حسابها المدة التي يستغرقها وقوع الحدث . ومع ذلك فهو أمر هام ، بل أمر يطنى في بعض الأفعال على كل اعتبار آخر للمعنى . فالهندية الأوروبية كان اهتمامها بالدلالة على الزمن أقل بكثير من اهتمامها بالدلالة على صفة الحدث من الوجهة الاستغرافية . فهي لا يعنىها أن تبين في أى لحظة يتحقق الحدث (في الماضي أو الحاضر أو المستقبل) بل أن تشير إلى ما إذا كان هذا الحدث يُواجه من ناحية استمراره أم في نقطة فقط من سيره ، وهل هذه هي نقطة الابتداء أو نقطة الانتهاء ، وإذا كان الحدث يقع مرة واحدة أو يتكرر ، وإذا كان ذا نهاية ونتيجة أو لا ، ومن ثم جاءت هذه المفارقات التي يراعيها النحو المقارن في تقسيمه للأفعال إلى استمرارية أو وقتية غائية أو غير غائية وإلى تدرجية وتكرارية وانتهائية ... الخ . ومن المستحيل أن نفهم شيئاً من نظام الفعل في السنسكريتية أو في الإغريقية القديمة إذا لم ندخل في حسابنا هذه الفروق الدقيقة أو إذا رحنا نبحت فيها عن التعبير عن الأزمنة المختلفة ، بهذه الفكرة التي تمتد طبيعياً في لغاتنا . والفروق التي نجدّها في الإغريقية بين الحاضر والأورست والتام ليست إلا فروقاً في صفة الحدث الذي يؤديه الفعل . وقد احتفظت اللغات السلافية بقلبة الصفة على الزمن في الحدث مدة طويلة وما زالت تحتفظ بشيء منها حتى يومنا هذا . فكل فعل فيها ينتمى إلى فضيلة من « صفة الحدث » تميّزه وتحدده كما يميز الماضي والمستقبل في لغتنا^(١) . وهذا فرق أساسي بين الروسية والفرنسية وعقبة من أشد العقبات التي تقابل الفرنسي في دراسته للغة الروسية .

وتشبه اللغات السامية ، من جهة التعبير عن الأزمان ، اللغات الهندية الأوروبية في نظامها العتيق شهماً كبيراً . فليس في السامية المشتركة أية وسيلة للتمييز بين أزمنة الفعل المختلفة ، ولكننا ندهش عندما نرى فيها هذه المجموعة الكبيرة من الوسائل للتعبير عما بين الفعل والفاعل من صلات ، للتعبير مثلاً عن السببية causatif والكثرة conatif والشدة intensif ، والتمنى désiratif والرجاء putatif والأمر jussif ، والمفاعلة réciproque والمطاوعة réfléchi . كل هذه

المصطلحات الفنية لا تزال تشير إلى فئات في القبل السامى ، ولا يزال محتفظاً بها على درجات متفاوتة في اللجات المختلفة للغة السامية . أما الزمن بمعناه الحقيقي فلا يوجد منه في السامية إلا إثنان : غير التام والتام ، وهما مشتقان من أصليين مختلفين ولكن لا ينبغي ألا نفهم من هذين الاسمين ، تام وغير تام ، أى شيء مما يشبه الأزمنة المستعملة في الفرنسية ، بل يجب أن يؤخذ على معناها اللغوى ؛ فهما يدلان على انتهاء الحدث أو عدم انتهائه ، أى أن السامية مثل الهندية الأوروبية يسيطر فيها التعبير عن الاستفراق *durée* لا التعبير عن الزمن . فالأشورية مثلاً تستعمل التام (الماضى) فى معنى الحاضر والمستقبل . وفى العربية يمتزج غير التام (المضارع) عن الحاضر وعن المستقبل . « وفى العربية ترى الصيغة السمة خطأ بصيغة الاستقبال تستعمل فى القصص للتعبير عن الماضى ، ومن جهة أخرى يمكننا كلما شئنا أن نستخدم الصيغة السمة بصيغة الماضى للتعبير عن المستقبل . ونحن نعرف مقدار ما أصاب تفسير النصوص النبوية من صعوبات لهذا السبب . جاءت هذه الفوضى من أن فكرة الزمن قد أدخلت فى صورة عمرجاء ، وبعد أن لم تكن موجودة ، على تعريف فلى لم يكن قد هيئ لاستقبالها^(١) .

فبصلة الزمن النحوية تحتوى ، مثل فبصلة العدد ، على نواح من النقص ؛ بل بل إنها حتى فى داخل الحدود التى تجول فيها لا تنجح دائماً فى استعمال صيغة تنطبق حقاً على المعنى الذى يراد التعبير عنه . فكثير من اللغات الهندية الأوروبية تستعمل أحياناً للتعبير عن المستقبل أو الماضى صيغة ليست للمستقبل ولا للماضى . فمع أن اللاتينية فيها صيغة للاستقبال ترى *laute* يستعمل الحاضر للتعبير عن حدث واضح فيه أنه للاستقبال ، وذلك حين يقول (Captifs 749) : « peristis nisi iam hunc abducitis » ، « أنت هلك [إنك لهالك] إن لم تأت به فوراً » . والقارى لا يتردد لحظة فى الزمن الذى ترجع إليه هذه الجملة . يقع ذلك أيضاً فى الفرنسية ، فنقول فى كلامنا الجارى : « y vois » ، « أنا رايح هناك » بدلا من « je vais y aller » « أنا رايح أروح هناك » أو « je m'apprete à y aller » ، « أستعد للذهاب إلى هناك » أو « j'irai » . « سأذهب » .

ومن ذلك ما كتب راسين في بيرينيس : Bérénice

Peut - être avant la nuit l'heureuse Bérénice
Change le nom de reine au nom d'impératrice .

« لعل بيرينيس السعيدة تستبدل قبل أن يقبل الليل لقب امبراطورة بلقب ملكة » . وتستعمل الألمانية الحاضر مكان المستقبل بصورة مطردة : فهذه العبارة الثقيلة « Ich werde kommen » ، « آتى » لا توجد إلا في كتب النحو وعلى السنة الأجانب الذين يتكلمون الألمانية . أما الألمان فيقولون بكل بساطة في محادثاتهم : « Ich komme » « آتى » . واستعمال الحاضر في وظيفة المستقبل يقوم على اتجاه عام في الكلام : فالروسية تستعمل للمستقبل حاضراً قديماً وكذلك القوطية والنالبية وكلتية اسكتلندية وغيرها أيضاً .

وفي الفرنسية يستطيع المستقبل البسيط التعبير عن الحاضر (Il sera à Paris)
(à l'heure qu'il est » « سيكون في باريس في الساعة التي نحن فيها » ، كما يمكن أن يكون للماضي السابق futur antérieur قيمة الماضي (La Bruyère : « Nul ne se ressouvient d'un mot qu'il aura dit. » لا يستطيع أحد أن يتذكر كلمة سيكون قد قالها . « أغلب الظن أن المستقبل في كلتا اللغتين يدخل على الجملة معنى خاصاً (الإمكان ، الاحتمال) ، ولكن الحقيقة الواقعة هي أن المستقبل هنا مستعمل مكان حاضر أو ماض .

الماضي أيضاً يمكن أن يعبر عنه بالحاضر . وهو استعمال شائع في الحكاية حيث يسمى بالحاضر التاريخي . وفيه يحدد المثقفون سحراً خاصاً ؛ يقولون بأن الحاضر أكثر تعبيراً أو أبلغ وصفاً حتى ليجعل النظر يحيا من جديد أمام عيني القارىء . ويرجع بفكرنا إلى اللحظة التي دار فيها الحدث . وهذا حق . ولكن هذا التليل الذي قد يمكن أن ينطبق أيضاً على استعمال الحاضر مكان المستقبل ، لا قيمة له في نظر النحوى . فهو ملزم بأن يتمسك بوجهة النظر التالية : ليستطيع الكاتب أن يستعمل عبارة رآها أبلغ تعبيراً أو أكثر أناقة من غيرها ، فلي اللغه أن تعد بهذه العبارة ؛ وفي هذه الحال يجب أن يكون ميدان الحاضر وميدان الماضي غير مغلقين أحدهما بالنسبة للآخر في اعتبار النحو ، حتى يمكن الانتقال من

أحدها إلى الآخر بسهولة ودون خطر على الوضوح .
والواقع أن الماضي بدوره يمكن استعماله للدلالة على الحاضر ؛ فالإغريقية القديمة تستعمل الزمن الذي يدل به على الماضي في التعبير عن الحاضر ، الذي يقال له حاضر العادة ، وذلك في الجمل ذات البرى العام ، في الأحكام والحكم ؛ فكان لهومير أن يقول مثلاً :

ὅς κε θεοῖς ἐπιπείθεται μάλα τ' ἔκλυον αὐτοῖν

مستعملاً آورست يترجم بالطبع في الفرنسية بفعل حاضر فنقول : « من يطيع الآلهة ، تستجيب له الآلهة » . وذلك هو آورست الوعظ الذي يستعمل في التعبير عن حدث لا ينتهي في الواقع إلى أى زمن ، ويمكنه كمثل حقيقة من حقائق التجربة أن يصدق في المستقبل وفي الحاضر وفي الماضي . والحاضر هو الذي يبدو لنا في الفرنسية وفي معظم اللغات صالحاً لهذا الاستعمال العام . ولكن الفرنسية تستطيع أن تستعمل فيه المستقبل أيضاً ، وكذلك اللاتينية : *pulcra mulier nuda erit quam purpurata pulcior* . (بلوت Plaute Mostellaria ، بيت ٢٨٩ ؛ وقارن بيت ١٠٤١) : « المرأة الجميلة العارية أجمل منها ولو ارتدت أغفر الثياب . »

مانسميه الحاضر في الفرنسية زمن مطاط يصلح كما رأينا للتعبير عن المستقبل والماضي ، وينطبق دون تفريق على الحدث المحدد بالحاضر الحالي تحديداً محكماً (ها هو الترام يمر) أو على الحدث الدال على العادة (أمرٌ به كل أحد) أو الحدث الذي لا يستند إلى أى زمن محدد (الترام يمر في هذا الشارع) .

يطول بنا الحال إذا أردنا أن نعدد كل وجوه النقص التي يرضها علينا في كل لغة استعمال الأزمنة . أليس مما يدعو إلى الدهش أن نرى الفرنسية تستعمل في الماضي الشرطى ، أو على الأقل ما يطلق عليه هذا الاسم وهي تتكلم عن المستقبل ؟ وذلك كأن يقال « لو أسندت إلى هذا المسألة لانتهت منها سريعاً » لا أظننا نلاقى أى عناء في أن نكتشف أصل هذا الاستعمال : فهو آثر من آثار القياس . جواب الشرط عندنا مستقبل غير تام *imparfait du futur* ؛ وقد صدر القياس أولاً عن الجمل التي فيها فعل الشرط حاضر وجواب الشرط مستقبل مثل : « إذ أسندت إلى هذه المسألة فسأنتهى منها سريعاً » وذلك يرينا إلى أى حد من المرونة تستعمل

اللغة ما لديها من الوسائل ، ولكنه يطلعننا في نفس الوقت على مقدار الصعوبة التي نلاقها في محاولة تنظيم فصيلة الوقت ؛ إذ أنها دائماً سيئة التحديد .

* * *

أما فصيلة المبني للمعلوم والمبني للمجهول فأسوأ تحديداً^(١) . ومعنى عبارة البناء للمعلوم والبناء للمجهول صورة من صفة الحدث الفعلي في علاقته مع السند إليه حسبما يعتبر الحدث واقعاً من السند إليه أو واقعاً عليه ؛ واقعاً في مصلحته أو باشتراكه فيه . والطابع الكلاسيكي من ذلك يوجد في المقابلة الإغريقية بين المبني للمعلوم والمبني للوسط والمبني للمجهول : *νῦν, νῦνται* : « أغسل » أو « أغتسل » (حرفياً : أغسل نفسي) ، أو « أغسل » (بواسطة آخر) . ولكن تميز الأينية الثلاث في الإغريقية قليل الوضوح . فالجار والمجرور هو الذي يكون المبني للمجهول أكثر من الصيغة الفعلية نفسها . ففي الإغريقية عبارة : *ὁ Ἐκτορὸς δαμείς* « مدلل بواسطة هكتور » تعتبر مبنية للمجهول ولكن *ὁ Ἐκτορὸς πρὸς* « مستهدف لضربات هكتور » ليست مبنية للمعلوم إلا في الاصطلاح النحوي ؛ وكلتا المبارتين تعبران عن فكرة واحدة ، بل لعلهما في الأصل متساويتان في درجة البناء للمجهول . وفي اللاتينية بعض المبني للمجهول مثل *napulo* « أضرب » له صيغة المبني للمعلوم . فلعل ما يسمى بالمبني للمجهول في لغاتنا الكلاسيكية يعرف بصفة عامة بلاحقة أو زائدة ، وليس المعنى هو الذي يحدده ؛ فإذا قلت « أعطى » *je donne* أو *je frappe* « أقرع » كان ذلك من المبني للمعلوم ، وكيف يمكن أن يكون منه مثل *je dors* « أنام » و *je meurs* « أموت » و *je souffre* « أتألم » ؟

تميز الأفعال المبنية للمعلوم من الأفعال المبنية للمجهول في معظم اللغات الهندية الأوربية عمل خداع ، لأن المبني للمجهول في كل حاله تقريباً لا يمكن أن يعتبر عكس المبني للمعلوم . إذ يدخل في المبني للمعلوم عادة معنى خاص يعدل من صفته . فالبنى

(١) عن مقابلة المبني للمعلوم بالمبني للمجهول ، أنظر : أهلبك Uhlenbeck رقم ٣٠ ، مجلد ١٢ ص ١٧٠ ؛ وشوشارت Schuchardt : رقم ٣٠ ، مجلد ١٨ ص ٥٢٨ — ٥٣١ ؛ وفينك : رقم ٣٧ ، مجلد ٤١ ، ص ٢٠٩ — ٢٣٢ .

للمجهول يمر في الغالب عن حدث تحقق ، وانتهى تماماً ؛ ومن ثم كان الكثير من الأفعال الفرنسية يمر عن الماضي بواسطة فعل الكون . وكانت هذه هي الحال في اللاتينية . يزيد على ذلك أن المبني للمجهول في هذه اللغة له استعمال خاص يقال له خطأ المبني للمجهول غير الشخصي le passif impersonnel وكان يجب أن يسمى غير الشخصي فقط ، إذ لا شيء فيه من المبني للمجهول ؛ وذلك مثل : « on court » curritur (يجرى) (على أن الفاعل هنا غير شخصي لا يعود على شيء ، وإنما جرى به لأسناد الحدث فقط) ، « on joue » luditur (يلعب) itum est (ذهب) . فتحن في هذه الحال نستعمل في الفرنسية الضمير غير المحدد « on » أو الطاوع le réfléchi فنقول مثلاً : « ينكسر كوب كبير » و « ينصدع بناء شامخ »^(١) .

إذ أن الطاوع في الفرنسية كما في كثير غيرها من اللغات يمدّ وسيلة من وسائل التمييز عن المجهول « Cela se dit, cette robe se porte » (دِه يقال ، الفستانان ده يتلبس) ، وصفة هذه العبارات الميزة هي أن فاعل الحدث غير معبر عنه ؛ ولكن لا يمكن اعتبارها مبنية للمجهول ، اللهم إلا إذا أضفينا على المبني للمجهول معنى خاصاً لا يجعله عكس المبني للمعلوم .

هذا الخلط الذي نشكو منه في لغاتنا يرجع إلى معان ثانوية أدخلت في التعبير عن المبني للمعلوم والمبني للمجهول فأضعفت بينهما درجة التقابل الأساسية . ولكن هل هناك ما يبرر هذا التقابل الأساسي ؟ لو كانت الفرق بين الفعلين أقصر je frappe و أقْرُعُ je suis frappé . ينحصر في العلاقة النحوية بين الشخصين فحسب ، لم يكن هناك محل للوقوف عنده ، ولصارت المسألة مسألة اصطلاح بحث نتج من العادة أو من مراعاة التيسير : فيقال بطرس ضرب بول أو بول ضرب من بطرس دون تفریق ؛ وكانت بعض اللغات تفضل استعمال العبارة الأولى ، وبعضها

(١) الأمثلة التي ذكرها المؤلف هي : « Il se joue un grand jeu » و « Il se fait une grande course » ، وقد استبدلنا اللتين بغيرهما لعدم وجود صيغة الطاوعة في العربية لفعلين الواردتين في النص . وترجمنا المثالين الآخرين بالعامة مراعاة لفرض المؤلف وحرصاً على الدقة .
المریان

يفضل استعمال الثانية؛ وفريق ثالث منها يسمح باستعمال الاثنين، وفي تلك الحال كنا لآثرى في كل هذا إلا نتيجة لعملية تاريخية. وفي الواقع أنه إذا كان يوجد في الفرنسية مبنى للمعلوم ومبنى للمجهول (وهذا الأخير في حدود ضيقة) فإن الهندية الأوروبية لم تعرف إلا المبنى للمعلوم؛ وهناك لغات أخرى تميل إلى جمل التصنيفين صيغة واحدة، هي صيغة المبنى للمجهول.

الواقع أن هناك طريقتين لمواجهة صلة السند إليه بالعالم الخارجي؛ فتارة يكون السند إليه فاعلا، أى أنه يحدث أثراً ما على ما يحيط به بواسطة عمل إرادى (بطرس يضرب بولص) وتارة يكون قابلاً، أى أنه يستقبل من المحيط الذى حوله أثراً يصيب حساسيته (بولص ضُرب من بطرس). والتقابل واضح في هذين المثالين: أحدهما يعطى الضربات والثاني يتلقاها؛ لذلك لم يكن هناك محل للتردد. ولكن هناك حالات تتوازن فيها الفاعلية والاستقبالية وتختلطان، وهناك حالات أخرى تطفى فيها الأولى على الثانية. فإذا قلت بطرس يرى بولص أو بطرس يحب بولص، فإن الشخصين يوقمان كل منهما على الآخر أثراً يمكن أن يعتبر من جهة الفاعلية أو من جهة الاستقبالية على السواء. ذلك بأن الرؤية ظاهرة استقبالية: إذ أن شبكة بطرس تتأثر بصورة ما. كذلك الحال في الحب أو في الصداقة: في كل منهما بطرس يمانى عاطفة ما. وليس في ذلك شيء من الفاعلية. فيرى الإنسان الأقرب إلى المنطق أن نسمى الأفعال فاعلة actifs في حالة ما إذا كانت أحدث مؤثراً effectifs وأن نستعمل طرازاً آخر من الأفعال نسميها أفعالا سلبية passifs أو انفعالية affectif حسبما يرد، وذلك في حالة ما إذا كان الفاعل يمانى تغيراً في استعداداته الانفعالية.

تلك هي نقطة البدء التي عنها تصدر فصيلتان عظيمتان من فصائل الفعل في بعض اللغات مثل اللغة الجرجية^(١). ففي الجرجية طرازان من التصريف. visurverb « أرغب » و msurs « رغبة لى » و vikvareb « أحب »

(١) أنظر أمثلة متقولة عن فنك: رقم ١٦١، ص ١٣٣؛ وانظر أيضاً شوخارت: رقم ٣٩، مجلد ١٣٣ (١٨٩٥)، ص ١ — ٩١.

و mikars « حب لي » ... الخ . وقد نشأ عن هذين الطرازين تصريفان للفعل منفصلان ، الفاعل والانفعالي ، وتستعملهما اللغة الجورجية جنباً إلى جنب في نفس الفعل (وحينئذ تدخل فيهما عادة اختلافاً زمنياً) أو توزعهما على الأفعال تبعاً لدلالاتها : فمثلاً تراها تقول على وجه العموم mesmis « سمع لي » « أسمع » انفعالياً ، ولكنها تقول vxédav « أرى » فاعلاً ، وتقول mdzéra « اعتقد لي » (اعتقد) mgonia « تفكير لي » (أفكر) انفعالياً ، ولكنها تقول : vaseneb « أبني » و vtser « أكتب » فاعلاً ... الخ . ولا تعرف اللغات الهندية الأوروبية هذه التفرقة .

ومع ذلك فمندنا في الفرنسية فكرة عنها في المقابلة js crois « أعتقد » و m'est avis « يرتأي لي » وفي je vois « أرى » Il m'apparait « يظهر لي » ، فذلك يمثل الفرق بين الفاعلي والانفعالي تمثيلاً جيداً . ونحن نفضل الفاعل عادة حتى أننا نقلنا إلى الفاعلية عبارة مثل Il me souvient « يأتي في ذاكرتي » فأصبحنا نقول مخالفين في ذلك كل منطق Je m'en souviens « آتية في ذاكرتي » وهي عبارة منافية للعقل والذوق على السواء ؛ ومع ذلك فإن فوجيلا Vaugelas يقرر أنها كانت في زمنه أكثر دوراناً على الألسنة « في البلاط » أكثر من عبارة : il m'en souvient « يطفو في ذاكرتي » . وقد وقع نفس اللامىء بالنسبة للفعل regretter « بأسف » ، فعبارة (je regrette « آسف » جاءت من il me regrette « أسف لي » ؛ وقارن العبارة الإيطالية mi rincresco « أنا آسف ») . وزى في الألمانية أيضاً نفس الشيء في أفعال مثل ahnen, gräuen « اشتباه وارتعاد » فعبارة ich ahne etwas « اشتبه في شيء ما » أصلها es ahnt mir أو [mich] etwas « اشتباه لي في شيء ما » ويقال ich graue mich vor etwas « ارتعد أمام شيء ما » بدلا من es graut mir vor etwas « ارتعاد لي أمام شيء ما » ؛ والفعل اللاتيني pœniteo « آوب » أصله me pœnitet « توبة لي » .

انتقال الانفعالي إلى الفاعلي هو في نفس الوقت انتقال من غير الشخصى إلى

الشخصى : والواقع أن من اللغات ما يفضل التركيب الشخصى بوجه عام . هذا الاتجاه واضح فى اللاتينية حيث نجد المبنى للمجهول الشخصى قد جاء من المبنى للمجهول غير الشخصى فعبارة : *invidetur mihi* « حسدلى » قد سبقت *inuideor* « أحد يحسدنى » ، كذلك عبارة *uitam uiuitur* يحيا [الإنسان] حياته (إنيوس المأسى ، بيت ١٩٠) قد سبقت *uita uiuitur* « عشت الحياة » ؛ كذلك يقال فى الونىركية *jeg blev budt to beroner* « قدم أحد لى تاجين » بدلا من *jeg blev forbu dt Adgang til ... , mig blev dult to kroner* : « حرّم أحد على دخول ... » بدلا من : *mig blev forbudt Adgang til ..* . وهما البازتان اللتان تمدّان منطقياً صحيحتين دون سواها . فترى أن التمييز بين فصلى الفاعل (المبنى للمعلوم) والسالب (المبنى للمجهول) يقوم على أساس واهٍ . أما التمييز بين التعدى واللازم الذى يلعب دوراً هاماً فى النحو الكلاسيكى فأساسه ليس أمث من سالفه . والنحاة يسرون دون انقطاع على هذا التمييز ؛ وبلغوا فى تسليمهم به حدا جعلهم يعفون أنفسهم من عناء تحديده كأنه إحدى البديهيات . والواقع أنه لا شئ أبعد منه عن التحديد . يسمى الفعل متعدياً فى اللاتينية إذا قبل أن يكون له معمول مباشر منصوب (*Amo patrem* « أحب والدى ») وفى الفرنسية إذا تلاه معمول مباشرة دون وساطة حرف الجر *à* « لى أو إلى » (*j'aime mon père*) « أحب والدى » . وعلى العكس من ذلك يعتبر الفعل لازماً إذا كان معموله مجروراً فى اللاتينية مثل *noceo patri* « أسىء إلى والدى » أو مسبقاً بحرف الجر *à* فى الفرنسية مثل *je nuis a mon père* « أسىء إلى والدى » . ولكن العلاقة الموجودة بين « أحب » و « والدى » بالنصب هى نفس العلاقة التى بين « أسىء » و « والدى » بالجر . ونحن نعلم أن الخلاف بين البنائين خلاف عرضى محض . بل من الجاز أن تكون عبارة *norcere alicui* مقبسة على : *obesse, officere alicui* ؛ فأحد التركيبين قد استتبع الآخر . وفى مجرى التطور الذى تسلكه لغة بيمينها نجد الأبنية تتبادل

بعضها مع بعض وزى الأفعال اللازمة تصير متعدية والمتعدية تصبح لازمة^(١) .
 إذ ترى الفعل اللاتيني *mederi* « يُعنى » كان ينصب مفعوله فى بادى الأمر ثم
 صار يتعدى بحرف الجر *mederi oculos* « يعنى عينه » ، *mederi oculis* «
 يعنى بعينه » . وأخيراً نجد التعبير عن إحدى الأفكار يختلف فى لغة عنه فى غيرها ،
 فهذه تعبر عنها بفعل لازم وتلك بفعل متعد . فالفرنسية تقول *je suis mon pere* ؛ على حين تقول الألمانية :
ich helfe de Mutter « أساعد [ل] أمى » و *ich folge dem Vater* « أتبع أبى » ؛
 « أساعد [ل] أبى » ، وتقول الروسية *blagodarju vas* كما تقول الفرنسية
je vous remercie « أشكرك » ، أما الألمانية فتقول *ich danke Ihnen* «
 أشكر لك » ، واللاتينية تستعمل الجر بعد الأفعال *nubere* و « يتزوج »
parcere « يقتصد » و *benedicere* « يبارك » .

قد يكون لهذا التمييز ما يبرره فى نظر النحوى الذى يعلم اللغة إذ يرى أمام
 تراكيب مختلفة ويعرف أن التكلم إذا قال *noceo patrem* « أسىء والدى »
 أو *ich helfe die Mutter* « أساعد أمى » بالنصب كان مخطئاً . غير أنه
 اختلاف شكلى محض : إذا علله التاريخ وفسره لم يستطع العقل أن يبرره .

قد يتصور الإنسان المقابلة بين الأفعال المتعدية والأفعال اللازمة تصوراً أفضل
 على النحو الآتى . لما كانت فكرة التعدية تستلزم معمولاً ، كان لنا أن نمت
 بالتعدية كل فعل صُرح فى الجملة بما يقع عليه حدثه وباللزم كل فعل لا معمول
 له فى الجملة . وعندئذ يجب أن نفرق بين عبارات مثل *j'aime Rose* « أحب روز »
 و *la maison ou j'aime* « البيت الذى فيه أحب » ، ومثل « هذا الرجل
 يشرب نبيذاً » و « من شرب سيشرب » . فالفعل إذا استعمل دون معمول كان
 لازماً ؛ والحدث الذى يبر عنه لا يقع إذن على شىء . ولكن هذه المقابلة ، وإن
 كانت منطقية حقاً ، لا يستطيع الأخذ بها زمناً طويلاً دون إصرار بالمنطق نفسه .

(١) عن الفرنسية فى القرن السادس عشر أنظر برينو Brunot ، رقم ٥٧ ، جلد ٢ ،

ذلك أننا مثلاً نجد في عبارات أخرى مثل *ils prennent ces allumettes* « يأخذون هذه الأعواد من الثقاب » و *Ces allumettes prennent* « هذه الأعواد من الثقاب تأخذ (يعنى تشتعل) » ومثل *le chien a crevé la toile* « الكلب فجر الخرقة » و *le chien a crevé* « الكلب فجر » (يقال ذلك في الفرنسية عن الحيوان ويراد به أنه نفق) . ولكن هذه الحالة تختلف عن الحالة السالفة كل الاختلاف . ففي الجملة الثانية من هذين الزوجين يستعمل كل من الفعل (أخذ وفجر) في معناه المطلق والحدث يرجع إلى المسند إليه . أما في الجمل السابقة فإن كلا من الفعلين (أحب وشرب) يعبر في الجمل التي لا مفعول لها عن حدث غير معد . ومن جهة أخرى نستطيع في هذه الحال أن نعتبر فعلاً مثل « أرحل إلى باريس » متمدياً إذ أن الجملة تحتوي على معمول يعتبر غاية الحدث وأن هذا المعمول يعبر عنه بالنصوب في كثير من اللغات (اللاتينية والإرلندية والإغريقية والسنسكريتية و... الخ) ، فيقال في اللاتينية : *peto urbem* « أرحل المدينة » . ولكن هل ينبغي أن تعتبر من اللازم الفعل *partir* « يرحل » ، ينطلق » في عبارة مثل : *je pars dimanche* ، حيث ترى الجملة تحتوي على ظرف زمان بدلاً من ظرف المكان ؟ هذه مسألة تحتاج إلى بحث . وكيف نفرق بين « انتظر بطرس » و « انتظر إلى الند » . كذلك كيف نبين الفرق بين : « أدر الحجر » و « درُ إلى اليمين » ؟ وإذا اعتبرنا هذين الفعلين من الأفعال التمديدية (وكيف لا تعتبرها كذلك إذا « قربنا » [حول] الرواية « بعبارة » « درُ إلى اليمين » ؟) أمكننا أن نقول بأن الكلمة الواحدة تستخدم لأداء وظيفتين مختلفتين كل الاختلاف ، لأن الفعل سببي في « أدر الحجر » أى (« اجمل الحجر يد ») وفي « در إلى اليمين » انكاس بمعنى أن المسند إليه هو في الوقت نفسه غاية الحدث (اجمل نفسك ندر إلى اليمين) . وكذلك الحال في اللاتينية في *saepe stylum uertis* « در (بمعنى أدر) أسلوبك غالباً » وفي *uerie hac* « در من هنا » (١).

كلما توغلنا في تحليل الفصائل النحوية للغة من اللغات زدنا إدراكا لاستحالة إرجاعها إلى نظام منطقي . وذلك مما يمكن تفسيره من جانب النحو بعلل في غاية الوضوح : ذلك بأن النحو في أية لغة وفي أية فترة من فترات تاريخ هذه اللغة ليس إلا نتيجة لأنواع مختلفة من النشاط يصيب نواحي النظام النحوي المختلفة ويصيبها مستقلة بعضها عن بعض . فإذا كانت نقطة البدء في التغيرات الصرفية تنحصر فيما يسمى بالقياس ، فإن نتيجة هذا القياس ليس من شأنها أن تجمل المنطق يسود النظام النحوي من جهة كونه كلاً .

من جهة أخرى لا شيء يبرر النرض القائل بأن الفصائل النحوية كانت في فترة بدائية من تاريخ اللغة منطبقة تماماً على الكليات المنطقية للعقل وأنها بمرور القرون بدت عنها شيئاً فشيئاً تبعاً للتغيرات الناجمة من الاستعمال ، إذ أننا مهما تعمقنا في التفصي في تاريخ اللغة لا نصل إلا إلى حالة لنوعية على درجة كبيرة من التطور . فأقدم صورة نعرفها للغات المتكلمة في زماننا هذا ليست أكثر منطقية ولا أقل منطقية من هذه اللغات نفسها .

مما لا يخلو أبداً من المخاطرة أن يراد الحكم على عقلية أمة بالفصائل النحوية الموجودة في لغتها . فهناك لغات تحتفظ زمناً طويلاً بفصائل لم يبق لوجودها مبرر وتستمر على اعتبارها وسائل نحوية . وعندنا مثل من ذلك في فصيلة النوع : فالو أن شخصاً قدم لنا جملة فرنسية فيها كلمة مائدة تضاد كلمة مقعد وقال لنا بأنها مأخوذة من لغة المتوحشين لآتجه ذهننا فوراً إلى لغة البنطو . وقد أعطانا الأستاذ بلي Bally أمثلة عديدة بينة على المشابهة التي تقيمها بين لغة المتحضرين ولغة المتوحشين يستعمل بعض الفصائل النحوية والاحتفاظ بها^(١) .

قد يحصل أن تهجر بعض الفصائل اللغوية أو أن تتغير كما يقع لأخرى أن تنشأ ؛ وقد أراد البعض أن يستنتج من هذه الحقيقة أن العقل الإنساني يتقدم في طريق التجريد . هذا الاستنتاج له ما يبرره في بعض الأحيان (انظر فصل الخاتمة) . ولكن لا ينبغي اللجوء إلى التعميم بأية حال . فالهندية الأوروبية لم يكن فيها مصدر؛

فما كانت تستطيع أن تقول « حمل » أو « فعل » وإنما كانت تقول « أحمل » أو « أفل » فحسب . فخلق المصدر ، الذي وقع في كل واحدة من اللغات الهندية الأوروبية على انفراد ، كان خطوة واسعة في سبيل التجريد . ومع ذلك فبعض هذه اللغات قد فقد المصدر كالأغريقية الحديثة والبلغارية مثلا . وهذا لا يحتم أن يكون الإغريق أو البلغاري قد فقد ملكة إدراك الحدث الفعلي إدراكا تجريديا . كون بعض الشعوب المتوحشة يملك مثلثا إلى جانب الثنائي لا يحتم كون هذه الشعوب لا تستطيع العدد إلا إلى ثلاثة^(١) . ذلك لأن فصيلة العدد النحوية مستقلة عن معنى العدد . وكذلك قد أبان الأستاذ بلانرت Planert أنه يجب التمييز بين فكرة السببية وبين الفصائل النحوية التي تستخدم للتعبير عنها ؛ فإذا كان سكان الملايو لا يعبرون عنها ، فإن ذلك يعمهم من أن يفكروا تفكيرا سببيا^(٢) . فهناك وسائل مختلفة من التنبؤ أو الإشارة يستماض بها عن الفصائل غير الموجودة . وإذا كانت اللغات تحتفظ في بعض الأحيان بفصائل نحوية لا فائدة منها فإنها لا تمجز يوما عن خلق فصائل جديدة عند الحاجة . لقد قابلنا فيما سبق بين اللغات التي تعبر عن الزمن واللغات التي تعبر عن صفة الفعل . فإذا نظرنا إلى الوقائع على نحو ما يقدمها لنا تاريخ اللغات الهندية الأوروبية ، اظننا أن فكرة الزمن أحدث من فكرة الصفة وأنها حلت محلها . ومع ذلك ففكرة الصفة ليست بمجهولة في لغاتنا الحديثة التي تعبر عن فكرة الزمن على خير ما يكون التعبير عنها .

استعملت اللغات الجرمانية مثلا للتعبير عن الزمن الاستمراري الذي لم يكن فيها إسم الفاعل مصحوبا بفعل الكون . فإننا نجد في الألمانية العليا التوسطة تراكيب مثل : all die mich sehende sint « كل أولئك الذين يرونني » (der arme Heinrich ، البيت ٦٧٣) أو der riter ... mit tem der (Iwein البيت ٢٩٨٦) . هذه الحاجة نفسها هي التي بثت على نشوء التركيب الإنجليزي I am going ،

(١) ليفي برون : رقم ٨٨ ، ص ١٥٧ .

(٢) بلانرت : الفصائل النحوية في علاقتها بالسببية . بحث في لغة مدغشقر (رقم ٣٤ ،

جلد ٩ (١٩٠٦) ص ٧٥٩ - ٧٦٨) .

I was reading الذى شاع شيوعا هائلا . ويلاحظ في فرنسية القرن السادس عشر وجود محاولة لخلق استمرارى من هذا القبيل بواسطة الفعل être « كان » aller « ذهب » : ولكنه اندثر بعد أن حكم عليه مالرب Malherbe وميناج Ménage بالإعدام . ومع ذلك فإننا نرى ثواتير Voiture يقول : « cette prison qui va vous renfermant. » هذا السجن الذى يطبق عليك » ويقول لافونتن : « Je me vais désalterant » (أطفئ ، ظمئ) .

الفرنسية التى تمتاز من بين جميع اللغات بثرائها في وسائل التعبير عن الزمن قد وجدت وسيلتين للتعبير عن الصفة وهى تستخدمهما مجتمعتين منذ بضعة قرون^(١) . إحدى هاتين الوسيلتين تنحصر في استعمال السابقة الفعلية re للدلالة على الحدث الوقتى في مقابلة الحدث الاستمرارى . فكلمتا rabaisser ، rabattre « يخفض » لا تمنيان أن تخفض من جديد أو أن تزيد في الخفض بل تمنيان خفض اتباع الرفع بالخفض دون اعتبار للزمن الذى يلزم لذلك . فإذا تمثل الحدث أمام الذهن في السدة التى يستغرقها ، وحتى نهاية تنفيذه ، استعملت الصيغة البسيطة abattre أو abaisser « خفض » كذلك réveiller quelqu'un « إيقاظ أحد الناس » معناه جملة يكف عن النوم أو أن يصحو؛ و remarquer une chose « عَلمَ شيئا » معناه أن يضع علامة لهذا الشيء وأن تبقى هذه العلامة . وفى اللغة الشعبية يحيل الفعل المركب مع re في كل مكان إلى أن يحل محل الفعل البسيط عندما لا يراد إلا نتيجة الحدث : فالفعل unir deux personnes « يجمع بين شخصين » لم يعد يستعمل إلا في الاحتفال بالزواج ، وفى غير ذلك يقال réunir « يجمع » ؛ و remercier « يشكر » حل محل mercier « يشكر » الذى كان لا يزال يستعمل في القرن السادس عشر ؛ و ralentir « يبطئ ، أو يسطىء » معناه تقليل السرعة ، كذلك الأعمال ramasser « يجمع بالالتقاط » و recueillir « يلتقط أو يجمع » و regarder « ينظر إلى » أخذت معانى جديدة تخالف معانى rattaper quelqu'un و garder ، cueillir ، amasser (يقبض على أحد

(١) بربلنية (Barbelenet) : رقم ٩٩ ، ص ٨ وما يليها .

الناس) يستعمل الآن في المعنى الحقيقي ولم يعد attraper (يلوم) يستعمل إلا في المعنى المجازي . ويقال rappelez-moi أو remportez-moi (حرفياً كان يجب أن يكون المعنى : أحضر إليّ هذا من جديد) في معنى apportez أو remportez (أحضر إليّ هذا) ، renfermez le chat (أحبس القط ، أصلاً أعد حبس القط) (refermez la porte (أغلق الباب ؛ أصلاً أعد إغلاق الباب) و rentrez donc (ادخل) (أصلاً أدخل من جديد) بدلاً من entrez donc (ادخل) يقال لك ذلك في بيت لم تدخله من قبل إطلاقاً prends garde (de répandre (un liquide) « إحذر أن تريق (سائلاً) » أصلاً أن تريق ثانية . . . الخ . مثل هذه الأمثلة موجودة في الفرنسية القديمة ، إذ نقرأ عند إيمري دي نربون Aimeri de Narbone : « ralez vos en » (انصرف) (أصلاً انصرف ثانية) بدلاً من allez-vous-en : فاللاصقة تزيد من درجة التعبير بشكل واضح . هذه العملية ، وقد ظلت متمشدة بالحياة في الفرنسية ، توجد في اللاتينية أيضاً ، بل إن أصلها سابق على اللاتينية نفسها ، إذ أننا نمر عليها أيضاً في الجرمانية وفي البلطية السلافية .

ولكن الفرنسية لا تقتصر على هذه الطريقة ، بل إن لديها طريقة أخرى للتعبير عن فكرة صفة الفعل : وهي استعمال الفعل الانكاسي (يقابل المطاوع في العربية من بعض الوجوه) . فآرن défiler « يمرّون في صف » و trotter « يركض » بالفعلين se défiler « حرفياً : يمرر نفسه في صف » se trotter « حرفياً : يركض نفسه أي يركض » : فترى أن الفرنسية تستخدم الفعل الانكاسي وتضيف له لاصقة فعلية ، واللاصقة في هذه المرة إما — é أو — en : s'en aller « ينصرف » (بالدقة يضع نفسه في حالة انصراف) و s'enfuir « يهرب (يضع نفسه في حالة هرب) » و s'envoler « يطير (يضع نفسه في حالة طيران) » و s'écrier « يصيح (يضع نفسه في حالة صياح) » و s'écrouler « ينهار (يضع نفسه في حالة انهيار) » الخ . فهذه الأفعال ، إذا قورنت بمقابلاتها البسيطة ، تقدم لنا خير المثل على هذه الحقيقة . فالفرنسية إذن لا يعجزها

التعبير عن الصفة ما دامت تجذ الوسيلة إليه بمجرد أن تشعر بالحاجة إلى ذلك . غير أن الصفة ليس لها في الفرنسية فصيلة نحوية مطردة . إذ لو عرض علينا فعل فرنسي لم نستطع أن تبين منه ما إذا كان يدل على الاستمرار أو على الشروع على نحو ما تبين منه ما إذا كان يدل على المستقبل أو على غير التام . وإذا كانت هناك لغات كالروسية تغلب فيها فكرة الصفة إلى حدّ تصير معه قاعدة للنظام الفعلي ، فإنّ هذه الفكرة ليست في الفرنسية واللاتينية إلا بقايا متناثرة أو أنها لا تسدّ إلا حاجة عارضة .

إذن تختلف الفصائل النحوية في الأهمية تبعاً للغات . فالنظام الصرفي لا يمكن أن يحتوى إلا على عدد محصور من الفصائل التي تفرض نفسها والتي تتم وتظهر . وإنما توجد في كل لغة ، إلى حد كبير أو صغير ، نظم أخرى تتداخل وتتقاطع وراها تمثل ، إلى جانب الفصائل النحوية التامة الازدهار ، فصائل أخرى في طريق الفناء أو — على العكس من ذلك — في طريق التكوين .

من جهة أخرى يمكننا أن نقيم بين الفصائل النحوية نوعاً من الترتيب التدريجي : فبعضها ليست إلا صوراً خاصة من فصائل أعم منها . فقد أمكننا مثلاً أن نتكلم عن المبني للمعلوم والمبني للمجهول على أنهما فصيلتان نحويتان ، ولكننا نستطيع أن نرجعهما إلى فصيلة واحدة دون غناء . نعم ، نحن لا ننكر أن لغة تخلو من المبني للمعلوم لا تستطيع مثلاً أن تترجم جملة مثل *je vous aime* « أحبك » ؛ ونعني بذلك أنه يستحيل ترجمتها من الفرنسية ترجمة حرفية ؛ لأن النسبة التي نعبر عنها بالفعل المسمى المبني للمعلوم يمكن التعبير عنها في تلك اللغة المقترضة ولكن في صورة مخالفة .

كذلك ما نمنيه بمصطلح المضاف إليه في الإغريقية أو اللاتينية ليس له نظير في الصينية ، وكذلك الفرنسية والغالية تخلوان من مثيل له . فإنا نقول في الفرنسية *Le livre de Peirre* « الكتاب [بتاع] بـير » بدلاً من *liber Petri* « كتاب بطرس » . والصينية تعبر عن هذه النسبة بين الاسمين بواسطة ترتيب الكلمات ، فتضع المضاف إليه قبل المضاف فتقول *Hantchaou* ، هَنْ تَشَاوْ

« دولة الهون » (حرفياً الهون دولة) ؛ والغالية تستخدم عكس هذا الترتيب فتقول Aber yr afon « مصبّ النهر (حرفياً المصب النهر) » (أنظر ص ١١٤) . فنلاحظ أن تكلم عن مضاف إليه في الغالية أو في الصينية ، أو في الفرنسية أيضاً . ولكننا نعرف أن المضاف إليه الاسمي في اللاتينية يمكن الاستعاضة عنه بصفة : فنستطيع أن نقول uirtus Caesarea « الفضائل القيصرية » بدلا من uirtus Caesaris « فضائل قيصر » . وقد صار ذلك قاعدة في اللغة الروسية . بل إن التركيب le livre de Peirre « الكتاب [بتاع] بير » ليس التركيب الوحيد المستعمل في الفرنسية ؛ فإتينا قول أيضاً : palais royal « القصر الملكي » أو livres Sibyllins « الكتب السبيلية » و La maison à Peirre « البيت [بتاع] بير » l'hôtel - Dieu « بيت الله (حرفياً) البيت — الله » la rue Gambetta « شارع غمبتا (حرفياً) : الشارع غمبتا » ، فهنا أيضاً لا توجد فصيلة نحوية للتعبير عن فصيلة عقلية واحدة . فالألمانية فيها مضاف إليه في Vater's Haus أو das Haus des Vaters « بيت الوالد » ولكنها تستطيع كذلك أن تقول meinem Vater sein Haus « ل [ل] والدي بيته (بمعنى بيت والدي) » ، وهذا تركيب مختلف كل الاختلاف . فإذا ما راعينا هذه الاختلافات التي ترجع إلى الطريقة التي بها تتكون الصورة الكلامية ، جاز لنا أن نقرر وجود فصيلة عامة واحدة في كل اللغات التي تكلمنا عنها ، هي فصيلة التبعية . ونضم المضاف إليه الإغريق واللاتيني وترتيب الكلمات الصيني والغالي واستعمال الحرف « de » في الفرنسية .

وفصيلة التبعية التي تبدو لنا واحدة ينضوي تحتها فروع يبررها النطق . فنحن نقول في الفرنسية sa beauté est éclatante « جمالها وضاء » أو la beauté en est éclatante « الجمال فيها (أو في ذلك) وضاء » تبعاً لما إذا كان الكلام مثلاً عن امرأة أو عن صورة زيتية ، أو بعبارة عامة ، عن شخص أو عن كائن غير حي . على حين أننا نقول من غير تفريق le pere de Pierre « الوالد [بتاع] بير » la culotte de Pierre « السراويل [بتاع] بير »

دون أن تتخيل وجود خلاف في النسبة التي تجمع بين الكلمتين في كل من
المبارتين . وعلى العكس من ذلك تميز اللغة المندنجية *le mandingue* ، إحدى
لغات إفريقية الغربية ، بين *afa* (آفا) « أبوه » و *a-ta kursi* (آ-تا-كرسى)
« سراويله » : فضمير الملك يختلف في كلتا الحالتين ، لأن الأب لا يتبع ابنه على
نحو ما يتبع السراويل مالكة^(١) . ففصيلة التسمية في هذه اللغة تزيد تعقيداً بتمييزها
بين تسمية الملكية وتسمية غير الملكية : أما الفرنسية فلا تشير إلى هذا الفرق
وإن كان يبدو مسألماً به عند التفكير .

* * *

يرجع الخلاف بين النحو والنطق إلى أن الفصائل النحوية والفصائل النطقية
لا تلتقي إلا نادراً ؛ فإن عدد الثانية لا يتفق مطلقاً مع عدد الأولى : فإذا حاولنا أن
ندخل في مسائل النحو شيئاً من النظام بتصنيفها وفقاً للنطق ، رأينا أنفسنا
منساقين إلى توزيعها توزيعاً تحكيمياً : فطوراً نرانا نفرق بين مسائل ذات صفة نحوية
واحدة في فصيلتين متميزتين من فصائل النطق (وفي ذلك إكراه للغة) ؛ وطوراً
نرانا نجتمع في فصيلة نحوية واحدة مسائل لا يربط بينها شيء من النطق (وفي ذلك
إكراه للعقل) . فالأيسر إذن أن نختار طريقة وسطاً بين هاتين الطريقتين من طرق
التصنيف . وفي ذلك تبرير لسلك النحاة الذين لا نعدم أن نجد قيمة نحوية في
مصطلحاتهم وإن كانت محكية وخالية من النطق في غالب الأحيان . والشئ الوحيد
الذى نطالبهم به هو أن تكون تصنيفاتهم ، وقد ضحوا فيها بالنطق ، متفقة مع
الأوضاع النحوية للغة التي يدرسونها ؛ إذ أن الفصائل ، وإن اختلفت من لغة إلى
أخرى ، لها في الواقع سلطان يطغى على نشاط العقل في اللغة التي توجد فيها .

من اختصاص الناطقة أن يحددوا الكليات النطقية وأن يقرروا ما إذا كان
وراء الفصائل النحوية المختلفة الألوان فصائل منطقية تجري على كل اللغات وتفرض
نفسها عليها جميعاً بحكم تركيب المخ البشرى . ولنفترض أننا قد وجهنا هذا السؤال

(١) م . دلانيس M. Delafosse رقم ٤ ، مجلد ١٨ (١٩١٣) ص ٣٥٣ .

إلى رجل من رجال القرن السابع عشر مشبع بالفلسفة الديكارتية ومنطق البوررويال ، فإنه يجيب عنها بالإثبات دون أدنى تردد . قال ديكارت : « صدق الحس هو الشيء الذي قد وزع على الناس خير توزيع . . . وهو الشيء الوحيد الذي يجعلنا آدبيين ويميزنا من الحيوان ؛ وإني لأميل إلى القول بأنه يوجد كاملاً في كل فرد . » وقال لبرويير la Bruyère مبالغا في فكرة الفيلسوف : « العقل في كل الأقطار موطنه . وإن التفكير ليستقيم في كل مكان يوجد فيه الناس . » هذا التصور لعقل إنسانى ذى قوانين ثابتة لا تتحرك ، متماثل تام التماثل في كل الأرجاء ، كان محل تسليم الجميع في ذلك الحين . ولكنه في يومنا هذا يبدو محلا للنظر^(١) .

ومع ذلك فلا ينكر إنسان وجود بعض سمات أساسية مشتركة مهما اختلفت العادات العقلية بين شعوب الأرض المختلفة . فهناك منطق إنسانى وتوجد كليات منطقية كبرى عند جميع البشر الذين يفكرون . وهى بطبيعة الحال أساس الفصائل النحوية . فن أن تستمد هذه وتلك قيمتها ؟

يعزو إميل دركهام^(٢) وجود الفصائل إلى نوع من الضرورة تقف بالنسبة للحياة العقلية موقف الالتزام الأخلاقى بالنسبة للإرادة : يعنى أن الفصائل ذات أصل اجتماعى وتتوقف على المجتمع . هنا نجد أثر العامل الاجتماعى الذى ظهر لنا بوضوح فيما سبق أنه أصل التغيرات الصوتية . فهو وحده القادر على تفسير القانون الصوتى : فنوع الضرورة الذى يفرض على مجتمع بعينه أن يحركوا جهازهم الصوتى بصورة واحدة ليس له أصل فىزيقى أو ميتافيزيقى ؛ كذلك لا يمكن أن يفسر على أنه عارض فردى ثم نعلم : فليس هنالك من سلطة تكفى لأن تفرض محاكاة خاصة فردية . والقسر الذى تفرضه الصوتيات له من القوة ما لا يستطيع معه فرد أن يتخلص من نيرها . وكذلك الحال بالنسبة لسلطان الفصائل وكلاهما يستمد قوته من قوة الرباط الاجتماعى . . .

(١) لى بربل : رقم ٨٨ من ٧ .

(٢) رقم ١٠ ، عام ١٩٠٩ من ٧٤٧ .

الفصل الثالث

الأنواع المختلفة للكلمات (١)

تبلغ الصعوبة في تصنيف أجزاء الكلم حدًا يوفقنا حتى الآن عن الوصول إلى تصنيف مرضٍ . وما زال نحونا التقليدي يعلمنا أن نقسمها إلى عشرة أقسام تبعاً لتقليد قديم يرجع إلى منطقة الإغريق . ولكن هذا التصنيف لا يثبت أمام الامتحان : فإن تبرير تطبيقه على اللغة التي خلق من أجلها لا يخلو من عناء ؛ فن باب أولى أن توجد لغات كثيرة لا ينسجم معها هذا التقسيم إطلاقاً . وبمناقشته عن كسب زى أنفسنا مضطرين إلى تصحيحه .

من المناسب قبل كل شيء أن نبعد من هذا التصنيف حرف التعجب interjection فإن في حرف التعجب مهما كانت أهميته في الاستعمال ، شيئاً يضمه بمزول عن بقية أجزاء الكلم الأخرى ، ولا يمكن أن يدرج معها في تصنيف واحد . فهو لا يخضع دائماً للقوانين الصوتية ، وكثيراً ما يشتمل على أصوات خاصة به ، مثل المصمصات في كثير من اللغات الحديثة أو الانفجاري الاحتكاكي pff « پف » في الفرنسية وليس له على العموم أى صلة بالصرف . بل يمثل شكلاً خاصاً من اللغة ، اللغة التأثيرية affectif وأحياناً الفاعلة actif ؛ فهو على كل حال لا يدخل في بنية اللغة العقلية . وسنلتقي به في الفصل التالى .

بعد ذلك يجب أن نبعد الأصوات . فإن عدداً كبيراً من « أجزاء الكلم » في نحونا ليس شيئاً آخر . كذلك هذه الأدوات التي تسمى بحروف الجر وحروف الوصل ؛ فإن الدور الذي تلعبه يمكن أن تقوم به في لغات أخرى عملية صرفية تختلف عنها كل الاختلاف . فالفرنسية تقول Le livre de Pierre « الكتاب

(١) أنظر رزفادوفسكى (Rozwadowski) : رقم ١٩٣ وچيرسن : رقم ٢٢٩ .

[بتاع] بير « ترجمة للمباراة اللاتينية liber Petri » كتاب بطرس ،
وتقول الفرنسية أيضاً « on desait que le comte était mort » قيل إن
الكنت قد مات « بينما تقول الألمانية (man sagte der Graf sei gestorben)
مكتفية بنصب الفعل (استعمال صيغة ال subjonctif عن حرف الوصل dass ،
أن بالمرية ، que بالفرنسية) في الإشارة إلى تبعية الجملة التابعة ؛ و ترى أن
دوال النسبة تنوع في اللغة الواحدة : فالألمانية تستطيع أن تقول أيضاً man
sagte dass der Graf gestorben ist » قيل إن الكنت قد مات (باستعمال
حرف الوصل dass) كما تستطيع أيضاً أن تقول : « man sagte der Graf
sei gestorben » (باستعمال الفعل في صيغة التبعية . واللاتينية تستعمل أيضاً
المبارتين : rog venias (أرجو تمفو) أو rogo ut venias (أرجو أن
تمفو) . وقد ظلت الفرنسية وقتاً طويلاً تقول le bois le roi « النابة الملك
[يعني غابة الملك] » و le bois la dame « النابة السيدة (غابة السيدة) »
وذلك إلى جانب قولها : le chemin du bois « الطريق [بتاع] النابة »
l'arbre de la forêt « الشجرة [بتاعة] النابة » . فالكلمات de « بتاع »
que « أن » و dass « أن » و ut « أن » عبارة عن دوال نسبة تستعمل
ليبان الصلات التي بين كلمة وكلمة أو جملة وجملة . حروف الجر تختلف في صفتها
عن حروف الوصل بوجه عام . ولكننا نعرف مع ذلك لغات تعبر بصورة واحدة
عن بعض العلاقات بين كلمة وكلمة أو جملة وجملة على السواء . فالصينية تستعمل
المنصر na « نى » للدلالة على تبعية الأسماء كما تستعمله للدلالة على تبعية الجمل
(انظر ص ١٠٨) .

وأداة التعريف في اللغات التي فيها أداة للتعريف ليست إلا دالة من دوال
النسبة ، وليست الأداة على وجه العموم إلا اسم إشارة ضعف معناه ؛ وتستعمل
كوسيلة للتصنيف ، فهي في الأسماء تبين النوع والعدد وفي أغلب الأحيان تدل على
التعريف أيضاً (انظر أواخر هذا الفصل) أى أنها تحتوى على كل الخصائص
التي تجعل منها آلة نحوية .

وكذلك حالة الضمائر الشخصية : je lis أنا أقرأ تساوى lego « أقرأ » وكذلك tu lis « أنت تقرأ » و il lit « هو يقرأ » تساويان في اللاتينية legis « تقرأ » legit « يقرأ » . فالفرنسية تعرب : je « أنا » ، و tu « أنت » و il « هو » عما يعبر عنه في اللاتينية بواسطة التصريف . فإذا كان الضمير قائماً بذاته أو مؤكداً كما يسمونه ، فإنه يلعب دور الاسم بالضبط ، ولذلك وجب أن نسلكه في فصيلة الأسماء . ويمكننا للتحقق من ذلك أن نقارن الجملتين : — Viens tu, toi? « أنت تأتي ، أنت ؟ » و Viens - tu, Peirre? « أنت تأتي ، [يا] بيير ؟ » أو Moi , je suis grand et Peirre, il est petit « [أما] أنا فأنا كبير و [أما] بيير ، فهو صغير . » فالضميران toi « أنت (الثانية) » و moi « أنا (الأولى) » لهما القيمة التي لبيير بالضبط . كما أن الضمير الشخصي يقترب من الفعل في بعض الوجوه . إذ أنه لما كان يقوم في كثير من الأحيان بدور الدالة على النسبة في الفعل ، كان إلى حد كبير مرتبطاً في الفعل بفصيصة الأفعال ومعرضاً لأن تتأثر صيغته بصيغة الفعل . ^(١) فالضميران الإيطاليان : eglino و elleno « هم و هن » قد أخذتا نهاية فعل النائب الجمع المقابلة لهما ؛ وكذلك الحال في الغالية حيث يقال hwynt « هم » بدلا من hwy وذلك تحت تأثير النهاية الفعلية ynt — . ونحن نعرف من جهة أخرى أن اللغات التي احتفظت بالثنى في الفعل احتفظت به أيضاً في الضمير حتى ولو هجرته في الاسم ؛ وعلى العكس من ذلك اللغات التي فقدت الثنى في الفعل هجرته أيضاً في الضمير حتى ولو استبقت في الاسم (انظر صفحة ١٢٤) . فالضمير ، وإن كان اسمي الاستعمال ، يصيبه تأثير الفعل أحيانا ولكنه لا يكون قسما مستقلا من أقسام الكلم .

والصفة من جهتها لا يمكن تمييزها من الاسم تمييزاً واضحاً . إذ يبدو أنهما في اللغات الهندية الأوروبية صادران عن أصل مشترك وأنهما في كثير من الحالات يحتفظان بصيغة واحدة . إذ لا شيء يدلنا على كون كلمة bonus « حسن » في

(١) يوهان شميت : رقم ٣٧ ، ص ٣٦ من المقدمة وم ٤٠٣ .

اللاتينية صفة ولا على أن كلمة equus « حصان » اسم ؛ إذ أن علامة الإعراب واحدة فيهما . ولعله لا يستطيع التمييز بينهما الا بالاستعمال (انظر أواخر هذا الفصل) . ولكن يجب أن نضيف إلى ما تقدم أن من الاستعمالات ما هو مشترك بينهما على التساوى . فيمكن أن يقال : « أنا قوى » كما يقال « أنا ملك » و « الرجل عظيم » و « العظيم رجل » ، فالاسم والصفة يتبادلان الدور في كل اللغات ؛ ولذلك لم يكن بينهما حدّ فاصل من الوجهة النحوية . فيمكن الجمع بينهما في فصيلة واحدة هي فصيلة الاسم .

إذا تأمنا السير في عملية الاستبعاد هذه ، لم يبق لدينا من أقسام الكلم إلا قسمان : الفعل والاسم . وكل ما عداها من أقسام ينضوى تحت لواء هذه الثنائية . وينبى أن نعرف ما إذا كان الاسم والفعل يمثلان وظيفتين مختلفتين مختلفتين اختلافا جوهريا .

إذا حصرنا نظرنا في مجموعة خاصة من اللغات كاللغات الهندية الأوربية ، لم نتردد في الاعتراف بأن الاسم والفعل بينهما فرق أساسي . بل أن مجرد فكرة الخلط بينهما تعتبر من الحماقات . فالواقع أن الصرف في اللغات الهندية الأوربية يخص كل منهما بسلاسل من اللواحق وعلامات الإعراب تختلف في أحدها عنها في الآخر . وذلك إلى حد أننا في السنسكريتية والإغريقية نعرف ، تسع مرات من عشر ومن النظرة الأولى ، ما إذا كانت الصيغة التي أمامنا اسما أو فعلا . وفي كل منهما يعبر عن الفصيلة الواحدة بطريقة تختلف عنها في الآخر ؛ ومن ذلك الشخص والعدد . تقول الإغريقية λέγω بمعنى « أتكلم » و λόγος μου بمعنى « كلامي » ؛ فالمرن الذي يرمز به للشخص الأول يختلف في كلتا الحالتين . وعلامة الجمع في الاسم لا تمت بصلة إليها في الفعل . فالواقع أن لدينا نظامين من التعريف متوازنين ، وكل منهما مستقل عن الآخر .

غير أننا إذا انتقلنا من اللغات الهندية الأوربية إلى اللغات السامية لم نجد هذا التمييز الباقص . فالعربية ملأى بالعلامات المشتركة بين التعريفين الاسمي والفعل . إذ نرى النهاية « — ون » التي تستخدم في المضارع المسند إلى الشخصين الثاني والثالث

المذكّرين في حالة الجمع تستخدم أيضاً علامة للجمع في كثير من كلمات اللغة المذكورة . وفي حالة المثنى تستخدم لنفس الشخصين التقدم ذكرهما العلامة « — آن » التي هي علامة الاسم المثنى الوحيدة . ولا تقتصر العلامة بين التصريف الاسمي والتصريف الفعلي في العربية على بعض وجوه الشبه في العلامات ؛ بل إنها تمس جوهر الأشياء في ذاته . فهناك توافق غريب بين الحالات الإعرابية الثلاث (حالة المسند إليه وحالة المفعول المباشر وحالة المفعول غير المباشر) وبين حالات المضارع الإعرابية الثلاث (الرفع والنصب والشرطى أو [المجزوم كما يسميه بعضهم]) . وقد فطن نحاة العرب أنفسهم إلى هذا التشابه فترى أثره في المصطلحات التي ابتكروها .

مواطن الشبه بين الاسم والفعل في اللغات الفينية الأجرية بلغت من الكثرة حدا جعل بعضهم يقرر — وإن كان على خطأ — أن لا خلاف بينهما . والحقيقة أن الفعل فيها من أصل اسمي في غالب الأحيان ، ولا يزال يقع تحت سلطان العناصر الصرفية الاسمية في بعض الأحوال^(١) . ففي الفجولية يقال : mini ميني « يذهب » ali (آلى) « يقتل » يجيثان بنفس الصيغة التي تجي عليها puyi (پوي) « آخذ » uri « ماسك » ؛ وفي الفنلندية antaa « يعطى » معناها الحرفي « مُعط » . وليس ذلك إلا نتيجة لاستعمال الجملة الاسمية البحتة (انظر الصفحات التالية) . ولكن هناك حقيقة أخرى أكثر أهمية ونعني بها الاشتراك في العلامات . ففي التشيريمية وفي المردفية تستعمل التاء في بناء الجمع من الأسماء وفي إسناد الفعل إلى ضمير الجمع للغائبين على السواء ، ونجد ذلك حتى في الفنلندية في بعض لهجاتها حيث يقال menit « ذهبوا » menisit « قد ذهبون » في مقابلة meni « ذهب » و meni « قد يذهب » وذلك يشبه تمام الشبه kalat « السمكات » في مقابلة kala « السمكة » و puut « الشجرات » في مقابلة puu « الشجرة » . وفي المجرية حالات من هذا النوع عينة : vartak « انتظروا » kértak « طلبوا » جماعاً vart « انتظر » kért « طلب » ، كما أن

(١) انظر J. Szinnye: J. : رقم ٢٨ ، مجلد ٥ (١٩٠٦) ، ص ٦٢ .

harsak « أشجار الزيزفون » وnevek « الأسماء » جمال név و harsak. ولكننا لا نجد في اللغات الهندية الأوروبية حالات من هذا القبيل . وهناك لغات أخرى كلفات الشرق الأقصى يعتبر عدم تميز الفعل من الاسم إحدى خصائص نحوها الجوهرية . ففي الصينية القديمة مثلاً يمكن استعمال الكلمة اسماً أو فعلاً على السواء ؛ وموضع الكلمة وحده هو الذي يبنى عن أى الاستعمالين أريد .

ونجد مثلاً تقليدياً من هذه الحالة في الجملة : lao lao yeou yeou (لاؤو لاؤو ييئو ييئو) « عامل الشيوخ على أنهم شيوخ والأطفال على أنهم أطفال » حيث نجد الكلمة التي تستعمل للدلالة على شيخ والكلمة التي تستعمل للدلالة على طفل هما نفس الكلمتين اللتين تستعملان للدلالة على « عامل الشيوخ » و « عامل الأطفال » . ولكن الأمثلة التي لها هذه القوة في الطابع نادرة . فاستعمال الكلمة على أنها فعل يصحبه على العموم تغير في النغمة وبالتالي يحصل في الكلمة بتر في الحرف الأول إذا اقتضى الأمر ذلك ، وهذا البتر هو الذى أنتج ما نراه اليوم من فرق بين النفس وغير النفس . فيقال haò « حسن » haò « يحب » و tsàng « كثر » و ts'ang « يخفى » ، tschouàn « تعليق » tsch'ouàn « ينقل » . وأخيراً يوجد في الاستعمال الحديث وسائل أخرى لتمييز الاستعمال الفعلي من الاستعمال الاسمي لأول وهلة . وإذا غرضنا النظر عن ترتيب الكلمات وعن أهمية تتابع الجملة على هذا النحو : المسند إليه فالفعل فالعمول ، فإننا نجد من اللواحق ما يرشدنا إلى طبيعة الكلمات : فالأسماء تتميز باللاصقة eu أو باللاصقة tsau (انظر ص ١١٧) ؛ والأفعال تتميز باللاصقة tcho (مأخوذة من tchao « يطبق ، يضع ») ، وذلك في مثل tso tcho « يجلس » و tchao tcho « يضع (توباً) » كما يتميز الفعل خيراً من ذلك باللواحق الزمنية leao أو konoo للماضى و yao للمستقبل .

وإذا حدث أن استعملت الكلمة بذاتها فعلاً أو اسماً في الصينية ، فإن التكلم يفرق بجلاء بين هذين القسمين من أقسام الكلم . فالنحويون المحليون يميزون

بين الكلمات الملية (انظر ص ٩٨) و « والكلمات الحسية » (houo tseu)
و « الكلمات الميتة » (ssen tseu) ؛ ويقولون بأن الأولى ذات معنى فاعلى
والثانية ذات معنى انفعالى . فالأسماء والصفات تعتبر من الكلمات الميتة وعلى
العكس من ذلك تعد الأفعال ، وهى تستلزم الحدث ، من الكلمات الحية . ومن
نتيجة هذا المبدأ أن الفعل إذا استعمل مبنياً للمجهول يمكن أن يعطى نفس التنعيم
الذى للاسم ، وبتغيير نعمته يصير كلمة ميتة . فعدم التمييز بين الاسم والفعل الذى
يعزى إلى الصينية عادة ، ظاهرى أكثر منه حقيقياً . إذ لا يوجد إطلاقاً تردد فى
معرفة القيمة الاسمية أو الفعلية فى الكلمات التى تستعمل .

هناك لغة تقرب من الصينية إلى حد كبير من هذه الوجهة ، وهى اللغة
الإنجليزية . فمعظم الأسماء فى هذه اللغة يمكن استعمالها أفعالاً أيضاً ، فعلى تيميل
إلى التسليم باستعمال كل اسم أياً كان استعمالاً فعلياً . فيمكن لكلمة مثل fire
« نار » أن تكون اسماً أو فعلاً دون تفريق ؛ بل يمكنها أيضاً بوصفها اسماً أن تقوم
بدور الصفة أو الاسم على السواء ، وبوصفها فعلاً لا تعنى بالتمييز بين المبنى للمعوم
والمبنى للمجهول . فهى فى الحقيقة فكرة تجريدية تصلح لكل التطبيقات
المشخصة التى تراد منها . تشهد بذلك الجمل الآتية التى لا تتغير فيها الصيغة
الخارجية للكلمة بتغير قيمتها : put a fire in my room « ضع ناراً فى
غرفتى » ؛ I fire my room « أوقد غرفتى » ؛ a fire fly « ذبابة نارية »
O people , so easy to fire « أيها الشعب السريع الهابة » . وقليل من
الكلمات فى الإنجليزية لا يمكن إخضاعها لهذه الخطة ؛ فن كلمة frown « حاجب »
يمكن أن يؤخذ to frown « يعبس الحاجب » ومن book « كتاب » يمكن
أن يؤخذ to book « يسجل فى مذكرة » ومن bomb « قنبلة » يمكن أن
يؤخذ to bomb « يقذف بالقنابل » ، الخ .

ومع ذلك فيجدر بنا هنا ألا نترك أنفسنا فريسة للاخذاع . نعم إن كلمة fire
« نار » تصلح من حيث المبدأ أن تكون اسماً أو فعلاً دون تفريق . ولكن ذلك
لا يطمئن فى حقيقة كون فكرة النار التى تحرق تميز عن فكرة عمل نار للاحراق

فإذا قلت « توجد نار » أو « أشعل ناراً » ، كان في ذهني فكرتان متميزتان تثيران في ذهن سامعي آثرين مختلفين . لأنني في الحالة الأولى أعبر عن حقيقة وفي الثانية أصدر أمراً . فليس يوجد إذن في الإنجليزية ، كما رأينا أنه لا يوجد في الصينية ، أى تردد حول تعيين قيمة كلمة مثل fire عندما يكون هناك محل لإظهار الفرق بين الحالتين . فالسامع يحس على الفور ما إذا كانت الكلمة اسماً أو فعلاً تبعاً لاستعمالها في الجملة وعلى الخصوص تبعاً لدوال النسبة التي تصحبها .

ذلك أني حسباً أقول a, (the) fire (أى بأداة التعريف أو أداة التنكير) أو to fire (مع سبق الكلمة بالحرف أن) أو my fire (مع إضافتها لضمير التكلم) أو I fire (مع إسنادها لضمير التكلم) أعين أى القيمتين أريد بالكلمة قيمة الاسم أو قيمة الفعل ، فجرد الفرق بين دوال النسبة يكنى لإظهار الفرق بين قيمتي الكلمة ، وذلك دون أى تردد ممكن . فدوال النسبة (the , a) و (I) تقوم هنا بدور علامات الإعراب والتصريف في لغة كالإغريقية القديمة : فعبارة I fire « أشعل » هي العبارة αἶω كما أن a, (the) fire « النار أو نار » هي بمعناها αἶθος .

* * *

تميز الفعل من الاسم الذي يظهر دائماً في الكلمة الإنجليزية أو الصينية إذا إذا أخذت على انفراد ، يتجلى على الفور إذا وضعت هذه الكلمة في جملة ؛ فالمسألة ليست مسألة صيغة بل مسألة استعمال . وبعبارة أخرى يجب أن نواصل السير حتى نصل إلى تكوين الصورة الكلامية حيث تتألف عناصر الكلم لكي نبرز التمييز بين الفعل والاسم . فإذا كانت هناك لغات لا تحتوى على صيغة متميزة لكل من الاسم والفعل ، فإن جميع اللغات تتفق في التمييز بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية^(١) .

بالجملة الفعلية يعبر عن الحدث مسنداً إلى زمن منظوراً إليه باعتبار مدة استمراره منسوباً إلى فاعل موجهاً إلى مفعول ، إذا لزم الأمر : اسمع الموسيقى ، بيركان يشرب نبيذاً ، سيجر الحصان العربية ، الخ . فموضوع الجملة الفعلية أن

(١) أنظر على الأخص ميه : رقم ٦ ، مجلد ١٤ ، ص ١ وما يليها .

تأمر بحدث أو أن تقرر حدثاً أو أن تتخيل حدثاً : والأمر والإخبارى والتبى ، تلك التى يجب أن نضيف إليها المستقبل والشرطى ، كلها تمثل بدرجة كافية من الوضوح هذه الصفات الثلاث للجملة الفعلية . ويمكن أن تتكون هذه الجملة من كلمة واحدة : مثل الكلمة الفرنسية prends « خذ » واللاتينية Veniam « سأتى » والعربية قالوا . بل من المستطاع أن تكون هذه الكلمة الواحدة اسماً : فعندما نقول « نار ! » أو « سكوت ! » أو « وقوف ! » أو « التفات ! » ترانا تأمر بتنفيذ حدث بالضبط كما لو كنا نقول : « خذ » أو « تمالوا » أو « توقفوا » . ولا يعبر عن الحدث فى اللغة المنطقية غير الفعل . غير أن الأمر لا يدخل فى اللغة المنطقية إلا جزئياً . فهو صورة اللغة الفاعلة (انظر الصفحة الأولى من الفصل الرابع) . ويمكن التعبير عنه بصيغة . إذا أننا نتطلب السكون بقولنا « هس ! » أو « صه ! » ؛ ونحن نسير الحصان بقولنا « شيه ! » فتلك صيغ أمرية لا تدخل فى النظام النحوى للفعل .

تحليل الجملة الفعلية يقدم لنا نوعاً من الترتيب التنازلى لصيغ الفعل : فأولها الأمر الذى يظل من بعض الوجوه خارجاً عن الفعل المنظم إلى حد أنه يمكن التعبير عنه بالاسم وبصورة أوسع بالمصدر ؛ ثم الإخبارى (حاضراً كان أو ماضياً) الذى يقرر وجود واقعة ؛ وأخيراً صيغ الاحتمال أو الحدس .

تختلف الجملة الاسمية كل الاختلاف عن الجملة الفعلية ، فهى تعبر بها عن نسبة صفة إلى شيء : البيت جديد ، الغداء حاضر ، الدخول على الميمن ، قبيز ملك ، زيد حكيم ، والجملة الاسمية تتضمن طرفين : المسند إليه والمسند ، وكلاهما من فصيلة الاسم . وقد أحسن المناطقة من أتباع أرسطو بالفرق بين هذين النوعين من الجملة ، ولكنهم أرجعوهما إلى نوع واحد بأن حللوا الجملة الفعلية على نحو يدخل فيها فعل الكون : « جملة الحصان يجرى » = الحصان (يكون) جارياً . وذلك خطأ لم يجاره فى طول العمر إلا القليل من الأخطاء ؛ وقد شد من أزره الأفكار الميتافيزيقية التى اتصلت بها . فبعض الفلاسفة ، وقد خدعوا باسم فعل « الكون » ، أخذوا يضعون الكون المطلق الذى يمثل فعل الكينونة فى مواجهة الموارض التى تنه

عها المسندات . وقد بنى منطق بأسره على وجود فعل الكينونة وجوداً حتمياً بوصفه رباطاً ضرورياً بين طرفي الجملة أياً كانت ، وبوصفه تعبيراً عن كل إثبات وأساساً لكل قضية . ولكن علم اللغة لم يعضد هذا التركيب المدرسي - Scolastic ، بل نقضه من أساسه . فغالبية اللغات تشهد بأن الجملة الفعلية لا شأن لها بفعل الكون وبأن هذا الفعل نفسه لم يتخذ مكان الرباط في الجملة الاسمية إلا في زمن متأخر .

الصورة المعتادة للجملة الاسمية في الهندية الأوروبية لا رباط فيها ، وهي ما يسمى بالجملة الاسمية البحتة . ففيها يوضع السند إلى جانب السند إليه لا أكثر ولا أقل ، وقد تحدّد موضع كل منهما بالنسبة لصاحبه بواسطة قوانين خاصة بكل لغة على حذتها . فالإغريقية تقول باطراد : « لأن الملك أكثر قوة » (الإلياذة ، ١ بيت ٨٠) ، و « آخرون قرييون مني » (الإلياذة : القسم الأول ، بيت ١٧٤) دون ذكر فعل الكينونة ، ومثلها الفارسية القديمة إذ تقول : manā pitā Vishtāspa منابتاقتاسپ « أبي فشتاسپ » والسنسكريتية تقول : tvām varunas Varuna أنت فارونا . وقد احتفظت الروسية بالجملة الاسمية البحتة فتقول ' zavtrak gotov ' « الغداء حاضر » أو ' dom' nov ' « البيت جديد » . وصيغة الصفة هي عين صيغة السند ؛ ولكن عبارة « البيت الجديد » يمكن أن يقال أيضاً هكذا dom' novy . وهذه المفارقة يدلّ عليها في الإيرلندية القديمة بموضع الطرفين فيقال infer maith « الرجل الطيب » maith infer « الرجل طيب » ؛ وتمطينا الفرنسية فكرة عن ذلك إذا قارنا عبارة les marrons chauds « القسطل الساخن » بعبارة chauds, les marrons « ساخن القسطل » . وهذه المفارقة مطردة في الصينية فعبارة ta kouk (تا كوك) معناها « الدولة العظيمة » ولكن kuok ta كوك تا معناها « الدولة عظيمة » .

معظم اللغات يعرف الجملة الاسمية البحتة ، فهي في اللغات السامية والفينية الأجرية مطردة الاستعمال . فتقول العربية : « زيد عاقل » ، كما تقول الجرية az ég kék المجرية

« السماء زرقاء »^(١) . وانتشار الجملة الاسمية البحتة في النيفية الأجرية من الكثرة بدرجة جعلت من المستطاع أن يفسر بلغات هذه العائلة بقاء هذا النوع من الجملة في الروسية^(٢) . والجملة الاسمية البحتة هي القاعدة في لغات الأسرة البنتية كذلك^(٣) ، فيقال في اللغة السواحلية مثلاً simba mui (سمبا مووى) « الأسد مؤذٍ » ، والذي يشير إلى الخبر هنا هو نبر الشدة الذى يقع على المقطع mu مؤ . وفى بعض الأحيان يوضع ضمير بين الطرفين (السند إليه والسند) زيادة في بيان العلاقة بينهما مثل : mti u mkulu مَتِي أو مَكُولُو « الشجرة هي كبيرة » ، وهذا هو السبب في أن الأهالي إذا تكلموا الفرنسية قالوا l'homme lui fort « الرجل هو قوى » بدلاً من أن يقولوا l'homme est fort « الرجل يكون قوياً » . وهذا الضمير كثيراً ما يحل محله الضمير الثابت غير المحدد « i » الذى ينتهى بتركبه مع بعض العناصر الإشارية المختلفة إلى أن بصير فعلاً رابطاً في اللغة السواحلية حيث يقال : mti mi mkulu مَتِي مِي مَكُولُو « الشجرة تكون كبيرة » .

هنا نجدنا أمام طريقة لتكوين الفعل الرابط . وهذا الرابط في اللغات الهندية الأوروبية على العموم عبارة عن فعل قديم قائم بذاته وأفرغ من معناه الحقيقى (راجع حوالى منتصف الفصل الخامس) . أما إدخال الرابط في الجملة الاسمية فيمكن تفسيره بسهولة ، إذ أن هناك فكرة في الواقع لا يمكن التعبير عنها بمجرد وضع السند والسند إليه أحدهما بجانب الآخر ، وهى فكرة الزمن . عندئذ صار استعمال الفعل ، وهو رمز الزمن ، أمراً ضرورياً . فالجزية إذا أرادت أن تترجم le ciel était bleu « السماء كانت زرقاء » تضطر إلى أن تقول az ég kék vala فتستعمل الماضى غير التام من فعل الكون الذى يدل على معناه ويؤدى عمل الرابط في الوقت نفسه . ويستعمل هومير الفعل المستقبل « سيكون »

(١) Szimonyei : رقم ٢١١ ، ص ٤٠٣ .

(٢) جوتيرو ، رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ٢٢٥ .

(٣) ساكلو Sacleux ، رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ١٥٢ وما يليها .

في قوله : τὸ δὲ τοι ξεινήιον ἔσται « تلك ستكون هدية الضيافة إليك » ، لأن الإشارة إلى الزمن أمر ضروري هنا . وصفة الفعل كذلك تمتد من المعاني التي يعبر عنها ببنية الفعل الصرفية ؛ ومن ثم كان من الضروري أن يذكر الرابط في الجملة إذا ما أريد الإشارة إلى صفة الفعل .

فإذا ما أدخل الرابط في الجملة الاسمية عندما تدعو الحاجة إلى إدخاله للتعبير عن الصفة أو عن الزمن ، أمكن إدخاله فيها أيضاً في بعض الأحيان حتى عندما لا يحتاج المعنى إليه . فالجملة الاسمية البحتة في اللاتينية مثلاً تعتبر من المستثنيات ، إذ أنها لا تخلو من الرابط *Deus bonus est auarus est homo* « الله يكون كريماً والإنسان يكون شرها » وكذلك الحال في الفرنسية : *les marrons sont chauds* « القسطل [يكون] ساخناً » وفي الإنجليزية *life is short* « الحياة [تكون] قصيرة » وكذلك في الأرمنية وبعض اللغات السلافية غير الروسية ... الخ . ومن ثم ظن بعض النحاة أن الرابط عنصر أساسي في الجملة . ولكن تاريخ الكلمات نفسه يبرهن على فساد هذا الزعم . فالرابط في كل اللغات الهندية الأوروبية مأخوذ من أرومات فعلية بعد ما ضعف معناها شيئاً فشيئاً . فالأرومة — *es* التي زودت الجملة الاسمية بالرابط منذ زمن قديم جداً تدل بمعناها الحقيقي على الوجود ، على الحياة ؛ واسم فاعلها *sat* يدل في السنسكريتية على كائن حقيق وكلمة *satyas* المشتقة منه معناها « حق » ويمكننا أن نتبع هذا العمل الانحلال الذي أدى بفعل الوجود إلى أن يلعب دور الرابط .

هذا إلى أن هناك لغات كثيرة لم تكتف بالأرومة — *es* للقيام بهذا الدور^(١) . فلدينا عدد لا بأس به من الإبدال التي يستعاض بها عن فعل الوجود في القيام بدور الرابط . ومن أكثر هذا الإبدال شيوعاً فعل معناه الحقيقي « ينبت ، ينمو » وقد احتفظ بهذا المعنى في الإغريقية ، في *φύειν* ، ولكنه في السنسكريتية *bhāvati* اتخذ معنى « يصير » ثم معنى « يكون » لا أكثر من ذلك ؛

(١) انظر ماروزو Marouzeau ، رقم ١٠٠ ، ص ١٥١ ، وكذلك الرابع المذكورة فيه .

وفي الإنجليزية القديمة léo معناه « أكون » مثل biu في الأرنندية ، ومن هذه الأرومة اشتقت اللاتينية إحدى صيغ الماضي السمى fuit : prétérit « كنت » ، كما اشتقت السلافية سلسلة من صيغ فعل الكون (byti « أن يكون » bychū « كنت » ، الخ وكذلك استغلت أرومات أخرى غير هذه الأرومة : ففي الإغريقية γίνομαι قريب جداً من فعل الكون ، مثل Uersor « يوجد عادة » في اللاتينية ؛ وكذلك stare « يستقر » في اللاتينية زودت الفرنسية بالماضي غير التام j'étais « كنت » ؛ واشتقت الجرمانية من أصل معناه يقطن (في السنسكريتية vásati « يقطن ») جزءاً من صيغ فعل الكون فيها (ich war « كنت » gewesen « اسم المفعول من كان ») . ولعل الأفعال التي يستعاض بها عن فعل الكون في الروسية أكثر تنوعاً ، فيقال فيها تبعاً للمعنى الذي يراد إبرازه sidjët' « أن يكون جالساً » ležet' « أن يكون راقداً » ، stojät' « أن يكون واقفاً » sostojät' « أن يكون مراكباً » predstävľjät'soboiu « يبدو كأن » ... الخ^(١) . ومع ذلك فليست الجمل التي تستعمل فيها هذه الأفعال إلا جلا شبه اسمية ؛ لأن قيمة الرابط التي هي أساس استعماله في الواقع تبرز بالمعاني الأصلية لهذه الأفعال . ولذلك كانت شديدة القرب من تلك الجمل الشائعة الاستعمال في اللغات القديمة والتي ترى فيها الضفة السندة مصحوبة بفعل ما ، مثال ذلك في اللاتينية ibant obscuri « هم يسرون في الظلام » ، وفي السلافية القديمة : pade nici « سقط على الأرض . »

مثل هذه الجمل يمكن تسميتها بالجمل الاسمية الفعلية ، لأنها تجمع بين خصائص هذين النوعين من الجمل اللذين قابلنا بينهما فيما سبق . فهي في الواقع جمل اسمية ولكن ، أدخل فيها فعل . ويوجد ، على العكس من تلك ، جمل فعلية إسمية . وهي الجمل التي يستعاض فيها عن الفعل بعبارة اسمية ، مثل الأمثلة التي تقدم ذكرها في الفصل السابق « إنه يكون لي رأى » بدلا من « أرى » ؛

(١) بويه سبرنسكي Boyer-Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ٢٤٩ وما يليها . مثل هذه الأبدالات شائعة أيضاً في البولونية .

وفي اللاتينية *opus est mihi* « إنه تكون لي حاجة » بدلا من *ego* « أحتاج » ؛ وبعض اللغات لها ميل خاص إلى استعمال الجمل الفعلية الاسمية . فنجد في طرف الميدان الهندى الأورپى مجموعتين من اللغات يشيع فيهما استعمال الجمل الفعلية الاسمية : وهى مجموعة اللغات الهندية من جهة ومجموعة اللغات الكلتية في إرلندة وبريطانيا العظمى من جهة أخرى .

نجد في السنسكريتية الكلاسيكية ، بل ومن قبلها في اللغة الماهارانية *Mahābhārata* ميلا إلى الاستعاضة عن صيغ الفعل الشخصية باسم المفعول مصحوبا بصيغة من الرابط إذا اقتضى الحال . ويعتبر ذلك طغيانا من الجملة الاسمية على الجملة الفعلية أكثر مما يمد استعاضة بإحداها عن الأخرى . لأن الفكرة التى يعبر عنها تظل هنا من الأفكار الخاصة بالفعل : إما حدث أو حالة ، ولا نكون صفة . هذه هى الحال عندما يقال *kva yūyam ushitās* (يتنجالى) « أين قطنتم ؟ » باستعمال اسم الفاعل *ushitās* مرفوعاً مجموعاً بدلا من *ūsha* الذى هو الفعل مسنداً إلى جمع المخاطب . وتريد نسبة الجمل التى من هذا القبيل يوما بعد يوم ؛ وتبلغ درجة كبيرة فى السنسكريتية الكلاسيكية التى من أبرز صفات الاستعمال فيها استعمال اسمى الفاعل والمفعول . وقد ساعد الاتساع فى استعمال هذه الجملة على الاستعاضة بالبنى للمجهول عن البنى للمعلوم فى حالات كثيرة (أنظر صفحة ١٤١) . فنجد فى القطع الثرية من الماهارانية جملا مثل : *mayā vrta upādhyāyas* « اخترت سيداً » والترجمة الحرفية « بى مختار سيد » *tvāya parāddham* « ارتكبت خطأ » (حرفياً : بك مرتكب خطأ) ، *avābhyām apūpo , dattas* ، « نحن الاثنين أعطينا فطيرة » (حرفياً : بنا الاثنين فطيرة معطاة) .

أما فى الكلتية فالمصدر هو الذى توسع فيه على حساب الصيغ الشخصية . إذ تفضل الصيغة الاسمية على الصيغة الفعلية فى تقديم الكلمات التى تعبر عن الحدث فى الجملة ؛ كما نرى فى الجملة الآتية المأخوذة من غالبية اللاتينوجيون :

gobeith yw gennyf , y neges yd eloch ymdanei , ychaffel

« أوئل أنك سترج الصفقة التى ستذهب للمفاوضة فيها » (حرفياً : أمل لى ،

الصفقة التي ستذهب بصدها ، ربحها) . كذلك نرى في الإيرلندية الحديثة في قصة رمويد ياد Diarmuid وجرين Grainne الشهيرة : creud adhbhar na moichéirghe sin ort « لماذا استيقظت في هذه الساعة المبكرة ؟ » (حرفياً : ما سبب هذا التبكير منك ؟) وكذلك : na biodh fios ar d- turais ag aon duine go teacht tar ats duinn aris « لا يعرف أحد أننا في رحلة حتى نرجع » (حرفياً : لا تكون معرفة عن رحلتنا لأحد حتى رجوع لنا من جديد .) والأسماء الفعلية في اللغة الكلتية تقترب من الأفعال إلى حد يجعلها تقبل اللواحق الفعلية التي تستعمل في التصريف للدلالة على الزمن ؛ فثلاً لما كانت اللاصقة الفعلية ry تشير إلى الماضي ، أمكن أن يقال في النالية الوسطى : gwedy clybot yn Rufein ry oresgyn O Carawn ynys Brydein « عندما علم في روما أن كارون قد فتح الجزيرة البريطانية » (حرفياً : بعد معرفة في روما فتح كارون الجزيرة البريطانية) .

* * *

يوجد من بين استعمالات الاسم والفعل استعمالات متقابلة تعبر عن صورتين مختلفتين من صور التفكير ، ولكن منها أيضاً استعمالات تسير جنباً إلى جنب وتنتهي بأن يختلط بعضها ببعض . هذه المنزلة بين المنزلتين تحتلها الجمل الاسمية الفعلية والفعلية الاسمية التي تكلمنا عنها . والمنصر الأساسي في هذه الجمل كلمة تشترك بين الفعلية والاسمية . فأحياناً تكون فعلاً من فصيلة ما يسمى بالمبنى للمجهول في الصينية (أنظر الصفحة الخامسة من هذا الفصل) ، وأحياناً تكون اسماً ذا صفة فعلية ، اسماً أو صفة تدلّ على الحدث ، يعني مصدراً أو اسم فاعل أو مفعول . ويرينا التقليد الجاري في السبكرتية والكلتية ، أنه يستطيع التعبير في بعض الحالات عن فكرة فعلية بواسطة الاسم ، وذلك بفضل استعمال الأسماء الفعلية المشار إليها . هذا الاحتمال يعرفه كل من تصدى لترجمة نص إغريق أو لاتيني . ونرى مدازنا تعلم تلامذة البلاغة الفرن الذي به يستطيع في بعض الأحيان الاستعاضة باسم عن فعل أو العكس ، وذلك إما ابتغاء احترام ترتيب الكلمات في

النص القديم وإما لباعث من الجمال أو التناسق: لذلك يجدر بنا أن نختبر عن كتب قيم الأسماء الفعلية .

المصادر أسماء أحداث بمعنى الكلمة ، ولكن أسماء الأحداث ليست كلها مصادر ، إذ يوجد في معظم اللغات الهندية والأوربية أسماء أحداث تبني بواسطة لواحق تدل على أنها أسماء أحداث . وهي على العموم تتصل مباشرة بأصل فعل وتعتبر إلى حد ما جزءاً من النظام الفعلي . وقد جعلتها صلها الوثيقة بالفعل تحتفظ منه بأكثر من أثر . فنحن نعرف بماذا يتميز الاسم عن الفعل نحوياً ، وهو أن هذا يقبل معمولاً منصوباً وذلك يقبل معمولاً مجروراً . غير أن بعض اللغات تنصب معمول اسم الحدث . وقد احتفظت اللاتينية ببعض بقايا هذا الاستعمال إذ أننا نجد عند بلوت Plaute جملاً مثل : *quid tibi nos tactio 'st ?* « ما مسنا بك ؟ » أو : *quid tibi hanc rem curatio ?* « ما عناؤك من هذا ؟ »

كذلك ينتسب المشتق إلى فصيلة الأسماء بأعم معانيها في دلالاته على الشخص المقصود بالحدث ، أى الشخص الذى يوجد الحدث أو يقع الحدث منه أو عليه ، حسبما يكون مبنياً للمعلوم أو مبنياً للمجهول . وتسمى هذه الأسماء بأسماء الفاعلين ، ولكن اسم الفاعل على العموم كالصدر لا يشير بصيغته إلى الفرق بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول (أنظر الصفحة السابقة) . فاسم الفاعل يعمل أحياناً عمل الفعل في نصب الممول . ففي اللاتينية : *imitatus est eum* « المحاكى إياه » مثله مثل : *imitor eum* « يقلده » . وهذا العمل يمتد إلى مشتقات أخرى غير اسم الفاعل ، فقرأ لبلوت : *orator iusta* « الطالب مطالب عادلة » . ولا بد أن ذلك كان تركيباً شعبياً شائعاً لأنه قد ظهر من جديد في عصور متأخرة : *peccatorum ueniam promittor* « الذى يمد بالنفرا للمذنبين » . ولكننا نجد في لغات أخرى أيضاً ، ففي السنسكريتية : *dāta vāsūni* « المعطى الطيبات » أو في الفارسية القديمة : *ahuramazdā thuvām daushtā biyā* « فليجيك

أهورامزدا (حرفياً : ليكن محباً إياك) ؛ وفي لغة الزند : puthrem varshita « المنجب الولد » ؛ وفي الإغريقية κατὰ αὐτοφύονα πολλά συνίστατο (أخيل ، أجاممنون : بيت ١٠٩٠) « الشريك في عدد كبير من حوادث الانتحار الإجرامية » .

أسماء الأحداث وأسماء الفاعلين التي تتميز عادة بدوال نسبة خاصة (أنظر ص ١١٧) لا تختلط إطلاقاً . فهما في وسط فصيلة الأسماء العامة يكونان فصيلتين خاصتين تتميز إحداها عن الأخرى تمام التميز . ويمكن أن يضاف إليها أسماء الآلة والأسماء التي تبر عن نتيجة الحدث . فأسماء الآلة أيضاً تحتوي على لواحق خاصة ، مثل : τρον — في الإغريقية و trum — أو clum — في اللاتينية ؛ وهذه اللواحق تضاف إلى أرومات الأفعال . فكلمة : ἄροτρον ، aratrum تدل على الآلة التي تستخدم في الحرث « المحراث » و ποδύλον تدل على الآلة التي تستخدم للشراب ، « القدح » فهذه كلمة قريبة من أسماء الفاعل بمعناها وبصيغتها معاً ، كما يستبين لنا من مقارنة لاحقة اسم الآلة -tro- بلاحقة اسم الفاعل -ter- أو -tor- .

أما الاسم الذي يعبر به عن نتيجة الحدث أو موضوعه ، فإنه يخرج من اسم الحدث نفسه في غالب الأحيان . فالتقطع Coupure هو ما فعل القطع couper كما أن الرعى pâture هو فعل الرعى paître والحجاز bordure ما حدث من فعل الحجز ولكن كلمة coupure تستعمل أيضاً للجرح الذي يحدثه الطفل في إصبعه بمبراته ، أو بمعنى قطعة قصت من صحيفة ؛ ويطلق لفظ pâture على الملف أو الغذاء و bordure على حافة الجزء الخارجى للثوب أو على رقعة أرض فيها خضرة . فعظم أسماء الحدث في الفرنسية يمكن استعمالها أسماء أشياء . وهذه حقيقة نجد لها أمثلة في كل اللغات الهندية الأوروبية .

تشتمل الفصائل التي استعرضناها على عدد كبير من الأسماء المشتركة . والواقع أن كثيراً من أسماء الأشياء المتداولة ، بل ومن أسماء الحيوانات أصلها أسماء أحداث أو أسماء فاعل أو أسماء آلة ثم خصصت . فاسم الفاعل أو الصفة المشتقة من الفعل التي ليست إلا صورة أعم من اسم الفاعل قد قدمت عدداً كبيراً

من الأسماء المشتركة : فلكمة *serpens* « ثعبان » معناها « الزاحف » ، الذي
 يزحف « ؛ والكلمة الإغريقية *ὄδον* وكذلك اللاتينية *dens* « السن » معناها
 الآكل ، كما أن السنسكريتية *radanas* « السن » معناها « الذي يقرض »
 (*radati* : يقرض) . كل هذه الأسماء التي ترجع إلى أصول فعلية يمكن تفسيرها
 بسهولة على أساس الجملة الفعلية .

نجد في الجملة الاسمية المقابل الصحيح لما يكون عليه اسم الحدث في الجملة الفعلية :
 أعني اسم الصفة المجرد . ولنأخذ الجملتين : أعبد الله والله رحيم ، فالرحمة صفة
 أن يكون (الموصوف) رحيماً ، والعبادة هي فعل أن نعبد . وإذن فالاسم المجرد
 يخرج بطبيعة الحال من الجملة الاسمية . وهناك حالات يقترب فيها الاسم المجرد
 من اسم الحدث أشد الاقتراب . وذلك مثلاً عندما يتصل اسم الحدث بفعل يكون
 معناه أوغل في الانفعالية منه في الفاعلية . فالجمل الفعلية التي تشتمل على فعل
 من هذا القبيل تقترب من الجمل الفعلية الاسمية التي تكلمنا عنها في صفحة ١٦٨
 أو تستطيع أن تستبدل بها . ففي الدغركية مثلاً نجد أن اسم الحدث الذي يلحق
 الفعل *elske* « يحب » هو *kjoerlighed* « حنان » (صفة أن يكون الإنسان
kjoerlig « حنوناً ») . وفي الفرنسية نرى كلمة *endurance* « التحمل »
 اسم حدث واسماً مجرداً في نفس الوقت : فمن الجملة الفعلية : « پير يتحمل
 الجوع » ، ويمكننا أن نأخذ : تحمل الجوع (= حدث التحمل) ؛ في حين
 يمكننا أن نأخذ من الجملة الاسمية پير متحمل : تحمل پير . فالتحمل إذن صفة
 أن يكون الإنسان متحملاً ، كما أن الرحمة *clémence* أو الضبر *patience*
 صفتا أن يكون الإنسان رحيماً أو صبوراً .

يخرج الإنسان من فصيلة الأسماء المجردة (أسماء المعنى) إلى فصيلة الأسماء
 الشخصية (أسماء الذات) . لأن الاسم المجرد كثيراً ما يستعمل بقيمة مشخصة . ذلك
 أن ما يميز عنه اسم المعنى بقوة يظهر للعقل يسيراً عند تحققه في الواقع . لذلك كانت
 اللواحق التي تتميز بها الأسماء المجردة مثل *tut* — أو *tat* — في اللاتينية
 و *té* — في الفرنسية و *ung* — في الألمانية توجد أيضاً في بعض الأسماء الشخصية .

فليس الانتقال من المجرد إلى الشخص في مثل هذه الحال غالباً إلا الاستعاضة بالصورة عن الفكرة . وتيسر تلك الاستعاضة عملياً باستعمال الجمع أحياناً وباستعمال الكلمة صفة أحياناً أخرى . فجمع *virtus* « الفضيلة » مثلاً يستعمل في الدلالة على الأعمال الفاضلة (بل تطلق الكلمة باستمرار في لغة الكنيسة على « المعجزات ») ؛ وجمع كلمة *laus* « مجد » يستعمل للدلالة على « المدائح ، الأفعال أو الأقوال المرضية ، المجيدة (*laudes*) . وكلمة مثل « السمة » *largesse* أو « التفضل » *complaisance* تثيران في ذهن أفكاراً مجردة . ولكن جمعهما *largesses* « سمات » و *complaisances* « تفضلات » يدل على معان ذاتية ، على وقائع يتحقق بها التجريد في الواقع . واستعمال الجمع هو الذي يغير قيمة الكلمة هذا التغير . أما استعمال الكلمة استعمال الصفة فليس أقل من ذلك تأثيراً ؛ فالمذوبة « *douceur* » عبارة عن صفة ما هو عذب ، ولكنها الشيء العذب أيضاً عند ما نقول : *ce remède est une douceur* « هذا الدواء عذوبة » . وكذلك الكلمات الألمانية *Bescherung* « حدث الإهداء ، هدية » *Schande* « عار » تطلق على أشياء في الجمل التي من هذا القبيل : *das ist eine schöne Bescherung* « هذه هدية جميلة » و *Schande für eine Familie* « هذا المسلك عار من أسرة (أى أنه عمل يجلب العار) » ... الخ

والنتيجة الأخيرة لتطور كلمة مجردة نحو الذاتية هي أن يعمل منها صفة . ففي جمل من قبيل : هذا الرجل طيبة خالصة ، وهذه المرأة هي الفضيلة بعينها ، نرى كلمة *bonté* « طيبة » وكلمة *vertu* « فضيلة » تلعبان دور الصفة . ومن ثم نرى أن من الصفات أحياناً ما كان أصلها أماء فيما سبق . فكلمة *uber* « خصب » في اللاتينية ليست إلا الاسم *uber* « الثدي » قد تحول إلى صفة . هذا الاستعمال خرج من تراكيب مثل *ager uber* « حقل هو ثدي » أى أنه ينتج بفرازة ويفنى . وهنا ينحصر التجديد في أن الاسم يصرف التصريف المتعدد للصفة . فبدلاً من أن يقال : *agri ubera* حيث الاسم الثاني وضع بدلاً من الأول ،

قيل : *agri uberes* . وذلك لأن الاتحاد الخادع في مثل : *arua ubera* قد مهد السبيل إلى هذا التجديد . بل قد تقابل أسماء مستعملة استعمال صفة التفضيل من الدرجة الأولى *comparatif* . أو من الدرجة الثانية *superlatif* ، مع أن درجات التفضيل من اختصاص الصفات : ففي الألمانية الوسطى كلمة *schader* « أخسر » تفضيل من *schade* « خسارة » . والواقع أننا عندما نقول بالألمانية *es ist schade* أو بالإنجليزية : *it is a pity* أو بالفرنسية : *C'est dommage* « هي خسارة » نحس أن الاسم وقد قام بدور الصفة يجب أن يكون في قدرته التعبير عن درجات التفضيل .

كون الاسم يستطيع أن يصير صفة بتلك السهولة يرينا أنه لا يوجد فرق جوهرى بين هاتين الكلمتين . مما لا ريب فيه أنه يوجد بين « *بير طيب* » و « *الطيبة فضيلة* » ذلك الفرق الذى ينحصر فى أن « *طيب* » تعبر عن الصفة بعد أن سارت فردية وشخصت فى كائن ما هو *بير* ، وأن « *الطيبة* » عبارة عن الصفة نفسها تصورت تصوراً تجريبياً . ومع ذلك فإني عندما أقول « *طيبة بير كثيرة* » فإني بإضافتي لكلمة *طيبة* قد حددت الفرد الذى يتصف بها وبصير معنى الجملة نفس المعنى فى قولنا « *بير طيب بكثرة* » . فالفرق بينهما ينحصر فى بنية الصورة الكلامية لا أكثر من ذلك .

لعلنا نفهم تعارض الاسم والصفة فهماً أدق إذا قارنا جملتين تستعمل فيهما كلمة واحدة بعينها فى وظيفتين مختلفتين^(١) . فلنأخذ مثلاً « *الجرمى الألمان* » و « *الألمان الجرمى* » أو « *علماء صم* » و « *صم علماء* » . فليس من شك فى أن الكلمات الأولى من هذه العبارات هى أسماء والكلمات التالية صفات . ذلك أننى إذا اعتبرت مجموع *الجرمى* فإنى أميز من بينهم طوائف من جنسيات مختلفة فأقول *الجرمى الألمان* ، *الجرمى الفرنسيين* ، *الجرمى الروس* . . . الخ . وإذا نظرت إلى مجموع الجنود الألمان ، فإنى أميز من بينهم طوائف من المونى وطوائف من *الجرمى* وطوائف من المختفين وطوائف من السالين الخ ، فأقول *الألمان الجرمى* ،

الألمان الموتى ، الألمان السالمون الخ ، وكثيراً ما يقال في التعبير عن هذا الفرق بأن الصفة أشمل مضموناً من الاسم . وهذا حق ولكن على شرط أن تضاف إليه العبارة التالية : في نظر المتكلم . إذ لا يعنينا في الحقيقة أن نعرف ما إذا كان عدد العلماء أكثر من عدد الصم أو أن عدد الصم أكثر من عدد العلماء ؛ إذا كان عدد الجرحى أكثر من عدد الألمان أو عدد الألمان أكثر من عدد الجرحى ، بل ما إذا كان المتكلم ينظر إلى فصيلة العلماء أم إلى فصيلة الصم ، إلى مجموع الجرحى (في مستشفى مثلاً) أم إلى مجموع الألمان (في كتيبة مثلاً) .

هذا الفرق في الشمول قد يوجد أيضاً بين اسمين : فيقال من باب المعارضة : « الطفل الملك » أو « الملك الطفل » ؛ فالكلمة الثانية في كل عبارة تقوم بدور الصفة بالنسبة للأولى . إذ أن المتكلم ينظر في الحالة الأولى إلى فصيلة الأطفال أولاً وقبل كل شيء وفي الثانية إلى فصيلة الملوك . فهما وجهتا نظر مختلفتان .

تستطيع الصفة بدورها أن تصير اسماً . وهذا يحدث كلما أضيف الوصيف العام الذي يعبر عنه بالصفة إلى فرد خاص ، أى كلما صارت الصفة — وهى شائعة بطبيعتها — معرفة . وهذا الفرق على درجة من الأهمية جعلت معظم اللغات تدل عليه صرفياً . ففي السنسكريتية وفي الإغريقية القديمة يُكتفى بالنبر للدلالة عليه : λευκός « أبيض » وهى من λεῖκος « سمكة بيضاء » . ويدل على التعريف عادة باللاحقة خاصة تضاف إلى الصفة . ففي الإغريقية واللاتينية هى اللاحقة الأنفية . فكلمة στράβος معناها « أحول » ولكن στράβων معناها « من عنده حول ، الأحول » ؛ و catus معناها « ماهر » ولكن cato (في حالة الإضافة catonis) معناها « الماهر » و rufus « أصهب » ، ولكن rufo (في حالة الإضافة rufonis) معناها « الأصهب » ؛ ومن ثم جاء استعمال هذه الصفات المرفقة في أسماء الأعلام . وفي الفرنسية يدل على التعريف بواسطة الأداة . فقارن : Vous êtes impertinent « أنت وقح » بجملة Vous êtes un impertinent (نفس العبارة مع استعمال أداة المفرد المنكر مع الصفة) أو بعبارة l'impertinent « الوقح ! » . فعندما تلحق الأداة

بالصفة لا يكون المعنى فقط أن هذا الشخص موصوف بالواقحة ولكن سر هذه الصفة تتركز فيه ، وهى التى تصنفه وتعيّنه . وذلك هو السبب فى أن أسماء الأعلام التى أصلها صفات تستعمل بالتعريف . والناديات من هذا القبيل أيضاً ؛ إذ ليس الذى يميننا عندما ننادى أحداً أن نشير إلى أنه يملك هذه الصفة أو تلك بل أن نمينه فردياً بواسطة الصفة التى يمتلكها . وللصفة فى الجرمانية كما فى السلافية نوعان من التصريف وفقاً لما إذا كانت منكراً أو معرفة ؛ والصورة المعرفة هى التى تكون عليها الصفة ، والقوطية مثلاً فى حالة النادى مثل : *atta weiha* « أيها الأب المقدس » ، *brothrjus meinai liubans* ، « يا إخوانى الأعزاء » . أما الفرنسية فتدل على التعريف بواسطة الأداة كما رأينا فى الأمثلة السابقة وكما نرى فى تعريف : *un monsieur impertinent* « سيد وقح » إذ يقال *monseieur l'impertinent* « سيد الوقح » ولذلك يقال فيها أيضاً : *hé le gros* « هيه » السمين ! (يعنى أيها الضخم) أو *le poilu* أيها المشعر ! (يقال عادة للجندى) *l'enflé* « المتورم » ! (أيها المتورم) . ومن ثم جاء استعمال الأداة فى أسماء الأعلام من مثل : *Lebeau* « الجليل » *Legrand* « الكبير » و *Leroux* « الأصهب » .

ولما كانت الأداة فى الفرنسية تعبر عن التعريف ، فإن فى استطاعتها أن تعطى القيمة الاسمية لأية عبارة لغوية ، فيقال : *un pourquoi* « لماذا واحدة » *des si* « بضعة إذا » و *des mais* « بضعة لكن » . بل قد يمكن الجملة أن تصير اسماً . إذ أنه لو أعطيت صفة العمومية إلى الجملة الفعلية وتُصورت تصوراً مجرداً ، لأصبحت رمزاً اسماً . فالطفل الذى يحضر قيام قطار يسمع القاطرة تصفر ويرى العربات تتحرك ؛ فيلخص ما انطبع فى ذهنه بقوله « وُو وُو ينطلق » ، جامعاً بين هذا الانطباع المزدوج وبين التحرك . وتلك جملة فعلية . ولكن الطفل يعمم ويطلق على القطار اسم « وُو — وُو ينطلق » ؛ فالقطار عنده شىء ينطلق محدثاً وُو وُو . وقد يقول بعد ذلك « وُو — وُو ينطلق غادر مكانه » ، أو « وُو — وُو ينطلق كان مزدحماً أو طويلاً أو محملاً بالبضائع » الخ . فيمكن عمل اسم من الجملة الفعلية

بوضع الأداة أمامها . وهذا أصل لكثير من الكلمات الفرنسية : un m'as - tu vu? « هل رأيته واحدة » و : le qu' en dira - t- on « ماذا يقول الناس عن ذلك » و : au décrochz - moi ça « إلى [آل] اخلع لي هذا » . و le Marie couche - toi là « آل مريم اضجعي هنالك » .^(١) ، واللغات المعربة تضع كلمات من هذا القبيل بواسطة علامة من العلامات . فـ أليان Ulpian خطيب تير ، كان يلقب بـ « Keitouchēitos » بسبب العبارة التي كان لا يفتأ يرددها « χεῖται ἢ οὐ χεῖται » أي وجد ذلك أم لا ؟ ، وعدد كبير من الأسماء المركبة في السنسكريتية تتكون من جل مختلة فترى Ahampūrvas (ومعناها حرفياً « أنا الأول ») ترد في رجفيدا Rig-Veda (١ و ١٨١ و ٣) وصفا لعربة (يريد أن تحمله إلى السباق) . ومما كان يقع في التردد أحياناً الأطراف الأولى من الكلمات الإغريقية التي من قبيل ἐλχεσίπεπλος « جرّ الثوب (بمعنى ذيل الثوب) » و κἀνυσίπτερος « ينشر - الجناحين » أو δαχέθυμος « يأكل - القلب ؟ » أي أفعال أم أسماء^(٢) . والواقع أنه لا يوجد مجال للتردد : فهي أفعال يلازب كما هي الحال في الكلمات الفرنسية : prie-Dieu « يدعو الله » (اسم لقعد يجلس عليه المصل أحياناً) traine-misère « يجر البؤس » (اسم للشخص الفارق في البؤس) meurt-de-faim « يموت - من - الجوع » (اسم يطلق على المترب) و vide-gousset « يفرغ - الجيب (لص) » الخ . وعندنا في لغة الأطفال نوع من العطر يسمى sent-bon « يطيب رائحة » ولكن كل واحد من هذه المركبات في مجموعه اسم لاشك فيه .

هكذا يبرز أمامنا تصنيف للأسماء تدخل فيه جميع الأسماء والصفات (بما في ذلك بظبيعة الحال الصيغ التي تستعمل أحوالاً adverbial) . فنحن

(١) في مثل هذه التراكيب في اللغة الهندو أوروبية انظر Szimonet : رقم ٢١١ ، ص ٢٤٤ ،

(٢) استوف : رقم ١٨٧ ؛ ف : مونييه : les composés syntactiques ،

باريس عام ١٨٧٢ ،

من جهة أسماء الأحداث وأسماء الفاعلين (والمفعولين) التي تحددها الجملة الفعلية والتي تشتق منها أسماء الآلة وأسماء الأشياء . ومن جهة أخرى عندنا في وضع مواز لهذه الأسماء المتقدمة أسماء الصفة مجردة كانت أو مشخصة (أسماء وصفات) كما تحددها الجملة الاسمية ، وهي أيضاً تمدنا بعدد كبير من أسماء الأشياء . كذلك قد أشرنا إلى وسيلة لتصنيف الأفعال أيضاً وفقاً لصفة الفعل المدلول عليها بالصفة (إشارية أو أمرية أو تسمية [استقبالية أو شرطية]) . والأسماء والصفات تمثل عناصر اللغة الحية وذلك في مقابلة الأدوات النحوية (من حروف جر وحروف وصل وأدوات وضائر) . فنرى أنه لا يستحيل تصنيف الكلمات تصنيفاً عاماً يقوم على خطتها ويررها النطق ولا يناقضها نحو اللغات الهامة . فأنواع الكلمة المختلفة التي تكلمنا عنها تتميز غالباً في كل لغة بدوال نسبة خاصة .

ولكن هذا التصنيف النطقي ليس التصنيف الوحيد الذي تسمح به كلمات لغة من اللغات . فيمكننا أيضاً أن تصور تصنيفاً سيكولوجياً لا يقوم فقط على طبيعة الدلالات المشتمة عليها الكلمات بل أيضاً على مقدار الأهمية التي يملقها العقل على هذه الدلالات^(١) . والجانب السيكولوجي يعادل في غالب الأحيان الجانب النطقي ، وبانطباقهما على هذا النحو يوضح كل منهما الآخر . ولكن الأول أكثر تنوعاً من الثاني في بعض الأحيان ويشتمل على فئات لا يعنى بها النطق . هذا إلى أنه يمتاز بقبوله للاثبات التجريبي . إذ الواقع أن علماء النفس بدراساتهم لظواهر الذاكرة يستطيعون أن يقيسوا كيفية « ارتباط » الكلمات بالخي . ويمكن أن يستخلص من نتائج هذه الدراسة تصنيف للكلمات على حسب السرعة التي بها تمحى الألفاظ من الذاكرة .

توجد وسيلة يسيرة لمعرفة الأهمية النسبية لعناصر جملة من الجمل . وذلك أن نقرأ هذه الجملة على عدة أشخاص مختلفين وأن نطلب إليهم أي الكلمات قرعت أذهانهم أكثر من غيرها وقبل غيرها . فنجد الأجوبة على العموم واحدة لا تتغير :

(١) أنظر فان جنيكن : رقم ٧٧ ، ص ٦٢ وما يليها ، مع ما يذكره اقتباساً عن بييه

وذلك أن الكلمات الحقيقية تفرع الذهن أكثر من دوال النسبة ، والأسماء أكثر من الأفعال ، والأسماء الشخصية أكثر من الأسماء المجردة . فالكلمات التي تفرع الذهن أكثر من غيرها هي التي توقظ على الفور صورة بصرية ولا سيما أسماء الأعلام التي تطلق على أشخاص أو أماكن (على شرط أن يكون السامع عارفاً لها) . قل لإنسان مثلاً : « أنا ذاهب إلى فلان » أو « لم أستطع أن أذهب إلى فلان » أو « ربما ذهبت إلى فلان » ؛ فأول صورة تمثل أمام الذهن وبشكل طبيعي في هذه الأحوال الثلاث ، هي صورة تلك المدينة الصغيرة في عشاها السندسى ، تتدرج سقوفها الشهباء على سفوح التل ؛ ويرى عقود الجسر الحجري تخلق على السين ، وعلى ضفتيه يرى ستاراً من أشجار الحور العالية أو يلحج النارة الشاهقة التي تسيطر على المدينة أو ذلك المنزل الذي يألفه في أحد أحيائها المتيقة . والرؤيا هنا فورية تلقائية . وبعد ذلك كله تمثل في الذهن فكرة الرحلة والتفكير فيها إذا كانت تم أو لا تم . فالنق ككل ما يدل على النسبة مجرد من كل قيمة شعرية .

هذه الحقيقة لها نتائجها عند استعمال اللغة استعمالاً جمالياً . ومن الكتاب من لم يتنبهوا لها فوقموا في أخطاء حقيقية فيما يختص بموسيقى الكلام . إذ لا يمكن لجمل القاريء بحسب أثر عكسي لانطباع ما ، أن نلصق النقي بالكلمات التي نتبر عن هذا الانطباع . لأننا بذلك لا نقضى على الانطباع الذي نريد تجنبه ، بل نثير الصورة التي نظن أننا قد أبعدها . أراد أحد شعرائنا المماصرين أن يصف حديقة ثقلمها وطأة الشمس في ظهيرة يوم قائف من أيام الصيف فقال :

D'entre les rameaux que meut nul essor
d'ailes et que pas une brise ne balance,
dardent de grands rayons comme des glaives d'or ,

« من بين الفصون التي لا تحرك خفقة واحدة من جناح ،

« ولا تميل بها نفحة واحدة من رياح » .

« تنبت أشعة كبيرة كأنها سهام من ذهب » .

فهذه الأبيات جذيرة بأن تعطينا صورة صادقة لخفقان أجنحة الطائر

أو لسريان النسيم ، وليس في مقدور النقي الذي يستعمله الشاعر أن يقصى هذه الصورة من ذهن القارىء .

وكان دى هيرديا de Hérédia أكثر توفيقاً حين قال في بيت واحد :

Tout dort sous les grands bois accablés de soleil .

« كل شيء نائم في هذه الغابات الشاسعة التي نابت تحت الشمس . »

والدالة النحوية شيء آخر غير تلك التي يصح أن نسميها دالة التعبير .

يمكننا أن نتصور دون عناء إقامة نوع من الترتيب التدريجي للكلمات وفقاً لقيمتها الشعرية ، يكون طرفه الأول اسم العلم الذي يستحضر في ذهن شخصاً أو مكاناً وطرفه الثاني دال النسبة الذي هو أداة نحوية بسيطة كحرف الجر أو أداة التعريف أو النقي . وبينهما يوجد كل هذا البعد الذي يفصل بين الشخص والتجريدي ، وهذه المسافة تتضمن جميع المفردات . ونحن نعلم أن اختفاء الكلمات من الذاكرة يحدث في أثناء الانتقال من الشخص إلى المجرد وكانت . ريبو Th. Ribot قد رتب اختفاء الكلمات من الذاكرة على هذا النحو : أو لا أسماء الأعلام ، ثم الأسماء المشتركة ، ثم الصفات ، ثم الأفعال . ولعل هذا الترتيب يحتاج إلى تعديل ، لأن من خطئه أنه يقوم على التصنيف النحوي المتأد . فبعض الأسماء المشتركة ، بل وبعض الصفات ، تبلغ درجة من التشخيص تساوي درجة أسماء الأعلام . والقيمة التجريدية أو التشخيصية للأسماء يمكن أن تختلف باختلاف الأفراد ، وتختلف كذلك باختلاف اللغات . فالفعل في اللغات القديمة بل وفي الفرنسية بصورتها الحاضرة يمثل دائماً محلاً بدوال النسبة التي تسلكه ، إن قليلاً وإن كثيراً ، في فصيلة الكلمات المجردة . ومع ذلك فن الأفعال ما يرسم صورة على نحو ما تفعله الأسماء تماماً ، وإن كان منها ما يخلو من كل قيمة مرئية . مما لا جدال فيه أن أسماء الأعلام بوجه عام هي أول ما ننساها ؛ وننقد الأسماء الشخصية (التي ليست في الغالب إلا أسماء أعلام) بأسرع مما ننقد الأسماء التجريدية أو الصفات . والمصدر في الأفعال يبقى حياً بعد موت الفعل الإخباري . أما أكثر العناصر ثبوتاً في ذهنه فهي الأدوات النحوية . وبالاختصار نرى

التجريدى أكثر بقاء من الشخص . ولعله يمكن تفسير ذلك بأن التجريدى ينفذ إلى المخ بعد مجهود عقلى ويتطلب من الذهن تركزاً ، أما الشخص فليس إلا انعكاس الأشياء فى مرآة الشعور . وهكذا نرانا نسي الكلمات الشخصية بأسرع من غيرها ، مع أن الكلمات الشخصية فى جملة من الجمل توظف صوراً أسرع مبادرة إلى ذهننا مما تفعل الكلمات المجردة . ولعل دقة تحدد الصورة يحمل الإنسان على ألا يتعلق بالاسم الذى يعبر عنها إلا قليلا .

توزيع أقسام الكلم الذى قد يقام على هذه القاعدة يختلف اختلافاً كلياً عن التوزيع المتاد . إذ فيه تجمع الأفعال والصفات والأسماء بل وحروف الجر والظروف معاً وفقاً لنهج جديد . فيجب أن نعتبر كلمة *plein* « ملء » حرف جر فى مثل : *plein la rue* « ملء الشارع » و *plein les cheveux* « ملء الشعر » ؛ ولكن حرف الجر هذا أقل تجريدية من *à* (« إلى أوب ») فى مثل : *à la rue* (*aller*) « (الذهاب) إلى الشارع » أو (*prendre*) *aux cheveux* « (الإمساك) بالشعر » . ويظهر أننا حتى الآن لم نتجعه جدياً إلى فكرة التصنيف على هذا النحو : فنكتفى هنا بالإشارة إلى إمكانها ووجاهتها . لأن فى الوقوف عندها أكثر مما فعلنا اعتداء على ميدان المفردات الذى خصص له جزء على حدته من هذا الكتاب ، وكذلك على ميدان اللغة الانفعالية التى أفردنا له الفصل التالى .



الفصل الرابع

اللغة الانفعالية

لم ندخل في اعتبارنا حتى الآن إلا الصورة التي تصاغ فيها الأفكار صياغة منطقية ، أعني أننا لم ندرس اللغة إلا بوصفها أداة عقلية . ولكن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكاراً لحسب ، بل يتكلم أيضاً ليؤثر في أمثاله وليمبر عن حساسيته . أى أننا إذا اتخذنا قاعدة ما كان يدرس لنا في المدرسة من التفريق الثلاث النواحي بين الذكاء والإرادة والحساسية ، أمكننا أيضاً أن نفرق بين اللغة المنطقية واللغة الفاعلة واللغة الانفعالية .

فاللغة الفاعلة لم تدرس أو لم تكّد تدرس حتى الآن . ومع ذلك فلها أهميتها التي تظهر لنا بجلاء حينما نحاول أن نتصور اللغة الإنسانية في مهدها (أنظر ماتقدم في ص ٣٩) . هذا إلى أنها في مجرى التاريخ تسير على قوانين خاصة بها : فيديانها من الوجهة النحوية هو ميدان الأمر في الفعل وميدان النادى في الإسم ، وكل منهما له في فصيلته صيغ واستعمالات خاصة . وإذا كنا فيما سبق قد جمعنا في صعيد واحد فعلاً مثل : tais-toi « اسكُت » ! واسماً مثل : Silence ! « سكُون ! » وادماً فعل مثل : chut « صه ! » فإن هذا الخلط لم يأت لنا إلا لأن الأمر فيها جميعاً يتعلق باللغة الفاعلة التي عندها زول الحدود بين الفعل والاسم . واللغة الفاعلة مع كونها تستمد غذاءها في أحيان كثيرة من اللغة المنطقية التي تستعير منها بعض العبارات النحوية الجامدة في صورتها ، تستحق رغم ذلك أن تميز عنها ؛ لأنها تقوم بدور قد قصر عليها وحدها وتلك آلات خاصة بها . ولكن لم يشرع في دراستها حتى الآن .

أما اللغة الانفعالية فإنها ستشغلنا أكثر من هذا . فإنها أصبحت ، وخاصة منذ بداية هذا القرن ، موضوع بحوث عميقة حددت معالم ميدانها وأوضحت طرائقها^(١) .

ومنذ زمن غير قصير كان ج . فن در جبلنتس G.von der Gabelentz يقول : « الإنسان لا يستخدم اللغة فحسب للتعبير عن شيء ، بل للتعبير عن نفسه أيضاً » . ومن ثم لا ينبغي أن ندخل في اعتبارنا فقط الصورة التي تصاغ عليها الأفكار ، بل أيضاً العلاقات التي توجد بين هذه الأفكار وبين حساسية التكلم . وبعبارة أخرى يجب أن نميز في كل لغة بين ما يعيدنا به تحليل التصورات وبين ما يضيف إليه التكلم من عنده : بين المنصر النطقي والمنصر الانفعالي^(٢) .

ولا ينفك كلا المنصرين عن الاختلاط في كل لغة . وإذا استثنينا اللغات الاصطلاحية ، واللغة العلمية منها بوجه خاص — تلك التي تمتد خارج الحياة بطبعمها — أمكننا أن نقول بأن التعبير عن أية فكرة لا يتخلو مطلقاً من لون عاطفي . والسلم الانفعالي نفسه لا يحوى نفمة واحدة تخلو من العاطفة ؛ إذ ليس هناك إلا عواطف يختلف بعضها عن بعض .

فن النادر جداً — عندما تتسابق في ذهننا ، ونحن في صدد التعبير عن فكرة ما ، عدة عبارات مختلفة — أن تكون إحدى هذه العبارات عقلية محضة وأن تعبر عن استدلال منطقي بحت أو أن تصور حقيقة أو حادثاً ما في بساطته العارية من كل لباس . أرى حادثاً يقع أمامي فأصيح راثياً لحال صاحبه : « آه ! المسكين ! » وأصادف صديقاً لم أكن أتوقع لقاءه فأقول له : « أنت ! هنا ! » .

(١) راجع خاصة مؤلفات الأستاذين بلي Belly وسيشيه Sechehaye التي أوجت إلينا بهذا الفصل إلى حد كبير . شارل بلي : (الدراسة المنهجية لوسائل التعبير) في مجلة « اللغات الحديثة » (Neuere Sprachen) مجلد ١٩ ؛ « علم الأسلوب وعلم اللغة العام » رقم ٢٥ ، مجلد ١٢٨ (١٩١٢) ، ص ٨٧ — ١٢٦ ؛ ورقم ٤٥ ورقم ٤٦ ؛ وسيشيه رقم ١٢٢ . وانظر كذلك فessler Vossler : رقم ٢١٨ . ونجد تطبيقاً عملياً لقواعد الأسلوب في مؤلفات الأستاذ لanson : « توجيهات في فن الكتابة وفن النثر » .

(٢) سيشيه : رقم ٩٨ ، ص ١٨٤ وما يليها .

فهذه الجمل ذات قيمة انفعالية واضحة كل الوضوح . فإذا صيغت في لغة النطق الجدلية صارت : « أرئى لهذا المسكين » أو « يدهشى أن أراك هنا . » تحيّل أنى استعملت في الواقع هاتين الصورتين من صور الجملة ، أفقتن أنهما أيضاً يخلوان من كل قيمة انفعالية ، قيمة تختلف بلا ريب عما في جلتي التعجب اللتين قبلتا في تلهف وإن كانت لا تقلّ عنها قرعاً للذهن ؟ بل قد يحس الإنسان فيهما إما رغبة في استخراج الغزى الأدبي من الحادثة وإما تقريباً للدهشة الناجمة من مقابلة صديق وإما كبتاً لحركة من الحساسية شديدة العنف تحاول أن تنطلق من عقالمها . ولكن محاولة التخلص من إظهار الماطفة في هذه الحال ليست إلا إظهاراً للماطفة .

لا تكاد توجد جملة ، مهما كان حظها من الابتذال ، لا تحاطها عناصر انفعالية . فإذا قلت : « بير يضرب پول » بدا على أنى أعبر بكل بساطة عن علاقة بين شخصين يجمع بينهما حدث الضرب . وهذا على الأقل كل ما يزودنى به التحليل النطقى المزعوم . ولكن الواقع أن مثل هذه الجملة لا يمكن مطلقاً أن تكون عبارة منطقية عن علاقة ما ؛ إذ أنى أضيف إليها دائماً أو ألقاها انفعالية . فضرب بير لبول لا يمكن أن يكون عديم الأثر بالنسبة إلى ، إذ لو لم يكن له مساس بنفسى لما قلته . إذن فالجملة التى أنطق بها ذات قيمة تختلف عن القيمة التى تكون لها لو كنت قد قرأتها فى كتاب من كتب التاريخ يدور فيه الكلام عن ملك ما اسمه بير وملك آخر اسمه پول لا يعينى من أمرها شئ . ذلك أن القصص التاريخى موضوعى دائماً . وهذا ما يحمل التلميذ الصغير ، الذى يحفظ دروسه فى التاريخ عن ظهر قلب ، يقبل دون تفرز على تعداد الفظائع التى ارتكبها بنو البشر فى تناحرهم بعضهم مع بعض ؛ فهى لا تحركه لأنه يراها تقع فى ماضٍ سحيق تباعده عنه سنون طوال ؛ وإذن فهو يتسلّى بها . وعلى العكس من ذلك لا نستطيع أن نقرأ دون قشعريرة تسري فى أجسامنا خبراً لجرمة عادية وقعت أمام منزلنا . فإنى فى المثال المتقدم أرانى لدى نطقى بالجملة أحسّ فى نفسى بمواطف مختلفة من الحنق أو العقاب أو التهديد أو النضب أو الرضا أو التشجيع أو القبول أو

الدهشة ، وذلك تبعاً لما إذا كان يبرر وبول ابني أو طفلين غريبين عنى وتبعاً لسنهما وقوتهما وتبعاً ليلولى واتجاهاتى وتبعاً لظروف أخرى كثيرة يمكن تصورهابسهولة. هذه العواطف يمكن بطبيعة الحال التعبير عنها بواسطة التنعيم أو تغير الصوت أو سرعة الحديث أو الشدة التى يركزها للتكلم على هذه الكلمة أو تلك أو بالإشارة التى تصحب الكلام^(١). فالجملّة الواحدة محتمل عند النطق مئات ومئات من وجوه الاختلاف التى تقابل أشد ألوان العاطفة خفاء . والفنان الدراى الذى يقوم بدوره فى المسرح عليه أن يجد لكل جملة التمييز اللائق بها والنفمة الحقّة التى تناسبها ، وذلك أوضح ما يلاحظ على مواهبه . فالجملّة التى يقرؤها فى صحيفة تمدّ ميمّة ؛ خالية من التعبير . ولكنه ينعشها بنطقه وينفث فيها الحياة . وإذن فمعرفة كلمات الجملة وتحليل عناصرها النحوية ليس معناه استخراج كل مكوناتها . بل يبقى بعد ذلك تقدير قيمتها الانفعالية .

إنه لواجب يفرض نفسه على العالم النفسى الذى يدرس طبيعة العواطف ؛ وبدرجة مساوية على الفنان الذى يسعى إلى إبرازها على المسرح ؛ وعلى العالم اللغوى ولكن بدرجة أقل . فهذه العواطف لا تعنى هذا الأخير إلا عندما يُعبر عنها بوسائل لغوية . ولكنها على العموم تظل خارج اللغة ؛ فهى بمثابة ضباب خفيف يطفو فوق عبارة الفكر دون أن يغير من صيغتها النحوية . نعم من الحق أن يقال إن جملة « يبرر بضرب بول » لا ينطق بها فى اللغة دون نوع من التنعيم يحدّد من لونها . ولكن الجسم الإنسانى أيضاً يشغل دائماً فى الواقع وضعاّ ما : فلا يمكن تصوره على خلاف ذلك . والوضع الذى يسمى وضع الراحة ليس إلا وضعاّ من الأوضاع ؛ فيجب على النحات أن يعرف الصورة التى تتخذها العضلات فى جميع الأوضاع ؛ ويترتب على ذلك أنه لا يمكن أن يوصف بالمبالاة مهما أنفق فى دراسة تشريح الجسم الإنسانى . ولكن الجراح الذى يشرح أجزاء الجسم يستطيع أن يستغنى عن أوضاع الحركة فى هذا الجسم . فليس فى كل الحركات التى يمكن تخيلها إلا جسم واحد يتحرك . كذلك يستطيع العالم اللغوى أن يسقط من حسابه

(١) أنظر بوردون Bourdon : رقم ٥٧ .

اختلافات التنعيم والإشارة التي تحتملها إحدى الجمل مهما كانت ، ما دامت لا تغير من بناء الجملة النحوى .

غير أن هناك حالات تختلط فيها العبارة الانفعالية بالعبارة النحوية إلى حد أن تغيرها ، بدلا من أن تبقى ملتصقة بها مجرد التصاق .

والانفعالية في اللغة تعبر عن نفسها على وجه العموم بصورتين : باختيار الكلمات وبالسكان الذى يخصص لها في الجملة يعنى أن معنى اللغة الانفعالية الأساسيين هما المفردات والتنظيم . أما المفردات فستدرس على حدها وسنرى الدور الرئيسى الذى تقوم بلمبه الانفعالية في تغيير معانى الكلمات . ولا يعنينا أن نذكر هنا إلا الحالات التى فيها جزء الكلمة الانفعالى يكون فى اللاحقة ، يعنى فى عنصر صرفى . وهذه حالة كثيرة الوجود . فإذا وجدت كلمة على درجة عالية من قوة التعبير واشتملت هذه الكلمة على لاحقة ما ، فالذى يحصل أن اللاحقة تتشرب هذه التعبيرية إلى حد أن تمتصها كلها ، لتصير عنصر الكلمة المعبر . فاللاحقة aille — « آى » فى الأصل لا توقظ أية فكرة : ولذا ظلت خالية من التعبير فى كلمة مثل Bataille (بَتَيَّ « موقعة ») . ولكن لما كانت قد وجدت فى كلمات التحقير مثل canaille (كَنَيَّ « طغام ») و marmaille (مَرَمَيَّ « عصابة أطفال ») ... الخ ، فقد أخذت هى نفسها هذه القيمة التحقيرية ، وليس منا من لا يحس معنى الاحتقار الذى ينبعث من Prétraillie (پَرِتْرَيَّ « قسس » عندما يقصد تحقيرهم) و radicaillie (رَادِيكَيَّ) « أصحاب الحزب الراديكالى » (عند إرادة التحقير) . وكذلك اللاحقتان ard — (آر) و asse — (آس) لهما هذه القيمة فى عدد من الكلمات غير قليل . ولواحق التصغير — لأنها توحى بفكرة الكلمة التى تلتصق بها فى صورة مختزلة — تنضم عادة إلى هذه القيمة عاطفة اللطف أو النفاسة أو عاطفة الحنان أو الانطاف أو الإشفاق . فكلمة maisonette « دَوْرَة » وكلمة jardinet « بَسِيتين » لا يعنينا فقط منزلا صغيراً أو بستاناً صغيراً ، بل إن اللاحقتين -ette ، -et- تقومان فيهما حقيقة بدور دوال

الماطفة . فالصرف يساعد هنا على التعبيرية فيفعل ما تفعله المفردات باستعمالها للصفة في مثل : « دارى الصغيرة أو بستانى الصغير المسكين » .

طريقة ترتيب الكلمات تمس النحو عن قرب أيضاً ^(١) . وتختلف اللغات اختلافا ملحوظا من جهة حريتها في ترتيب الكلمات . من هذه الوجهة يُفرق غالباً بين نوعين من اللغات : اللغات ذات الترتيب الحر واللغات ذات الترتيب الثابت . وهو تفريق لا تبرره الوقائع . فالحقيقة أنه لا توجد لغة واحدة تسير في ترتيب الكلمات على حرية مطلقة كما لا توجد لغة واحدة ترتيب الكلمات فيها جامد لا يتحرك . فالإغريقية القديمة كالهندية الأوروبية تعتبر من اللغات ذات الترتيب الحر . ومع ذلك فإذا أخذنا جملة لأفلاطون لم نستطع أن نُجمل الكلمات فيها تبعا لهوانا كما نجمل القديح في الجمعة . كذلك مهما كان ثبات ترتيب الكلمات في الفرنسية أو الألمانية ، في الصينية أو في التركية ، فإن هذه اللغات تسمح بشيء من المرونة ، ولا يحتم أن تصير غير مفهومة إذا غيرنا ترتيب الكلمات فيها . فالأمر في كلتا الحالين يتوقف على نوع التعبير الذى نجريه .

والحقيقة أنه توجد لغات يلعب فيها ترتيب الكلمات دوراً ملحوظاً ، والحرية في ترتيب الكلمات محدودة طبعا بقيمة النظام الصرفية (أنظر ص ١١١) . وهناك لغات أخرى لا يفرض فيها النحو أى نظام إجبارى ، ولا تتأثر العلاقة المنطقية التى بين كلمات الجملة فى شيء إذا غيرنا وضعها . تقول اللاتينية : *Petrus caedit Paulum* كما تقول العربية « يضرب زيد عمرا » أو *Petrus Paulum caedit* أو « يضرب عمرا زيد » أو *Petrus caedit Paulum* أو « عمرا يضرب زيد » دون أن يؤدى ذلك إلى تردد فى معرفة الفاعل والفعل والمفعول ؛ لأن التحليل المنطقي لا يرى فى ذلك أى اختلاف . ولكن هذه الأوضاع الثلاثة ليست على درجة واحدة من الجودة . والتكلم اللاتينى ما كان ليخطئ فى اختيار خيرها . فالواقع أن دراسة الجملة عند المجملين من كتاب اللاتين يرينا أن نظام الكلمات فيها يسير تبعا لقوانين صارمة وإن كان من العسير استخراجها من خضم

(١) أنظر هـ . فيل Weil . H . : رقم ١٢٨ بالرغم من تقدم عهده .

تنوعها المحير : فالسألة في كل حالة من الحالات مسألة حسّ أكثر منها مسألة مذهب نحوى . إذ أن هناك ترتيباً معتاداً مبتدلاً يطرق الذهن لأول وهلة ^(١) . وهذا الترتيب يمكن مخالفته ، ولكن مجرد المخالفة ينبيء عن غرض ما ، ذلك الفرض هو إبراز كلمة من الكلمات لتوجيه التفات السامع إليها . وتلك مسألة أسلوبية يمكن تتبعها إلى أقصى وقائدها ؛ ومن ثم كانت دراسة التنظيم كثيراً ما تجرّ على دراسة الأسلوب .

هذا النوع من الدراسة في غاية الدقة ؛ ويتطلب حسّاً لغوياً مدرباً ، ولطفاً عالياً في الدوق الأدبي ، يضاف إليها معرفة نادرة بالظروف الفيلولوجية للغة المدروسة . لذلك لم يمارس حتى الآن إلا في حيز ضيق . ففي ميدان الفيلولوجية الكلاسيكية — وهو من أغنى الميادين بالبحوث — لم يقبل الباحثون على عمل تحقيقات منهجية حول موضع الكلمات في الجملة إلا منذ عهد قريب . بل إن التهجّج الذي يناسب هذه الباحث لم يزل في بدء تحدده ^(٢) .

مما استقرت عليه الآراء في أيامنا هذه ، أنه ينبغي للنحوى الذى يريد دراسة التنظيم في لغة ما ألا يأخذ الجمل في مجموعها ليعرف النظام الذى يسير عليه في ترتيب الكلمات . بل عليه أولاً وقبل كل شيء أن يميز أنواع الجمل المختلفة ثم يعمّن في كل نوع منها بمض المجاميع التى تسير على نظام ثابت . لأن الاستعمال لا ينحصر في الواقع في ترتيب كلمات الجملة كلمة كلمة ، بل في تهيئة المكان للمجاميع من الكلمات . ففي الجملة الاسمية مثلاً يؤول الأمر إلى طرفين : المسند إليه *sujet* والمسند *prédicat* . والفعل ، إذا كان مصرحاً به (أنظر ص ١٦٦) ، ينتسب إلى المسند ؛ وموضع الفعل بالنسبة إلى المسند أمر ثانوى مستقل عن الأول . فالترتيب الطبيعي في اللاتينية هو *homo avarus est* « الإنسان بخيلاً يكون » أو *avarus est homo* « بخيلاً يكون الإنسان » بما لا إذا كان يراد إبراز فكرة الإنسان أو فكرة البخل ؛

(١) ل. هافيه ، *Mélanges Nicole : L. Havet* ، ص ٢٢٥ — ٢٣٢ .

(٢) أنظر خاصة ماروزو : رقم ٩١ و ١١ (١٩٠٦) ص ٢٠٩ وما يليها ؛ وكيركس *Kieckers* : « موضع الفعل في الإغريقية وفي اللغات القريبة منها » . سترسبورج (١٩١١) ورقم ٣٠ ، مجلد ٣٠ ، ص ١٤٥ ومجلد ٣٢ ص ٧ .

والفرق على كل حال غير محسوس في غالب الأحوال : فالأمر يدور حول التعريف المجرد لبخل الإنسان لا أكثر ولا أقل . هذان الترتيبان يمثلان الطابع المتعاد للجملة الاسمية ، ولا يحاد عنه إلا لأسباب قوية . فالتغيير الكافى التالى : homo est avarus « الإنسان يكون بخيلاً » يغير من قيمة الرابط ، إذ تصير الجملة اسمية فعلية من نوع الجملة الفرنسية il se trouve bein (يعنى يجد نفسه) حسناً « il paraît grand » إنه يبدو كبيراً « فالرابط هنا يأخذ قيمة أقل تفاهة من قيمته في الجملة الاسمية دون أن يصل إلى حد الاستقلال . ويمكننا أن نترجم الجملة السابقة على هذا النحو : il l'est avare : « إنه يكون بخيلاً » أو il lui arrive d'être avare « يقع له أن يكون بخيلاً » أو il se trouve être avare . « وجد نفسه يكون بخيلاً » ... الخ . فالفصل بين جزأى السند يبرز البخل على هذا النحو : avarus homo est « بخيلاً الإنسان يكون » أو « بخيلاً وجد الإنسان » أو إنه الذى يكون عيب الإنسان ، الخ . وقصارى القول أن ترتيب الكلمات في الجملة الاسمية المشتملة على فعل الكون تبين على الترتيب أهمية السند إليه أو السند وقيمتى فعل الكون : كونه مجرد رباط أو فعلاً معبراً عن الوجود .

المجموعات الرئيسية في الجملة الفعلية هو السند إليه والفعل والمفاعيل (مباشرة أو غير مباشرة) ، وكل مجموعة منها تشتمل على كلمة واحدة أو على عدة كلمات حسبما يكون السند إليه مثلاً مصحوباً بصفات أو بمخصصات أخرى وحسبما يكون الفعل مقيداً بظروف عديدة أو غير عديدة . فأول ما يعيننا أن نعرف ما إذا كان الفاعل يسبق الفعل أو ما إذا كان الفعل يسبق الفاعل ثم بعد ذلك كيف تقسم المفاعيل في الترتيب الذى يقرر . وعندئذ نرى بعد أن نستثنى الحالات التى يكون فيها لترتيب الكلمات قيمة صرفية (أنظر صفحة ١١١) . إن مكان السند إليه ومكان الفعل يتوقف في كل لغة على قلب بعض أنواع من الجملة تنتهى بأن تفرض نفسها على الاستعمال . ويتضح أن ترتيب الكلمات حتى في لغات كالإغريقية أو اللاتينية أكثر ثباتاً مما يظن لأول وهلة . وهكذا قد سلم الباحثون بأن بعض العبارات في الإغريقية تتبع ترتيباً

لا يتغير . وكانت العادة في التوقيع على الأعمال الفنية أو في إهداء القرايين أن يوضع الفعل في وسط الجملة محوطاً بالسند إليه وتوابه . ففي هذه الأحوال لا يوضع الفعل في نهاية الجملة إلا نادراً . وليس من شك في أنه يمكننا بمتابعة البحث أن نصل إلى معرفة الترتيب المعتاد في عدد كبير من أنواع الجمل في الإغريقية القديمة ؛ وذلك لا يمنع من وجود ترتيبات عرضية تترك لتقدير الكاتب .

أما في اللغات التي تسير على نظام ثابت في ترتيب الكلمات ، دون أن يكون لذلك النظام قيمة صرفية ، فإنه يمكننا بوجه عام أن نكشف عن البواعث التي أدت إلى هذا الثبات بواسطة الامتحان الدقيق لظروف اللغة نفسها . وفي العادة ، لا بد أن يكون قد لزم لها وقت طويل حتى استقرت نهائياً على نظام معين . فالنظام الذي تسير عليه اللغة الكلتية تشهد به أقدم النصوص الإيرلندية^(١) ، وهو الفعل : يوجد في صدر الجملة لا تتقدمه إلا السوابق الفعلية التي تستعملها الكلتية بكثرة ؛ بعد ذلك يجرى السند إليه ثم المفاعيل . ويظهر أن وضع الفعل أمام السند إليه على هذا النحو يرجع من جهة إلى أن الكلتية تفهم دائماً ضمائر النصب التي تكثر كذلك من استعمالهايين سابقة الفعل والفاعل ، ومن جهة أخرى إلى أن العادة في الهندية الأوربية كانت قد جرت على وضع الضمائر الإلصاقية في المكان الثاني من الجملة (بعد أول كلمة منبورة) وذلك بطبع بطابع ثابت لا يتغير بداية الجمل التي تشتمل على لاصقة فعلية وفعل وضمير نصب وهي أكثر الجمل عدداً ؛ فهي إذن مقضى عليها أن تبدأ بالسابقة الفعلية فضمير النصب فالفعل ؛ أما السند إليه فلا يأتي إلا لاحقاً لها . وما خلق هذا النظام المعتاد في ترتيب الكلمات في الجملة إلا الإبقاء على تقليد عتيق . ولكن يجب أن ننبه إلى أن هذا الترتيب تصييه بمض القيود عند الاستعمال وأنه قد خرج عن صرامته بمض الزمن .

يختلف الأمر في الجرمانية بمض الاختلاف . فالألمانية تستعمل ترتيبين متساويين في الصرامة كلاهما ، وفقاً لطبيعة الجملة . فالفعل في الجملة الرئيسية يشغل المحل الثاني دائماً . أما السند إليه والفعل (أو الخبر) فيمكن

(١) قندريس : رقم ٦ ، مجلد ١٧ ، ص ٢٢٧ .

وضمهما قبله أو بعده وفقاً لرغبة التكلم . وفي الجملة التابعة يقذف بالفعل دائماً إلى آخر الجملة ، بعد الفاعل والمفاعيل . فيقال إذن في الجملة الأصلية :
im Walde lebt der Wolf « الذئب يعيش في الغابة » أو der wolf « في الغابة يعيش الذئب » der könig ist blind « الملك يكون أعمى » blind ist der König « أعمى يكون الملك » . ولكن يقال في الجملة التابعة: (man weiss dass) der Wolf im Walde lebt , der König blind ist « (يعرف أن) الذئب في الغابة يعيش » ، الملك أعمى يكون » .
وقد تم ثبات هذين الترتيبين شيئاً فشيئاً في غضون التاريخ . إذ يرى التمارض بين النظام المتعاد والنظم العرضية أكثر تعقيداً تبعاً للأنواع المختلفة للجملة ؛ فقد حصل تبسيط في ظروف لا يحسن معرفتها^(١) . ولكن إذا كانت الألمانية قد عينت للفعل مكاناً ما ، فإنها قد احتفظت لنفسها بحرية التصرف كاملة بالنسبة للكلمات الأخرى ، وكل نظام من النظامين له فيها قيمته الخاصة . وفيها إلى جانب النظام المتعاد الذي يبادر بطبيعة الحال إلى ذهن كل إنسان ، إمكانيات لنظم متنوعة يختار التكلم من بينها وفقاً لإلهامه .

ينحصر الفرق الأساسي بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية في تكوين الجملة . وهذا الفرق ينبثق جلياً عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة . فاللغة المكتوبة واللغة المتكلمة تبتعدان في الفرنسية إحداها عن الأخرى إلى حد أنه لا يتكلم إطلاقاً كما يكتب ولا يكتب كما يتكلم إلا نادراً . وفي كل حالة يوجد اختلاف في ترتيب الكلمات إلى جانب الاختلاف في المفردات . وذلك لأن الترتيب المنطقي الذي تسلك فيه الكلمات في الجملة المكتوبة ينقسم دائماً في الجملة المتكلمة ، إن قليلاً وإن كثيراً . فن اللغة المكتوبة مثل هذه الجملة : « يجب المجيء سريعاً » و « أما أنا فلا وقت عندي للتفكير في هذه المسألة » و « هذه الأم تكره طفلها » ؛

ولكنها في اللغة التكلمة تتخذ صيغة مختلفة كل الاختلاف تسعة أعشار الوقت ،
فيقال مثلاً : « تمال بالمجل ! » ... و « الوقت ، إيه دا يا أخى ! هو أنا عندي
وقت ، أنا علشان أفكر في المسألة دي ! » و « ابنها ! دهى بتكرهه ،
الأم دي ! »^(١).

ماذا يمكن أن يقال في جل اللغة المكتوبة ، تلك الجمل المنسقة بما فيها
من جل تابعة وحروف وصل وأسماء موصولة وكل ما تحتوى عليه من أدوات
وأقسام ! إننا لا نقول إطلاقاً في اللغة التكلمة : « بعد أن نخرق الغابة ونصل
إلى بيت الحارس الذى تعرفه ، يجداره الذى تكسوه أغصان اللبلاب سندور إلى
اليسار ونسير حتى نجد مكاناً مناسباً فتتدى فيه فوق الأعشاب » . بل يقال :
« نحن نخرق الغابة ؟ وبعددين نمشى لحد البيت ، إنت عارفه ، نيت الحارس ،
إنت واخد بالك منه كويس ، البيت ده اللى جداره فارش عليه اللبلاب ، وبعددين
نحود عشمال ، ونشوف مكان لطيف . وبعددين نتندى هناك علحشيش . »
فالناصر التي تسمى اللغة المكتوبة في أن تسلكها في كل متماسك تبدو في اللغة
التكلمة منفصلة منفصلة مقطعة الأوصال : بل إن الترتيب نفسه يختلف فيها عنه
في الأولى كل الاختلاف . إذ ليس هنا ذلك الترتيب المنطقي الذى يعلية النحو
الجارى ، بل ترتيب له منطقته أيضاً ولكنه منطق انفعالي قبل كل شئ ، فيه ترص
الأفكار لا وفقاً للقواعد الموضوعية التي يفرضها التفكير المتصل بل وفقاً للأهمية
الذاتية التي يخلعها عليها المتكلم أو التي يريد أن يوحى بها إلى سامعه .

فكرة الجملة بالمعنى النحوى تتلاشى في لغة الكلام . فإني عندما أقول : « الرجل
الذى تراه هنالك جالساً على الرمال هو ذلك الذى قابلته بالأمس عند المحطة » . أراي
أستخدم طرائق اللغة المكتوبة فلا أصوغ غير جملة واحدة ، ولكنني لو تكلمت
قلت : « شايف كويس الراجل ده — عندك هناك — قاعد قدامك على الرمل —
أهو ده — أنا شفته امبارح — كان ع المحطة » . فكيف يوجد من الجمل هنا ؟ من المسير
أن نجيب عن هذا السؤال : فلو أنى وقفت قليلاً على كل موضع علم بشرطة كانت

(١) الجمل الفرنسية القابلة لهذه الأمثلة مستعارة من شارل بل .

الكلمات « عندك هناك » وحدها تكون جملة تماماً كما لو كنت أجيب على سؤال يقول : « أين هذا الرجل ؟ » . « عندك هناك » وجملة « قاعد قدامك ع الرمل » نفسها نصير مجموعة تتكوّن من جملتين لو أنى توقفت قليلاً بين الجزأين اللذين تتكوّن منهما : « قاعد قدامك » و « [هو] ع الرمل » أو [إنه] جالس أمامك [وذلك] ع الرمل » . فحدود الجمل النحوية هنا غير ثابتة حتى ليحسن أن نريخ أنفسنا من تعدادها . ولكن إذا راعينا اعتباراً آخر ، لم نجد عندنا إلا جملة واحدة . فالصورة الكلامية واحدة وإن كانت تحتل المّط والتوسع في الحركة إذا جاز لنا هذا التعبير . ولكن بينما تبرز هذه الصورة في اللغة المكتوبة كتلة واحدة ، راها في لغة الكلام تقطع أجزاء متتابعة تتناسب في العدد والشدة مع الانطباعات التي يحملها المتكلم نفسه أو مع الحاجات التي تحمله على التأثير على السامع .

بقدر ما تستخدم اللغة المكتوبة نظام التسمية ، تمارس لغة الكلام نظام الإصااق . فالتكلم لا يستعمل الروابط النحوية التي تحصر الفكرة وتطبع الجملة بطابع القضية المنطقية الضيق . ولغة الكلام مرنة خفيفة الحركة ؛ تدل على صلة الجمل بعضها ببعض بإشارات مختصرة بسيطة ؛ فالفرنسية نكتفي على وجه العموم لأداء هذه الوظيفة بحروف الوصل التي من قبيل et « و » و mais « لكن » ؛ ذلك أن اللغات تميل في الدلالة على التسمية إلى استعمال عبارة وحيدة تطبق على كل الحالات دون تفريق . وهكذا نرى أن الهندية الأوربية في خلال التاريخ تخلق لها أدوات وصل وأن نظام الوصل يتكون ويستكمل . إذ لا بد أن التنعيم في البداية كان يلعب دوره ؛ وكان يشار إلى الصلة بين جملتين بأن تعارض إحداها بالأخرى وذلك بواسطة نعمة الفعل أو بواسطة بعض الأدوات التي كانت تكرر في كل واحدة منهما ، وقد احتفظت بعض اللغات بمجاميع من الصيغ التي تختلف تبعاً لما إذا كانت الجملة أساسية أو تابعة . ولكنه اكتفى بوجه عام بإعطاء الأداة (اسم موصول أو حرف وصل) وظيفة ربط الجملة التابعة وبالتالي جملة الأداة الطابع المميز لهذه الجملة . وبكفيّا للتحقق من ذلك أن ننظر إلى النجاح التام الذي صادفه حرف الوصل الفرنسي que « أن » . وإن اللغة المكتوبة ، التي (١٣ - ٢)

تبحث عن الدقة وليسها من الفراغ ماتنفقه في التحضير والتروى ، تمقد مختارة طريقة التعبير عن صلة الجمل بعضها ببعض وفقاً لألوان الفكر المختلفة الدقيقة . ولكن لغة الكلام تميل إلى اتخاذ رمز واحد تاركه لذهن السامع أن يعرف بالحدس نوع الصلة التي يقصدها المتكلم . لذلك قد ترى الحرف الواحد يعنى في اللغة الواحدة « لأن » و « مع أن » و « لأجل أن » و « عندما » . فالشعب الفرنسي يتجنب في لغة الكلام الصيغ « whose » « الإنجليزية » و « auquel » اسم الموصول بمعنى الذى له « و « pour lequel » اسم الموصول بمعنى الذى من أجله « لأنه راحا ثقيلة مقلقة . ويقنع في الدلالة على الوصل بالموصول que مع الإشارة في جملة الصلة نفسها إلى نوع الصلة التي يريدتها . فبدلاً من أن يقول « l'homme » « dont je connais la fille » أو « le patron pour lequel je travaille » أو « le pauvre à qui je fais l'aumône » يفضل أن يقول « l'homme que je connais sa fille » « الرجل الذى أعرف ابنته » و « le patron que je travaille pour lui » « المالك الذى اشتغل له أو من أجله » و « le pauvre que je lui fais l'aumône » « المسكين الذى أقدم إليه الإحسان » . هذه التراكيب وهى راسخة القدم في الفرنسية المتكلمة اليوم — كانت مستعملة في اللغات الكلتية في العصور الوسطى^(١) وهى تبين جيداً استقلال لغة الكلام عن لغة الكتابة .

تتميز لغة الكلام بأنها تقتصر على الاهتمام بإبراز رؤوس الفكرة ؛ فهى وحدها التى تطفو وتسود الجملة ؛ أما الروابط المنطقية التى تربط الكلمات بعضها ببعض وأجزاء الجملة بعضها ببعض فإما ألا يُدَلَّ عليها إلا دلالة جزئية بالاستمئانة بالتنظيم والإشارة إذا اقتضى الحال ، وإما ألا يُدَلَّ عليها مطلقاً ويترك للذهن عناء استنتاجها . هذه اللغة المتكلمة تقترب من اللغة التلقائية ؛ ويُطلق هذا الاسم على اللغة التى تنفجر تلقائياً من النفس تحت تأثير انفعال شديد . ففي هذه الحالة يضع

(١) وتماثلها كذلك في الألمانية في الأقاليم المجاورة لإقليم بافـه lave ؛ أنظر بها جل Behaghel

التكلم الألفاظ الهامة في القمة إذ لا يتيسر له لا الوقت ولا الفراغ اللذان يجملاه
بطابق فكرته على تلك القواعد الصارمة ، قواعد اللغة التروية المنظمة ، وعلى هذا
النحو تتعارض اللغة الفجائية مع اللغة النحوية .

من المسائل التي تستحق النظر معرفة ما إذا كانت إحداها سابقة بالضرورة
على الأخرى ، وإذا ما كانت اللغة التلقائية تحتلظ باللغة الانفعالية . فإذا صاح
إنسان مشدوهاً من مقابلة غير منتظرة فقال : « أنت ، هنا ! » أمكننا أن نقرر
بشيء من التحل أن هذه العبارة تقوم على أساس عبارة نحوية هي : « أنت
(تكون) هنا ! » أو « يدهشني أنك هنا » . ولن يعدم النحويون على الأقل أن
يفسروها على هذا النحو محتجين باستمارة نحوية أو بحذف أو تقدير .

ولكن ينبغي لذلك أن نلجأ إلى لغة الطفل أولاً وقبل كل شيء . فالطفل
الذي يقول « بابا هنا » ليفهم أن أباه قد حضر أو أنه يوجد هنا ، إنما يعبر فقط
عن تقرير واقع . بعد ذلك عندما يأتيه التروى مع تلك الموهبة التي يحلل بها
إدراكاته ويعبر عنها في اللغة تعبيراً كاملاً ، يقول : « بابا (يكون) هنا » أو
« بابا وصل هنا » ؛ أي يمكن أن يستنتج من ذلك أنه يمكن الانتقال من لغة فجائية
غير نحوية إلى لغة نحوية منظمة دون نقطة ارتكاز انفعالية ؟ يخشى أن يكون في
ذلك نوع من المفارقة . لأن الطفل لم يبدأ بعد بأن يخلع على جملته الفجاءة « بابا
هنا » طابعاً انفعالياً . بل إن الصيحات الأولى التي صدرت عنه كانت للتعبير
عن رغبة أو إرادة أو حاجة . وأول ما قال « بابا هنا » كان ذلك للتعبير عن ابتهاجه
برؤية أبيه . أو عن رغبته في مجيئه . وإذن فقد نشأت العبارة الموضوعية « بابا هنا »
في خلال تدرج الطفل بإقصائه للعنصر الذاتي ثم استطاعت بدورها أن تصير جديرة
بالعبارة النحوية حين ضم فعل إليها ؛ ولكن الطفل قد بدأ بصيغة انفعالية ،

يميل بعض علماء اللغة الذين هم علماء نفس في الوقت عينه إلى الاعتقاد بأن
اللغة الانفعالية تسبق اللغة العقلية دائماً عند الطفل^(١) . وعندما أن الذكاء

(١) أنظر خاصة سيثيه : رقم ١٢٢ ، ص ٦٧ وما يليها ، وفارن ليفي بربل : رقم

لا يستطيع تحويل الإحساسات والانفعالات إلى أفكار إلتدريجاً ، وأن الفكرة تخرج من العناصر الانفعالية دون أن تقصيها إقصاء تاماً . وأنه يتكون في داخل اللغة الفجائية التي هي انفعالية محضة نواة صلبة تنمو شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الأجزاء المحيطة بها صلابه ؛ وهذه هي اللغة المصطلح عليها أو النحوية ، وتبقى هذه متداخلة في الأخرى ، تستمد منها غذاءها باستمرار دون أن تصل إلى إنضاجها بآية حال . هذه النظرية نشوئية دينامية قبل كل شيء . زعم أنها تفسر أصل النحو ، يعنى اللغة المنظمة ، باستقرار العناصر البدائية غير الثابتة التي تكون ما قبل اللغة النحوية . وعندها أن هذه اللغة الأخيرة تستمر بقدر يزيد أو ينقص عند كل إنسان طول حياته ؛ وإليها يجب أن ترجع ظواهر اللغة الانفعالية جميعها . ولكنها تستطيع هي الأخرى بطريق مضاد أن تنهل من منابع اللغة النحوية ، وذلك مثلاً عندما نرى أن جملة مكونة تكويناً منطقياً تصير ، بفعل عكسى محض ، صبيحة صادرة عن غير شعور تحت تأثير ألم حاد أو رعب مفاجئ .

والواقع أن اللغة النحوية المنظمة تنظيماً منطقياً لا تستقل عن اللغة الانفعالية ، فيبين اللتين تأثير متبادل . وقد رأينا أن ترتيب الكلمات في كل اللغات يتجه نحو الاستقرار ؛ إما بأن يفرض النحو عليها ترتيباً لا يتغير ، وإما بأن تكون المادة قد جرت باتخاذ ترتيب بعينه في جميع الجمل التي من نوع واحد . وهذا لا يمنع من أن يكون للانفعالية وسائل عدة للظهور في تكوين الجملة . فتارة نأنا نقذف قبل الجملة بكلمة أو بقسم من جملة ، مع استثنائه بعد ذلك بواسطة عنصر صرفي ، أداة كانت أو ضميراً ، وتارة ندفع به إلى نهاية الجملة بمنزلاً عن السياق مع الإعلان عنه مقدماً في بنية الجملة ؛ وأخيراً قد يكون ذلك بفصم ارتباط الجملة بفتة وجمل نصفها التالى يسير على خطة جديدة لا صلة بينها وبين النصف الأول منها . هذه الطرق المختلفة الشائعة في لغة الكلام كثيراً ما استعارتها لغة الكتابة وذلك كلما اقتضى الأمر إحداث تأثير .

فإذا نظرنا إلى قول لا برويير la Bruyère مثلا : « رجلٌ موهبةٍ وشهرة ، إذ كان محزوناً أو صارماً ، أخافَ الشبان » أو « أحد النبلاء ، إذا عاش عيشته في مقاطعته ، عاش حراً ، ولكن دون سند . » رأينا أن جملة مما يستطيع تسميته بالكتابة الفنية ، ولكن واضح فيها أنها تتخذ طريقة بناء شائعة في لغة المحادثة ^(١) ، وأيضاً : « هذا السيد السكين ، لقد كان على جانب كبير من الطيبة » أو : « طفل عاقل ، يعطيه الإنسان كل ما يريد » . وتمارس لغات كثيرة هذا التركيب نفسه . فنراه في الألمانية في مثل : « der Kirchhof , er liegt wie am Tage » « فناء الكنيسة ، لقد كان يمتد كأنه في وضوح النهار . » و « Die Glocke » « sie donnert ein mächtiges Eins » « الجرس ، لقد قصف قصفة قوية » . وفي الإنجليزية منه أمثلة كثيرة . ووجوده في الفارسية القديمة أمر معروف ^(٢) . ويوجد باطراد في اللغات الملايوية البولينية . وأخيراً في الصينية : فبدلاً من أن يقال wo me kien kouo t'a ti fang tseu (وَمَ كِيَن كُوْأَوُ) « لم أر منزله » (حرفياً « أنا لا رؤية له منزل ») يمكن أن يقال : t'a fang tseu wo me yeou kouo « منزله ، إنني لا أراه » .

وواضح أن بين التركيبين في الأصل فرقاً دقيقاً كما يتبادر من الترجمة العربية نفسها ، فالأولى مبتذلة ولا تعبير فيها ، والثانية على العكس ، تعبر عن لون من الماطفة إن قليلاً وإن كثيراً . ولكن قد يحدث أن تفرض الثانية نفسها على الاستعمال إلى حد أن يستعاض بها عن الأولى ، فتصير نحوه بعد أن كانت انفعالية . وهكذا يمكن أن يقال في الفرنسية : « cet homme là , sa maison est belle » « هذا الرجل ، بيته جميل » . بدلاً من « la maison de cet homme est belle » « بيت هذا الرجل جميل » . ومن المتباد في لغة كاللغة الأيرلندية أن يتمجّل فيقال : « بيته [بتاع] هذا الرجل » بدلاً من « بيت هذا الرجل » . وفي الألمانية يمكن أن يقال بالاختيار : « das hans meines »

(١) برينو Brunot : رقم ٥٣ ، مجلد ٣ ، ص ٤٨٥ .

(٢) ميه : قواعد الفارسية القديمة ، ص ١١ .

meines Vater's « البيت [بتاع] والدى جميل » أو Vater ist schön
 Haus ist schön « والدى بيته جميل » ؛ وبمض اللججات قد بنت لها تركيباً
 آخر إذ تقول : meinem Vater sein Haus ist schön « لوالدى بيته جميل » ،
 ذلك التركيب الذى يجمع بين عملية التمجيل « باستعمال ضمير الملك » وبين استعمال
 حالة الجر بدلا من حالة الإضافة فى الدلالة على الملكية . بل إن بعض اللججات
 الألمانية المعاصرة لا تستعمل غير هذا التركيب ؛ ففى كوبورج Cohourg مثلاً^(١)
 عبارة mein Vaters Haus « بيت والدى » غير معروفة ، ويقال فقط :
 maen fader soe haos (حيث maen صيغة الجر والنصب ؛ وصيغة الرفع
 mae) . وهذا التركيب الشمعى اللججى غير مجهول فى اللغة الأدبية ؛ إذ يقدم لنا
 جوته Goethe بعض أمثلة منه . فتلك سنة من سنن اللغة الانفعالية دخلت فى
 اللغة النحوية ، بل إن الفصائل النحوية نفسها يعبر عنها أحيانا بوسائل اللغة
 الانفعالية ، وإن كانت بعض هذه الوسائل تستجيب لذلك بصفة خاصة . فقد رأينا
 عند دراستنا لفصيلة الزمن أن فيها مكانا هاما للتمييز عن الاستغراق durée . ولكننا
 نعلم أن ما ندعوه الاستغراق ليس إلا المظهر aspect الذى يأخذ فى اعتبارنا حدث
 من الأحداث أى الزاوية التى يظهر لنا هذا الحدث من خلالها . فالسألة هنا مسألة
 وجهة نظر أولا وقبل كل شيء ، ولما كان اختيار وجهة النظر مسألة ذاتية ، كان فيها
 نصيب من الانفعالية . ويوجد بين الأزمان التى يمددها نحوونا زمن ذاتى بأجلى
 معانى الكلمة : ونعنى به الزمن المستقبل . فإننا عندما نعبّر عن فكرة وقوع حدث
 فى لحظة ما من المستقبل ، لا نقف بتفكيرنا عادة عند التحقق الموضوعى للحدث ،
 بل نكبّد نشير دائما فى نفس الوقت إلى الأحوال التى نجد فيها أنفسنا حاليا بالنسبة
 إلى ذلك الحدث المستقبل .

على هذا النحو يوجد فرق بين المستقبل والماضى . فهذا الأخير زمن موضوعى ،
 لأن الماضى أصبح لا يتعلق بنا وليس لنا أثر عليه ؛ فهو كما يقال زمن تاريخى .

إدوارد هرمن Ed. Hermann ، بحوث إغريقية ، ج ١ ، ليبسك ، توبين (١٩١٢)

والستقبل على عكس ذلك يحمل معه جميع ألتأاز غير التوقع ؛ ويترك مجالا لثأت ومثأت من عواطف الأنتظار والرغبة والخوف والأمل . فإذا قلت « سأفعل ذلك غداً » فإنى ، برغم تأكيدى بأن هذا الحدث سيقع غداً على يدى ، أحيط بجلتى بيجو ذاتى يلونها فى عبنى أنا بألوان متنوعة إلى حد أن الجملة تثول فى غالب الأحيان إلى عبارة « أرغب أن » أو « أراضى أن » أو « أخشى أن » أو فقط إلى عبارة « أعترم أن (أفعل ذلك) » الخ .

وتاريخ الستقبل فى اللغات المختلفة يثبت صحة هذه الملاحظات ^(١) . فالزمن الستقبل كثيراً ما يعبر عنه بالإرادة أو الرغبة ، يعنى أن بعض عباراته من أصل انفعالى . فالصينية تصوع الستقبل بأن تلصق إلى الفعل المنصر yao « ياؤُ » (فعل « الإرادة ») مثل wo yao lai « وُ ياؤُ لى » « سأحضر » (حرفياً : « أنا إرادة حضور ») . وتقول الإنجليزية I will do أو I shall do « سأفعل » (وأصلها أريد أن أفعل) . والإغريقية الحديثة استعاضت عن الستقبل القديم بتركيب تحليلى يرجع إلى الفعل الدال على الإرادة (أنظر ص ١٠٨) . والبلغارية تعبر عن الستقبل ، منذ القرن الثالث عشر ، بواسطة الفعل choleti « الإرادة » حيث تستعمله فعلاً مساعداً ^(٢) . وتقول بعض اللجات الفرنسية : il ne « Il ne veut pas pleuvoir » « لا تريد أن تمطر » بدلا من il ne pleuvra pas « لن تمطر » . ومستقبلنا نفسه ، من نوع aimera « سأحب » مشتق — كما هو معروف — من المركب amare habeo (حرفياً « حباً أملك ») وفيه يشير الفعل habeo « أملك » إلى النصب الذاتى الذى يعتمز التكلم الاضطلاع به من الحدث . فكون الستقبل يعبر عنه بصيغ لها هذه الدرجة من التنوع ، وهذه الكثرة من التجدد ، برهان ساطع على أن هذا الزمن يحتوى على نصيب كبير من الانفعالية (أنظر الصفحات الأولى من الفصل الثالث من الجزء الثالث) . التكرار أيضاً من تلك الوسائل التى نشأت فى اللغة الانفعالية ثم صار ،

(١) ميان Magnien ، رقم ٩٠ وريبتو Rebezzo رقم ٢٢٧ .

(٢) فندراك Vondrak ، رقم ٢١٧ ، مجلد ١ ، ص ١٧٨ .

بعد استعماله في اللغة المنطقية ، مجرد سياسة نحوية ، أما أصله فيجب البحث عنه في الانفعال الذي يصحب التعبير عن عاطفة قد دفعت إلى أقصاها . وفي كثير من اللغات ينحصر التفضيل الكلي في تكرار الصيغة . فواضح هنا أن الاستعمال النحوي قد تطور من الاستعمال الانفعالي . والتكرار لم يكن في الأصل إلا وسيلة لإعطاء العبارة زيادة في القوة . « هذا جميل ، جميل » . ولكن هذه الوسيلة قد أفرغت شيئاً فشيئاً من قيمتها الانفعالية ، وبدأ من السائق استعمالها للدلالة على الوفرة والتجاوز ، مستغلين عن التعبير عن أية عاطفة مثل « إنه سمين سمين » بدلا من « إنه سمين جداً » . وهذا هو التفضيل الكلي بمخايفه ، وهو أما يزل شائع الاستعمال حتى يومنا هذا في الحبشية مثلاً ، وفي الإغريقية الحديثة (١) .

ومع ذلك فهذه الوسيلة لم تصر في اللغات التي مثل اللغة الفرنسية مجرد وسيلة نحوية (إذ أن نحو الفرنسية يحتوي على وسائل أخرى للتعبير عن التفضيل الكلي) بل قد بقيت للتكرار فيها قيمته الانفعالية . فعبارة *Il est gros gros* « إنه سمين سمين » لا تؤدي بالضبط نفس المعنى الذي تؤديه عبارة *il est très gros* « إنه سمين جداً » . ويمكننا أن نحس الفرق بصورة أوضح من تلك إذا قارنا عبارتين مثل *il n'est pas très joli* « إنه ليس وسياً جداً » و *il n'est pas joli joli* « إنه ليس وسياً وسياً » (كأن يريد أن يقول إنه ليس وسياً تلك الوسامة التي نسميها وسامة) ، فلو فرضنا أن هاتين الجملتين قيلتا بقصد التهكم لكان الإحساس بالتهكم في الحالة الثانية أشد منه في الأولى .

التكرار الذي تقابله في النظام الفعلي للغات الهندية الأوروبية أو السامية ذو أصل انفعالي لا شك فيه . وهو يستعمل في هذه اللغات استعمالاً عديدة . فمن أوضح استعمالاته في الهندية الأوروبية الدلالة على تحقق الحدث تحقاً تاماً . وقد نشأ المسمى بالتام المكرر *parfait redoublé* في الإغريقية القديمة حاملاً لهذه القيمة (٢) ، فكان يدل بتكرار المقطع الأول من الأصل على تأكيد يقابل

(١) پرنو Pernot ، رقم ١٠٩ ، ص ٩٠ ، ١٦٠ .

(٢) ي . فـ كـ رـ نـ اـ جــ ل Wackernagel . J . رقم ٢٢٠ .

التأكيد الذي تدل عليه صيغة الفعل من الناحية المعنوية . وتضميف الفعل في السامية ينحصر في إطالة الساكن ، أو في الاستعاضة عن الساكن البسيط بساكن مضعف (انظر ص ٤٨) . والقيمة الانفعالية فيه واضحة جداً أيضاً . ويقصد به الدلالة على الشدة ^(١) : فن « خبط » في العربية يؤخذ خبط « خبط بقوة » ومن كسر « كسر » « أحال إلى شظايا » الخ . كما يوجد في الأسماء آثار لصيغة جمعية موغلة في القوم تقوم صياغتها على التضعيف ، وأصلها الانفعال واضح . هذه حالات سلك فيها التعبير عن العاطفة مسلكاً نحوياً حيث نرى النطق يستعير لغة الانفعال . وعكس ذلك شائع أيضاً . فيوجد في كل لغة متكلمة عدد من الكلمات الصغيرة التي لم تنق لها إلا القيمة العاطفية ، وحظّ النطق فيها من الضالة بحيث قد تستعمل أحياناً ضد معناها الحقيقي بل كثيراً ما نجد إلى جانب الكلمات عبارة كاملة من هذا القبيل فيها فعل ومسند إليه ومفعول ، جل صغيرة يستطيع المتكلم ، بشئ من التحليل الأولي ، أن يتعرف على الكلمات التي تكونها . وهي كلّ يقدم للذهن انطباعاً عاطفياً لا أكثر ولا أقل . ومثل ذلك في الفرنسية عبارة « par exemple » « مثلاً » التي يدل بها على الدهشة و « vous savez » « أنت عارف » التي يشار بها إلى الموافقة . والقيمة التعبيرية لهذه العبارات تزداد قوة بقدر ما تتلاشى فيها القيمة المنطقية . ذلك أن الانتقال من النطق إلى الانفعال يحصل يبلى الأول منهما . ففي بادئ الأمر كان الإنسان يرى نفسه أمام فكرة فقال له فتدهشه فيجيب : « Ah ! par exemple ! » « أه ! مثلاً ؟ » مشيراً بذلك إلى أنه ينتظر من محدثه مثلاً توضيحياً . ثم جرت العادة بعد ذلك أن يجيب بقوله « par exemple ! » « مثلاً » كلما سمع خبراً غير منتظر لا يستطيع تفسيره بذاته ، ولو لم يكن في الإمكان تقديم مثل لتعظيمه ؛ وأخيراً حل التعجب محل الاستفهام فصار القائل يقول : « par exemple » كما لو كان يصدر دهشة أو شكاً أو تحدياً أو غضباً أو رعباً .

لم تقف اللغة عند هذا الحد . إذ أن من طبيعة صيغ اللغة الانفعالية أن تبلى

(١) بركلمان Brockelmann ، رقم ١٤٨ ، مجلد ١ ، ص ٥٠٨ .

بسرعة مجيبة ، فلا تلبث أن يحى منها الجزء الانفعالي ولا يبقى إلا عبارة عديمة اللون .
ولغة الكلام ميالة إلى تزويد جملها بعدد كبير من الكلمات termes الخالية من
التعبير والتي كأنها حشو بين الكلمات المعبرة ، مثال ذلك في الفرنسية : « y allez
tiens, n'est - ce pas, voyez - vous, pensez - lu » هيا إليه ، خذ ،
أليس كذلك ؟ أرى — أظن — « وكل منا يستطيع أن يقاىء نفسه في
محادثاته اليومية وهو يخلط كلامه بعبارات formules من هذا القبيل .
هذه العبارات كانت منطقية فصارت انفعالية ، وهى تنتهى عادة بأن تصير
من الآليات . وآخر أطوارها هو الطور الذى تتجرد فيه مما كانت تحتوى
من العنصر العقلى ومن العنصر العاطفى على السواء .

فاللغة الانفعالية تنفذ فى اللغة النحوية وتسطو عليها وتفككها . لذلك
يمكن أن يفسر عدم استقرار النحو بفعل الانفعالية إلى حد كبير . فالثل المنطقى
الأعلى للنحو هو أن يوجد لكل وظيفة عبارة ، وعبارة واحدة لكل وظيفة .
ولتحقيق هذا الثل يجب أن تكون اللغة ثابتة ثبوت الجبر حيث يبقى الرمز ،
منذ أن يصاغ لأول مرة ، ثابتاً لا يتغير فى جميع العمليات التى يستعمل فيها .
ولكن الجمل ليست رموزاً جبرية . فالانفعالية لا تنفك تكسو عبارة الفكر
المنطقية وتلونها . إذ لا يكرر المرء مطلقاً جملة واحدة بعينها مرتين ؛ ولا يستعمل
كلمة بعينها مرتين بنفس القيمة ؛ لأنه لا يوجد مطلقاً واقعتان لغويتان تماثلان تماماً
تماماً . ويرجع السبب فى ذلك إلى ظروف دائمة على التعديل من أحوال انفعاليتنا .



الفصل الخامس

التغيرات الصرفية (١)

النظام الصرفي في كل لغة حية لا يثبت على حال . ويمكننا أن نكون فكرة عن ذلك من الحقائق المذكورة في الفصول السابقة . بل إننا حتى إذا كنا ندرس لغة ميتة وحاولنا أن نقيم نظامها النحوي بمض الشئ، رأينا فيها عدداً من الشواذ ومن المتناقضات وذلك رغم استقرارها على يد النحاة . لسنا نتكلم عن « الأخطاء » الفردية التي تزد أحياناً عن أقلام الكتاب مهما بلغ حرصهم ، ولكن كل نظام صرفي فيه مواضع نقص لا تخلو منها أية لغة ولو كانت من أشد اللغات تثقيفاً . ففي كل قاعدة من قواعد شواذ لا يبررها منطق . وقصارى القول إن النظام الصرفي لدى كل متكلم يحمل في نفسه من أسباب التغير بقدر ما يحمله النظام الصوتي .

ولكن الطريقة التي يتم بها التغير في أحد النظامين تختلف عنها في الآخر . فالتغيرات الصرفية إما تصيب الكلمات لا العناصر الصرفية ، وذلك على عكس التغيرات الصوتية التي قد تصيب الأصوات مستقلة عن الكلمات (أنظر ص ٦٤) . ولا يرجع ذلك فحسب إلى أن العناصر الصرفية تكون في أغلب الأحيان جزءاً لا يتجزأ من الكلمة ، بل يرجع ذلك على وجه الخصوص إلى أن السبب في التغيرات الصرفية ليس في الكليات المقلية ، بل في استعمال اللغة لهذه الكليات .

تنبعث التغيرات الصرفية دائماً عن استعمال قد وقع ، ومن ثم كانت محدودة الامتداد . فليس النظام إذن هو الذي يتغير ، كما هي الحال في بعض التغيرات

(١) أنظر ميه : تطور الصيغ النحوية (رقم ٤٢) (سنة ١٩١٢) ، ص ٣٨٤ .

الصوتية ، وإنما الذى يتغير هو عنصر من عناصر النظام لحسب ، وفى استعمال واحد من الاستعمالات .

الفرق بين السلكين يظهر فى نتائجهما . فالتطور الصوتى عام شامل لا يترك وراءه بقايا ؛ إذ أنه يستبدل حالاً جديدة مكان حال قديمة (أنظر ص ٦٦) . أما التطور الصوتى فيندر أن يشمل جميع الحالات التى يؤثر فيها ؛ فهو يدع إلى جانب الصيغ الجديدة التى يستحدثها عدداً كبيراً من الصيغ القديمة التى تستمر فى الاستعمال . وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفى بقايا لها . فبالرغم من أننا قد استمعنا فى الفرنسية بالمصدر courir « الجرى » عن الصيغة القديمة courre ، لازلتنا نقول chasse à courre « صيد بالجرى » كما لا تزال نستعمل مصادر من أمثال rompre « يكسر » أو moudre « يطحن » . وجمع chacal « ابن آوى » على chacals لم يمنع من جمع cheval « حصان » على chevaux . وقد بقينا نقول فى مضارع dire « القول » المسند إلى جمع المخاطب vous dites « أنتم تقولون » ولكننا نقول vous prédisez « أنتم تنبؤون » و vous contredisez « أنتم تتناقضون » ، فى حين أن vous cotrefaites « أنتم تزيّفون » قد بقيت متفقة مع vous faites « أنتم تعملون » . ونقول أيضاً l' Hôtel Dieu « المأوى — الله » (بمعنى مأوى الله) و le monument « المؤسسة فكتور هيجو » Victor Hugo « المؤسسة فكتور هيجو » و la rue Gambetta « الشارع غمبتا (أى شارع غمبتا) » على حين نستعمل حرف الإضافة فى غير ذلك فنقول la maison de Dieu « البيت [بتاع] الله » و Les poésies de Victor Hugo « الأشعار [بتاعة] فكتور هيجو » و La politique de Gambetta « السياسة [بتاعة] غمبتا » ، الخ . فاللغة لا تنكاد تشعر بنفسها ، وهى على كل حال لا تشكو من هذه التناقضات .

يسود التنيرات الصرفية اتجاهان امان : الأول مبته الحاجة إلى التوحيد

وعمل إلى إقصاء العناصر الصرفية التي أصبحت شاذة ، والآخر مبعثه الحاجة إلى التعبير وعمل إلى خلق عناصر صرفية جديدة .

إقصاء العناصر الصرفية الشاذة يكون ردها إلى القاعدة ؛ أى أن الحاجة إلى التوحيد تنهض بطريقة القياس^(١) . ويطلق القياس على العملية التي بها يخلق الذهن صيغة أو كلمة أو تركيباً تبعاً لأنموذج معروف . فالطفل الذى يقول 'z' ai là ' قرأت ' على مثال 'z' ai ri « ضحكتم » بدلاً من 'z' ai lu أو يطلب إقصاءه من المائدة بقوله : déproche - moi « أقصوني » بناء من approcher « يقرب » يخلق صيغتين قياسيتين^(٢) . والقياس هو الذى يقود الجاهل الذى يريد أن يظهر بمظهر من يحسن الكلام إلى أن يقول : فلان يبنى من فلانة قياساً على : فلان يتزوج من فلانة .

الحقيقة أن القياس أساس لكل صرف . فالإنسان يتبع القياس دائماً في كلامه : وما جداول التصريف والإعراب التي تذكر في كتب النحو إلا نماذج يطلب إلى التلميذ محاكاتها . فأنا أعرف أن السقبل من finir « إنهاء » Je finirai « سأنتهي » ، وإذن فالיום الذى يقابلني فيه مصدر ينتهي : ir مثل crépir « التجميد » و polir « الصقل » واحتاج إلى استعمال السقبل منه لا أردد في أن أقول je crépirai « سأجمد » و je polirai « سأصقل » ولكني لو واصلت السير في هذا الطريق وبنيت السقبل من venir « المجيء » على je venirai ، لكنت قد خلقت خلقاً قياسياً يأباه الاستعمال . ومع ذلك فالتاريخ يخبرنا أن بعض المبتكرات التي من هذا القبيل انتهت بالانتصار . فقد ظل الناس زمناً طويلاً يقولون : je tressaudrai « سأرتعد » و je défraudrai « سأخون » من المصدرين tressaillir « الارتعاد » و défaillir « الخور » ؛ واليوم يبنى

(١) أنظر هنرى Henry ، رقم ٨٢ ، وجيل Gilles رقم ١٣٢ ، ص ٥٨ ؛ و.أورتل H. Oertel رقم ١٢٧ ، ص ١٥٠ و. ه. پول H. Paul ، رقم ١٨٨ ، ص ٩٦ ؛ وقارن ميه رقم ٩ ، مجلد ٢ ، ص ٨٦٠ .

(٢) وهذه الأمثلة تقابل ما نسميه من بعض الأطفال في القاهرة حيث يقولون كرة أحمر أو أصفر بدلاً من حمراء وصفراء طرداً للقاعدة القياسية .
العربان

المستقبل منهما على الصيغة المطردة : je défailirai , je tressaillirai . فقد
قضى أثر التصريف الطرد بوجودها .

استمر علماء اللغة زمناً طويلاً يعبرون عن القياس بنسب ومعادلات جبرية
من قبيل : a بالنسبة إلى $b = c$ بالنسبة إلى s ؛ فيقال finir « الانتهاء »
بالنسبة إلى finirai سأتتهى = tressaillir « الارتعاد » بالنسبة إلى
tressaillirai « سأرتعد » . وهذه الوسيلة تحصل رياضياً على المستقبل الجديد .
ولكن يجب أن نحذر من تطبيق التعليل الرياضى على مواد ياباه طبيعياً أو تعقدها .
فالجبر لا يمكنه هنا أن يعطى فكرة صائبة عن الأشياء . إذ أنه يوم بأن التغير
إرادى وشعورى مع أنه عكس ذلك على خط مستقيم . هذا إلى أنه يندر أن يكون
عمل القانون منحصراً بين أربعة حدود فحسب . فالصيغة التى تجر القياس ليست فى
المادة عنصراً بمنزلة بل هى رمز يمثل عدة عناصر مختلفة . فإذا أردنا ألا نخرج
عن الميدان الجبرى وجب على الأقل إصلاح الصيغة حتى نصير b بالنسبة إلى
 $a = 1$ إلى s ، على فرض أن b و a تمثلان كيتين غير محدودتين ، إذ الواقع
أن المصدر finir « الانتهاء » ليس وحده الذى عمل بمقارنته بـ finirai على إخراج
tressaillirai « سأرتعد » من tressaillir « الارتعاد » وإنما يرجع ذلك إلى
مجموعة الصيغ المشتركة بين الفعلين . ومن جهة أخرى ينضم إلى تأثير فعل finir
تأثير جميع الأفعال التى تنتهى بـ -ir . ويبنى المستقبل منها على -irai غير أن أهم
عيوب استعمال الجبر هنا أنه لا يدخل فى حسابه القيمة الخاصة لكل صيغة .
فهناك سبب هام لنجاح القياس فى بناء المستقبل من tressaillir و défailir :
فردهما إلى القاعدة يرجع إلى ندرتهما فى الاستعمال . لذلك استمررنا نقول فى الحاضر
الإشارى nous tressaillons « نرتعد » و vous tressaillez « ترتدون »
على رغم من أننا نقول nous finissons « ننتهى » و vous finissez « تتهون » ؛
فهنا قصرت قوة القياس لأن الحاضر أشيع استعمالاً من المستقبل . وإذن فكل
شىء يرجع إلى ما فى ذهن المتكلم من تناحر بين الصيغ للسيطرة والمقاومة . والقياس
يقف إلى حد على قانون الاقتصاد فى الجهود الذى يتجنب إيقال الذاكرة بمتاع

غير مفيد . والصيغ التي يُقصد بها القياس صيغ عليّة ، بمعنى أنها غير مضمونة من الذّاكرة لندرة استعمالها . والقياس لا يستطيع التغلب إلا عند ضعف الذّاكرة . فالصفة الشاذة النادرة الاستعمال تنسى وتصاغ من جديد تبعاً للقاعدة المطردة .

يخلق الأطفال في مرحلة تعلمهم للغة عدداً كبيراً من الصيغ الجديدة ، وذلك باستجابتهم لداعي القياس . ولكن الجزء الأكبر من هذه الابتكرات يصلح فيما بعد ، لأنها في غالب الأحيان ليست إلا عوارض فردية ، ناتجة عن حس غير صائب ، أو عن معرفة ناقصة باللغة . ولكن بعضها ينطبق مع الحس اللغوي العام انطباقاً يجعلها تنتهي بالاستقرار . وقد يحصل أن يتجه فجأة جميع الأفراد من جيل واحد إلى الوقوع في غلطة بعينها تفرض نفسها عليها كأنها قانون وتصير قاعدة . وعندئذ يصبح كل مجهود يقوم به المدرس في المدرسة عبثاً . وهناك تراكم بادية الخطأ شائعة الاستعمال حتى بين المثقفين ؛ وبكاد الإنسان يدهش حين يعلم أن النحو قد سلم بها .

النحو كثيراً ما يكون في صراع مع الحس الطبيعي للغة . ففي الأقطار التي يطغى فيها أثر النحاة لا تستسلم اللغة لفعل القياس إلا بصعوبة ؛ إذ تخنق الابتكرات القياسية في مهداها ولا تستطيع الحياة . فهذه يجب لتغلبها أن تكرر غالباً وبصورة مطردة . وتقابل عندنا في الاستعمال اللغوي في القرن السادس عشر حيث لم يكن عمل النحاة قد بلغ من الاتساع والفاعلية ما بلغه منذ ذلك الحين عدداً كبيراً من الأخطاء التي لم تستطع أن يكون لها قوة القانون^(١) . فكان رابليه Rabelais يقول : je finois بدلا من je finissais « كنت أتم » ، ولكننا لم تحتفظ إلا بهذه الصيغة الأخيرة . وعلى العكس من ذلك استطاعت لغتنا الحاضرة رغم النحاة أن تفرض استعمال بعض التراكمات التي ظلت محدودة حتى هذا الحين . فكل الناس يقولون : Je m'en rappelle « أتذكره » (حرفياً « استحضره منه إلى ») بدلا من je me le rappelle « أتذكره » (حرفياً « استحضره إلى ») ؛ وأصبح ذلك التركيب المتبرر : de façon à

ce que « بصورة أن » (حرفياً « بصورة إلى أن ») يقال بل وتكتب بدلاً من de façon que « بصورة أن » . ويجب علينا أن نقرر ، رغم أننا أن هذه الأخطاء تسير مع اتجاه اللغة الطبيعي .

ومع ذلك فهناك صيغ تثبت أمام القياس ، ومن أجل ذلك تسمى بالشاذة . إذ يحتوي نحو كل لغة من اللغات على قدر يزيد أو ينقص من الأسماء والأفعال الشاذة . وتسمى أيضاً بالصيغ القوية في مقابلة الصيغ الضعيفة أو العملية التي تستسلم للتنظيم الذي يفرضه القياس . هذه الصيغ القوية تبقى خارج القاعدة . وتدين بمقاومتها إلى شيوع استعمالها الذي يبقى عليها حية في الذهن ولا يطبق لها تغييراً . وهي تفرض نفسها بخصائصها الفردية ، وإن كانت هي نفسها في أغلب الأحيان غير جديرة بأن تصبح مثلاً وأن تتخذ أساساً لعمل قياس . وهكذا كانت أشيع الأفعال استعمالاً من الأفعال القوية بوجه عام في جميع اللغات ؛ أي من الأفعال الشاذة . وفعل الكينونة أكثرها شذوذاً لأنه أوسعها استعمالاً ؛ فالقابلة بين il est « يكون » و ils sont « يكونون » موهلة في القدم ، وتذكرنا في الصورة التي تعطى لها الكتابة على الأقل بمسلك التصريف الهندي الأوربي لم تحتفظ به الفرنسية إلا هنا . وكان في اللاتينية بقايا من هذا النوع في أفعالها الكثيرة الإستعمال ؛ أما الفرنسية فلم يبق فيها إلا فعل الكون « être » الذي لا يبدو أن هناك ما يهدد شذوذه .

ليس معنى ذلك أن الصيغ القوية لا تستسلم للوهن مع الزمن . ففعل الكون في كثير من اللغات تبدو عليه آثار من عمل القياس عدلت من تصريفه ؛ فصيغة الشخص الأول jestern « أكون » في البولونية قد عدلت على غرار الشخص الثالث jest « يكون » ؛ ولكن هذا العمل محدود على وجه العموم ولا يعود فعل الكون عن الاحتفاظ بظهوره الشاذ في مجموعه . واللغات الفنية بالتصريف القوى كاللاتينية ، أمامها مجال واسع للاحتفاظ به زمناً طويلاً : لأن الصيغ الشاذة يسند بعضها بعضاً . أغلب الظن أن اللغة تقضي على بعض هذه الصيغ شيئاً فشيئاً لتردها إلى القاعدة . إذ يمكننا أن نقيد قاعة كاملة بأفعال قوية صارت

ضعيفة في القرون الأخيرة . وعددها في زيادة دأعة ؛ لأن الصيغة الضعيفة التي تدخل في الاستعمال بجانب صيغة قوية تنتهي بالتغلب عليها . فبعض اللهجات تقول : ich verlor [هكذا بالتصريف الضعيف] « فقدت » بدلا من ich verlierte [بالتصريف القوي] ، ich springte « وثبت » بدلا من ich sprang « وثبت » و ich fangte « أخذت » بدلا من ich fing و gefangt « مأخوذ » بدلا من gefangen . أما الحاضر الإخباري والأمر فقد انتهيا من تسوية تصريفهما في كثير من الأفعال ؛ فالآن لم نعد نقول من : fliegen « السركة » du fleugst « تسرق » er fleugt « يسرق » ولا من lügen « الكذب » du leugst « تكذب » er leugt « يكذب » ، ويقال في بعض اللهجات nām « خذ » و hālf « ساعد » بدلا من nimm و hilf . وفي منهم Manuhiem يقال ich geb « أعطى » و du gebst « تعطى » و er gebt « يعطي » بدلا من ich gebe و du gibst و er gibt ^(١) . وفي الإنجليزية حيث أثر القياس كان أشد عملا لا يوجد إلا عدد محدود من الأفعال القوية ؛ هذا إلى أن ذلك العدد في تناقص مستمر ؛ إذ نقرأ في Pickwick Papers نقرأ على لسان مزخرف نزل هوايت هارت White Hart : « he know'd nothing about parishes » (بدل knew) « إنه لا يعرف شيئا عن الدوائر القسسية » ، وكذلك the ghost (بدل he saw) « عندما رأى الشبح » ، الخ . ومع ذلك فهذه الأفعال من أكثرها دورانا على الألسن .

وأحيانا يعمل القياس عمله داخل تصريف بيمينه . ففي الألمانية يقال في المفرد wurde « صار » بدلا من ward ، قياساً على الجمع wurden « صاروا » . وقد تم توحيد التصريف في الماضي غير التام الألماني في وقت مبكر ، وكانت الغلبة فيه لحركة الماضي بوجه عام . إذ يقال wir warfen « كنا نرمي » قياساً على ich warf « كنت أرمي » (في الألمانية العليا القديمة wurfum , warf) ، و wir zogen « كنا نجذب » قياساً على ich zog « كنت أجذب »

(١) بهاجل Behaghel ، رقم ١٤٤ ، ص ٢٤٧ .

(في الألمانية العليا القديمة : zôh , zu gum) . وإذا كان الزوج : ward
 wurden قد بقى إلى يومنا إلى هذا فرجع ذلك إلى أهمية الفعل werden « بصير »
 وإلى كثرة استعماله ، وإذا كان الزوج : wurde , wurden قد خلق على هذا
 النحو مشتملاً على نهاية الأفعال الضعيفة في حالة المفرد ، فذلك تحت تأثير الأزواج :
 hatte , hatten « كان يملك » ، كانوا يملكون » و wollte , wollten « كان
 يريد » ، كانوا يريدون » و musste , mussten « كان يلزمه » ، كان يلزمهم » الخ ،
 وهي أفعال تستعمل في بعض الأحيان أفعالاً مساعدة . وليس معنى ذلك أننا لا نجد
 في تاريخ اللغات الجرمانية شيئاً قياسياً من نوع wurde . في الألمانية العليا
 القديمة ، عندما من الفعل beginnan « يتبدى » ، الماضي غير التام bigonda
 أو bigunda « كان يتبدى » ، وذلك إلى جانب bigan الأقل منهما استعمالاً .
 ومن fundan « يجد » ، تستعمل السكسونية القديمة الصيغة funda « كان
 يجد » في الماضي غير التام إلى جانب fand ؛ كذلك تستعمل الإنجليزية القديمة
 funde في المفرد قياساً على الجمع fundun . ومع ذلك فخلق wurde جاء مستقلاً
 عن هذه كلها . فكل حالة من الحالات الناشئة من أثر القياس تستدعي علاجاً
 مستقلاً ؛ وإذا أردنا أن نفهم معنى القياس وجب أن نبحث عن النقطة التي يبدأ
 منها صدوره .

نقطة البدء هذه تنحصر دائماً في شكل من الصيغ موجود في اللغة . وليس
 مدار الأمر هنا حول تنفيذ خطة كاملة يسعى العقل إلى تحقيقها على خطوات
 متتامة . نعم ، قد يكون من نتيجة العمل القياسي في بعض الأحيان التقليل من
 عدد الصيغ الشاذة ، أى إضفاف النوع القوى . ولكن ذلك ليس قاعدة مطردة .
 فقد يحدث أن بعض الأفعال القوية تفرض نفسها إلى حد أن تتخذ نماذج وتجذب
 إليها بعض الأفعال الضعيفة . وفي أغلب الأحيان توجد بواعث خاصة لتبرير القياس
 وقد وقع ذلك أكثر من مرة في الألمانية حيث يشتمل التصريف القوى على
 فصول عديدة واضحة الحدود ؛ فالصيغة : ich frug « سألت » من fragen
 ابتكار قياسى قديم ، وإن كان في سبيل الفناء ، غير أننا نجد في لهجات عدة

، *ich jug* « صَدْتُ » من *jagen* ، و *ich kuf* « اشتريت » من *Kaufen* ،
الخ . فهذه الأفعال دخلت في الفصائل المطردة للأفعال القوية . وعلى العكس من
ذلك في الإنجليزية كما في الفرنسية ليست الأفعال القوية في الحقيقة إلا شواذ ،
وإلا مستثنيات منموزة لا تكون نظاماً يستطيع أن يؤثر على التسكلم . غير أنه قد
يحصل أن تدخل هذه الأفعال الشاذة في مجاميع تتكون كل منها من فعلين أو من
ثلاثة . فتقوى وتتساند بذلك ؛ ومثال ذلك في الفرنسية الفعلان *pondre*
« يبيض » و *tonre* « يجرّ » اللذان لم يكن بينهما أية صلة في الأصل (أصلاهما
اللاتينيان *pondere* ، *ponere* ينتسبان إلى نوعين مختلفين من التصريف)
ولكنهما أصبحا يتبعان طريقة واحدة في التصريف . وكل ذلك ليس له من المنطق
إلا حظ يسير . « فالمقل » وطبعه عدم الثبات ، لا يتابع سيره في خط مستقيم .
لماذا ؟ لأنه يسعى لاقتناص الأقيسة ، لأنه — وهو الذي لا يابه للصلات الحقيقية
بين الأشياء — يجري وراء علاقات خارجية . وهو في مسيره هذا لا يعرف دائماً
أين يذهب . هذه الفكرة لجان بول *Jean Paul* (في *Tagebuch* ،
٩ أغسطس ١٧٨٢) يمكن تطبيقها على العملية التي ندرسها هنا . وأغلب الظن
أن مرجع ذلك في الأصل الاتجاه إلى جعل الصيغ المختلفة صيغة واحدة ، وهذا الميل
نفسه يرجع إلى كسل طبيعي في العقل . ولكن هذا الميل إلى التوحيد لا يمدّ
ميلاً إلى التخصيص كما قيل في بعض الأحيان . إذ أن التخصيص قاعدة منطقية
تقضى بأن يعبر بعلامة واحدة عن كل وظيفة نحوية وأن نعبّر كل علامة عن وظيفة
نحوية واحدة . وهو نوع من التطبيق المثالي للنحو على المنطق . ولقد رأينا فيما
تقدم ما يمنع من تحقيق هذا المثل الأعلى . فالمقل لا يغير مطلقاً نظامه الصرفي
تنظيراً كاملاً ؛ ولا يوجه مجهوده في الوقت الواحد إلا إلى جزء من النظام بعدد جدّ
ضئيل . ولما كان الأمر الواقع منه على الأجزاء المختلفة لا تقوده مطلقاً إرادة منفذة
لخطة منهجية ، بل كان تابماً لوعي المصادفة والظروف المختلفة ، كانت النتيجة في
مجموعها خالية على وجه العموم من الترابط والتجانس .

وتاريخ الزائدة -er- في الألمانية من أقوى الأدلة على ذلك ^(١) . فهذه الزائدة التي يتميز بها عدد كبير من جموع الكلمات المحايدة ليست في حقيقة أمرها إلا لاحقة عممها القياس . ذلك أن بعض الفصائل المحايدة في الهندية الأوروبية كانت تتميز باللاحقة -es- التي نثر عليها في اللاتينية (في صورة -er-) في إعراب الكلمات من فصيلة genus (جنس) وجمها gen - er - a ، الخ . ففي الألمانية التي فيها يتغير حرف الصغير أيضاً في مثل هذه الحالة إلى r ، وُجدت الكلمات المحايدة التي من هذا القبيل مزودة بنهاية جديدة -er- وذلك بعد سقوط النهايات القديمة . وهذه النهاية الجديدة قد استطاعت أن تجعل الجمع مختلفاً عن المفرد ، ومن ثم صارت علامة مميزة للجمع . فهي إذن كانت زائدة قوية التمييز تحرص اللغة على ألا تفقدها ؛ فدتها بطريق القياس على عدد كبير من الكلمات المحايدة التي لم تكن في الأصل من الفصائل المحتوية على -es- ؛ فقياساً على Kalb « مجل » التي تجمع على Kälber والتي تنتمي إلى فصيلة -es- أمكن أن يجمع Haus « بيت » على Häuser و Buch « كتاب » على Bücher و Fass « برميل » على Fässer و Glas « كوب » على Gläser و Geld « نقد » على Gelder و Wort « كلمة » على Wörter . ومع ذلك فقد بقي عدد لا بأس به من الكلمات المحايدة التي تجمع على غير ذلك مثل Mass « مقياس » وجمها Masse ، و Ross « حصان » وجمها Rosse ، و Auge « عين » وجمها Augen ، الخ . ومن جهة أخرى نثر على الزائدة -er- في بعض الكلمات المذكورة مثل : Rand « حافة » وجمها Ränder و Gott « إله » وجمها Götter ، و Wurm « دودة » وجمها Würmer ، الخ . ومعنى ذلك أن القياس لم ينجح في إعطاء الزائدة التي خلقها وظيفة واحدة .

وما رأى في اللغات الصناعية المبنية على خطة منطقية قد وضعت مقدماً ؟ هذه اللغات غير ممكنة الوقوع إلا إذا كانت لغات خاصة : لغات فنية أو لوائح علامات . ففي هذه الحال يكفي الاتفاق بين الأشخاص المدوّن الذين يستعملونها

(١) شترنبرج Streiberg ، رقم ٢١٠ ، ص ١٠٣ .

للاحتفاظ بها كما خلقت دون تغيير . ولكن لا ينبغي لها أن تصير لغات حية ؛ لأنها حينئذ لا تلبث أن يمتريها التغيير ، فتنشأ بين الصيغ خلافات في القيمة ؛ وتغلب بعض الصيغ على بعضها الآخر ؛ ويعمل قانون القياس عمله ، وتحل الفوضى محل النظام الجميل . فالصيغ ذات الغلبة تصير مهما كثر إشعاع قياسي ؛ وتجذب إليها غيرها من كل جانب لأسباب متنوعة ؛ بعد ذلك توجد خطط قياسية متضاربة متقاطعة ، لا يستطيع عقلنا القاصر أن يوفق بينها . ذلك أن اللغة الثالثة حلم من الأحلام . تذكرنا بستانى بذر في بقعة منظمة الأرجاء بذورا متماثلة كل التماثل وأخذ يولى كلاً منها قدراً متماثلاً من عنايته أملانه في أن تثبت حديقته أشجاراً متساوية الحجم تجري على نظام واحد وتثمر عدداً متساوياً من الأزهار والأثمار . بل إن هناك كثيراً من الأسباب التي تجعل الظروف البيولوجية تحيد عن سمتها ، ومن هذه الأسباب ما يعلو على قدرة الإنسان : وكذلك الحال في اللغويات التي يقف فيها القياس في غالب الأحوال موقفاً مغايراً للمنطق ، على الرغم من أنه ينبعث من الحاجة إلى التوحيد ويستخدم التعليل العقلي بطريقة ترضى العقل^(١) .

* * *

الحاجة إلى التمييزية كالحاجة إلى التوحيد من الحاجات التي لا تسد ؛ ولكن العقل بسميه إلى سدّها يصلح من البلى الذي يلحق بالصيغ ، وبالتالي يغير الصرف . في أثناء التطور الصوتي للغة من اللغات ، تتآكل بعض العناصر الصرفية حتى تصبح غير صالحة للاستعمال ؛ بل قد تُبتر في بعض الأحيان بترّاً تاماً . وعندئذ يجب ترميمها أو إحلال غيرها محلها . فإذا كانت اللغة من اللغات المبربة كاللاتينية وكانت الإصابة فيها واقعة على نهائياتها (انظر ص ٨٨) ، وجب أن يتناول الترميم الإعراب بأسره . فالبقايا الصرفية التي يبقّى عليها فعل القوانين الصوتية يندر أن

(١) راجع عن اللغات الصناعية كوتورا وليو Couturat et Leau ، رقم ٦٠ ورقم ١٠ سنة ١٩٠٨ ، ص ٧٦١ ؛ سنة ١٩١١ ص ٥٠٩ ؛ وسنة ١٩١٢ ، ص ١ . أنظر أيضاً مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، سنة ١٩١٢ ، ص ٤٧ — ٨٤ . وانظر مناقشات Boudouin de Courtenay للاعتراضات التي أثارها برجان ولسكين Bruggmann et Leskien ، في Zur Kritik der Künstlichen Weltsprachen (١٩٠٧) وتجدها في رقم ٢٤ ، مجلد ٤ ، ص ٣٨٥ ؛ وقارن رقم ٢٢ ، ص ٣٦٥ .

تكون على درجة من التعبير تجعلها صالحة للبقاء على ما هي عليه . لذلك نرى إعراب الاسم يحتقن شيئاً فشيئاً في اللاتينية العامة في القرون الأولى من التاريخ المسيحي . ولم يبق منها من كل أنواع الإعراب إلا المخالفة بين الفاعل والمفعول التي بعثت بعد ذلك بفضل عملية القياس . كذلك تصريف الفعل في اللاتينية الحديثة يدين بمقدار كبير إلى القياس . والعلامتان الفرنسيتان *ez - ons* - اللتان تميزان جمع التكلم والمخاطب نتيجة لامتداد قياسي . كذلك الزائدة *- iss* - في التصريف *finissons* « ننتهي » و *finissez* « تنتهون » و *finissais* « كنت أنتهي » ليست إلا اللاحقة اللاتينية *- isc* - الدالة على الابتداء والاستمرار ، قد أخذت من بعض الأفعال وطبقت على هذه الفصيلة من التصريف وصارت رمزاً لها . والزائدة *- u* في أسماء المفاعيل *eu* « مملوك » (قديماً *óvu*) و *vu* « مرئى » (قديماً *véu*) و *lu* « مقروء » و *tenu* « ممسوك » و *rompu* « مفصوم » ، الخ قد جاءت من نهاية اسم المفعول اللاتينية *- utus* ، وهي صيغة نادرة الأمثلة في اللاتينية . ولكن كان من اللازم في كل هذا إصلاح ما فقد بفعل البلي الصوتي ؛ فأسماء المفاعيل القديمة *habitus* و *uisus* و *lectus* و *tentus* و *ruptus* الخ ، لم تظهر أو ما كان يمكن أن تظهر في الفرنسية في صورة خالية من التعبير الصرفي . ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الامتداد القياسي لنهاية معبّرة .

ولكن كل ذلك لم يكن كافياً ؛ ولقد كان من المسير محاولة مدّ جميع الفصائل النحوية بالتعبير بمجرد إنعاش التصريف اللاتيني بتطعيم قياسي . لذلك تدخلت عملية أخرى تنحصر في زيادة أهمية الحروف وفي التوسع في الأداة وفي استعمال الضمائر ، وبالاختصار في خلق نظام بأسره من الكلمات المساعدة تستعمل استعمال العناصر الصرفية . لذلك زانا اليوم نقول *la sœur* « الأخت » و *de la sœur* « (بتاع) الأخت » و *à la sœur* « للأخت (أو) إلى الأخت » أو *je lis* « أقرأ » و *tu lis* « تقرأ » و *il lit* « يقرأ » بينما كان اللاتينيون يقولون : *soror* و *sororis* و *sorari* أو *lego* و *legis* و *legit* ^(١).

(١) ومعنى هذا أن اللغة الفرنسية تستعمل أدوات في حالات تستعمل فيها اللاتينية علامات الإعراب . المرباب

وأصل التركيب الفرنسى موجود فى اللاتينية على وجه التأكيد حيث تختص الحروف مثلاً باستمالات عديدة ، بل وكثيراً ما تستخدم لشدة أزر علامات الإعراب ؛ غير أن « إلى — ل » و « de » من أو [بتاع] « فى الفرنسية رمزاً نحوياً يخلو من كل قيمة ذاتية على عكس ad « إلى — ل » و « de » من « فى اللاتينية فقد احتفظتا بقيمة ظرفية واضحة . ومع ذلك فإن ad و de كانتا فى اللاتينية عنصرين صريحين منذ زمن طويل .

لم تكف الفرنسية بالحروف اللاتينية ، فاضطرت إلى خلق حروف جديدة . ففضلاً عن التراكيب الظرفية أو الحرفية اللاتينية من مثل « فى » dans و « بعد » sous و « تحت » و « avec » ب « الخ استعملت كلمات أخرى موجودة فى اللغة ، فأخذت chez « عند » من الاسم اللاتينى casa « بيت » : وما زلنا نجد فى بعض الأقاليم الفرنسية أسماء أماكن من مثل chez, chez Rolland, Pierre « بيت پير وبيت رولاند » . كما أن بعض أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات قد صارت حروفاً حقيقية ، مثل : pendant la nuit « أثناء الليل ، أو فى الليل » و vu les circonstances « نظراً للظروف (حرفياً منظورة الظروف) » nonobstant la défense « رغم الدفاع (حرفياً : الدفاع غير مانع) » excepté le dimanche « عدا الأحد (حرفياً : الأحد مستثنى) » و malgré la pluie « رغم المطر (حرفياً : مرغم المطر) ، sans erreur « عدا الخطأ » و plein la rue « ملء الشارع (حرفياً ملء الشارع) » . ونجد حالات مماثلة فى عدد كبير من اللغات . فالتعبير عن حالة الإضافة يدل عليه فى بعض لغات الهند الحديثة (كالسنغالية مثلاً) بواسطة المنصر ge (جـ) وهو العبارة البكائية السنسكريتية القديمة grhe « فى البيت » وذلك كما لو قلنا فى الفرنسية le livre chez Pierre « الكتاب عند پير » بدلاً من le livre de Pierre « الكتاب (بتاع) پير » . والزائدة الإعرابية الجرية -vle التى يعبر بها عن الآلة والتى يمكن ترجمتها بالحرف الدال على الآلة (ب) مشتقة من

كلمة مستقلة قديمة في حالة مفعول الآلية ، وهي -vāyl- أو -vāyd- « بقوة » ، بواسطة » . وفي الإنجليزية تعتبر الكلمات التالية حروفاً حقيقية : concerning « خاصاً بـ » و past « بعد (حرفياً : ماض) » (half past two) « الساعة اثنتان ونصف . (حرفياً : نصف بعد اثنتين) » وفي الألمانية الكلمتان trotz « رغم » و betreffend « خاص بـ » وفي الدنمركية الكلمة undtagen « ماعدا » الخ .

كل هذه الكلمات صارت « كلمات فارغة » بالمعنى المعروف في الصينية (أنظر ص ١١٦) . ذلك أننا إذا تركنا عملية القياس جانباً نجد الصرف يستعير في الواقع عن خسارته بتحويل الكلمات اللينة إلى كلمات فارغة . فالأدوات النحوية التي تستعملها اللغات ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، أفرغت من معناها الحقيقي واستعملت مجرد موصفات أى مجرد رموز .

نستطيع أن نتبع في كثير من اللغات تطور عناصر مختلفة من قبيل حروف الجر ، وحروف الوصل وآلات التعريف ؛ وهو لا يخرج في عمومها عما رأيناه في الأمثلة المقدمة . فالكلمتان الإغريقيتان μετά « بـ » و μέχρι ، μέχρι « حتى (النهاية) » تتصلان بكلمة معناها « وسط » كما تتصل pedá « بعد » باسم القَدَم (قارن حرف الجر yet « بعد » في الأرمنية) . ونجد في كثير من اللغات أدوات وصل من قبيل lorsque « حالا (أصلها : في ساعة أن) » و du moment que « عندما (حرفياً : في لحظة أن) » والكلمة اللاتينية mages « بأكثر » صارت في الفرنسية mais « لكن » أى أداة استدراك ؛ كما انتقلت كلمة μάλλον في إغريقية المصور المتأخرة من فكرة : « ليس هذا ، بالأحرى ذلك » إلى فكرة : « ليس هذا ، لكن ذلك » . وأدوات التعريف في كل اللغات إشارات قديمة ؛ كما أخذ من اسم العدد أداة تنكير تعبر عن الوحدة في اللغات الجرمانية والكلتية والإغريقية الحديثة وجميع اللغات الرومانية . واسم الإنسان صار في الفرنسية والجرمانية والكلتية والأرمنية أداة نحوية تعبر عن الشائع (في الفرنسية . on dit) « يقال [حرفياً : يقول إنسان] »

وفي الألمانية : man sagt (كما في الفرنسية تماماً) ؛ وفي البريتانية : neuz ket den « لا يوجد أحد » ، وفي الأرمينية marth egav « هل جاء أحد ؟ » وقد تعبر عن المعرفة : « في التالية : y gwr (هذا الذي ، الذي) » .

الأفعال التي تسمى بالأفعال المساعدة كلمات مفرغة أيضاً . ففي الإنجليزية فعل to do « يفعل » تستعمل أداة نحوية للاستفهام مثل do you see « هل ترى ؟ » ولتني مثل I do'nt see « لا أرى » . وتستعمل الألمانية الفعل thun « يفعل » استعمالاً مشابهاً ، في بعض اللغات على الأقل مثل : er tat schiessen « أطلق (عياراً نارياً) » er tut sich wenden « استدار » . والأفعال التي تستعمل أفعالاً مساعدة هي غير الأفعال في كل اللغات بوجه عام . ففكرة « vouloir » « يريد » أو devoir « يجب » تميل دائماً إلى التعبير عن العرضية ، عن الاستقبال (انظر ص ١٩٩) ؛ وفكرة « tenir » « يشتمل » و « accouper » « يحتل » تستعمل للدلالة على الحدث المنتهى ، ومن ثم التام . ومن هنا جاء في الإنجليزية I will go « سأذهب » و I shall find « سأجد » وفي الأرمينية الحديثة : bidi anem « سأفعل » وفي الفرنسية : j' ai conquis « افترض » و ich habe gedacht « فكرت » في الألمانية ... الخ . وإذا كنا في الكتابة نفضل الكلمة الفارغة عن الكلمة المليئة التي تصحبها ، فذلك عادة كتابية محضة .

يوجد في الفرنسية حالات تم فيها التحام الكلمتين ، فصارت الكلمة الفارغة لاحقة من اللواحق . ففي المستقبل والشرطي j'aimerai « سأحب » و je lisais « ... (ل) قرأت » وهما مأخوذان من ترا كيب لاتينية متأخرة مثل : legere و amare habeo و habebam . وظروف الحال عندنا تتكون بواسطة اللاحقة ment — مضافة إلى الصفة ؛ وهذه اللاحقة ليست شيئاً آخر غير صيغة مفعول الآلية mente من كلمة mens « عقل » . ونجد في اللاتينية منذ القرن الأول قبل الميلاد استعمالات لكلمة mente تعلن عن هذه الوظيفة ، وظيفة التعبير عن الحال مثل : constanti mente و obstinata mente و Liquida mente (كانوا

Catulle ٢١٠/٦٤ و ٢٣٩ ؛ ١١/٨ ؛ ٤٦ و ٦٣ ؛ sagaci mente (لكريس
 Lucrèce ، ١٠٢٢/١) . ولا شيء في ذلك مما يدهش : ففي الإغريقية^(١)
 عبارات من مثل εὐδόξῳ φρενί (اسخيل Choeph : Eschyle بيت ٣٠٣)
 أو γηθούσῃ φρενί (نفس المرجع ، بيت ٧٩٢) وهما تقابلان بالضبط العبارتين
 اللاتينيتين gloriosa mente (بالفرنسية glorieuse ment «بفخار») أو
 leta ment (بالإيطالية : lietamente). هذه العبارات قد بنيت على أعوذج شائع .
 وكثيراً ما يحدث في اللاتينية كما في الإغريقية أن تؤخذ الكلمات ذات المعاني المختلفة
 بقيمة عامة فتركب مع الصفات لتخرج منها كلمات جديدة أشبه شيء بظروف الحال
 (مثل studioso animo وفي اللاتينية εὐχρονί νόῳ, γηλεί θυμῷ, χαχῇ χαρδίᾳ)
 و trupi corde و ardenti pectore و miris modis و certa lege ... الخ)
 وقد اختارت اللغات الرومانية العبارات المحتوية على كلمة mente لتجمل منها كلمة فارغة ،
 لقد اختارتها من بين جميع العبارات اللاتينية التي فيها يحتفظ الاسم بقيمته ،
 ولكن بشكل مخفف . وهناك لغات تستعمل كلمات أخرى : فالألمانية تستخدم
 كلمة weise « طريقة » لتجمل منها نوعاً من اللاحقة الظرفية مثل -glück
 licherweise « لحسن الحظ » . وتستخدم اللغات الاسكندنافية كلمة vis
 « طريقة » لنفس الغاية : ففي الدنمركية heldigvis « لحسن الحظ » من heldig
 وفي السويدية lyckligvis « لحسن الحظ » من lycklig . والأرمينية من جهتها
 خلقت لها ظروف حال بواسطة كلمة bar « طريقة » وكلمة pès « شكل ، منظر » ؛
 مثل brnabar « بقدره » (من burn « قدرة ») darnapès « بمرارة »
 (من darn « مر ») . وما دام العقل قد اختار كلمة من بين جميع الكلمات
 الثلاثة التي تحت تصرفه ، فإنه قد أقصى ما عداها .

فذلك الشيء نفسه قد وقع في الفرنسية بالنسبة لأداة النفي . ونحن نعرف إلى
 أي حد تسرى عدوى النفي إلى الكلمات التي تلامسه . فالكلمات aucun
 « لا أحد » و personne « لا أحد » [وذلك في صدد النفي ومعناها في

(١) بول شوري Paul Shorey ، رقم ٢٠ ، ج ٥ (١٩١٠) ، ص ٨٣ .

الإثبات : « شخص » [du tout « بالرة » من خير المثل في الفرنسية لما حدث في الإسبانية للكلمة nada « لا شيء ، » (من : rem natam) . في الفرنسية قيل في النفي أولا : je ne vois point « لا أرى نقطة » و je ne mange mie « لا آكل كسرة » و je ne marche pas « لا أمشي خطوة » je ne bois goutte « لا أشرب قطرة » ، الخ . في كل هذه الجمل يعبر عن النفي بالأداة ne « لا » ، أما الكلمات المعمولة (المفاعيل : نقطة ، كسرة ... الخ) فإن معنى الجملة نفسه يبرر وجودها . غير أن قيمة النفي مرت في هذه المعمولات إلى حدّ أن أمانت قيمتها الحقيقية وصارت الكلمة ، بعد أن أصبحت نفيّاً ، تستعمل مع أى فعل لنفي أى حدث [أى ولو لم يكن فعل الرؤية أو الأكل أو ... الخ] . بقى من هذه الكلمات كلمة pas (أصل معناها : « خطوة ») وكلمة point (أصل معناها « نقطة ») تستعملان أداى نفي ؛ ولكنهما لا يستويان في الاستعمال ؛ أما goutte (أصل معناها « قطرة ») فقد بقيت في عبارات معدودة (je n'entends goutte « لا أسمع مطلقاً (حرفياً : لا أسمع قطرة) » je ce vois goutte « لا أرى مطلقاً (حرفياً : لا أرى قطرة) » و mie « فتات ، كسرة » اختفت تماماً من لغة الكلام ، ولكن الناس استمروا زمناً طويلاً يقولون : je ne dors mie « لا أنام مطلقاً (حرفياً : لا أنام كسرة) » و je ne souffle mie « لا أنفّس مطلقاً (حرفياً : لا أنفّس كسرة) » ؛ وقد كان ذلك يصبح مستحيلاً لو أنه بقى في شعور المتكلم شيء ، مهما كان قليلاً ، من المعنى الحقيقي لهذه الكلمات .

قبل أن تصير الكلمة مجرد لاحقة ، تتفرغ من معناها الحقيقي شيئاً فشيئاً وبطريقة غير محسوسة . ويمكننا أن نلاحظ الطريقة التي يتم بها هذا العمل في اللغات التي لا زالت تمارس التركيب بصورة عادية . فقد صاغت الألمانية مثلاً عدداً كبيراً من الكلمات المركبة بواسطة كلمة Mann « رجل » مثل : Bergmann « مُعدّن [عامل مناجم] » و Dienstmann « فاعل [العامل الذي يشتغل في الأعمال اليدوية] » و Fuhrmann « حوذي » و Kaufmann « تاجر »

وكذلك الحال مع كلمة Frau « امرأة » فيقال Hausfrau « خادمة »
 وWaschfrau « غسالة ». فهذه كلمات مركبة تركيباً حقيقياً وتحس على أنها كذلك.
 غير أن وجود كلتي Mann « رجل » و Frau « امرأة » منعزلتين يجعل السامع
 يحس التركيب بعض الشيء . وكون الكلمات التي يدخلان في تركيبها تجمع
 بواسطة Leute « ناس » فيقال Dienstleute « قَمَلَة » و Kaufleute
 « تُجَّار » يقوى هذا الشعور . ومع ذلك فن المؤكد أن عناصر التركيب تلك
 ليس لها في العقل نفس الأهمية ؛ فالنبر الذي يقع على أول المنصرين يقتل من شأن
 الثاني بالنسبة للأول ؛ والنبر هنا يسير مع المعنى أولاً وقبل كل شيء . ذلك أن المنصر
 الأول هو عنصر الكلمة الدال ؛ وقيمة الثاني قيمة صرفية على وجه الخصوص .
 فنحن في الفرنسية نترجم الكلمات Bergmann « عامل مناجم » و Fuhrmann
 « حوزي » و Kaufmann « تاجر » بالكلمات mineur و voiturier و
 négociant ، أي بوضع لاحقة بسيطة مكان الطرف الثاني من المركب الألماني ،
 لاحقة لها نفس القيمة التمييزية . أغلب الظن أننا لا نستطيع أن نقول بأن المنصر
 الألماني Mann- لاحقة ، ولكنه صائر إليها ؛ ولعله يصير مع ذلك بكل ما تتميز به
 اللاحقة . فالمنصر الأول يجذب إليه التفات العقل كله ؛ والثاني يقنع بدور
 لا يكاد يزيد عن دور اللاحقة ^(١).

ننثر في الألمانية على لواحق عدة خلقت بهذه الصورة . فقد كان يقال في الألمانية
 العليا القديمة ni scuuous thu heit manno sonam hominum « (إنجيل متى ١٥/٢٢) ثم أخذت كلمة heit تدخل في
 التركيب ، مثل : man-heit « الإنسانية » vip-heit « النسوية ، النساء » .
 وأخيراً أصبحت اليوم لاحقة من أشيع اللواحق (Mensch-heit « الإنسانية » ،
 Schönheit « الجمال » الخ) . ويمكننا أن نجد نفس الطريقة إذا تتبعنا نشأة
 اللاحقتين lich- أو -tum . فالأولى اسم قديم معناه « جسم ، شكل » ولا يزال
 محتفظاً به حتى اليوم في Leichnam « رمة » و Leichdorn « جسم في القدم

(١) جانسمان Ganzmann : رقم ١٦٤ ، ص ٢٦ .

[كآل] « ، ونجده في gleich » الذى له نفس الشكل ، مشابه ، وصار لاحقة في صورة lich في weiblich « الذى له صورة المؤنث » و leiblich « ما له صورة محبة » ، الخ . واللاحقة -tum- نجدها اسما مستقلا في القرن التاسع في قصيدة أنفريد Otfred (فى صيغة « حدث ، وظيفة ») ؛ ثم قيل rihhiduam « امبراطورية » ، (يعبر عنها الآن بـ reichtum) ، ثم على سبيل التوسع ، Deutschum « الألمانية » و Yankeetum « الأمريكية » الخ . ونعثر على هذا الاتجاه بعينه فى الإنجليزية القديمة حيث نجد wēfhad « النسوية » تقابل vip-heit فى الألمانية القديمة ، و cynedòm (اليوم kingdom) تقابل königtum « الملكية » و woroldlic (اليوم worldly) تقابل weltlich « دنيوى » .

الكلمات التى صارت لواحق بعد أن أفرغت من معانيها الحقيقية ، أخذت قيمة تجريدية جعلتها قابلة للتعبير عن فصيلة صرفية . فبعضها مثلاً يعبر عن الصفة ، وبعضها عن الحالة : بعضها يميز أسماء الحدث ، وبعضها أسماء الفاعلين . هذه القيمة التجريدية لا تمنعها بعد أن نشأت من أن تتلون بألوان من العاطفة . فاللاحقة -ard التى أخذتها الفرنسية من الجرمانية حيث تستعمل عنصراً ثانياً فى بعض أسماء الأعلام المركبة (Richard ، Eberhard ، Bernhard) ، هذه اللاحقة اتخذت فى الفرنسية دلالة تهكمية ؛ هذه الدلالة نشأت بعملية القياس ، ولكن بعض الكلمات نجت من هذا القياس (مثل buvard « نشآف » foulard « منديل » فاحتفظت فيها اللاحقة بقيمتها العامة التجريدية التى لا يتخلطها أى لون انفعالى . وهذا يدل على أن هذا اللون الانفعالى طارىء .

البزة الحقيقية للكلمة الفارغة هى التجريد . فكلمة أوغلت اللاحقة فى صيرورتها كلمة فارغة ، زادت قيمتها التجريدية إلى حد أن بعض دوال النسبة تنتهى إلى أن تصبح مجرد رموز جبرية لا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى ، وهذه حال v فى الإغريقية القديمة و ita - فى السنسكريتية (انظر ص ١٠٧) . وليس من شك فى أن دوال النسبة هذه مأخوذة فى الأصل من كلمات مليئة كانت

لها في اللغة دلالة مشخصة كما في حالة الأذنين $\theta\alpha$ و $\sigma\alpha$ في الإغريقية الحديثة بالضبط (انظر ص ٨٩) . فتطور دوال النسبة يحصل إذن بالانتقال من الشخص إلى المجرد بقدر الانتقال من الخاص إلى العام .

عندنا مثال من خير الأمثلة التي تلخص عمليات تكوين دال النسبة ، وذلك في أداة الاستفهام الفرنسية $ta - \text{« } \text{نـ} \text{»}$.

جاستون بارى jaston Paris أول من لفت الأنظار إلى أهمية هذه الأداة الكثيرة الاستعمال في اللغة المعاصرة ^(١) . فعبارة il aime « يحب » وتنطق إيليم « المسند فيها الفعل إلى ضمير النائب المفرد إذا جعلت استفهاما كانت تصير في الفرنسية الوسطى il - aime « هل يحب ؟ » وتنطق : إيميل » . وكانت تستعمل على هذا النحو حتى أوائل القرن السابع عشر . وتحت تأثير جمع النائب الذي ينتهي فله بحرف التاء ils aiment « يحبون » وتنطق إيلزيم ؟ ils - aiment « هل يحبون ؟ » وتنطق إيمتيل) أقبح حرف التاء في صيغة المفرد عند الاستفهام لحفظها من الفناء الذي ينجم عن عدم التمييزية . ومن ثم جاءت $\text{il - aime - \text{« } \text{إيمتيل} \text{»}}$ التي هي نتيجة لخطوة أولى في التوسع . غير أن النائب مفردا وجمعا قد صار بهذه الوسيلة مميزا في حالة الاستفهام بالنسبة للشخصين الآخرين . فإن التاء لا توجد إلا في صيغة الاستفهام — إذ أن النطق في غيره em aime ($\text{ils aiment, il aime}$) دائما في كلتا الحالتين — فصارت هذه التاء في الواقع علامة للاستفهام حرمت منها الأشخاص الأخرى (je - aime « هل أحب » ، nous - aimons « هل نحب » ، tu - aimes « هل تحب » ، vous - aimez « هل تحبون » . وأصبح المفرد المتكلم (je - aime) في حالة نقص بين هذه الأشخاص بسبب ظروف صوتية ، بل أصبح مبعدا في بعض الأحوال إبعادا واضحاً ، وذلك في مثل (je - cours « هل أجري ؟ » و je - lis « هل أقرأ ؟ » و je - pars « هل أنطلق ؟ » و je - sers « هل أخدم ؟ » ، الخ ؛ وترضى شخصان آخران ، هما nous - aimons « هل نحب ؟ » و vous - aimez « هل

(١) رقم ١٨ ، مجلد ٦ ، ص ٤٣٨ ؛ وفارن مجلد ٧ ، ص ٥٩٩ .

تحبون » للالتباس بصيغة الأمر من الفعل المطاوع ولذلك فقد اجزاء كبيرا من قيمتهما التمييزية . وقد كان ذلك ربحاً لصيغة الشخص الثالث الاستفهامية التي أصبحت به واضحة مع قصرها ، ثم صار يستعمل أيضاً مع الفعل مسنداً إلى الظاهر مثل : *Pierre aime - t - il ?* « هل يبير يحب ؟ » ، يزيد على ذلك أن نهاية الجملة *il* (إيل) صارت تنطق *i -* (إي) بما لعملية صوتية معتادة (قارن *coutil* « نوع من النسيج » و *nombril* « سرة » و *persil* « بقونس » [وفيها جيما لا تنطق اللام الأخيرة] ، فاقطعت بذلك الصلة التي تربطه بالضمير (*il aime* [إيليم] ، *il aime - ti ?* [إيلم - تي] أو كان ذلك على الأقل في حالة ما إذا كان الفعل يبدأ بحرف حركة . وعلى ذلك صار يأخذ شيئاً فشيئاً قيمة عنصر مستقل أصبح خاصاً بمعنى الاستفهام . وأخيراً ساعد على انتشار *ti* (تي) الاستفهامية وأكده نجاحها الميل الطبيعي في اللغة الفرنسية لوصل الفعل بضمير الفاعل بعروة وثيقة . لذلك تقل الحالات التي يفصل فيها بينهما شيئاً فشيئاً : فبدلاً من أن يقال *je le dis* « أقوله » و *tu le sais* « تعرفه » [بالفضل بين الفعل والفاعل بضمير المفعول] يقال في لغة الكلام *je dis ça* « أقول ذلك » و *tu sais ça* « أنت تعرف ذلك » . وهكذا أصبحنا نتوقع اللحظة التي لا يفصل فيها بين الفعل وبين الضائر : *je* « أنا » و *tu* « أنت » و *il* « هو » و *nous* « نحن » و *vous* « أنتم » و *ils* « هم » . ومن ثم صارت دلالة القلب [بمعنى تقديم الفعل وتأخير المسند إليه] على الاستفهام تتناقص شيئاً فشيئاً . وأصبح العنصر *ti* (تي) ؟ *Pierre, aime-ti ?* « يبير ، أيجب ؟ » من أبسط العبارات وأنسبها في الدلالة على الاستفهام : فسمت في *il aime-ti ?* « هل يحب ؟ » ثم في : *j' aime-ti ?* « هل أحب ؟ » و *tu aime-ti ?* « هل تحب ؟ » *nous aimons-ti ?* « هل نحب ؟ » *ces enfants s'aiment-ti ?* « هؤلاء الأطفال ، هل يحب بعضهم بعضاً ؟ » دون تغيير في نظام الفاعل والفعل الذي تتمسك به اللغة تمسكاً قوياً .

فأداة الاستفهام *ti* (تي) تدين إذن في انتشارها إلى سلسلة من خطوات التوسع القياسي ، ساعدتها في كل واحدة منها ظروف خاصة . فأصبحت اليوم

رمزاً تجريبياً ذا صبغة عامة ؛ إذ أنه يطبق على أنواع الجملة الاستفهامية كلها دون تمييز . وذلك هو رمز الاستفهام الوحيد الذى كانت اللغة الفرنسية فى حاجة إليه .

وقد رأينا كيف وضلت إلى خلقه وبأى قدر من المهارة المرنّة اللّحّة قد خلقتة . ولم يكن فى الفرنسية تقاليد كتابية ، ولو لم تكن اللغة تتلقى وتكتب اليوم على نحو ما يفعل بلغة قوم متبررين ، ما أتيح لنا أن نرى الأداة *ti* تفصل عن الفعل الذى يسبقها . ولصرنا نكتب كلا من المبارتين : *j'aime - ti* « هل أحب » و *j'aime - ti pas* « ألت أحب » فى كلمة واحدة هكذا *Jemti* (جِمْتِي) *Jemtipa* (جِمْتِيَا) ولاعتبرت أداة الاستفهام وكذلك أداة النفي عنصرى بناء أى لاحقيتين على قدم المساواة مع اللواحق وعلامات الإعراب فى الإغريقية واللاتينية . ولفقدنا كل وسيلة للكشف عن أصل *ti* (تى) أو *pa* (پا) ؛ ولاعتبرناهما أداتين محويتين مجردتين من كل معنى ذاتى .

ولعل الإعراب فى الهندية الأوربية والسامية إنما نشأ من إصاق عناصر مستقلة التكوين إلى الأصل ، وهى عناصر كانت تحوم حوله ثم التحمت به على مرور الزمن^(١) . ولكننا نجعل نقطة البدء التى صدرت عنها . ولعله من العبث أن نحاول البحث عن الصيغة والدلالة البدائيتين لعلامة الإسناد فى التكلم الجمع أو مفعول الأداة ، أو عن لاحقة الفعل الدال على الابتداء ، فالاستمرار أو الاسم الجرد . ولكن يمكن التأكيد بأن هذه العناصر التصريفية نتجت من امتداد قياسي لكلمات قديمة مستقلة ، بعد أن شوهت تشوهاً قليلاً أو كثيراً ، وزلت إلى حد الإقتصار على أداء دور الأدوات النحوية . فالنظم الصرفية لا تتجدد بغير هذه الوسيلة .

(١) أنظر خاصة هرت Hirt ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٧ ، ص ٣٦ وما يليها ؛ وكذلك هـ أورتي H. Oertel ، ١ ، ف . موريس E. F. Morris فى :

Am examination of the theories regarding the nature and origin of Indo-European inflexion .

(رقم ٢٢ ، مجلد ١٦ ، ص ٦٣ — ١٢٢) .

الجزء الثالث

المفردات

الفصل الأول

طبيعة المفردات ومداهها (١)

لم ندرس فيما تقدم حتى الآن الكلمات من ناحية قيمتها المعنوية ، أى من ناحية المعنى الذى تعبر عنه مستقلة عن الدور الذى تلعبه فى الجملة . ومع أن دوال النسبة تكون مع دوال الماهية فى غالب الأحيان جسماً واحداً إلى حد يجعل تحليل الكلمة أمراً مستحيلاً (انظر ص ١٢٢) ، فإن الصرف مستقل عن قيمة الكلمات المعنوية وقيمتها الصوتية على السواء . وما نسميه بالمفردات هو مجموع الكلمات فى إحدى اللغات باعتبار قيمتها المعنوية . فهذه النظم الثلاثة : نظام النطق ونظام الصيغ النحوية ونظام المفردات تستطيع أن تصوّر منفصلة كل منها عن الآخرين ، تحت تأثير أسباب مختلفة . وبعض اللغات تجدد مفرداتها دون أن تغير شيئاً من صونياتها أو من نظامها الصرفي . فنجد مثلاً فى الأردية الأدبية (وهى فرع من الهندستانية) جملاً بأسرها ليس فيها من الهندية إلا النظام النحوي ، أما الكلمات فكلها فارسية . والنجر الأرمينيون يستعملون لغة أرمينية

(١) ك. أ. اردمان K. O. Erdmann ، ١٥٧ ؛ روزفادووسكى Rozwadowski ،

رقم ١٩٣ .

نطقاً ونحواً وإن كانت مفرداتها غريبة عن الأرمنية^(١). ذلك أن القالب النحوي الواحد يمكن أن تصب فيه مفردات مختلفة .

العلم الذى موضوعه دراسة المفردات يسمى الاشتقاق Etymologie^(٢) . وتنحصر فى أخذ ألفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية يذكر فيها من أين جاءت ومتى وكيف صيغت والتقلبات التى مرت بها . فهو إذن علم تاريخى يحدد صيغة كل كلمة فى أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه ويدرس الطريق الذى مرت به الكلمة مع التغيرات التى أصابتها من جهة المعنى أو من جهة الاستعمال . ومن ضياع الوقت أن نحاول البرهان على أهمية هذا العلم . فلم يأخذ العلماء فى تأسيس الصوتيات والصرف المقارنين إلا بفضل ماوصل إليه الاشتقاق من نتائج . والاشتقاق والصوتيات والصرف يسند بعضها بعضاً . فما دامت القواعد التى يجرى عليها تابع الأصوات والصيغ النحوية فى صورة الاشتقاق ، فإن هذا الاشتقاق الذى يطبقها تطبيقاً صحيحاً يقدم لعم اللغة أجدى المساعدات .

ولكن الاشتقاق يعطى فكرة زائفة عن طبيعة المفردات ؛ لأن كل مايعنى به هو أن يبين كيف تكونت المفردات . والكلمات لا تستعمل فى واقع اللغة تبعاً لقيمتها التاريخية — فالمقل ينسى خطوات التطور المعنوى التى مرت بها ، ويقول ينساها إذا افترضنا أنه عرفها يوماً من الأيام . ولل كلمات دائماً قيمة حضورية actuelle ، يعنى أنه محدود بالاحظة التى تستعمل فيها ، ومفرد ، يعنى أنه خاص بالاستعمال الوقتى الذى تستعمل إياه^(٣) .

وإذا تصفحنا قاموساً اشتقاقياً كان أول مايلفت نظرنا بعد المدد الكبير من الكلمات التى لا يذكر لها أى اشتقاق جدير بالاعتبار ، إنما هى وفرة المانى غير

(١) Finck : Die Sprache der armenischen Zigeuner ، فى نشرات

أكاديمية سانت يتر سبرج الدورية مجلد ٨ ، رقم ٥ (١٩٠٧) .

(٢) عن الاشتقاق أنظر مؤلفات الأستاذ أ. توماس . وراجع أيضاً ثورنيسن Thurneysen

رقم ٢١٤ .

(٣) Bally ، رقم ٤٥ صفحة ٢١ ، ٤٧ .

المنظرة التي توات على الكلمات . فأسماء رتبنا العسكرية مثلاً من الكابورال Caporal « الأمباشى » إلى الجنرال général « لواء » مارة بانسرجن Sergeant « جاويش » فالأدجودنت adjudant « الصول » فاليتينانت lieutenant « الملازم » فالصاغ « اليوزباشى » Capitaine فالقومندان Commandant « البكباشى » تقدم لنا مجموعة من الأخطا المتنافرة ؛ وكذلك الحال في جميع التسميات التي نبحر في تفسيرها على ضوء الاشتقاق وحده . فالاستعمال يخلع على كل كلمة قيمة محدودة دون أن يدخل في حسابها المعنى الذي كان لها في الماضي . فالاريشال maréchal لقب أكبر مقام في نظامنا الحربي ، جاءت من خادم الاسطبل (في الألمانية القديمة marah — scale ، ومنها mariscalcus في لائينية القرون الوسطى) ، ولذلك يرى العالم الاشتقاق أن ماريشال فرنسا maréchal de France والماريشال فرانس Maréchal ferrant « يبطار » يحملان اسماً واحداً .

من محض المصادفات أن كانت مجموعة واحدة بعينها من الأصوات تدل في لغة واحدة على العملية الحسابية (calcul) وعلى الحصة الكلوية (calcul) إذ أنهما يرجعان من ناحية الاشتقاق إلى كلمة واحدة . وعلى العكس من ذلك يرى العالم اشتقاق كلمتين مختلفتين في الجملتين il loue une maison « يؤجر بيتاً » و il loue la vertu « يمتدح الفضيلة » . [مع أن الفعل المستعمل في الجملة הראهنة فعل واحد يستعمل في كلا المعنيين louer] ، أو في il pratique le vol plané « يمارس السرقة بالخطف » ، و le vol à la tire « يمارس الطيران الشراعى » . [الاسم المستعمل في المعنيين سرقة وطيران واحد هو voler] . ولكنها مصادفة كبيرة أيضاً تلك التي جمعت في الفرنسية في مجموعة واحدة بعينها من الأصوات معنى الكلمة اللاتينية locare « يؤجر » والكلمة اللاتينية أيضاً laudare « يمدح » وفكرة التلصص مع فكرة الجولان في الهواء أو فكرة التفكير الحسابي وفكرة الأحجار تتكوّن في داخل الكليتين ، والتكلم لا يفرق بين هذه الحالات الثلاث المتقدمة بعضها وبعض . فاشتراك اللفظ

في أكثر من معنى *l'homonymie* يوجد مستقلاً عما كان بين الكلمات من صلات تاريخية .

أكثر من ذلك أننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما . إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعينه سياق النص^(١) . أما المعاني الأخرى جميعها فتمحى وتبدد ولا توجد إطلاقاً . فنحن في الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة عندما نقول « الخياط يقص الثوب » أو « الخبر الذي يقصّه الغلام صحيح » أو « البدوي خير من يقص الأثر » . وكذلك الحال عندما أقول « لا تصاحب الآنسة س : إنها بنت » أو « السيدة س ولدت مولوداً ، إنه بنت » أو « أقدم لك بنتي » ، فإنني أستعمل في الواقع ثلاث كلمات لا تربطها بعضها ببعض أى رباط ، لا في ذهن المتكلم ولا في ذهن السامع .

في التسليم بأن للكلمات معنى أساسياً ومعاني ثانوية صادرة عن الأول إثارة لسألة وجهة النظر التاريخية . ووجهة النظر التاريخية تلك لاقية لها هنا . ربما رأى الشخص الذي يشمل اللغة بأسرها في تطورها واتساعها بنظرة واحدة أن الريشة التي من حديد جاءت من ريشة الأوزة ، فهي عنده كلمة واحدة أخذت دالتين مختلفتين على مرور الزمن . لذلك يجدر بقاموس يفخر بتتبعه لخط سير المعاني أن يضع تحت كلمة ريشة ، معنى الريشة التي من « حديد » بعد معنى ريشة (الأوزة) . ولكن الفرنسي الذي يتكلم لفته اليوم ، لا يرى في هذين الاستعمالين في الواقع إلا كلمتين مختلفتين . ولا يوجد شخص واحد يحاول أن يشكو من القموض عند سماعه جملتين من قبيل « يعيش من كد ريشته » و « اجتث له ريشة » . وكل واحد يفهم دون تردد أن الكلام في الجملة الأولى عن أحد الكتاب وفي الثانية عن أحد الطيور . فالكلمتان مختلفتان كجميع المشتركات الأخرى . وفي اللغة كلمتان من « ريشة » تقابلان المعنيين السابقين كما يوجد

(١) ثارت ما يقول Paulhan فيما يقتبه عنه ب . لروا B. Leroy ، رقم ٨٧ ، صفحة ٩٧ .

أربع كلمات من « سو so » (وإن اختلفت في الكتابة) في الجمل الأربعة الآتية :
ils ont apposé « لقد حطوا دلاءهم »
la nature ne fait pas de sauts « وضعوا توقيعاتهم »
leurs sceaux « الطبيعة لا تقوم بوثبات »
ces enfants sont des sots « هؤلاء الأطفال بلهاء ^(١) . »

قد يمترض ممترض فيقول بأنه قد مرّت لحظة كان يحسّ خلالها بأن كلمة ريشة استعارة . ولكن هذه اللحظة لم تطل ، فأية كلمة في اللغة الجارية ليس لها إلا معنى واحد في الوقت الواحد . إذ لا كانت ريشة الأبرة تستعمل في الكتابة ، كان الذي قال « آخذ ريشتي لأكتب كلمة » قد استعمل كلمة ريشة بمعنى أداة للكتابة ، ولم يقصد استعمال استعارة ؛ وسامعه لم يقدر غير هذا التقدير . الاستعارة تشبيه مختزل ؛ تقديرها يحتاج إلى مجهود يستطيع الإنسان أن يسلم به لمؤلف يقرؤه عندما يتوفر له الوقت ، ولكنه في المحادثة لا يملك الوقت الكافي لهذا العمل . فاللغة في حاجة إلى تحديد ووضوح . وأكثر ما يجب تجنبه عند الكلام إنما هو الألبس . والجناس في حد ذاته منسلك غير طبيعي ؛ فهو عمل فني يتطلب انتباهاً خاصاً ككل إنتاج فني . وأولئك الذين يقبلون على هذا النوع من الممارسة يعرفون جيداً ضرورة تحضير الجو وإيقاظ عقل السامع ليكون على بينة مما يجري فيقف بالمرصاد لاقتناص النكتة العقلية . فلو كانت الكلمة تمثل دائماً في الكلام بكل معانيها الممكنة — لأحسّ السامع في المحادثة على كل حال ذلك الأثر المضايق الذي تحدثه في نفسه سلسلة من الجناسات .

لاشك أن هذه النتيجة تصدم المتشدين الذين يملقون أهمية كبيرة على اختيار الاستعارات ، والذين يقولون بإقصاء كل تلك التي لا تأتلف اثلاً فائداً تماماً مع سياق النص ، وقد يمترضون بأن فن الأسلوب لم يوجد عبثاً : نعم ، نحن نوافق أنه ليس من التجاوز في العناية بالأسلوب أن تعاب هذه الاستعارات المتنافرة التي كثيراً

(١) الكلمات التي تدل على دلو وتوقيع ووثبة وأبله واحدة في ضيقها ولكنها مختلفة في رسمها .

ما تنقل الخطب الرسمية والمقالات التي تنشر في صغار الصحف . فجعل « عربية الدولة تسبح على بركان » أو وصف فنانة مبتدئة بأنها « كوكب من المشب ، يعني [رغم حدائته] بأنامل فنان ناضج » ليس من العناية بالأسلوب في شيء . وكل اللغات تحتوى على عبارات عوجاء من هذا القبيل تذكر أحياناً للتفكه وإثارة الضحك . وكلنا يعرف الجملة الألمانية *der Zahn der Zeit, der Schon so manche Thräne getrocknet hat, wird auch über diese Wunde Gras wachsen lassen* وترجمتها الحرفية « ناب الدهر الذي كثيراً ما جف من دموع ، سيجعل المشب ينمو على هذا الجرح أيضاً » . لاشك أن مثل هذه الجمل تثير الضحك ؛ ولكنها لا تضحك إلا بعد تفكير ؛ أما في حرارة الارتجال فإن وجه الإضحك فيها لا يبدو دائماً . وخطوها أنها تجمع بين كلمات لا تأتلف إذا كانت مستعملة مجازياً . ولكن من يدخلها في كلامه يستطيع أن يقول في الدفاع عن نفسه بأنه لم يسع إلى عمل استمارات ، وإنما أراد أن يستعمل عبارات مصنوعة *stylisöes* في الحال . والواقع أن كلمة واحدة منها تليق بالفرض الذي وضعت له إذا أخذت على حدة . ولكن تراكمها في مكان واحد هو الذي يدعو إلى الضحك منها^(١) .

كل منامرض للوقوع في أخطاء من هذا القبيل إذا لم يراقب نفسه . فتجد الكثير منها عند الخطباء الذين يرتجلون . بل إن الكتاب ذوى المواهب ليسوا بمنجى عن الوقوع فيها . فقد أحصى الألمان الكثير منها في شعر شيلر . ولكنها لا تعاب حقاً إلا عند ما يكرر منها عدد كبير أو عندما تثير صوراً مفرقة في إثارة الضحك كما في الأمثلة السالفة . غير أن التشديد يعيبون على كل العبارات التي فيها استمارة غير مؤتلفة أو مرادة بين كلمات لا تتراوح . ومع ذلك إذا سمعنا هذه الأشياء من أفواه عامة الشعب ، لا ينبغي لنا أن نجل بالاحتكام إلى محكمة العقل ضدها على أنها من سوء الاستعمال . فإن عدداً كبيراً من العبارات الجارية التي تميزها القواميس ويستعملها خير الكتاب قد نتج من استعمالات مجازية ممسوخة . أليس من الخرق أن يقال : يملأ غرضاً (يعني « يحقق غرضاً » أو

خربت ثوبها بمعنى « abimer ») أو يحتضن صناعة أو يتمتع بصحة سيئة ؛
فالتشددون على حق حين يرفضون هذه المبارات . ولكن من الخرق أيضاً أن
نتكلم عن مرساة سكة الحديد débarcadère de chemin de fer (حيث
لا ينزل من القطار في قارب ، والمرساة débarcadèir أصلها للخشبة التي تصل بين
السفينة والشاطئ) أو عن الوصول إلى بلدة كذا arriver (حيث لا يوجد
شاطئ ، لعدم وجود نهر ، وأصل معنى arriver الوصول إلى la rive أى
الشاطئ) أو عن الاستيائك بفرشة شعر أو عن اعتناق مبدأ من المبادئ ، ولا دخل
فيه للمنق . ومع ذلك فهذه كلها من خير عبارات اللغة ، لا نحس فيها شيئاً مما
يخالف النطق ؛ وقد يمترينا الدهش حين نعلم أن بعض التشدديين من أعضاء
الأكاديمية كانوا في القرن السابع عشر يخطئون عبارة « أغلق الباب » مدعين
أنه يجب القول « ادفع الباب » أو « اغلق الرفقة »^(١).

كذلك لا نحس خيباً — اللهم إلا إذا قصدنا إلى ذلك قصداً — في مسميات
مثل « براغيت الست » أو « فسية المفريت » أو « حظيرة الحزب » ؛ لأن أصل
الاستمارة قد اختفى من الاستعمال الحالي ؛ إذ صارت أسماء تدل على نوع من الحلوى ،
أو على ظاهرة جوية أو على مستقر لجماعة ما وبالتالي على مبادئها . كما في وسعنا أن
نقول « قرن زيدا بمعمرو » دون أن نسيء إليهما ؛ لأن قيمة الكلمة الاشتقاقية
قد اختفت .

الذي يعين قيمة الكلمة في كل الحالات التي ناقشناها إنما هو السياق ، إذ أن
الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً .
والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بمينها على الكلمة بالرغم من الماني المتنوعة
التي في وسعها أن تدل عليها ؛ والسياق أيضاً هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات
الماضية التي تدعها الذاكرة تراكم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة « حضورية » .

(١) سانت افرمن Saint — Evremond : Comédie des Académiciens ،
الفصل الثالث المنظر الثالث .

ولكن الكلمة بكل المعاني الكامنة توجد في الذهن مستقلة عن جميع الاستعمالات التي تستعمل فيها مستعدة للخروج والتشكل بحسب الظروف التي تدعوها .

تنوع الاستعمالات التي تصلح لها الكلمة لا تخلف عليها قيمة عامة . إذ لا يوجد بين القيم المختلفة التي تصلح لها الكلمة قيمة وسطى . بل كل واحدة منها موجودة بأسرها ، لا تنتظر لتعزز وجودها إلا بإشارة واحدة . وإذا كان هناك شيء من التردد ، فإن ذلك التردد لا يرجع إلى القيمة نفسها بل إلى الظروف التي تتدخل فيها . في ذهني مثلاً كلمة « بنت » fille . فمعانيها التي أشرنا إليها سابقاً لا يختلط بعضها ببعض ؛ بل تبقى كل منها تحت تصرف ساعة أحتاج إليها . ومع ذلك فليس عندي في ذهني إلا كلمة واحدة هي fille « بنت » .

هذه الكلمة نفسها ليست منعزلة ، بل مسجلة في ذهني مع كل حالات السياق التي سبق أن أدخلتها فيها ، ومع كل الارتباطات التي تصلح للاشتراك فيها : « بنات وبنين » ، « بنت طيبة » ، « بنت أم » ، « بنات الملجأ » ، الخ . فأراني أربطها في آن واحد بعدة عائلات من الكلمات . وهي تثير في نفسي عدداً من التصورات يكبر أو يصغر تبعاً لقوة تخيلتي ، وكل هذه التصورات تشع منها في جميع الجهات .

ليس في الذهن كلمة واحدة منعزلة . فالذهن يميل دائماً إلى جمع الكلمات ، إلى اكتشاف عرى جديدة تجمع بينها . والكلمات تثبت دائماً بمائلة لغوية بواسطة دال المعنى أو دوال النسبة التي تميزها ، أو بواسطة الأصوات اللغوية التي تتركب منها لا أكثر من ذلك . فنحن نشعر بأن الكلمات : إعطاء ، عطية ، عطاء ، معط ، معطى . الخ ، تكون عائلة قائمة بذاتها تتميز بعنصر مشترك ، هو الأصل « ع ط ي » مهما تنوعت معاني المشتقات . كذلك الكلمات bonasse « مصطفأوى » و blondasse « شقراوى » و cocasse « مضحكاوى » و jaunasse « أصفراوى » و dégueulasse « مقرفأوى » (وهذه الأخيرة عريقة في العامية) ترانا تربطها بعضها ببعض بواسطة اللاحقة asse (آس) التي تدل على السخرية . ولكن من الكلمات إعطاء ، معط ، معطى الخ تكون

مجموعات أخرى : فإعطاء ترتبط بإجلال وإعظام ... الخ ومُعْطَر يرتبط بها مُعْطَر ومُزَرٍ ... الخ ومُعْطَر ترتبط بها كلمات مثل مُرَضِيٍّ ومُلْدَقِيٍّ ... الخ . فهناك إذن تداخل بين المجموعات .

اجتماع الكلمات تبعاً لأصواتها يؤدي دوراً هاماً فيما يسمى الاشتقاق الشعبي (انظر ص ٧٩) فالذهن يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعاً لشكلها الخارجي ، وأحياناً على عكس ما يقتضى المعنى ، بل على عكس ما يقتضى العقل السليم . وقد تسوق مشابهة غامضة بين كلمة وكلمة أخرى أشيع استعمالاً أو أكثر شهرة إلى التقريب بينهما ، ومن هنا تنشأ بعض التشويهِات القريبة : فالتسمية اللاتينية *culcita puncta* ومعناها الحرقى « ملحفة ذات غرز » *couverture piquée* صارت فى الفرنسية *courte pointe* « الفرزة القصيرة » بدلا من *coulte pointe* « الفرزة المشكوك » مع أن فكرة القصر لا صلة بينها وبين تعريف المادة التى نحن بصددِها . والرقص الإنجليزىسمى *countrydance* « رقص الريف » مع أنه منقول من فرنسا ، دخل اسمه فى اللغة الفرنسية من جديد بصيغة *contredanse* « عكس الرقص » وهى عبارة لامعنى لها . ونحن نعرف الصيغ الطريفة التى تأخذها أسماء الأمراض والأدواء الفنية فى أفواه العامة ، فهى كثر لا يفنى من التسلية للمستغلين بتسجيل الطرائف . وإذا كانت عبارة *la liqueur à pioncer* « خمر النوم » التى تقال بدلا من *liqueur opiacée* « خمر بالأفيون » وهى عبارة لذيذة موقفة المعنى ، فإنه لا يوجد أى مبرر لإطلاق *lait d'anon* « ليدانون » « لبن الحمار » على الدواء المسمى *Laudanum* .

وقد ذكرت حالة أطلق فيها اسم *chantepleure* « غناء البكاء » على نوع ما من الأنواع لاعلاقة له مطلقاً بالبكاء ولا بالبكاء حتى أصبح اسمه فى تغييراته المتتابعة من خير المثل للاشتقاق الشعبي الذى ليس للمعنى فيه أية أهمية . وأسماء الأعلام (ونمتبر أسماء الأعلام هنا بمنهاها الأوسع أنظر مايلي فى آخر هذا الفصل) مسرحاً خصيصاً لثل هذه التشويهِات . ومن أمتع هذه التشويهِات ذلك الذى جمل من *pipe de Kummer* « غليوم كومير » « اسم صانعه *Kummer* » *pipe d'écume de mer* « غليوم

زبد البحر» (ومن تسميته بالألمانية Meerschaum ، وجاء من التسمية الإيطالية pommes d'amour^١ التمبر الفرنسي (mala aethiopica) pomi dei Mori « تفاح الحب ») ومن ثم love-apples في الإنجليزية و Liebesapfel في الألمانية (كما جاء من التسمية الإنجليزية « Aunt sallay العمة سلى ، اسم للعبة) . التسمية الفرنسية âne salé « الحمار المالح » ، وجاء من الطليانية girasole (اسم نوع من الخضروات) الكلمة الإنجليزية Jerusalem اسماً لهذا النوع من الخضروات ، وصحّف اسم جبل الهيمنت Hymette في اليونان إلى Il Matto « المجنون في لغة البندقية في القرون الوسطى ») ومنها جاءت التسمية المتداولة الآن في الإيطالية السويسرية Trello-Vouno « جبل المجنون » ! هذه كلها أمثلة بيّنة من ترابط الكلمات الذي يحصل في ذهن . فحدوثه بصورة غير شعورية عادة لا يمنع من أنه بالغ الأثر .

وإذا استقصينا نتائج هذه التغيرات خرجنا من الميدان اللغوي إلى ميدان الفلكلور : فكلم من الأساطير ولدت من أحداث لقوية كتلك التي أشرنا إليها هنا ^(١) ! فبالقرب من جرينوبل قلعة تسمى سان فران Saint-Vrain حرّف اسمها إلى سن فنان Sans-Venin « دون سم » فنسجت حولها أسطورة منشؤها هذا الاشتقاق الشعبي . فالاسم وهو مطية الأفكار ، يؤدي بتلاعب التشابه والجرس إلى مقاربات تفرر بالعقل . هذه أشياء يرفضها العقل السليم ، ينظر فيها الإنسان فيظنها من خيال الأطفال ولكنها تأخذ سبيل الحقيقة . لذلك ذهب البعض إلى أن الأساطير إنما نشأت من مرض في اللغة ، وقد نجح في البرهان على بعض الحالات ^(٢) . ولكن لقصص الأولياء أيضاً نصيبها من مسئولية ذلك في غالب الأحيان : فكثير من القديسين المروفين يشفاء المرضى في ريفنا يدينون ببركاتهم إلى أنواع من الجناس ساعدت عليها صيغ أسمائهم . كذلك يطفح الطب الشعبي

(١) مكس ملر ، رقم ١٠٤ ، مجلد ٢ ، ص ٩١ — ٩٢ ، ص ٣١٧ ، نيروپ Nyrop ، رقم ١٤٦ ، ص ٢٢٢ .
(٢) بريال ، رقم ٥٤ .

بالوصفات الناشئة عن اللبب بالألفاظ ؛ فتربط الأفكار يخلق أدوية من نوع الأمراض *homoio-pathiques* ؛ ذلك أن الكلمات لها دائماً قيمة رمزية إن قليلاً وإن كثيراً^(١) .

أشرنا فيما سبق إلى ما بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية من علاقات ؛ فكلماتها تختلطان في الاستعمال الذى يستخدم الكلام ؛ ولكن هذا المزج يكون على أثبت حال في ميدان الأفراد منه في أى ميدان آخر . فالكلمة لا تحدد فقط بالتعريف التجريدى الذى تحددها به القواميس . إذ يتأرجح حول المعنى المنطوق لكل كلمة جو عاطفى يحيط بها وينفذ فيها ويعطيها ألواناً مؤقتة على حسب استعمالها . بل حتى عند أقل الناس خيالاً وأبدهم عن التأثير يختلط بالمعنى التجريدى العام الذى تبين عنه الكلمة ، ألوان خاصة هى التى تكون قيمتها التعبيرية .

إذا أردنا تحليل هذه القيمة اكتشفنا فيها خصائص متنوعة وأصولاً عديدة . فهي تنشأ أولاً من اتفاق يتكون بين معنى الكلمة والأصوات التى تتألف منها . نعم أغلب الظن أنه لا يوجد اليوم من يرى رأى الرئيس دى بروسى *de Brosses* أو رأى كوردى جيلان *Court de Gébelin* من أن الكلمات تكونت فى الأصل من أصوات مساوية للأفكار وأن *fleuve* « النهر » *مفلريدن* باسمه إلى أن الحرفين *fl* اللذين يحتويان حرفاً مائماً يوقظان الإحساس بشيء « يسيل » إذ لا يوجد أى تطابق مبدئى بين الصوت والمعنى ؛ فالفردات لم تخرج من مجموعة من أسماء الأصوات . ولا نظن أحداً يضم صوته إلى مقولة رجل الكنيسة الذى يزعم أن الأسماء يجب أن تتفق وطبيعة الأشياء ، كما يقول سان توماس الأكويني :
nomina debent naturis rerum congruere .

ولكن إذا كان هذا الاتفاق فرضاً لا قيمة له فى تفسير بناء الأفراد ، فإن هذا الفرض يحتفظ بقيمته كاملة من حيث أنه يقرر الطريقة التى يجرى عليها

(١) عن القيمة الرمزية للكلمات أنظر مير Meyer ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٢ ، ص ٢٥٦ .

عقلنا^(١) . فن الحق أن نحكم بوجود علاقة ضرورية بين الحرفين fl و rivièrè و بين فكرة السيّان إذ أن الكلمات ruisséau « مجري » و torrent « جدول » و « سيل » التي تعبر أيضاً عن فكرة السيّان بقدر ما تعبر عنها كلمة fleuve « نهر » لا تحتوى على مثل هذين الصوتين ، وأن كلمة fleur « زهرة » التي لا تكاد تتكون إلا من هذين الحرفين أيضاً لا توفى في الذهن إطلاقاً فكرة السيّان . ولكن من الحق أن كلمة fleuve « نهر » معبرة لأن الأصوات التي تكونها صالحة تمام الصلاحية لإثارة الصورة التي تمثلها .

فالواقع أن هناك بين الأصوات ومركبات الأصوات فروقاً في القدرة التعبيرية . وهذا هو سر الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معناها onomatopées ؛ فالكلمة الألمانية Kladderadatsch « كلادراداتش » تمثل جيداً مجموعة من الآنية بعضها فوق بعض وقد سقطت شظايا ؛ والكلمة الفرنسية patapouf « باتابوف » تمثل كيساً محشواً بالملابس يسقط على درج السلم ، وكلمة pan « بن » تثير الصوت الجاف الذي يصدر من طلقة مسدس ، و poum « پوم » ذلك الصدى المتمد الذي ينبعث من طلقة مدفع . وكل الموسيقيون يعرفون أن النغمات المختلفة تناسب التعبير عن الأحاسيس المختلفة إن قليلاً وإن كثيراً ؛ فهذا السلم أليق من غيره ببساطة القول ، وذلك بالمعذوبة الرقاقة اللذيذة ، وذلك بجهد الرجولة الصارم . وفطرة المؤلف تجعله يختار في كل حالة النغمة اللائقة ، لذلك كان من الحق أن الانتقال بالقطعة من نغمة إلى نغمة يشوّه طابعها في بعض الأحيان . ولكن لا يستطيع إنسان أن يقرر أن المؤلف المبقرى ليس في وسعه أن يعبر عن العاطفة التي يحسها بأية نغمة من النغمات . كذلك فن الشاعر يستطيع أن يحمل أصوات الكلمات كل تعبيرية تروقه : « الكلمة الخائقة للفكرة تصير بمناصرها الصوتية خالقة للبيت من الشعر وتخضع الكلمات الثانوية التي

(١) جرامون ، Onomatopées et mots expressifs : Grammont ، في رقم

تصبحها لتبعية نغمية « (بك دى فوكير Becq de Fouquières) . فالشاعر في وسعه أن يحدث تأثيرات غير منتظرة بكلمات يظنها البعيد عن هذا الفن غير جدية بمثل هذا الاستعمال ، وذلك بواسطة ألوان من الإعداد والمقابلة محكمة التنسيق . كل كلمة أيا كانت توقف دائماً في الذهن صورة ما بهيججة أو حزينة ، رضية أو كبريه ، كبيرة أو صغيرة ، معجبة أو مضحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذى تعبر عنه ، وقبل أن يعرف هذا المعنى في غالب الأحيان . اذكر اسم إنسان ما أمام شخص لم يره قط ، فإنه يكون عنه فكرة في الحال ، فكرة زائفة على وجه العموم . فإذا ما قدمت له هذا المجهول ، أجابك على الفور « أهو هذا ! ما كنت أظنه هكذا » مثل هذا الشيء نفسه يحصل بالنسبة لكلمات اللغة . فإدراكنا للأشياء خاضع لانطباعات غائية متباعدة من الاسم الذى يدل عليها .

إننا عند ما نقيم إئتلافاً بين الاسم والشيء ، نسير على عادة نفسية قديمة قدم العالم نفسه . فقد ظل الاسم زمناً طويلاً يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الأشياء ، وليس فقط علامة قد توضع عليها : كان يشترك معها في خصائصها . فلم تكن العلامة تُميز عن الشيء . فعبارة nomen omen تذكرنا بهذا الرأى العتيق ، ونجد منه آثاراً في تحريم المفردات وفي التشويهاب الناجمة من هذا التحريم . في ذلك الحين كان للاسم أهمية بالغة . ففى سفر التكوين تلك الأهمية البالغة التى تعلق على أسماء إبراهيم وسارة وإسحق . وفي بلاد الإغريق كان أجاكس Ajax النكدو الحظ يحمل في اسمه رمز مقدوره (سوفوكل ، أجاكس Ajax ، بيت ٤٣٠) .

واسم أوليس Ulysse يحمل في طياته بعض سمات أخلاق جدّه (انظر الأودسة ، كتاب ١٩ ، بيت ٤٠٦) . فالكلمات إذن لم تكن مجرد علامات لا خطر لها ؛ بل كانت لها قيمة سحرية ، هى التى تفسر قوة الرقى واللعنات . والكلمة المكتوبة كانت بطبيعة الحال أبلغ أثراً من الكلمة اللفوظة ؛ لذلك سنعود إلى الكلام عن قوة الكلمات السحرية في الفصل الخاص بالكتابة . ولكن الكلمة المجردة كانت كفيلة بإحداث آثار

جسام ولا سيما إذا كانت مسلوكة في بيت من الشعر ، حيث تثبت الكلمات وتنظم بواسطة الوزن ، أليس فرجيل Virgile هو الذي يقول : « إنه يمكن إزلال القمر من السماء بجملته منظومة » Carmina uel caelo possunt deducere lunam . (٨ ، بيت ٦٩) .

وكانت تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تلخص في الاسم la satire « الهجاء » . هذه الكلمة لا تثير في أذهاننا ، نحن المتحضرين ، غير فكرة تمرين أدنى عدا عليه الزمن بعض الشيء ، ولكنه على كل حال لا يملك خيراً للإنسان . غير أن الهجاء في وقت ما كان يتقمصه ساحر ، وكان الهجاء لعنة فادحة تصيب من يوجه إليهم . ونحن نعرف ما كان لأهاجي أرشيلوك Archiloque من نتائج . فهذا الماشق المطرود قد استطاع بقصائده الهجائية أن يلقي اليأس في قلب والد معشوقته وأن يقوده إلى الانتحار ، وأقصى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها . ورواية هذه القصة يحكونها لنا على أنها أسطورة من الأساطير ، تشيد بموهبة أرشيلوك وإن لم تشد بخلقه . ولكن ليس من العدل في شيء أن نأخذها على أنها أسطورة ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها . فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على ليكمبيس Lycambès ونيوبوليه Néobulé ؛ إذ قذفهما بلعنة سحرية لم يستطعا منها خلاصاً . وإن الشاعر الهجاء لم ينفصل عن الساحر الآثم إلا في المصور المتأخرة بفضل تقدم الدنية . أما في الأصل فكانا شيئاً واحداً ، وقد ظل الناس في كثير من الأقطار حيناً طويلاً لا يميزون بينهما . ففي جالية اسكتلندة يطلق على القضاء حتى يومنا هذا كلمة ortha المنقولة عن الكلمة اللاتينية orationem منذ عهد قديم ، ويقال عن الساحرة tha faul aice « لها كلمة » ، وذلك إشارة إلى قوتها^(١) .

فالواقع أن معرفة الإنسان للأشياء بأسمائها إمساك لها في قبضته ؛ وإذن فعمل المقررات علامة القوة . لذلك كان سحرة الأثاردافيدا المتطليوبون يقولون في رقام : « أيتها الحمي ! لن تفلتي مني ؛ فإني أعرفك باسمك ا » والأمر الذي يوجه إلى

(١) ج . هندرسن G. Henderson : بقايا من الاعتقاد عند الكلتين : (١٩١١) ، ص ١١ ، ١٨ ، ٢٩١ .

الداء ليفارق المريض أبلغ دلالة من ذلك . ففي معرفة اسم المرض شفاء من نصفه ، ولا ينبغي لنا أن نسخر من هذه المعتقدات البدائية ؛ فإنها لا تزال سارية حتى يومنا هذا ، إذ لازلنا نعتقد في أهمية الألفاظ التي تعبر عن تشخيص الأمراض . « عندى ألم شديد فى الرأس يادكتور . فيجيب الطبيب : عندك Céphalalgie « صداع » أو إنى سبب الهضم ياسيدى الطبيب ، فيجيب هذا الأخير : عندك dyspepsie « عسر هضم » . مثل هذه المحادثة الجديرة بإحدى روايات مولير تتكرر كل يوم فى عيادات الأطباء . قد يقال بأن الاسم الفنى يحدد المرض بأكثر مما يفعله الاسم العادى وأنه يدل على مجموعة أعراض معينة وأن « الصداع » ليس مرادفاً لوجع الرأس وعسر الهضم ليس مرادفاً لسوء فى الهضم . ولكن الواقع أن الطبيب لا يفعل أكثر من أن يضع كلمة معممة مكان كلمة عادية مبتذلة يفهمها هؤلاء المرضى جميعاً ؛ والمرضى يشعرون بالارتياح حينما يعلمون بأن رجل الطب قد عرف الداء الخفى الذى يشكون منه ، عرفه باسمه .

إنها علاقات قياسية ، تلك العلاقات التى تتقابل وتتقاطع حول الكلمات ، وهى التى تقوم بين الأصوات والأفكار والأشياء ؛ هذه هى النتائج التى يتركها فى المفردات عمل العقل . وإذن فالكلمة التى تطفو فى الشهور لا تكون كلمة منعزلة . فإنها متى مثلت أمامنا ، ولوفى صفة واحدة منعزلة من صفاتها مع بقاء صفاتها الأخرى فى الظلام ، جزت وراءها جحفاً من المعانى والمواطف التى ترتبط بها بمرى دقيقة على استعداد دائم للكشف عن نفسها . فالكلمات التى تختزنها فى ذهننا تشارك فى حياتنا العقلية والماطفية كلها .

لذلك ربما كان من المتبع معرفة مقدارها^(١) .
بعض اللغويين طرحوا هذا السؤال ، وحاولوا أن ينجسوا عنه بالأرقام . فزعم مكس ملر مثلاً استناداً على شهادة قسيس فى إحدى القرى أن مجموع الكلمات التى يستعملها فلاح إنجليزى أى لا يتجاوز ثلاثمائة كلمة . وآخرون لم يعدموا أن يحتجوا

(١) انظر مكس ملر : رقم ١٠٣ ؛ ص ٢٨٧ وما يليها .

بمفردات شكسير التي تبلغ ١٥٠٠٠ كلمة عند بعضهم و ٢٤٠٠٠ عند البعض الآخر . ويقال إن الكلمات التي استعملها ملتن Milton تتراوح بين ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ كلمة . وأن قصائد هوميروس تحتوي على حوالى ٩٠٠٠ كلمة والمهد القديم على ٥٦٤٢ كلمة والمهد الجديد ٤٨٠٠ كلمة . وهذه أرقام لا تدل على شيء ذى خطر . إذ يجب أولاً وقبل كل شيء أن نقضى المؤلفات الأدبية من حسابنا . طبعا نستطيع أن نعرف على وجه الدقة عدد الكلمات التي تولف الإلياذة والأودسة أو مسرحيات شكسير أوراسين . ولكن من العبث أن نزع أننا بذلك نحدد مفردات هوميرو أو شكسير أوراسين . فن الكتاب البرزين من بضيقون دائرة مفرداتهم عن قصد : لذلك كان من غير الحق أن نحكم بمآسى راسين على سعة لغتنا كما يكون من غير الحق أن نحصى عدد سكان فرنسا بعدد النخبة المختارة من رجالها . ولكن لغة الكاتب على وجه العموم تزداد ازدياداً صناعياً بعدد من الكلمات يقتنصها مصادفة من بعض مقابلاته أو من البحث في الكتب ، وذلك إذ لم يخترعها اختراعاً . فهل لنا أن نعد من مفردات فكتور هوجو كلمة Jérimadeth الشهيرة التي ليست إلا « مسخرة » ، وكثيراً غيرها من أسماء الأعلام التي وإن كانت واقعية فليس لها في دماغ الشاعر، إلا وجود عرضي زائل . وإذا غضضنا النظر عن أسماء الأعلام ، فكم من كلمات مشتركة استخرجها الشاعر من القاموس ولم تكن بالنسبة إليه إلا نبعا عرضياً مؤقتاً . فينبغى ألا نخلط بين مفردات الكاتب وبين قاموس الكلمات المستعملة في مؤلفاته . فثل هذا القاموس يعدّ خليطاً دائماً : فيه كلمات السادة تجاورها كلمات السوق والمصطلحات الفنية تجاور ألفاظ الحياة اليومية . في كل قاموس أنواع عديدة من المفردات يختلط بعضها ببعض إذ تضاف إلى مفردات الكاتب الخاصة به والتي يستعملها في كلامه المعتاد ، أنواع أخرى من المفردات منها الحوشي والعلمى والعامى وهي التي تعد أسلوبه بالثراء وتجمل له قيمته في غالب الأحيان .

لا يعرف إنسان مقدار مفرداته ، ولا توجد أية طريقة لتقديرها . إذ لا يكفي أن نستمرض كلمات القاموس كلمة كلمة لنرى الفكرة التي تثيرها في ذهننا ،

إذا كانت تثير فكرة ما . إذ أننا في مثل هذه الحال نضع أنفسنا في ظروف مخالفة للواقع كل المخالفة . فالكلمات لا تصف في ذهننا كما تصف في أعمدة الكتاب . ولا يتأتى لنا أن نجعل نظرنا في متابعتها وأن نستعرضها كما يستعرض القائد الجند في صفوفهم . ولا نفر بالضبط من أي مستقر يخرجها نشاطنا العقلي ليسلكها في الجمل . وليصحبها كاملة الإعداد في أعضائه الصوتية . فالكلمة لا توجد منزلة في الذهن إطلاقاً بل تكون جزءاً من مجموعة ذات امتداد ما نستعير منها قيمتها . ولكن تكون المجاميع يرجع في نفس الوقت إلى علل نحوية أو سيكولوجية أو تاريخية أو اجتماعية مما يجعل من العبث كل محاولة لإحصاء المفردات .

إحصاء المفردات ولو من وجهة نحوية خالصة ، يعد أمراً متعذراً . فقد بينا مقدار العسر الذي يطرأنا في تعريف الكلمة ، ومقدار الصعوبة التي نلاقها غالب الأحيان في تحليل عناصرها . بالطبع ينبغي لنا عند تعداد المفردات أن نحصى دوال النسبة ؛ ولكن هناك كلمات كثيرة ليست إلا دوال نسبة ، كما أن من دوال النسبة ما يعتبر كلمات . فالنق مثلاً أكثر من مجرد لاحقة تشير إلى جنس : إلى وظيفة نحوية ؛ فإذا اعتبرناه من دوال النسبة بمحسناه حقاً من غير وجه . ومع ذلك فالنق لا يعبر عنه في كثير من اللغات بكلمة منزلة مستقلة : فعندما نقول الإيرلندية في نقى domelim « آ كل » nitioimelim « لا آ كل » وتقول اللتوانية في نقى neszu « أحمل » nëneszu « لا أحمل » لا نرى أن ندخل في اعتبارنا في كلتا الحالتين إلا كلمة واحدة ، ولكنها كلمة تحتوى على دال نسبة منق .

عبد الكلمات لا يمكن أن يحدّ نحويّاً بفضل فصائل اللواحق . فقد استطعنا في الفرنسية ، حيث اللاحقة eur — بقيت حية ، أن نأخذ من promener « التزه » promeneur « متزّه » ومن marcher « المشى » marcheur « مشاء » ومن trotter « المدو » trotteur « عداء » . ومن ثمّ لا نهم بأن تكون كلمة galopeur « عداء » موجودة أو غير موجودة ؛ لأننا إذا (١٦ — ٢)

احتجنا إلى استعمالها فهمنا محدثنا على الفور ، إذ أن العناصر التي تكونها ليست غريبة عليه . فحتى لو لم توجد الكلمة في القاموس ، وجب عدها بين كلمات اللغة الفرنسية ، إذ أنها توجد بالقوة في ذهن الفرنسيين جميعاً . إذن فهناك عدد من الكلمات التي لا أشعر بها حالياً والتي لم أستعملها إطلاقاً ، وربما لن أستعملها أبداً ، ولكنها مع ذلك تكون جزءاً من مفرداتي إذ أنها تحضر طبيعياً في ذهني إذا احتجت إليها ، وأفهمها على الفور إذا استعملت أماًى . ومع ذلك فهذا المثال الفرنسى أقل حججاً مما في لغات أخرى كاللتوانية ، حيث تؤخذ الأسماء المجردة وأسماء الفاعلين بالمراد من إحدى الصيغ الفعلية كما يؤخذ منها المستقبل أو صيغة التبعية . من هذه الوجهة ، التي هي وجهة نظر النحو ، تعتبر المفردات غير محدودة . وهي ليست أقل بعداً عن التحديد من وجهة نظر الاستعمال المعنوى البحث للكلمات . فقد رأينا فيما سبق أن الكلمة لها على وجه العموم من المعاني بقدر ما لها من الاستعمالات . ولكن كل معنى منها مستقل عن المعاني الأخرى ، إذ أنه لا يكون في ذهننا عند استعمال الكلمة إلا معنى واحد . يمكننا إذن أن نقول بأنه يوجد في المفردات كلمات مختلفة بقدر ما يوجد من استعمالات لكل كلمة من كلماتها . ولما كان عدد الاستعمالات التي تصلح لها كل كلمة لا يحد ، إذ أن الاستعمال العام يخلق استعمالات جديدة كل يوم ، وجب أن نقرر أن مفردات اللغة تزداد دون حدٍّ ما دامت اللغة حية . فكل كلمة فيها ينبغي لها أن تعد مرات عديدة ، مرات يستحيل تحديدها :

إذا اعتبرنا المسألة من وجهة نظر أخرى ، وجدنا كثيراً من الكلمات لا يصح أن تعدّ بين المفردات .

هناك نظام تصاعدي للكلمات يسمح بتمييز الفعل من الصفة أو من الاسم ، والاسم المشترك من اسم العلم (أنظر الصفحة الأخيرة من الفصل الثالث) . هذا النظام التصاعدي له ما يدره سيكولوجياً ، ولكنه يخلق فروقاً محسوسة بين الكلمات . فالتى يصوره لنا اسم من أسماء الأعلام ؟ لا شيء في أغلب الأحيان . فكيف من

شخص بين أكثر الناس ثقافة عنده فكرة صحيحة محدودة عما يسمى بركليس أو من يسمى أغسطس ، وعن الدعوة لويس الرابع عشر أو عن فريدريك الثاني . نحن نسمى علماء أولئك الذين يختزنون في دماغهم سلاسل من أسماء الأعلام ويستطيعون عند الطلب توزيعها بالتجزئة إزاء إعجاب الجهلة والبلهاء . ولكن كم من هذه الأسماء نفسها توظف في أذهانهم أفكاراً واضحة ؟ . ليست تلك الأسماء في غالب الأمر إلا بمثابة حمل ثقيل يحشون به أدمغتهم . فليس من الحق إذن أن نعتد في حساب المفردات مالا يصح أن يعتبر إلا تمريناً للذاكرة .

وكثير مما يقال بأنه من الأسماء المشتركة ليس في واقع الأمر إلا من أسماء الأعلام^(١) . فإني أعرف أن الكلمات الآتية : étourneau « زرزور » و « linotte » « عصفور التيل » و « émerillon » « يؤيو » و « autour » « صقر » كلها أسماء طيور لأنني قابلت هذه الكلمة أو تلك مصادفة في أوصاف بعض المناظر الخلوية أو عند تصفحي لكتاب من كتب التاريخ الطبيعي ، ولكن لا أستطيع أن أكون لنفسى أية فكرة عن هذه الطيور : فأسماءها لا توظف في ذهني أية صورة محددة ، إنها طيور؛ وذلك كل ما أستطيع أن أقوله عنها ، وإنه لكثير . فهناك أسماء أخرى كثيرة أثار فيما إذا كانت تدل على حيوانات ثديية أو على زواحف أو أسماك ؛ فيما إذا كانت نباتات أو معدناً ؛ حتى أصل إلى بعض الكلمات النسبية في أركان ذاكرتي فأعثر عليها مصادفة ولا أعرف عنها شيئاً مطلقاً ، لا أعرف عنها إلا أنها كلمات فرنسية .

وهكذا إذا تابعتنا امتحان المفردات ، وتحليل الكلمات التي نحتوى عليها كلمة كلمة وتصفياتها ، أدركنا أن متاع الرجل المتعلم المتقن منها محتوى على عدد كبير من الكلمات التي يردحهم بها رأسه دون جدوى . ولكن الكلمات

(١) تدریس : Sur quelques difficultés de l' étymologie des noms porpres
في — Mélanges littéraires publiés par la Faculté des Lettres de Clermont
Ferrand عام ١٩١٠ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٧ .

تتدرج بصورة غير محسوسة من تلك التى نشعر بها شعوراً تاماً ونستعملها فى حياتنا اليومية إلى تلك التى دخلت ذاكرتنا عرضاً ولا تؤدى لنا أية خدمة . فإذا أردنا عند إحصائنا للكلمات أن نضحى منها بنصيب ، فإلى أى حد يجب أن نقف فى تعيين هذا النصيب ؟

أيجب أيضاً أن نضيف إلى كل ذلك ما يشغل مخنا من أحمال من جراء معرفة لغات أجنبية ؟ إن حاذق اللغات الأجنبية هو الذى يستطيع أن يعبر عن فكرة واحدة بيمينها فى عدة لغات . وترجمان فندق من الفنادق المختلطة يعرف أسماء الأشياء المتداولة بثلاثة أوجه مختلفة ، أو أربعة أو خمسة . فهذا عمرن للذاكرة تفرضه عليه مهنته . أفقول إن مفرداته تبلغ ثلاثة أو أربعة أو خمسة أمثال خادم الفندق الذى لا يتعامل إلا مع أبناء لغة واحدة ؟ نعم إذا أدخلنا فى حسابنا هذه الحقيقة الواضحة ، وهى زيادة الحمل الذى تضطلع به ذاكرته . ولكن الواقع أن مفرداته فى هذه الحال ليست أكثر ثراء ، بل إنه يملك أنواعاً مختلفة من المفردات تتلاصق بعضها ببعض ويتراص بعضها فوق بعض دون أن تندمج عادة ، كما أن استعمالها رهن الظروف .

هناك حاجات مشتركة بين جميع الناس ، ولهذا الحاجات مفردات تكاد تتساوى فى عدد الكلمات فى كل مكان . يقال إن الفلاح الأي لا يحتاج فى حياته إلى أكثر من ثلثمائة كلمة ؛ فلنسلم بهذا الرقم ، وإن كان لا يجادل فى أنه دون الواقع بكثير . وعندئذ يتحتم علينا أن نقول بأن السيد لا يكاد يستخدم أكثر من هذا القدر فى حديثه المادى . ولكنها ليست نفس الكلمات التى يستعملها الرجل الشمى ؛ وهذا هو كل الفرق . غير أن السيد قد يعرف لغة الشعب أيضاً وقد تناح له فرصة استعمالها . وبذلك يكون له نوعان من المفردات ، نوع للصالون ونوع للمزرعة^(١) . وإذا كان جندياً عرف لغة الثكنات ، وإذا

(١) « رجل البلاط الذى يتكلم لغة السوق له عندى ، فضل المارف باللغات الأجنبية (دكلو Duclos) : *Considérations sur les moeurs* ، الطبعة الخامسة ، باريس (١٧٦٧ ، ص ٢١٢) .

كان يشارك في علم من العلوم ، عرف مفرداته الفنية . وإذا فرضنا أنه يعرف لغة أجنبية أو لنتين ، أضيفت مفرداتها إلى ما في ذهنه من قبل : أنواع من المفردات مختلفة ؛ إذ أنها نابعة عن حاجات مختلفة وتستخدم للتفاهم مع أشخاص مختلفين .

أوضح ما يلاحظه الإنسان عند اختباره للمفردات عن كسب ، هو التعميد البالغ للمتاع الذي يحمله الشخص في دماغه من الكلمات . فليست العناصر التي تكونها في مستوى واحد دائماً ، لا نحويّاً ولا سيكولوجياً ، ولا من ناحية الاستعمال الذي تستعمل فيه ، ولهذا النقطة الأخيرة أهمية خاصة . ذلك التعميد هو الذي يجعل للمفردات أهميتها . وسنتكلم عنه عندما ندرس بنية اللغات . أما الآن فسنراه يفسر لنا التغيرات التي تتعرض لها المفردات .

الفصل الثاني

كيف تغير الكلمات معانيها (١) ؟

يوجد في تطور اللغة فرق بين الصوتيات والصرف والمفردات . فالنظام الصوتي يستقر منذ الطفولة ويستمر طول الحياة ؛ فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته بمجموعة الحركات التي تمودت عليها أعضاؤه الصوتية منذ طفولته اللهم إلا أن يحدث له عارض ناتج من التعليم ، وذلك في حالة أن يتلقن نطقاً أجنبياً يحمل محل النطق القوي . النظام الصرفي ثابت أيضاً . نعم إن استقراره يتطلب وقتاً أطول ؛ ولكنه بعد أن يستقر لا يغيره تغير يذكر . ذلك بأن الصرف لا يتغير في أثناء جيل واحد ؛ بل هو كالصوتيات إنما يتغير في الانتقال من جيل إلى جيل . فالنظام الصوتي والنظام النحوي إذا ما اكتسبا مرة بقيا طول العمر ، ويدننان باستقرارهما إلى استقرار ذهنية المتكلم .

أما المفردات فعلى العكس من ذلك لا تستقر على حال ، لأنها تتبع الظروف . فكل متكلم يكون مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به . فالإنسان يزيد من مفرداته ولكنه ينقص منها أيضاً ويغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج . ولكن الكلمات الجديدة لا تطرد القديمة دائماً ؛ فالذهن يروض نفسه على وجود الترادفات والمثلثات

(١) انظر على وجه العموم : بريال Bréal ، رقم ٥٥ ؛ ونيروب ، رقم ١٠٥ ، مجلد ٤ ورقم ١٨٦ ؛ ويابرج Jaberg ، رقم ٣٨ مجلد ٢٥ ، س ٥٦١ وما يليها (وذلك عن مراجع المسألة وتاريخها) . وانظر خاصة : لثريه E. Littré : Comment les mots changent de sens (مع مقدمة وتعليقات إيشيل بريال ، باريس ١٨٨٨) ؛ ١ : ميه . Comment les mots changent de sens ، رقم ٢ ، ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ، س ١ — ٣٨ ؛ وياول Paul ، رقم ١٨٨ ، فصل ٤ ؛ وپرسون Persson ، رقم ١٩٠ ، مجلد ٢ ، س ٩٦٨ وما يليها .

ويوزعها على وجه العموم على استعمالات مختلفة . فالكلمتان الفرنسيتان chaire « كرسى » (ولكنها تقال لكرسى الأستاذية أو كرسى الخطيب... الخ) و chaise « كرسى » ؛ أو sieur « سيد » [للاستعمال العادى] و seigneur « سيد » [تطلق على النبلاء أو على من لهم أتباع ، أو من يعطى لهم لقب السيادة من جهة رسمية] ليس لهما نفس القيمة . ذلك بأن الحياة تشجع على تنير المفردات لأنها تضاعف الأسباب التى تؤثر فى الكلمات . فالملاقات الاجتماعية والصناعات والعدد المتنوعة تعمل على تنير المفردات وتقضى على الكلمات القديمة أو تحول معناها وتتطلب خلق كلمات جديدة . ونشاط الذهن يستدعى دائماً للعمل فى المفردات . وبالاختصار فإن الأسباب التى تؤدى إلى تنير الظواهر ليست فى أية مادة أكثر تعقيداً ولا عدداً ولا تنوعاً منها هنا .

لأنكاد نفكر فى تنير المفردات حتى يتجه ذهننا فى التو إلى حياة الكلمات « la vie des mots » وإلى الكتاب الصغير الذى كتبه أرسين درمستير Arsène Darmsteter بهذا العنوان^(١) . ولكن العنوان ليس أحسن ما فى هذا الكتاب . فعبارة حياة الكلمات نفسها عبارة موقفة فى اللبس وكثيراً ما أدت إلى تفسيرات لو سمعها دارمستير لما فاته أن يحتج عليها . إذ لا يعقل أن تعتبر الكلمة اعتبار الكائن الحى . فالشبه بينهما ظاهرى فقط . لأن الكلمات لا تولد وتموت على الصورة التى بها يولد الإنسان ويموت . فقد نستطيع استثناء أن نعين السنة التى فيها دخلت فى الاستعمال كلمة لم تكن معروفة حتى هذا العهد ؛ مثلاً كلمة chandail يرجع ظهورها إلى عام ١٨٩٤^(٢) ؛ ويمزى خلق كلمة pudeur « حياء » إلى الشاعر ديپورت Desportes^(٣) ، وكلمة bienfaisance « إحسان » إلى الأب

(١) رقم ٦٢ .

(٢) كليدا Clédat ، رقم ٥٩ ، الطبعة الرابعة من ١١٧ .

(٣) فوجلا Vaugelas : Remarques sur la langue française ، ملاحظة رقم ٥٢٧ ، طبعة سنة ١٧٣٨ ، مجلد ٣ ، من ٣٤٨ . ويلاحظ أن كلمة pudeur مما استعمله Montaigne (Essais ، ١٥/٢ و ٥/٣) .

دى سان بيير de Saint - Pierre ^(١) . وكلمة obscénité وهي من خلق
المتحذقات ، كانت تبدو لمعاصري مولير Molière كأنها خلق جديد ^(٢) .
وأحدث من كل هذا rescapé « ناج » التي دخلت الفرنسية على أثر نكبة
الكوريير Courrières (في سنة ١٩٠٦) وكلمة indésirable « غير مرغوب
فيه » التي دخلت على أثر مناصرة غرامية منع صاحبها من دخول الولايات المتحدة .
ولكن الأمر في الحالة الأولى يتعلق بانتشار كلمة في الفرنسية المشتركة وكانت مستعملة
فقط في مقاطعة « پا — دى — كاليه » Pas - de - calais ؛ وفي الثانية باستعارة
كلمة من اللغة الإنجليزية . فمعدنا « إدخال » لكلمتين في الفرنسية ، ولكن
في ظروف لا تشبه الميلاد في شيء .

استبدلت الفرنسية كلمة tête « رأس » مكان الكلمة القديمة chef المأخوذة
من caput اللاتينية ، وكلمة jument « فرس » مكان كلمة ive المشتقة من
equa اللاتينية . فلنفترض ، وإن كان افتراضاً بعيد الاحتمال ، أن كلمة chef عادت
إلى الاستعمال بمعنى tête « رأس » ، وأن ive احتلت مكان منافستها الموقفة
jument « فرس » ؛ أي يمكننا في هذه الحال أن نتكلم عن عودة كلمة مريضه
هي (chef) إلى الحياة ، وعن بحث كلمة بعد موتها وهي كلمة (ive) ؛ ذلك
ملا نستطيعه بأية حال ، بل كل ما هناك هو إدخال كلمتين جديدتين في الفردات
ولا يمكن أن يقال بوجود صلة بين كلمة ive التي كانت في المصور الوسطى وكلمة
ive الجديدة التي ابتكرت في أيامنا هذه بواسطة الهوى أو الحاجة .

وقد تنتقل كلمة من لغتنا إلى الخارج ، وتصير مفقودة بالنسبة لنا ، ثم تعود
إلينا بعد قرون . مثال ذلك كلمة flirt « منازلة » وكلمة budget « ميزانية »
اللتان تعتبران عندنا اليوم مستمارتين من الإنجليزية ؛ ولكننا نعلم أن فرنسا
موطنهما الأصلي ، وأنهما عبرا البوغاز إلى إنجلترا منذ زمن قديم . ومع ذلك
فن غير الحق أن ننظر بعين الجد إلى ذلك المجاز الذي يشبه الكلمات بالسافرين
الذين يبرون الحدود في اتجاه ما ثم يمددون إلى غيرها من جديد في اتجاه مضاد .

(١) ثولير Septième discours sur l' homme ; Voltaire

(٢) قد مدرسة الزوجات .

ذلك بأن الكلمة التي وندت علينا من انجلترا ليست هي الكلمة الفرنسية القديمة *fleurette* « زهرة » وإنما جاءتنا كلمة إنجليزية *flirt* « مغازلة » أدخلناها في لغتنا الحديثة . وليست كلمة *bogète* « كيس صغير » القديمة هي التي استرجعناها في صيغة *budget* « ميزانية » وإنما جاءتنا كلمة مخالفة ، كلمة أجنبية ، كلمة تدل ، فضلاً عن ذلك ، على شيء آخر غير ما تدل عليه الأولى .

ومع ذلك فلم الاشتقاق الذي يقص أثر الكلمات في خلال العصور والأقطار ذو فائدة عظيمة . نعم من المتفق عليه أن الكلمات لا تحيا حياة مستقلة ، ولا وجود لها إلا في ذهن بني الإنسان . ولكن هذا النشاط الذهني الذي لا يكف عن العمل ينعكس في الأفراد . فلنعب النلطة التي تؤدي إلى أخذ الصورة المنعكسة في المرآة على أنها شخص حي ، لأن الصورة لا حياة لها . ولكن هذا لا يظن في أن المرآة تقدم لنا بأمانة تامة سلسلة الحركات التي نعملها أمامها . ومن المسموح به أن نحكم على هذه الصورة أو أن نفسرها على نحو ما نحكم على الشخص الذي ينعكسها تماماً . وهذا التمثيل الساذج يكفي لتبرير قيمة النتائج التي يمكن أن تنتظرها من الاشتقاق .

ومع ذلك فهناك شرط لا بد منه . ذلك أن الاشتقاق لا يعتبر عمله منتهياً عندما ينجح بقوة الصبر في أن يقرر تاريخ بضع كلمات قد أخذت على أفراد . اشتقاق الألفاظ منفردة لا فائدة منه في حد ذاته ، فالحالة الخاصة ، مهما ثبتت علمياً ليست إلا ملهاة يتسلى بها إذا لم يُستخرج منها مبدأ عام يستطاع تطبيقه على حالات أخرى . ونحن نعلم أنه يوجد من بين الاشتقاقات حالات كثيرة لا تؤدي إلى نتائج عامة . فلا يهمنا كثيراً أن تكون كلمة *échalote* « نوع من البصل » مأخوذة من اسم مدينة عسقلان *Ascalon* ، أو أن *hussard* « جندي من الفرسان » مأخوذة من اسم العدد « عشرين » بالجزيرة ، أو أن *Lyon* معناها مدينة الإله لوج « *Lug* » : فذلك يمكن أن يفيد منه من يدرس زراعة الخضر أو المؤسسات الحربية أو الأساطير الكلتية ؛ ولكنه لا يفيد العالم اللغوي في شيء . فالعالم اللغوي

لا يهتم بالاشتقاق إلا ليجمع أكبر عدد ممكن من العمليات المعنوية التشابهة بقصد أن يستخرج منها القوانين العامة التي بمقتضاها يتطور معنى الكلمات .
هذه القوانين لا تكون إطلاقاً في الكلمات نفسها . وغلطة درمستير أنه أوهم بوجود نوع من المنطق الداخلي الذي يحكم التغيرات المعنوية للكلمات . فيظهر أن نظر المؤلف لم يمتد إلى أبعد من تلك التجريدات السكولاستية التي تنحصر في الاستعمالات المجازية أو في تسمية الأشياء الجديدة بأسماء قديمة : ولم يصل إلى الحقائق الواقعية المشخصة التي تمثلها الكلمات .

الكلمات على ما هي مرتبة في ذهن ليست منزلة . وميل ذهن إلى تجميعها إلى عوارض ، كموارض الاشتقاق الشعبي التي تصب الكلمات في صيغتها (انظر ص ٢٣٢) . وآثر التجميع على معنى الكلمات أقوى منه على صيغتها .
عرى الأسرة المعنوية تمسك كل كلمة في معناها التقليدي ؛ أو إذا حدث لكلمة من كلمات الأسرة الرئيسية تحول في معناها ، جذبت معها الكلمات الأخرى إلى المعنى الجديد . فلما تخصصت كلمة *habit* ، ومعناها « حالة ، هيئة » في معنى « اللباس » ، أصاب الفعل *habiller* « الوضع في هيئة ما » نفس التخصص ؛ وهاتان الكلمتان جذبتا إليهما مشتقاتهما ومركباتهما *habilleur* « من يلبس » و *habillement* « الإلباس » و *déshabiller* « انتزاع الملابس » الخ ، والكلمتان *pondre* أو *ponte* تحولت كلتاها في وقت واحد من فكرة « الوضع » عامة إلى فكرة « وضع البيض » في الكلام عن طائر أنثى . فالإحساس بالأسرة اللغوية أمسك هذه الكلمات مجتمعة .

أما إذا تراخت عرى الأسرة أو انقصت ، لم يبق شيء لنوع المعنى من أن يضل الطريق : فالكلمة اللاتينية *captivus* احتفظت بمعنى « أسير » خلال تاريخ اللغة اللاتينية بأسره ، لأنه كان يوجد إلى جانبها الفعل *capio* « آخذ » . وفي الفرنسية لم يبق الفعل *capio* بينما بقيت كلمة *captivus* المشتقة منه ، ولكن في حالة العزلة تلك ؛ فلما لم يبق لها سنادة من الأصل الذي اشتقت منه وأصبحت

غير مرتبطة بمائلة صرفية محدودة ، تطورت تطوراً سريعاً فأصبحت chétif « بئس ، ضعيف » . هذا التطور في المعنى الذى ساعد عليه انحلال المجموعة التى كانت تنسب إليها الكلمة أصلاً ، يرجع بعض الشيء إلى وجود كلمة petit فكلمة « صغير » (والتي أدت إلى خلق مؤنث منها بصيغة chetite فى بعض اللهجات) . فكلمة chétif ، وقد انتزعت من منبتها ، غرست على شكل ما فى مكان آخر ووصلت بمجموعة معنوية أخرى .

ولا تقلّ عن ذلك أهمية التجمع الصرفى . فقد رأينا إلى أى حد تنضح اللاحقة أحياناً على الكلمة حتى تحول قيمتها على غرار الكلمات المجاورة التى تحتوى على نفس اللاحقة . وكثيراً أيضاً ما نرى الصلة الصرفية التى تجمع بين كلمتين ، تمنع هاتين الكلمتين من أن يتحول معناهما إلى معنى جديد فكلمة meurtrier « قاتل » بقيت مرتبطة بـ meurtre « قتل » (كارتباط ouvrier « عامل » œuvre « عمل » أو vitrier « زجاج » بـ vitre « لوح زجاج ») فلم تتبع الفعل meurtrir « يصيب بالكدم » ومنه (meurtrissure « كدم ») فى معناه الجديد . ولكن تغيير المعنى يكثر إذا تراخت الصلة الصرفية التى تربط المشتق بالبسيط [يعنى المشتق منه] فكلمة toga اللاتينية ليس لها معنى اشتقاقى غير « ما يغطى ، ملحفة » ؛ وهى الاسم المجرد من فعل tego ، كما هى الحال فى الكلمات الإغريقية τροφή « طعام » من τρέφω « أطعم » و νομή « رعى » من νέμω « أرمى » و τροπή « حنان » من στρέφω « أعز » ، إلخ . ولكن هذه الصياغة نادرة فى اللاتينية بقدر ما هى شائعة فى الإغريقية . فصارت الرابطة التى تصل τροφή بـ τρέφω أقوى من تلك التى تصل toga بـ tego . فلم يكن هناك إذن ما يمنع الكلمة toga من أن تثبت على استعمال خاص ، وهو الدلالة على نوع من الملابس بعينه .

فى الألمانية العليا القديمة كانت بعض الصفات التى تصاغ بمساعدة اللاحقة -i- تملك إلى جانبها ظارناً يحتوى على اللاحقة -o- ؛ مثل festi « ثابت » و fasto « يثبات » ؛ skōni « جميل » و skōno « بجمال » . ولكن هذه الصياغة

المزدوجة لم تثبت على مر الزمن، وصار الظرف يصاغ من الصفة مباشرة . ومن هنا ورثت الألمانية ، بعد سقوط النهايات ، زوجين مختلفين من الكلمات هما : fest « ثابت » schön « جميل » (وهما صفتان) ، و fast و schon (وهما ظرفان) ، فلم تمد الصلة بحسبها بين كل كلمتين . فساعد ذلك على تطور معنى الظرفية : و fast أخذت معنى « تقريباً » و schön أخذت معنى « قد » (déjà) (قارن في الفرنسية à la belle heure « لحسن الحظ » و de bonne heure « مبكراً » ؛ أما إذا أرادت الألمانية في أيامنا هذه أن تقول « بثبات أو بجبال » قالت fest و schön .

ربنا هذه الأمثلة مقدار الأثر الذي تخضع له الكلمات من جراء الكلمات الأخرى التي من نفس الأسرة اللغوية . يحدث في الدماغ عمل غير شعورى يثبت الكلمات في بعض الممانى ويمدها للاستعمالات التي توجه إليها . وفي الاستعمال تتعرض الكلمات إلى تغيرات أخرى في المعنى ، والتنوير في هذه المرة يأتي من سياق النص .

تزوّد كل كلمة في لحظة استعمالها تزويداً تاماً بقيمة وقتية تبعدها عنها جميع القيم الناجمة من الاستعمالات الأخرى التي تصلح لها الكلمة . ومع ذلك فإن استعمال الكلمات يقوم بواسطة هذا التنوع نفسه ، بتأثير دائم على دلالتها . وهذا يتجلى في صورتين : الأولى تنحصر في أن الاستعمال الثابت لكلمة بعينها في نص واحد بعينه يمكن أن يمدح الذهن ، إذ أنه لما لم يكن لديه الوسيلة لتحديد قيمة الكلمة بالمقارنة ، فإنه يتعرض لتغييرها . ومن جهة أخرى قد يؤدي الاستعمال التكرار لنفس الكلمة في نصوص مختلفة إلى إبلاء قيمتها أو إلى تغييرها .

عندما نسمع جملة أو نقرأها نرى الكلمات التي تشتمل عليها يفسر بعضها بعضاً . فإذا كانت منها واحدة غير مألوفة لنا — والواقع أن هناك دائماً فترة في حياتنا نسمع فيها الكلمة لأول مرة — حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها بمشدين على سياق النص ؛ وهذه هي الخطوة التي يتبناها التلاميذ عندما يحاولون ترجمة نص أجنبي ، نص لاتيني أو ألماني مثلاً . هذه الفكرة التي نحصل عليها بالتخمين قد تكون زائفة . ولكنها تصحح في غالب الأمر ، لأن الكلمة نفسها تقابلنا بعد

ذلك في جل أخرى مع كلمات أخرى تحدد لنا معناها . وعلى هذا النحو يثبت في الذهن معنى كل كلمة .

وهناك كلمات محدودة الاستعمال لا تظهر مطلقاً إلا في محبة بعض الكلمات الأخرى . وفرصة الخطأ في هذه الكلمات أوسع . لأن الاستعمال لا يقدم لنا الوسيلة لتحديد قيمتها . وفي هذه المجال كثيراً ما تبتعد الكلمة عن دلالتها الأصلية بسبب المعنى الزائف الذي يضاف إليها . فكلمة *fruste* كانت لا يقال في الأصل إلا وصفاً للعملة التي مُسح رسمها ؛ رصار يفهم من عبارة *monnaie fruste* عملة خشنة الصنع خالية من الفن والدقة . ثم صارت تطلق بطريق التوسع على الرجل الفظ الغليظ غير المهذب . فهذا الذي تغلب هو معنى زائف ، ولعل الذي ساعد على ذلك شبهه صوتي غامض بين هذه الكلمة وبين الكلمتين : *rustre* و *rustaud* « خشن »^(١) .

الواقع أن الذهن يسعى إلى تحديد معنى الكلمات بجميع الوسائل التي في متناوله . ولكنه يندفع أحياناً إذا وجهته بعض ظروف خاصة في طريق غير مستقيم . فالصفة *émérite* كانت تطلق في الأصل على الموظف الذي يحال إلى المعاش . ثم صاروا يحاكون اللاتينية حذقة فيطلقون عبارة *professeur émérite* على ما نسميه الآن « أستاذ شرف » ولكنهم راحوا يفسرونها على أنها تدل على « الجدارة » *mérite* أو سموّ القام ؛ فأصبحوا الآن يصفون الأستاذ بأنه *émérite* إذا أرادوا وصفه بالامتياز . وهذا ضد المعنى الأصلي ، ولكنه استقر إلى حد أننا لن ندهش إذا سمعنا الناس يتكلمون عن فارس *émérite* أو طيار *émérite* . والآن بعد أن توسعت هذه الكلمة في استعمالها ودخلت في نصوص متنوعة ، فقد امتدت أمامها الفرصة للاحتفاظ بالمعنى سليماً وإن كان قد أضيف إليها عن طريق الخطأ .

ومع ذلك نلاحظ أن معنى الكلمة يزيد تعرضاً للتغير ، كلما زاد استعمالها

(١) كتب حديثاً أحد أعضاء الأكاديمية كتاباً قرأ فيه الجملة الآتية يلخص فيها صورة

جلل من أبطال الحرب : « L'ensemble est solide , dominateur et fruste »

« هو على الجملة متين ، متسلط ، خشن . »

وكثر ورودها في نصوص مختلفة . لأن الذهن في الواقع يوجه كل مرة في اتجاهات جديدة ؛ وذلك يوحى إليه بخلق معان جديدة . ومن هنا ينتج ما يسمى بالتأقلم polysémie . يجب أن نفهم من هذا الاسم قدرة الكلمات على اتخاذ دلالات متنوعة تبعاً للاستعمالات المختلفة التي تستعمل فيها ، وعلى البقاء في اللغة مع هذه الدلالات . وعندنا مثال جميل عن التأقلم في كلمة bureau « مكتب » إذ كانت تدل في الأصل على نوع من نسيج الصوف الغليظ المسمى étoffe de bure ثم أطلقت على قطعة الأثاث التي تغطي بهذا النسيج ، ثم على قطعة الأثاث التي تستعمل للكتابة أيًا كانت ، ثم على الغرفة التي تحتوى على هذه القطعة من الأثاث ، ثم على الأعمال التي تعمل في هذه الغرفة ، ثم على الأشخاص الذين يقومون بهذه الأعمال ، وأخيراً على أية مجموعة من الأشخاص تقوم بإدارة إحدى الإدارات أو الجمعيات . وخلق معنى جديد لا يقضى بالضرورة على المعاني السابقة ، فهنا يمكن لكل المعاني أن تبقى حية في اللغة إذا استثنينا الأول منها « نوع من النسيج » . وحركة التغيرات المعنوية لا تسير دائماً في خط مستقيم ؛ بل تسير في كل الاتجاهات حول المعنى الأساسي ، وكل واحد من المعاني الثانوية يمكن أن يصير بدوره مركزاً جديداً للاشعاع المعنوي (١) .

مهما تعددت الاستعمالات التي تصلح لها الكلمة وتنوعت ، فإن أحدها يظفي غالباً على ما عداه ، وهو الذي يعين معنى الكلمة الأساسي على النحو الذي يسجل عليه في القاموس . فإذا اتفق أن وجد استعمالان غالبان أو أكثر ولم يكن في الإمكان تداخلهما ، فعنى ذلك أننا أمام كلمتين مختلفتين ، كما هي الحال في الأمثلة المذكورة في الصفحة الثالثة من الفصل الأول بالجزء الثالث . ولكن هذا المعنى الغالب لا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقاً ، فهو محوط بمعان ثانوية تتحفر دائماً للظهور عليه واحتلال مكانه . المعنى الجديد ينمو شيئاً فشيئاً ، ويحل نفسه محل القديم ، كما يمتص فرع الشجرة العصير إلى أن يذوى الجذع الأساسي . وعندئذ تجد الكلمة نفسها وقد تغير معناها .

(١) درمستيلر Darmesteler : رقم ٦٢ ، ص ٧٤ .

ليبان أنه يوجد بين معاني الكلمة الواحدة معنى يتحفر دائماً لفرض نفسه على
الذهن ، يجدر بنا أن نتأمل المسألة الآتية : الاسم يمكن أن يكون ذا علاقات متنوعة
مع الحدث الفعلي ؛ ولكن عندما يؤخذ فعل من هذا الاسم ، فإنه لا يعبره على وجه
المعوم إلا عن علاقة واحدة من هذه العلاقات . فهناك إذن اختيار غير شمولي
من جانب العقل ، إذ أنه يحتجز من بين جميع الأحداث الممكنة الحدث الذي يحتاج
إلى التعبير عنه في وقت ما . ويبقى لاستقرار الكلمة التي تصاغ على هذا النحو في
اللغة ألا توجد عقبة في سبيلها من ناحية أخرى . فالألمانية اشتقت من Herz
« قلب » herzen « يضم إلى قلبه » كما اشتقت الإيرلندية من bruinne « صدر »
brunnim « أضْم إلى صدري » ؛ ولكننا نرى الألمانية تشتق من Kopf « رأس »
Köpfen الذي يدل على « قطع الرأس » ؛ والنالية تشتق من cefn « ظهر »
cefnu ومعناه « يدير ظهره » ؛ والإيرلندية من dorn « قبضة اليد » durnim
« أَلْكُم » ؛ والإغريقية من σάρεν « لحم » σαρκίεν « ينزع اللحم » ،
وفي الفرنسية coiffer أحد الناس أي « وضع غطاء له على رأسه » و fesser
أو gifler أحد الناس يعني « ضربه على الـ fesse « الإلية » أو على الـ gifle
(كلمة قديمة معناها خد) أي « صَفَمه » ؛ و plumer طائراً معناه « انتزاع
ريشه » (plumes) ؛ و boucher يعني « سدَّ الـ bouche (الفم) » ؛
و échiner معناه كسر الـ échine (العمود الفقري) ؛ و peler معناه « نزع
الـ peau (الجلدة) » (للفواكه) ؛ ويقال في اللغة الشعبية zyeuter ومعناه
fixer des yeux « يحدجه بعينه » ، ومن pilus « شعر » اشتقت اللاتينية فعلين
بصيغة واحدة هي : pilare ، « أحدها » في العصر الأول (Novius Afranius)
ومعناه « يكسوه الشعر » والثاني في عصر الإمبراطورية ، ومعناه « يحلق الشعر »
(Martial) . فلا توجد قاعدة لمعنى هذه الصياغات التي ترجع إلى عهود مختلفة
ونشأت في أوساط مختلفة ؛ أو أن القاعدة الوحيدة هي التعبير بالفعل عن الحدث
الذي يمدّ أخص من غيره بالكلمة في اللحظة التي يقرّر فيها المعنى ^(١) .

(١) عن هذه الأمور أنظر : ت. هدسن ولينز T. Hudson Williams رقم ٢١ ،

مجلد ٢٦ ، ص ١٢٢ وندلوك Nöldeke ، رقم ٢٩ ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .

هناك تقابل شيئاً يمكن أن يقارن في الصرف بالصيغ القوية والصيغ الضعيفة ؛
فبين الكلمات من حيث المعنى نوع من النظام التصاعدي يحتوى على معان قوية
ومعان ضعيفة . فالأولى ، وهى ليست أقدم المعانى بالضرورة ، تفرض نفسها على
العقل بمجرد ذكر الكلمة ؛ وتدين بقوتها إلى أهمية استعمالها ؛ أما الثانية فتبقى
في الظل لأنها نادرة الاستعمال أو خاصته ؛ ولا بد ، لإخراجها من الظلام ، من
مساعدة كلمة أخرى تضيئها وتظهر قيمتها ؛ ولكن نظام المعانى التصاعدي هذا
لا شيء فيه من الإطلاق والثبات : فهو خاضع لتزوات الاستعمال جميعها ، تلك
التي تولد التأقلم .

ترجع أحياناً التغيرات المختلفة التي تصيب الكلمات من حيث المعنى إلى ثلاثة
أنواع : التضييق والاتساع والانتقال . فهناك تضييق عند الخروج من معنى عام
إلى معنى خاص مثل (pondre « يبيض » و sevrer « يفطم » و traire
« يحلب ») ؛ وهناك اتساع في الحالة العكسية أى عند الخروج من معنى خاص
إلى معنى عام مثل (chercher « يبحث عن » و gagner « يربح » و triom-
pher « ينتصر » ؛ وهناك انتقال عندما يتبادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان
من جهة العموم والخصوص (كما في حالة انتقال الكلمة من المحل إلى الحال أو
من السبب إلى السبب أو من العلامة الدالة إلى الشيء المدلول عليه الخ ، أو
العكس) . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الاتساع والتضييق ينشآن من الانتقال
في أغلب الأحيان ؛ وأن انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى يطلق عليها النحاة أسماء
اصطلاحية (métaphore « الاستمارة » synecdoque « إطلاق البعض على
الكل » أو métonymie « المجاز المرسل بوجه عام » أو catachrèse « المجاز
المرسل بملاحة التشبه أو غيره عند عدم وجود اسم للشيء المنقول إليه « الخ) .
ونجد أمثلة منها في جميع الكتب المدرسية^(١) ؛ وهذا يفتننا عن بحثها هنا تفصيلاً .

(١) أنظر خاصة درمستبر : رقم ٦٢ ، وبريال : رقم ٥٥ . وراجع كذلك ل . كليدا :
Revue de philologie française et provençale ، مجلد ٩ (١٨٩٥) ص ٤٩ .

ولعل من الأفيء أن نذكر بإيجاز كيف تفسر أنواع التغير الثلاثة بظروف الحياة نفسها .

من حالات التضيق تلك الحالة التي يطلق فيها الاسم العام على طائفة خاصة تمثل نوعها خير تمثيل في نظر التكلم . ذلك أن الإنسان إذا وثق من أن محدثه قادر على فهمه أعنى نفسه من استعمال اللفظ الدقيق المحدد واكتفى بالتقريب العام فعندما يطلب من الفتاة الفلاحية أن تدخل « البهائم » لم تتردد لحظة واحدة في كون المقصود بها البقر الذي لا يزال في الحقل ، لأن البقر في نظرها هو البهائم بمعنى الكلمة . وبالطبع لو تكلم الراعى أو الحوذى عن البهائم كان المقصود بها في الحالة الأولى الأغنام ، وفي الثانية الخيل . وهذا التخصيص كثيراً ما يترك آثاره في اللغة . فاسم الطائر في الإغريقية القديمة *ὄρνις* أخذ معنى « دجاجة » منذ التاريخ السحيى (قرأ في إنجيل لوقا ، إصحاح ١٣ ، آية ٣٤) *ὄρνις* « دجاجة ») واليوم يطلق على الدجاجة في الإغريقية الحديثة لفظ *ὄρνιθα* . وبنفس الطريقة صار اسم الطائر على العموم *auca* ، يطلق في الفرنسية على الوزه^(١) . وقد ينشأ التخصص أحياناً من مجرد الحذف ؛ وذلك كما تستعمل كلمة *τρεός* « محروم من » في الإغريقية الحديثة للدلالة على الأعمى . لقد رأوا أن الحرمان من النظر أشد أنواع الحرمان ، فأعفوا أنفسهم من الإشارة إليه بأوضح من هذا . كذلك في اللغات الرومية اتخذت الصفة *orbis* معنى « أعمى » . ولكن لعل الرغبة في التخفيف لها نصيبها هنا ؛ فاكتنى بالمصطلح العام لتجنب ما في الكلمة الخاصة من غضاضة .

الكلمات العامة لا تكاد تستخدم في الاستعمال بقيمتها العلمية ، اللهم إلا إذا كان ذلك عند الفلاسفة ؛ فكل واحد من التكلمين يطلقها على نوع خاص من أنواع النشاط . وقد تكلم علماء اللغة عن المائى المختلفة لكلمة عملية^(٢) . فإن معناها يختلف تبعاً لما إذا كان الكلام في الجراحة أم في المالية أم في الفن الحربى أم في شئون الغابات

(١) نيدرمان *Niedermann* : رقم ٣٠ (*Anzeiger*) ، مجلد ١٨ ، ص ٧٥ .

(٢) بريال : رقم ٥٥ ، ص ٢٨٥ .

أم في الرياضة ؟ وتبعاً لذلك نعرف ما إذا كان يدور حول قطع عضو من أعضاء الجسم أو عقد صفقة من صفقات البورصة أم قيادة كتيبة من الجيش في ميدان القتال أو تعليم الأشجار التي يجب أن تقطع أو حل مسألة حسابية . وإذا تكلم علماء اللاهوت في عملية الروح القدس ، أرادوا معنى آخر غير هذه جميعاً . وكلمة « موسم » أيضاً من الكلمات التي تحتل استعمالات مختلفة كل الاختلاف . فهناك موسم ما عند كل من مدير الفندق وصاحب « القلا » وتاجر الفاكهة وزارع التبذ والخياطة ، بل وعند كل تاجر أو صانع ، فكل واحد من هؤلاء « موسم » وهو الفترة التي يكون فيها نشاط العمل على أشده ، وتختلف هذه الفترة باختلاف أنواع النشاط وباختلاف الأماكن . وفي جزء من بمبر وكشير Pembrokehire من بلاد الغال يطلق الموسم على الفترة التي ترى فيها خيل اللقاح تجوب الإقليم ؛ وهذا وحده كاف للدلالة على إقليم معنى بتربية الخيل خاصة ، فكل شخص فيه يهتم بمسألة اللقاح ، فتشير الكلمة إلى الموسم بمعناه الحق في نظر التكلم ، كما رأينا في كلمة « العملية » حيث يرجعها كل واحد من التكلمين الذين افترضناهم إلى الموضوع الذي يألفه . ويمكننا أن نسوق أمثلة من هذا القبيل لجميع الكلمات العامة ، بل لجميع كلمات اللغة ؛ لأن معنى الكلمة مهما أوغل في التخصص ، يمكن دائماً التضييق من سمته أو من تخصيصه كما يقولون .

أندر من ذلك حالة التعميم وإن كانت موجودة أيضاً . وينحصر التعميم في إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله . وهذه هي حال الأطفال الذين يسمون الأنهار باسم النهر الذي يروى البلدة التي يعيشون فيها .: هكذا يفعل الطفل الباريسي عندما يصيح وقد رأى نهراً je vois une Seine « أرى سينا » وتلك غلطة طفل لا يدوم لها أثر . ولكن هناك أخطاء مماثلة قد استمر بقاؤها . ففي السلافية الجنوبية صار اسم الوردة يطلق على الزهرة عموماً^(١) : في الصربية roža ، وفي الكرواتية rožica . امتد أثر هذه الواقعة

(١) شوخارت Schuchardt ، رقم ٢٠٣ ؛ وفارن موركو Murko ، رقم ٣٣ ،

امتداداً جعل كلمة Blume « زهرة » تختفي من اللغات الألمانية المجاورة ويحمل محلها كلمة Rose (أصل معناها « وردة ») فيقال Die Wiese ist voll Rosen بمعنى « الحقل مملوء بالأزهار » . وبطريق العدوى صارت اللغات الإيطالية في إقليم فريول Frioul تطلق اسم الوردة على كل زهرة أيا كانت ، واضطرت إلى أن توجد للوردة اسماً جديداً ، هو rosar أو garoful di spine . هذه الحالة التي لها أهميتها فيما يتعلق بانتشار الحالات الخاصة بالمفردات ، تبرهن على وجود بعض الفصائل المعنوية التي فيها تختلط بسهولة النسب الكامنة بين الأجناس والأنواع . هذه المجاميع هي التي يكثر فيها بصفة خاصة انتقال المعنى بسبب التجاور . فكل كلمة من كلماتها لها مضمون خاص بها وتدل على شيء خاص objet . ولكنها أمام العقل تشترك جميعاً في انتسابها إلى مجموعة عامة ، ولما كانت فكرة العموم تطفئ على المعاني الخاصة ، فقد يحدث للعقل أن ينتقل من أحد المعاني إلى الآخر . وهذه الظاهرة تقع بصورة خاصة في أسماء النبات والحيوان وأسماء أجزاء الجسم والأمراض والألوان .

اختلافات المعنى التي تلاحظ على اسم واحد من أسماء الألوان بين لغة وأخرى ترجع في غالب الأمر إلى أنواع من التخصص (أنظر الصفحة السابقة) ؛ ولكن الاتجاه الذي ندرسه هنا يستطيع أن يؤدي دوره أيضاً .

انتقال المعنى في أسماء النباتات كثير الوقوع . فكلمة واحدة بعينها هي التي أمدت اللاتينية بكلمة quercus (نوع من البلوط) والألمانية بكلمة forha « صنوبر » والكلمة الإغريقية φηγός (تطلق على نوع من البلوط) ، هي بعينها الكلمة اللاتينية fagus « زان » والكلمة الألمانية Buche لها نفس المعنى . يرجعون إلى أصل واحد الكلمة الإغريقية ἐλάτη « شوح » والكلمة الألمانية Linde « زيزفون » . كذلك من أصل واحد اشتقت الكلمتان الاسم الذي تطلقه على البلوط (في الإيرلندية « dair ») واللاتينية الاسم الذي تطلقه على الشربين (larix) . وكانت كلمة tanna وحدها تدل قديماً في الألمانية على البلوط والصنوبر في آن واحد . وهنا أيضاً قد يجب علينا أن ندخل التخصص في

حسابنا ، ولكن بمعنى مختلف . فمن المحتمل مثلاً أن الكلمة الجرمانية *tanna* والأصل المشترك للكلمة الإيرلندية *dair* واللاتينية *larix* كانتا تدلان على « الشجرة » أو على « الخشب » بصورة عامة (في الإغريقية *δέν*) أو على « الغابة » : وبعد ذلك ، إذا صح هذا الفرض ، استعملت كل واحدة من الكلمتين للدلالة على شجرة هامة اختيرت لأسباب تاريخية أو جغرافية . ولكن عندما نرى اسم الزان يتجاوز إلى الدلالة على البلوط كما في حالة الكلمة الألمانية *Heistör* التي تستعمل في كلا المعنيين ، لم تكن المسألة إلا انتقالاً في الدلالة لا أكثر ولا أقل ؛ ذلك بأن الذهن لم يكن قد استقر بمسند على حال وكان ينقصه التحديد ، فأطلق اسم نوع من الشجر على نوع آخر يقاربه .

أسماء أجزاء الجسم تعتبر « الميدان التقليدي لانتقالات المعنى »^(١) . فترى عدداً كبيراً منها يتأرجح في اللغات المختلفة . وينتقل بسهولة من عضو إلى عضو أو من جزء إلى آخر : فكلمة *coxa* معناها : « أعلى الفخذ » في اللاتينية ، ولكن قريبها *coss* تطلق في الإيرلندية على « القدم » ؛ ونجد الخطوة الوسطى بينهما في الكلمة الألمانية *Hächse* (وهي أفضل من *Hechse*) « أعلى الساق *jarret* » وفي مشتقات الكلمة اللاتينية (الكلمة الفرنسية *cuisse* « فخذ » ؛ والكلمة الغالية المستعارة *coes* « بنفس المعنى ») ؛ فترى أن الكلمة قد استمرت في النزول من أعلى العضو إلى أسفله . وأصل واحد هو الذي أعطانا الكلمة اللاتينية *mentum* « ذقن » والغالية *mant* « فك » والألمانية *Mund* « فم » ؛ أما الكلمة الفرنسية *bouche* « فم » فقد جاءت من اللاتينية *bucca* التي تدل على « الخد » ... الخ .

قد يوجد في بعض هذه الأمثلة استمارة أو تبخير أفضل ، انتقال شمورى . فالذهن قد يضيف مختاراً اسم أحد الأعضاء إلى العضو الذي يجاوره لقصد الزاح أو لسبب آخر . ويمكننا أن نقطع بوقوع الاستمارة إذا كانت الألفاظ تثير فكرة

(١) مرنجر Meringer : رقم ٣٣ ، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ وتسنر Zauner : Romanische Forschungen ، رقم ١٤ (١٩٠٣) ص ٣٣٩ .

جنسية وفي هذه الحالة يمكن تفسيرها إما بوازع من الحياء وإما على العكس بسوء القصد . فقد يطلق الشخص على ثدي المرأة لفظ « النحر » أو « المعدنين » حسبما يكون مذهباً أو جلفاً . وأسماء أعضاء الجسم المخزية ، وبصفة عامة الكلمات التي تطلق على أفعال مشهورة بقذارتها أشد من غيرها تعريضاً للنقل ^(١) . ويمكننا أن نقول إن الكلمات القدرة عامة كثيرة التبادل ، اللهم إلا إذا كانت الكلمة المحجلة نفسها قد أطلقت على مدلولها بطريق استعارة معلومة للمتكلم ، إذ في هذه الحالة لا يوجد سبيل لإطلاقها على عضو آخر . وهي ألفاظ يجمع بينها كونها كلمات قدرة ، وهذا تعريفها ؛ فيمكن أن تستعمل دون قيد للدلالة على أى جزء من الجسم مادام قدراً . إذ قد يكنى وجود شبه بعيد أو جوار تافه لا يحس ليبرر انتقال الكلمة من معنى إلى آخر . وكل اللغات فيها أمثلة من هذه الظاهرة ؛ فنترك للقارىء مهمة البحث عنها بنفسه .

والأسماء الدالة على عمليات الحواس هي بدورها عرضة للتبادل . فكثيراً ما تستعمل الألفاظ الدالة على اللمس والسمع والإحساس والذوق بعضها مكان بعض : وتطلق الثلاثة الأخيرة منها فضلاً عن ذلك ، على عمليات العقل ، فالفعل الإغريق αἰσθάνομαι يستعمل في نفس الوقت للذكاء والسمع والشم . وفي الغالية يستعمل الفعل clyhod « يسمع » للشم والذوق واللمس ؛ وكذلك الفعل الإيرلندي atcluinir « أسمع » له نفس الدلالة . ومن نتائج ذلك أن يقال الآن في الإيرلندية عن الأصم cluasdall « أعمى الأذنين » ، وأن الأصل الواحد ورد في اللغات الجرمانية باسم الأصم (في القوطية daubs و bauths : (أنظر ص ٢٨٠) وباسم الأبكم (في القوطية dumbs) وأمد الإغريقية باسم الأعمى (τυφλός) الذي يطلق من دلالة أيضاً على الأصم وعلى الشيطان (أوديب الملك ، بيت ٣٧) . ومما يستر الانتقال إلى أخرى على وجه التأكيد الروابط الذي يقيمه العقل بطبيعة الحال بين عمليات الحواس المختلفة .

يمكننا أن نتنبأ بنشوء علم دلالة عام ، وذلك بتركيز المعلومات المستقاة من كل لغة عن تغيرات المعنى ؛ فيسمح لنا هذا العلم بإرجاع تلك التغيرات إلى بضعة قواعد — لا من وجهة نظر منطقية كما فعل العلماء حتى الآن — بل من وجهة نظر سيكولوجية وذلك يتطلب الابتداء من الأفكار التي تعبر عنها الكلمات لا من الكلمات نفسها .

ليس من المصادفة بطبيعة الحال أن كان يعبر عن فكرة « المرة » في غالب الأحيان بالكلمة التي تدل على الرحلة : فيقال للعامل الذي ينزل براميل في كهف المنزل أو يصعد خشباً في العرفة العليا منه : كم رحلة قمت بها ؟ بدلا من « كم مرة نزلت أو صعدت ؟ » . والكلمتان uicissim ، uices في اللاتينية اشتقتا من كلمة تدل على الرحلة ، وكلمة رحلة نفسها تستخدم في صورتها الآهجية yādze للتعبير عن « مرة » في مقاطعة الفاليه Valais السفلى « سويسرة » ؛ وفي القوطية تستعمل كلمة sinths التي معناها الحقيقي « رحلة » لتكوين الظروف العددية فيقال ainamma sintha « مرة » و thrim sinthams « ثلاث مرات » ؛ وتستعمل في معنى « مرة » كلمة allvart في اللتوانية و fecht في الإيرلندية و gwaith في الغالية وفي الألمانية السفلى Reise والاسكندناوية gang ، وكل هذه الكلمات معناها الحقيقي « رحلة » . وواضح أن هذا يفسر بتطور المعنى الطبيعي تطورا مستقلا في كل بلد من البلاد التي وردت فيها هذه الظاهرة على حدة .

ومع ذلك فهناك تسميات من هذا القبيل لا يمكن أن يكون مجرد ورودها في لغات مختلفة دليلا على أنها نتيجة لاتجاه واحد بمعينه ، وإن كان مستقلا في كل حالة عنه في الأخرى . من ذلك اسم belette « ابن عرس » وهو حيوان ثديي صغير من أكلة اللحوم — فإنه في كثير من اللغات ، كما في الفرنسية ، مأخوذ من الصفة « جميل » : فهو في الألمانية Schöntierle « الدويبة الجميلة » وفي الدنمركية Kjøne وفي البريتانية Kaerell وفي الاسبانية « الغاليسية » garridina بل وفي البسكية andereder ، ومعناها الحرفي « السيدة الجميلة » .

(andere « سيدة » و eder « جميلة ») . فليس من المعقول أن تكون هذه الفكرة نفسها قد عرضت في وقت واحد في أذهان كل هؤلاء الناس الذين يتكلمون لغات مختلفة ^(١) . بل إننا هنا أمام مثال من خلق الكلمات بالهاكاة ، وبعبارة أدق من استعارة الكلمات بواسطة الترجمة ، الأمر الكثير الوقوع في حالة اتصال اللغات بعضها ببعض . (أنظر الفصل الرابع من الجزء الرابع) .

ويحدث أن ترتبط الكلمة بأسطورة فتنتشر معها وتساعدها على البقاء . وفي هذه الحالة تترجم المفردات عن واقعة فلكلورية ، فلا يمكن إذن تتبع الطريق التي مرّت به الكلمات إلا بدراسة الفلكلور . كذلك يحدث كثيراً أن تنتشر عبارة تجريدية في الأقاليم المجاورة بواسطة نوع من النقل يشبه أن يكو نسخاً . فالفعل الإنجليزى to become « يصير » مثل الفرنسى devenir تماماً ، والفعل الغالى digwyddo « يصل ، مثل اللاتينى accidere » (فالصينة cwyddo « يسقط » مثل cadere) . وسندرس هذه الحالات فيما بعد ، في الفصل الخاص باحتكاك اللغات . فهي على العموم تختلف كل الاختلاف عن الحالات التي نحن في صدد دراستها هنا ، وإن لم يكن من السهل تعيين حدّ فاصل بين النوعين . فمثلاً عندما نرى الفعل « يقع » يستعمل للتعبير عن فكرة « الإحجاب » في الألمانية (gefallen) وفي الإيرلندية (dofuil lemm) « يعجبني » حرفياً « يقع لى » ، وذلك دون وجود صلة تاريخية بين المبرتين ، ففي هذه الحال لا يسمنا إلا أن نقول بوجود استعارتين متماثلتين نشأت كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى في كلتا اللغتين . فكرة الألم تجتمع بسهولة مع فكرة العظم ، كما تجتمع فكرة القسوة بفكرة القوة . فالصفة الألمانية القديمة sêro « أليم ، موجع » التي لا تزال تستعمل في لهجات الجنوب (صربيا وشاريا) بمعنى « مجروح ، مكتئب » لم تستبق في الألمانية الأدبية إلا للتعبير عن التفضيل المطلق . ولعلنا نستطيع بسهولة أن نتصور خط سيرها . فقد قيل في أول الأمر sehr krank « مريض جداً » sehr betrübt « مكتئب جداً » قبل أن يقال sehr gross « كبير جداً » و sehr gut «

(١) رقم ٣٣ ، مجلد ٢ ، ص ١٩٠ ، هامش رقم ١ .

« حسن جداً » ؛ فلما أفرغت الصفة من قيمتها الخاصة (انظر ص ٢١٧) بقيت عبارة صرفية فحسب للدلالة على كبر السمية . ومع ذلك فما نجد ملاحظته أن الكلمة اللاتينية *saeuos* « شديد ، حاد ، قاس » ، التي تلتقي بالكلمة الجرمانية التي نحن بصدددها في أصل واحد ، قد استعملت أيضاً في اللاتينية القديمة بمعنى « كبير » : يقول سرفيوس النحوي *saeuam dicebant ueteres magnam* (ملاحظات على الإنيادة : ٤/١) . والملاقة المعنوية بين *sehr* « جداً » و *saeuos* « كبير » لا يمكن أن يفسرها التاريخ . فالأمر في كلتا الحالتين يرجع إلى تطور معنوي واحد مستقل في كل حالة عنه في الأخرى ، والإغريقية أيضاً تقدم لنا أمثلة عليه . فالظرف *δεινός* « بشاعة » أو *αἰνός* « بقسوة » يستعمل عند الحاجة للتعبير عن كبر السمية (انظر الصفحة الرابعة من الفصل التالي) .

يمكن أيضاً الانتقال دون عناء من فكرة الإشفاق إلى فكرة الحنان . فتأمل البؤس يصحبه دائماً إحساس بالحذب . لأن الإشفاق والود ينبعان من موضعين متجاورين في القلب الإنساني . فيقال حذبا : *mon pauvre petit* « صغيرى المسكين » إذ لما كانت فكرة المسكنة وفكرة الصغر مرادفتان للضعف ، كانتا توحيان بالحنان والإشفاق معاً . وفي كثير من اللغات تستعمل كلمات واحدة للتعبير عن كل هذه المواظف دون تفریق ؛ وتنتقل من أحداها إلى الأخرى . فالصفة *bleiths* تعنى في القوطية « مدرّ للشققة » ؛ وقرينتها في الألمانية العليا القديمة *blidi* معناها « ظريف » ويظهر أن أصلها هو أصل الكلمة السنسكريتية *mrityati* « يذوب ، يتفكك » ؛ فالفكرة الأساسية هي فكرة الإشفاق التي تندى القلب وتلينه .

لكن الطيبة لا تكون بلا ضعف ، وبالإغراق في الطيبة يصبح الإنسان « مغفلاً » ، كما يقول المثل الفرنسي في صراحة قاسية . والكلمات التي تمت إلى الطيبة والمذوبة والمهدوء في كثير من اللغات قد استعملت للدلالة على البلاءه . فالبساطة ، وهي فضيلة في الخلق ، تمتدّ تقصاً في العقل أيضاً . وقاصر العقل يوصف في الفرنسية بأنه *simple* « بسيط » وفي الألمانية بأنه *einfältig* « بسيط » والكلمات *débonnaire* و *bonasse* « مبالغ في الطيبة » تحملان اليوم محلا سيئاً . وقد ساعد

على انحدار المعنى في الكلمة الأولى وجود اللاحقة -asse التي تحمل معنى تحقيراً لا شك فيه . ولكن ليس هناك أى أثر خارجي ساعد على تطور الكلمات silly في الإنجليزية و albern في الألمانية و gwirion في الغالية (في الجزء الشمالى) والأولى منها معناها في الأصل « هادىء ، مأمون الجانب » (قارن sælig في الإنجليزية القديمة و selig في الألمانية) والثانية « حسن العشرة ، طيب » (فى الألمانية العليا القديمة alawar) والثالثة « صادق الود ، برىء » (وما زالت تستعمل فى جنوب الإقليم) ؛ واليوم تطلق الكلمات الثلاث ويراد بها الغي أو الأخرق . وقد وقع نفس التحول بالنسبة للكلمة الفرنسية innocent « برىء » ، ولكن بواعث دينية زادت سوءاً على سوء . ذلك أن سخرية مواطنينا دأبت تنصب على أولئك الأشخاص الذين وهبوا أنفسهم لله ليمنّ عليهم بشهادة من بساطة العقل ، إن لم تكن من النفاق : وإلى هذا الاتجاه الخالى من التبجيل تدين الكلمتان benêt و crétin بمعناها التحقيرى (فالأولى منهما جاءت من bôni « مبارك » الثانية من chrétien « مسيحى ») .

كل التغيرات المعنوية التي أشرنا إليها ليست سيكولوجية إلا جزئياً حيث أن المادة التي تدل عليها الكلمة تعين على هذا التغير بطبيعتها . فالشخص التمس يستدعى الحذب عليه بطبيعة الحال ، والرجل الطيب فيه استعداد لضعف الشكيمة وأحياناً لبساطة العقل ؛ والعنف يفترض القوة والقدرة ، ويبطش ببطش الرفيع العظيم ، فيمكننا القول بأن العقل إنما اتبع فى انتقاله من فكرة إلى أخرى السبيل الذى خطته التجربة فى الحياة ، فاختصر فى كلمة واحدة سلسلة بأسرها من الملاحظات ؛ ومع ذلك فإن نصيب العقل يعدّ على جانب من الخطورة بحيث يحول لنا أن نتكلم هنا أيضاً عن تحولات سيكولوجية : إذ لا يكفى للملاحظة أن تمون بالتجربة ، إذا لم يستطع العقل أن يستخرج منها النتيجة المناسبة . فتفسير صفات المسألة التي تبدو على رجل طيب تفسيراً سيئاً وتمجيد قسوة الظالم عن أنها من عظام الأمور والعطف على البائسين ، أليست كلها ميولاً يستجيب لها كل إنسان إن قليلاً وإن كثيراً ؟ إذا وجدنا اللغة تعبر عنها ، أمكننا أن نقول بأنّها تكشف

عن خلق التكلم : فهي علامة الخلق الساخر أو المستعبد أو الرحيم ، وبها نستطيع أن نميز الأشخاص على ما بينهم من اختلاف .

الانحدار الذي يصيب الكلمات « يعكس بطريقة ملموسة إما الاحتقار الذي نكته الطبقات الاجتماعية بعضها لبعض وإما البغض المتبادل بين الأوطان والأجناس وإما التعصب الأعمى من جانب الجماهير وإما عدم احترام التعصبين لآراء غيرهم ... فالناس يتباغضون ويتناحرون ويتبادلون الاحتقار ويتناذبون بالألقاب ، واللغة حارس أمين على آثار هذه المحافات المستمرة »^(١) . فالكلمات brigand « قاطع طريق » و ribaud « إياحي » و assassin « قاتل » و grivois « خليع » التي كانت تطلق في أول أمرها على بعض الكتائب العسكرية تدين بمعناها الحالية إلى غلظة الأخلاق الحربية واستهتارها ، كما تدين كلمة cuistre (قديماً « طباط » وكلمة goujat (قديماً « خادم ») إلى احتقار السيد لخادمه ؛ والكلمات bouquin (مستعمارة من الفلمنكية boecken « كتاب ») و lippe (مستعمارة من الألمانية Lippe « شفة » و rosse من الألمانية Ross « حصان ») و hableur (من الأسبانية hablar « يتكلم » تحمل على التهكم الساخر الذي يرتبط بكل ما يأتي من الخارج . ومما تجدر ملاحظته أن كلمة parler في الأسبانية (المشتقة من parler الفرنسية بمعنى « يتكلم ») لا تقال إلا لتدل على أمر سيء . وكلمة madame « سيدة » قد بقيت كلمة نبيلة في الإنجليزية والفرنسية ، أما في الألمانية التي دخلتها بطريق الاستعمارة ، فقد صارت عامية سوقية : ففي برلين تعتبر Madamchen من ألفاظ السوق^(٢) .

يمكننا أن نتصور علماء لبيكولوجية الشعوب يقوم على اختيار التغييرات المختلفة التي تشاهد في اللغات التي يتكلمونها خاصة بالمعنى . وقد نكون هذه

(١) نروب Nyrop : رقم ١٠٥ ، مجلد ٤ .

(٢) جوستاف كوهين : « خطاب بمناسبة افتتاح كرسى اللغة الفرنسية وأدبها بجامعة أمستردام » . باريس شامبيون (١٩١٢) ص ١٣ .

الدراسة مضنية ، ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء . بل من الممكن ألا نخرج منها بنتيجة محددة وأن نصل في النهاية إلى أن نكشف عند جميع الشعوب اتجاهات سيكولوجية واحدة على وجه التقريب ، هي ميول العقل الإنساني نفسه . ولكن قد نصل أيضاً إلى إقامة بعض الحدود وتحديد بعض دقيق الفروق . فأغلب الظن مثلاً أن نكشف لنا المفردات الإنجليزية عن احترام للأشياء الدينية وللأشخاص الذين كرسوا للدين أنفسهم أكثر مما نجد منها في مفردات الفرنسية . وقد تطلعتنا هذه الدراسة على بعض الفروق بين الألمانين والفرنسيين . فكلأها مثلاً في حديثه المائي يألف إطلاق أسماء بمض الحيوانات على الأشخاص ؛ ولكن الفرنسي يخلط بهذا الاستعمال عاطفة من السخرية والاحتقار أو القذف . أما الألماني - وهو أكثر عاطفية من صاحبه - فيفضل أن يلونها بلون من العطف . فالحمى هلمر Helmer ، من أبطال رواية لإبسن Ibsen ، يبدو للفرنسي مضحكاً ، إذ ينادي امرأته كل حين بالمصفورة أو بالسنجاب . ولكن هذه الألفاظ التي تدل على اللطافة لا تمتد جراحة في اللغة الإسكندنافية ولا في اللغة الألمانية .

وعلى العكس من ذلك ، يميل الفرنسي إلى أن يربط أفكاراً مخزية أو فاحشة بالأسماء التي تدل على أشخاص من الجنس اللطيف : وقد أصيبت برشاش هذا الانحراف أسماء الأعلام Jeanneton, Goton, Catin والأسماء المشتركة garce و gouge و donzelle و fille [تدل في الأصل على معنى بنت أو امرأة ، والآن أصبحت من الشتائم المذعة] : ولن تلبث كلمة demoiselle « آنسة » أن تصاب بما أصيبت به سابقتها .

إن أعنف الكلمات التي يتأق للغضب أو البغض أن يستخدمها ، قد تستعمل أحياناً في اللطافة ؛ فستستخدم استخدام عبارات المداعبة اللطيفة البريئة من كل احتقار أو ملام . فن المؤلف أن يدعى الطفل polisson « فاجر » أو petit coquin « الخبيث الصغير » ويوصف الصديق بأنه bon bougre « المتوه الطيب » أو vieille canaille « الوغد المجوز » . كذلك الكلمات Luder أو Schelm في الألمانية و ctverák في التشيكية يمكن أن يقال على سبيل

الملاطفة ، وهى شتائم فى الأصل . ولكن الأم الفرنسية لاتنادى طفلها : «mon petit pouilleux » «ياصغرى القمل » كما تفعل الألمانية إذ تقول بلا حرج mein Lausbube . فهناك شئ من الفرق ؛ ولكن هذه الاستعمالات رهن بالعرف بل وقصيرة الأجل . ويمكننا بسهولة أن نستخرج من الألمانية بمض العبارات الأليفة التى تبدولنا خالية من الروح مثل das ist mir Wurst und egal ! « هذا لا يعينى » ؛ و nicht die Bohne بمعنى « كلا ، مطلقاً ! » و kein Bein « لا أحد » الخ . ولكن العبارات الفرنسية مثل « la jambe ! » أو « la barbe ! » أو « la ferme ! » ليست أكثر منها تميزاً وذكاء .

وإذا كان فى وسع التغيرات الممنوعة أن تعرفنا بالسكيولوجية ، فإنها ليست أقل قدرة على تعريفنا بظروف الشعوب الاجتماعية .

إن فكرة « من الخارج » و « من الداخل » يعبر عنها فى معظم اللغات الهندية الأوروبية بمقابلة البيت بالحقل . و « dehors » (تعنى حرفياً « خلف الباب » أى كل ما يقع فى الجهة الأخرى من الباب : فى اللاتينية foras ، foris وفى الإغريقية Θύραζε, Θύρασι, Θύραφι وفى الأرمينية durs وفى الفارسية dar ؛ وما هو فى الحقول : فى الإيرلندية immach ، immaig (من mag « حقل ») وفى البريتانية ermeas (dirveas ، emeas) ، وفى اللتوانية leuke ، laukas (« حقل ») ، وفى الأرمينية artakhs (art « حقل ») والإغريقية تستعمل المقابلة بين θυραῖος, οἰκεῖος للإشارة إلى ما هو أجنبى عن الأسرة وما هو منزلى ؛ عن الأشياء التى من الخارج وأشياء المنزل . وهذا يكشف عن حالة اجتماعياً كانت فيها الأسرة جميعها تقيم فى المنزل وكان الباب الخارجى يعلم حدود الحى المائلى .

تفسر الروابط المائلية أيضاً الاستعمال المجازى لبعض أسماء القرابة الذى تقابله فى كثير من اللغات . فكون كلمة nepos تطلق فى اللاتينية على السفيه وكلمة Schwager تطلق فى الأنية على سائق عربة البريد يمكن تفسيره على أنه نوع من المزاح ؛ ويطلق اسم « الم » فى الألمانية على شيخ محبوب فعال للخير ،

واسم الـمة على الشخص المابس الكثير التفرع (die Tante Voss) . فى كل هذه الاستمارات تبدو بكل بساطة روح الخبث التى هى صورة من صور البصيرة الشعبية . وبالعكس عندما تستعمل الكلمة الدالة على ابن الأخ [أو ابن الأخت] للدلالة على المنافس كما فى السنسكريتية (bhratrivya) ، فإن هذا الاستعمال يكشف لنا عن نظام عائلى كانت فيه العلاقات بين العم وابن أخيه مختلفة اختلافا شاسعاً عما هو سائد فى عائلات اليوم .

تكون الثروة عند الشعوب الرعاة من القطعان بطبيعته الحال ؛ حيث تقدر الثروة برأس الماشية ، وبذا نصير الماشية عملة نقدية ؛ هكذا كانت الحال عند الهنود الأوربيين ، وقد احتفظت اللغات الهندية الأوربية بآثار عديدة من هذه الحال البدائية . حيث كانت الماشية ، وهى الثروة الوحيدة ، تستعمل استعمال النقود . فهو ميروس يتكلم عن بنات ἀλφεισβοιαي « أحضرن ثيراناً » لوالدهن ، يكتبن بذلك أنهن لما كن مرغوبا فيهن ، فسيذفع فيهن الراغبون مبالغ طائلة . والقانون الإيرلندى يقدّر الغرامات والأثمان عادة برؤوس الماشية ؛ فالمرأة المسترقّة (cumal) تساوى ثلاث بقرات ، وكلمة cumal نفسها صارت نوعاً من النقد^(١) . وكانت قيمة جميع المواد التجارية تقدر بهذه الصورة فى القوانين الغالية (القرن العاشر) ؛ وقرأ فى الـ Mabinogion ، وهى أخبار غالية من العصور الوسطى ، أن زينة هذه الحلة أو تلك تكلفت ثلثمائة بقرة . ولكن لدينا خير من هذا . فى عدد من اللغات تستعمل كلمة واحدة للدلالة على النقود وعلى الماشية فى آن واحد ، وإذا كان من هذه اللغات ما قصر الكلمة على أحد المعنيين ، فإن تأخر الزمن الذى وقع فيه هذا القصر يسمح لنا أن نتبع أصلها دون عناء وأن نقصر هذا التخصيص . فكلمة pecunia اللاتينية ليست إلا إحدى مشتقات pecus « ماشية » وكلمة Vieh أصبحت لا تطلق اليوم فى الألمانية على الماشية ، ولكن قريبتها fee تطلق فى الإنجليزية على نوع من الأجر . وهنا اسم الماشية كان فى المبدأ . وعكس

(١) يذكر فى الوثائق الخاصة بالقديس پترس Saint Patrice أن حصاناً بيع بـ cumal من النقود . (Codex Ardmachannus, fo 17 ba) .

ذلك قد وقع أيضاً : فكلمة χτήνος التي تطلق في الإغريقية القديمة على « الملوک » تطلق عند هيردوت على رأس الماشية وتدل في إنجيل لوقا على دابة الحبل ؛ وكلمة χτήμα شريكها في الأصل والتي لا ترى مستعملة في الإغريقية الكلاسيكية إلا في معنى « ملكية » (فيما عدا في أنتيجونا لسوفوكل : ٧٨٢) تستعمل في إقريطش بمعنى « ماشية » في أيامنا هذه . والكلمة الأنجلوسكسونية créap (وهي تشترك في الأصل مع الكلمة الألمانية kaufen « يشتري ») تعنى « تجارة » أو « من الشراء » ولكنها تطلق أيضاً على الماشية . والكلمة السلافية skotŭ (ولعلها مستعارة من الجرمانية : ففي القوطية skatts « نقود ») تطلق منذ أقدم النصوص على « الماشية » وعلى « الثروة » معاً .

فترى هنا أن بعض العوامل الاجتماعية تتدخل في تطور المفردات ، تلك العوامل التي لم نكن قد قابلناها حتى الآن إلا مصادفة . وستظهر في صورة أوضح في الفصل التالي .

الفصل الثالث

كيف تغير الأفكار أسماءها

نشرت دراسات عديدة تبين كيف تغير الألفاظ معانيها . ولكن هذا السؤال يمكن أن يدور على وجهه الآخر . فهناك مجال أيضاً لدراسة كيف تنير المعاني الكلمات ، أو بمباراة أصح كيف تغير الأفكار أسماءها .

إذا قارنا مجموعة المفردات في عصرين متباعدين من تاريخها ، أدهشنا مقدار الخلافات التي نعر عليها في مصير الكلمات . لنقابل مثلاً بين المفردات الفرنسية والمفردات اللاتينية أو بين المفردات اللاتينية والمفردات الهندية الأوروبية ، وسنجد أن بعض الكلمات التي تدلّ على أشياء واحدة قد استمر بقاؤها باطراد تام ، غير خاضعة إلا للتغيرات الناجمة من التطور الصوتي ؛ وأن بعضها الآخر قد جدّد مرة أو أكثر من مرة . فقد استعصنا عن كلمة *chef* القديمة المأخوذة من اللاتينية *caput* بكلمة جديدة هي *tête* « رأس » من *testa* ، وهذه بدورها كثيراً ما يستبدل بها كلمات أخرى في اللغة الشعبية ، مثل : *caboche* و *fiolle* و *bobino* الخ . والإغريقية الحديثة جدّدت مفردات قديمة من تلك التي يكثر دورانها على الألسن أي التي يظن أنها أقل تعرضاً للتغير من غيرها : فهي تقول اليوم *ψωμί* بدلاً من *ἄρτος* « خبز » و *χρᾶσι* بدلاً من *οἶνος* « نبيذ » و *νερό* بدلاً من *ὕδωρ* « ماء » و *σπίτι* بدلاً من *οἰκία* « بيت » و *ματι* بدلاً من *ὀφθαλμός* « عين » و *πουλί* بدلاً من *ὄρνις* « طائر » الخ .

وإذا درسنا المفردات في جميع اللغات التي نعرف تاريخها ، أمكننا بكل يسر أن نكون مجاميع من هذا القبيل ؛ لأن المفردات في كل اللغات قد خضعت لهذا التجديد إن قليلاً وإن كثيراً . وأسباب هذا التجديد ممقّدة ؛ وأحياناً تندّ عن كل.

بحث . ذلك لأن حالات الكلمات جد غريبة ، تتوقف على عوارض يستحيل أن تنبأ بها قبل وقوعها كما يستحيل أن نتخيلها بعد وقوعها إذا لم يعدنا التاريخ بما يدل عليها . ومع ذلك فهناك أسباب عامة لتجديد المفردات ، تستطيع أن تفسر الجزء الأعظم من حالاتها . ويمكننا اعتبار هذه الأسباب من وجهين : من وجهها الفردى فى سيكولوجية التكلم نفسه ، ومن وجهها الاجتماعى فى الاستعمال اللغوى الذى تقوم به البيئات الاجتماعية .

يتخلص المتكلم عادة من الكلمات التى لم تعد كافية للتعبير عن المعنى الذى نيط بها التعبير عنه ، لأنها ضعفت وبليت . وهذا اليلى نفسه يمكن أن يرجع لأسباب صوتية أو لأسباب معنوية .

الكلمات القصيرة ينقصها التعبير غالباً . وإذن فالتغيرات الصوتية بتقصيرها للكلمات ترمضها للبلى . لذلك لم يعد عندنا فى الفرنسية ولا فى أية لغة رومانية أخرى ، أثر للكلمة اللاتينية os « فم » . واستمعنا عن الكلمة القديمة ive (من equa) بكلمة jument « فرس » التى هى أقوى منها بنية . ونعرف أن اللاتينية العامية اضطرت إلى إطالة بعض الكلمات بواسطة اللواحق لتحفظها من الضياع : فالكلمات opis ، auris و sol صارت auricula و apicula و solivulus ، ومنها جاءت الكلمات الفرنسية abeille « نحلة » و oreille « أذن » و soleil « شمس » . فاللاحقة هنا ليست لها أية قيمة تصغيرية ، كما قيل أحياناً ؛ بل القصد منها إنما هو تزويد الكلمات بالحجم ، أى بالمادة التى كانت تنقصها . ولولا عملية التطعيم اللغوى تلك ، لامت عدد كبير من الكلمات بعد أن لفظها الاستعمال ؛ ومثل ذلك كلمة ains التى يبدو أن لبروير La Bruyère كان يأسف عليها ؛ فإذا كانت هذه الكلمة قد هجرت ، فذلك بسبب صيغتها ؛ فهى وحيدة القطع ، وتبدأ بحركة وتتكون فقط من حركة أنفية ، فكان مصيرها الهلاك .

هناك أيضاً ميل لطرح الكلمة التى صارت ، بسبب عوارض صوتية ، كبيرة

الشبه بغيرها . فنعالج العقبات الناجمة من تشابه الكلمات بواسطة الاستعاضة عن إحدى هذه الكلمات بكلمة جديدة . ومثل ذلك الكلمة التي تمثل صوتياً الكلمة اللاتينية serrare « ينشر » ، فإنها لم تبق حتى اليوم إلا في أما كن متفرقة من الأقاليم المتكلمة بالفرنسية ،^(١) وكانت من قبل ذات ميدان انتشار مترام الأطراف متلاصق متجانس . فإذا كانت قد استمضت عنها في كثير من الأماكن بكلمات متأخرة عنها في الاشتقاق ومأخوذة من الأصول اللاتينية secare أو resecare أو sectare فذلك لأنها كانت تشبه الفعل serare « يخلق » شها يكاد يكون تاماً ، وكان هذا الشبه يتقدم شيئاً فشيئاً نحو التماثل الكامل . ونشأ عن ذلك شيء من العسر حاولت اللغة أن تتخلص منه في كل الأماكن التي كانت تستعمل الفعلين معاً .

يرجع التجديد في هذه الحالات جميعاً إلى عارض صوتي . ومع ذلك لا ينبغي أن نبالغ في أهمية الصوتيات . إذ من النادر أن تستطيع وحدها تفسير كل شيء . فالكلمات التي تركها الاستعمال لصيغتها كانت تحتوى أحياناً على دواعي أخرى لهذا الترك . واللغات نفسها كثير ما تقاوم . فالسياق يحمي الألفاظ المماثلة من خطر اللبس ؛ وهذا يسمح بالإبقاء عليها دون إضرار . وتستطيع اللغة حماية الكلمات القصيرة وتمضيدها بأن تسندها بكلمات أخرى بصفة دأمة . فالصفتان sain « سليم » و sauf « معافي » ، لا توجد إحداها بمعزل عن الأخرى بل تتحدان معاً ؛ وبهذا تأتي لهاتين الماجزتين أن تقويا على المقاومة : فيقال sain et sauf « سليم معافي » . وليس أعلام الأما كن من الأسماء التي يسهل على الإنسان أن يتركها للضياع ؛ فإذا كانت وحيدة المقطع حاولت اللغة أن تحافظ عليها بأن تضيف إليها أسماء مشتركة تسندها : وبذا صارت الكلمات ain « اسم نهر » و Eu « اسم مدينة » و Batz « اسم قرية » على الصورة الثانية : la rivière d'Ain « نهر الإين » و la ville d'Eu « مدينة أو » و la bourg de Batz « قرية باتز » . وأحياناً بإضافة عنصر إليها يمد من طولها : فيقال في Bourg (اسم مدينة

(١) جليرون : رقم ٧٥ .

« بور » Bourg - en - Bresse (أو أن يقال بكل بساطة Bourk بنطق الكاف التطرفة : بورك) : هذه كلها أنواع يغالج بها البلي الصوتى .

وليس البلى المعنوى أقل خطورة من ذلك . فكثر الاستعمال تبلى الكلمات فى معناها وفى صيغتها ؛ ولا سيما إذا كانت من الكلمات المعبرة ، لأن قيمتها التمييزية تتضاءل بسرعة فى الاستعمال . فتصبح الكلمة مقبلة بالية . وفى حالة التعبير عن انفعالات النفس مثلاً ، نرى أقوى الكلمات تخطو نحو المحمول شيئاً فشيئاً حتى تنتهى بالإهال ، لأنها لم تعد معبرة . ويمكننا تحقيق هذه الحقيقة فى حالة التعبير عن الكمية ، ولا سيما الكمية الكبيرة ، وبالتالى عن التجاوز والخروج عن الحد . فالكلمة الفرنسية beaucoup « كثير » حلت محل الكلمة القديمة moult (من multum) ؛ ونحن نعرف أن beaucoup نفسها قد استعوض عنها فى اللغة الجارية بعدد كبير من الأبدال : مثل un grand nombre « عدد كبير » و une foule « جمهور » و des quantités « كميات » و des tas « أكوام » و « des flottes » أساطيل ، الخ ؛ وذلك نبأ لموضوع الكلام ولدرجة التعليم عند المتكلم أيضاً .

فى كل اللغات التى لا تميز التفضيل المطلق بإضافة لاحقة خاصة ، وإنما بإضافة ظرف إلى الصفة ، نرى هذا الظرف نفسه يتخذ له على العموم صيغاً متنوعة . بل إن استعمال الظرف لم يكن منعزلاً فى الإغريقية القديمة نفسها رغم وجود اللاحقة الدالة على التفضيل المطلق فيها : فكان يقال فى الإغريقية : λίαν, πολύ, ἐπιπολύ, : magis , ualde فى اللاتينية ، وفى ذلك, σφόδρα, σφόδρως, μάλα, μάλιστα, , maxime ، الخ (قارن ما تقدم فى ص ٢٦٢) . وفى الفرنسية خلقنا الظرف très « جداً ، يتجاوز » وهو عين الكلمة اللاتينية trans « عبر » ، من خلال ، فيما وراء » (لاحظ هذا التطور نفسه فى الإنجليزية فى thorough, thoroughly « تماماً » وفى الألمانية durch und durch « كلية ») . ولكن très أصبحت اليوم مبتذلة وفقدت كثير من قوتها ، فأصبحت لا تكفي لنا فى إعطاء التفضيل المطلق قيمته اللاتقة به . لذلك نرانا نقول عن إنسان مثلاً بأنه archifou

« مجنون للغاية » أو ultra - réactionnaire « رجي فوق الحد » أو تستعمل ظروفًا مثل parfaitement « تمامًا » أو complètement « كلية » أو absolument « مطلقًا » أو tout à fait « للغاية » ، الخ . ووفرة ظروف التفضيل تلك في الفرنسية أمر معروف ؛ حتى لقد يتمتد إحصاؤها ، لأن كل شخص يخترع منها ما شاء له هواه . وبعض هذه الظروف يمكن أن يفسر من تلقاء نفسه ، مثل grandement ، fameusement ، extraordinairement ، épataimment . ولكن الصفة التي اشتق منها الظرف كانت تضعف بقدر ما كانت تقوى القيمة التفضيلية . فكان العقل قد أهمل الأصل ليركز انتباهه في اللاحقة - ment التي أصبحت جزء الكلمة الرئيسي . ويكفي للتعبير عن التفضيل المطلق على وجه العموم أن يدل الأصل على شيء فيه فكرة القوة والخشونة أو الغلظة ؛ ومن ثم استعملت للتعبير عن التفضيل المطلق هذه الظروف : rudement ، salement ، bonnement ، terriblement ، furieusement effroyablement الخ .

وهذا غير مقصور على الفرنسية . فالألمانية المتداولة قد تصف امرأة بأنها furchtbar nett لطيفة بإزعاج ، بشكل مزعج ، يعني « لطيفة جدًا » أو furchtbar süß « حلوة بشكل مزعج » ، وتستعمل عبارات مثل hübsch artig « خبيث بشكل جميل ، خبيث جدًا » و hübsch gesund « سليم بشكل جميل ، سليم جدًا .. » ؛ وذلك كما تقول الإنجليزية pretty dirty (قدر بشكل لطيف « قدر جدًا ») . ولما لم يكن في الألمانية والإنجليزية علامة خاصة تُوصل بالظرف ، كانت قيمة الكلمات furchtbar و hübsch و pretty متوقفة فقط على مكانها ونبرها وعلى كونها لا تنفصل من الصفة التي تتبعها والتي تكون معها كلمة واحدة بالنسبة للعقل . فنحن في الواقع أمام خلق لدالة نسبية ، ولسكنها دالة نسبية تعبيرية (انظر ١٨٠ ، ١٨٦) .

كل الكلمات التي لها قوة تعبيرية أيًا كانت ، معرضة لضعف قيمتها ، وهذا بدوره يبعث على التجديد . وكما في كل لغة من عبارات تدل على شيء كرهه ثقيل ؟

يقال في الفرنسية وحدها *crispant , fatiguant , embêtant , ennyuant , barbant , rasant , tuant , assommant , étreintant , esquintant , canulant* ، الخ ، وهي كلمات غير مترادفة وتنتمي إلى لغة أوساط متنوعة ، ولكنها جميعاً تتنافس في الدلالة على ما تدل عليه ، وستبلى هي الأخرى أيضاً بكمرة الاستعمال حتى يضطر الحال إلى اختراع غيرها .

إذا كانت الفكرة أو الشيء من الأفكار أو الأشياء التي تثير إلى جانب قيمتها الأساسية فيها ثانوية تبعاً للأوساط والظروف ، وجدنا عنها في اللغة عبارات متنوعة . وتدخل النقود في هذه الأشياء ، فلها في كل لغة عبارات عديدة . فيقال عنها في الفرنسية : *de la douille , du pognon , de la braise , de la galette* : وفي الألمانية تستخدم الكلمات *Moos , Kies , Draht* مرادفة للكلمة *Geld* . وبالطبع يمر عن فعل « نَقَدَ » بصور مختلفة تبعاً للأوساط ؛ فيقال في الفرنسية *verser* و *casquer* و *cracher* و *éclairer* ، الخ ، وفي الألمانية *bluten* و *blechen* و *berappen* . ونجد في اللغات المختلفة للتعبير عن فكرة *tromper* « يخدع » صوراً متنوعة من هذا القبيل . والضوضاء تنجم عن أسباب مختلفة ، ومن ثم تنوعت طرق التعبير عنها : فيقال في الفرنسية *du potin , du barouf , du* ، وفي الألمانية *Radau , du chambard , du pétard , du raffut , chahut* و *Randal* و *Krakehl* ، الخ .

قد يحتاج بأن الكلمات التي ذكرت هنا ، كلها من العامية الخاصة *argot* ، والعامية الخاصة تنحصر في استعمال مفردات خاصة . ولكن هذا احتجاج باطل ، لأن العامية — كما سنرى في فصل لاحق — تنتج من ظروف ظنيمة للغة ؛ واللغة الخاصة ليس معناها لغة اصطلاحية بأية حال . فسالك العامية الخاصة مسالك ظنيمة لا غبار عليها . وإذا كانت الحاجة إلى التجديد أظهر في العامية الخاصة منها في غيرها ، فرجع ذلك إلى استعمال هذه العامية الخاصة لغة للكلام ، والتعبيرية في لغة الكلام ضرورة دأمة (أنظر الفصل الثاني من الجزء الرابع) .

على أنه لا يوجد حد فاصل بين العامية الخاصة وبين اللغة التي يتكلمها جميع الناس . فكم من ألفاظ ، تمتد من أنبل الكلمات وأوغلها في الروح الأدبية ، قد استعيرت من العامية الخاصة ! من ذلك كلمة tête « رأس » بالنسبة لكلمة caput : وإذا انتزعت tête من عرشها يوما لتحل محلها bobine أو fiole ، كان ذلك انتصاراً جديداً تسطره العامية الخاصة في قائمة انتصاراتها . قسمة الرأس باسم إناء من الآنية أمر طبيعي وقع في لغات أخرى ، ولا سيما في الجرمانية ، حيث تشارك كلمة Kopf « رأس » مع الكلمة اللاتينية cupa في أصل واحد ، والاسكندنافية اشتقت kollr « رأس » من kolla « إناء » . وأسماء أجزاء الجسم كثيراً ما تبعث على استعمال استعارات من هذا القبيل ؛ وإن لم تكن كلها في ذلك سواء . فاسم « القدم » مثلاً قد بقي واحداً لا يتغير في كثير من اللغات ، ولكن اسم السيد تجدد أكثر من مرة ؛ واستعير في الدلالة عليها بأسماء تدل على الكلابية واللقط والملمعة ، الخ ^(١) . ويرجع ذلك إلى أن اليد تستخدم في أمور أكثر تنوعاً من القدم ، وخاصة في أمور تبعث هي نفسها على التجديد في التعبيرية . فلفكرة الأخذ مثلاً عبارات عديدة في كل اللغات .

فكرة « التكلم » أيضاً تختلف بدورها باختلاف العواطف التي تثيرها ^(٢) . والأفعال التي معناها « تكلم » تبلى بسرعة . فها نحن أولاء في سبيل إحلال causer محل parler « يتكلم » . والفعل parler نفسه دخيل متأخر على اللاتينية (parabolare) ؛ أما الفعل القديم loqui فقد مات منها ؛ وهذا الفعل loqui نفسه كان تجديداً في اللاتينية (أو الإيطالية الكلتية) في معنى « يتكلم » العام . واللغات الكلتية الحديثة الأساسية الثلاث تستعمل للتعبير عن هذه الفكرة ثلاثة أفعال مختلفة هي : labhairim في الإيرلندية و siarad في الغالية و komps في البريتانية ؛ ويقال في الإنجليزية speak وفي الألمانية sprechen وفي القوطية

(١) أولسين Uloszyn ، رقم ٣٣ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٢) ميشيل بريال Michel Bréal ، رقم ١٢ ، مجلد ١٤ (١٩٠١) ، ص ١١٣ ؛

وكارل د. بك Karl D. Buck ، رقم ١٩ ، مجلد ٣٤ ، ص ١ — ١٨ و ١٢٥ — ١٥٤ ،

١ . ميه : رقم ٦ ، مجلد ٢٠ (١٩١٦) ، ص ٢٨ .

mathljan وفي اللتوانية tarti أو kalbėti وفي السلافية المشتركة glagolat^١ (في الروسية 'molvit' ، 'govorit' وفي البولونية 'moivic' ؛ وكل هذه الأفعال حديثة العهد نسبياً في اللغات التي تستعملها ، كما كان الفعل ἀγορεύειν في إغريقية هوميروس على وجه التأكيد . فوجود هذه المجموعة الكبيرة ، التي يمثلها هذا الفعل ، يفسر بالبلبى المعنوى الذى يضطر إلى التجديد .

وأحياناً يرجع التجديد إلى الرغبة في المخالفة . فهناك أشياء تسلك أزواجاً وبصرّ الذهن على التفريق بين أفرادها إلى حدّ أنه إذا تشابه اسماً فردين من هذه الأشياء نتيجة مصادفة ما ، اختفى أحدهما وحلّ غيره محله لبقى التمييز بين السمين واخماً . هذه هي الحال مع التمييز بين الجنسين في بنى الإنسان وفي الحيوان . والزواج الأساسى الذى اتخذ مثلاً يحتذى في كل ما عداه ، هو الأب والأم اللذان لها في كل الحالات وفي كل الأماكن اسمان مختلفان (من حيث الأصل بالطبع) . ووفقاً لهذا المثال سمى عدد آخر من الأزواج بأسماء مختلفة : الزوج والزوجة ، الأخ والأخت ، العم والعمة ، الخ . وأغلب الظن أن الاحتفاظ بهذه المخالفة على هذا النحو من العناية يرجع إلى ميل عام في الذهن . وقد احتفظت الفرنسية بالكلمتين fils « ابن » و fille « بنت » اتباعاً لللاتينية ، ولكنها عند مقابلة الجنسين أحدهما بالآخر ، لا تستعمل الآن fils « ابن » بل garçon « صبي » ، يقال : filles et garçons « بنات وصبيان » . هذا إلى أن اللاتينيين بحلقهم للزوج filia ، filius ، قد خالفوا الاستعمال الجارى في الهندية الأوروبية ، هذا الاستعمال الذى احتفظت به اللغات الجرمانية والسلافية وكذلك الإغريقية . فالكلتية لم تبق الأسماء القديمة ، ولكنها احتفظت بالمقابلة ؛ في الإيرلندية mac ، وفي البريتانية map « ابن » ، وفي الإيرلندية ingen وفي البريتانية merc'h « ابنة » .

الكلمة اللاتينية dominus « سيد » ومؤنثها domina « سيدة » قد أصبحتا في الفرنسية صيغة واحدة كان المقصود منها أن تطلق على الجنسين . وقد بقيت لنا ذكرى من dame مذكرة في صيغة التأنيف dame المختصرة من Dame - Dieu « السيد الإله » وفي اسم vidame « نائب السيد

(وهو لقب لثائب الأسقف في الأمور المدينة قديماً) ؛ ولكنها ليست أكثر من ذكرى . فلم يبق إذن في اللغة إلا الكلمة المؤنثة وخلق لها مذكر جديد هو monsieur «سيد». وقد وقع هذا الشيء بمينته في الألمانية : فالكلمة الألمانية Frau «سيدة» (frouwa في الألمانية العليا القديمة) كان لها مذكر إلى جانبها ، وهو frô (في القوطية frauja) . وقد مات هذا المذكر ضحية أيضاً لشدة شبهه بالموث الذي يقابله . وتستعمل الألمانية اليوم Herr «سيد» في مقابلة Frau كما تستعمل الفرنسية monsieur في مقابلة madame والإنجليزية gentleman في مقابلة lady .

وهذه المقابلة شائعة في أسماء الحيوانات : فاللاتينية تقول equa ، equus ، ولكنها تقول taurus و vacca ، aries (أو uerux) و ouis ، catus و feles ؛ uerres و scrofa . والفرنسية تقابل cheval «حصان» بـ jument و «فرس» ، كما تقابل الألمانية : Pferd بـ Stule والإنجليزية horse بـ mare . ومع ذلك كان في وسعنا أن نقول chevale «حصانة» كما نقول chatte «قطعة» أو chienne «كلبة» . ونحن كذلك الذين خلقنا le mouton «المخروف» و la brebis «النعجة» ، le bouc «الجدى» و la chèvre «المعزة» ، le porc «الخنزير» و la truie «الخنزيرة» ، le cerf «الوعل» و la biche «الوعلة» ، le sanglier «الخنزير البري» و la laie «الخنزيرة البرية» ، le coq «الديك» و la poule «الدجاجة» ، le lièvre «الأرنب البري» و la hase «الأرنب البرية» . فهي صورة خاصة من الإحساس بتقابل النوعين ، تلك التي تلعب في كثير من اللغات دوراً هاماً .

لا تستطيع السيكلولوجية ، حتى في الأمثلة السابقة ، أن تفسر لنا كل شيء . فالبلي الذي يصيب الكلمات يرجع دائماً ، ولو بمقدار قليل ، إلى البيئة الاجتماعية التي تستعملها . وإذن يجدر بنا أن نناقش مسأله تجسيد المفردات من الوجهة

الاجتماعية . فالأسباب الاجتماعية واضحة جداً في تغير الكلمات مراعاة للياقة^(١) . إذ ليس من اللائق أن يتكلم في أحد المجتمعات عن أفعال معروفة بالنظافة أو بأنها مما يجرح الحياء ، وتستبعد الألفاظ التي تعبر عنها من بين المفردات التي يستعملها الأشخاص المهذبون . فللتعبير عن هذه الأفعال عبارات متنوعة تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة وجارحة للأذن . لذلك لم نستبق نحن كلمة واحدة من مشتقات الفعل اللاتيني *mingere* « يبول » والفعل *pisser* الذي استعاضنا به عن السابق لم يعد هو الآخر يستعمل في مجتمع راق ، بل يستعاض عنه بالفعل *uriner* الذي هو أقل منه خشونة . ولم يُنج الفعل *vomir* « يقي » من الضياع إلا ما له من صفة طيبة ؛ ولكنه تعبير خشن ويستعاض عنه بأبدال مثل : *rejeter* و *rendre* و *s'expliquer* الخ . والألمانية أيضاً تستمض عن *ausbrechen* بـ *sich über-geben* .

والذي يقطع بكون الكلمة لائقة أو غير لائقة إنما هو العرف . واللفظ بذاته يختلف حاله في إقليم عنه في الآخر . فكلمة *pissoir* « مكان البول » في الألمانية أقل منها جرماً للأذن في الفرنسية . لأن إستمارة كلمة من الخارج تخفف من افتضاح الشيء الذي يعبر بها عنه ؛ فهي تلعب دور الكناية . وهناك أفكار يعبر عنها غالباً بالكناية ؛ ومنها فكرة الموت ، فبدلاً من *mourir* « يموت » تقول الفرنسية *périr* « يفتي » ، *passer* « يمر » ، *trépasser* « يعبر » ، *décéder* (منهاها الأصلي « يذهب ») ، *s'endormir* « ينام » ، *rendre son âme à Dieu* « يرد روحه إلى الله » ، الخ ؛ أو تستعمل فقط *partir* أو *s'en aller* « ينطلق » ، وكان يقال في القوطية *usqiman* ، ويقال في الألمانية *erblassen* ، *vergehen* ، *verbleichen* . هذه العبارات المحففة تصور شبح الموت في صورة أقل إيلاماً . عدد الكلمات الجارحة وطبيعتها يختلفان باختلاف البيئات والعهود . فيزداد عددها بالطبع في عصر الرقة حيث يصطبغ المجتمع بالصبغة التي تضيفها عليه النساء . ويصل الحال إلى التضييق من دائرة المفردات شيئاً فشيئاً ، حتى لا يتكلم

(١) انظر هـ . شلتس H. Schulz ، رقم ٢٦ ، مجلد ١٠ ، ص ١٢٩ — ١٧٣ .

الناس إلا تليحاً . ولما كان يتحتم عليهم دائماً أن يجدوا كلمات للأشياء كلها دعت إلى ذلك فرصة ، فإنهم يضطرون إلى تجديد المفردات .

وقد عدل الأطباء منذ حين عن استعمال كلمة « عملية » opération التي صيرها الاستعمال قاسية مخوفة . لا يسمعا المريض حتى يتصور الآلات الرعبة والملابس الملوثة بالدماء والجسم وقد طواه الألم طياً . فكلمة opération « عملية » ضحية الصور التي تثيرها . لذلك يسود الميل إلى الاستعاضة عنها بكلمة intervention « تدخل » لأنها أنضر جدة منها ، وأكثر تحفظاً وأشد غموضاً أيضاً ، لا يهلع لسماها قلب المريض . والكناية euphémisme ليست إلا صورة مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات (انظر ص ٢٣٧) . فكثيراً ما يقع لدى التوحشين أن يكون لبعض الألفاظ طابع من السرية والخفاء يمنع بعض الأفراد من استعمالها . ولكن ليس في لغاتنا الأوروبية شيء من هذا التحريم . فقد قضت المدنية على تلك البقايا التبريرة . غير أننا إذا رجعنا إلى تاريخ أكثر اللغات مدنية ، وجدنا حواش من هذا التحريم لا تقل صراحة عما عند الأمم التوحشة^(١) .

تعد الجهة اليسرى عند كثير من الشعوب جهة السحر ، جهة القوى الخفية التي لا يحسن إيقاظها . لذلك كثيراً ما قضى بالتحريم على اسم اليسار وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة والاستعارات للتعبير عن اليسار . فإن كان العدد الأكبر من اللغات الهندية الأوروبية قد احتفظت لذلك بكلمة واحدة للدلالة على اليمين ، فإنها تستعمل للدلالة على اليسار كلمات متنوعة ، لاتستعمل الكلمة منها في غالب الأحيان في أكثر من لغة واحدة أو لفتين ، وهي حتى في هذه اللغات نفسها قد تعرضت بدورها للاقصاء والاستبدال .

أكد علامة للدلالة على التحريم الذي أصاب بعض الأفكار أو بعض الأشياء . هو وجود الاستعارات (مثل éuphorie « الناحية الأيمينة » أو àphoré « الذي لا أحد فيه ليلا » . ولكننا قد نجد هذه العلامة أيضاً في تنوع العبارات

(١) ميه : Quelques hypothèses sur les interdictions de vocabulaire

. (عام ١٩٠٦) dans les langues indo - européennes

التي تستخدم للدلالة^(١). ففي الإيرلندية اثنا عشر اسماً للدب ومثلها « للسالون » : ونحن نعرف ، من مصادر أخرى ، أنهما من الحيوانات التي جعل منها الخيال الشعبي تابوهات tabous . وحيوانات الصيد على العموم تحاط بقوى سحرية ، فما أكثر تابوهات الصيادين . كذلك يُدلّ بالترادفات في غالب الأحيان على الحيوانات البرية .

لا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب بل يتعداه أيضاً إلى تشويه الكلمات الموجودة . فتغيير حرف من الكلمة أو نقله يخفف ما تنطوى عليه من الخطر أو مما لا يليق دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية . وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحال أن يفهم المراد على الفور . فالحجاب لا يستر إلا الجهات الجارحة والمؤذية للحياء ، ويشفّ عن معالم الكلمة الكبرى ولونها العام . ونرى الشتائم في كثير من اللغات تصاب بشيء من التشويه المقصود الذي يمكن من إدخالها في أرق الأوساط ؛ مثل bigre أو fichtre ويقال : pardienne ، pargnieu parbleu ، palsambleu ، بدلا من par le sang de Dieu « بدم الإله » أو par Dieu « بالله » .

ولما كانت أسماء المثالب والمآهات ممرضة للنهي بشكل خاص ، فلا ينبغي أن نبهش حين نرى الجرمانية تشتق من أصل واحد يدل على عاهة جسانية ثلاث كلمات مختلفة ، وذلك بتعديل عناصره الصوتية ؛ وقد احتفظت القوطية بهذه الكلمات الثلاث : dumbs ، bauths ، daufts ، وتبدل بالترتيب على الصمم والبكم والحماقة (لم يبق منها في الألمانية إلا اثنتان : taub « أصم » و dumm « أبكم ») . والأمـر هنا يدور حول أصل واحد بقى منه أحد المشتقات في الكلمة الإغريقية τυφλός « أعمى » (انظر ص ٢٦٠) .

هناك أصل هندي أوربي بمعنى « قاع أو عمق » ومنه الكلمة الفرنسية monde « عالم » . هذا الأصل يقدم لنا في اللغات الهندية الأوربية المختلفة تشويهاً فريدة في بابها . فقد أحصى منها ثمانى صور أو تسع ، لا يختلف بعضها

عن بعض إلى في تطبيق قوانين المخالفة أو المائلة أو النقل المكاني المروفة أو باستعمال لاصقة داخلية أنفية . ونعني بذلك الأسرة التي تنتمي إليها الكلمتان الأغريقيتان *domun* والغالالية *αἶνος* و *τιθήν* والكلمة اللاتينية *mundus* والإرلندية *domun* والغالالية *annwn* والسلافية القديمة *dūno* ، الخ . وليس من شك في أن تغيرات هذا الأصل ترجع إلى أسباب ذبئية . فالكلمة التي تدل على القاع ، وبطريق التوسع على العالم كان مقضياً عليها بالتحريم ، وكان يُتجنب النطق بها . فلأجل إمكان سماعها دون خطر أجروا فيها تغيرات مجردها من الأذى دون أن تقضى على إمكان فهمها^(١) . ومما تجدر ملاحظته أن هذه التغيرات مما تحدث طبيعية في اللغة ؛ إذ ترجع كلها إلى تلك التغيرات التي سميناها فيما سبق بالتغيرات التركيبية (أنظر ص ٩٤) . فكان اللسان قد زل وهو ينطق الكلمة التي نحن بصدها ؛ ولكن الخطأ هنا متعمد . وهذا هو استخدام الحذف والنقل المكاني لغايات خفية أو مراعاة للياقة^(٢) .

يجب ألا نهمل من حسابنا عند دراسة الأسباب الاجتماعية التي تؤدي إلى تجديد الأفراد نوع النشاط الذي يمارسه المتكلمون . فالكلمات التي تنتمي إلى نشاط المجموعات الاجتماعية (عقلياً كان أو يدوياً) يطلق عليها كلمات الحضارة . كلما تحقق أى تقدم في الصناعة الإنسانية ترجم عن نفسه باستعمال آلات وإجراءات جديدة يقابلها خلق كلمات جديدة بقدرها .

التغيرات التي تطرأ على الآلات تنعكس في الأفراد بطبيعة الحال . فالجرمانية المشتركة كانت فيها كلمة تدل على الخبز ، نعت عليها في الفترة القديمة لكل لهجة من لهجاتها ، وهي في القوطية *hlaihs* (في حالة الإضافة *hlaihis*) . وكان لهذه الكلمة من الأهمية بقدر ما للشيء الذي تدل عليه . وقد استعارها اللتوانيون والسلافيون . ويشهد بأهميتها في الجرمانية نفسها عدد المركبات التي اشتقت منها :

(١) فنربس : رقم ٦ ، مجلد ١٨ ، ص ٣٠٨ .

(٢) نجد أمثلة من هذا التشويه الذي يرجع إلى مراعاة اللياقة أو الآداب في كاديير

Cadière ، رقم ٥٨ ، ص ٣٠ .

ففي الإنجليزية القديمة hlafward « حارس الخبز » (في أيامنا هذه لورد) و hlæfdige « عاجنة الخبز » (في أيامنا ليدى lady) وفي النروية القديمة : witandahalaiban « إلى سيد الخبز » (في نقش مكتوب بالحروف الرونية ، وهي أقدم الكتابات الجرمانية) . ولكن هذه الكلمة كانت تدل على الخبز غير المختمر . فلما اهتموا إلى تخمير العجينة ، اضطروا إلى استعمال اسم جديد للدلالة على هذا الإجراء الجديد في صنع الخبز . فكانت كلمة brôt في الألمانية العليا القديمة ، braudh في الإسكلندية القديمة ، وهي كلمة غير موجودة في القوطية ، ولا يعثر عليها في الإنجليزية القديمة إلا في عناء كبير .

وقد بقيت الكلمتان المتنافستان في اللغات الجرمانية الحديثة ، ولكن أحدهما هي الأكثر أهمية : فهي الكلمة الألمانية Brot « خبز » والإنجليزية bread ، أما الثانية فبقيت كلمة شبه شعرية أو للاستعمال في معنى خاص ؛ وهي loaf (الجمع loaves في الإنجليزية و Laib في الألمانية ، ومعناها « رغيف » . فخلق كلمة جديدة لا يتحتم عليه هلاك القديمة ، ولكنه يقذف بها غالباً في جزء خاص من المفردات .

اسم الحصان يتجدد في معظم اللغات الهندية الأوروبية . فالكلمة القديمة الواردة في أقدم عهد للسكسكربتية (aqvas) والإغريقية (ἵππος) واللاتينية (equus) والكلتية (في الإيرلندية) ech والجرمانية (في القوطية aihva) لم تبق في أية لهجة من اللهجات المتفرعة من هذه اللغات . فالسكسكربتية الكلاسيكية تستعمل hayas أو ghotah (ghotakas) والإغريقية الحديثة تقول ἵππος ؛ والفرنسية قد استعاضت عن equus بـ cheval ؛ وفي اللغات الكلتيّة نجد marc gearran و capall (في الإيرلندية) و amws و ceffyl و gorwydd (في النالية) و marc'h و ronsé و الجمع kezek (في البريتانية) ؛ والألمانية تستعمل Pferd على حين تستعمل الإنجليزية horse ، وها كلمتان جديدتان في الجرمانية . واللغات البلطية والسلافية قد خلقت لنفسها كلمات مختلفة خاصة بها : ففي اللتوانية orklys أو irgas ، وفي السلافية loshadi أو koni . وكذلك فلت الأرمنية ، إذ تقول :

arivar . فنحن أمام تحول عام . لا يمكننا أن نفسره بأسباب سحرية يمكن أن تكون قد قضت على الكلمة القديمة بالتحريم . فتجديد الكلمة يمكن أن يرجع إلى وجود خيل مختلفة الأجناس ، يهتم الشعوب المعنية بالتربية أن تميز كل نوع منها . ولكن هذا السبب لا يكفي ؛ لأن اسم الكلب ، وأنواعه عديدة أيضاً ، أكثر نباتاً من ذلك . فالفرنسية لا تزال تقول chien والألمانية Hund والإنجليزية hound والبريتانية ki واللواتية szu والأرمينية shun ، وكلها تنتمي إلى أصل واحد . فإذا كان اسم الحصان قد حُدد في كل مكان تقريباً ، فذلك لأنه يستخدم في مهام كثيرة : فهناك حصان الركوب وحصان الجر وحصان الحرث وحصان الحرب ، فمُتَّرت الطبقات الاجتماعية المختلفة عن هذه الوظائف المتنوعة بكلمات خاصة . والإغريقية القديمة تستعمل παρῆρος للدلالة على cheval de voleé^(١) أو cheval de main . وحتى في الاستعمال الحربي يحمل الحصان أسماء مختلفة باختلاف الأعمال التي يؤديها : لخصان القتال destrier غير حصان الاستعراض palefroi . وما أكثر أسماء الحصان في ألمانية العصور الوسطى ، وكلها أسماء مستحدثة : ففيها mür (من اللاتينية maurus) ، و päge (من اللاتينية paganus) و burdihhin (من اللاتينية burdus) و souimari (من اللاتينية sagmarius) وأخيراً pferid الذي تقدم ذكره (من اللاتينية paraueredus).

وما أعظم الفرق بين اسم الحصان في طوائفه للتجديد واسمى الثور والبقرة في بقائهما دون تنير في كل مكان تقريباً (في الإغريقية βοῦς وفي اللاتينية bos والألمانية Kuh والإنجليزية cow والإرلندية bó ، النخ) ، وذلك لأن الثور والبقرة مقصوران ، فيما عدا إنتاج اللبن ، على أعمال واحدة ويؤديان وظائف واحدة . ولكن يجدر بنا أن نشير إلى خلق بعض اللغات لأسماء خاصة تدل بها على الحيوان من جهة استعمال لحمه للأكل : ففي الإنجليزية beef ، وفي الألمانية (جزئياً على الأقل) Rind .

(١) المقصود به الجواد الذي يطلق في مقدمة العرب فيكون سابقاً غيره من الخيل .
المعربان

تعد الاستعمال يؤدي إلى خلق كلمات مختلفة . فإذا صرفنا النظر عما في الفرنسية من عبارات العامية الخاصة التي تطلق على النقود (انظر ص ٢٧٤) ، وجدناها تستعمل عدداً كبيراً من الكلمات للدلالة على النقود بالنسبة للطائفة الاجتماعية التي تضاف إليها : ففيها *les gages* لأجرة الخادم و *le traitement* لمرتب الموظف و *la solde* لمرتب الضابط و *le prêt* لمرتب الجندي و *les appointements* للموظف في غير الحكومة و *les honoraires* لأتباع الطبيب أو المحامي و *les émoluments* لأجر صاحب الوظيفة العامة (كالأذون مثلاً) و *le salaire* للعامل و *la paye* لأجر المشتغل يانويومية و *les rentes* لدخل صاحب الدخل الثابت و *les dividendes* لأرباح الأسهم المالية و *l'indemnité* للمكافأة البرلمانية و *les mensualités* لشهرية الصحفي و *le casuel* لموائد القسيس و *les feux* لأتباع الممثل و *le secours* لما يعطى للمحتاج ، الخ . هذا فضلاً عن الكلمات الناقصة مثل *rétribution* و *subvention* و *gratification* و *allocation* ، الخ . في هذه المفردات المتنوعة ينمكس مجتمعنا الحالي في تعقده . أما كلمة *épices* (بالنسبة للقاضي) وكلمة *bénéfice* (بالنسبة لرجل الدين) فقد أصبحتا لا تمثلان شيئاً ، إذ فقدتا المعنى الذي كان لهما في النظام القديم .

والتوانية ، وهي لغة شعب زراعي ، فيها خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب . ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات ، لأن كلا منها يقال عن شيء خاص : فيقال *pilkas* للصوف والأوز و *szirmas* أو *szirvas* للخيل و *szêmas* للبقر *zilas* لشعر (الإنسان) والحيوان الداخن بما عدا الأوز والخيل والبقر . أما أسماء الألوان الأخرى ، وإن كانت أقل تنوعاً ، ففيها مقابلات مشابهة ؛ فبمقد الكلام على البقر يقال *zalas* « أحمر » بدلا من الكلمة المعتادة *raudonas* ؛ ويقال *dwrylas* « أسود » بدلا من *judas* ، الخ . وفيها للدلالة على « البقع » أو « الباق » عدد من الكلمات بقدر ما يوجد فيها من الصفات الحيوانية . وهذا يستلزم قوماً إخصائين في تربية الحيوان للون الوطاب عندهم أهمية كبيرة . فكل طائفة من مربى الحيوانات تميل إلى خلق مفردات خاصة بأسماء ألوان الحيوان الذي

يشتغلون به . وفي النهاية تستفيد اللغة المشتركة من هذا الانفصال الذي خلقته اللغات الخاصة .

في كل العهود التي كونت فيها الأرستقراطية طبقة مغلقة تحيا حياة الصالونات وتمتد بجمال اللغة ، أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية . يقول Duclos ^(١) : « وهم وإن استووا في العقل مع غيرهم ظلت لهم (طبقة البلاط) على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بعبارات خير من عباراتهم وجل أشهى إلى النفس . » . هذه المفردات المختارة التي كانت تسمح بتميين طبقة التكلم على الفور تبدو لنا اليوم كأنها كل ثابت وتمطينا فكرة الشيء الكامل المنتهى . والواقع أن هذه المفردات كانت تخلق يوماً بيوم من أجل عارة تتفتح في الصباح تموت في المساء : كانت تولد من تلميح من التلميحات أو من نكتة أدبية أو من حادثة نافذة اشتبك فيها أهل هذه الطبقة .

ونحن نعرف هذه المفردات اليومية مما كتب الكتاب عنها بقصد التهكم منها على وجه المموم . فولير في سنة ١٦٥٩ يهجو في روايته *les Précieuses ridicules* « التساميل المضحكات » لغة الصالونات المتكلفة في عصره . وبورسو Boursault في *Mots à la mode* « كلمات موضة » في سنة ١٦٩٤ ودلاشال d'Allainval في *l'Ecole des bourgeois* « مدرسة الأعيان » في سنة ١٧٢٨ يتهكمان بدورها بلغة معاصريهما المصطنعة . وهذه الأنواع الثلاثة من المفردات يختلف بعضها عن بعض . وإذا تصفحناها رأينا مقدار السرعة التي بها يعلو نجم بعض الكلمات ثم ينخفض . فدام جوس دي بورسو Josse de Boursault لا يدع لسانها استعمال كلمة *joli* « لطيف » ؛ وتستعيز عن كلمة *grand* « كبير » بكلمة *gros* ^(٢) ؛ إذ يظهر أن هذه الكلمة كان لها حظ عظيم بين تلك الطبقة ، ولكن لمدة قصيرة فقط ، لأننا نرى المحامي بريس Brice ، شقيق

(١) *Considérations sur les mœurs* الطبعة الخامسة ، باريس (١٧٦٧) ص ٢١١ .

(٢) برينو Brunot ، رقم ٥٧ مجلد ٤ ، ص ٢٢٢ .

مدام جوس ، وهو يهتم مثلها بلغة القصر ولكنه أعرف منها بها ، نراه يذكرها بأن هذه الكلمة قد انقضى عهدها فيقول :

Laissez mourir en paix un mot agonisant ;
Hors chez quelques laquais qu'il est en étalage,
En aucun lieu du monde il n'est plus en usage
« Gros » est un mot proscrit, ma soeur

« هذه كلمة مختصرة فدعها تمت في سلام ؛ »
« إذ لم يبق لها استعمال في أى مكان في العالم »
« إلا لدى بعض الخدم يتجاولون بها »
« Gros » كلمة متقضي عليها ، يا أختاه

والصعوبة في هذه الحالة بالنسبة للشخص الذى لا يعيش في تلك المحيطات ، هي في أن يكون على علم دائم بما يقال فيها . فكم من أشخاص وأشخاص يفخرون بأنهم يتكلمون لغة (أولاد البلد) وأنهم مشبعون بالروح الباريسى ، ثم ينكشف لهم أن الكلمات التى يستعملونها قد ماتت من الاستعمال منذ العام الماضى . وها هو ذا السيد هوميه Homais صيدلى يوشل [من شخصيات فلوير في مدام بوثارى] كان يقول Faire florès أو bazar, turne أو Breda-street أو je me la casse ، بدلا من « je m'en vais » في وقت كانت هذه العبارات قد فقدت جذبها عند أولاد البلد .

لغة المنازلة أيضاً من أسرع اللغات تجدداً . وليس من العسير أن نجد تطور المادات ينعكس في الصور المختلفة التى تقدمها لنا هذه اللغة ، ويجب عند تفسيرنا لها ألا نهمل العلاقات الاجتماعية بين الجنسين . ففي عهود الثروة والبذخ كانت توجد أرستقراطية أنيقة تخص الحب بكل غنايتها وتجميل منه سلوكها المعتادة . في هذه البيئة تكونت في داخل اللغة الأرستقراطية مفردات خاصة بمسائل الفزل . هكذا كان الحال في فرنسا في العصور الوسطى ، في الجنوب أولاً ومن بعده في الشمال . ففي القرن السابع عشر نشأت عدة مفردات غزلية متتابعة تلى بعضها بعضاً منذ قصر رمبويه l'hôtel de Rambouillet بخريطة السماء « إقليم الماطفة

الناعمة « حتى صالونات سبو Sceaux عند دوق المين ، ثم اجتماعات « التميل Temple » عند آل فندوم Vendôme .

وقد دخل الكثير من هذه المفردات في آداب العصر مثل la gloire et les rigueurs و les cruautés و les appâts et les feux و les soins و les alarmes وغيرها من العبارات التي تبدو للفرنسيين اليوم مضحكة بالية . ونعتبرها في مجموعها ممثلة للغة الحب التي لم يستطع كاتب في مقام راسين نفسه أن يتجنبها . ولكن الواقع أنها ليست جميعاً من عصر واحد ، بل لكل منها تاريخها وفترة صمودها وسقوطها . واليوم حيث لا توجد أرستقراطية تكوّن طبقة منعزلة عن الأمة ، وحيث انتشار الطبقة الوسطى جعل الفزل في متناول جميع الطبقات الاجتماعية ، توجد أيضاً لغة الحب ؛ ولكنها لغة مشتركة تستعير مفرداتها من العادات الخاصة ومن رطانات جميع الأوساط ؛ فليس هناك إذن لغة للفزل بمعنى الكلمة ، لأن الفزل لم يعد مقصوراً على طبقة من الطبقات .

هكذا نرى أنفسنا مسوقين في دراستنا لتغير المفردات إلى أن ندخل في حسابنا تأثير أنواع اللغة المختلفة بعضها على بعض . فهذه الكلمة الفرنسية الشائنة مثلاً قد جاءت من ثكنات الجنود ؛ جىء بها منها لأنها أكثر تعبيرية من غيرها وأقوى دلالة على ما يراد أن يقال . وتلك الكلمة الأخرى استعيرت من لغة الصالونات . وهناك أيضاً الحالات التي تفرض فيها لغة أجنبية على مجاراتها ، بما لها من سلطان ، نوعاً من التجديد ولو جزئياً . وهذا يفسر وجود عدد ضخم من الكلمات اللاتينية في لغات كال brittonique أو الألمانية العليا القديمة . فهذه الكلمات لا تبدل دائماً على فكرة جديدة أو شيء جديد ؛ وإنما هي في غالب أمرها قد حلت محل كلمات كانت تستعملها لغة متبررة ؛ ولكن السلطان أتاح النصر للكلمة اللاتينية . فالسلطان آخر الأسباب الاجتماعية في تجديد المفردات ، ولا ينبغي لنا أن ننساه (انظر الصفحة الرابعة من الفصل الرابع في الجزء الرابع) .

العمليات اللغوية التي بها تتجدد المفردات يمكن إرجاعها بسهولة إلى بضعة

أنواع عامة . والوارد التي يمكن للغات أن تستنبطها من ذات نفسها محدودة عندما يلجأ الإنسان إلى كلمة عامة فينوط بها ، بواسطة التخصيص ، استمالة خاصاً ؛ أو إلى كلمة ما فيدير معناها بواسطة الاستمارة أو النقل ، ويكون بذلك قد فعل كل ما في وسعه في حدود المفردات الموجودة في اللغة . وهذا خلق للمعاني لا أكثر من ذلك .

طرائق الاشتقاق والتركيب تزيد إمكانيات التجديد زيادة هامة ، لأنها تتيح خلق الكلمات . فالشتق بعد أن يخلق يصير كأنه كلمة جديدة وينطبق في الحال على الشيء الذي خلق له . من ذلك كلمة *botline* « حذاء طويل » التي اتخذت معنى مخالفاً جداً لمعنى *botte* « نُزْلُك » . وكذلك الكلمات *chausséon* « ششب » و *chaussette* « جُورب » و *chaussure* « حذاء » ليس بين بعضها وبعض ولا بينها وبين أصلها *chausse* « نوع من السراويل » علاقة من حيث المعنى . وهذا هو شأن الكلمات المركبة التي تتحد عناصرها فجأة فلا توقظ في الذهن إلا تصوراً واحداً .

ومن الطرق الشائعة عند تسمية شيء جديد أن يطلق عليه اسم مخترعه أو مروجيه أو بائه أو من ساعد على نجاحه بأية وسيلة من الوسائل . وإلى هذه الطريقة ندين بكثير من الكلمات الفرنسية : *calpin* « مفكرة جيب » *guillemet* « علامة اقتباس » و *barène* « جدول حسابات » *godillot* « نوع من الأحذية » و *quinquet* « نوع من المصابيح » و *catogan* « شريط لربط الشعر » (وهذه الكلمة مستمارة من الإنجليزية ، ولكنها صنعت بالطريقة التي نتحدث عنها) و *bottin* « دليل » و *poubelle* « صندوق القمامة » و *gibus* « نوع من القبعات » و *pépin* « مظلة » و *riflard* « مظلة كبيرة » و *sil-houette* « رسم خطي » و *fontange* « عقدة من الشريط يزين بها الشعر » ولا يتحتم لاستخدام هذه الطريقة أن يكون الشيء جديداً ؛ بل تطبق أيضاً على شيء معروف من قديم ، ولكن صار اسمه في حاجة إلى تجديد لسبب من الأسباب . وإذا لم تكف هذه الطرق أئجه الناس إلى الاقتراض ، فيلجأون إلى المفردات

المجاورة التي قد تنتمي إلى لغات مختلفة المصنف : فيستعملون من الرطانات ومن العاميات الخاصة ومن اللغات الإقليمية ومن اللغات الأجنبية ؛ والأخذ من هذه اللغات يحدد دائماً بظروف خاصة ، تعين الاختيار أو تنظمه .

كلمات الحضارة بوجه خاص معرضة للاستعارة ؛ حيث تحمل في نفس الوقت مع الشيء الذي تدل عليه ؛ فالشيء يقوم لها مقام الركبة التي تحملها في بعض الأحيان إلى آفاق بعيدة *rem verba sequuntur* . وإذا أخصينا الكلمات التي استعارتها من اللاتينية شعوب الشمال والبريتانيون والإرلنديون والإنجليز السكسون والألمان والبلطيون والسلافيون ، وجدناها كلها تقريباً واحدة ؛ بل وجدنا أن عدداً كبيراً مما استعاره اللاتينيون أنفسهم من الإغريق ^(١) ، فيمكننا أن نفترض أن الكلمة إذا ما تجاوزت حدود لغتها ، انفتحت أمامها الطريق لطول الطواف ؛ لأنها لم تطلب في الخارج إلا لأنها تدل على شيء جديد خاص بالبلد الذي جاءت منه ، ومن ثم كان من الطبيعي أن نتوقع رؤيتها في كل مكان يطلب فيه هذا الشيء .

وإلى جانب المفردات المجاورة تسيطر كثير من اللغات على معين خاص تنهل منه ما شاءت ، وذلك هو معين اللغات العلمية واللغات الميتة . فاللاتينية كانت في كل المصور مصدرراً لتجديد المفردات في لغات أوروبا الغربية ، ومفرداتها الفرنسية تطفح بالكلمات اللاتينية التي أدخلت فيها شيئاً فشيئاً تبعاً للحاجة المتجددة بعد أن عدلت صيغتها وفقاً لبعض القواعد التي تنظم النقل إلى الفرنسية من اللاتينية ، والتي لا تزال كامنة في إحساسنا اللغوي . كما كانت اللاتينية أيضاً تبعاً فباشراً للغة الإنجليزية ، ولغة الألمانية ولكن بصورة مصفرة ، لأن الألمانية تكتفي بنفسها ، بفضل ما فيها من لهجات عديدة غنية وبفضل نظام التركيب الذي يسمح لها بزيادة مفرداتها زيادة واسعة .

(١) أنظر ج. لوث J. Loth ، رقم ٨٩ ؛ وفندريس ، *De Hibernicis vocabulis* ، *quae a Latina lingua originem , duxerunt* ، ف. كلوج F. Kluge ، ١٩٠٢ ؛ ف. كلوج F. Kluge ، *Vorgeschichte der Altgermanischen Dialekte* ، الطبعة الثانية ، ستراسبورج ، ١٨٩٧ ، ص ٣٣٣ .

والإغريقية كانت مميّنة للغات السلافية ، وخصوصاً الروسية ، التي كان لها معين آخر دائم لتجديد مفرداتها يتمثل في اللهجات السلافية القديمة التي ظلت متصلة بعضها ببعض تحت تأثير الكنيسة (انظر مايلي في الفصل الثالث من الجزء الرابع) .

هناك صعوبات جمة تعترض تجديد مفردات أساءت استعمالها بعض اللغات . فقد أخذ على الإنجليزية تضخم مفرداتها وإسرافها في المترادفات التي لا يلبث الاستعمال أن يطرحها ليطلب غيرها من جديد من اللاتينية التي تمدّ مستودعها المتناثر ، وذلك فضلاً عن المستودعات الفرعية التي هي اللغات الأجنبية بالنسبة للإنجليزية . والفرنسية أيضاً لا تخلو من ملام التهاالك على اتخاذ الكلمات الجديدة ولما تزل الكلمات القديمة في حيوية تامة وكافية للتعبير . وهذا عيب ينجم دائماً من رخاء الحال الذي يمكن اللغة من استمارة كل ما ينقصها كما تشاء ، حتى ما يطلب منه لاستعمال مؤقت .

من النادر في هذه الحال أن تلجأ اللغة إلى صنع الكلمات من أسامها بتركيب مجاميع من الأصوات اللغوية بعضها مع بعض ؛ لأنه يعتبر عملاً غير مفيد . فكل ما نعمله أنها قد تغير وضع العناصر الصوتية في هذه الكلمة أو تلك . وهذه طريقة معروفة في العامية الخاصة ؛ ولكن العامية الخاصة تشوه ولا تخلق . فالتخلق أمر في غاية الندرة^(١) . وإذا ذكر منه بعض الأمثلة ، فأنما تذكر على سبيل التندر ، مثل « غاز » التي اخترعت في القرن الثامن عشر ، و *félibre* « شاعر يقرض الشعر بلغة الأوك » و *rococo* « نوع من الزخرفة »^(٢) ؛ ومن ذلك أسماء بعض المستحضرات والسلع والآلات ، مثل كلمة *kodak* « كوداك » فقد خرجت كما هي من دماغ مخترعها . ولكننا لانستطيع أن نصنع عدداً من مثل

(١) جيسرسن ، رقم ١٣٣ ، فصل ٥ ، ٦ . وانظر R. M. Meyer ، م . ٢٥٧ .

(٢) درمستيتير Darmesteter ، رقم ٦٣ ، مجلد ١ ، ص ٢٣ ؛ وج . باريس .
Penseurs et poètes ' G. Paris ، ص ٩٤ ؛ ولكن فارن جنرو Jeanroy ، رقم ١٨ ،
مجلد ٣٣ ، ص ٤٦٣ .

هذه الكلمات دون أن نعرض اللغة للخطر . قيمة هذه الكلمات بالضبط بقيمة اسم العلم الذي لا يوقظ في ذهن السامع أية فكرة محدّدة إذالم يعرف الشخص الذي يحمله . لذلك يجب أن نحاط بسياق يكون لها بمثابة تفسير توضيحي . وإذن لا يمكننا أن نزيد في عددها دون حذر . ولكنها إلى جانب ذلك صعبة الصنع . فلا شيء أصعب من صنع كلمة دون الاهتداء بوسائل الاشتقاق والتركيب الممتادة في اللغة التي يتكلمها الصانع^(١) ولئن صح ما قيل من أن كلمة gaz فيها صدى كلمة Geist « روح » ؛ كنا في هذه الحالة أمام تشويه لكلمة موجودة بالفعل . وكذلك الحال بالنسبة لكلمة jingo وهي كلمة إنجليزية تطلق على من يظهر بمظهر المتطرف في الوطنية ، يقال إنها جاءت من صيغة سب ، هي by jingo التي كانت قد حلت محل by jove ، وهذه بدورها استعوض بها عن صيغة أخرى كان طلبة جامعة أكسفورد يكتفون من استعمالها . أما الكلمات التي من قبيل kodak وrococo فلها قيمة تعبيرية لا تنكر ، ذلك أنها كلمات أشبه بأسماء الأصوات ؛ وتدخل في فصيلة من الكلمات تعتبر اليوم ثابتة النظام والقواعد^(٢) . فكلمة « كوداك » تصور لنا صورة ، هي صورة سمعية : حتى كأننا نسمع صوت المفتاح الذي يفتح الآلة لالتقاط الصورة ويقلعها . فهل أحسن مخترع الكلمة هذه القيمة وأراد أن يحاكيها ؟ إن هذا الجأز ، ولكنه غير ضروري . غير أن هناك دائماً اتفاقاً غير شعوري يقوم بين الأصوات والأشياء . فالانطباع الذي نحده كلمة غير معروفة يمكن أن يختلف من سامع إلى آخر ؛ ولكن هناك انطباعاً على كل حال ، إن قليلاً وإن كثيراً . وإنما يقاس الفرق بدرجة حساسية السامع ، أو خياله ، أو مجرد حالته العصبية . فالذي يطلق اسماً مصنوعاً من أوله إلى آخره على شيء أيا كان قد يكون مستهدياً بتوافق نفسي بين الأصوات والشيء نفسه . هذا إلى أن كلمة « كوداك » متمشية مع قواعد اللغة التصويرية : فالسوا كن نحتوى على

(١) رينان ، رقم ١١٠ ، ص ١٤٧ .

(٢) جرامون Onomatopées et mots expressifs ، في رقم ١٧

نفس الحركة الصوتية ، والحركات فيها نفس الجرس الذي قرره الأستاذ جرابون
وهذه الكلمة تمدّ على درجة من حسن الصياغة تجعلنا نتساءل عما إذا كان في
الإمكان صياغتها على غير ما هي عليه .

ولعل القدرة على خلق الكلمات ليست إلا نوعاً من الخداع . وهذه النتيجة
تؤدي بنا إلى القاعدة اللغوية الكبرى التي تقول : إن اللغات تسير على محور
العناصر الموجودة لا على الخلق .

الجزء الرابع تكوين اللغات

الفصل الأول

اللغة واللغات

التحليل الذى قننا به حتى الآن للأجزاء المختلفة للغة لا يستطيع أن يعطينا عنها إلا فكرة جزئية غير كاملة . فتقسيم اللغة إلى عناصر ثلاثة هى الأصوات والصيغ النحوية والسمات ، تلك العناصر التى خصصنا لدراستها الفصول السابقة ، ماهو إلا تقسيم اصطناعى محض . لأن هذه العناصر ترتبط بعضها ببعض ولا توجد منفصلة إطلاقاً مهما بدا من اختلافها . بل تنصهر كلها فى تلك الوحدة التى هى اللغة نفسها . فالعالم اللغوى إذن لا ينتهى من مهمته بمجرد أن يفرغ من تحليل هذه العناصر بل يبقى عليه أن يدرس كيف يكون شأنها عندما تجتمع أو بالاختصار ، كيف تؤدى اللغة وظيفتها .

ولكن على من يتصدى لإقامة نظرية عامة للغة أن يحذر الوقوع فى خطر مزدوج . ذلك أن اللغة ، تبعاً لذلك التناقض اللغوى الذى درسه فكتور هنرى^(١) ، واحدة وعديدة فى آن واحد ؛ واحدة لدى كل الشعوب ، ولكنها متعددة بتعدد جميع الأفراد الذين يتكلمونها .

من المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفرق . واللغة محدودة

(١) رقم ٨٣ ، ص ٥ وما يليها

بحدود الفرد عند العالم الصوتى لأنه لا يستطيع ملاحظتها إلا في خصائصها الفردية وليس من عيوب علم الأصوات الوصفى أن يقصر البحث اللغوى على دراسة الظواهر الفردية فإن من يسمى أيضاً إلى اكتشاف عواطف النفس وانفعالاتها وأهوائها منعكسة في اللغة ، تبدو هذه الأشياء أمام عينه باعتبارها ظواهر فردية . نعم مادام الرمز قد توضع على التسليم به ، فقد صار ذا قيمة عامة . ولكن الأحداث الخاصة التي تتمخض عن الرموز والتي تعلن عن وجود الرموز ولما تزل في حالة يصبح أن نسميها حالة الميلاد ، لا يمكن أن تدرك إلا واحدة واحدة في مظاهرها الفردية . ومع أنه من غير الصواب أن يقال بأن التجديد اللغوى يصدر عن الفرد فن الحق الذي لا ريب فيه أن كل فرد يدخل في اللغة جزءاً من التجديد خاصاً به . فليس من الباطل إذن أن يقال بأنه يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الأفراد .

ولكن ليس من الباطل أيضاً أن يقال بأنه لا توجد إلا لغة إنسانية ، لغة واحدة في أساسها في جميع الأقطار والأصقاع . وهذه هي الفكرة التي تعرب عنها محاولات علم اللغة العام . ففيه يحاول العلماء وضع مبادئ تنطبق على كل لغة أيا كان نوعها . والواقع أن النظام الصوتى عند كل الشعوب يخضع لقوانين عامة واحدة ؛ والفروق التي تلاحظ بين شعب وشعب ناتجة من ظروف خاصة ، أما العبارة الصرفية ففيها كثير من التنوع ؛ ولكن الأنواع الأساسية الثلاثة أو الأربعة التي ترجع إليها هذه التنوعات ليست على إطلاقها ؛ إذ أننا نراها في مجرى التاريخ تتحول من نوع إلى آخر . لذلك لم يكن واحد منها كافياً لتمييز لغة لكان إنسانى . أما المفردات فإنها تركز على القاعدة القائلة بأنه يضاف إلى كل مجموعة ما من الأصوات اللغوية فكرة ما ، وهذه القاعدة واحدة في كل مكان ونافذة المعمول بالنسبة للغة في عمومها .

فوضع نظرية عامة للغة تصطدم إذن منذ البداية بالصعوبة الناجمة من كون العالم اللغوى لا يعرف إلى أى مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقى متردداً بين الاعتبار الفردى وبين الاعتبار الجنسى بأسره . ومع ذلك فإن هذه الصعوبة تهون بمجرد أن نحاول تصور اللغة في حقيقتها الواقعية لا في حقيقتها التجريدية . إذ لما كانت

اللغة وسيلة للعمل كانت لها غاية عملية ؛ فيجب إذن أن ندرس الروابط التي تصلها بمجموع النشاط الإنساني ، بالحياة نفسها لندرِكها تمام الإدراك .

أشرنا فيما سبق إلى « حياة اللغة » ، وأبنا ما تحمل هذه الاستمارة من بريد عن الصواب ومن إيقاع في اللبس ، ولكن رغم ذلك يمكننا استعمالها على أنها فرض يوجه البحث ويجعل العرض التعليمي سائناً . ولكن المسائل التي جعلناها موضوع بحثنا حتى الآن ليست إلا تجريدات خلقتها عقول علماء اللغة ، وإنه لمن سوء التعبير ، أويكاد ، أن نعتبر بحياة اللغة عما هو خال من الحياة ، عن الأصوات والأشكال النحوية والكلمات . فالحياة التي نحن بصدها الآن إن هي إلا مجموعة الظروف التي بين حدودها تَمُوج الإنسانية ، ما هي إلا الحقيقة الواقعية في تطوراتها التي لا تنتهي . واشتراك اللغة في الحياة بهذا المعنى أمر بَيِّن ، بل أكثر من البَيِّن . ولكن ليس أمامنا في هذه الحال نظام نظري يتكون من مبادئ تجريدية . بل زاناً أمام لغات تتكلم على سطح البسيطة بصور متنوعة .

الفرق بين اللغة *langage* واللغات ، أن اللغة هي مجموعة الإجراءات الفسيولوجية والسيكولوجية التي في حوزة الإنسان لتمكنه من الكلام . أما اللغات (الألسن) *languages* فهي استعمال هذه الإجراءات بصورة عملية . فيجب إذن ، للوصول إلى تعريف كلمة لغة (بمعنى اللسان *langue*) أن نخرج من محيط الفصول السابقة وأن ندرس الدور الذي تقوم به اللغة بمعنى *langage* في المجتمعات الإنسانية المنظمة .

أول فكرة تتبادر إلى الذهن هي فكرة الربط بين اللغة والجنس . بل إن المتن الكبير الوحيد الذي أُلِفَ في علم اللغة العام ، ونعني كتاب فريدرش ملر Friedrich Müller ^(١) يفتني على هذه الفكرة . ففيه تستعرض لغات الشعوب المجددة الشعر واحدة فواحدة ثم لغات الشعوب النساء الشعر ؛ فهو يصنف اللغات وفقاً للمميزات التكنولوجية . ولا شيء أشد غرابة على القارئ من هذا الترتيب ، ولكن الببدأ الذي يقوم عليه ، وهو أمر أكثر خطورة ، لا يثبت طويلاً أمام

(١) رقم ١٨٥ ؛ وانظر أيضاً بيرن Byrne : رقم ١٣١ ، مجلد ١ ، ص ٤٥ .

البحث إذ أن الأحكام التي تطلق على الأجناس يجب أن تؤخذ دائماً بكثير من التحفظ^(١) فهما قليل في الدور الذي تلعبه التغيرات التي تصيب الجنس في تلك التي تصيب اللغة ، فلا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينبغي الخلط بين الميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تمد أعياناً قابلة للنقل ، تمار وتبادل^(٢) . ونحن نرى بمجرد إلقاء نظرة على خريطة لأوروبا اللغوية في العصر الحاضر أن وحدة اللغة تُظَلّ تحتها أخلاطاً من الأجناس . فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأنه أحد أبنائها . وهذه الحقيقة تكفي لجعل كل محاولة تعمل للتوحيد بين اللغة والجنس عبثاً لا طائل وراءه . أفنذهب على الأقل إلى القول بأن كل لغة تقابلها عقلية معينة ؟ الواقع أن علم النفس يتكلم عن عقلية فرنسية وعقلية ألمانية ؛ فلا بد أن تعبر اللغة عن الفرق الذي يفصل بينهما ، إذا صح أن اللغة ليست في الواقع إلا التعبير عن العقلية . هذا المنطق الذي لا غبار عليه من حيث المبدأ عسير التحقيق لأنه يصطدم باعترافات عديدة .

أول ما يجب تجنبه الحكم باختلاف العقلية باختلاف الدماغ . لأننا إن فعلنا ذلك أفتحنا من جديد فكرة الجنس في مسألة سيكولوجية . حتى في حالة المقارنة بين الزنجي والأبيض لا نجد أى دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابله دماغ خاص ينتج تفكيراً مختلفاً عن تفكيرنا .

هذا المنطق ، على أية حال ، لا يمكن تطبيقه على أفراد كلهم من الجنس الأبيض ليست بينهم اختلافات جنسية أساسية وإننا نعرف أن لون العينين أو البشرة أو شكل الجمجمة كلها لا تقدم لنا مقياساً يصلح للتمييز بين الألماني والفرنسي من الوجهة الجنسية نفسها ، فن باب أولى من الوجهة اللغوية . ومع ذلك فليس من شك في أن كلا من الشعبين له عقلية خاصة ، وأذواق وعادات وأمزجة وطنية ، ولكن

(١) ١ . ريتان : رقم ١١١

(٢) هوبنيتي Whitney : رقم ١٢٩ ، ص ٢٣١ .

هذه الأمزجة الوطنية ومثلها اللغات عليها طابع النتائج لاطابع الأسباب . كذلك من التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية أو العقلية وليدة اللغة ؛ لأن كليهما وليدة الظروف ونتاج الثقافة والمدنية .

لم ترد بالوصول إلى تلك النتيجة أن تثبط من هم أولئك الذين يحاولون ربط الفكرتين معاً . إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجاً لأسباب واحدة وأن تكون الميزات التي تميزهما واحدة دون أن يترتب على ذلك صدور إحداها عن الأخرى . فإذا كانت اللغة علامة مميزة لصورة من صور التفكير ، كان من الممكن أن نصل بتحليل مقارن للغات إلى سيكولوجية للأجناس . وهذه كانت فكرة هررد Herder في مؤلفه عن أصل اللغة ؛ وفكرة غليوم فون همبولت Wil- helm von Humboldt وشتينتال Steintal أيضاً . وفي أيامنا هذه عاد العالم اللغوي الألماني ف . ن . فنك^(١) F. N. Finck إلى فكرة هررد محاولاً تكميلها وفي رأيه أنه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثاراً معبرة عن عقل الشعوب . وأن اللغات ليست إلا تصورات ، لا تقدم أمام عين العالم السيكلولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة . وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محضة بدلاً من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة . هذه الطريقة خير الطرق لدراسة بعض نتاج النشاط النفساني psychique كالمعتقدات الشعبية . وهي نفس الطريقة المتبعة في دراسة الخوف أو الحلم أو الإيمان . فها نحن أولاً بهذا الرأي قد ابتعدنا عن علم اللغة . ويمكننا أن نجيب فنك بأن اللغة حقيقة واقعة مهما كانت الحال^(٢) . فاللغة بصورتها وبكيانها الصرفي لها وجود خاص مستقل عن استمدادات التكلم النفسية واللغة تفرض نفسها عليه في صورة نظام قد أعدّ من قبل ، في صورة آلة وضعت في يده . وهو يستخدمها لغايات شتى : فيستعملها في حاجات سوقية أو يستخرج منها آثاراً تبدل على الحدق وتدعو إلى الإعجاب . ولكنها في كل الحالات آلة

(١) رقم ١٩٥ .

(٢) ميه : رقم ٢ ، مجلد ١٠ ، ص ٦٦٤ .

واحدة بعينها ، ومهمة العالم اللغوى هى بالضبط أن يدرس ما فى هذه الآلة من جوهرى ومن دائم . ومن ثم كانت الطريقة الموضوعية التى يحاربها فنك صالحة للتطبيق فى علم اللغة عام الصلاحية ، واللغة فى وسعها أن تدرس مستقلة عن العقلية . فضلا عن ذلك فليس من المؤكد أن الأسباب التى تؤثر على اللغة تحدث فى العقلية آثاراً مماثلة . فالأجزاء الجوهرية الداعة فى اللغة تتحول وفقاً لقواعد ليس للعقلية فيها أى نصيب . وهذا بالذات هو ما أدى إلى الافتراض بأن للغة حياة مستقلة عن كل حياة نفسية أو فسيولوجية أو اجتماعية . والواقع أن الفروق التى نلاحظها فى فترة ما من التاريخ بين لغتى شعبين ، حتى ولو كانتا من أصل واحد ، يمكن تفسيرها بظواهر لغوية خاصة بتطور كل واحدة من اللغتين ، وبالتالي لا تسمح لنا بحال أن نصدر حكماً ما على عقلية الشعبين .

هذه الملاحظة تنطبق على أوضح الصفات التى يمكن أن تميز بين لغتين . فترتيب الكلمات فى الجملة مثلاً عملية لها دلالتها الفارقة ؛ لأن جذوره ، على ما يظهر ، ناشبة فى أبعد أعماق الشعور اللغوى ؛ إذ أنه هو الأصل فى تحضير الصورة الكلامية . ومع ذلك فتحن على عام المعرفة من أن بنية الجملة فى الألمانية أو الإلندية أو الأرمينية الحديثة ناتجة من تطورات صرفية خاصة بهذه اللغات (انظر ص ١٩٠) وكلما أوغل المؤرخ فى الرجوع إلى الماضى ، اكتشف فى بنية التنظيمات الشديدة الاختلاف أثر قوانين داخلية يفسرها تطور كل لغة من هذه اللغات .

كذلك دأب العلماء ، وهم على حق ، على مقابلة اللغات التى تمارس التركيب باللغات التى تلجأ إلى الاشتقاق ، إلى مقابلة الإغريقية باللاتينية أو الألمانية بالفرنسية مثلاً . فالذى يبدو لأول وهلة أن هذين النوعين يمثلان نوعين مختلفين من العقلية ؛ إذ أن العقل فى الحالة الأولى بعد أن يحلل التصور يبرر بالتفصيل عن العناصر التى تنتج من هذا التحليل ، بينما لا تشير الحالة الأخرى إلا إلى مظهر واحد من مظاهر التصور تاركة للسامع البحث عن المظاهر الأخرى . ولكن الواقع أن هذين المسلكين ينتجان من عادات قد تطورت إن قليلاً وإن كثيراً ؛ هذا إلى أنهما لا يتنافيان بل يستعملان معاً فى كل لغة بدرجات مختلفة . إذ يكفى فى إحدى

اللغات أن يتغلب نوع ما على غيره في فترة من الفترات ، ليتضاعف استعماله بعد ذلك في العصور التالية . فهذا أثر مباشر لتنافس الطرق الصرفية ، لا يتوقف بأية حال على اختلاف العقلية .

لأن العقلية في الحالتين واحدة ، وإنما تختلف العبارة فقط . فكون إحدى اللغات تقول *liber Petri* « كتاب بطرس » والأخرى تقول : *Le livre de Pierre* « الكتاب [بتاع] پير » لا يحتم أن يكون الشعبان اللذان يتكلمان هاتين اللغتين يختلفان في تصور علاقة الملكية ، وإنما يختلفان فقط في التعبير عنها . ولهذا الاختلاف أسباب تاريخية . فالسعى إلى معرفة عقلية الشعب من خصائص لغته مشروع فاشل إذا راعينا وسائل البحث التي تملكها في حالتنا الراهنة . بل إن المفردات نفسها لا تعكس العقلية إلا في صورة جزئية . فالفرنسية مثلاً ليس فيها إلا كلمة واحدة *louer* « يؤجر » و « يستأجر » لترجمة الفعلين الألمانيين *miethen* « يستأجر » و *vermiethen* « يؤجر » ومعنى كل منهما على عكس معنى الآخر . وفي هذا ما فيه من لبس غير مستحب في اللغة الفرنسية ؛ ولكن الألمانية بدورها لا تملك غير فعل واحد *leihen* للتعبير عن الفعلين الفرنسيين *prêter* « يُعير » و *emprunter* « يستعير » ونعرف لغات أخرى تعبر بكلمة واحدة عن « البيع » و « الشراء » معاً^(١) . فهل في ذلك ما يشير إلى الصورة التي تدرك عليها هذه الشعوب الإجارة والإعارة والبيع ؟ كلا . فالمفردات في أية لغة لا تعرض مطلقاً وجوه التفكير كاملة . بل يوجد دائماً من الكلمات أقل مما يوجد من الأفكار ، والاستعمال الجارى يكتفى دائماً بالمباراة التقريبية ، لأن لديه من الوسائل ما يجنبه الوقوع في اللبس . إذ أن السياق يوضح معنى كل كلمة ؛ وإذا لم يكف السياق ، لم تعد اللغة أن تجد وسيلة لتجنب هذا النقص . فالفرنسية في الواقع لا تشكو غموضاً في كلمة *louer* ، ولا الألمانية في

(١) تقول الصينية مثلاً *mài* و *mài* ، ولا فرق بين هاتين الصفتين إلا في النغم (جيلنتس *Chinische Grammatik* : Gabelentz ، ١٨٨٨ ، فقرة ٢٣٠ ، أخذناه عن اقتباس لجيرسن ، رقم ١٣٤ ، ص ٨٤ — ٨٥) .

كلمة lehnen ، كما لا تشكو البريطانية من كونها لا تملك إلا كلمة واحدة (glas) للتعبير عن « الأخضر والأزرق » وتستعمل نفس الكلمة لتقول « السماء زرقاء » و « الفاصولية خضراء » .

يبدو إذن أننا نخطئ حينما نرى في أى جزء من أجزاء اللغة صورة لعقلية بعينها . ولا معنى هذا أنه لا توجد أية رابطة بين العقلية واللغة ، بل إن اللغة تستطيع في بعض الأحيان أن تمدل من العقلية وتنظمها . فعادة وضع الفعل في مكان بعينه دائماً ، يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال . والتفكير الفرنسى أو الألماني أو الإنجليزى خاضع للغة إلى حد ما . فإن اللغة إذا كانت مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام وأتاحت لها حرية الحركة . وعلى العكس من ذلك تحتنق الفكرة من التضيق الذى يصيبها من لغة جامدة ثقيلة . ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أى شكل من أشكال اللغة . لذلك كان من المحال تحديد اللغة بمزاج الأمة التى تتكلمها . فدراسة الدور الاجتماعى الذى تقوم به اللغة هى خير ما يعطينا فكرة عن ماهية اللغة .

* * *

أصبح تكرار القول بأن الإنسان كائن اجتماعى أمراً مبتدلاً . لعل من أول السمات على الطبيعة الاجتماعية فى الإنسان تلك الغريزة التى تدفع على الفور الأفراد المقيمين معاً إلى جعل الخصائص التى تجمعهم مشاعة بينهم ، ليميزوا بها عن أولئك الذين لا توجد لديهم هذه الخصائص بنفس الدرجة .

هذه الغريزة فى غاية القوة ، نثر عليها فى كل الأقسام التى تنقسم إليها أية هيئة اجتماعية ، وترجع فى أصلها إلى حقيقة التجمع نفسه . فإذا التقى فرنسى وفارسى فى جزيرة مهجورة نسى كل منهما الفروق التى تفصل بينهما وسعيا بطبيعهما إلى الاتحاد ؛ لأن المساواة فى العزلة تنمى الزمالة بينهما . ولكن لو أن فارسياً جاء إلى فرنسا زائراً ووجد نفسه فى مكان ككور لا رين Court la Reine ، ورآه بعض الفرنسيين ، لأوحت إليهم على الفور عاطفة الوطنية — التى من شأنها أن تقوى وجود الجماعة — بهذه الجملة المشهورة : كيف يمكن لإنسان أن يكون فارسياً ؟ وإذا

قابل جندي منزول من جنود الخيالة جندياً آخر من جنود المشاة تأخى الجنديان دون عناء ؛ مع أننا نعرف أن المدن التي تضم ثكنات لسكك السلاحين كثيراً ما تكون ميداناً لمشاحنات ناجمة من هذا الاختلاط حتى تضطر السلطات أحياناً إلى التدخل لحفظ الأمن . بل لسنا في حاجة إلى التمثيل بسلاحين مختلفين قد يفتقران أحياناً في العمل وفي التقاليد وفي الاختيار . فكثيراً ما تشتد المناقشات في داخل فرقة واحدة بين كتيبة وكتيبة أو جماعة وجماعة أو غرفة وغرفة ، لا لشيء إلا لاختلافهما في ساعات العمل أو القيادتين أو في رقم « المنبرين » : فأنفه الفروق تذكر نار المنافسة . فكان الناس إذا ما تجمعوا بحثوا عن أنفه الأسباب التي تقدمها لهم الظروف لإثبات تجمعهم بمعارضة غيرهم .

في هذه الحالة لسنا في حاجة إلى الاحتجاج بوجود باعث من الزهو الذي يبعث عليه الشعور بوجود تفوق ما ؛ وإن كانت روح الجماعة تصطبغ غالباً برضاء داخلي : إذ أنها تنطوي على شعور بالعزة يدفعها إلى استثارة الآخرين وإذلالهم . ولكن هذه العواطف تنتج من روح الجماعة ولا تخلقها . والذي يقوى من روح الجماعة هو وجود التجمع ، وهذا التجمع نفسه ليس فيه شيء شخصي ولا تدخل في حسابه قيمة الأشخاص منفردين . إذ يكفي لأي دخيل أن يحتل مكاناً في الجماعة لتعترف له بالحقوق التي للآخرين : وكل ما تفعل به لدى دخوله أن تفرض عليه نوعاً من البلاء التأديبي الذي لعله بقية باقية من الرياضة الصوفية القديمة . وأخيراً لا تقوم الجماعة التي من هذا القبيل على نظم شرعية . والرباط الذي يجمع بين أعضائها لا يرجع إلى اتفاق سابق ولا إلى إرادة مقصودة ؛ وإنما ينحصر في الاتفاق في العمل والمصالح والحاجات ؛ وترداد قوة الجماعة إذا وجدت بجانبها جماعات أخرى تختلف عنها في الأعمال والمصالح والحاجات .

تلمب اللغة دوراً ذا أهمية عظمى في الجماعة الاجتماعية مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها . فاللغة أوثق المرى التي تجمع بين أعضاء هذه الجماعة . وهي على الدوام رمز ما بينهم من تشارك وحارسه الأمين . وأية آلة أفل من اللغة في توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمزونها وتنوع حياتها ولطف سريانها واختلاف

استعمالها وسيلة للاتفاق بين الجماعة وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضاً ويهرع بعضهم إلى بعض .

كل عضو في الجماعة يشعر بأنه يتكلم لغة معينة ليست لغة الجماعات المجاورة . فللغة إذن وجود مستقل في الشعور المشترك بين أولئك الذين يتكلمونها جميعاً . وهذا التعريف ، وهو ذاتي محض في مظهره ، يستند إلى كون هذا الشعور بالاشتراك في اللغة يضاف إليه شعور آخر في وجدان المتكلمين بوجود مثل لغوي أعلى يسمى كل منهم من جهته إلى تحقيقه^(١) .

فكان هناك عقداً ضمناً أقامته الطبيعة بين أفراد الجماعة الواحدة ليحافظوا على اللغة في الصورة التي توجبها القاعدة . وكثيراً ما ترجع هذه القاعدة إلى الاستعمال ، وهذا لا يخلو من الصواب . ولكن الاستعمال غير التحكم ، بل هو ضده على خط مستقيم لأن الاستعمال خاضع لمصلحة الجماعة ، وهي هنا حاجتها إلى أن تكون مفهومة . فكل فرد يدأب بفرزته وعن غير شعور منه على الوقوف في سبيل ما هو يحكمى حتى لا يدخل في الاستعمال . وإذا وقعت مخالفة من جانب فرد منعزل ، أصلحت على الفور ؛ والسخرية اللاذعة كفيلة بإمساك الجاني عن التفكير في العودة . ولا يمكن أن نصير للمخالفة قوة القانون إلا إذا كان أعضاء الجماعة كلهم على استعداد لارتكابها ، أي أن يشعروا بها على أنها قاعدة ، وفي هذه الحالة لانصبغ مخالفة .

والصرامة التي بها تفرض القاعدة نفسها في غاية القوة ، يستوى في ذلك كل الجماعات اللغوية وفي كل اللغات . قد نسمع في بعض الأحيان أشخاصاً ، وأشخاصاً مثقفين ، يظهرون دهشتهم من أن يكون للغة الفلاح قواعد ونحو . فهم يتخيلون أن القواعد لا توجد إلا في الكتب التي توزع على تلامذة المدارس ؛ وهذا خطأ . لأن الكلام الربي ، أو اللهجات كما يسمونها ، فيها قواعد أشد صرامة في غالب الأحيان مما في اللغات التي تتلقن من كتب النحو . وفي اللغات المكتوبة دون

(١) انظر عن التل الأعلى للسلامة اللغوية نورن Norren : رقم ٢٣٠ مجلد ١

(١٨٩٢) سيتالا Setälä : رقم ٢٨ ، مجلد ٤ (١٩٠٤) ص ٢٠ — ٧٩ .

سواها يوجد التردد ونقاش العلماء ، وكما يقول هوراس « gramma- tici certant » . ولكن الذين يتكلمون اللهجات لا يترددون . انظر إلى فلاح يتكلم عن لهجة القرية المجاورة ، تجده يكتشف فيها فروقاً لا يكاد يحسها الغريب عنها ، وتسمعه يؤكد بخيلاء أنه هو وأهل قريته وحدهم هم الذين يتكلمون صحيحاً ، وأن الصحة تنعدم بمجرد أن تمر إلى الشاطئ ، الآخر من النهر أو أن تنتقل إلى سفح الوادى الآخر .

فالتباينات الشعبية على العموم عندها عن لغتها فكرة محددة ، ويحسون في إرهاف نادر المثال أقل مخالفة للقاعدة . وقد وجد مالرب Malherbe أدق حس لغوى عند طعام البور أو فوان Port-au-Foin ؛ حتى كان يتخذهم أساتذة له^(١) . ونحن نعرف أخبار المغامرة التى وقعت في سوق أثينا لتيوفراست وكان من لسبوس . كان يسأل عن ثمن إحدى السلع ، ففطنت امرأة من الشعب إلى أنه غريب على لغتها^(٢) . فالشعب هو الذى يجب أن يستشار عند التردد في حالة من حالات الاستعمال ، والجامع اللغوى هى التى تستطيع أن تناقش وأن تقرر الحاجة بالحجة لتعرف ما إذا كانت كلمة « أوتومبيل » automobile مذكرة أم مؤنثة ؛ وكل ذلك من الأمور النظرية . أما من الناحية العملية ، فإن الشعب لم يتوان عن الحكم بتأنيث الكلمة . وإذا كانت قد مرت به فترة من التردد ، فذلك لأن الجنس لا تبدو آثاره في كثير من الحالات (انظر ص ١٣١) . ومعنى ذلك أن الكلمة لا جنس لها في بعض استعمالها ؛ ولكن الشعب حدد جنسها في كل ما يحس فيها وجود الجنس مثل : une belle, une grande automobile أو « سيارة جميلة ، سيارة كبيرة » l'automobile est vetre ou grise « السيارة خضراء أو رمادية . »

فهذا التوخى للسلامة وتلك الثقة في تثبيت الاستعمال هما اللذان يقرران اللغة في مجموعة بعينها من البشر . ومع ذلك فلو بحثنا عن تحقيق كامل للغة لم نجد في

(١) Mémoires pour la vie de Malherbe تأليف المركيز دى راكان Mar-

quis de Racan : فقرة ٤٧ .

(٢) شيشرون : بروتس ، فصل ٤٦ ، ١٧٢ ؛ كينيليان Quintilien : ٨ ، ١ .

(م — ٢٠)

أى مكان^(١) . فكثير من الناس يتكلمون الفرنسية . ولكن لا يوجد شخص واحد يتكلم الفرنسية ويصلح أن يكون مثالا ومقياساً للآخرين ، فما نسميه الفرنسية لا يوجد فى لغة الكلام عند أى كائن إنسانى . لذلك كان من اللغو أن تتساءل فى أى مكان تتكلم الفرنسية فى أسمى صورها . فالفرنسية الحسنى «فكرة» بالمعنى الذى يستعمل فيه لبروير La Bruyère هذه الكلمة أى أنها خرافة ؛ مثلها مثل حكيم الرواقين الذى كان كاملاً جيلاً طيباً سليم العقل والجسم ، إلا إذا انتابته نوبات البلم . كذلك فرنسيتنا الحسنى تراها تحت رحمة زلة من زلات الذاكرة أو لحن أو خطأ . فهى مثل أعلى يُبحث عنه ولا يمكن العثور عليه ؛ إنها قوة فعالة لا يستطيع تحديدها إلا بالمهدف الذى تتجه نحوه ؛ هى حقيقة بالقوة لا تُخرج إطلاقاً إلى حيز الفعل ؛ وصيرورة لا تصل أبداً إلى الاستقرار .

يمكننا أن نلخص ما تقدم بأن اللغة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة . لكن يبقى علينا فى هذه الحالة أن نعرف المجموعة . والواقع أن الفصول التالية فى مجلتها مخصصة لهذا الموضوع ، لأن خصائص اللغة تتوقف على طبيعة المجموعة وعلى مقدار امتدادها . إذ يوجد فى فرنسا إلى جانب اللغة الأدبية التى تكتب فى كل مكان والتى يزعم المثقفون بأنهم يحققونها فى كلامهم ، مجموعة من اللهجات مثل الفرنش كنتيه والليموزنيه اللتين تنقسمان بدورها إلى لهجات محلية عديدة . وهذه لغات أخرى يقابلها عدد مساو لها من التجمعات . هذا إلى أنه يوجد داخل مدينة واحدة كباريس ، عدد من اللغات المختلفة تسير كلها جنباً إلى جنب . فلغة الصالونات مثلاً ليست لغة الككنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ؛ وهناك رطانة المحاكم والمامية الخاصة التى تتكلم فى حواشى المدينة . وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض إلى حد أنه قد يعرف الإنسان إحداها دون أن يفهم الأخرى . تنوع اللغات يرجع إلى تنوع الروابط الاجتماعية . ولا كان من النادر أن

يمش فرد محصوراً في مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضاً أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة . إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ويؤثر بلفته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها .

لا تتكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة إطلاقاً . ولكن هذا الخلاف اللغوي الذي يفرق بينهما حالياً طفيف لا يكاد يحس حتى ولو كان يحمل في طياته جرائم انفصال في المستقبل ، لذلك كان لنا الحق في ألا ندخله في حسابنا في حالته الراهنة . هذا إلى أن اللغة التي تتفاهم بها الأسرتان فيما بينهما تصبح إلى الوحدة حتماً ، إذ أن الروابط المتبادلة تعمل منذ اليوم الأول على إضعاف الفروق بينهما وتكوين نواة مشتركة . ولنتخيل أخوين يعيشان معاً ولكنهما لا يمارسان مهنة واحدة . فكل منهما يحثك في مصنعه بمجموعات مختلفة يأخذ عنهم اللغة بالضرورة مع عادات التفكير والأعمال وآلات المهنة . وبذلك ينشأ في كل يوم بين الأخوين اختلاف لغوي يؤدي بهما — إذا لم يريا أحدهما الآخر زمناً طويلاً — إلى التحقق من أنهما يتكلمان لنتين مختلفتين ، ولكن هذا الاختلاف يزول كل مساء بفضل عودة الصلة بينهما من جديد . وعلى هذا النحو يجدان نفسيهما خاضعين لتيارين متعارضين يتبادلان التأثير عليهما ولا يفصل أحدهما عن الآخر إلا بضعة ساعات ، ويجدان أن اللغة التي يتفاهمان بها في حاجة دائمة إلى التطهير من عناصر التفرقة التي تفد عليها من الخارج .

هذا مثل طيب لصراع التوازن الذي هو قانون تطور اللغات جميعاً . فهذان ميلان متعارضان يوجهان اللغة في طريقين متباينين ^(١) . وأحد هذين الميلى يتجه نحو التفريق . فتطور اللغة على نحو ما أوجلاه في الفصول السابقة يؤدي إلى انفصالات تزداد مع الزمن تفتداً : وتكون النتيجة تفتت اللغة تفتتاً بزيادة استعمالها ؛ إذ تضطرها إلى هذا التفتت مجاميع الأفراد التي ترك وشأنها دون احتكاك بينها . غير أن هذا التفريق لا يصل إطلاقاً إلى تمامه ، لأن سبباً حيويًا

(١) ميه : التوحيد والتفريق في اللغات (رقم ٤٢ ، ١٩١١ ، ص ٤٠٢) .

يوقفه في الطريق ؛ إذ أنه بأبعانه التدريجي في الحد من امتداد المجموعات التي تستخدم اللغة وسيلة للتفاهم بينها ، ينتهي بحرمان اللغة من قيمتها الجوهرية ؛ فتحطم اللغة نفسها وتصبح غير قادرة على إيصال الناس بعضهم ببعض . لذلك يقوم ميل آخر — يعمل دوماً على مناهضة التفريق ، وهو الميل إلى التوحيد الذي بعيد التوازن . ومن صراع هذين الميلين تنتج أنواع اللغات المختلفة ، من لهجات ولغات خاصة ولغات مشتركة ، تلك التي ستكون موضوع دراستنا منذ الآن .

الفصل الثاني

اللهجات واللغات الخاصة^(١)

يمكننا دائماً أن نحدد لغة ما من الوجهة المكانية بمقابلتها بلغات من فصيلة مختلفة . فنحن نعرف حدود الفرنسية في الأماكن التي ترتطم فيها بالألمانية أو بالبسكية أو بالبريتانية ؛ هذه الحدود يمكن رسمها ما بين قرية و قرية ؛ بل في داخل القرية نفسها ، كثيراً ما يفصل بين اللغتين واد من الوديان أو جدول ماء أو مجرد شارع . فيمكننا إذن أن نتكلم عن لغة فرنسية أو ألمانية أو إيطالية أو مجرية أو صربية . كل هذه اللغات يتعارض بعضها مع بعض وتحدد بعضها بعضاً على وجه الدقة .

ولكننا نمائى بعض الصعوبة إذا حاولنا أن نرسم حدوداً بين الفرنسية والبروقسالية أو بين الألمانية العليا والألمانية السفلى أو بين الصربية والبغارية . لأننا هنا لم نعد أمام لغتين من أصلين مختلفين وصلت بينهما مكانيا مصادقات التاريخ ، بل أمام لغات منبثقة من أصل واحد وقد فرقت بينها ظروف تاريخية . فالانتقال بين إحداها والأخرى انتقال غير محسوس ، وليس هناك معارضة جسيمة

(١) عن مسألة اللهجات أنظر أسكولي *L' Italia dialettale* : Ascoli « اللهجات الإيطالية » ، رقم ٤١ ، مجلد ٨ ، ص ٩٩ ح ١٢٠ ؛ ل. جوها *Gibt es : Mundartgrenzen ?* « هل توجد حدود لهجية ؟ » ، رقم ٢٥ ، مجلد ١١١ ص ٣٩٥-٤٠٣ (١٩٠٤) ؛ تاپولت *Tappolet* : « في أهمية الجغرافيا اللغوية » نشر في *Festschrift Morf* ، ص ٣٨٥ وما يليها ؛ ي. هوبر *J. Huber* : « الجغرافيا اللغوية » رقم ٣ ، مجلد ٨٩ ص ١٧١ وما يليها ، وأنظر خاصة مؤلفات الأساتذة جيليرون وإيبرج وترونتشيه ، أما عن « اللغات الخاصة » عامة فانظر لاش *Lasch* : نشرات جمعية علم الإنسان بـيئنا : *Mitteilungen der anthrop. Gesellschaft* ، فيينا (١٩٠٧) ؛ فان جنيب *Van Gennep* رقم ١٤ (١٩٠٨) مجلد ١ ، ص ٣٢٧ ، رقم ٧٤ .

بين لثنتين وضمت إحداهما في مواجهة الأخرى ، وزودت كل منهما بوسائل للتعبير مختلفة . والصعوبة تعظم وتعظم إذا أردنا أن نضع حدوداً بين اللهجات التي في داخل مجال لنوى واحد .

أصبح اليوم من المقرر أن الخصائص اللغوية لا ينسجم بعضها مع بعض من حيث التوزيع ، وبعبارة أخرى ، أن الخطوط التي تفصل بين خاصية وأخرى ، ليس هي نفس الخطوط التي تفصل بين خاصيتين أخريين .

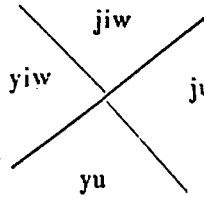
ويكفينا للتحقق مما نقول أن نرجع إلى إحدى الخرائط اللغوية لاستيضاحها . فأطلس فرنسا اللغوي^(١) يعطينا عن كل حالة بعينها حدوداً مختلفة . ولنتخيل عدداً من القرى ، عشر قرى مثلاً ، مفرقة في إحدى المقاطعات الفرنسية في رقعة تتكون من بضعة أميال مربعة . فترى أن سكان هذه القرى يتكلمون لغة واحدة ، بمعنى أن لهجتهم تمثل مظهراً خاصاً من اللغة الفرنسية ، وقد نتجت تاريخياً ، من تطور مستقل لنفس اللغة في مجال متصل . ولكننا نجد فروقاً ذات بال بين قرية وأخرى ، حتى ليمكننا أن نميز لهجة كل قرية منها بوصف مخالف لغيرها^(٢) من حيث الصوتيات ومن حيث النحْو ومن حيث المفردات . ومن النادر جداً ألاّ تمتد إلى حد ما خصائص إحدى هذه القرى إلى القرى المجاورة . ولكن الحدود الجغرافية لسلك واحدة من هذه الخصائص على حدتها ، لا تكاد تتفق إطلاقاً مع الحدود الجغرافية لأي خاصية أخرى تؤخذ على حدة أيضاً . فنجد مثلاً بين هذه القرى خمساً أو ستاً تنطق (a) « فتحة » حيث تنطق القرى الأخرى (e) « فتحة مماله » ، ثم نجد خمس قرى أو ستاً تنطق o « ضمة مفتوحة » حيث تنطق القرى الأخرى u « ضمة صريحة » . ولكن الخط الذي يفصل بين أولئك الذين ينطقون a والذين ينطقون e ليس هو الخط الذي يفصل بين من ينطقون o وبين من ينطقون u ؛ فالقرى التي تمارس التغير ليست واحدة ؛ ومعنى ذلك أن التوزيع يختلف .

(١) الأطلس اللغوي لفرنسا ؛ وأتظر جيلبيرون وروك : رقم ٧٦ .

(٢) جوشا : « الوحدة الصوتية في عامة إحدى القرى » نشرت في : Festschrift

Morf. ، ص ١٧٥ — ٢٣٢ .

يوجد مثلاً في مقاطعة اللاند^(١) Landes بالنسبة لنطق كلمة *joué* « نير » أربع مناطق غير متساوية تماماً ، وموزعة على هذا النحو :



والتقسيم يقوم أولاً على نطق *z* (ج) بدلاً من *y* (ي) التي في أول الكلمة وثانياً على نطق *iw* بدلاً من *u*. ومناطق هذه الظواهر الصوتية لا تسير بعضها بعضاً . ولكنها لا تسير ظاهرة أخرى صوتية مثل ظاهرة تبادل *d* « د » و *z* « ز » التي تشطر المنطقة إلى شطرين متقاربين^(٢) : *laide* - *laize* ولا تسير ظاهرة صرفية مثل ظاهرة الاختصار على واحد من الزمنين الماضيين *z* « ز » : إما الماضي البسيط (*il écrasa*) وإما الماضي المركب (*il a écrasé*) ، تلك الظاهرة التي يكون حدها الفاصل خطاً متعرجاً يقطع المقاطعة بصورة غريبة^(٣) .

وإذا درسنا مفردات المقاطعة نفسها ، وجدنا لاسم المستنقع « *étang* » أربع كلمات مختلفة (*gourgue* , *pesque* , *clote* , *estan*)^(٤) ، وثلاثاً لاسم الغراب (*croque* , *corbe* , *courbas*)^(٥) ؛ ومناطق اسم الغراب لا تسير مناطق اسم المستنقع . وإذن فتوزيع حالات المفردات فيها نفس الشذوذ الذي في توزيع الحالات الصوتية أو الصرفية .

كانت نتيجة هذه الحال أن كثيراً من علماء اللغة ذهبوا إلى أن اللجات لا وجود لها . فعند هؤلاء العلماء أن الحالة اللغوية التي تنتج من تطور اللغة لا يمكن أن تتصور إلا في مظهرين : مظهر اللغة ، تلك الوحدة الشاسعة التي تشمل إليها

(١) ميرديه : رقم ١٠٢ ، ص ٢٤٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٤٩ .

(٣) نفس المرجع : ص ١٩٩ .

(٤) نفس المرجع : ص ٢٠٨ .

(٥) نفس المرجع : ص ١٧٥ .

صور التكلم المحلية جميعها ، ومظهر صور التكلم المحلية التي إليها تنفتت اللغة . هذا بصفة عامة رأى علماء اللغات الرومانية الذي قام بمرضه في صورة فائقة جاستون باريس وبول مير منذ زمن . يقول الأول : « لا يوجد أى حد حقيقى يفصل بين فرنسى الشمال وفرنسى الجنوب ؛ فصور التكلم الشعبية عندنا تمتد على أرض الوطن من طرف إلى آخر كأنها بساط نضحت ألوانه المتنوعة في كل نقطة منه بعضها على بعض وأصبحت درجات لا يكاد يتميز بعضها من بعض ^(١) . »

هذا أيضاً هو الرأى الذى تصير إليه « نظرية الأمواج » Wellentheorie ليوهان شمت Johann Schmidt ^(٢) . فهو يقرر أن كل ظاهرة لغوية تمتد على سطح القطر امتداد الأمواج ، وأن كل موجة في تقدمها التدريجى غير المحسوس ليس لها حد معين . ويستند في نظريته على دراسة اللغات الهندية الأوربية حيث الخطوط التي تفصل بين كل خاصية لغوية وأخرى لا تنطبق على الخطوط التي تفصل بين خاصيتين لغويتين أخريين ، وذلك كما هي الحال في اللغات الرومانية . ولكن الأستاذ ميه قد دافع بحق عن اللجات الهندية الأوربية ^(٣) فأبان أنه يمكننا أن نقوم بتقسيم لهجى ، حتى في زمن الهندية الأوربية . وهذا التقسيم يقوم على المبدأ القائل بأن من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات كلما رأينا عدداً كبيراً من الخطوط التي تفصل بين الخصائص ، ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبي . فهناك لهجة محددة في كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة . وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين فإنه يبقى أن كلا منهما تتميز في مجموعها بيمض السمات العامة التي لا توجد في الأخرى . فالبروقنسالية والفرنسية ليستا في حقيقة الأمر إلا لهجتين من لغة واحدة . وإذا لم يكن في وسعنا أن نرسم على الخريطة خطاً محدداً يبين أين تنتهى الفرنسية وتبدأ البروقنسالية ، فإن كلا من اللهجتين في مجموعها قد اشتملت على خصائص عديدة واضحة إلى حد يجعلنا في مأمن من الخلط بينهما .

(١) دوزا : رقم ٦٥ ، ص ٢١٧ ومايلها ، مع إشارات الرجوع إلى شوخارت وأسكولى وجاستون باريس وب مير : وفارن جاستون باريس : رقم ١٠٦ ، ص ٣٣٤ .
(٢) رقم ١٩٩ ؛ وفارن بريجان : رقم ٣١ ، مجلد ١ ، ص ٢٢٦ ومايلها .

يمكننا أن نوجد في داخل المجال الفرنسى نفسه تقسيما لهجيا باختيار بعض السمات الخاصة التى تكفى لتمييز اللهجة . فالفرنسية البيكارديّة تمتاز عن فرنسية الإيل دي فرانس باحتفاظها بالـ C الانفجارية (ك) التى هارت صوتا صغيرا (ش) فى المجال الفرنسى . فتقول البيكارديّة kar, kamp, keval بدلا من char champ, cheval . نعم إن هذا القياس النافذ فى التمييز بين البيكارديّة والفرنسية ليس صالحا كما أبان پول ميير ، للتمييز بين البيكارديّة وبين جارتها الشمالية أعنى الفرنسية البلجيكية (الولونية Wallon) أو بينها وبين الترمندية جارتها الغربية . ولكن يوجد بين البيكارديّة والفرنسية البلجيكية أو الترمندية خصائص أخرى مميزة تمكننا من وضع حدود إجمالية بين هذه اللهجات .

لذلك لا يقع المتكلمون فى الخطأ . فالتقسيم الهجى يرجع إلى إحساس حقيق لدى سكان الإقليم الواحد ، إحساس بأنهم يتكلمون بصورة ما ليست هى الصورة التى يسير عليها سكان الإقليم المجاور . والبيكارديون القدماء كانوا يشعرون بأن فرنسيّتهم البيكارديّة لهجة تختلف عن فرنسية الإيل دي فرانس بقدر ما تختلف الترمندية عن الولونية (الفرنسية البلجيكية) . وذلك لأن البيكارديّة فى مجموعها بالرغم من اختلاف صورها فى المجال الواسع الذى تتكلم فيه ، فيها سمات مميزة غالبية تميّزها فى أذهان الذين يتكلمونها بالنسبة للهجات المجاورة . وهذا يفسر لنا وجود مؤلفات أدبية مكتوبة بالبيكارديّة .

أغلب الظن أن اللغات الأدبية التى تعتمد على إحدى اللهجات أى التى تقوم على أساس لهجى لا تمثل ، كما سنرى فيما بعد (ص ٣٤٢) ، تمثيلا صادقا صورة التكلم لأى بلدة من بلدان المنطقة . وهذا يصدق على فرنسا فى العصور الوسطى كما يصدق على بلاد الإغريق القديمة . ولكن لا ينبغي أن نستنتج من ذلك عدم وجود اللهجة . بل إنها توجد بقدر ما توجد اللغة المشتركة فلها نوع من الوجود المثالى . ففى الفرنسية لا يكتب سان ألكسس Saint Alexis فى نفس اللهجة التى يكتب فيها سان ليجيه Saint Leger أو ال كاتيلين دى سانت أولالى la Cantilène de Saint Eulalie .

وفي بلاد الإغريق كانت لهجة الملحمة غير لهجة القصيدة الغنائية ؛ وفي
الدرامة كانت تستعمل لهجتان مختلفتان ، واحدة للحوار والأخرى للفناء الجماعي .
فأساس هذه اللهجات من حيث الأصل لغة أحد الأقاليم الإغريقية سواء أكان ذلك
الإقليم في الجزر أم في القارة ، وسواء أكانت هذه اللغة واسعة الانتشار أم
محصورة . وكان في كل منها من السمات الخاصة المميزة ما يكفي لتسميتها لهجة .
ولكن استعمال الشعراء لها صيّر لها لغات أدبية ؛ واللغات الأدبية التي من هذا
النوع لا تختلف عن اللغات الخاصة إلا قليلا .

بعد أن عرفنا اللهجة على هذا النحو يجدر بنا ، قبل أن ندرسها في صلاتها
باللغة المشتركة ، أن نقول كلمة عن اللغات الخاصة . واللغات الخاصة نتيجة للانفصال
الاجتماعي ، مثلها في ذلك مثل اللهجات ولكن من وجهة نظر أخرى .

نعني باللغة الخاصة تلك اللغة التي لا يستعملها إلا جماعات من الأفراد وجدوا
في ظروف خاصة . ومثال ذلك حالة « المحضر » أو حالة القاضي . فهذان الموظفان
يستعملان في تسبيب خيئتيهما أو في تحريرها لغة بعيدة جداً عن اللغة الجارية :
هي اللغة القانونية . ولدينا مثال آخر في لغة الطقوس الدينية : فكثيراً ما يستخدم
المؤمن في خطابه لله لغة خاصة ، كالكاثوليك إذ يستعملون اللغة اللاتينية . فيجب
أن نسلك اللغات الدينية بين اللغات الخاصة . وأخيراً أنواع الأرجو les argots
« اللغات العامية الخاصة » كلها لغات خاصة : فطلبة المدارس والصناع والأشقياء
يستعملون فيما بينهم لغة متفقاً عليها . ومن اللغات الخاصة أيضاً تلك اللغات التي
تتميز من اللغة الجارية ويستخدمها عدد محصور من الأفراد للتفاهم الذي فيه شيء
من السرية . وكل هذه اللغات تشترك في كونها خاصة بالنسبة للغة مشتركة بعينها ،
وباختبار تكوّناتها يتضح لنا أنها تنشأ جميعاً عن ميل واحد ، وهو ترويض اللغة على
مشاغل المجموعة التي تستعملها .

تعتبر بعض هذه اللغات الخاصة لغات مختلفة عن اللغة المادية . ومنها اللاتينية
التي ظل العلماء زمناً طويلاً يستخدمونها في علاقاتهم الدولية . فهم قد اختاروا

لغة ميتة للتفاهم مع غيرهم من العلماء ؛ وفعل قسيسونا مثلهم في مخاطبة الله . وظلت اللغة السنسكريتية في الهند لغة البنديتين ؛ أى لغة المثقفين . ويمكننا أن نعدّ من لغات العبادة التى تختلف عن اللغة الحية اللغات الإغريقية والسلافية القديمة والأرمينية ، أو القبطية التى ظلت اللغة الدينية لقوم يتكلمون في شؤونهم المادية اللغة العربية ، وهى لغة من أسرة أخرى . وهذا يفسّر بيوعات خاصة : بالحاجة إلى إمكان التفاهم مع أناس من أقطار مختلفة في حالة اتخاذ اللاتينية لغة للعلماء ، أو باتباع التقاليد وأكثر من ذلك بالحاجة إلى تمييز القدسي من الدنيوي ، وذلك كما في حالة اللغات الدينية (انظر ص ٣٢١) .

وعلى الجملة فإن اللغات الخاصة تقوم على الرصيد المشترك للغة حية . ولكن بعضها لغات ميتة موت اللاتينية ، ومن ذلك لغة المحاكم . فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية ، على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئاً منها . فهي ليست في نهاية الأمر إلا لغة فنية كلغة الأطباء عندما يحجرون نشرة طبية وعلى العموم ، كلغة العلماء من كل نوع عندما يعالجون مادة علمهم . واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها في الاستعمال الجارى ؛ ولكنها أيضاً ترجع إلى الحاجة للدلالة « بصورة علمية » أى بمصطلح دقيق يرفع كل لبس ، على أشياء مما تعبر عنه اللغة المادية تمييزاً جيداً . لذلك نراها أحياناً تختار كلمات خاصة وأحياناً تستعمل كلمات اللغة العادية في معنى خاص ؛ كما يفعل علماء الطبيعة حين يتكلمون عن « الكتلة » أو « السرعة » أو « القوة » . وبهذا تنحو اللغات الفنية نحو اللغات العامية الخاصة ^(١) .

صارت كلمة « عامية خاصة » (argot) في الأيام الأخيرة مصطلحاً غامضاً . والواقع أنها ليست إلا اسماً آخر للغة الخاصة ، ويوجد من العاميات الخاصة بقدر ما يوجد من جماعات متخصصة . والعامية الخاصة تتميز بتنوعها الذى لا يحد ؛ وأنها في تدرّج دائم تبعاً للظروف والأمكنة . فكل جماعة خاصة وكل هيئة من

(١) انظر عن العامية الخاصة ف . ميشل : « دراسات في الفلولوجيا المقارنة عن العامية الخاصة » ٢٢ مارس ١٨٥٦ ؛ ل . سينيان : رقم ١١٩ . ولغات مارسل شقوب ودوزا .

أرباب المهن لها عاميتها الخاصة . فهناك عامية التلامذة الخاصة ، وهي غير واحدة في كل المدارس بل وتختلف أحياناً باختلاف الفصول في المدرسة الواحدة ؛ وهناك عامية الشكنات الخاصة التي تختلف باختلاف الأسلحة بل وباختلاف الشكنات أيضاً ؛ وهناك عامية الخياطات الخاصة وعامية النسالات وعامية عمال المناجم وعامية البحارين .

وأخيراً هناك عامية الأشقياء الخاصة . وهذه هي التي أطلق عليها كلمة « عامية خاصة » (argot) لأول مرة . فقد كان يوجد عندنا حتى بداية القرن التاسع عشر هيئة منظمة حققة للأشقياء وكانت لها لغتها الخاصة المتفق عليها والتي كان يعمل كل عضو من أعضاء الهيئة على المحافظة عليها . هذه هي العامية الخاصة « argot » ومن قبل كانت تسمى jargon ، لأن الكلمتين كانتا في الأصل بمعنى واحد . وتسمى بالإنجليزية cant وبالألمانية Rotwelsch أو Gaunersprache وبالإيطالية furbesche وبالإسبانية germania وبالبرتغالية calão وبالرومانية smehereasca ، الخ . والذين يدرسون اللغة الخاصة ما زالوا يتخذون لغة الأشقياء أساساً لدراساتهم ؛ ولكنها أرض لا يوجد أقل منها تحديداً . وذلك لأن الأشقياء لا يكونون الآن جماعة مغلقة يستطيع أعضاؤها أن يفرضوا على أنفسهم وحدة لغوية تامة . فالذين يتكلمون العامية الخاصة الآن ينتسبون إلى جميع الآفاق الاجتماعية . وما يسمى عالم الأشقياء يشتمل على ممثلين لكل الأقاليم وكل الطبقات وكل الأوساط . وإذا اجتمع المجرمون ، اجتمعوا في وحدات منزلة لحاجات عابرة ، لا يعترفون برئيس يستطيع ، كما استطاع ملك تون roi de Thunes أو كوسر الكبير grand Coesre ، أن يفرض عليهم إرادته . وليس يميزهم أى شئ خارجي ، بل يختلطون بحياة الجميع ، بالرغم من أنهم يعيشون على هامش المجتمع الشرعي . فكيف يوجد في هذه الظروف لغة للمجرمين محددة تحديداً دقيقاً ؟

ننحصر خصائص العامية الخاصة في اختلاف مفرداتها بوجه خاص . والواقع أنها تنشأ من تخصص اللغة المشتركة ؛ ولما كانت لا توجد إلا بمعارضتها لهذه اللغة المشتركة ، وجب أن تحس الصلة بين اللغة العامة والعامية الخاصة بصفة

دائمة ما دامت العامية الخاصة مستعملة . والتشويه الصوتي أو الصرفي مهما قلَّ ينتج عنه قطع الرباط الذي يصل العامية الخاصة باللغة المشتركة التي خرجت منها . هذا إلى أن الصرف والأصوات يكوِّنان نظامين لا يستطيع مسهماً بشيء دون تغييرها من أساسهما . فلا عدوان للعامية الخاصة عليهما . طبعاً قد يقع للعامية الخاصة أن تتبع بعض عادات في النطق تساعد على تمييزها . فالعامية الخاصة المستعملة في الأطراف الباريسية تحتوى على بعض الخصائص الصوتية التي تسكني للتعريف ببطقة التكلم الاجتماعية . ولكننا هنا أمام حقيقتين مختلفتين يجب علينا أن نميز بينهما : إذ أن النطق الطبيعي في الأحياء الباريسية المتطرفة ليس هو النطق الفرنسى المتداد . فالأطراف لها أصوات خاصة لا علاقة لها بالفردات . وقد نسمع بعض العمال يتكلمون فرنسية لا شائبة فيها بتنغيمات أهل الأطراف ، وأناساً من عليه القوم يتكلمون كلمات من العامية الخاصة مع نطق لا يعلو عليه نطق . فإذا اجتمع نطق الأطراف ومفردات العامية الخاصة في متكلم واحد ، فعنى ذلك اجتماع نوعين مستقلين من الخصائص بطريق الاتفاق .

يمكننا إذن أن نحصر الفوارق التي تميز العامية الخاصة في المفردات . ولكن يبقى علينا أن نبين كيف تنشأ تلك الفروق بين المفردات . فأيسر الوسائل أن تستعمل كلمات اللغة الجارية استعمالاً خاصاً . وقد قلنا سابقاً إن الكلمات العامة التي مثل travail « عمل » و ouvrage « مشغل ، عمل ، صنعة ، تصنيف .. الخ » و opération « عملية » تتخذ بالضرورة معنى خاصاً في أفواه الذين يستعملونها وفقاً لنوع المهنة التي تستخدم فيها هذه الألفاظ . فظاهرة التخصص المنوى تلك هي أساس العامية الخاصة (انظر ص ٢٥٦) .

الاستعمال الاستعاري من الوسائل المحيية إلى العامية الخاصة ؛ وكذلك استعمال اسم العلم في وظيفة الاسم المشترك . وهاتان الحطتان معروفتان في اللغة الجارية (انظر ص ٢٨٧) ؛ فهما لا يميزان العامية الخاصة من اللغة الجارية في شيء . ولكن طريقة تطبيقهما قد تسمح بشيء من التمييز : فالواقع أن الاستعارة والنقل يستعملان في العامية الخاصة بتواتر خاص ؛ إذ أن الاستعارات فيها تبلى بسرعة

ونحتاج إلى كثرة التجديد ، حيث أن الفرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة واللغة المشتركة والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ؛ فلا يدهشنا إذن أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى . كذلك كثيراً ما تكون هذه الابتكرات شعورية وعرضية . وهنا نلمس عن كثب أكثر الخواص تمييزاً للعامية الخاصة عن اللغة الجارية . إذ أن العامية الخاصة مع كونها لغة طبيعية من حيث مبدؤها ومن حيث تكوينها فإنها تقارب اللغات الاصطناعية وتزود من الابتكرات الفردية . فتفوق عضو من الجماعة يفرض على الآخرين تسمية ناجمة من ظروف خاصة في حياة الجماعة ؛ وهكذا يشاطر الموى الفردى في خلق كلمات جديدة .

وهذا كله غير كاف . فوسائل اللغة المادية لا تكفى ، مهما شد من أزرها فعل الأفراد الخاص ، لتزويد العامية الخاصة بذلك التيار الدائم من الكلمات التي تحتاج إليها . وهنا تتدخل الفردات الأجنبية بمدد الساعدة . ويجب أن نفهم كلمة أجنبية هنا بمعناها الواسع الذي يشمل كل ما ليس من اللغة المشتركة التي تركز عليها العامية الخاصة . وهكذا تستطيع الساعمة في تكوين العامية الخاصة وتجديدها صور التكلم المحلية المنتشرة في جميع أرجاء القطر ، وكذلك اللهجات ولهجات اللهجات التي تعتبر بدورها لغات مشتركة صغيرة خاضعة للغة القطر العامية ؛ بل واللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة . « فغامية ألمانيا الخاصة » Rotwelsch مثلاً ملأى بالكلمات اليهودية الألمانية والجرمانية germania (في أسبانيا) فيها عناصر غجرية هامة جداً ؛ وال Smecherensca تضيف إلى أساسها الرومانى عناصر مجرية وروسية ويهودية ألمانية وغجرية ، وتقابل هنا وهناك في الـ cant كلمات إيرلندية ، مثل twig « الفهم » من (الإيرلندية twigim « أفهم ») . وفي العامية الخاصة بمدرسة البوليتكنيك توجد كلمة ألمانية هي schiksal « مصادفة ، قدر »^(١) . والعامية الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوى على كلمات أجنبية قليلة العدد (غربية ، غجرية ، يهودية ألمانية) ؛

(١) مارسيل كوهين : رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ١٧٠

أما أساسها فستمار من عناصر أهلية ، ولكن الهجاء الإقليمية ممثلة فيها بأكثر من الفرنسية المشتركة^(١) .

يرتب على هذا التنوع في تكوين العامية الخاصة ، أننا نجد فيها كثيراً من الكلمات الحوشية ، إذ الواقع أنه إذا دخلت كلمة في العامية الخاصة بواسطة التخصص المعنوي أو مجرد الاقتباس ، حافظت التقاليد في غالب الأحيان على بقائها فيها حتى بعد انقراضها من اللغة الجارية . وقد يدهش الإنسان مثلاً حين يعلم أن الكلمة الألمانية القديمة *lütt* « صغير » تستعمل في عامية الألمانية الخاصة بدلاً من كلمة « Klein » أو أن الفعل *occire* « يقتل » الذي اختفى من الاستعمال منذ قرون ما يزال يستعمل في العامية الخاصة الفرنسية بدلاً من الفعل *tuer* . وهذه حوشية . ومثل هذه الحالات لا تكون في كثير من الأحيان حوشية إلا في مظهرها فحسب إذ هي في حقيقة الأمر مستعارة حديثاً في نصوص أدبية ، ومن العسير في بعض الأحيان أن نميز بين الخطتين .

والأخذ عن الكتب أمر فردي في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة . وهذه الوسائل على درجة كافية من التنوع . وتنحصر مثلاً في تشويه مظهر الكلمات الخارجى . وهكذا يستمضون عن لاحقة من لواحق اللغة الجارية بلاحة خاصة بالعامية ؛ وذلك كقول العامية الخاصة الفرنسية *épismar* بدلاً من *épicier* « بدال » و *Auverpin* بدلاً من *Auvergnat* « أو قرنى » وكقول الألمانية في عاميتها الخاصة *Kofmich* بدلاً من *Kaufmann* « تاجر » . وبعض التشويهات الأخرى ليست إلا توسعاً في التنيرات الصوتية المطردة . وإن الأسباب المذكورة في صفحة ٨٩ لتفسير المبالغة في العوارض الصوتية لتجد مجالا خصباً في العامية الخاصة . ففيها يستطيع التكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات في صورة مختزلة : لأنه يخاطب عدداً محصوراً من المتكلمين ، كلهم ممدّ الذهن لفهمه ،

(١) انظر الدراسة الثمينة التي كتبها الأستاذ إرنو عن العامية الخاصة البريطانية ، رقم ٨

وكلهم متفاهم معه مقدماً . ومن ثم يحىء هذا العدد الضخم من حالات الحذف والإسقاط والتبسيط وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التي تجعل العامية الخاصة لا يفهمها إلا المارفون . ومن جهة أخرى تجد ظواهر التشابه والتخالف والنقل المكاني في العامية الخاصة التكلمة ميداناً خصيصاً لا يمترض انتشارها أية عقبة من القواعد . وأخيراً نعتز في العامية الخاصة على تشويهاً مصطنعة غير مرتبطة بظروف اللغة الطبيعية : ومثال ذلك le javanais, le loucherbème الجافانية . ففي الحالة الأولى ينقل الحرف الأول منها إلى آخرها ويستعاض عنه بحرف ل « 1 » ثم يضاف إلى الكلمة بعد هذا التشويه لاحقة من اللواحق العامية الخاصة ؛ وفي الحالة الثانية يقحم مقطع ما في داخل الكلمة (ar أو oc أو al أو am الخ) ، ولكن الغالب أن يكون المقطع المتحمم av أو va ولعل هذا هو أصل الاسم الجافانية « Javanais » .

اللوشيريم Le loucherbème حديثة العهد نوعاً لأنها ترجع إلى بداية القرن التاسع عشر على الأكثر ، أما الجافانية المستعملة بين طغام باريس فيظهر أنها أقدم منها عهداً ، ولكن الطريقة التي تبنى عليها هاتان العاميتان الخاصتان أقدم منهما بكثير ؛ إذ لا بد أنها قد استخدمت في كل زمن وفي كل مكان احتاج فيه قوم إلى تغيير لنتهم . ويوجد في البنجاب اليوم قبيلة من اللصوص خلقت لنفسها لغة خاصة بإقحام المقطع ma في داخل الكلمة المستعملة في اللغة البنجابية ^(١) . وهي طريقة من أبسط الطرق وفي متناول كل إنسان . فقد رأينا في ص ٢٩٣ أن خلق كلمات جديدة أمر في غاية العسر . فإذا لم يكن لدى القائلين بهذا الأمر منبع من المفردات المجاورة ينهلون منه ما شاءوا من كلمات جديدة ، أمكنهم أن يعدلوا الكلمات الموجودة بالفعل تبعاً لقاعدة مطردة . وهذه الطريقة التشويهية مستعملة في عدد كبير من العاميات الخاصة . فتلاميذ المدارس كثيراً ما يستعملون الجافانية ؛ وقد شوهد استخدام هذه الطريقة في بعض المؤسسات التعليمية بالأقطار الجرمانية والسلافية .

(1) T. G. Bailey on the secret words of the çûlûâs (proceedings of the Asiatic Society of Bengab, 1902).

هناك شخصية محوطة بالألغاز لا نعرفها إلا باسم مستعار ضخيم الدلالة ، هو اسم فرجيليوس مارو Virgilius Maro النخوى الذى عاش على ما يظهر فى القرن الخامس بعد الميلاد . يقال إن هذا الرجل اخترع لغة خاصة ظلت شائعة الاستعمال زمنًا طويلاً بين تلامذة المدارس الإيرلندية . وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية بأنواع من تضعيف المقاطع أو بترها أو نقلها . وبمضى الزمن تحورت وتمخضت عن لغة أخرى أشاج سميت « لغة الشعراء » ، berla ، na filed بالإيرلندية . وهى عامية خاصة اختلطت فيها على غير قاعدة كلمات مستعارة من اللاتينية والإغريقية والعبرية وكلمات أهلية أهلها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة ، وكلمات مأخوذة من الاستعمال الجارى بعد قلبها أو تشويهها . هذه اللغة ، التى لا زالت تحت يدنا منها عينات عسيرة التفسير فى غالب الأحيان ، بقيت بقوة التقاليد زمنًا طويلاً تستخدم فى المدارس الإيرلندية كلغة سرية . ولكننا نجهد إلى أى حد كانت تتكلم ؛ واعلمها لم تكن إلا نظاماً من نظم الرسم ، كلغة السحرة وكتاب التمويذات .

الرق السحرية التى نعتز عليها فى قبور اليونان وإيطاليا وإفريقية مكتوبة على ألواح من الرصاص ، تطبق فى غالب الأحيان هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية أو تشويه الكلمات الأهلية^(١) . ولكن الباعث هنا يختلف : إذ يبنون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون فى تحرير النص اعتبارات لاصلة لها باللغة .

هذه الملاحظة تؤدى بنا إلى أن نقول كلمة عن اللغات الخاصة التى تنشأ عن بواعث خفية . السياح الذين طافوا بالأقطار البدائية وعلماء الأجناس الذين ينسقون أخبار السامحين يحدوثونا عن أهمية اللغات الخاصة بين الجماعات غير المتحضرة . إذ يوجد فى داخل اللغة الواحدة لأسباب دينية أنواع مختلفة من المفردات ، ووجهة الخلاف فيها تنحصر فى طريقة استعمالها وفى الأغراض التى تستعمل فيها ؛ والواقع

(١) أودولن Defixionum tabellae : Audollent ، باريس ١٩٠٤ .

« أن مجال التقديس عند هؤلاء التوحشين أوسع منه عندنا . إذ لا يوجد نشاط اجتماعي أيا كان دون أن يساهم وقتاً ما في طقس من الطقوس السحرية الدينية ؛ ويجب — من الوجهة النظرية — استعمال لغة خاصة كلما جدت مناسبة من هذه المناسبات ... هذه اللغات الخاصة التي لا تستعمل إلا لوقت محدود ، ذات طابع انفصالي في غالب الأحيان ؛ أو على الأقل إنما تتكوّن (إلا في الحالات النادرة) من عدد يقل أو يكثر من العبارات المحرمة الاستعمال ، أي من تابوهات tabous لغوية^(١) . فكل ما كان ذا صفة قدسية ، وبالطبع كل ما مثل الألوهية في جميع صورها ، وأيضاً كل مادّة على الرؤساء والموتى والأشياء المخصصة لهم والحيوانات التي تمثلهم ، الخ ، كل هذا يدعو إلى استعمال لغة خاصة . وتستعمل أيضاً في الأفعال التي تحمل طابع التقديس عامة كالصيد البحري والبري والملاحة والحرب ، وفي بعض الأفعال الخاصة التي تدين بطابعها التقديسي إلى أهمية مكانية أو زمنية . فيوجد في أندونيسيا لغات خاصة بالباحثين عن الكافور والباحثين عن الذهب . من أكثر أنواع التخصيص شيوعاً ، ذلك التخصيص الناجم من اختلاف الجنسين . فالنساء لا يستعملن اللغة التي يستعملها الرجال ؛ وحتى عندما يفهمن الكلمات التي يستعملها الرجال لا يكون لهن الحق في النطق بها . فلا بد إذن من وجود نوعين من المفردات متوازيين تماماً حتى يصير لكل شيء اسمان تبعاً لجنس المتكلم . فعند الكاريبيين مثلاً يتكلم الرجال اللغة الكاريبية caraïbe والنساء الأرواكية arowak^(٢) . وأحياناً يتعدد الاختلاف في الطبقة الاجتماعية . فعند سكان جاوا الأصليين يتكلم الرئيس إلى مرؤوسيه باللغة النجوكية ngoka ، ويخبره المرؤوس باللغة الكرومية kromo^(٣) .

(١) فان جنپ Van Gennp ، رقم ١٤ ، ١٩٠٨ ، ص ٣٢٧ وما يليها ؛ و. ر. لاش Mitterl. der anthropol Gesellsch — R. Lasch فينا (١٩٠٧) .

(٢) ل . آدم . L. Adam . Du parler des hommes et du parler des : L. Adam . femmes dans la langue Caraïbe

(٣) فون در كابلنتس Von der Cabelentz ، رقم ١٦٣ ، ص ٢٤٤ .

وفي بعض الأحيان تختلف اللغات أيضاً باختلاف الأعمار . فعند الماسيين Masai في إفريقيا الشرقية يقسم السكان الذكور بحسب أعمارهم إلى طبقتين ، لكل طبقة منهما تقاليد الصارمة التي تحرم عليها بعض الأطعمة وبالتالي استعمال بعض الكلمات^(١) . ولا يجوز لمن هم أكبر سناً أن يمسوا ذيل حيوان مقتول أو رأسه ، ويجب أن يستعملوا ألفاظاً خاصة للدلالة على هذا الذيل أو هذا الرأس . كما لا يباح لمن هم أصغر سناً أن يأكلوا من قرع الكوسة أو من القرع الأحمر . ومن أشنع الأخطاء أن ينسى أحدهم فيسمى أمام الآخر أحد الأفعال المحرمة على الأخير . وهذه التقاليد ناشئة من اعتبارات دينية : إذ ينظر إلى المجموعتين على أنهما شطرا وحدة سرية ، هي مجموع أفراد القبيلة الذكور . فيبين الفرق بين الشطرين بالاختلاف في الأفعال ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في المفردات .

هذه الظاهرة تدخل مباشرة في دائرة الأعمال الترويضية ، التي لها أهميتها عند المتوحشين . وهناك طقوس خاصة تصحب الانتقال من مرتبة من مراتب السن أو من المراتب الدينية إلى مرتبة أخرى . يقصد بها فصل المبتدئ من وسطه السابق لإدماجه في الوسط الجديد ؛ ومن ثم يجي استعمال اللغات الخاصة التي تبقى كاملة أو غير كاملة حتى بعد اندماج المريد في الوسط العام .

تعارض العالمين عالم الحقيقة وعالم الغيب ، أو عالم الخير وعالم الشر بمدى أساساً لعدد كبير من الأديان . وهذه الثنوية كثيراً ما تخلق انفصالاً في اللغة . فيوجد في الأفيستا عشرون كلمة بصورة مزدوجة ، تستعمل واحدة من كل زوج عند الكلام على هر مزد ، إله الخير والأخرى عند الكلام على أهريمان ، إله الشر^(٢) . وقد يكون للفعل الواحد — في عالم الحقيقة أو في عالم الغيب — وجهان ؛ فإذا دخل في عالم السحر دل عليه بكلمة متميزة وجديدة . وموضوع التضحية التي

(١) الكاتبين مارك Die Masaï, Ethnographische , Capit . Merker

(١٩١٠) Monographie eines östafrikanischen Semitenvolkes ، ص ٧١ ، ينقل

عنه س . فايسٲ S. Feist : رقم ٢٤ ؛ مجلد ٣٧ ص ١١٣ .

(٢) انظر درمستير ، رقم ٦٤ .

يقوم التسييس بتنفيذها هو المساعدة على العبور من عالم إلى عالم^(١) . لذلك كانت تقتضى التضحية في كل الأقطار استعمال لغة خاصة ، وهى التى نسميها اللغة الدينية . وبإذن فاللغات الدينية فى أوربا الحديثة تقوم فى أصلها على أسباب سحرية ، ترجع بنا إلى رياضات البدائيين وعقائدهم .

هذا إلى أنه يجب ألا نبالغ هنا فى الفرق بين المتوحشين وبين المتحضرين . فالأسباب التى تدفع بهؤلاء وأولئك إلى خلق اللغات الخاصة ، أسباب واحدة . وفى أعرق لغاتنا مدنية حالات من التخصيص لو وجدناها فى إقليم الزمبىزى أو فى سومطرة لما ترددنا فى إرجاعها إلى العقلية الغيبية . وتحريم المفردات على ماله من أهمية فى تكوين جميع المفردات الأوروبية القائمة ، خطة غيبية خالصة ؛ وكـم من أناس حولنا يتجنبون نطق هذه الكلمة أو تلك مخافة أن يحل بهم العارض الذى تدل عليه الكلمة ، كما أن عبارة absit omen عبارة وحشية ، وما القدرة التى تضاف للاسم إلا بقية من تلك العقلية الغيبية . بل لانعدم أن نجد بيننا تلك اللغات الخاصة بالنساء . إذ يوجد فى بعض الأحيان عند يهود ألمانيا الذين يستعملون اللغة اليهودية الألمانية ، نوعان من المفردات لتمييز ما هو يهودى مما هو غير يهودى^(٢) . ولكن هناك أيضاً فروقاً فى استعمال اللغة تبعاً لاختلاف الجنسين ، فالرجل يلقي التحية أو يرد عليها بالعبرية ، أما المرأة فتستعمل فى ذلك الألمانية دائماً .

من جهة أخرى يمكننا أن نتساءل عما إذا كانت اللغات الخاصة التى لا يزال يستعملها أرباب بعض المهن المعينة فى الأقطار المتوحشة برهاناً على عقلية غيبية . وكما أن سكان الملايو عندهم لغة الباحثين عن الذهب أو الباحثين عن الكافور ، فعندنا أيضاً تلك العامية المهنية الخاصة التى تستعمل فى صناعاتنا على اختلافها . وفى بريطانيا تنوولت لغة الخياطين^(٣) (langage kôméner) بالدرس ، كما

(١) هورث وموس : Essai sur la nature et la fonction : Hubert et Maus

du sacrifice فى رقم ٨٥ ، ص ١ — ١٣٠ .

(٢) إرنست ليثى Ernest Levy : رقم ٦ ، مجلد ١٨ ، ص ٣٣٣ .

(٣) إيرنو ، رقم ٨ ، مجلد ٢٤ ، ص ٢٧ .

تنووت فى إيرلندة واسكتلندة لغة صانمى الصهاريج (shelta) ولغة غيرهم من أبناء المهن الأخرى ^(١) . فليمل هذه اللغات لغات غيبية قديمة مثل le berla na filed ؛ ولكن بقاءها يفسر بتقاليد هذه الطوائف الخاصة وحاجتها ، وهى طوائف تمزجها أعمالها عن بقية الناس .

اللغات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعى؛ لذلك كانت — من حيث المبدأ — لغات طبيعية كاللهجات تماماً . ولكنها تقوم دأماً على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها .

الفصل الثالث

اللغات المشتركة

أشرنا في آخر الفصل الأول (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) إلى أى حد يعتبر توحيد اللغة ضرورة اجتماعية . ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوى لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التى لا تزيدنا الأيام إلا تفرقا . ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائماً إلى المحافظة عليها كما هى ؛ وكذلك التبادل الكلاوى الذى يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدي إلى توحيد اللغة . ومن هنا تنشأ اللهجات ، وكذلك اللغات المشتركة التى تسير مع اللهجات جنباً لجنب . ومع ذلك فهناك خلاف بين تكون اللغات المشتركة واللهجات . اللهجات تنشأ فجأة من التعاون الطبيعى للأحداث اللغوية . إذ توجد اللهجة فى كل مكان توجد فيه صور تكلم متجاورة ذات خصائص مشتركة وتشابه محسوس فى الظاهر العام لدى المتكلمين . فاللهجات لا يمكن تحديدها إلا على وجه التقريب . وقد قلنا إننا إذا جمعنا كل المعايير اللغوية ، لم نستطع بها أن نخط حدوداً للهجة من اللهجات . فالعالم اللغوى لا يسير على قاعدة حين يختار الظواهر التى بمساعدتها يقسم الخريطة إلى أقسام لهجية . وشأن اللهجات كشأن الأقاليم الطبيعية التى ينقسم إليها قطر من الأقطار^(١) . فإذا لم تستخدم هذه الأقاليم أساساً لتقسيم سياسى ، بقيت حدودها دائماً غير ثابتة . فمكان مقاطعة السين والمارن لا يزالون يتكلمون عن البرى Brie والجاتينية Gatinais والمنتوا Montois . ولكن هذه الأسماء المختلفة لا تمثل اليوم أى إقليم محدد تحديداً دقيقاً ، وإن دلت على بعض الخصائص

(١) ثارن جلوا Régions naturelles et noms de pays : Gallois باريس ،

الجغرافية ؟ ولكن كان يمكن الكلام فيما مضى عن حدود كنتية ألبري Comté de Brie ، أما المتتوا — على الأقل — فلم تكن في يوم من الأيام أكثر من عبارة جغرافية .

كذلك اللهجة تتضح حدودها إذا كانت تطابق تقسيماً سياسياً ، وتبقى هذه الحدود في غالب الأحيان زمناً طويلاً بعد زوال الظروف التي أدت إلى تحديدها^(١) . لذلك يلاحظ في بعض أقاليم ألمانيا الحالية ، أن حدود الخصائص اللغوية تتطابق في بعض النقاط التي تتفق فيها هذه الحدود مع الحدود السياسية السابقة لسنة ١٧٨٩ . وهذه الحدود ترجع في عمومها إلى القرن السادس عشر ، بل إلى القرن الخامس عشر ؛ وقد كانت حدوداً دينية في نفس الوقت ، حتى أن الأثر الديني يتعاون مع الأثر السياسي في تمييز حدود اللهجة . وكذلك الحال في بريطانيا الفرنسية ، حيث تتفق حدود لهجات ليون Léon وكرنواي Cornouailles وترجييه Tréguier التي لا تزال واضحة في كثير من النقاط ، مع تقسيمات الإقليم الدينية والسياسية القديمة . ومما يلفت النظر أن نهر مرليه Morlaix الذي يفصل بين لهجة ليون ولهجة ترجييه هو الذي كان يفصل بين الإريشيتين فيما مضى ، وأن مدينة مرليه التي تقع على ضفتي النهر المسمى بهذا الاسم تنقسم لغوياً إلى قسمين لهذا السبب . وهذا لا يعني أن سكان الضفتين لا يفهم بعضهم بعضاً ؛ ولكن هناك عدداً من الخصائص المشتركة مجتمعة في منطقة تنتهي في تلك النقطة ؛ والخطوط اللغوية التي تتطابق بعضها مع بعض تتطابق أيضاً هنا مع تقسيم إداري قديم ، كما هي الحال في اللهجات الألمانية .

ومع ذلك فهما كانت أهمية العوامل السياسية والاقتصادية فإن اللهجة أولاً وقبل كل شيء ، كيان لغوي . وجتى عندما نحسب حساب الظروف الخارجية في تكوين اللهجات ، يبقى أن هذه الظروف تستند جوهرياً إلى التطور الطبيعي لعناصر اللغة .

(١) ل . فيشر : Histoire et dialectologie في مجلة Revue de la Synthèse

وهذا غير الحال في اللغة المشتركة . لأن الظروف الخارجية هي التي تحددها وتدين بوجودها إلى انتشار قوة سياسية منظمة ، أو إلى تأثير طبقة اجتماعية غالبية أو إلى تفوق أحد الآداب ؛ ومهما كان الأصل الذي تمرى إليه نشأتها ، فهناك دائماً أسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تبعث على استبقائها . « المدنية وحدها هي التي تستطيع أن تنشر اللغة بين كتل عظيمة من البشر » ^(١) . ولا تتفكك اللغة المشتركة وتتفتت إلا إذا تراخت العرى الاجتماعية التي كانت تمسكها . وإذن فمن الممكن أن ندرس على انفراد تكيؤن اللغات المشتركة وأن نبين بأمثلة من التاريخ الأسباب التي تبعث على نشوئها وازدهارها وذبولها .

تقوم اللغات المشتركة دائماً على أساس لغة موجودة ، حيث تتخذ هذه اللغة الموجودة لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفي التكلم . وتفسر الظروف التاريخية تغلب هذه اللغة التي اتخذت أساساً وتعمل انتشارها في جميع مناطق التكلم المحلي المختلفة . ولكن على العالم اللغوي أن يبدأ بالعمل لتحديد هذه اللغة .

ظروف خاصة هي التي ترشحها في كل قطر على حدة ؛ فكل واحدة من اللغات المشتركة الكبيرة — حديثة كانت أو قديمة — نشأت بطريقة خاصة . وأحياناً نرانا أمام إحدى اللغات ، أي أمام لغة إقليم معين انتشرت في الأقاليم المجاورة وصارت لغتها المشتركة . وهذا ما حدث في بلاد الإغريق القديمة حين تكونت لغة *χοινή* الهلنستية ابتداء من عهد الإسكندر . إذ أن هذه اللغة ليست في جوهرها إلا اللهجة الأتيقية Attique . وكانت هذه اللهجة قد ظلت حتى القرن الخامس « لغة محلية لإقليم منزل لا يكاد يرحل إليه أحد من الأجانب ؛ وكان سكانه — وهم في عمومهم من الزراع — من عنصر نقي نسبياً لا يشوبه اختلاط » ^(٢) . ومن قبل ذلك كان يوجد في بلاد الإغريق لغات مشتركة ، ولا سيما في المستعمرات .

(١) رينان : رقم ١١١ ، ص ١٠١ .

(٢) ميه : رقم ٩٣ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ . وفان كرتشمير Kretschmer رقم

١٧٧ ؛ و Thumb رقم ٢١٣ ؛ وهفمان : رقم ١٦٨ .

فقد كانت البونية منذ انتشارها على شواطئ آسيا الصغرى قد صارت لغة مشتركة؛ وهذه اللغة نعرفها من هيرودوت الذي يمثلها لنا خير تمثيل . فمع كوننا نعرف بشهادة هذا المؤرخ أنه كان يوجد في الدوديكا بول Dodécapole عدد من اللهجات المحلية التي يختلف بعضها عن بعض ، فقد كان فيها أيضاً لغة مشتركة تظل اللهجات المحلية . ولكن الظروف السياسية لم تمكن هذه اللغة البونية المشتركة من الوصول إلى الأهمية التي وصلت إليها اللغة الأتيكية فيما بعد . فقد صارت الأتيكية في الفترة التي بين الحروب الميديّة وقيام الإمبراطورية المقدونية في حالة تسمح لها بأن تمدّ العالم الهليني جميعه بلغة مشتركة ، وذلك بفضل هذا التعاون الفائق الذي أنتجته عدة أسباب معقدة . ويجب أن نذكر بين الأسباب التي ساعدت لهجة الأتيكيين على هذا التغلب ، ذلك الدور الأساسي الذي آل إلى أمتنا بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية . ولكن زاد من قوة الأتيكية وإشعاعها شهرة شعرائها وفنانها ؛ فكان لأمتنا — بوصفها مركزاً سياسياً وأدبياً وفنياً على السواء — شرف تأسيس اللغة المشتركة التي ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن التاسع بعد الميلاد ، أداة للتفكير عند جميع الإغريقين . هذه اللغة خرجت من لهجة الأتيكية كما كانت تتكلم في حدود الإقليم ؛ فهي لا شيء أكثر من تهيمّة اللهجة الأتيكية لاستعمال سكان ذوي لهجات بل ولغات مختلفة .

في إيطاليا القديمة تختلف الظروف بعض الشيء ^(١) . فاللاتينية التي صارت لغة إيطاليا المشتركة وأخيراً لغة العالم الغربي بأسره ، كانت لغة روما أولاً وقبل كل شيء ، أي لغة المدينة في مقابلة لغة الريف المجاور واللهجات القاصية على السواء . وقد بدأت لغة المدينة *Le sermo urbanus* بالتضييق على اللغة الريفية *Le sermo rusticus* قبل أن تحل محل اللهجات المجاورة بعد أن غزتها في عقر دارها ، مثل السابينيّة *le sabin* والرسية *le marse* ، ثم حل لغات إيطاليا الأخرى من أسكية *l'osque* وأميرية *l'ombrien* وآرسكية *l'étrusque*

(١) شتلز Stolz ، رقم ٢٠٨ .

وكلتية le celtique وإغريقية . وهنا أيضاً تقابل أهمية المدينة بوصفها عاصمة سياسية .

من العاصمة أيضاً خرجت الفرنسية المشتركة . فأهمية باريس السياسية والمنطقة الباريسية تفسر لنا بدرجة كبيرة انتشار لهجة الإيل دي فرانس l'Ile de France أى « الفرنسية » فى الأقاليم المجاورة وذلك بانضمام هذه الأقاليم إلى المملكة ، وصيرورتها فى نهاية الأمر أداة للتبادل الذهنى من دنكرك إلى برينان ومن برست إلى شامونكس . وفرنسية الإيل دي فرانس لم تمتد لحسب على اللهجات التى تشترك معها فى أسرة واحدة ، أى اللهجات المشتقة مثلها من اللاتينية ، بل اتخذت أيضاً لغة مشتركة لدى الفلمنكيين والبريتانيين ؛ مع أن لغتيهما الطبيعيتين من أصل جرمانى أو كلتى ؛ كما نفذت بوصفها لغة مشتركة فى إقليم الباسك فى الجنوب الغربى من فرنسا ، على أنها لم تقتصر على حدود فرنسا السياسية ، إذ أن بعض الأجزاء البلجيكية والسويسرية يدخل فى المجال الفرنسى من الوجهة اللغوية ؛ وذلك دون أن تتكلم عن الجاليات القديمة أو الحديثة التى تعمل على انتشار الفرنسية فيما وراء البحار^(١) . وتاريخ هذه الفرنسية المشتركة وتاريخ تكوينها وانتشارها الجغرافى يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ فرنسا السياسى والاقتصادى والاجتماعى : فلا يستطيع فهم أحدها دون معرفة الآخر . ولكن الفرنسية إنما خرجت من العاصمة ، ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة ، وهى البرجوازية . وهذه حقيقة أبان عنها برينو Brunot فى وضوح بالغ^(٢) : إن لغتنا المشتركة على النحو الذى استقرت عليه فى القرن السابع عشر ، هى لغة البرجوازية الباريسية ، برجوازية « المدينة » ؛ وقد سَلَّم بها القصر ثم الأقاليم ، والكتاب الكبار باستملاهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائياً وعلى استمرارها . لذلك لا نكاد نحس فيها أثراً للهجات . الأسبانية المشتركة نشأت واستقرت قبل الفرنسية بزمان طويل . إذ كانت

(١) أظفر La langue française dans le monde (نشر الأليانس فرنيز)

باريس ١٩٠٠ .

(٢) رقم ٥٧ ، مجلد ٣ (La formation de la langue française) . اظفر

أيضاً روسيه Rosset ، رقم ١١٢ .

شبه الجزيرة عند الفتح العربي (عام ٧١١) ميداناً ثلاث مجاميع من اللهجات يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً : الغاليسية في الغرب والقسطلانية في الشرق ومجموعة وسطى تشغل منطقة شاسعة . والأسبانية المشتركة خرجت من لهجة من لهجات الشمال ، لهجة قسطلة القديمة La Vieille- Castille القرية من الأقاليم البسكية . اتجه انتشار القسطلانية نحو الجنوب ، لأسباب يبررها التاريخ السياسي ، وكان انتشارها في شكل هلال أخذ يزحف على لهجات المجموعة الوسطى شيئاً فشيئاً . ومع ذلك فقد بقيت عن يسار القسطلانية بمعناها الضيق وعن يمينها بقايا من هذه المجموعة تتمثل حتى أيامنا هذه في لهجات الليون Le Léon والأرجون l' Aragon ، اللتين تشابهان تشابهاً غريباً . وقد صارت القسطلانية لغة أدبية في القرن الثالث عشر بفضل الملك ألفونس العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤) الذي كان يحتل بالنسبة لأسبانيا المكان الذي يحتله دانتى بالنسبة لإيطاليا . فالأسبانية المشتركة إذن نتيجة لتفوق قسطلة في السياسة والآداب . وهذا التفوق لم يمتد إلى البرتغال التي صارت دولة مستقلة منذ نهاية القرن الحادى عشر . واللهجات البرتغالية كانت تنتمى دائماً إلى المجموعة الغريبة . ومن ثم كانت البرتغالية القديمة تختلط بالغاليسية . ولكن الأهمية التي وصلت إليها لشبونة في القرن السادس عشر بوصفها العاصمة ، وتأثير الشاعر الكبير كامونس Camoens (١٥٢٥ - ١٥٨٠) جملاً القلبة للهجة المنطقة الوسطى في القطر الذي صارت فيه لغة البرتغال الأدبية المشتركة . أما اللهجة التي تتكلم اليوم في غاليسيا ، فعليها سبب البرتغالية القديمة وقد توقفت عن التطور : ومع ذلك فهي مملوءة بالآثار اللغوية الأسبانية ^(١) .

إذا قارنا الإنجليزية المشتركة بالفرنسية أو الأسبانية ، وجدناها تحمل منذ بدايتها آثار اللهجات المختلفة ^(٢) . وهذا ناتج من موقع مدينة لندن التي نشأت فيها الإنجليزية المشتركة في نقطة تجمها ملتقى لمختلف اللهجات . هذا إلى أن تكون اللغة

(١) ندين بالمعلومات التي نوردتها في هذه الفقرة إلى الأستاذ أمريجو كاسترو Amerigo Castro الذي تفصل فبحث بها إلينا ، وانظر ليني دى فاشكنشولس Leite de Vasconcellos رقم ١٢٧ .

(٢) و. هورن W. Horn ، رقم ١٦٩ ، ١٧٠ ؛ مرشباخ Morsbach رقم ١٨٣ .

المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لندن المفاجيء حيث أخذت تتلقى بين أحضانها طوائف المهاجرين على اختلافهم ، يفدون عليها من كل الأقاليم ويمتزجون بالسكان السابقين . هذه الهجرة أدت إلى شحن اللغة المشتركة بآثار اللهجات ، حتى لنجد نطق الإنجليزية في القرن السابع عشر لم يثبت بعد ، وأنه يشتمل على كثير من وجوه الخلاف . ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم . ولكن هذه الهجرة الإقليمية أنمشت تبادل السكان بين العاصمة والأقاليم ، ذلك التبادل المفيد الذي أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة . وإذن فامجلترا تدين أيضا بتوحيد لغتها توحيدا نسبيا إلى أهمية عاصمتها ، ولكن ذلك كان في ظروف تختلف اختلافا محسوسا عن الظروف التي تكونت فيها الفرنسية . فهذه الأخيرة أقوى توحيدا .

نشأت في أيامنا هذه لغات مشتركة في شبه جزيرة البلقان ، والمستقبل وحده كفيل بتعديل حدودها أو بتوسيعها ، ولكنها أيضا نشأت من وجود عاصمة . فاللهجات الصربية الجنوبية كثيرة الاختلاف عن الصربية التي نكتب وتتكلم في بلغراد ^(١) . فالنبر فيها في غير موضعه في الأولى ، والكلم غير مرعى والإغراب مبسط للغاية . وتعتبر هذه اللهجات من وجهات شتى خطوات وسطى بين الصربية والبلاغارية ؛ إذ من المستحيل عمليا أن نخط حداً لهجيا بين اللتين . ولكن توجد — منذ نهاية الحروب البلقانية — لغة صربية مشتركة تفر على اللهجات الجنوبية وتبتلما داخل الحدود السياسية لمملكة الصرب . ونحن مثلا على علم تام بالطريقة التي بها تحمل اللغة الأدبية المشتركة محل اللهجة المسماة بالإيكافية i'ikavien ^(٢) . وينحصر التغير الأساسي في إحلال المجموعة الصوتية iye (إيبي) محل i (إي) . ويسر هذا الإحلال في بلاد الصرب وجود الوحدة

(١) ١. بروخ Die Dialekte des südlichsten Serbiens : O. Broch

(١٩٠٣) (Linguist - Abteilung . (Schriften der Balkan - Commission)

مجلد ٣ .

(٢) ه. هرت Der ikavische Dialekt im Königreiche Serbien : H. Hirt

(رقم ٣٩ ، Phil . hist . Klasse ، مجلد ١٤٦ ، ١٩٠٣) .

المائلية ، ألا وهي الزدروجا la Zadruga ^(١) . إذ يجب ألا يكون في داخل الزدروجا إلا لغة واحدة ، ولكن الزواج يدخل في الزدروجا باستمرار نساء أجنبيات عن الإقليم ، يتكلمن لغات مختلفة ؛ وبهذا تضعف مقاومة اللغة المحلية ، وبمقدار ضعفها يزداد أثر اللغة المشتركة . وعلى هذا ، تصير اللغة الأدبية لغة الكلام بين جميع الصربيين المقيمين بالمملكة .

وفي ألمانيا — حيث العاصمة حديثة العهد وليس لها أثر غير منازع على مجموع الأقاليم الألمانية — قام انتشار اللغة المشتركة على أسباب مستقلة عن كل وحدة سياسية . فالألمانية المشتركة أولاً وقبل كل شيء لغة كتابة ، تدين بنجاحها إلى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها إلى الرغبة في الاستعمار ^(٢) . فبحركة الإصلاح انتشرت ألمانية لوثر في المنطقة الألمانية السفلى بأسرها ؛ وفي نهاية القرن السادس عشر كان لا يستعمل في هذا المجال لغة مكتوبة أخرى غير اللغة الأدبية المشتركة . وكان الانتشار بطيئاً في أقاليم جنوب البانية الكاثوليكية وفي سويسرة البروتستنتية . غير أن لوثر نفسه إنما استخدم آلة قد مهدت منذ زمن طويل . إذ كان يوجد منذ القرن الرابع عشر في مستشاريات المدن أو مستشاريات الإمارات الألمانية ، ميل لاتخاذ لغة مشتركة تختلف عن اللهجات الإقليمية . والمستشارية الإمبراطورية هي الأولى التي سنت هذه السنة ^(٣) . إذ أخذت على عاتقها أن تتجنب الخصائص اللهجية وأن تستعمل لغة واحدة في جميع الأقاليم التي تحت سلطانها . وهذا واضح في عهد الإمبراطور شارل الرابع في صميم القرن الرابع عشر . وقد استمدت لغة المستشارية قوة عظيمة من كونها لغة استعمار أولاً وقبل كل شيء . إذ الواقع أن الألمانية كانت تحتل الأراضي السلافية قدماً بقدم وتحل محل اللغات السلافية . فتكونت الألمانية المشتركة في مدن الاستعمار في ألمانيا

(١) « الزواج إحدى الوسائط الإنسانية الدائمة بين اللغة والتاريخ المحلي » . تراشيه

Terracker ، رقم ١٢٤ ، ص ١٠ من التمهيد : و ص ٢٢٨ .

(٢) كلوجه Kluge : رقم ١٧٥ ، ١٧٦ ؛ وجياهر Die Anfänge : Uufahr

der neuhochdeutschen schriftsprache vor Luther. ، مال (١٩١٠) .

(٣) سوسن Socin : رقم ٢٠٦ ، ص ١٦٤ و ٢٠٣ .

الشرقية ، تلك اللغة التي وصلت بفضل الإصلاح الديني إلى أهميتها الأدبية ، واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة وصارت لغة الكتابة في ألمانيا المثقفة بأسرها .

وتاريخ الروسية يختلف عن ذلك اختلافا محسوسا ^(١) . فقد ظلت اللغة السلافونية -- وهي التي استعملها مترجو الكتاب المقدس الأقدمون -- لغة الكتابة في روسيا طوال العصور الوسطى . هذه السلافونية وهي تقوم على أساس اللهجات السلافية الجنوبية (في إقليم سالونيك) قد أصابها في روسيا شيء من التأقلم ، ولكنها لم تتجدد إطلاقا مع الروسية نفسها . وإذا كان أناس من أنصاف المثقفين قد كتبوا بلغة أقرب إلى لغة الكلام ، فإن اللغة الأدبية بقيت دائما لغة الكنيسة . ولم تأخذ اللغة في التخلص من هذا الأثر السلوثاني إلا منذ بطرس الأكبر ، حيث حذت حذو لغات أوروبا الغربية ولاسيما الفرنسية والألمانية ، وسارت الاستعمال السائد في روسيا الوسطى على النحو الذي كانت توجد عليه في العاصمة القديمة موسكو . فتكونت في غضون القرن التاسع عشر لغة أدبية فيها آثار سلافونية ولكنها تستند في جوهرها على لغة الكلام المستعملة .

اتخذت البولونية لغة أدبية منذ القرن الرابع عشر ، ولكنها لم تردهم بهذه الصفة إلا في القرن السادس عشر ، في إقليم كراكوفيا (بولونيا الصغرى) . ومع ذلك فإن البولونية الأدبية والمشاركة ليست لغة هذا الإقليم ؛ وإنما خرجت من إقليم بوسن Posen ومن جنيسن Gnesen (بولونيا الكبرى) التي تعد مهد البولونيين الجنسي في القرن العاشر . فن بين مجاميع اللهجات الكبرى الأربع ، المازوفية mazovien والپسنانية pasnanien والكراكوفية cracovien ولهجة بولونيبى روثينيا Ruthénie ^(٢) . اتخذت الپسنانية وحدها أساساً للغة الأدبية

(١) E. Budde . تاريخ مجل للروسية الأدبية المعاصرة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر (بالروسية) ، وهو ما تحوى عليه الكراسة الثانية عشرة من . Enciklopedija slavjanskoj filologij ، بطرسبرج ، ١٩٠٨ .
(٢) انظر كازيمير نيتش Casimir Nitsch : Mowa ludu polskiego: Kراكوفيا (١٩١١) .

المشتركة ؛ ولكن هذه اللغة تطورت في بولونيا الصغرى ، وتم تكوينها في الجزء الشرقى من المنطقة ، في روتينيا ، أى في أرض مستعمرة لم تكن تنتمى في الأصل إلى بولونيا الجنسية .

وأخيراً توجد لغات مشتركة من أصل أدبي محض . مثل الإيطالية^(١) التى استقرت لغة مشتركة ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظام وتأثيرهم ، مثل دانتي وبيترارك وبوكاشيو ، وذلك في وقت لم يكن لإيطاليا فيه أية وحدة سياسية . وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب استعملوا اللغة التى كانت تتكلم حولهم ؛ ومن ثم أطلق اسم اللغة التوسكانية *Lingua toscana* على اللغة الأدبية الإيطالية . ولكن هذه التسمية لا تفرض أن تكون إيطالية الكتب قد أتت من انتشار لهجة إقليمية : فاللغة التى رفعها دانتي إلى مرتبة اللغة الأدبية ، والتى صارت لغة إيطاليا المشتركة ، كانت أولاً وقبل كل شيء لغة مدينة هي فلورنسا ، ولغة المجتمع الراقى في هذه المدينة . واللغة التوسكانية نفسها فيها خصائص لم تدخل في اللغة الأدبية ، فهي مثلاً يقلب الـ *c* (ك) إلى *spirante* إذا وقعت بين حركتين فتقول *fuoho* بدلاً من *fuoco* و *la hasa* بدلاً من *la casa* . ومع ذلك فن الحق أن نلاحظ أن أسباباً عديدة مختلفة النواحي جعلت من فلورنسا *la terra promessa* (أرض الوعد) للغة الإيطالية المشتركة . فهذه المدينة فضلاً عن نبوغ كتابها وأهميتها ك مركز أدبي واقعة بين بولنى *Bologne* وروما ، مما رشحها لتكون همزة الوصل بين المادن الثقافية في إيطاليا . ولغة فلورنسا من جهة أخرى كانت مزايها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة : إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية ، وبذلك كانت تيسر لكل متعلم الانتقال من لهجته إلى اللغة المشتركة . وهذا كله مهد لا تنصار التوسكانية *lingua toscana*

(١) دونديو D'ovidio : *Lingua e dialetto* (رقم ٤١ ، مجلد ١ ، ص ٥٦٤ — ٥٨٣) ؟ وج . اسكولى G. Askoli : *Il toscano e il linguaggio letterario degli italiani* (رقم ٤١ مجلد ٨ ، ص ١٢١ — ١٢٨) ؟ وبيو راجنا Pio Rajna : *Origine della lingua italiana* (*Manuale della letteratura italiana* ، تأليف دنكونا D'Ancona ، وبنفى Bacci ، مجلد ١ ، الطبعة الثانية (١٩٠٨) ، ص ١٥ — ٢٤) .

هذا الانتصار الذى تم حين راح Bembo البندق نفسه يستعملها فى مؤلفاته فى القرن الرابع عشر .

طريقة تكون اللغات التى قدمنا منها عدة صور تؤثر على العلاقة التى تكون بين هذه اللغات وبين اللهجات . فإذا لم تكن اللغة المشتركة نفسها إلا لهجة أظهرتها الظروف على اللهجات المجاورة ، سهل عليها ابتلاع هذه اللهجات فى وقت وجيز لأن اللهجة التى اتخذت أساسا ، لها من السلطان ما يفرضها على اللهجات الأخرى . وأغلب الظن أنها تفقد على وجه العموم ما فيها من صفات موهلة فى الخصوصية ، فقد تخلصت الأتيكية مثلا من بعض خصائصها البينة عندما صارت اللغة الهلينستية . ولكن اللهجات الأخرى من جانبها تبلى سريما باحتكاكها باللغة المشتركة . فاللهجات تمحى حدودها شيئا فشيئا إلى أن تنتهى بالاندماج فى اللغة العامة ، اللهم إلا إذا أمدتها ظروف خاصة بحماية تطيل فى عمرها فى صورة لغات خاصة أو لغات أدبية . فلم يبق عندنا فى فرنسا الشمالية لهجات بمعنى الكلمة ؛ لم يبق هناك من وسيط بين اللغة المشتركة والتكلم المحلى الذى يسمى رطانة patois ، والبيكاردى لم يمد فى وسعه أن يتصور غير نوعين من اللغات : رطاته الخاصة واللغة الفرنسية المشتركة ، وقد تعلم هذه الأخيرة فى المدرسة وتطلع عليه كل صباح فى صحيفته اليومية . هذا إلى أن طريقة التكلم المحلية تمتلئ يوما بعد يوم بالعناصر التى تستعيرها من اللغة المشتركة . ولكن إذا اتفق لبعض العناصر المحلية أن تدلف إلى اللغة المشتركة ، فليس معنى هذا أننا نواجه بقايا لهجية أو أمام لهجة جديدة فى سبيل التكوين ، بل نواجه اللغة المشتركة نفسها فى مظهر محلى . ويجب أن نرجع قرونا إلى الوراء لننظر على نصوص مكتوبة بالبيكاردية . فاللهجة البيكاردية قد انقرضت من يوم أن فقد المتكلمون بها الأحساس باستقلال اللهجة وهيتها . معلوماتنا عما حدث فى اليونان القديمة أو فى إيطاليا القديمة غير وافية ، ولكننا نتوقع أن تكون اليونانية المشتركة أو اللاتينية المشتركة قد ابتلعتا بدورهما اللهجات إن قليلا وإن كثيرا . فاللغة الهلينستية xoivή أساس اللهجات

الحديثة جميعها . إذ بعد أن تم التوحيد حدث انفصال جديد تبعاً لقوانين التاريخ ، ولكنه قام على أساس مختلف ؛ لذلك لم نستطع أن نكتشف في لهجات الإغريق الحديثة شيئاً يرجع إلى اللهجات السابقة لتكوين اللغة المشتركة *κοινή* . فلا بد أن اللهجات المحلية قد تشربت خصائص اللغة المشتركة إلى حد جعل السامع لا يميزها إلا يعض تفاصيل في النطق أو يعض سمات في المفردات ، لأن النقوش — بل أقرب النقوش إلى لغة الكلام — لا تسمح لنا بالحكم بوجود بقايا من اللهجات ^(١) .

وتشربت اللاتينية في إيطاليا عدداً من اللغات التي لا نعرف عنها اليوم شيئاً يذكر ، كما تشربت اللهجات المجاورة للهجة روما . وقد نجحت بعض الجهود التي بذلها فريق من علماء اللغة في أن يستخرجوا من مفردات اللاتينية ومن نظامها الصوتي والصرفي بعض سمات لهجية ، ولعل لهجات إيطاليا الحديثة تحتفظ يعضها حتى الآن ^(٢) .

توجد إذن بين اللهجات التي تدخل في إعداد اللغة العامة درجات يجب التمييز بينها . فأكثرها مبادرة بالاختفاء أقربها إلى اللغة التي اتخذت أساساً للغة المشتركة . هذه الملاحظة التي تبدو مبتذلة ، لها أهميتها في دراسة احتكاك اللغات (انظر أواخر الفصل الرابع) . ومن ثم كان هناك فرق محسوس بين الأثرين اللذين وقعا من الدنمركية ومن الفرنسية الترمندية على اللغة الإنجليزية ^(٣) . فنية الإنجليزية لم تتأثر بهذه الأخيرة إلا قليلاً ، أما الدنمركية فقد تركت فيها أثراً عميقاً : فتمزيق النظام النحوي وتبسيطه قد وقعا في الأقاليم التي كان يقيم فيها الدنمركيون قبل وقوعهما في الأجزاء الجنوبية وهي الأجزاء التي نزل فيها الترمنديون قبل ذلك بقرنين من الزمان . نعم يجب أن نلاحظ أن عدد الترمنديين في إنجلترا كان قليلاً

(١) Thumb ، رقم ٢١٣ .

(٢) أنظر دراسات ج . مول *Chronologie du latin vulgaire* : O. Mohl وأرنو Ernout رقم ٧٠ ؛ ودی ريبزو *Reliquie italiche mei dialetti* : de Ribezzo dell'Italia meridionale في (Atti accad. Arch. Lett. Bell. Arti, Napoli 1. 1908)

(٣) جبرسن ١٣٤ ، ص ١٧٠ — ١٧٣ .

نسبياً ، وأنهم كانوا يكوّنون فيها طبقة خاصة ، ولكن إذا صرفنا النظر عن هذه الظروف الاجتماعية والسياسية ، وجدنا أن الاختلاف الذى أشرنا إليه آت من درجة القرابة بين اللغات التى نحن بصدها . فقد كان بين الإنجليزية والفرنسية واللمندية . من جهة النظام النحوى وجوه شبه لم تكن بين الإنجليزية والفرنسية اللمندية . واللغات المشتركة التى هى لغات كتابة قبل كل شئ كالألمانية والإيطالية تختلف فى وضعها عن اللهجات اختلافاً كافياً . فالقاعدة التى تقوم عليها اللغة المشتركة لاتتعارض مع اللهجات ، إذ أنه لا تميل لهجة أيا كانت إلى الاعتداء على اللهجات الأخرى . وذلك لأنهما لغتان مختلفتان تسيران جنباً إلى جنب . والشعور بوجود وحدة لنوية أوسع من اللهجة المحلية وأضيق من وحدة اللغة المشتركة ، يوجد فى البلاد كلها دون أن يصاب بضعف يذكر . فى بيمينت وفى اللبارديا لاتتفق لغة الحديث ولغة الكتابة ؛ وهذه الأخيرة تتسم بطابع الاسطناعية والحوشية ، فهى حقاً لغة ميتة لا تلقائية فيها ، ولا *securazza* كما يقول اسكولى^(١) . كذلك فى ألمانيا يمكننا حتى اليوم أن نتكلم عن اللهجات . وهى فيها تشغل مكاناً وسطاً بين الرطانة المحلية واللغة المشتركة ؛ وتتمثل فى الشعور الشعبى على أنها لغة مناطق على جانب من الاتساع وإن كانت حدودها غير بيّنة . ولهذه اللهجات مكانها فى الآداب وفى الصحافة . واللغة المشتركة تتأثر بها لأن نطقها غير موحد فى كل مكان وتختلف صورة التكلم بها باختلاف الأقاليم . وإذا استثنينا أفراد الطبقة البرجوازية العالية الذين هم على جانب عظيم من الثقافة ، وجدنا أن كل ألماني يتأثر فى نطقه اللغة المشتركة باللهجات إن قليلاً وإن كثيراً . فالألمانية المشتركة تكتب بصورة واحدة فى كل مكان ، ولكنها تنطق بصور مختلفة إلى حد يسمح للسامع بتعيين أصل التكلم من نطقه . أما الاختلافات التى تلاحظ فى نطق الفرنسيين من أهل الأقاليم ، فتعتبر نافهة إذا قورنت بآثار اللهجات فى الألمانية . ومع ذلك فقد سبق أن قلنا إنه لا يوجد فاصل مطلق بين الألمانية المشتركة ، وهى لغة كتابة ، وبين اللهجات الإقليمية . والواقع أنه يوجد ، كما يتوقع ، تبادل

(١) اسكولى Ascoli ، رقم ٤١ ، مجلد ٨ ، ص ١٢٦ .

دائم بين هذه وتلك ؛ فهناك تداخل من كلا الجانبين في الجانب الآخر . ومن نتائج هذا التداخل أنه يقلل من حدة الخصائص اللهجية ؛ حتى ليحس لنا أن تنبأ هنا ، كما في الحالة السابقة باختفاء اللهجات بعد زمن ما قد يطول وقد يقصر . ولكن يجب علينا عند الكلام على تنافس اللهجات واللغات المشتركة ألا نسقط من حسابنا حقيقة جوهرية لم نقل عنها شيئاً حتى الآن ، وهى الثبات النسبي لكل منهما .

يمكننا أن نطبق على كل لغة مشتركة ما قاله ميه عن $\chi o i v \eta$ « اللغة المشتركة » الإغريقية : « هى نواة مثالية لايزيدها الزمن إلحوشية وبعداً عما فى صورة التكلم الجارية من اتجاهات ، وهى مجهود متجدد دائم للتوفيق بين اتجاهات التطور اللغوى الطبيعية وبين هذه النواة » . اللغة المشتركة « ليست لغة ثابتة ؛ كما أنها ليست لغة تتطور تطوراً مطرداً ؛ بل هى لغة فيها نوع من التوازن دائم التغير بين الثبات والتطور » . والمحافظة على هذا التوازن أمر عسير . فيتحتم أن تصاب اللغة العامة إصابات شديدة وأن تضطر إلى التغير ، إذا انتشرت فى إقليم واسع الأرجاء تقوم بين سكانه حركات وانتقالات مستمرة ، وتكون فيه الطبقات الاجتماعية فى تداخل واختلاط لا يقطعان . وإذا استسلمت اللغة للضربات وتغيرت ، حانت نهايتها ، لأنه ليس فى مقدور قوة فى العالم أن تضمن لها التغير على وتيرة واحدة فى كل الأماكن التى تتكلم فيها . وهذا هو التصدع الذى يقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة منه . ولكن اللغات المشتركة تقاوم التغير أزماناً طويلة قبل أن تصل إلى هذه الحال . ويساعدها فى ذلك ظروف السياسة وقوة المدرسة والإدارة . ولكن لعل الكتابة خير حارس لها .

لما كنا سنفرد للغة المكتوبة فصلاً خاصاً فيما بعد ، لم يكن لنا أن نتكلم عنها هنا إلا بمقدار اتصالها بتطور اللغات المشتركة . واللغة المكتوبة تمثل دائماً تقاليد وقواعد محافظة . بالطبع قد توجد التقاليد دون الكتابة . فقد كان عند الجوليين ، كما يروى يقصر ، رسوم يفضى بها القس شفوياً إلى ذاكرة تلاميذهم ، وعلى هذا

النحو كانت تنتقل من جيل إلى جيل . وفي الهند كانت النصوص الدينية ، قبل وجود الكتابة ، تنتقل بالطريق الشفوى دون أن تصاب بأدنى تغيير . ولكن من البدهى أن التقاليد ، إذا اعتمدت على الكتابة ، ازدادت قوة وقدرة على المقاومة .

ينبغي ألا نخلط بين « لغة مكتوبة » و « لغة أدبية » . فقد يجتمع المعنيان أحياناً في لغة واحدة ، ولكنهما قد يتمازجان ويتضاربان . اللغة المكتوبة في غالب الأمر عبارة عن اللغة المشتركة ، أما اللغات الأدبية فتتميز عن هذه الأخيرة في غالب الأحيان . لأن رجال الأدب في كثير من الأقطار ، من شعراء وقصاص يكوّنون طبقة منفصلة لها تقاليدها وعوائدها وامتيازاتها . وفي هذه الحال كانت للنظم كل خصائص اللغة الخاصة ، وكانت تتطلب نهضة وترويضاً وثقيفاً مهنيّاً . بل كان يتفق أن يكون الدور الذي يقوم به الشاعر دوراً شبه ديني ، وأن تكون بعض اللغات الأدبية لغات دينية في نفس الوقت : وقد حفظت السنسكريتية مثلاً هذا الطابع زمناً طويلاً . ولعل الخصائص التي نثر عليها في القصائد الغنائية الكبرى في بلاد اليونان ترجع إلى كونها تقوم على لغات دينية خاصة . بل لقد وجد في كثير من الأقطار لغات أدبية مقصورة على استعمالات معينة مع بعدها عن كل تأثير ديني . ولغة الملحمة اليونانية صورة من هذه اللغات الأدبية الخاصة التي تكونت بفعل الشعراء وانتهت بالاستقرار الدائم . فكان كل من يضع بين شفثيه بوق الفروسية في بلاد الإغريق ينفتح فيه لغة لا تتصل بأية واحدة من اللغات المتكلمة ، وقد سار أبلون الروماني وكوتشوس الأزيميري على تقاليد هوميروس . كذلك كان من المتواضع عليه في أثينا أن تستعمل لأجزاء الفناء الجماعي في التراجيدية لغة معينة مصبوغة بالأصباغ الدورية وإن لم تمثل في جوهرها لهجة دورية معينة . وفي الهند وجدت لغات أدبية على أساس ما من اللهجات ، وكانت لا تستعمل إلا في أنواع أدبية معينة . ولا يستعملها من الشعراء إلا طوائف خاصة . وكانت تتميز عن اللغة المشتركة باختلافها عنها . وسكان الملايو الذين لا يتكلمون

لغة هندية أوربية عندهم لغة أدبية خاصة تسمى الكاوية Kawi ، وهي مغممة بالعناصر السنسكريتية^(١).

ولكننا نستطيع — حتى بفض النظر عن الحالات التي تستمد فيها اللغة الأدبية أصلها من اللغة الخاصة — أن نفهم بسهولة الفرق الذي يفصل بين اللغة الأدبية واللغة المشتركة . والواقع أن خاصية اللغة المشتركة الأساسية تنحصر في أنها لغة وسطى تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً . وإذا انتشرت اللغة المشتركة في قطر بأسره ، أخذت العناصر المشتركة الداخلة في تكوينها في الازدياد ، وأدى ذلك بالضرورة إلى النزول بمستواها ؛ فبالرغم من الأثر البالغ الذي تقوم به النخبة العقلية ، فإن العناصر التي تستعيرها اللغة من الطبقات السفلى من السكان تزداد بانتشار اللغة . وتصير بالتدريج كثيفة رتيبة لا لون لها . وعندئذ تتميز بالخصائص السلبية ، أى بالضعف والسوقية .

ولكن الأديب في حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد في ذكائه وحساسيته من عناصر خاصة ، يقول موريس بريس M. Barrès : « اللغة وقد قدت للاستعمال الشائع لا تستطيع التعبير إلا عن الحالات الخشنة » . وكان لفلووير في الكتابة طريقتان ، تيمناً لما إذا كان محرر كتاباً لصديق أو يكتب عملاً أدبياً بأسلوبه التوثري . « فالكتابة الفنية » رد فعل دائم ضد اللغة المشتركة ؛ وهي إلى حد ما نوع مما يسمى بالأرجو (argot) ، اللغة الخاصة الأدبية ، وهي في كل حالاتها مغايرة للغة الكلام رغم تنوعها العديد ورغم اختلافها عند البرناسيين عنها عند الرمزيين وعنها عند كتاب عصور الانحلال . هذه اللغات الخاصة المنزوية في ضوامعها المقصورة على عدد قليل من المريدن لا تمنينا هنا . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها إنها في بعض الأحيان تنمذ اللغة المشتركة يعمض التراكيب أو يعمض الكلمات . ولكن علينا هنا أن نبحث الحالة التي تكون فيها اللغة الأدبية واللغة المكتوبة شيئاً واحداً ، والتي فيها تعتبر اللغتان معاً نواة للغة المشتركة .

(١) أنظر الكتاب المصير تأليف وفون هوبولت V. von Humboldt

١٨٣٦ — ١٨٣٩ ، Berlin ، Kawi Sprache auf der Insel Java

النصيب الذى ساهم به الكتاب الفرنسيون فى تكوين اللغة المشتركة عندنا كبير جداً . فاللغة التى تعلمها فى المدرسة ندين بها إلى المجهود الزوج الذى قام به الأدباء والنحاة^(١) . فهم الذين خلقوا لنا هذه الأداة الجميلة ، وسهروا عليها بمحذب شديد عاملين على ألا يعلوها الصدا ، فيغير معالمها . وقد يبدو لنا أن تطهير اللغة الذى دام قروناً عديدة عمل جدلى رخيص ؛ مغرق فى الادعاء والتظاهر ؛ وليكن الفوائد التى نجنيها من هذا العمل نحملنا على الاعتراف بالجميل لمن قاموا به . فأصبح لدينا بفضل أساتذة المدارس الذين درجوا على دراسة الكتاب ، خير قالب نصوغ فيه أفكارنا ، وصارت لنا لغة كل كلمة من كلماتها لها معناها اللائق ، وكل تركيب من تركيبها قد انفرد بدقائق ولطائف لا تبارى . إذ أنهم أقصوا عن اللغة كل ما يجرح الطبع التسليم والذوق الحسن ، ودأبوا على إخضاعها لقواعد العقل واللياقة فجعلوا منها ، على حد قول بوهور Bouhours ، أداة قادرة « على إمساك أشد المواد قوة ورفع أشدها ضعفاً » ؛ وبالاختصار جعلوها منذ البداية قديرة على الاستجابة لكل مطالب العقل . وقد استفادت اللغة المشتركة أجل فائدة من الأعمال التى قاموا بها . استفادت الوضوح والأناقة والدقة مع التنوع ؛ وكما قال ريفارول Rivarol « لقد استفادت تلك الأمانة المتصلة ببعيريتها » .

كبار الكتاب يصنمون بالكلمات ما كان يصنمه الملوك القدماء بالنقود ؛ يفرضون القيمة التى يريدونها ويحددون لها السعر الذى على كل فرد أن يقبله . وبذلك ينفذ فينا شيء من عقليتهم ، وإذا تكلمنا الفرنسية فإن بسكال ولارو شفوكو ولا برويير وبوسويه ، ومنتسكيو وفولتير هم الذين يملون علينا الكلمات التى نستعملها . وكل منا حين يكتب يفتقر على غير شعور منه من ذكرياته المدرسية ، مهما قلّ تعليمه . وهذا الكاتب الماصر الذى نعرفه مثلاً ليست لنته إلا نسخة من كتابنا الكلاسيكيين ، فهو يصلح أن يتخذ مثلاً يحتذى من كل من يحاول الكتابة بالفرنسية ، لأنه يحقق على وجه الكمال المثل الأعلى للفرنسية

(١) أنظر برنوت Brunot ، رقم ٥٧ ، مجلد ٤ ، ص ٢١٩ وما يليها ؛ وراجع أيضاً الكيسى فرنوا La grammaire du purisme et l'Académie ، Alexis François française au 18^e siècle باريس (١٩٠٥) .

الأدبية ، في صورتها العامة و « المشتركة » . والواقع أننا تبين طابع أسانذتنا المظام بكل حذافيه في جميع مؤلفاته من طريقة استعماله للكلمات وكيفية وصلها بعضها ببعض وفي تركيب الجملة ووزنها . نعم يجب على من يتصدى لتقدير هذا الفن الخفى أن يكون ذا ذوق مدرب . ولكنها لذة كبرى تلك التى يشعر بها حين ينظر فى هذا النسيج الجليل اللامع فيستطيع أن يبين كل خيط من خيوطه ويميز مصدره ، ومن المؤلم حقاً أن نفكر فى أنه قد يأتى يوم لا يوجد فيه من يستطيع تذوق هذه اللذة ، وذلك إذا تخلى التعليم ، فى تغيره طبيعة وغرضاً ، عن العناية بالنخبة المختارة : عندئذ تقصر الخلافة الشعبية عن فهم قيمة هذا النسيج فتطأ بأقدامها غملاً دقيق الصنع تناسقت ألوانه حتى كأنه لوحة رسمت « بالباستيل » .

ذلك بالطبع لأن كل صورة فنية فيها شئ من الشخصية بعيد عن إدراك الجماهير ، هذا إلى أن خلق صورة « مشتركة » مهما كانت درجة كبرها ، ليس إلا فترة فى تاريخ اللغة . وأن اللغة المكتوبة أيضاً فى تأخر دائم بالنسبة للغة المتكلمة .

تكوين اللغات المشتركة معناه فترة من التوقف فى تطور اللغة . إذ تتبلور الصيغ والتراكيب وتتحجر ، وتفقد طواعية الحياة الطبيعية ، ولكننا نخدع أنفسنا إذ افترضنا أن اللغة تستطيع التوقف . والذى يحملنا على هذا الظن أنها لذة اصطناعية توضع بجانب اللغة الطبيعية ؛ والبون بين اللتين يكون ضئيلاً فى بادئ الأمر ، ثم يعظم مع الزمن ، حتى يأتى يوم يصير فيه هذا البون صدعاً عميقاً . ويمكننا أن نقارن خلق اللغات المكتوبة بتكون طبقة من الجليد على سطح نهر . فالجليد يستعير مادته من النهر ، بل بمنارة أوضح ليس الجليد إلا ماء النهر نفسه ، ومع ذلك فليس هو النهر . وإذا رأى الجليد أحد الأطفال ظن أن النهر غير موجود وأن تياره قد توقف عن السير . وهذا خداع ! فالأمر تحت طبقة الجليد لا يزال يجرى منحدرأى طريقة نحو السهل ، وإذا تكسر الجليد رأينا الماء ينبثق فجأة ويتلاطم مزججراً . هذه صورة من تيار اللغة : فاللغة المكتوبة هى طبقة الجليد التى فوق النهر ، والماء الذى يتابع جريانه تحت الجليد الذى يحبسها هو اللغة الشعبية والطبيعية . والبرودة التى تنتج الجليد وتبغى احتجاز النهر ، هى مجهود النحويين

والمرين ؛ وأشعة الشمس التي تعيد إلى اللغة حريتها هي قوة الحياة التي لا تقهر ،
تغلب على القواعد وتحطم قيود التقاليد .

الفرنسية الحالية تبرز التشبيه السابق بصورة مرضية . فالبون الذي بين لغة
الكتابة ولغة الكلام لا يزيده الأيام إلا اتساعاً . فالتنظيم والمفردات ليست واحدة
في كلتا الحالتين... بل إن الصرف نفسه يحتوى على بعض الفروق : فالماضى المحدد
(أو البسيط) . *passé défini* والماضى غير التام من صيغة التسمية *imparfait*
du subjonctif لم يمد لها استعمال في لغة الكلام . ولكن اختلاف المفردات
بوجه خاص هو الذي يكاد وضوحه يُعنى الميون . فنحن نكتب لغة ميتة ،
تلك اللغة ترجع إلى كتاب القرن السابع عشر ويمثلها اليوم في آتم صورها ذلك
الكاتب المعاصر الذي أشرنا إليه . ولكننا نتكلم لغة غير ذلك . ومفرداتنا الجارية
قد تغيرت منذ القرن السابع عشر^(١) . والفرق بين الكلمات التي تتكلم والكلمات
التي تكتب يذكرنا بالفرق بين الكلمات السوقية وكلمات النبلاء ؛ فنحن نألف
من كتابة معظم الكلمات التي نستعملها في المحادثة . والشخص الذي يتكلم كما
يكتب يدو لنا كأنه كأن متكلف ؛ والأشخاص الذين من هذا القبيل في تناقص
مستمر .

ظلت الطبقات العليا وقتاً طويلاً محتفظة بمحوشية اللغة التي توحى بها استعمالات
اللغة المكتوبة ، وكانت الطبقات السفلى وحدها هي التي يشاهد فيها نشوء لغة فجائية
تعمل على تحديد عناصر اللغة التمييزية . واليوم نرى لغة الطبقات العالية التي كان
وجودها غير طبيعي تختفي لتحل محلها اللغة الشعبية . والمتشددون جميعاً ينمون
هذا « السقوط » ؛ ولكنها شكوى عقيمة^(٢) . لأن اللغة المكتوبة نفسها لم
تصبح في مأمن من الإضابة : فالصحف اليومية التي يحررها على عجّل أناس غير
متقنين في غالب الأحوال ، أخذت تكثر شيئاً فشيئاً من استعمال عبارات اللغة

(١) أنظر ف. كوهين F. Cohen : Les transformations de la langue fran-

(1789 — 1740) çaise pendant la deuxième moitié du 18^e siècle ، باريس (١٩٠٣) .

(٢) أنظر خاصة E. Deschanel ، رقم ٦٧ ، ب. ستايفر P. Stapfer ، رقم ١٢٣ .

التكلمة ، بل وصيغتها : فالمباراة الخاطئة je m'en rappelle « استحضر منه في ذاكرتي » والتركيب المتبرر de façon à ce que « بصورة إلى أن » ، قد أصبحا فيها من الاستعمالات الجارية . وفي كل يوم تظالعا فيها « أخطاء أخرى » ليست أقل خشونة من تلك . وقد أمكن لبعضهم أن يستخرج من إحدى الصحف الباريسية الواسعة الانتشار تراكيب مثل : « avec cette brusquerie dont » « cette affaire ressort de la Prefecture de police » و « il ne se départ pas » و « au point de » و « il demanda à ce que » و « vue pécunier » « alors il s'enfuya » الخ . ونلاحظ أننا نجد في هذا الخليط المتبرر آثاراً عديدة من اللغة المكتوبة : فثلاً عبارتا ressortir و se départir ليستا من استعمالات لغة الكلام ، واستعمال الماضي البسيط ، إحدى خصائص اللغة المكتوبة . فقد كان في عزم هذا الصحفي الذي ارتكب هذه الأخطاء وفي شعوره أن يكتب بلغة الكتابة ؛ ولكن نقص ثقافته جملة يبنى لنته المكتوبة من عناصر اسطناعية وزائفة في غالب أمرها . وعلى هذا النحو كان جرجوار دي تور Grégoire de Tours — الذي كانت لانيته مشحونة بالأخطاء التي ترجع إلى اللغة التكلمة حوله — لا يزال يستعمل الفعل اللاتيني السمي deponere على الرغم من أنه كان قد اختفى من اللغة التكلمة منذ زمن طويل : إذ أن الكثير من أعمال هذه الفصيلة لا يوجد في اللاتينية الكلاسيكية^(١) .

ولكن يجب علينا ، إنصافاً للصحافة الفرنسية ، أن نعترف بأن بعض الصحف الكبرى قد احتفظت باللغة الأدبية ، حيث يتبع محرروها قواعد اللغة المكتوبة دون أن يحيدوا عنها قيد شعرة . وإذا كان عدد هذه الصحف في هبوط فإن تمسكها بالسلامة اللغوية لا يزداد إلا صرامة ؛ وذلك رد فعل منها ضد تيار العامية الجارف ؛ ومن ثم تزداد عنايتها ببقاء اللغة قوة على قوة . ولذلك السبب كانت الصحف الباريسية لا تكتب لغة واحدة بمعنى الكلمة . فالصحف الشعبية لا تكاد تكتب غير اللغة التكلمة مصبوغة بالصبغة الأدبية . إن قليلاً وإن كثيراً . وعلى العكس من ذلك لا تستعمل الصحف الكبرى إلا اللغة التي كان

(١) بونه Bonnet ، رقم ٥٠ ، ص ٤٠٢ .

يستعملها خير كتابنا في مؤلفاتهم : « اللغة الفرنسية الأدبية » النفية .
ولكن هذه الفرنسية الأدبية لغة تتعلم . فشدة اختلافها عن اللغة المتكلمة
يتطلب مراناً كثيراً ما يطول زمنه ، وممارسة على أكبر جانب من الحذر . وليس
في مقدور أحد أن يقرر إلى متى ستظل المحافظة قائمة ، وأعني بذلك المحافظة على
تعلّمها . وعلى كل حال يمكننا أن نتكهن للفرنسية الأدبية بمصير كصير اللاتينية ،
أي أنها ستبقى ولكن بصفها لغة ميتة ، قد جددت قواعدها ومفرداتها إلى الأبد .
أما اللغة الحية فستتطور مستقلة عنها كما فعلت اللغات الرومانية . وكل ما يبقى للغة
الكتوبة من عمل هو أن نصير مستودعاً يزيد اللغة المتكلمة بالمفردات (قارن
ص ٢٩١) . وفي هذه الحالة تنشأ لغة أدبية تخالف اللغة العامية كما هي الحال في
اللغة العربية حيث يوجد نوعان من اللغة يخالف أحدهما الآخر ، وفي الصين حيث
تخالف لغة المندريين mandarins اللغات المتكلمة^(١) . ولو تحقق إصلاح الرسم
عندنا لتجلى أمام أعيننا الفرق بين هاتين اللغتين الفرنسييتين جلاء تاماً . فوجود
الفرنسية الأدبية لا يمنع من أن تتكوّن تحت سطحها لغة مشتركة : فاللاتينية
العامية التي منها خرجت اللغات الرومانية كانت تختلف عن اللاتينية الكلاسيكية
التي كانت لا تزال تكتب في زمن أوزون Ausones وكلوديان Claudien .
وكان إلى جانب الإغريقية المشتركة في العصر الهلنستي لغة أدبية اسطناعية ،
يختلف نظامها الصرفي عن النظام الصرفي للأولى فضلاً عن اختلاف المفردات بينهما .
الواقع أنه يمكن أن توجد عدة لغات مشتركة بعضها فوق بعض .

ففي الهند القديمة صارت السنسكريتية التي كانت في الأصل لغة دينية ، لغة
أدبية مشتركة في اليوم الذي جاءت فيه دولة دخيلة فأباحت استعمالها في الأمور
الدنيوية . وهي اليوم لغة العلم ، لغة الثقافة العالية والدين على السواء . فما زالت
تقرأ في المابد وتلقى نصوص بها مثل المهبهاراتا le Mahābhārata والپورانا
les Purānas ، كما لا يزال الكاثوليك يتمسكون بالنصوص اللاتينية في الكنيسة .
ولكن لا حاجة بنا إلى القول بأن السنسكريتية تمتد إلى ما وراء منطقة اللغات

(١) شتينثال Steinthal ، رقم ٢٠٧ ، ص ٥٣ .

الهندية ، إذ أنها لاتنضم شبه الجزيرة الهندية فحسب حيث يستعملها أناس مختلفو الأجناس واللغات ، بل لقد حملها المبشرون البراهمة والبوذيون إلى جميع الأماكن التي وصلوا إليها في أداء رسالتهم .

وجود السنسكريتية لم يمنع من وجود لغات مشتركة أخرى . فقبل أن تتطور السنسكريتية إلى لغة أدبية بزمان طويل — وهي لم تصبح كذلك إلى حوالي ميلاد المسيح — وجدت لغات أحدث منها استعملت استعمال لغات مكتوبة مشتركة وكان الملك أسوكا Aśoka قبل الميلاد بمائتين وخمسين عاما يستخدم هذه اللغات في كتاباته على أنها لغات رسمية ، كما كانت تستخدم مع السنسكريتية نفسها لغات أخرى في كتابة النصوص البوذية على أنها لغات دينية ، وذلك كاللغة البالية مثلا ؛ وأخيراً كانت تستعمل في الدراسة بصورة عادية مع السنسكريتية بعض لغات أدبية (les prakrits) تذكرنا بما كانت عليه لغة الشعر الغنائى ولغة الملحمة في بلاد الإغريق^(١) .

ولكن كان يوجد تحت سطح اللغات البركريتية^(٢) منذ عهد سحيق ، ولا يزال يوجد حتى الآن لهجات ورطانات محلية . وقد وصل بعضها إلى درجة من الأهمية جعلتها تستخدم في الحاجات الأدبية ، وذلك مثل الهندية والبنغالية والماراتية . بل يوجد اليوم في الهند لغة مشتركة ، وهي الهند ستانية التي لا تمثل في حقيقة الأمر أية لهجة حقيقية .

يمكننا أن نختتم هذا الفصل بذلك المثال من لغات الهند . فهو يوضح خير توضيح صلات اللغات المشتركة بعضها ببعض وباللهجات المحلية ، وترينا مقدار الصعوبة التي يلاقها من يحاول رسم حدود بين العناصر التي تكونها ، وإلى أى حد يتداخل بعضها في بعض دون توقف . ذلك لأن تكون اللغات المشتركة وتطورها وتحللها تتوقف على أسباب تاريخية غربية عن اللغة ، أى على حركات المدنية نفسها .

(١) ف. لكرت Essai sur Gunadhdya et la Brhatkatha: F. Lacôte

س ٤٠ — ٥٩ .

(٢) أنظر جون بلاك ، Jules Bloch ، رقم ٤٩ :

الفصل الرابع

احتكاك اللغات واختلاطها (١)

تطور اللغة المستمر في معزل عن كل تأثير خارجي ، يمدّ أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق في أية لغة . بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً هاماً في التطور اللغوي .

ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية ، واحتكاك اللغات يؤدي حتماً إلى تداخلها . وها نحن أولاء نرى تحت أعيننا وبالقرب منا أقاليم جمع فيها التاريخ على هويته شعوباً تتكلم لغات مختلفة ؛ وفي الأقاليم التي من هذا القبيل يقتضي التوسع في التبادل التجاري وضرورة الاتصال معرفة لغات عدة معرفة جيدة . وكانت شبه جزيرة البلقان في كل عصورها ولا تزال حتى الآن ملتقى لكثير من اللغات ، ومن الأجناس والجنسيات والأديان . ففيها اليوم أجناس مختلفة من سلافيين وإغريقين وألبانيين ورومانيين وآراك ويهود وأرمنين ، وكلهم يكوّنون جماعات كبيرة أو صغيرة . وهناك إغريق في تراقيا ورومانيون في مقدونيا وألبانيون في اليونان . والحدود السياسية لا تنطبق في أي مكان على الحدود الجنسية ولا على الحدود الدينية : فكل من الديانات الكاثوليكية والأرثوذكسية والإسلامية واليهودية تضم سكاناً ينسبون إلى أجناس مختلفة وجنسيات متباينة . واللغات التي

(١) هـ . شوخارت : رقم ٢٠٣ و ١ . وندش : Zur Theorie der Mischsp. rachen und Lehn wörter ، رقم ٤٠ ، ليترج ١٨٩٧ ، ص ١٠١ — ١٢٦ . وانظر عن المسائل النظرية : شوخارت : Kreolische Studien (رقم ١٨٨٢ ٣ — ١٨٩٠ ، مجلد ١٠١ ، ١٠٥ و ١١٦ و ١٢٢) ٤ : ورقم ٣٨ ، مجلد ١٢ و ١٣ (ص ٤٧٦ و ٥٠٨) ومجلد ١٥ ، مجلد ٦ (١٩١٢) . وسايس : رقم ١٣٨ ، مجلد ١١ ، ص ٢١٩ ، حيث توجد به أمثلة للغات المختلطة .

تساهم بنصيبها في تماسك الجنسية نضيف إلى كل هذا عنصراً آخر من عناصر التعقيد : فالصربية والبغارية والإغريقية والألبانية والرومانية والتركية والأرمينية والأسبانية التي يتكلمها اليهود ، تعيش كلها جنباً إلى جنب . ولكننا لا نشير هنا إلا إلى اللغات التي لا تتكلمها إلا المجاميع الكبيرة بصرف النظر عن اللهجات . لا بد أن هذه الحالة التي تعتبر استثنائية في أوروبا الحديثة كانت قاعدة يسير عليها التاريخ في غالب الأحيان . والتأثير اللغوي التي تنجم عنها كبيرة الخطر لأنه إذا احتكت لنتان إحداهما بالأخرى ، أثرت كل منهما على صاحبها . حتى ذهب بعض علماء اللغة ، بناء على هذه الحقيقة ، إلى أنه لا توجد لغة غير مختلطة ولو إلى حد ما . فملينا إذن أن نناقش الظروف التي يمكن فيها اختلاط اللغات والتأثير اللغوي التي تنجم عن هذا الاحتكاك .

من الخطأ أن نتصور كون المنافسة بين لغتين متاستين تحدث دائماً على وتيرة واحدة في كل الحالات ؛ لأن قوة اللغات ليست واحدة ، ومن ثم كانت تختلف قدرتها على المقاومة .

لفرض أننا بصدر لغتين من ذوات المدنية العظيمة كالألمانية والفرنسية . فاللغتان كلتاهما قويتان ، تستويان في القوة . وبينهما اختلافات في البنية على جانب من الأهمية . فإذا ما تعرضتا للمنافسة ، لم يكن لهذه المنافسة آثار لغوية ، وإنما تكاد تنحصر آثارها في الميدان الاقتصادي . والمدرسة هي المكان الذي يهيم فيها الكفاح بينهما ؛ ولكن الانتصار في هذا الكفاح ينال في ميدان المعاملة ، أي في صميم الحياة . لذلك نسمع أن الألمانية قد طردت الفرنسية من هذه القرية ، أو تلك المدينة من المدن السويسرية أو أن العكس قد حدث في قرية كذا أو كذا ^(١) . وليس هنا موضع بحث مزايا اللغتين في ذاتهما فسكان هذه القرى كان في متناول

(١) تسمرلي Zimmerli : Die deutsch-französische Sprachgrenze in der Schweiz (الجزء الأول رسالة في جوتنجن ، ١٨٩١ ؛ الجزء الثاني ، جنيف وويل ١٨٩٥ و ١٨٩٦) .

أيديهم أداتان متساويتان في المتانة والصلاحية ، فاختاروا من بينهما أصلحهما لحاجات أعمالهم . ذلك بأنه ينشأ هناك ميل إلى نقل الحدود اللغوية بحسب الجهة التي ترد منها العلاقات الاقتصادية . فالصلحة العملية هي وحدها الحكم في مثل هذه الحالة ، وهي التي تحكم لهذه اللغة أو لتلك ، وقد تبقى اللغتان زمنا طويلا في حالة تعادل .

فضلا عن الظروف الاقتصادية يجب أن ندخل في حسابنا الموقف السياسي . فبعض الشعوب تملك بهذه اللغة دون تلك ويرى لها عمداً عنان التفتش مدفوعا في ذلك بموافقة وطنية أو بقصد إظهار إستقلاله أو بنفوره من دولة مجاورة . ومن المؤكد مثلا أن مركز كل من الفلمنكية والفرنسية في بلجيكا لا يتوقف على الظروف الاقتصادية فحسب ، بل تضاف إليها بواعث سياسية ينبغي للعالم اللغوي ألا يسقطها من حسابه . ومنذ عشرين سنة تنمشى في إيرلندا حركة تتجه إلى إحياء اللغة الوطنية القديمة يقوم أصلها على بواعث سياسية ، وهي التخلص من لغة الإنجليز ، أعدائهم التقليديين ؛ والفرنسية لم تتكلم يوما في الأيرلند بقدر ما كانت تتكلم في فترة انضمامها إلى الإمبراطورية الألمانية . أما حينما كانت مقاطعة الأيرلند جزءاً من فرنسا قبل سنة ١٨٧١ ، ولم تكن مضطرة إلى اتخاذ لغة بعينها ، فلم يكن لدى الأيرلنديين باعث قوى على ترك لهجاتهم المحلية الجرمانية .

كذلك تخضع المنافسة اللغوية في الأقطار البلقانية لأسباب سياسية إلى حد كبير ، ولكن الدين بدوره يقوم فيها بدور هام . واللغة الأرمنية تدين بقسط كبير في حيويتها إلى وجود كنيسة أرمنية مستقلة . فالشعور النبعت من وجود جماعة دينية يزيد مقاومة اللغة قدرة . وفي مستعمرة الكاب ، كان المهاجرون الفرنسيون من البروتستانت في سنة ١٦٨٨ يكوّنون ربع سكان المستعمرة ؛ ولما كانت الهولندية وحدها هي اللغة المسموح بها في الأمور العامة والسياسية والدينية ، فقد اختفت الفرنسية بعد مضي قرن واحد .

هناك أيضاً عامل عاطفي آخر له قوته العظيمة في المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقائها : هو عامل الهوية . فما كان للاتيني أن يرضى بتعلم إحدى اللغات

التبريرة، Pompon) «Quorum nomina uix est eloqui ore Romano» (Mela III,3) . لذلك قضت اللاتينية في إيطاليا نفسها على الأترسكية والأسكسية والأمبرية . وقد وصلت هية اللاتينية إلى حد جعل بلاد الجول بعد فتحها بقرن على الأكثر ترسل من لديها أساندة للخطابة إلى روما .

وإرادة الإغريق في ألا يضحوا لنهم أمام لغة فآخ يحتقرونه ، هي التي حفظت الإغريقية خلال العصور ؛ فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها ، أو حتى أن تنال منها . كان الإغريق يتكلمون لغة الفآخ في حاجتهم الإدارية ، ولكن لم يحدث إطلاقا أن *la lingua del cuore* سَلَّت ل *la lingua del pane* كما يقول الإيطاليون .

كثيراً ما يكون لهية اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية . وهذه القيمة في حالة اللغة الإغريقية تعتبر شيئاً كبيراً لأنها تفوق بكثير كل ما يمكن أن يضاف للغة التركية من فضل . فالتركية ، وهي لغة الفآخين ، ليست بأية حالة من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع السكفاح ضد اللغة الإغريقية التي تمثل ثقافة من أعرق الثقافات . نستبين ما قيمة لغة في ذاتها من أهمية في كثير من المواضع . ويمكننا على وجه التقريب أن نقدر لكل لغة درجتها في هذا الصدد . فالأرمينية تنهقر أمام الروسية في أوربا . ولكن البولونية صمدت للروسية في غرب الإمبراطورية القيصرية : فهما لنتان متساويتان في القوة وليس في وسع إحداها أن تتغلب على الأخرى . والقدرة على الانتشار التي نشاهدها في بعض اللغات الهندية الأوربية أو السامية كاللغة العربية مثلاً ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة ، ولكن القيمة الذاتية للغة لها في ذلك نصيب .

إذا بذرت بذور لغوية منعزلة بطريق المصادفة في بيئة تتكلم لغة مختلفة ، لم يكن لهذه البذور حظ كبير في أن تبقى سليمة وربما عاجلتها اللانة المحلية فامتصتها ، إذا كانت هذه الأخيرة لغة ثقافة . فنحن نعرف مقدار الصعوبة التي تلاقها بعض الطوائف الجنسية في الولايات المتحدة للاحتفاظ بسلامة لغاتها أمام اللغة الإنجليزية ، وحتى الألمانية التكلمة هناك قد سارع إليها المطب ، إذ أصبح التكلمون بها يقولون مثلاً

Uncle Milch gleicht der Onkelnit وهي ترجمة حرفية للمعبارة الإنجليزية
does not like milk «الم لا يحب اللبن» ^(١). وحوالي منتصف القرن
الثامن عشر نزلت بأسبانيا جالية شوابية واستقرت في سفح السيرامورينا Sierra
Morena. واليوم لا نجد في هذه البقاع أثرًا للألمانية اللهم إلا في بعض أعلام
الأسر ^(٢). كذلك لم تستطع الفرنسية التي كان يتكلمها الفرنسيون الذين نزحوا
إلى ألمانيا أو إلى الأقاليم المنخفضة بعد المدول عن مرسوم نانت أن تقاوم تأثير
اللغة المحيطة بها زمانًا طويلًا. وفي شمال فرنكفورت توجد بضعة قرى — كان سكانها
من الفرنسيين ولا يزالون — ولكنهم يتكلمون اليوم لغة القرى المجاورة، أعني
الألمانية. وعلى العكس من ذلك لا تزال الألمانية صامدة منذ القرن الرابع عشر في
وادي الجتشية Gottschee أي في قلب الجبال السلوفاني ^(٣)؛ وليس من شك
في أن الظروف الاقتصادية قد ساعدت على بقاء الألمانية، هذا فضلًا عن تلك الهية
التي شدّت من أزرها العصية الوطنية للألمان أمام التيار السلافي. غير أنه يضاف
إلى كل هذا أن الألمانية من حيث الحضارة أقدر على الإشعاع من السلوفانية. فاللغتان
لا تستويان في القدرة على الكفاح: نعم يمكننا أن نفهم بسهولة كون السلوفانية
التي تملك جميع الأراضي المحيطة لم تتأثر بالألمانية الجتشية؛ ولكن اجتناف الألمانية
بمراكزها لا يمكن أن يفسر إلا بضعف السلوفانية من وجهة النظر التي نحن بصدددها.
لنتجه الآن إلى بحث الأثر الذي يمكن أن تحدثه لغة مشتركة تمثل مدنية
منظمة تنظيمًا قويًا على مجموعة من اللهجات المحلية لا وحدة لها ولا تماسك بينها.
وتمثل لنا هذه الحالة في مركز البريتانية والفرنسية في مقاطعة بريتانيا. فالنافسة
بين البريتانية والفرنسية لا تشبه بحال منافسة الفرنسية والألمانية في سويسرا.

(١) بومجرتز Die deutsche sprache in Amerika : Baumgartener نقله عنه
ميه في رقم ٤، مجلد ١٨، ص ١١٦.

(٢) س. فيست S. Feist : رقم ٢٦، مجلد ٣٦، ص ٣٤٤ هامش.

(٣) اد. هوفن AD. Hauffen : Die deutsche Sprachinsel Grammatik :
der Gottscheer : H. Tschinkel : Gottschee, graz (1875) Mundart, Halle
(1908).

إذ في هذه الحالة الأخيرة يتقدم اللتان وتتقهران على نحو ما يفعل جيشان متجابهان فتأخر إحداها أو قدما معناه انتقال في الحدود : ذلك أن الناس إما أن يتكلموا الفرنسية أو الألمانية . أما الحدود اللغوية بين البريتانية والفرنسية فلم تكن تتغير منذ قرون ، رغم التقدم الأكيد الذي ربحته الفرنسية في بريطانيا^(١) . وقد لوحظ أن البريتانية في القرن الحادى عشر الميلادى لم تكن تتمدى الحدود الجغرافية التى تحدّها في يومنا هذا . وهى تتكون من خط يكاد يكون مستقيماً يتجه من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ويبدأ من بلوها Plouha على الشاطئ بين بيمول Paimpol وسان برييه Saint-Brieuc ويسير حتى مصب القليلين ماراً بكنتان من أسفل وبالقن من أعلى . وعن يمين هذا الخط لا تكاد تتكلم إلا اللهجات الفرنسية المسماة « gallots » وحدها منذ تسعة قرون أو عشرة . ولترجع الآن إلى تشبيه الجيشين المتجابهين الذى أشرنا إليه . فليس أمامنا هنا معركة منظمة ولا أرض يكسبها الغالبون باضطرارهم المغلوبين إلى التقهقر . وإنما يوجد فقط انضمام دائم لعدد كبير من عناصر إحدى اللغتين إلى الأخرى ؛ حتى ينتهي الحال بأن تفقد إحداها كل جنودها الوطنيين . وهذا توغل سلمى ، لا حرب فيه ولا غزو .

ولنحاول لبيان ذلك أن نبحث الموقف في غرب الخط الذى رسمناه منذ قليل . فهناك قد توغلت الفرنسية في كل اللهجات البريتانية دون استثناء . ولغة المدينة تحمل معها تياراً جارفاً من الكلمات الجديدة التى تمثل أشياء وأفكاراً وعادات جديدة . كما أن الآداب والدين قد ملأ البريتانية بالكلمات الفرنسية ، وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر : وهذا آت من أن الفرنسية هى التى تقدم للبريتانيين بالطبع نماذج لكتب العبادة والتهذيب . فظلت البريتانية تنحصر شيئاً فشيئاً في الاستعمالات الزراعية والخاصة . وأخذت الخدمة العسكرية وتعليم الفرنسية في المدارس يسجلان هذه الحركة منذ نصف قرن . وفي نفس الوقت حصل شيء من التطور في ظروف المنافسة بين اللغتين .

(١) انظر بول سبيلوت Paul Sébillot : Revue d' Ethnographie : يناير

عام ١٨٨٦ ، ج ١ . لوث : رقم ٨ ، مجلد ٢٤ ، ص ٢٩٥ ومجلد ٢٨ ص ٣٧٤ .

(٢٣ — ٢٤)

ظل التوغل زمناً طويلاً يقوم على نوع من التسرب غير المحسوس ، إذ كانت
البريتانية تلتقي على غير شعور منها عدداً من الكلمات الفرنسية يزداد يوماً بعد يوم .
ولكن البريتانيين كانوا يوالون الكلام بالبريتانية ، ولو طُعِّمَتْ بالكلمات
الفرنسية . أما اليوم فقد أصبحت غالبية البريتانيين العظمى تتكلم اللغتين ، ومن
ثم انتقل ميدان المنافسة بين اللغتين إلى أذهان المتكلمين أنفسهم على شكل ما .
وفي هذه المنافسة خطر على البريتانية . إذ أن الفوائد التي يمكن الحصول عليها من
معرفة الفرنسية تفوق كثيراً تلك التي يمكن الحصول عليها من معرفة البريتانية
وحدها . ولكون الفرنسية لغة برجوازية وتستعمل دون سواها في مجتمعات المدن
فإنها تنرى بنات الحقل بالتكلم بها ، كما تفرهم ثياب الطبقة الراقية بلبسها .
ولكن يضاف إلى ذلك أن روابط السكان البريتانيين بالمجتمع البرجوازي تزداد
يوماً بعد يوم . ففهم الموظفون في كثير من الأعمال وخدم المنازل الذين يتكلمون
الفرنسية مع مخدوميهم . واتساع السياحة قد جعل من الأجنبي ومن البرجوازي
مورد رزق للمواطنين ، وهذا يجعل التكلم بالفرنسية ميزة وضرورة في آن واحد .
ونوع الحياة يؤثر كذلك على اللغة . فلاحظ أن البريتانية على الشواطئ أقل منها
ثباتاً في الداخل ؛ وذلك لأن البحارين يشتغلون بالطبع بعيدين عن محل إقامتهم ،
ولأنهم يجدون أنفسهم كل يوم في علاقات مع أفراد يتكلمون إما لغات أخرى
وإما لهجات مخالفة لبعض الشيء : فكان من مصلحتهم أن يستعملوا في هذه
العلاقات لغة مشتركة كالفرنسية . وأخيراً لأن الجزء الساحلي من بريطانيا هو
الجزء الذي تمر به طرق المواصلات الكبرى وتقع عليه المدن الرئيسية ، وبالتالي
هو الجزء الذي يقوم فيه التبادل التجاري ويرتاده السائحون بصورة دأمة^(١) .
وهكذا صارت الفرنسية لغة مشتركة بالنسبة لمقاطعة بريطانيا في حين أن البريتانية
بلهجاتها المتعددة لم تصل يوماً إلى هذا المركز . فالتناحر بين البريتانية والفرنسية
يرجع إذن في نهاية الأمر إلى فعل الأسباب الاقتصادية ؛ ولكن قوة كل من اللغتين
هي التي تحدد ظروف التناحر الخاصة .

(١) La Basse - Bretagne : Camille Vallaux ، باريس ١٩٠٧ .

يمكن أن تنبأ باندثار البريتانية . ولكن يجب ألا تتمجّل القول به . لأن البريتانية مازالت متمسكة وازدياد السكان — وهو كثير في بريطانيا المتكلمة بالبريتانية — له أثره القوى في بقاء اللغة ، هذا فضلاً عن تمسك البريتانيين بتقاليدهم القومية . كما أن ميزة التكلم بلغتين قد تشجع البريتانيين على استعمال البريتانية فيما بينهم . فهي لغة خاصة جاهزة تصلح ضماناً للاستقلال . وبوصفها لغة خاصة يمكنها أن تعيش زمناً طويلاً للاستعمال بين طوائف معينة مثل صيادي « السردين » أو عمال الملاحات البحرية أو قاطعي الأردواز أو تجار الخيل ؛ وفي هذه الصورة لا يستطيع إنسان أن يتنبأ لها بمقدار الزمن الذي يمكن أن تستمره ؛ لأنها تستطيع حينئذ أن تتجدد وأن تقوى ، على شرط أن تكون هناك جماعة عديدة من الناس تعمل على الاحتفاظ بسلامة اللغة الخاصة .

ومع ذلك فهناك بعض الأركان التي اندثرت منها البريتانية . فجماعات العمال في إنبون Hennebont لا تتكلم اليوم غير الفرنسية . وأكثر دلالة من ذلك حالة شبه جزيرة Guérande التي لا يرى فيها اليوم من يتكلم البريتانية من البريتانيين إلا تلك القرى الأربع التي تكون بلدة باتز Batz ، وسكانها عامة من عمال الملاحات . وحتى في هذه القرى يرى أن حالة البريتانية قد أصبحت في سوء . لأن محيط هذه الدائرة اللغوية يضيق شيئاً فشيئاً من جهة ، ومن جهة أخرى يرى عدد الأفراد الذين يتكلمون البريتانية في داخلها في قلة مستمرة : حتى أنها صارت لا تستعمل الآن بين الأفراد الذين تقل سنهم عن خمسين عاماً ، وأصبح الأطفال لا يفهمون والديهم . فنستطيع أن تنبأ بال لحظة التي تختفي فيها البريتانية نهائياً من هذا الركن من الأرض .

ونحن نعرف لغات أخرى انتهت إلى هذا المصير . فالصربية أو القندية وهي لهجة سلافية ، تتكلم اليوم في شبريقالد Spreewald (Lusace) ؛ في حين أن أختها البولابية Polabe التي كانت تتكلم في وادي الألب الأسفل قد مانت منذ القرن الثامن عشر . واليوم لا يرى أي أثر للبروسية ، وهي لهجة بلطية كانت تحيا على الشاطئ بين داننسيج و كينجز برج في نهاية القرن السادس عشر .

واختفت عملياً في إنجلترا الكرنوالية ، وهي لهجة كلتية ، كانت تحتل في المصور الوسطى شبه جزيرة كرنوول Cornwall كلها بما فيها ديشون Devon المعروفة الآن ، وتصل حتى مجال اللغة الغالية عبر قناة برستول . إذ أن السيدة التي قيل إنها آخر من تكلم الكرنوالية ، واسمها دلي بنتريث Dally Pentreath ، قد توفيت في السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٧ في سان بول بالقرب من بنزانس Pensance في سن الثانية بعد المائة . ولكنه قد أمكن للباحثين في قلب القرن التاسع عشر أن يلقفوا من أفواه الفلاحين بقايا أدعية وشتائم وأطرافاً من جل بالكرنوالية ؛ وفي سنة ١٨٧٥ كان يوجد من بين الشيوخ من يستطيع أن يمدّ حتى العشرين بالكرنوالية^(١) .

وهنا يتساءل عما يقصد بموت لغة من اللغات وإلى أى درجة يسمح لنا بتحديدده .

ذابت البولندية في الألمانية ، كما ذابت الكرنوالية في الإنجليزية ، وفي عهدنا الحاضر تذوب البريطانية شيئاً فشيئاً في الفرنسية . وقد بقيت في إنجليزية كرنوول آثار كثيرة من لغة الإقليم القديمة ، وذلك بنض النظر عن الكلمات الكرنوالية القديمة وبمجاميع الكلمات التي أبت عليها التقاليد .

كذلك نجد أثر البريطانية في الفرنسية المتكلمة في بريطانيا وأثر الإيرلندية في الإنجليزية المتكلمة في إيرلندة^(٢) ، فضلاً عن كون المفردات مشربة بكلمات وتراكيب مأخوذة من اللغة المحلية ، نجد هذه اللغة تفعل فعلها في النظام الصوتي بل في بعض تفاصيل النظام الصرفي أيضاً ، كترتيب الكلمات واستعمال حروف الجر مثلاً . وهكذا نرى التبر في كثير من الأحيان يوضع في الفرنسية المستعملة في المدن البريطانية على الطريقة البريطانية ويحتفظ بالشدة التي تتميز بها في البريطانية . فعندما يتكلم الفرنسية أهل كمبر Qumper بنبرون المقطع السابق للأخير نبراً قوياً ، ويقلبون الحروف المجهورة في آخر الكلمة ولا سيما الرخوة منها إلى مهموسة

(١) رقم ٨ ، مجلد ٣ ، ص ٢٨٩ .

(٢) Joyce : الإنجليزية كما تتكلمها في إيرلندة ، لندن ، الطبعة الثانية (١٩١٠) .

فيقال « une chemisse, neuf un fromache, » (حيث قلبت الراى والقاء .
والج إلى س ، وف ، وش على التوالى) ؛ ويستعملون الفعل faire « يعمل »
فعلا مساعداً حقيقياً على نحو ما يستعمل ober في البريتانية فيقال : pour que
le diable s'irrite بدلاً من faire le diable s'irriter ، ويدخلون على
ميمول الفعل المبني للمجهول الحرف avec (بالبريتانية gant) فيقال
tué avec son voisin (بدلاً من : par) ، الخ . كذلك يقال في إنجليزية
إيرلندة اتباعاً للاستعمال الإيرلندى « I will take it of you » بدلاً من
« from you » أو « he went against his father » بمعنى « to meet »
أو « his father » أو « what way are you ? » بمعنى (كيف حالك ؟) أو
« on the head of it » (بمناسبة ذلك) ، وهما ترجمة للمبارتين الإيرلندتين
ann a cheaun و cad chaoi bh-fialu tu ? . وهكذا نرى البريتانية
والإيرلندية مع تشريهما للعناصر الفرنسية والإنجليزية ، تؤثر كل منهما في اللغة
التي تغير عليها .

هل يأتى يوم تتوغل فيه الفرنسية في البريتانية حتى تصير الأخيرة كأنها لهجة
متأخرة لا تكاد تبدو أكثر تخصصاً من غيرها وإن احتفظت بخصائص مختلفة ؟
لو صح هذا لكان من السهل تحديد تاريخ لموت لغة : لأنه في هذه الحال يبقى
دائماً من اللغة المندثرة أشياء من النطق وتراكيب نحوية ، وعلى الأخص تبقى كلمات
منعزلة تبدو كأنها استمارات أخذتها الفرنسية من البريتانية ، وهى في الحقيقة بقايا
من اللغة البريتانية تحيط بها عناصر فرنسية مستعارة ؛ حتى يأتى حين لا يعرف
التكلم ما إذا كان يتكلم البريتانية وقد أشبعت بالفرنسية أو الفرنسية وقد بقيت
فيها آثار من البريتانية . ولو أن البريتانية قد ذابت في الفرنسية كما تذوب قطعة
السكر في مقدار من الماء ، لربما جاز لنا أن نقول إن البريتانية لم تمت توجد .
ولكن ألا يكون ذلك حكماً على ظاهر الحال فحسب ؟ إذ الواقع أن البريتانية قد
تعتبر موجودة ما دامت بعض العناصر المستعارة منها باقية في الاستعمال . ولكن
لا يصح في هذه الحال أن تعتبر اللغة الجولية لغة ميتة لأن الفرنسية فيها قليل من

الكلمات الآتية منها ، ويجب أن نقول إننا نتكلم إلى جانب اللاتينية عدداً من اللغات الأخرى ، معروفة أو غير معروفة ، وهي اللغات التي اختلطت باللاتينية أو الفرنسية .

تفسير الوقائع على هذا النحو يتفق مع النظرية القائلة إن كل اللغات تعتبر لغات مختلطة ولو إلى حد ما . ولكن هناك نظرية أخرى^(١) تذهب إلى أن الإنسان لا يتكلم مطلقاً في الوقت الواحد إلا لغة واحدة . وأن وحدة اللغة المتكلمة تستقر بكل بساطة في شعور المتكلم ، ولا عبرة بعد ذلك لما يكتشفه التحليل في هذه اللغة من عناصر أجنبية . نعم ؛ من الممكن أن تذوب لغة في أخرى ، ولكن هذا لا يمنع من أن المتكلم إذا أراد الانتقال من هذه إلى تلك وجد أمامه خطوة يجب عليه أن يخطوها ؛ ولا بد من أن تقابله لحظة يشعر فيها بأنه يترك اللغة الأولى ليتخذ الثانية . فالفرنسية لغة لاتينية والإنجليزية لغة جرمانية ، مهما كانت التأثيرات الخارجية التي آثرت عليهما ، لأننا نشعر بأننا نتكلم لغة أسلافنا ، ولأننا إذا رجعنا بالتاريخ إلى الوراء حتى نصل إلى اللاتينية المشتركة أو الجرمانية المشتركة ، وجدنا سلسلة متصلة الحلقات من الناس كان في غمهم وشعورهم أنهم يتوارثون لغة واحدة بيمينها .

هاتان نظريتان متعارضتان . فإذا أردنا أن نوفق بينهما ، نوجب علينا أن نبحث إلى أي حد نستطيع العناصر الأجنبية أن تفسد وحدة اللغة التي تضاف إليها .

* * *

لندع جانباً استعارة المفردات التي تتبادلها اللغات فيما بينها . فنحن خصائص هذه المستعارات أنها لا تحتم كون المتكلم يتكلم اللغة التي استعيرت منها أو حتى معرفته بها . وشباننا الرياضيون الذين تمتلئ لغتهم بالكلمات الإنجليزية لا يعرفون اللغة الإنجليزية حقاً حتى ولو كانوا ينطقون هذه الكلمات الإنجليزية نطقاً صحيحاً . فاستعارة المفردات ، مهما اشتد أمرها ، يمكن إذن أن تظل مسألة خارجة عن اللغة .

(١) انظر ميه : رقم ٤٢ ، مجلد ١٥ ، ص ٤٠٣ .

ولكن هناك أنواع من الاستعارة تستلزم وجود توغل داخلي بين النظامين اللغويين وهي حالات النسخ التي قدمنا لها بعض الأمثلة (انظر ص ٢٦٣) . ينتج النسخ عادة من اختلاط صورتين كلاميتين تنتمي كل واحدة منهما إلى لغة مختلفة ، وقد اختلطتا على التسكلم . وقد يقع هذا الاختلاط في كلمات أو في تراكيب ؛ ولكن السبب فيها جميعاً واحد . فالتلميذ الصغير الذي يخطئ ، فيترجم *donne-moi ma vache* (أعطني بقرتي) « بقوله *da mihi mia vacca* (وذلك برفع بقره) أو *Peirre est le roi* » « بغير هو الملك » *Petrus est regem* ، فإنه يكون متأزراً بكون كلمة *ma vache* « بقرتي » أو *le roi* « الملك » يستعملان في الفرنسية بصورة واحدة في حالتى السند إليه والسند أيا كان . وهذا عين ما يحدث عند ما يترجم السلوفاني الجملة الإيطالية *dajmi moja krava* بقوله *dammi la mia vacca* (باستعمال الرفع بدلاً من النسب) . وليس هذا ما يصح أن نسميه بالخلط بين الحالات ، ذلك الخلط الذي نبق فيه حالة الفاعل وحالة المفعول متميزتين مهما كان تركيب الجملة ، بل هو خلط الصور الكلامية حيث يرى التسكلم يتكلم الإيطالية بالسلوفانية ^(١) . وهذا ما حصل ، مع اختلاف طفيف ، للكاتب السويسري ك . ف . مير *K. F. Meyer* حين كتب *Er ist kränker als du nicht denkst* (حرفياً : « إنه أكثر مرضاً مما لا تتصور ») . فهذه الغلطة ترجع إلى أن الكاتب بتصور التفضيل في صورة سلبية على نحو ما يفعل الفرنسيون والإيطاليون عادة ؛ فهو قد جمع بين تفكير روماني وتمبير جرمانى .

هذا النوع من الخطأ واسع الانتشار . فقد ينسخ نظام الجمل ، وبذلك ينتقل ترتيب الكلمات أحياناً من بعض اللغات إلى لغات مجاورة لها . فالألمانية النمساوية مثلاً تسير على حرية كبيرة في ترتيب الكلمات ، وذلك تحت تأثير اللغات السلافية إذ تراها لا تتحجم عن وضع السند أو المفعول في رأس الجملة فتقول *Guten Morgen* « نهاراً سعيداً أتمنى لك » أو *Recht hat Er* « حق عنده » و *Gut ist's gegangen* « بخير لقد مر ذلك » ، الخ ، وذلك وفقاً لما يقال في

(١) نقلنا هذا المثال والأمثلة التالية عن شوارت رقم : ٢٠٣ ، ص ٩٠٠ .

السلافية . وقد نسمع في بوهيميا من يقول : Schwester haben wir ganz kleine « أخوات لنا صغيرات جداً » وذلك على حد قول التشيكية sestru mame malickou . وفي جنوب النمسا يتجلى تأثير السلافية في موضع النقي بوجه خاص مثل : nicht scheut er sich ihn zu verleumden « لا يستحي من أن يفتابه » ؛ وهذه ترجمة عن السلوفانية ne se sramuje gaobrekovati .

إذا تعود إنسان على الكلام بلغتين مختلفتين تعرض عن غير شعور منه لاستعمال طرق التعبير الخاصة بإحداها عند الكلام بالأخرى . ففي الغالية يعبر عن التفضيل المطلق في الصفات باستعمال iawn « حقيق » التي تقابل الكلمة الإنجليزية very ؛ ومن ثم كانت عبارة da iawn « حسن جداً » صورة من العبارة الإنجليزية very good . واستعمال الظروف التي تضاف للفعل لتمديد معناه تمدد صفة تتميز بها اللغات الجرمانية . ولكننا نجد في الأقاليم المجاورة للإنجليزية والألمانية حيث ترجع إلى تأثير هاتين اللغتين . ففي الغالية نجد عبارة cael allan صورة من to find out وعبارة dy fodi fyny صورة من to come up وعبارة torri i lawr صورة من to break down وعبارة rhoddi i fyny صورة من to give up . وفي جاثيلية اسكتلندة cuir as ترجمة حرفية لعبارة to put out وعبارة cuir air ترجمة للتركيب (to put on) ، الخ . واللاذينية Ladin وهي لهجة رومانية تتكلم في إقليم الجريزوف بسويسرا ، تقول متأثرة بالألمانية drizzer our « ينفذ » (من الألمانية : aus-richten) أو gnir « يمتلئ » (من الألمانية : vor-kommen) أو vain aint « يختبر » (من الألمانية : ein-sehen) . وهنا نجد أنفسنا قد وصلنا إلى الحدود بين المفردات والنظام الصرفي .

تبدو بعض حالات من النسخ أقرب إلى النظام الصرفي من تلك الحالات المتقدمة ، بل منها ما يؤثر في هذا النظام . فقد نشأ في بعض اللهجات المحلية البولونية المعرضة للاحتكاك بالألمانية ، نوع من الماضي غير المحدد يصاغ بمساعدة فعل الملك

حيث يقال : ja to mom sprzedané (بالفرنسية j'ai vendu « بت ») من الألمانية : ich habe verkauft وذلك بدلا من الصيغة البولونية الصحيحة sprzedatem^(١) .

يوجد في إقليم كيبوباسو Campobasso مستعمرة صربية كرواتية أقيمت من إيريا حوالى القرن الخامس عشر ، ولا تزال حتى اليوم تتكلم لهجة من نوع الاستكافيه stokavien ؛ وقد لوحظ عليهم استعمال الأداة الإيطالية فى جملة سلافية كلها : da mi kaze le pute « كى رينى الطرق » .

والسلوفانية لم تستمر من الألمانية أفعالا وظروفاً وأدوات وأسماء أعلام فحسب . بل لقد خلقت لها أداة تريف ، وكثيراً ما تستعمل المبني للمجهول على مثال الألمانية^(٢) .

ويبدو فى برتغالية منيجالور Mangalore فى الهند ميل إلى الدلالة على الملكية باستعمال S متأثرة فى هذا باللغة الإنجليزية . حيث بدأوا بقولهم governor's casa على مثال governor's house ثم قالوا governor's casa ، وهكذا أصبح فى حوزة البرتغالية دالة نسبة إنجليزية .

ونحن نعرف أنه كثيراً ما لوحظ فى لغات مختلفة أصلا ومتجاورة جغرافيا ، وجود خصائص صوتية مشتركة (انظر ص ٨١ و ٨٢) . وكذلك الحال بالنسبة للنظام الصرفى . فاستعمال مفعول الآلة استعمال المسند الذى يوجد فى الفنلندية ، قد انتشر فى اللغات الهندية الأوربية (السلافية والبلطية) التى احتكت باللغات الفنلندية^(٣) . وهذا لا يمنع من اختلاف اللغات السلافية عن اللغات الفنلندية من جهة النظام الصرفى . ومع ذلك فثل هذا النوع من الاستعارة يمس سلامة هذا النظام وما دامت الاستعارة مقصورة على عدد قليل من التراكيب أمكن اعتبارها من استعارة المفردات ؛ أما إذا صار التركيب المستعار مثالا يحتذى وفرض على

(١) كازمير نيتش Casmir Nitsch : Mova ludu polskiego كراكويا (١٩١١)

ص ١٣٦ .

(٢) فيست Feist : رقم ٢٦ ، مجلد ٣٦ ، ص ٣٢٣ .

(٣) ميه : رقم ٤ ، مجلد ١٢ ، ص ٧٦ .

العقل صورة كلامية معينة ، كانت اللغة في هذه الحال قد أدخلت في نظامها وسيلة صرفية جديدة .

وقد يصل الأمر باللغة إلى إقصاء وسيلة سابقة إقصاء تاماً . لنفرض مثلاً أن البرتغالية اتخذت التركيب *homem's casa* على طول الخط بدلا من *a casa do homem* فلن يغير هذا بطبيعة الحال من النظام الصرفي العام للغة ، لأنه لم يتغير فيه إلا محلة واحدة ، إلا قطعة واحدة دخلت عرضاً في آليته . ولكن إذا أصيب النظام الصرفي البرتغالي بعدد من هذه التغيرات ، أفلا يمكن أن يأتي وقت لا يستطيع فيه التكلم أن يحس تماماً ما إذا كان يتكلم الإنجليزية أم البرتغالية ، ولا يستطيع العالم اللغوي في هذه الحالة أن يحكم بهذا أو بذلك ؟

كان يمكننا أن نستمد من دراسة بعض اللغات المختلطة معلومات قيمة تساعدنا في الإجابة عن هذا السؤال . ومثل هذه اللغات موجودة بالفعل ، ولكنها بكل أسف توجد في ظروف تقلل من قيمة الاستشهاد بها . فقد ذكرنا مثل اللغة العجرية الأرمينية التي اتخذت نظام الأرمينية الصرفي بأكمله مع استبقائها لمفرداتها ، أى أنها الآن ليست إلا الأرمينية بمفردات عجرية . وهذا المثل يجد له ما يعضده في عجرية إنجلترا . ففي التاريخ القديم كان النجر في إنجلترا يتكلمون لغة عجرية محضة ؛ وبعد ذلك احتفظوا بمفرداتهم العجرية وأخذوا يركبونها في الجمل مستعملين دوال النسبة الإنجليزية . فمثل هذه الجملة *kowova te jal adré mi Duvel'sko keri kana merova* « أتمنى أن أذهب إلى بيت الله عندما أموت »

صارت في العجرية الحديثة ^(١) *I'dkom to jal adre mi Duvel's ker* when manbi mer's هاتان الحالتان تتطابقان ويجب أن يفسر بطريقة واحدة . ولكن غرابتهما نجعل الناظر يرتاب في كونهما اصطلاحيتين ولو جزئياً على الأقل . وقد تظننا أمام تعمية يراد بها جعل الإنجليزية والأرمينية غير مفهوميتين وذلك بالاستعاضة عن الكلمات الإنجليزية والأرمينية بكلمات عجرية وإذا صح ذلك لم يميز لنا أن نقول إن العجر قد اتخذوا النظام الصرفي للغة

(١) يشيل Pischel وينقله عنه شوخارت : رقم ٢٠٣ ، ص ٨ — ٩ .

غير لغتهم ، بل إنهم شوهوا الإنجليزية أو الأرمنية . وعندئذ يكون من المجازفة أن نخرج من هذه الحالة بنتيجة نهائية .

ولكن من خصائص اللغات المختلطة أن تكون أيضاً لغات بالية على وجه العموم وهذه الحقيقة تساعدنا على أن نفهم تكوينها فهماً دقيقاً .

تبادل التأثير الذي تخضع له اللغات المحتكة بعضها ببعض ينشأ عنه تبادل البلى . لأن حاجة الأفراد إلى إيجاد وسيلة عاجلة للتفاهم تدفعهم إلى القيام بتوضيحية مشتركة ، وذلك بأن يبعد كل فريق من لغته ما هو خاص بها وحدها وألا يبقى إلا السمات العامة التي تشاركها فيها اللغات المجاورة .

بلاد القوقاز في وقتنا الحاضر كجزيرة البلقان ميدان لاختلاط اللغات فالتترية والأرمنية والجرجية والشركسية تغمرها باللغات المتنوعة ، تلك اللغات التي يختلف بعضها عن بعض إلى حد يعجز اللغويين أحياناً عن تحديد ما بينها من قرابة . والسبب الأساسي في التغير السريع الذي يطرأ على هذه اللغات يقوم على تأثير اللغات المجاورة فيها . وهذه الحال تقدم لنا خير المثل على البلى الذي يحدثه الاحتكاك فتقابل في الجزء الجنوبي الشرق من الداغستان ، على ضفتي نهر السامور ، سلسلة من اللغات التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الكورينية . وتغمر هذه اللغات اللغتان الأرمنية والتترية شيئاً فشيئاً ، فتضيقان من مجالها تدريجياً ، وحتى في داخل الدائرة الضيقة التي تتكلم فيها هذه اللغات ، نرى هاتين اللغتين المتجاورتين قد نالتا من سلامتها ؛ وليس البلى على درجة واحدة في كل مكان ولكنه محسوس على كل حال ، ويذكر A. Dirr . — وهو خير من درس هذه المسألة (١) — أن تبسيط النظام الصرفي أظهر نتائج هذا العمل .

أكد جريم Grimm منذ ١٨١٩ أن فقدان النحو (٢) نتيجة حتمية لصراع اللغات . والواقع أن هذه النتيجة ليست حتمية . ولكننا نشاهد وقوعها في كثير

(١) Mitteilungen der Anthropol. Gesellschaft in Wien, مجلد ٣٩ ،

ص ٣٠١ ، ومجلد ٤٠ ، ص ٢٢ .

(٢) Deutsche Grammatik ص ٣٢ من المقدمة ، ص ١٧٧ .

من الأحيان . فاللغات التي تنتقل تفقد على وجه العموم خصائصها الفردية بأسرع من غيرها وذلك لأنها معرضة لتأثيرات متعددة ومتنوعة تقع عليها من لغات تختلف عنها كثيراً في غالب الأحيان . والانتقال في غالب أمره سبب في التحلل اللغوي . وهذا يفسر لنا الاختلاف المشاهد بين اللهجات الإغريقية في المستعمرات واللهجات الإغريقية في بلاد الإغريق نفسها . إذ يجب أن نضيف إلى الأسباب الوجيهة حقا التي ذكرت لتفسير هذا الاختلاف (انظر الصفحات الأخيرة من الخاتمة) تأثير اللغات غير الإغريقية التي كانت مستعملة في الأقطار التي مد الإغريق إليها نشاطهم . فيمكننا أن نسلم بأن تبسيط النظام الصرفي نسبياً وتحطيم بعض السمات الصوتية في لهجات هذه المستعمرات يرجعان إلى مجاورة تلك اللهجات للغات مختلفة ، حتى ولو لم نسلم بأن تلك اللغات قد أثرت في بنية اللهجات نفسها . ذلك أن الناس الذين كانوا يتكلمون هذه اللغات قد أخذوا يتكلمون الإغريقية ، ففرضوا على الإغريق عادات جديدة اطمأن إليها الإغريق أنفسهم بمضي الزمن ، ولا سيما وقد كانوا قليلي العدد . هذه الحالة اللغوية ساهمت بقسط وافر ، كما هو المتوقع ، في قيام لغة مشتركة .

ففي اليوم الذي تمكنت فيه اللهجات الإغريقية من أن تتخلص من بعض خصائصها الفردية المحضة تحت التأثير الخارجي ، أصبحت قادرة أن تنصهر كلها في وحدة اللغة المشتركة « *κοινή* » . ولكن ما يصح في لهجات لغة واحدة ، يصح أيضاً في تاريخ لغات مختلفة : لأن الأحداث الواحدة ورد فعلها تؤدي إلى نتائج واحدة . فإذا تنافست لغتان أو أكثر ، قام بينها في غالب الأمر نوع من التوازن الذي ينتهي بتكوين لغة مختلطة ، فتتخذ لغة مشتركة . وتوجد في في المادة لغة غالبية تتخذ قاعدة لهذا المزج ^(١) . ومع ذلك فقد يحدث أن تنشأ لغة مشتركة من مزج لغات مختلفة بنسب تكاد تكون متساوية . وهذا هو ما حدث للسبيرية *sibir* في موانئ البحر الأبيض المتوسط . ففي مزيج من الفرنسية والأسبانية والعربية . كل هذه اللغات ساهمت في تكوين السبيرية وخاصة بمزج مفرداتها . أما الخصائص لكل منها فقد زال أثرها تماماً .

(١) ١ . فنديش E. Windisch : المرجع السالف الذكر ، ص ١٠٤ و ص ١١٣ .

اللغة المسماة pidgin-english التي تعد لغة مشتركة في موانئ الشرق الأقصى واللهجة التي يطلق عليها broken-english « الإنجليزية المكسرة » التي يتكلمها سكان سيراليون الأصليون ، تعد كل منهما أيضاً لغة مختلطة كالسيرية ^(١) . وأساس الهدجن إنجلش ، اللغة الصينية التي تتميز بصفة نحوها . وما هي في حقيقة أمرها إلا اللغة الصينية بمفردات إنجليزية . فقد تمكن القائمون بهذا الأمر أن يكونوا من المفردات الإنجليزية — وهي خير ما يصلح لهذا الغرض — جملانسير في ترتيب الكلمات على مثال الجمل الصينية . وينتج من ذلك في غالب الأمر مركب عجيب يبرهن على وجود تشابه محسوس بين اللغتين . فمندنا في هذه الحالة لغة تقوم على أساس الزج ؛ ولكن خلو هذه اللغة من النحو خلواً يكاد يكون تاماً قد رشحها بصورة مجيبة للقيام بالدور الذي أنق على عاتقها .

ولغات المولدين أيضاً يمكن أن تعد أمثلة للغات المختلطة . وهي تستند على لغة أوروبية إما الفرنسية أو الأسبانية أو الإنجليزية ؛ ولكن هذه اللغات قد تجردت من خصائصها الصرفية فأصبحت في حالة تشبه حالة الغبار . فهي رمال ذهبت عنها المادة الجيرية ، واحجار لا ملاط بينها ، ومادة متحللة لا قوام لها . ذلك لأن حاجة السكان الأصليين في معاملتهم التجارية إلى التكلم مع التجار الأجانب قد دفعهم إلى تعلم اللغة الأجنبية التي حلت بمضى الزمن محل لغتهم الأصلية . ولكن هذا التعلم لم يكن كاملاً على الإطلاق : بل كان يقتصر على السمات السطحية للغة ، وعلى العبارات التي تدل على الأشياء الشائعة الاستعمال والأفعال الضرورية للحياة : أما عنصر اللغة الداخلى بما فيه من تعقيدات دقيقة ، فلم يهضمه إطلاقا المواطن الأصلى . يمكننا أن نقول إن لهذه الظاهرة عللاً اجتماعية . فكلام المولدين كلام قوم منحطين ومروسين ، لم يعمل رؤساؤهم يوماً على جعلهم يتكلمون لغة صحيحة ولم يريدوا

(١) هناك مثل من لهجة أل . pidgin - eng في Leland : (C . G .) ،
 Pidgin - english, singsong in the China — english dialect .
 الطبعة الخامسة ، (١٩٠٠) . وعن « الإنجليزية المكسرة » انظر : F. W. H. Higeod : رقم ١٣٦ ،
 وعن عربية مدغشقر انظر G. Ferrand ، رقم ٦ ، مجلد ١٣ ، ص ٤١٣ .

أن يملوا ذلك إطلاقاً . فتمتبر لغاتهم من اللغات الخاصة إلى حد ما ، على النحو الذى كانت عليه اللغات النجيرية الآففة الذكر ، ولكن مع اختلاف الأسباب ، ولكن يبقى أن لغات المولدين تعتبر لغات مختلطة كالسيرية واليدجن أنجلش والإنجليزية « المكسرة » ، وقد نتجت من اختلاط لغتين أو أكثر ، ولما كانت خالية من نظام صرفى مميز لها ، لم يكن فى وسع واحدة من اللغات الداخلة فى تكوينها أن تدعيها لنفسها . فهذا مثل حقيقى من الخلاسية اللغوية . وسنرى النتائج التى تنجم عنها فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

القراءة اللغوية

والمنهج المقارن^(١)

استعمال عبارة « القرابة » في مسائل اللغة يؤدي إلى لبس كبير ، وكثيراً ما أوقع في الخطأ أشخاصاً من غير العارفين بالأمور اللغوية . بل أخطر من ذلك أن بعض علماء اللغات أنفسهم قد أخذوا أحياناً هذا التعبير المجازي على علاقته وراحوا يضعون القوائم بأنساب اللغات على طريقة أوزييه Hozier . وظن بعضهم منذ ذلك الحين أنه في حلّ من القول بأن اللاتينية قد ولدت الفرنسية أو الإيطالية ، ومن الكلام عن اللغات الأمهات واللغات البنات واللغات الأخوات . وكلها مصطلحات سيئة لأنها تعطي فكرة زائفة عن علاقة اللغات بعضها ببعض . إذ لا شيء من الشبه بين قرابة اللغات وبين التابع أو التوالد بالمعنى الفسيولوجي لهذه المصطلحات .

لا يتأتى لإحدى اللغات أن تلد لغة أخرى ؛ وليس في وسع أى عالم لغوى أن يحدّد الساعة التى وقع فيها هذا الميلاد . فإذا قلنا إن الفرنسية قد خرجت من اللاتينية ، فمضى ذلك أن الفرنسية هى الصورة التى صارت إليها اللاتينية خلال المصور فى إقليم من الأقاليم . وإذن فليست الفرنسية فى كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها . وكلما أوغلنا فى تاريخ اللغة الفرنسية ، وجدنا حالات متنوعة يتلو بعضها بعضها وتقرّبنا شيئاً فشيئاً من اللغة اللاتينية . ومع ذلك فن الحال أن نعين الحد الذى تنتهى عنده اللاتينية وتبدأ الفرنسية . وتاريخ اللغة الفرنسية

(١) انظر فيه : Le problème de la parenté des langues (رقم ٤٢ ، مجلد ١٥ (١٩١٤)) ص ٤٠٣ ؛ ومؤلفات شوخارت المذكورة فى الفصل السابق .

مشحون بالفترات ؛ فهناك فترات لا نعرف عنها إلا القليل ، وكانت ذات أثر حاسم في تكوين هذه اللغة . ومن جهة أخرى لم تكن الحركة التي ابتعدت بالفرنسية عن اللاتينية متماثلة الأجزاء ، ومع ذلك فبين اللاتينية والفرنسية ، رغم تنوع الأحوال التي تقلبت على الفرنسية ، استمرار تاريخي هو الذي يكون القرابة بين اللغتين . وهذا هو الوجه الأول من وجهي المسألة ، ويمكننا أن نسميه بالتتابع .

وهناك وجه آخر يجب أن يُحسب حسابه ، وهو الوجه الوضعي synchronisme . يمكننا بسهولة بناء على ما قلناه في الانفصال الطبيعي لإحدى اللغات ، أن نطلق مصطلح القرابة اللغوية أيضاً على لهجتين خارجيتين من لغة واحدة . فقد يحدث في بعض الناطق أن تنقسم لغة من اللغات ، التي يتكلمها أصحابها في صورة واحدة لا اختلاف فيها ، إلى عدد من مجاميع اللهجات تتميز كل منها ببعض الخصائص التي تمتد إلى عدد ما من المجاميع المجاورة . عندئذ يقال بأن هذه المجاميع ترتبط بصلة القرابة ، وتظل كذلك مهما كانت التغيرات التي تصيب كل واحدة منها . ومهما عظم البون بين اللغة المشتركة البدئية وبين اللهجات التي خلقها الانقسام ، فإنه يجب التسليم بوجود القرابة ما دامت ثابتة تاريخياً .

ولا ينبغي لنا أن ندخل في حسابنا هنا تلك الفوارق التي تفرضها الحالة السياسية أو الاجتماعية على اللغة : فالقرابة اللغوية تضم دون أي تمييز اللهجات التي نزلت إلى طبقة اللغات المحلية أو الرطانات أو العاميات الخاصة بأرباب الصناعات وتلك اللهجات التي ارتفعت إلى مصاف اللغات المشتركة . فالبيكاردية والبواتية والنورماندية كلها قريبة بعضها من بعض ، وقرينة أيضاً للفرنسية ، لهجة الإيل دي فرانس التي صارت لغة مشتركة لأقاليم مترامية الأطراف . وإذا كان من يتصدى لتأريخ اللغة الفرنسية يهتم بتمييز جميع الفروع التي تنطوي عليها هذه اللغة ، فإن من حق من يريد أن يشمل تطور اللغة بنظرة عامة أن يعتبرها وحدة متحركة خلال العصور التي مرت بها . والواقع أن التغيرات التي أصابت اللغة

ترجع في معظمها إلى تطورها الذاتي . أما تفتت اللهجات وتكوين اللغة المشتركة وامتدادها إلى اللغات المحلية حتى تتوغل فيها شيئاً فشيئاً ، ذلك العمل الواسع الذي أجزلنا تاريخه فيما تقدم ، فكل هذا قد وقع داخل اللغة الفرنسية نفسها . دون أن يقلق إطلاقاً صلات القرابة التي بين لهجاتها^(١) .

ومع ذلك فالقرابة درجات . فالبروقنسية le provençal مثلا لغة مشتركة تضم عدداً كبيراً من اللهجات المحلية التي تسير معها جنباً إلى جنب . ونحن نعرف أن هذه البروقنسية نشأت من توحد لهجات محلية ، وهذه اللهجات نفسها خارجة من المصدر نفسه الذي خرجت منه لهجات شمال فرنسا ، أي أنها هي الأخرى من اللاتينية . فما لا يحتاج إلى بيان إذن أن تكون صلة القرابة بين اللهجات البروقنسية المحلية بعضها وبعض أوثق من القرابة التي تجمع بين أية واحدة من هذه اللهجات نفسها وبين إحدى اللهجات الفرنسية المحلية . ذلك لأن الفرنسية والبروقنسية مجتمعان في طور بعينه من أطوار اللغة يعد سابقاً عليهما . فهما حالتان مختلفتان من لغة واحدة ، وقد ظلتا على اختلافهما في خلال العصور ، وهذه اللغة الواحدة يمكننا أن نسميها لاتينية الجول العامية . وإن كانت التسمية لا تمنينا كثيراً . ومعنى ذلك أننا إذا أردنا تحقيق القرابة بين اللغتين ، اضطررنا إلى أن نؤلف بين الوجهين اللذين أشرنا إليهما فيما تقدم : الوجه التابعي والوجه الوضعي .

ولكن هذا التأليف قد يمتد بنا إلى ما وراء ذلك ؛ قد يتسع في الزمان والمكان حتى يشمل جميع اللغات الرومانية الصادرة عن اللاتينية أيضاً . فاللغة التي سميناها لاتينية الجول العامية ليست إلا صورة خاصة قد لا تختلف إلا قليلاً عن اللاتينية العامية العامة التي أخرجت الإيطالية في إيطاليا والإسبانية في أسبانيا والبرتغالية في البرتغال والرومانية في رومانيا ولغات أخرى أقل أهمية من هذه اللغات . كل هذه اللغات تعتبر لغات مشتركة صقلتها التقاليد الأدبية ، وعملت

(١) انظر ميرلوبك Meyer Lübke رقم ١٨١ ؛ وبورسييه Bourciez رقم ٥١ .

وتسورنر Zauner : رقم ٢٢٤ .

الظروف السياسية على بقائها وتعميمها وكل منها تضم عدداً كبيراً من اللهجات وفروعها . وقراءة هذه اللهجات جميعاً بعضها ببعض (بنفس النظر عن اختلاف اللغات المشتركة) وقراءة اللهجات المحلية كلتاها على درجات كثيرة . إذ أن بعضها لا يزال أكثر اقتراباً من البعض الآخر ، لأن اختلاف كل منها عن صواحبتها لم يتحقق إلا منذ عهد قريب . ولكن فريقاً منها ، قد انفصلت لهجاته منذ عهد بعيد ، فلم يبق بينها تشابه كبير : وذلك كما لو قارنا رطانة برتغالية برطانة رومانية مثلاً . ويقوم التباعد على وقوع تطورات مستقلة ، وذلك بنفس النظر عن التأثيرات الخارجية التي لا نتكلم عنها الآن ؛ ومع ذلك فليست البرتغالية والرومانية في نظر العالم اللغوي إلا صورتين من لغة واحدة هي اللاتينية .

ونحن نعرف هذه اللاتينية . فيجوز لنا إذن أن نقدر الطريق التي قطعته حتى وصلت إلى اللغات الرومانية المستعملة اليوم ، وأن نحدد درجات القرابة على ضوء التغيرات التي وقعت وعلى أهمية كل منها . ولسنا في حاجة إلى بيان المونة الهامة التي تقدمها للباحثين في هذه اللغات معرفتهم بالتاريخ السياسي والاجتماعي . فهي رقابة دائمة ووسيلة قيمة لتحديد التاريخ الدقيق لكل قلب من التقلبات التي مرت بها الشعوب واللغات في آن واحد . ولكن الوثائق التي في متناول يدنا تقف عند اللاتينية : فلسنا نعرف شيئاً عن حالات اللاتينية السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد أو حوالى ذلك التاريخ . وبهذا نفقد خير وسيلة للتحديد وخير ضمان نستند عليه في تحقيق قرابات تقوم على ظروف اللغة والتاريخ معاً .

ومع ذلك ففي وسعنا أن نرقى في بحثنا إلى ما قبل اللاتينية بفضل النهج المقارن الذي يجب علينا الآن أن نحدد مداه^(١) .

ليس النهج المقارن إلا امتداداً للنهج التاريخي في أعماق الماضي السحيق .

(١) انظر ميه Sur la méthode de la grammaire Comparee رقم ١ ، ١٩١٣

م ١ — ١٥ . والنتائج الأساسية يعرضها بوضوح برتسكي Porzezinski رقم ١٩٢

م ٣٩ — ٨٠ .

وينحصر في نقل منهج التفكير الذى يطلق على المهود التاريخية إلى عهد لانك
عنها آية وثيقة .

رأينا أن اللغات الرومانية الحالية إنما نتجت من تطور اللهجات الخارجة من
اللاتينية تطوراً مستقلاً وإن كان متوازياً . وتقوم وحدة اللغات الرومانية على
مجموعة من السمات المشتركة بين كل هذه اللغات ؛ ومن هذه السمات نعرف قرابتها .
ومعظم هذه السمات كانت توجد في اللاتينية نفسها على اختلاف بينها في درجة
الظهور ؛ وبمضها نأتج من حالات تجديد مشتركة ، ولكن هذه السمات التى
نعثر عليها في كل اللغات الرومانية يمكن إذا لم يوجد لها نظائر في اللاتينية نفسها
— أن تعتبر بقايا من تلك الحالة اللغوية غير المعروفة لنا تماماً والتى تسمى باللاتينية
العامة ، وهى الواسطة بين اللاتينية الكلاسية واللهجات الرومانية . فهناك إذن
نحو مقارن للغات الرومانية . وهذا النحو لا يمكننا من إقامة صلات مباشرة من
التابع بين هذه اللغات وبين اللاتينية فحسب ، بل يسمح لنا أيضاً بإقامة البنية
النحوية لحالة لغوية تقل الوثائق التى لدينا عنها أو تنعدم تماماً .

ولكن اللاتينية نفسها ليست لغة منعزلة لا رابطة بينها وبين لغات أخرى .
بل يحتوى نحوها على سمات مشتركة بينها وبين الإغريقية ، سمات لفتت أنظار
القداى أنفسهم . وأدرك المحدثون أن الإغريقية واللاتينية تتصل بمجاميع أخرى
من اللغات تشمل أراضى واسعة وتمتد من السنسكريتية في الهند إلى أقصى طرف
في أوروبا الغربية . وأطلقوا على هذه اللغات اسم اللغات الهندية الأوروبية لما لم
يجدوا لها اسماً آخر . وبالطبع يجب أن تفهم هذه « اللغات » بالمعنى الذى أعطيناه
لهذه الكلمة فيما سبق : فهى مجموعات لغوية أمكن لكل منها أن تصل في فترة
من فترات التاريخ إلى نوع من الوحدة ، ولكنها جميعاً قد انقسمت وتباينت
خلال المصور على النحو الذى أشرنا إليه .

تمكن العلماء بمجمهم للسمات المشتركة بين هذه اللغات أن يكتووا ما يسمى

بالنحو المقارن للغات الهندية الأوربية^(١) . ذلك النحو الذى يُضم إلى سلسلة طويلة من أنحاء مقارنة أضيق منه دائرة ، ونمى نحو اللغات الرومانية المقارن ، ونحو اللغات السلافية المقارن ونحو اللغات الجرمانية المقارن ، إلخ . وينتهى كل واحد من هذه الأنحاء المقارنة إلى إعادة تكوين حالة لنوية في صورة إجمالية غالباً . وهذه الحالات اللغوية البعوتة التى تسمى بالجرمانية المشتركة^(٢) والسلافية المشتركة مثلاً ، وكل منها تعتبر في منطقتها نظيرة اللاتينية العامية (أو الرومانية المشتركة) التى انتهت إليها نحو اللغات الرومانية المقارن . وعلماء اللغات الرومانية يجدون في بقاء اللاتينية سنادة قوية يعتمدون عليها في استنباط نتائجهم ؛ لذلك يحق لعلماء اللغات الجرمانية والسلافية أن يندبوا سوء حظهم لعدم وجود وثائق من الجرمانية المشتركة . أو السلافية المشتركة يقابلون بها نتائج بحثهم . ولكن ينبغى لنا ألا نبالغ في فقر العالم اللغوى الجرمانى أو السلافى بالنسبة للعالم الرومانى . فهذا الأخير لا يرجع إلى اللاتينية إلا للثبوت من نتيجة وصل إليها ؛ ولكنه يقيم فروضه دون رجوع إليها ، وأحياناً يبره أن يبين بالبرهان أنه على حق في استنتاجه رغم معارضة اللاتينية الكلاسيكية الموجودة في النصوص . أما اللاتينية نفسها فلا يستعملها علماء اللغات الرومانية إلا للاستعانة بها على إعادة بناء هذه اللاتينية العامية التى تمد نقطة البدء في عملهم ونقطة الانتهاء أيضاً .

ولما كان علماء اللغة الذين يعمدون بناء الهندية الأوربية لا يشتغلون بوجه عام إلا في لغات مشتركة أعيد بناؤها بطريق الفرض أيضاً ، كانوا مضطرين إلى إبراز عمل أكثر إجمالاً من عمل سابقهم . فالهندية الأوربية التى عملها علماء اللغات ليست لها حقيقة واقعية : بل ليست كما قيل فيها إلا « نظاماً من المقابلات » .

(١) انظر خاصة برجمان Brugmann ودلبروك Delbrück ، رقم ١٥٠ ، ومبيه رقم ٩٤ . ومؤسس النحو المقارن في اللغات الهندية الأوربية العالم الألمانى فرنستس بوب Franz Bopp ، رقم ١٤٥ . ومن بعده شليشر رقم ١٩٥ . وانظر أيضاً : دى سوسير F. de Saussure ، رقم ١٢١ ؛ وهيرت Hirt ، رقم ١٦٦ ، ١٦٧ ؛ وبتل Bechtel ، رقم ١٤٣ ؛ وهيشمان Hübschmann ، رقم ١٧١ ، وشريدن Schrader ، رقم ٢٠٠ ، ٢٠١ ، وفيتس رقم ١٥٨ و ١٥٩ .

(٢) ف . كلوج F. Kluge : رقم ١٧٤ .

ويترتب على ذلك أن أعلم العلماء بالهندية الأوروبية لا يستطيع أن يعبر بها عن جملة بسيطة من قبيل « الحصان يجري » أو « البيت كبير » . وأقصى ما يصل إليه في الحذق بها ينحصر في قواعد البنية النحوية : فلا يوجد إذن من يستطيع أن يتكلم الهندية الأوروبية . ولكن على العالم اللغوى أن يعرف ما هي فصائل هذه اللغة وكيف كانت تدعى عنها ، وماذا كانت قيمة اللواحق والخواتم فيها .

وهذا هو المهم لأنه يسمح لنا بإقامة الروابط التاريخية التي تجمع هذه اللغات بعضها ببعض على وسائل لغوية . فمع أن المنهج المقارن يولى وجهه شطر الماضى السحيق ، فإنه في الواقع لا يؤتى ثمرته إلا في اتجاه عكسى ، لأنه يوضح تفاصيل اللغات الثابتة بالوثائق . وأظهر نتيجة لنحو اللغات الهندية الأوروبية المتعارن تنحصر في تحديد صلات القرابة بين هذه اللغات^(١) . فكل اللغات الفارسية واللغات السلافية والجرمانية والرومانية والكلتية ، إذا اعتبرت من الوجهة الزمنية ، تبدو للعالم اللغوى نتيجة لسلسلة متتابعة من التباين لحالة لغوية واحدة سابقة عليها جميعا ، وتسمى بالهندية الأوروبية .

هل يمكننا أن نرجع بالتاريخ إلى أبعد من هذا ؟ لا شئ ، يمنع من الاعتقاد في إمكان ذلك . بل إن بعض علماء اللغة المحدثين مقتنع به تمام الاقتناع . ونحن نعرف كيف تكون نحو اللغات الهندية الأوروبية المقارن بضمه إلى عدة اتجاه مقارنة أخرى . وإذن فإننا إذا تأخرنا على تفتيش تاريخ اللغات واستخراج القواعد العامة التي تبني عليها ، فقد نصل إلى أن نعيد بناء لغات مشتركة أخرى تكون بالنسبة للهندية الأوروبية كالسلافية المشتركة بالنسبة للجرمانية المشتركة أو اللاتينية بالنسبة للأغريقية ، أو كالفرنسية بالنسبة للإيطالية إذا لم نرد التوغل في الماضى .

لوحظ منذ زمن طويل وجود بعض مواضع من الشبه بين الهندية الأوروبية والفينية الأجرية . وقد وجدت في ميدان السامية - حيث قطع البحث المقارن

(١) عن اللغات الهندية الأوروبية الجديدة التي اكتشفت بعض وثائقها في أوائل القرن الحالى في آسيا الوسطى ، انظر ناصة : ميه وسيلفان ليشي ، رقم ٥ ، (١٩١٠ - ١٩١٣) ورقم ٦ مجلد ١٧ و ١٨ ؛ وجوتير : رقم ٥ (١٩١١) . ورقم ٧٢ مكرر . وترى عرضا لمجموع النتائج كتبه ميه في مجلة : Revue du Mois ، أغسطس عام ١٩١٢ .

مرحلة لا بأس بها — بعض سمات خاصة فيها وجوه شبه غربية بالهندية الأوروبية؛ حتى استنتج بعض اللغويين من ذلك إمكان وجود أسرة لغوية تضم اللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية^(١). فتكون كل منهما تمثل مجموعة لغوية واحدة؛ وتكون الفرنسية في حقيقة أمرها هي العربية أو الحبشية كما ثبت بالبرهان أنها هي نفس الروسية والفارسية والإرلندية. ولا ينبغي أن تثني عن هذه المحاولة تلك الخلافات الصارخة الموجودة بين هذه اللغات؛ لأنه إن كان في افتراض أسرة هندية أوروبية سامية شيء من الجراءة، فليس مبعث هذه الجراءة أن ذلك الفرض يرجع إلى أصل واحد لغات مختلفة تمام الاختلاف. فالحقيقة الواقعة أن السامية تظهر منذ الآن أقرب إلى الهندية الأوروبية من سائر الجوامع اللغوية التي حددت معالمها حتى الآن. أفيمكن لهذه بدورها أن تتداخل شيئاً فشيئاً حتى تصهر في وحدات واسمة يضاف بعضها إلى بعض^(٢)؟ إن هذا السر في ضمير المستقبل؛ إذ أن هناك عدداً كبيراً من اللغات التي لم يطبق عليها المنهج المقارن بعد أو التي لم يقل فيها كلمته الأخيرة.

* * *

من ذلك نرى مقدار المدى الذي يستطيع المنهج المقارن أن يصل إليه، ولكننا نرى أيضاً مقدار النقص الذي ينطوي عليه. فهو يستند على مبادئ لغوية تحسب، ولا يستطيع أن ينتظر من العلوم المجاورة إلا معونة ضئيلة. إذ يجب علينا أن نحذر الخلط بين القرابة اللغوية كما نستخرجها من المنهج المقارن، وبين القرابة الجنسية وقرابة المدنية. فهذه ثلاثة مذاهب من الدراسة مختلفة.

يشتغل في ميدان ما قبل التاريخ ثلاث طوائف من العلماء، وكل طائفة منها تعمل مستقلة عن الآخرين. وهؤلاء هم: علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار وعلماء اللغة. فالأولون تحت يدهم المياكل العظمية والججم؛ وأصحاب الطائفة

(١) هيرمان مولر: رقم ١٨٤ وكتابه Indo - europaeisk - semitisk

Sammenlignende Glossarium م كوينهاجن (١٩٠٩)؛ ويدرسن: رقم ٣٠،

مجلد ٢٢ ص ٣٤١؛ كوني: رقم ١٣.

(٢) ترومبتي Trombetti رقم ٢٢٨.

الثانية أمامهم أدوات الحضارة من حلى وأسلحة وآنية وآلات متنوعة في أشكالها ومواد صنعها ، وبالاختصار كل ما بقى من عدد ما قبل التاريخ وعتاده ؛ أما اللغويون فيشتغلون بمقارنة الأصوات والكلمات . والطوائف الثلاث جميعاً يعنون بجمع الأشياء التى يشتغلون فيها جمعاً منهجياً . وترتب كل طائفة أشياءها فى سلاسل تحاول إن استطاعت أن تقيم بينها روابط تاريخية أو نسبية . ولكنهم لم يصلوا حتى الآن إلى شىء يذكر فى التنسيق بين سلاسلهم وسلاسل أصحابهم . فليس هناك مقياس مشترك .

يقدم لنا النحوي المقارن نظاماً تصنف فيه اللغات فى أسرات تبعاً لخصائصها . فبمقارنة الأصوات والصيغ تتجلى ظروف التجديد الخاصة بكل لغة فى مقابلة البقايا الباقية من حالة قديمة . وقد نجح اللغويون فى أن يحددوا ما قبل تاريخ اللغات الهندية الأوربية ، ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة من كانوا يتكلمونها . ولم يستطيعوا أن يحددوا أسلاف الإغريق أو الجرمان أو اللاتينيين أو السكتيين . وإنما يعرفون فقط التغيرات التى مرت بها الجرمانية والإغريقية واللاتينية والسكتية حتى وصلت إلى الحالة التى تكشف عنها النصوص . أما الأسماء التى أطلقوها على اللغات التى أعادوا بناءها فتحكمية ، قد اتفقوا عليها مجرد اتفاق . فكلمة « الهندية الأوربية » إذا خرجت من الاستعمال اللغوى لم يبق لها أى معنى ، ومثلها الكلمات « إيطالية مشتركة » و « كلتية مشتركة » و « جرمانية مشتركة » . فهذه الكلمات إنما تمثل دلالات لغوية ، ولا معنى لها إلا فى ذهن العالم اللغوى .

كذلك المصطلحات التى يستعملها علماء الآثار لا يصح لها أن تخرج من ميدان علم الآثار . فالعالم الأثرى الذى يكون مجموعة من الزهريات أو من الحراب ذات الطابع المعين ويحدد منطقتها الجغرافية ، يحار كيف يجب إذا ما سئل عن اسم المدينة التى تنسب إليها . فالعدد أشياء عديمة النسب ، عديمة النسب إلى حد اضطر العلماء إلى الاصطلاح على تسميتها باسم المكان الذى يكشف عنها فيه . وعلماء الآثار يتكلمون عن دلاء هلشقات أو عن حراب التين أو عن الخزاف القلائقية أو عن اثاث أونيتس . كذلك يتكلم علماء الأتروولوجيا عن الإنسان النياندرتالى

أو جمجمة الشايل — أو — سان . ويقارنون في شوب الأرض المختلفة بين ذوى
الجمجم المستطيلة وذى الجمجم المستديرة دون أن يستطيعوا تعيين اللغة التى تقابل
كل قسم من أقسامهم الأتروبولوجية .

ذلك لأن وجود الجمجمة بين يدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئاً عما كانت
تحتويه فى صندوقها العظمى ولا عن أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار التى
كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التى كانت تنشأ فى مراكزها
الحية . وقد قلنا فيما تقدم (ص ٢٩٧) أن تحقيق الرابطة بين اللغة والجنس أمر
مستحيل . كذلك لا يمكننا أن نعرف أى الأدوات كانت تستخدم لدى الشعوب
التي نعرف لغتها ، ولا إلى أى حد توجد صلة بين مختلف اللغات ومختلف الدنيات .
فالذى نعلمه علم اليقين وقامت على صحته البراهين شيء واحد فقط : هو أن اللغة
الواحدة قد تتكلمها أجناس متباينة ، وأن من الأقوام من يتكلمون لغات مختلفة
ويستعملون جميعاً أدوات واحدة . كما أن أى تقدم يحصل فى ميدان العدد لا يبنى
مقصوراً على شعب واحد ؛ حتى ليستحيل علينا حساب الحركات الجنسية بأوروبا
فما قبل التاريخ وفقاً لتتابع المصنوع الأثرية (العصر الحجري وعصر البرنز
وعصر الحديد) . فلم تكدر المطبعة تخرج من يد المخترع حتى انتشرت فى أقطار
مختلفة الأجناس واللغات كالألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وإذن فليس التوفيق بين
النتائج التى تقدمها فروع العلم الثلاثة التى تكلمنا عليها أمراً عسيراً من الوجهة
العملية فحسب ، بل يعد أمراً مستحيلاً من الوجهة النظرية أيضاً . فالقراءة اللغوية
لا تستطيع أن تمول على عون يذكر من قبل علم الآثار أو علم الأتروبولوجيا .
وكل ما يستطيع أن يعلقه العالم اللغوى على فروع العلم المجاورة من أمل هو أن
تمده بفرض يسير على هديه أو بوسيلة للتأكد من صحة بحوثه . وليس أمامه
للبرهان على القراءة إلا الوسائل اللغوية .

ولكن النهج المقارن إذا ترك لوسائله الخاصة ، صار أحياناً عديم الجدوى .
لأنه يفترض أن تطور اللغات قد وقع بصورة مطردة متصلة لم يصعب عارض خارجي .
ومع أنه امتداد للتاريخ ، فإنه يتحدى التاريخ ، إذ لا يستخدم إلا مقررات نظرية

ويتخذ من التاريخ صورة مبسطة تنحصر في سلسلة متتابعة مطردة من الأسباب والسيئات عاطلة من كل ما يخلع على التاريخ طابعه الحقيقي ، وهو التمدد والتنوع . وقد يكون هذا النهج مدفوعاً إلى ذلك بضرورة حتمية ، لأنه في جهله بالظروف السياسية والاجتماعية التي فيها تطورت اللغة ، يبنى ما قبل تاريخها بوسائل لغوية . وهو في هذا الميدان يشعر بقوته ، لأن التجربة قد دلت على اتصال الرواية اللغوية . ولكن عدم وجود مقررات محددة عن ظروف التطور التاريخي يضيف كثيراً من النتائج التي نحصل عليها بواسطة النهج المقارن والخاصة بتحديد القرابة اللغوية . وهذا هو ما اضطرنا إلى تحديد هذه القرابة بواسطة وجوه الشبه الموجودة في اللغات . وتلك طريقة خطيرة . فقد يوجد في الطبيعة أحياناً أقرباء يشبه بعضهم بعضاً إلى حد يعجزنا عن التفريق بين الواحد منهم والآخر . ولكن التماثلين ليسوا جميعاً من الأقرباء ، وكذلك الحال في المسائل اللغوية ؛ فكثيراً ما تكون وجوه الشبه من عوامل الخداع .

وهي كذلك بنوع خاص في ميدان المفردات . فلم الاشتقاق يعلمنا أننا قد نجد في اللغات التي نعرف تاريخها كلمات متقاربة الصيغة أو متحدتها وتدل على معنى واحد دون أن يكون بينها أية صلة من الوجهة التاريخية . ومن الأمثلة التي تذكر عادة في التمثيل لهذه الظاهرة كلمة *bad* (باد) التي معناها « ردى » في الإنجليزية وفي الفارسية ، دون أن يكون بين الكلمتين أية صلة تاريخية . ويمكننا أن نضيف إلى هذا المثال الكلمة الألمانية *Feuer* « نار » التي لا شيء يربطها ، من حيث الأصل ، بالكلمة الفرنسية *feu* التي لها نفس المعنى . كذلك لا يوجد إلا شبه خارجي عارض بين الكلمة الإنجليزية *whole* والكلمة الإغريقية *ὅλος* « كل » ، جميع ؛ وكذلك الحال بين الكلمة اللاتينية *femina* والسكسونية القديمة *fēmea* ، بنفس المعنى ؛ وبين اللاتينية *locus* والسكسكربتية *lokas* « عالم » ؛ وبين الكلمة الإغريقية الحديثة *μάτι* « عين » والكلمة البولندية *mata* (« يرى » ، الخ . والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصر .

يمكن للمفردات بنهاها أن تتغير ، دون أن يغير ذلك من بنية اللغة الصوتية أو

النحوية تغييراً محسوساً . ومن المهم جداً أن نعرف مفردات اللغة التي تريد دراسة المدينة التي تمثلها وبذلك تكون المفردات جسراً بين اللغة وعلم الآثار . ولكن هذا الجسر يؤدي من كلتا ناحيتيه إلى طريق مغلق . لأننا لا نستطيع أن نستدل من المفردات على طابع اللغة ، حتى ولا على الطابع الذي تنضوي تحته أدوات المدينة . ولنذكر المثل التالي من اللغات الهندية الأوروبية التي نحن بصددّها : نحن نعرف في غرب أوروبا وجنوبها نوعين كبيرين من المفردات يرجعان إلى ما قبل التاريخ ، لكن الخطوط التي تفصل بينهما لا تطابق الخطوط التي تفصل بين اللهجات . واحد هذين النوعين — ويسمى بالمفردات الغربية — يمتد في الميدان الإيطالي والكلتي والجرماني ويختلط في الميدان البلطي السلافي ، ولا سيما في بلاد البلطيق ، بمفردات شرقية بمحة ؛ والثاني — ويسمى بمفردات البحر المتوسط — يمكن العثور عليه في الإغريقية على وجه الخصوص ، ولكنه اصطدم بالمفردات الغربية وحل محلها جزئياً في أهم لهجة من اللهجات الإيطالية ، وهي اللاتينية . لذلك نجد في الكلتيّة والجرمانية وفي الإيطالية إلى حد ما عدداً كبيراً من الكلمات المشتركة . ولكن هذه اللغات الثلاث تختلف في درجة القرابة بينها من وجهة البنية النحوية . فالصلة الصرفية ^(١) وثيقة بين الكلتيّة والإيطالية ، وثيقة إلى حد دفع بعض اللغويين إلى القول بوحدة إيطالية كلتيّة . أما الجرمانية فتختلف بنيتها النحوية عما في الكلتيّة اختلافاً شديداً ؛ وإذا كانت تقرب من الإيطالية في بعض الوجوه ، فإنها أيضاً تقرب من السلافية البلطية في وجوه أخرى . وقصارى القول أن الروابط الصرفية بين هذه اللغات لا تتفق مع الروابط التي بين مفرداتها .

وهذا القول يسرى أيضاً على الرباط الصوتية ، بل قد يبدو غريباً أن ندخل الصوتيات في هذا المضمار . لأن التغيرات الصوتية تقع ، على ما يبدو ، بطريقة آلية مستقلة عن إرادة التشكلم ، بل وعلى غير شعور منه ، ولكنها أيضاً تقع باضطراب حدود من حيث البدأ وتنوع محير في نتائجها ، إلى حد يجعل من السير علينا أن نجد فيها خصائص لنوع معين من اللغات . يضاف إلى ذلك أنه لما كان الإطلاق

(١) انظر دوتان Dottin : رقم ٦٨ ، وهرت : رقم ١٦٧ ، وفست : رقم ١٥٩ .

من أظهر خصائص التغيرات الصوتية ، لم يكن في إمكاننا هنا أن نقسم الصيغ إلى ضميعة وقوية كما هي الحال في النظام الصرفي ؛ والصيغ القوية كما نعلم شهود عدول على حالات قديمة قد تغيرت . فهذه البقايا هي التي نعلم عن أصول النظام الصرفي وتسمح لنا بمعرفة روابط القربى . ولكن النظام الصوتي لا يدع بقايا ، ولذا لا يعرفنا بشيء من هذا القبيل .

ولا يكون الدارس في منأى من المصاعب حتى عند ما يقصر دراسته على الظواهر الصرفية . لأن النظام الصرفي أيضاً ينطوى على حالات من اللبس . لأن الدارس عندما يقيم القرابة على وجوه الشبه في البنية النحوية ، يفترض أن هذه البنية تتغير بصورة مطردة مستمرة . ولكن ما الذى يضمن لنا هذا الاستمرار ؟ نحن نعرف مقدار المؤثرات الخارجية التي يتعرض لها النظام الصرفي . فإذا لم تصب هذه المؤثرات إلا الأجزاء الثانوية والسطحية من النظام ، بقى لنا عدد كاف من السمات المميزة التي تسمح لنا بتحديد القرابة . ولكن يمكننا أن نتصور حالة قصوى تصل فيها اللغة بعد أن يتكرر التأثير عليها ، إلى أن يتركب فيها بدرجة متساوية مزيج صرفي من أمرتين متقاربتين . وهذه هي نفس الحالة التي تخيلناها من قبل وأطلقنا عليها اسم الخلاسية ، وهي حالة شديدة الندرة . ونحن نعرف من ميدان التاريخ الطبيعي ، وإن كانت ظروفه مختلفة جداً عن ظروفنا ، مقدار الصعوبة التي يلاقيها العالم في تصنيف مادته إلى أسرات بسبب الخلاسية التي تعمل دون توقف على كسر النظام والوحدة . ففي حالة الخلاسية اللغوية يفسر النظام الصرفي مناساً غير ذي جدوى .

كذلك يصبح هذا المقياس غير ناجع إذا كانت التغيرات الصرفية قد وقعت بسرعة خاطفة ، أو إذا كانت الحالات التي نعرفها منها يفصل بعضها عن بعض آماد بعيدة حتى أصبحت اللتان اللتان تتسبب إليهما هذه الحالات لا تشتركان في شيء من الوجهة الصرفية وإن كانتا ترجمان إلى أصل واحد . فلو أننا لا نعرف من الفرنسية إلا الحالة التي عليها اللغة المتكلمة في صورتها الحاضرة ، وكنا فضلاً

عن ذلك نجهل اللغات الرومانية الأخرى واللاتينية ، لكان من الصعب علينا أن ندلل على أن الفرنسية لغة هندية أوروبية : لأنه لم يبق في الفرنسية من الهندية الأوروبية إلا بعض تفاصيل من البنية مثل المقابلة il est « هو يكون » Ils sont « هم يكونون » (في النطق il é, ison) أو مثل — ولعل ذلك أدل — صيغ أسماء العدد أو الضائر الشخصية ، مع بعض المفردات كأسماء القراية . هذا كل ما بقى في الفرنسية من الهندية الأوروبية . ومن يدري لعلنا نجد فيها أدلة أقوى من تلك تبعث على وصلها بالسامية أو الفينية الأجرية .

وقد يوجد فوق سطح المعمورة لغات هندية أوروبية لا نعرفها ، إذ أنها فقدت كل قرينة تشير إلى أصلها ، وذلك لأنها لا تاريخ لها ، ولأن استعمالها مقصور على أقوام أميين . فإذا ما طبقنا عليها الطريقة الصحيحة لم نستطع الاستدلال على قرابتها للأغريقية أو اللاتينية أو السنسكريتية . ولكن هذه الطريقة تفرض علينا أيضاً أن نقول باستحالة البرهان على عدم وجود قرابة ما بين لتين من اللغات .

ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك . وذلك أننا إذا أردنا استخدام النظام الصرفي في الاستدلال على القرابة اللهجية ، وجب أن يكون هذا النظام متميزاً قاطعاً في الدلالة وإلا فقد يستحيل الاستدلال . ومن ثم كان لابد من تحديد القرابة اللغوية على درجات ، وهذه الدرجات لا ترجع إلى الصلات التاريخية التي بين اللغات ، وإنما ترجع فقط إلى درجة تميز البنية الصرفية . فهناك لغات معقدة النحو ، فيها متاع عديد من دوال النسبة المتنوعة ومميزات الفصائل والواحق التي ترتبط كل واحدة منها بمكان معين والتي تطبع الجملة بسلسلة من الخصائص المميزة ؛ ومن هذا القبيل لغات المجموعة البنطية . ومثل هذه اللغات تتطلب مجهوداً شاقاً ممن يبنى إجادتها ؛ ولكنها تمتاز بخصائص صرفية واضحة المعالم . فإذا صادفنا في كل مكان على وجه البسيطة لغة تحتوي بنيتها على نفس الخصائص الصرفية وتستخدم وسائل الإلصاق والتصنيف بعينها أو وسائل أخرى يرجع اختلافها عنها إلى تغيرات صوتية طبيعية ، كان لنا الحق في أن نقرر انتساب هذه اللغة إلى العائلة البنطية وأن نستخدمها في النحو المقارن لهذه المجموعة اللغوية .

غير أنه توجد من جهة أخرى ، لغات لا نحولها ، بنحصر نظامها الصرفي في وسائل غير مملوثة ، من تركيب كلمات منعزلة . وقد ذكرنا من أمثلة هذا القبيل لغات السودان ولغات الشرق الأقصى . فالخصائص الفردية تكون في هذه الحال أقل وضوحاً ؛ لأن الوسائل التي تقوم على ترتيب الكلمات فضلاً عن كونها أقل تنوعاً من دالّ النسبة الصوتية فإن قيمتها في الدلالة أقل من قيمة هذه الأخيرة . لأنه إذا كان الأمر إنمّا يدور حول وضع هذه الكلمة أو تلك في مكان ما من الجملة ، كما هي الحال في الإيرلندية التي تضع الفعل على رأس الجملة أو التركيبة التي نضمه في نهايتها ، فقد يمكن اعتبار هذا الترتيب بصفة عامة نتيجة لتأثيرات آلية بعضها صرفي ، ومن ثمّ يمكن تفسيرها بحالة اللغة العامة . أما إذا كان الأمر يتعلق باتجاه عام يخضع مكان الكلمات إلى الروابط التي توجد بين الأفكار المراد التعبير عنها ، كما هي الحال في الصينية ، كان هذا الاتجاه موسوماً بشيء من العقلية والإطلاق يحمله ممتناً جداً في نظر من يسمي إلى تكوين نظرية عامة وإنسانية عن كليات العقل . ولكنه لا يساعد العالم اللغوي المؤرخ الذي يحاول أن يستخلص من لغة ما التفاصيل الخاصة التي تفصلها عن غيرها . وفي الوقت نفسه يستحيل تحديد القرابة اللغوية في مثل هذه الحالة المتطرفة ؛ إذ يرى الباحث نفسه مضطراً في تحديدها إلى التمويل على المفردات ، وهي كما رأينا خطة محفوفة بالأخطار . فالصينية تقول مثلاً wò pu pha tha وترجمته الحرفية بالفرنسية هي : moi pas craindre lui (بالعربية : أنا لا خوف هو) ، وهي فرنسية من نوع خاص تسمي فرنسية « الزنجي الصغير » le français petit — nègre . ولكننا نعرف من سكان إفريقيا الغربية الأصليين من يتكلمون الفرنسية دائماً على هذه الصورة . فلو أنهم تكلموا الصينية لتكلموها بهذه الطريقة عينها ، دون اختلاف اللهم في إلا في استعمالهم لكلمات أخرى ، أي في حالتنا تلك في استعمالهم لأصوات أخرى . ففي « لغة الزنجي الصغير » قد تختلف المفردات فتكون فرنسية أو صينية مثلاً ، ولكن الصورة الكلامية فيها واحدة دائماً لا تختلف ، ولذلك

لا نستطيع أن نميز فيها طريقة التفكير الفرنسية عن طريقة التفكير الصينية . كيف نعمل إذن عندما نريد أن نصنف في عائلات بعض اللغات التي نكاد نحلو من النحو كاللغات التي أشرنا إليها ، ولا سيما إذا كانت مفرداتها قد تبرت بفعل الأحداث الخارجية ؟ وهذه هي الحال مثلاً في لغات إفريقية النرية المشار إليها التي تتنوع مفرداتها إلى أقصى حد بفعل الظروف التاريخية والتي تتفق كلها من حيث الفقر النحوي أو نكاد^(١) . فلما كنا لا نعرف الحالات السابقة لهذه اللغات ولا نعلم من تاريخها ما يتجاوز خمسين عاماً ، لم يكن في وسعنا تحديد أصل مفرداتها ولا تكوينها . إذ لا يوجد لدينا في هذه الحال أية وسيلة لتصنيف هذه اللغات في أسرات ؛ إذ إذا أقدمنا على تصنيفها كان عملنا ينقصه كثير من التحقيق والتدقيق . فنحن هنا نحيا لانعدام الوثائق ، ونحيا أيضاً لطريقتنا التي تحرم علينا أن نطلب إلى فروع المعرفة الأخرى ما نستعير به عن نقص الوسائل اللغوية .

يجب أن نستخلص من هذه الاعتبارات أن التدليل على القرابة اللغوية شيء نسبي . ويتوقف أولاً وقبل كل شيء على وفرة الأدلة اللغوية التي تكون ، بمد أن يشهد لها التاريخ السياسي أو الاجتماعي ، مجموعة لها قيمتها من البراهين ، ولكن هذا الاستدلال في حالة اللغات المجهولة التاريخ يتوقف أيضاً على ثراء القواعد النحوية وتنوعها ؛ وأخيراً كثيراً ما تضطرب القرابة في داخل الأسرة الواحدة من جراء تأثير اللهجات بعضها على بعض .

قد يجيب بعض النظريين من علماء اللغة بأن هذا أمر ضئيل الأهمية . لأن القرابة اللغوية في نظرهم موجودة بصفة مطلقة ، بغض النظر عن كل استدلال . ويرجعون ذلك إلى شهور الأفراد وإرادتهم في أن يتكلموا لغة آبائهم . والواقع أن مبدأ الشعور بالاستمرار اللغوي هذا يكفي في معظم الحالات في تقرير وجود القرابة اللغوية في حد ذاتها . ولكن لا يمكننا أن نقطع باستحالة وقوع خطأ من جانب المتكلمين : لأننا إذا سلمنا بقيام الخلاسية التي تدمج خصائص لغتين مختلفتين

لتخرج منها لغة واحدة ، فقد بصادف أن ينتقل المتكلمون من نظام لنوى إلى آخر بصورة غير محسوسة . وبذلك ينير الجيل الجديد لفته دون إدراك منه . وهذه بالطبع حالة قصوى لا يمكن عادة أن تقع بين أمم متحضرة ، ولكنها غير مستحيلة الوقوع في بعض الظروف اللغوية والاجتماعية . فلا يمكننا هنا أن نمض النظر عنها . ويجب أن نترف بسوء أثرها على القرابة اللغوية . إذ أنها لا تعمل على جعل الاستدلال على القرابة مستحيلا بحسب ، بل أيضاً تؤدي إلى طمس معالم هذه القرابة واختفائها .

من حسن الحظ أن معظم لغات الأرض ، ولا سيما اللغات الثابتة التاريخ ، قد أمكن تحديد قرابتها بدقة مذهشة ؛ حيث نجح العلماء في تكوين عائلات لغوية كبيرة ، كالهندية الأوروبية^(١) والسامية^(٢) والفينية الأجرية^(٣) والبنطية^(٤) والملايوية اليولينية^(٥) ، الخ . نعم قد تكون صلات القرابة داخل كل أسرة موضعاً للجدل من جهة التفاصيل في بعض الأحيان ، ولكن المبدأ الذي تقوم عليه لا يقبل الريب . وليس من شك في أن تقدم الفيلولوجيا المقارنة سيؤدي إلى ازدياد عدد الأسر اللغوية الصحيحة التكوين .

(١) برجمان Brugmann ودلبروك Delbrück رقم ١٥٠ ؛ ميه : رقم ٩٤ .

(٢) برتوكلان : رقم ١٤٨ .

(٣) شينيه Szinyei : رقم ٣١٢ .

(٤) مينهوف Meinhof : رقم ١٧٩ .

(٥) برند شتتر Brandstetter : Monographien zur indonesischen

Sprachforschung ، لوسرن ١٩٠٦ وما يليها . فارن أيضاً ج. فران Ferrand G رقم ٧١ .

الجزء الخامس

الكتابة

الفصل الأول

أصل الكتابة وتطورها ^(١)

إذا كانت مسألة أصل اللغة لا تنطوي على حل مرض ، فإن الأمر على خلاف ذلك في مسألة أصل الكتابة . لأن هذه الأخيرة يمكن مواجهتها بطريق مباشر وفي وسع الباحث أن يحيط ويلم بها في مجموعها . وذلك لأن أصل الكتابة قريب منا نسبياً . ولم نعرف لنا اللغات القديمة إلا منذ سجلتها الكتابة ؛ ولكننا نعرف الكثير منها منذ تلك اللحظة عينها ؛ وكثيراً ما يكون أول نص منها يقع تحت أيدينا هو أول النصوص التي سجلته الكتابة . ولدينا من جهة أخرى لغات لم تكتب إلا في أيامنا هذه ، بل وتحت أبصارنا . ومن ثم كان في وسعنا أن نضع يدنا على الوسائل التي بواسطتها نصير اللغة المتكلمة لغة مكتوبة ؛ وهي في عنفوان حياتها ، وأن نقدر نتائج عملها .

ومع ذلك يجب علينا لفهم مسألة أصل الكتابة ، أن نتخلص من عوائدها العقلية بوصفنا قوماً متحضرين . فالذي في ذهننا هو أن القيمة الرضوية للكتابة

(١) راجع عامة ف . برجييه Ph. Berger : رقم ٤٨ ؛ ودنتزل Dantzel : رقم ١٥١ ؛ وليفى بريل : رقم ٨٨ ؛ والفصل الأخير من كتاب : تاريخ شعوب الشرق لمسيرو . وعن الوسائل المادية التي أدت إلى خلق الكتابة واستكمالها ، انظر الفصل الخامس بتصوير الفكر في كتاب دي مورجان De Morgan : البشرية قبل التاريخ ، ص ٢٧١ وما يليها ، الذي يكمل بتصه وصوره التوضيحية محتويات فصل الكتابة الذي نحن بصدده .

أمر طبيعي . إذ لا يلزم لأطفالنا إلا بمض الران وشئ من التفكير ليفهموا أن ما يرونه مكتوباً بالمداد الأسود على الورق الأبيض ليس إلا صورة الكلمات التي تسميها آذانهم . ولا يمر بهم وقت طويل حتى يعودوا هذه الرياضة النفسية التي تنحصر في التوفيق بين الرسم والصوت وفي الجمع في دائرة الإدراك بين التصورات البصرية والتصورات السمعية . والزمن الذي قضيناه في طفولتنا لإخضاع عقولنا لهذه الرياضة كان من القصر بحيث لم يبق منه شئ في ذاكرتنا . فالفكرة التي في أذهاننا عن اللغة المكتوبة ، قد حصلناها دون مجهود ، وبصورة قريبة من الطبيعة .

ومع ذلك فن المؤكد أن هذه الفكرة ليست طبيعية بالنسبة للإنسان . فنحن نحني ثمار التحسسات العقلية التي قام بها أسلافنا النابرون ؛ فهم الذين سهوا مهمتنا بتحضيرهم لعقليتنا . فما أكثر ما بذلوا من وقت ومن مجهود في تمرين الدماغ الذي ورثونا إياه ، تمريناً جعلنا لا نشعر حتى بوقوع هذا التمرين !

* * *

نحن نعرف أن بني الإنسان بدءوا بكتابة الأفكار قبل أن يكتبوا الكلمات . لأن الصورة استعملت في أول الأمر علامة للأشياء . ولكنهم لم يثروا على هذا الاستعمال نفسه من أول لفظة : لأنه يستلزم كون الإنسان قد أدرك القيمة العقلية للعلامة الكتابية . ولكننا نعرف أن بعض المتوحشين لا يزالون حتى يومنا هذا يوحّدون توحيداً تاماً بين الصورة والشئ . وهذا التوحيد الذي يبدو لنا غريباً لا يرجع إلى خداع أو إلى خلط فاحش ، بل يرجع إلى أن المتوحش يدرك جميع الأشياء ، سواء في ذلك المواد وصورها ، بصورة غيبية . ففي غيبته يتكون العالم الخارجي من سلسلة من الظواهر مزودة بصفات خفية ، وليست الصفات المتبادلة بينها مما يخضع للتناقض . وكأن نشاطه هو مشتبك بسدى العالم الخارجي . فلا يقوم بفعل دون أن يكون له أثره في الكون المرئي وغير المرئي . وما نسميه بالخرافة — وهي تنحصر في إعطاء ألق الأحداث معنى غيبياً وفي إيجاد صلة خفية

بين أشد الحوادث اختلافاً — هي الحالة العادية لمقل التوحش . وذلك على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لاستعمال العلامات .

لنفترض أن متحضرأ علم طريقه بقصن شجرة أو خطاً صليياً على الرمال أو فوق صخرة ما . فإنه في هذه الحالة يكون مسوقاً يباعث عقل محض ، كأنه يقصد إلى العثور على طريقه عند العودة أو إلى إعطاء إشارة ما إلى زملاء له يتبعونه . أما في ذهن التوحش فإن مجرد رسم علامة ما يؤدي إلى تعقيدات غيبية ويوحى ببواعث مختلفة كل الاختلاف . فإذا ترك غصناً في طريقه مثلاً ، فذلك لتملك الأرض التي يطؤها أو لإفساد سحر ومنع تأثيره أو لاجتذاب روح أو إقصائها أو لتضليل عدو خفي بسد طريقه عليه ، أو لإعطائه وسيلة يستفيد منها في الإضرار بك ؛ وبالاختصار يرى في هذا العمل حدثاً كبيراً يؤدي إلى نتائج حسنة أو سيئة ذات أصداء واسعة في هذا الكون الفسيح .

كذلك صورة الحمار أو صورة الكلب لا توقيظ في أذهاننا بوصفنا متحضرين إلا فكرة الحمار أو الكلب دون شيء سواها . ولكنها بالنسبة للمتوحشين هي الحمار بعينه أو الكلب بعينه . فإذا كانت الصورة تمثل حيواناً ضاراً أو عدواً عادياً بدل أن تمثل كائنات لا ضرر منه فما أثقل النتائج التي تؤدي إليها ! عندئذ يجري على لغة العلامات جميع الأحداث السحرية التي للغة التكلمة ، من تحريم ومن كنايات مثلاً . فيصير من الخطر أن يرسم نمر أو فرس من أفراس البحر بقدر ما يكون من الخطر في تسميتها ، لأن الصورة كالاسم تكون جزءاً من ميدان الوجود النبوي^(١) . وقد تدفعهم عاطفة مضادة لتلك ، ولكنها من أصل غيبي أيضاً ، إلى أن يمنوا بمعرفة تصوير العدو أو الحيوان المخوف لا سماته والتلطيف منه أو لاتخاذ حليفاً ثميناً . فنرى بعض المتوحشين يرسمون على أسلحتهم تمثالاً أو يرا معتقدين أن هذا الحيوان أو ذاك يخلع على المادة التي يرسم عليها جزءاً من قدرته . فما دام الرمح أو الطرس قد زينا على هذا النحو فقد اكتسب قوة سحرية ؛ فالبر مثلاً يهبهما القوة والثمان يمنحهما المكر الذي يفسد حيل الأعداء . وبهذه

(١) دانتزل : رقم ١٥١ ، ص ٦٧ و ص ٧٢ — ٧٣ .

الطريقة تتكون مجموعة كاملة من الأحجية والتمايم التي تترجم بواسطة الصور الرمزية عن إدراكات المتوحشين النيبية .

من المبالغة الواضحة أن نحصر نشاط البدائيين العقلي في مثل هذه الحدود الضيقة . فلتترك له إذن شيئاً من السعة ولنسلم بأنه في بعض الأحيان ينفذ عن نفسه نير المشاغل النيبية . فقد تكون العلامة عندهم أيضاً نوعاً من الانعكاس الخارجى تشهد بحاجتهم للاشمورية إلى إظهار ما فى باطنهم ، إلى إبراز نفسياتهم . ومن هذا القبيل مثلاً ذلك العبث التافه الذى يقوم به المار عندما يحفر اسمه على الجدران بسن مبراته ، أو تلك الحركة التى يقوم بها المتزده ، وقد آكلته الشمس والهواء الطلق ، عند ما يقرع جزوع الأشجار بطرف هراوته فيسقط براعمها . بل لنسلم للبدائى بقابليته للمتعة الفنية . ولم لا ؟ فالرسوم التى خطها على عظام الرنة أيدى أناس من عصر المغارات يذكرنا كلها التام بفنانى اليابان . فلنسا أن نفخر بعمل هؤلاء الأسلاف الغابرين الذين سبقوا أوتامارو Outamaro وهكساي Hokusai بآماد وآماد ؟ فلماذا نتق عنهم إحساسهم باللذة عند ما قاموا بهذا العمل لا لشيء . إلا لشمورهم بالارتياح لا هو جميل ؟ فمتى ما نريد أن نحلل بدقة منابع النشاط العقلي عند البدائيين ، يجب علينا بلاريب ألا نلحق من حسابنا الأفعال التفكيرية والبواعث الفنية . ولكن هذا لا يمنع من وجود اختلاف جوهري بين البدائى والمتحضر . فقد يجوز لهذا الأخير أن يحيد عن القواعد التى يفرضها العقل ، ولكنه عند ما يشوب إلى نفسه ويعود إليه توازنه ، فإن عقله يرجع بطبيعة الحال إلى الإدراك العقول للأشياء ؛ بل إنه لا يدرك حماقته إلا باستمهال عقله . أما البدائى فحالته عقلية الطبيعية هى الحالة النيبية . فالنيبية تحيط بها من كل جانب وتغذيها وتسندها . وحتى عند ما يبدو أنها قد خرجت منها لحظة ما ، فإنها تبقى غائرة فيها بجذور عميقة .

فكرة البدائى عن العلامة تستبعد كل إمكان لكتابة ككتابتنا ، لأن ككتابتنا تقوم على مبدأ عقلى . فتاريخ نشوء الكتابة يفترض إذن كون العقلية المعقولة قد تخلصت من العقلية النيبية . وهذا لا يقع دفعة واحدة . ولعل نقطة البدء تنحصر

في كون العلامة تحتمل في نفس الوقت تفسيرات عدة وتصلح لنوايات كثيرة^(١). فكون العلامة تيمية محملة بالقوى السحرية لا يمنع من كونها صورة مادية لأحد الأشياء وأنها تظهر أمام العقل على هذا النحو . ففي هذه الحال يمكن أن تستبعد عن العلامة الخصائص السحرية شيئاً فشيئاً ، وفي هذا إخضاع للتصورات الذاتية والنيبية للتصورات الموضوعية والمعقولة ، وأخيراً الاستعاضة بهذه عن تلك .

فرأس البير المحفور على خشب الرمح قد وضع عليه حقاً ليزوده بقوة سحرية ؛ ولكنه في الوقت نفسه يتيح لصاحب السلاح أن يتعرف سلاحه ، إذا كانت أسلحة الجيران لا تحمل هذه العلامة ؛ وبذلك يصبح الرأس علامة الملكية . وغصن الشجرة الملقى في الطريق لناية سحرية يمكن أن يكون مفيداً في تعليم الطريق ، فيصير عند اللزوم علامة للتذكرة . من ذلك يرى أن الحدث النبوي يدخل فيه عنصر معقول يتدرج فيه نحو الغلبة شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بالسيادة . ومن ثم كان أولئك الذين يرون في علامات الملكية وإشارات التذكرة مبدءاً الكتابة على حق في رأيهم^(٢) .

ولكننا في حالة العلامات التذكارية لسنا من الكتابة إلا في منتصف الطريق لأنها إذا كانت تستخدم لتمثيل بعض صور الفكر ، فإنها لا تعبر عن الفكر نفسه مطلقاً . ولدينا مثل شهير على ذلك في عصي الرسل « stick messages » المستعملة عند الاستراليين . فهذه العصي المغطاة بالحزوز تستخدم في إبلاغ تعاليم وأوامر ، وأحياناً في إبلاغ سلاسل من الأوامر على جانب كبير من التعميق . ولكن لا يستطيع تفسيرها إلا المارفون . فعصا الرسول لا يمكن فهمها دون الرسول نفسه . وهي أولاً وقبل كل شيء وسيلة يتخذها المرسل لمنع الخطأ والخيانة . فهي بمثابة مرشد ومعين للذاكرة . إذ أن تركيب هذه الحزوز يقدم خطة رياضية مصورة للرسالة التي يجب أن تؤدي ، وهيكل عظمياً للحديث . فهي تشير إلى

(١) دنتزل : رقم ١٥١ ، ص ٤٨ .

(٢) ١ . فان جنب : مجلة التقاليد الشعبية (١٩٠٦) ، ص ٧٣ — ٧٨ ؛ ورقم ٧٤ السنة الثانية ، باريس ١٩٠٩ .

عدد الأفكار وإلى تسلسلها بعضها من بعض ؛ ولكن الأفكار نفسها غير موجودة فيها .

الأفكار غير موجودة فيها بالنسبة لكثيرين من الناس على الأقل ؛ إذ يمكننا أن نتصور دون عناء أن يقوم بين المتراسلين اتفاق سرى لا يعلم به حتى الرسول نفسه ، ويمقتضاه يمثل كل حزب فكرة معينة . وفي هذه الحال نكون أمام كتابة حقة ، كتابة بدائية محدودة الوسائل ، ولكنها تسمح بإيصال فكرة بين شخصين في صورة مادية ، وهذا على وجه التقريب هو تعريف الكتابة .

ومن هذه الفصيلة ، فصيلة « عصي الرسل » ما يسمى بالكبوات البيروية *quippos des Pruvians* والومبومات الإيروكوية *Wampums des Iroquois* . والقراء يعرفون ما براد بهذين المصطلحين . فالكبوات حبال مصنوعة من خيوط الصوف المختلف الألوان تعقد عليها في أبعاد مختلفة عقد على جانب كبير من التعقيد . فإذا ما رُكبت ألوان هذه الحبال مع سُمك المُعقد ومواضعها وجمعت كل الحبال بعضها مع بعض بطريقة متفق عليها ، أمكن الحصول على وسيلة لتمثيل الأفكار تمثيلاً رمزياً ، ولبيان تسلسلها بعضها من بعض . هذه الكبوات قد لعبت دوراً هاماً في « خطابات إحدى البيرويات » لدام دي جرافيني ؛ لذلك كان لها الحق في أن تحتل مكانها بين الآداب الفرنسية . أما الومبومات فهي عقود القواقع المرصوفة بعضها فوق بعض ، وتركيبها يكون أشكالاً هندسية . ويقال إن بعضها يشتمل على ما لا يقل عن ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ حبة ، وأطول واحدة عرفت منها تتكون من ٤٩ صفّاً من القواقع . ونلاحظ أن الكبوات والومبومات تستخدم عنصراً جديداً ، وهو اللون الذي يزيد الوسائل تنوعاً ومن ثم يساعد على سهولة التعبير .

ومع ذلك فإن الكبوات والومبومات ، مهما بلغت من درجات الكمال ، لم تكن إلا وسائل للتذكّرة . وحتى لو ثبت أنها كانت تستطيع الإيحاء ببعض الأفكار ، فمن غير الممكن تشبيه تراكيها بتركيب أى نظام من نظم الكتابة ؛ لأن هذه النظم تهدف إلى التعبير عن جميع الأفكار . والذي منع من تطور كتابة مشتقة من الكبوات والومبومات إنما هي المادة التي تكوّنهما . فهي لا تحتل

أى استكمال من الوجهة العملية . ويؤكد بعض المؤلفين أن الكيوت على الأقل، تستطيع أن تنجح في تكوين مركبات أمجدية ؛ ولكن من المحقق أنهم يقصدون محاولات متأخرة عملت قياساً على الأبجدية الأوربية . وعلى هذا النحو أنشئت في إيرلندة الأبجدية الأوجامية على نسق الأبجدية اللاتينية وذلك بواسطة جزوز تحفر على حواف أحجار مرفوعة . ولكن مثل هذه المحاولات كان نصيبها الفشل المحقق . أما الكتابة فقد تدرجت في طريق آخر . وابتدأت من الصورة التي تجمل العين تحس بفكرة الشيء ، ولا سيما الصورة الرسومة على الحجر أو الصلصال أو على لحاء الشجر أو الرق .

اليوم الذي فيه اعتبرت العلامة تمثيلاً موضوعياً هو يوم ميلاد الكتابة . فيمكننا أن نقول بأن أول نقش إغريقى هو المجداف الذى نصبه أوليس على قبر الينور Elpenor (الأودسة ١١ / ٧٧ و ١٢ / ٢٥) فهذا المجداف قد نصب تعريف المارة بمهنة التوفى ، على نحو ما تشير لافتات الحوانيت عندنا وما هو من قبيلها إلى نوع التجارة وصفة السلع ، وكما تشير لوحات النذور التى تعلق فى الكنائس على بواغث عرفان أصحابها ؛ فهذا المجداف كان شعاراً . وقد استخدمت الإنسانية زمناً طويلاً هذا النوع من اللغة الشعرية حتى فى العهود التاريخية إلى أن صرنا لا نرى فيها إلا نوعاً من الدلالة الرمزية . تشهد بذلك تلك الرسالة التى يقول هيرودوت (ج ٤ ص ١٣١) بأن السيتيين بعثوا بها إلى دارا والتى كانت تتكون من طائر وفأر وضفدعة وخمسة سهام . فقد كان ذلك إعلاناً مصوراً أمكن للحكيم جبرياس Gabryas أن يفسر معناه .

وقد خطا الإنسان خطوة شاسعة نحو الأمام عندما عرف رسم ويتخذ من الصورة شعاراً للشيء فقد استطاع بتركيبه لسلسلة من الصور أن يصور حديثاً متماسكاً متتابعاً . ولدينا بعض هذه الصور المتكلمة فى النقوش المصورة التى اكتشفت على صخور اسكنديناوة والتى ترجع إلى عهد ما قبل التاريخ ، ونجد منها أيضاً ما يزال مستعملاً حتى يومنا هذا بين سكان أمريكا البدائيين^(١) . ويشبه

(١) دى مورجان : المؤلف سالف الذكر ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

هذا بعض سور مقاطعة الإبينال Epinal ؛ ويمكننا أن نأخذ عن هذا النوع من الكتابة فكرة خيراً من كل ما تقدم إذا تصورنا حادثة يومية نراها تعرض في السينما بدلاً من أن نقرأها في صحيفة .

من هذا كله نشأت الكتابة التصويرية *idéographique* ، وهي أول كتابة نعرفها وإليها ترجع جميع نظم الكتابة المستعملة بين بني الإنسان . وتنحصر في تمثيل كل فكرة أو كل شيء ، بعلامة مساوية . ويمكننا أن نكون فكرة عما كانت عليه في بدايتها بفضل ثلاث كتابات نعرفها الآن معرفة تامة ، وهي الكتابة الصينية والكتابة السامرية والكتابة الهيروغليفية . ولكن ينبغي لنا أن ننبه إلى أن هذه الكتابات الثلاث جميعها لم تبق تصويرية محضة ، وأن تصوير الفكرة أو الشيء لا يلعب في أقدم ما نعرفه فيها إلا دوراً محسوراً ، ذلك بأن التصوير فيه وجود كثيرة من القصور ويترك للعقل مجالا شاسعاً للتكامل . .

ولو فرضنا أن جميع الأفكار في لغة ما قد زودت اليوم بعلامات مساوية متميزة وهو ما لا يمكن تحقيقه عملياً فإن هذا النظام المقدم يصبح قاصراً في الغد ، لأنه يتمذر عليه أن يصور جميع ألوان الفكر الدقيقة التي لا تحدد وأن يتبع تطورها الدائم . فالكتابة التصويرية عندما تستقر وتثبت نهائياً تصير ثوباً جامداً يسجن الفكر بين جوانبه ، فلا يتوانى الفكر عن تحطيم العقبة وجعل حطامها غير صالحة للاستعمال . مثل هذه الكتابة لا تصلح على أحسن الجالات إلا لمعلم من علوم الباطنية قد حدد على صورة لا يراد له التحول عنها قيد أنملة ؛ لهذه الكتابة أن تكون نوعاً من الرموز الجبرية لأعمال المعامل ، ولكنها لا تستطيع بأية حال أن تكون أداة لتبسيط المعرفة وتعميمها ولا للتربية الشعبية ولا للتقدم الاجتماعي . والكتابة الصينية أو الهيروغليفية من خير الأمثلة على ما نقول ، فنحن نعرف مقدار ما يوجه إليهما من نقد على الرغم مما تناولهما من إصلاح .

لعل الزية الوحيدة التي تستطيع الكتابة التصويرية أن تفخر بها ، هي أن قراءتها في متناول أناس يتكلمون لغات مختلفة . فقانون الإشارات الملاحية يقرؤه جميع الملاحين بطريقة واحدة وإن فهموه بلغات مختلفة . والكتابة

التصويرية ، وهى تمثل الأفكار لا الأصوات ، لها نفس الميزات التى لقانون الإشارات . وذلك أنها تسقط وساطة الكلام وتصورلغة التفكير لانة الكلام . ومن اليسير أن نبين تفاهة هذه الميزة . فقانون الإشارات لا يطبق بطبيعة وضعه إلا على عدد محصور من المعانى المهنية المحددة ، أى التى لا يمتريها التغير ، ويمكن لعدد من الناس ذوى المهنة الواحدة أن يعطّلحوا عليها بسهولة . ولكن هذا القانون لا يمكن تميمه بحال . ولأجل أن يكون للكتابة التصويرية قيمة عامة ، يجب ألا تتكون إلا من علامات يمكن لكل إنسان قادر على التفكير أن يدركها على الفور . وهذا سراب خداع لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بالنسبة للمعاني الشخصية ، كمعاني الطائر والقلم والثور والعين والشمس . ولكن صعوبته تبدأ عندما يدور الأمر حول المعاني المجردة . لأننا إذا رمزنا لهذه المعاني بصور تحككية ، رأينا أنفسنا نبتعد عن مبدأ الكتابة التصويرية ؛ وإذا استخدمنا فى ذلك صور الأشياء الشخصية ، بأن نتخذ مثلاً من القلم رمزاً للمدالة ومن الثور رمزاً للغنى ومن العين رمزاً لسلطة الملكية ، كنا قد أوجدنا على الفور ما يوقع القارىء فى اللبس .

وماذا يكون الحال بالنسبة للمعاني النحوية ، والكتابة التصويرية لا تملك وسيلة التعبير عنها ؟ نعم ، قد يمكن لبعض اللغات ألا تتأثر بهذا النقص الخطير ، وهى اللغات عديمة التصريف . فإذا كانت الروابط النحوية تنحصر فى ترتيب الكلمات ، أمكن للكتابة التصويرية أن تعبر عن النحو . إذ يمكننا أن تصور بسهولة وجود علامة لكل من فكرة أنا ، وإرادة ، وأكل ، ولحم ؛ وفى هذه الحال يمكن للكتابة التصويرية أن تصور بسهولة جملة قصيرة مما يسمى لغة الزنجى الصغير على هذا النحو : أنا إرادة أكل لحم «moi vouloir manger viande» . إذ لا يلزم حينئذ إلا تحديد الترتيب الذى يجب أن تقرأ عليه علامات هذه الكتابة ، لأن النظام الصرفى فى هذه الحال ينحصر كما قلنا فى ترتيب الكلمات . ولكن ذلك لا يذهب بنا بعيداً ، لأن اللغة مهما تجردت من النحو ، فإنها تحتوى على معانٍ نحوية أولية لا يمكن للكتابة التصويرية أن تعبر عنها بصورة طبيعية ؛ مثل التمييز بين الفرد والجنس وبين الاسم والفعل والدلالة على زمن الفعل وصفته وعلى النفي ،

الح. فإذا صورنا هذه الماني بعلامة خاصة تضاف إلى علامة الفكرة ، كالأسّ يضاف إلى الحرف الجبرى ، كنا قد أدخلنا فى هذه الكتابة مبدأ جديداً ، هو مبدأ التفريق بين العلامات الفارغة والعلامات المليئة . وبذلك تتمتع الكتابة التصويرية باتباعها نظامين مختلفين ، لأننا إما أن نضيف إلى العلامة الدالة على الفكرة معالم خاصة تشير إلى القيمة الصرفية ؛ وفى هذه الحال يكون عندنا نوع من الصور تتغير أشكالها تبعاً للاستعمال الذى تتخذه فى الجملة الكلمة التى تشير إليها هذه الصور والتى يضاف إليها عناصر جديدة ، وهذا يعقد الصور ويجعلها لا تنتهى عدداً فتصير الكتابة غير قابلة للاستعمال . وإما أن تتبع الصورة الأساسية بعلامة أو يضع علامات يشار بها إلى القيمة النحوية . ووجه الصموية فى ذلك يرجع إلى وجوب استعمال علامات عديدة يضاف بعضها إلى بعض للتعبير عن معنى واحد . والطريقة الأولى أنسب للغات ذات القطع الواحد ، والواقع أنها تستعمل بالفعل فى كتابة لغات الشرق الأقصى كالصينية . ولكن الحقيقة أنها حتى فى الصينية تمزج بالطريقة الثانية . وذلك لأنه من المسير حقاً أن نكتب لغة لا نراعى فيها إلا مبدأ التصوير .

لا توجد كتابة تصويرية واحدة قد بقيت على ما هى عليه . ولعل ذلك يرجع إلى قصور هذه الكتابة قصوراً بيناً ؛ ولكنه يرجع كذلك إلى ذلك التطور الضرورى الذى جعل من اللغة المكتوبة وسيطاً طبيعياً بين لغة التفكير ولغة الكلام . العقل فى متناوله وسائل متنوعة للترجمة عن التفكير ؛ فكان لديه الإشارة والصوت ؛ ثم خلق الصورة بعد ذلك . سمحت له هذه الوسائل باستعمال العلامات الاصطلاحية التى كانت تطبق من قبل — بشئ من التحوير — على حالات مختلفة ، ولكنها كانت تتداخل فى غالب الأحيان . ولعل مرجع ذلك إلى أنه كانت توجد حالات تستطيع الإشارة فيها أن تعبر عن الفكرة خيراً من الصوت ، وعن الصوت خيراً من الصورة . ومع ذلك فلم تلبث القيمة الرمزية للصوت أن تنجح فى أن تصحب القيمة الرمزية للصورة على وجه العموم وأن تحمل محلها عند الحاجة ؛

حتى أصبحت الصورة والصوت بديلين متبادلين . وعندما وصلا إلى درجة التبادل ، أمكن للمقل أن ينظر إلى الصورة على أنها شمار الصوت ، ثم على أنها أداة لتثبيته بالكتابة . وعندما صار اسم الشيء بدوره مرتبطاً بالشيء ، انتهى أيضاً بأن صار مرتبطاً بالصورة التي أيقظت فكرة هذا الشيء . فالعلامة التي كانت تمثل الشيء ، صارت أيضاً علامة الصوت الذي يعبر عن هذا الشيء . وبهذا نشأت الكتابة الصوتية .

نفرض أن لدينا علامة كتابية ، وأن هذه العلامة الكتابية صورة خنزير ، وأنها لم تكن تدل في الأصل إلا على « الخنزير » (بالفرنسية porc پُور) . فلما كانت هذه العلامة تقرأ (پُور) ، فإنها قد تنتهي بتمثيل الاسم الذي يحمله هذا الحيوان في الفرنسية (پور) لا تمثيل الحيوان نفسه ، وبالتالي بتمثيل الصوت الذي يكون هذا الاسم . ومن ثم فقد تستعمل في الكتابة الصوتية لكل كلمة تتكون من هذا الصوت ، فتستعمل لكتابة الصوت « پور por » دون أى اعتبار آخر ، سواء أكان ذلك للدلالة على الخنزير porc أم على الميناء port أم على ثقب البشرة pores ؛ بل أكثر من ذلك قد تستعمل في الكلمات التي تتكون من عدة مقاطع للدلالة على هذا المقطع por (پُور) بصفة عامة ودون اعتبار للمعنى ؛ فتراها تدخل في كتابة «trans (por) ter» (ينقل) و «col (por) teur» (بائع متجول) و « (por) nographie » (صورة مخلة بالآداب) ، الخ . وهذه هي الطريقة التي تستخدم في المجتمعات التي تمقد للتسلية ؛ فإذا أريد مثلاً الدلالة على معنى كلمة « مأبوف » رسمت صورة للماء وصورة لكوز من اللوف .

ولكن هذا الذي يعتبر تسلية وهوى تحكيمياً في هذا النوع من اللعب ، ليس في الكتابة التصويرية إلا اصطلاحاً محدداً بقواعد صارمة . ومع ذلك فإن في هذه الكتابة وجهين من النقص خطيرين . وذلك أن عدد العلامات في مثل هذه الكتابة لا يمكن إلا أن يكون محدوداً للأسباب التي ذكرناها آنفاً ، في حين أن عدد الأفكار لا يمكن أن يحد . فعدد الأفكار يتجاوز بالضرورة عدد العلامات ، لذلك يجب أن يصطلح على الدلالة بالعلامة الواحدة على أفكار عديدة . والمتاد في هذه

الحالة ألا يجمع تحت العلامة الواحدة إلا الأفكار المتجاورة ، مجازية كانت أو حقيقية . لذلك نرى الكتابة المسارية لا تشير بالقرص إلى الشمس فحسب ، بل أيضاً إلى النور والبريق والبياض والنهار ؛ وفي الكتابة الهيروغليفية تشير العين أيضاً إلى النظر والسهر والعلم . ولما كان يُدل على كل واحدة من هذه الأفكار في الكلام بصوت يخالف الصوت الذى يدل به على الأخرى ، أصبح للعلامة من القيم الصوتية الجديدة بقدر ما تدل عليه من أفكار . فقد تمثل العلامة الواحدة في الكتابة المسارية خمسة عشر صوتاً أو عشرين صوتاً مختلفاً ؛ وهذا ما يعبر عنه العلماء بقولهم إن العلامة الواحدة متعددة الأصوات Polyphone .

وعلى العكس من ذلك قد يقع في كل اللغات أن يعبر بصوت واحد عن أشياء مختلفة كل الاختلاف . ومن هذا القبيل في الفرنسية الصوت پور porc الذى تكلمنا عنه (por , pore , port) ، وكذلك الصوت vin (vaine , vint , vingt , vin) ، والصوت sin (sein , saint , seing , ceint , cinq) ، الخ . فالكتابة التصويرية تدل بطبيعة الحال على كل واحدة من هذه الكلمات بعلامة مختلفة . أى أنها تدل على الصوت پور ثلاث علامات وعلى الصوت vin بخمس علامات وعلى الصوت sin بست علامات . وقد عد العلماء ست عشرة علامة في الكتابة المسارية للدلالة على القطع تو tou . وهذا ما يبررون عنه بقولهم ، إن العلامات المتعددة تشترك في التعبير عن صوت واحد ، homophones .

فاشترك عدة علامات في التعبير عن صوت واحد ودلالة العلامة الواحدة على أصوات عدة عيان متضاد أن كان يمكن لنتائجهما أن تتبادل فيمحو بعضها بعضاً . وهذا ما يقع في بعض الأحيان . ولكن الأمثلة التى ذكرناها تكفى للدلالة على الصعوبات المستعصية التى اعترضت سبيل القائمين بفك طلاسم هذه الكتابات .^(١)

(١) عن تاريخ فك طلاسم الكتابة الزمارية ، انظر مينان : الكتابات المسارية ، باريس ١٨٦٤ ، وأشهر الأسماء التى تذكر في هذا الصدد هى : جروفتند وبيرونوف ولاسن وه . رولينسن وأوربت . أما فك طلاسم اللغة الهيروغليفية فيرجع الفضل فيه أولاً وقبل كل شئ ، إلى شامليون المعروف بالصغير ؛ ويأتى بعده ش . ليرمان ، دى روجيه ، سلفوليتى ، ليسبوس ، يرسن ، بروجسن ومبيرو .

لما اتخذ الآشوريون الكتابة المسمارية أصلحوا عيوب الدلالة على أصوات عديدة بعلاقة واحدة وذلك باستعمال مكملات صوتية : ففراهم بعد أن يكتبوا الكلمة كتابة تصويرية يمينون نطقها بكتابة القطع الأخير منها كتابة صوتية ، وهذا المزج بين الكتابة التصويرية والكتابة الصوتية من خصائص الكتابة الآشورية ومن أسباب التعقيد فيها ؛ وقد استلزمه ذلك النقص الأسامي الذي يرجع إلى التعبير عن أصوات مختلفة بعلامة واحدة Polyphonie ^(١) .

واشتراك علامات عدة في التعبير عن صوت واحد يؤدي أيضاً إلى عيب لا يقل خطورة عن العيب السابق . وذلك أنه يقع في حيرة الاختيار بين عدة أفكار يعبّر عنها بصوت واحد . وقد ابتكروا نظام المفاتيح لتلافى هذا العيب . والمفاتيح هي العلامات التكميلية التي تضاف إلى الصور الصوتية لتعيين معناها . فبدلاً من أن يدل على النطق الحقيقي للصورة بتكملة صوتية ، يستعمل المفتاح للإشارة إلى المرادف المطلوب من بين جميع المترادفات التي قد ينتج إليها الذهن . ولرجمع إلى المثل السابق لتوضيح ما نقول ، فنفترض أن هناك صورة كتابية تدل على هذا الصوت por (پور) كما هو في الفرنسية : فلكي يؤمن اللبس ، تضاف إلى الصورة علامة خاصة يدل بها على أن المقصود هو الحيوان porc أو الميناء البحري port أو حمل شيء ما port أو انتصاب القامة port أو ثقب من ثقوب البشرة pore . فهذه العلامة هي مفتاح اللفظ .

والصينية هي التي طبقت هذه الطريقة تطبيقاً منهجياً كاملاً . وقد قلنا بأن الصينية ، وهي لغة لا تصرّف فيها ، أكثر اللغات قبولاً للكتابة التصويرية . ولتلافى اللبس الناجم من التعبير بصور مختلفة عن الصوت الواحد ، اخترعت الكتابة الصينية أنواعاً من الأسس تركبها مع الصورة الصوتية لتعين بها معنى الكلمة ؛ هذه الأسس كانت فيما مضى غير محدودة العدد ؛ فقصر عددها في سنة ١٦١٦ على ٢١٤ أس ، واستقر عددها على هذا الوضع منذ ذلك الحين ، وبطلق عليها في الصينية اسم pou أي « أقسام » أو « طبقات » . والواقع أنها مميزات

(١) انظر فوسى Fossey : رقم ٧٢ ، المجلد الأول .

تعبّر على نحو ما عن الأفكار العامة والطبقات الاجتماعية والطبيعية والكليات العقلية . فعلى هذا النحو تتكون الحروف الصينية من عنصرين : الأولى صورة الفكرة ideogramme التى صارت صورة صوتية phonogramme ، وتعبّر عن الصوت المقطعى الذى يكوّن الكلمة ؛ والثانى بمثابة مفتاح المشكلة ويعين معنى الكلمة .

اللغات التى من أجلها اخترعت الكتابة السمارية والميروغليفية أول ما اخترعت ، كانت لغات تصريفية ؛ لذلك لم تنجح فيها إلا بقدر ضئيل تلك الطريقة التى استعملت فى تكميل الكتابة الصينية . ومع ذلك فإن المصريين باختراعهم للمميزات ، قد أوجدوا ما يعادل الأقسام عند الصينيين . فالصورة الميروغليفية التى تقرأ ankh تدل إما على « الحياة » ، وإما على « الأذن » ، فإذا ما أريد بها أن تدل على هذا المعنى الأخير بالذات صحبت بصورة الأذن التى تؤدى وظيفة الميز . ومن ثم نعتز فى الكتابة المصرية — حتى بعد أن صارت كتابة صوتية محضة — على بعض المميزات التفرقة التى أبقت التقاليد على استعمالها . أما الكتابة السمارية فلم تخل يوما — حتى فى أوج انتشارها — من بعض حالات اللبس . ولتسهيلها من الوجهة العملية اضطر أهلها إلى جعلها مقطعية ؛ وعلى هذه الصورة نراها تستعمل فى تسجيل إحدى اللغات الهندية الأوروبية ، وهى الفارسية القديمة وذلك فى نقوش دارا . ولكنها على وجه العموم كانت أقصر الكتابات التصويرية عمراً ، وسمارية الأثمين كانت آخر مثال منها . إذ لم تلبث أن استعيز عنها فى كل مكان بكتابات صوتية ، ولا سيما بالكتابة الآرامية المشتقة من الأبجدية الفينيقية .

أما الأبجدية الفينيقية — نحو ما نراها على شاهد ميسا Mesa القبرى (وهو اليوم فى متحف اللوفر) ذلك الشاهد الذى يرجع إلى ما قبل المسيح بتسمائة سنة — فإن البعض يرميها بصورة مشوهة من الكتابة الميروغليفية . ولكن هذا التشويه قد وقع بالتدرج على خطوات عدة . وقد بينا فيما سبق كيف يصل التطور الطبيعى بالصورة الفكرية إلى أن تصير صورة صوتية . وقد استقرت بعض الكتابات كالصينية فى منتصف الطريق بين الخطتين بفضل نظام من التراكيب العملية ؛

ولكن الكتابة الميزوغليفية كان حتماً عليها أن تصير كتابة صوتية بعد حين ، وخاصة لأنها كانت تستعمل في تسجيل لغة ذات تصاريف .

وأول مرحلة أمكن الوصول إليها في هذا السبيل هي مرحلة المقطعية . وهي مرحلة على جانب من الأهمية لأنها تبرز لنا أهمية المقطع (انظر ص ٨٥) . ولكن لا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن المقطعية كانت من مستلزمات تطور الكتابة التصويرية نفسه . فهذا الأمر يوجد بطبيعته في اللغة الوحيدة المقطع ، إذ أن كل كلمة من كلماتها تتكون من مقطع واحد . أما في اللغات الأخرى فإن الأمر ينتهي إلى نفس النتيجة بسبب أن كل صورة كتابية كانت تستعمل للدلالة على مقطع واحد (هو المقطع الأول على وجه العموم) من الكلمة التي تمثلها تلك الصورة . وهذا هو السبب في أن أسماء الحروف في الأبجدية السامية مثلاً هي بمض أسماء الأشياء المختلفة التي يبدأ اسمها بالحرف المقابل ، وكذلك الحال في الأبجدية الأرامية عند الإرلنديين . وفضلاً عن ذلك تمتاز المقطعية بالاختصار : لأنها تسجل السواكن البدئية للمقاطع بدقة ويمكن أن يكتب بها على وجه الإجمال بالنسبة للغات التي ليس فيها مجاميع من السواكن والتي يمكن فيها تعيين نغمة الحركة بواسطة اعتبارات صرفية كما هي الحال في اللغات السامية . ومن ثم أمكن لهذه المرحلة الوسطى أن تكون مرحلة نهائية في كثير من الحالات . فلم تلجأ السامية إلى الإشارة إلى الحركات إلا في عصر متأخر ، عندما بدأ يستعمل اللغة أناس لا يعرفونها معرفة تامة .

وجدت المقطعية مكاناً لها في الشرق الأقصى أيضاً . فقد استخرج اليابانيون من الكتابة الصينية الجازية ، بعد محاولات كثيرة لا يعنيها أن نتكلم عنها في هذا المقام ، أبجدية تتكون من سبع وأربعين علامة ويطبقون عليها اسم « كاتا - كانا » (kata - kana) ؛ ولكنهم لا يستعملونها بصفة مطردة ؛ لأن نظام الكتابة الجارية عندهم مرحلة وسطى بين الكتابة الصينية والكتابة المقطعية . أما أهل كوريا فقد اتخذوا كتابة مقطعية من أصل آراي وجعلوا منها كتابتهم الوطنية (انظر أواخر هذا الفصل) .

تعتبر الكتابة القبرصية أيضاً من الكتابات القطعية ؛ وقد نجح العلماء في فك طلاسمها بفضل استعمالها في تسجيل اللغة الإغريقية^(١) ؛ لذلك كان ما لدينا مسجلاً بهذه الكتابة نصوصاً إغريقية على وجه الخصوص . وأصل هذه الكتابة غير معروف ؛ ولكن من المحقق أنها ابتكرت لتسجيل الإغريقية ، وإن كانت لا تسجلها إلى بصورة ناقصة . وقد استعير عنها في قبرص نفسها بالإنجليزية الإغريقية .

الأبجدية الحرفية آخر مرحلة في سبيل استكمال الكتابة . وقد أدت إليها الحاجة إلى رقم الحركات دون اضطرار إلى زيادة العلامات التي كانت تكون الأبجدية القطعية . إذ أخذت الأبجدية القطعية السامية في وقت من الأوقات تزود برموز لرسم الحركات نسميها *matres lectionis* « علامات الضبط » وذلك لتيسير القراءة . وقد أحسنت الأبجدية الإغريقية استقلال هذه الرموز حتى خلقت منها علامة لكل حركة . وقد كتب رينان أن « الأبجدية الحرفية من خلق الساميين »^(٢) . وهذا محتمل ، ولكن الرأي القديم الذي يؤكد أن الأبجدية الإغريقية من أصل فينيقي قد فترت قوته اليوم عن ذى قبل . فيميل الأستاذ دوسو^(٣) إلى أن يمزو شرف الأبجدية إلى حضارة بحر إيجه ، تلك الحضارة التي تمثلها لنا آثار جزيرة كريت ، وإن كان تمثيلاً سيئاً . فمنده أن الإغريق والفينيقيين على السواء قد أخذوا حضارتهم عن الإيجيين . ولكن الأبجدية الفينيقية على كل حال قد آثرت على الأبجدية الإغريقية كما تبين لنا من اسم الجروف الإغريقية (هذا ، وانظر هيرودوت ٥٨/٥ الذي يسمى الحروف « *φοινικία γράμματα* ») .

ولم تلبث الأبجدية الإغريقية ، بعد استكمالها على أيدي اليونانيين ، أن انتشرت في كل بلاد الإغريق على وتيرة واحدة . وقد نقل الإغريق الأبجدية إلى جهة الغرب .

(١) عن فك طلاسم النقوش القبرصية انظر بريال ، *Journal des savants* أغسطس وسبتمبر ١٨٧٧ .

(٢) رقم ١١١ ، ص ١١٤ .

(٣) *Les civilisations préhelléniques dans le bassin de la : Dussaud*

mer Egée . الطبعة الثانية ، ص ٤٣٤ .

ففي إيطاليا انتقلت الأبجدية إلى اللاتينيين وإلى الأترسكتين من كوميس Cumes ،
وهي مستعمرة من مستعمرات أوبين دى شاليس Eubœens de Chalcis .
ودخلت الأبجدية وادى الرون على أثر تأسيس مرسيليا ؛ ولا زلنا نثر فيه على
نقوش جولية مكتوبة بالحروف الإغريقية وترجع إلى بدء التاريخ الميلادى .

أما من الناحية الشرقية فإن الآرامية هي التي قامت بدور نشر الأبجدية ؛
وهو دور عظيم تبرره ظروف التاريخ . ولكن التغير الذى طرأ على الكتابة
هو الذى ساعد على القيام بهذا الدور . فكما أن استعمال الأوراق البردية والحاجة
إلى الإسراع فى الكتابة قد أديا إلى تحول الكتابة الهيروغليفية فى مصر إلى كتابة
هيراطيقية ثم إلى كتابة ديموطيقية ، فإن الكتابة الفينيقية قد أخذت عندما
استعملت فى الآرامية صورة جارية وعملية ؛ إذ استدارت الزوايا وانحوت رؤوس
الحروف ، وصارت الشرط المتطرفة تنتهي بنوع من الذيل يدور حول نفسه .
وقد امتدت الأبجدية الآرامية إلى الهند . إذ أن معظم النظم الكتابية المستعملة
فى آسيا الوسطى مشتقة منها . هذا وقد أمكن لها أن تصل إلى الشرق الأقصى ،
فهي التي تكون الكتابة الكورية التي تستعمل حتى اليوم .

الكتابة الحرفية ، وهي آخر مراحل التطور الكتابى ، انتشرت فى أوروبا
ابتداء من التاريخ المسيحى بفضل الإغريق والرومان . والذي يفسر هذا الحادث
سبب تاريخي ، وهو انتشار المسيحية . فإن الحوارين الذين لقنوا المسيحية
للشعوب الوثنية علومهم أيضاً قراءة النصوص المقدسة ، واضطروا ذلك إلى تكوين
أبجديات على نسق الأبجدية التي كانوا هم أنفسهم يقرءون بها هذه النصوص .
ومن ثم اتخذت الأبجدية الإغريقية مثالا للأبجدية القوطية بفضل فلغيليا Wulfila .
وللأبجدية السلافية بفضل سيريل Cyrille وميثود Methode . أما الألمانية
القديمة والإنجليزية القديمة والإيرلندية القديمة فقد اشتقت كتابتها من الأبجدية اللاتينية .
نحن نعرف على وجه العموم الصورة التي تكونت بها هذه الأبجديات المختلفة .
فقلغيليا مثلاً بدأ بأن أخذ من الأبجدية الإغريقية جميع الحروف التي تعبر عن
أصوات موجودة فى لفته ، واحتفظ لها بقيمتها . وبالنسبة للأصوات الأخرى

استغل على نحو ما ، الحروف التي بقيت غير مستعملة . فاستعمل الحرف الإغريق (ψ) لكتابة الاحتكاكي الأسناني الميموس ، والحرف θ لكتابة الصوت hw . وفي بعض الأحيان اضطر إلى الاستمارة بأبجدية لغات أخرى . إذ لا شك أن حرف F القوطي مستعار من الأبجدية اللاتينية ، وأن العلامتين الدالتين على Y قد استقيتا من الأبجدية الرونية runique القديمة . ويمكننا أن نجد مثل هذه الحالات في تاريخ كثير من الأبجديات . فالأبجدية الإغريقية تعرفنا أن الإغريق قد استعملوا مثل هذه الحرية عندما طبقوا على لغتهم الكتابة المعروفة بالكتابة الفينيقية .

ومهما يكن من شيء ، فهناك خلاف جوهري بين الأبجديات المشتقة من الإغريقية والأبجديات المشتقة من اللاتينية . فالأولى قد وضعت بدقة تامة وقام بها أشخاص ذوو حسّ مرهف بالروابط الصوتية فأظهروا في تسجيلهم لفروق النطق الدقيقة مهارة فائقة . ومن ثم كانت الأبجدية القوطية التي قام بها فلفيلا Wulfila أداة لائقة وعلى جانب كبير من الدقة ؛ والأبجدية السلافية التي وضعها سيريل وميتود تعتبر تحفة حقيقية . فإوسع الفرق بينها وبين أبجدية الإنجليزية السكسونية أو الأيرلندية ! فهؤلاء قد ظلوا قرونًا طويلة يفتشون عن وسيلة يطبقون بها الأبجدية اللاتينية على لغتهم ، ولكنهم لم ينجحوا قط في مسعاهم .

والحقيقة أن وسائل الأبجدية اللاتينية كانت تقصر على الغرض الذي هدفوا إليه . فالنظام الصوتي لكل من هاتين اللغتين يختلف عنه في اللاتينية أشد اختلاف إذ تحتوى اللاتينية على عدد هام من الأصوات الانفجارية ، مجهورة كانت أو مهموسة ؛ أما الأيرلندية فتمتاز بالأصوات الاحتكاكية ؛ هذا إلى أنها أكثر تنوعاً في الأصوات من اللاتينية . والكتابة الأيرلندية قامت شيئاً فشيئاً ممزقة وعلى فترات ، تسكونت بعد تحسسات طويلة وبعد سلسلة طويلة متتابعة من الإجراءات الناقصة غير المتصلة : لذلك كان تفسيرها يتطلب دائماً مجهوداً من القارىء . فهي عكس الكتابة القوطية على خط مستقيم ، تلك الكتابة التي نشأت دفعة واحدة وبطريقة منهجية في ذهن مبتكرها . ولكن لا ينبغي لنا من ذلك أن ننسيف إلى

(م - ٢٦)

هذا المتكسر فضل هذا النجاح كاملا . إذ أن المادة التي كانت موضع دراسته كانت أكثر قبولا للنجاح . فالقوطية كما عرفنا إياها فولفيليا ، ذات اطراد نحوي جميل ، يكشف عن لغة مشتركة قد سوّيت واستقرت ؛ أما الإيرلندية فكانت على جانب لا يوصف من الفوضى في اللحظة التي حاول فيها أهلها أن يثبتوها بالكتابة . ويمكننا أن نقرر نفس الشيء بالنسبة للسلافية القديمة في مقابلة الألمانية القديمة أو الإنجليزية القديمة .

الفصل الثاني

اللغة المكتوبة والرسم

أحس بنو الإنسان في كل المصور أهمية اللغة المكتوبة . فارجعوا أصل الكتابة إلى الوحي الإلهي . إذ اعتقد المبريون أن موسى تلقاها من ذات الإله ؛ وعزاها المصريون إلى الإله توت (أفلاطون ، فيدروس : ٢٧٤) ؛ ووضع الإغريقون اختراع الكتابة في نسق مع ممارسة الزراعة واكتشاف النار ، فرفموا كدموس Cadmus إلى مرتبة تريبتوليم Triptolème أو بروميثيه Promethée .

ولكن ليس معنى هذا أن الأولين من بني الإنسان قد صدمتهم فائدة هذا الابتكار ، أو أنهم أحسوا الخدعات التي يمكن أن يؤديها إلى سلاتهم ؛ بل لقد رأوا في الكتابة إجراء غيبياً أثار انتباههم بمخائمه المخوفة . فالكتابة بالنسبة إليهم كانت علماً . والعلم قد أثار دائماً خوف البشر ؛ وهم على حق في ذلك لأنه يسمح لمن يستحوذ عليه بفعل الشر والخير على السواء .

أولئك الذين بدءوا باستعمال الكتابة كانوا يستعملونها في عمليات شبه سحرية . فالكتابة في أصلها كانت طريقة من طرق السحر . وقد احتفظت اللغة المكتوبة بهذه الصفة زمناً طويلاً . فكتابة اسم على قطعة من اللحاء أو من إهاب حيوان ، كان معناها إمساك الكاتب لصاحب الاسم تحت تصرفه ، معناها قسره وتقييده ، معناها القدرة على رفعه أو خفضه ، على نجاة أو إهلاك كدباً لإرادته . وأول ماخط من سطور تحتوي على اسم أحد الأشخاص ، كان ضرباً من الرق : نعاويز يقصد بها النجاح أو الشفاء ، الإخضاع أو الإضرار . وإذا كانت الكلمة الملفوظة لها قوة سحرية (انظر ص ٢٣٨) فالكلمة المكتوبة من باب أولى . ومن ثم كان الكتاب الأولون من السحرة .

الكتابة والقَدَر sort لا ينفصلان عند كثير من الشعوب . فالكتابة عند الكلتين والجرمانيين من عالم « الغيب » (بالقوطية runa) ، وهي ضرب من ممارسة السحر^(١) . وقطعة الخشب التي تحفر عليها الحروف كانت تستخدم في نفس الوقت للأذى السحري . وظل المعنيان مختلطين حتى أيامنا هذه في مفردات الأيرلنديين والبريتانيين . وكما أن كلمة Buchstabe (ومعناها الحرفي : عصا من الزان) تدل على « الحرف » في الألمانية ، فإن كلمة crann - chur (قذف الخشب) معناها « القدر » في الإيرلندية ، وكذلك كلمة coel - bren (حرفياً : خشب النبوة) في الغالية^(٢) .

وحتى بعد أن تجردت الكتابة من كل صفة سحرية ، ظلت محاطة بهالة من الخوف والاحترام . ذلك أن الناس قد احتفظوا بما للنص المكتوب من خرافة . وقد استغل الدين والقانون هذه العاطفة ليفرضا على أذهاننا النص المكتوب الذي لا يعتبره تحويل أو تبديل والحرف الذي يتحدى ما يقتضيه العقل . وزاننا لا تزال نكرر : « هذا مكتوب » أو « لقد كان ذلك مكتوباً » كما لو كنا نشاطر الشرقيين عقليتهم التي تتصور القدر مسجلاً في كتاب كبير تطوى منه في كل يوم صفحة ، هذا على أن أهمية النص المكتوب شيء طبيعي . إذ أن المكتوب يبقى ، على حين تبدد الألفاظ . والكلمة إذا سجلت عندما تخرج من بين حواجز الأسنان ، استقرت إلى الأبد كأنها وثيقة . إثبات ؛ وبعد كل هذا فإن الإنسان يؤخذ « بما كتب » . فالكتابة بعد أن لم تصبح رباطاً سحرياً ، قد بقيت رباطاً على كل حال .

وهكذا نرى أن الاستعمال يتفق مع التقاليد في تأكيد اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة . والواقع أنهما لا يختلطان أبداً . ومن الخطأ أن نظن أن النص المكتوب يعتبر تمثيلاً دقيقاً للكلام . فلسنا ، على عكس ما يتصور كثير

(١) نكل Zur Einführung in die Runenforschung Germ. Rom. : Neckel

Monatschrift ، مجلد ١ ، ١٩٠٩ .

(٢) ج . لوث Le sort et l'écriture chez les Anciens Celtes : J. Loth

(مجلة العلماء ، سبتمبر ١٩١١ ، ص ٤٠٣ وما يليها) .

من الناس ، نكتب كما نتكلم ؛ بل إننا نكتب (أو نحاول أن نكتب) كما يكتب غيرنا . وإن أقل الناس ثقافة يشعرون ، بمجرد وضع أيديهم على القلم ، بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة ، لها قواعدها واستعمالها كما أن لها ميدانها وأهميتها الخاصين بها (انظر ص ٣٤٠) . وهذا الشمور له ما يبرره .

اللغة المكتوبة هي الطابع المميز للغات المشتركة . واللغة المشتركة بطبيعتها في نزاع دائم مع اللغة المتكلمة ؛ لأن هذه الأخيرة ، في خضوعها للتأثيرات الفردية ، تميل دائماً إلى الابتعاد عن المثل الأعلى الذي تحتذي اللغة المشتركة . واللغة المكتوبة معرضة بدورها لضربات اللغة المتكلمة ، لأن اللغة المشتركة تعتمد في مقاومتها على الكتابة أولاً وقبل كل شيء . ومن جهة أخرى تستعمل الكتابة في التعبير عن كثير من اللغات الخاصة ، بل لا وجود لبعض هذه اللغات الخاصة إلا في صورة مكتوبة . ولهذا الاعتبار أيضاً كان الخلاف بين الكلام والكتابة أمراً مقررّاً ثابتاً .

هذا الخلاف يتجلى في أوضح صورته في مسألة الرسم . فلا يوجد شعب لا يشكو منه إن قليلاً وإن كثيراً . غير أن ماتعانية الفرنسية والإنجليزية من جرائه قد يفوق ما في غيرها . حتى أن بعضهم يمدّ مصيبة الرسم عندنا كآفة وطنية^(١) . لذلك يهمننا أن نعرف مدى هذا الشر والأسباب التي أدت إليه وأنواع الدواء التي يمكن أن يعالج بها .

لمرض هذه المسألة على خير وجوها ، يجدر بنا أولاً أن نتساءل إلى أي حد يمكن للرسم أن يخفف من وطأة الخلاف القائم بين الكلام والكتابة ، وإلى أي

(١) انظر خاصة ارسن در مستير : مسألة إصلاح الرسم ، في *Mémoires et documents scolaires* الكراسة رقم ٧٣ ، باريس ١٨٨٨ (وفرديناند برينو : إصلاح الرسم باريس ١٩٠٥ ؛ ل . هافيه : تبسيط الرسم (*Revue bleue* ١١ مارس سنة ١٩٠٥) ؛ م . بريال : كلمة أخيرة في الرسم (*قوس الرجوع*) ؛ موريس جرامون . تفسير الرسم الفرنسي ، رقم ١٧ ، نوفمبر وديسمبر ١٩٠٦ ، ص ٥٣٧ وما يليها . وتري عرضاً كاملاً للمسألة في دوننس Dutens ، رقم ٦٩ .

درجة تستطيع الكتابة أن تمثل النطق . فبعض أنواع الرسم تدين بتمقيدها إلى الرغبة في تعليم القارئ نطق الكلمات على أدق صورة ممكنة . وتنشأ هذه التعميدات في غالب أمرها في الخارج . فالعناية التي تبدلها اللغة في تسجيل الأصوات ترجع إذن إلى انتشار اللغة بين أقوام لم يكونوا يتكلمونها بسليقتهم . وهكذا تطور استعمال النبرات على الكلمات الإغريقية في مصر ، حيث كان يتكلم الإغريقية أناس من غير الإغريق ، فكانوا في حاجة إلى العناية بمعرفة الموضع الذي ينبر في الكلمة . وكذلك كان بدء تعليم الكتابة السامية بالحركات في بلاد الحبشة لما دخلت فيها اللغة العربية . إذن أن النصوص الحبشية الأولى مكتوبة بخط سبئي خال من الحركات ؛ فالكتابة الحبشية أول كتابة سامية اتجهت إلى تعليم الحركات ، وهذا شيء لا يد منه بالنسبة لقوم لم يعودوا بعد النظام الصرقي السامي المقدر . وكان ذلك تقدماً لا ريب فيه ، جمل من الكتابة صورة من الكلام أقرب إلى الحقيقة .

ومع ذلك فلا يوجد رسم واحد يمثل اللغة المتكلمة كما هي . فإنا إذا تصورنا رسماً مما يسمى بالرسم الصوتي ، وقد زود بحروف متنوعة وبعلامات للتشكيل ، فإن هذا الرسم لا يتيح معرفة النطق الحقيقي معرفة تامة لشخص لم يسمع الكلام باللغة التي يقرأها . ومن ثم كان من المتباد في كتب الأصوات أن تصور الأصوات اعتماداً على لغة معروفة للقارئ لا على الجهاز الصوتي للإنسان . وهذه الطريقة أبسط وأدق من غيرها . فيقال إن هذه العلامة أو تلك تمثل الـ (th) (ث) الإنجليزية الرخوة ، أو الـ (ch) الألمانية الصلبة (خ) ، وأفضل من ذلك أن يقال مثلاً إن الحركة الفلانية هي الـ (a) (الفتحة) الفرنسية في كلمة كذا إذا نطقت على الطريقة الباريسية . وإن كان لا يستفيد من هذا التحديد من لم يسمع كلام إنجليزي أو ألماني أو باريسى .

ولكن هذه الوسيلة أيضاً غير كافية . لأن القارئ ، مهما ساعد بمقابلات دقيقة في اللغات التي يعرفها ، لا يستطيع إدراك أصوات لغة جديدة وأن يقوم بتحقيقها دون أن يسمع نطقها بنفسه . ذلك لأن اللغة المتكلمة من التعميد بحيث

تتضمن على أكبداس من تفاصيل الشدة والتنظيم والنطق الفجائي ، مما لا يستطيع
رسم صورها مهما بلغ من درجات الكمال .

ف فكرة عمل رسم صوتى يطبق على جميع اللغات سراب خداع ، لأن تنوعات النطق من الكثرة بدرجة يستحيل معها أن يكون الرسم غير تقريبي . وهذا ما نراه فى المحاولات التى عملت لإيجاد رسم واحد منسجم لكتابة الأعلام الجغرافية . فقد اصطدم القائمون بهذا الأمر بتلك الصعوبة الداعة ، وهى أن الرسم لا يخلو أبداً من الإيقاع فى اللبس^(١) . بل إن علماء اللغة يلاقون أشد العناء فى وضع نظام ينطبق على اللغات التى يدرسونها^(٢) .

أما إذا أردنا أن نصل بمبدأ الرسم الصوتي إلى غايته الحتمية ، فإن ذلك يؤدي بنا تقريباً إلى عمل نظم من العلامات المختلفة لكل لغة على حدة . لأنه لا يوجد إلا القليل من اللغات التي تتفق في نظامها الصوتي وفي نظام حركات جهازها النطقي . فلا يكاد يوجد صوت واحد مشترك بين الإنجليزية والفرنسية : وإذن يجب وضع علامات مختلفة لرسم الإنجليزية . وهذا يؤدي بنا إلى أن نجعل عدد علامات الرسم غير محدود . لكل ذلك كان من الخير أن ندع الأمور على ما هي عليه ، إذ أنه يتحتم على من يريد معرفة قيمة العلامة أن يكون قد سمع الكلام باللغة التي هو بصدددها كما بينا سابقاً .

نضيف إلى ذلك أن أتم نظم الرسم لا تستطيع مطلقاً أن تصور الخصائص
اللهجية ، وأنه لا يمكننا أن نشير في الكتابة مثلاً إلى خصائص النطق التي يتميز
بها أهل البيكاردى أو الفرنش كنتيه ، بله أهل مرسيا أو جسكونيا .
وهذه صعوبة أولى .

وهناك صعوبة ثانية ترجع إلى أن الرسم الصوتي يصاب بالقصور على مرور

(١) انظر كرسنيان جرنيه : طريقة عقلية عامة لرسم الأسماء الجغرافية ، يمكن أن تطبق على جميع الكتابات المتعملة في العالم ، باريس ١٨٩٩ .

(٢) برجان Bruggmann ، رقم ٣٠ ، مجلد ٧ ، ص ١٦٧ ؛ هـ . هرت H. Hirt :
 في صعوبة الرسم ، رقم ٣٠ ، مجلد ٢١ ، ص ١٤٥ ؛ وكرستيان برتولومار Chr. Bartholomae
 رقم ٣٠ مجلد ٢١ ، ص ٣٦٦ ؛ ي . فسكرناجل ، رقم ٣٠ ، مجلد ٢٢ ، ص ٣١٠ .

الزمن وبسرعة تختلف باختلاف اللغات . إذ أن السبب الأساسي لأزمات الرسم ينحصر في استجالة مسيرة الرسم لحركة اللغة ، وذلك في نفس الوقت خير شهادة على اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة . فاللغة المكتوبة تتطور دون توقف^(١) . أما اللغة المكتوبة فحافظت بطبيعتها ، لا لأنها . تعبر مشخص للغة المشتركة وقد قننها النحاة فحسب ، بل أيضاً لأنها لا تستطيع التغير بنفس السرعة التي تتغير بها اللغة الكلامية . نعم إن قوة التقاليد تصير أمراً خطيراً عندما تحميها المدرسة والآداب وإجماع المثقفين . ولكن التقاليد هنا ليست المقبة الوحيدة في سبيل تطور الكتابة . فالثبات ضروري للغة المكتوبة ، لأنها تعتبر لغة مثالية حددت معالمها نهائياً ، ولا يمكن المساس بها إلا بعد فوات الأوان . فهمنا عنيما يجعل هذا النكساء مرناً مطابقاً لحنايا الجسم الذي يكسوه ، فلن نستطيع مطلقاً أن نخضعه لنزوات الطبيعة وأن نجعله ينمو بنمو الجسم لأنه شيء ميت ينفلي كائنات حيا .

يدهش الإنسان أحياناً من إبطاء اللغة النقية في مسيرتها للتقدم الذي تقوم به اللغة الكلامية في ميدان الصرف والمفردات . فالأ كاديمية لم تجز حتى الآن عبارات من قبيل « je m'en rappelle » أو « de façon à ce que » ، مع جريانها في الاستعمال منذ قرن . ولكن لا أهمية لذلك ، مادامت هذه العبارات قد أصبحت اليوم من المقررات . وكثير من الاتجاهات المتنوعة التي تبدو في اللغة يكون مصيرها الإخفاق . وإذا كان الاتجاه جديراً بالبقاء فإنه يتطلب وقتاً طويلاً للوصول إلى غرضه ؛ فإذا فرضنا أنه سُجِّلَ في نفس اليوم الذي وصل فيه إلى غايته ، كان القيام بهذا العمل متأخراً عن أوانه ، مادام هذا الاتجاه قائماً مؤثراً منذ زمن طويل . وكذلك الحال بالنسبة للرسم . فإنه لا يعتمد بطبيعة الحال إلا الصور التي محصت وثبتت بالاستعمال مهما كانت دقته ومسايرته نحو التقدم .

ولكن من المسير أن أن يكون الرسم دائماً دقيقاً سباقاً إلى التقدم . إذ يجب

(١) عن تاريخ النطق في الفرنسية انظر ثورو Thurot ، رقم ١٢٦ ، وروسية : رقم ١١٢ ؛ وعن النطق في الإنجليزية : انظر إليس Ellis ، رقم ٢٣ ، ١٨٧٣ — ١٨٧٤ .

التفريق بين اللغات بالنسبة لهذا الاعتبار . ويدهش الإنسان أحياناً بحق عند ما يرى اختلاف لغات مثل الإنجليزية والألمانية والفرنسية والأسبانية من حيث قيمة الرسم . فرسم الألمانية لا يمدّ رديئاً ورسم الأسبانية جيد جداً ، أما رسم الإنجليزية أو الفرنسية فسيء . ولا يمكن أن يسبقهما في هذا الضمار إلا رسم لغة التبت أو اللغة الإيرلندية . وقد ذكر بعض علماء اللغات الكلتية على سبيل التسلية رسم بعض الكلمات الإيرلندية من قبيل saoghal و lanamhain و oidhche و cathugliadh التي تنطق على وجه التقريب sil و lánun و i و cahu . وبهذا تستطيع الإيرلندية أن تستثير غير الفرنسية التي تكتب oiseau ما تنطقه wazo والإنجليزية التي تكتب enough و knight و wrought وتنطق enaf و naft و ròt . ولكننا لا ينبغي لنا أن ننسى الظروف المحففة في حكمنا على هذه اللغات ، فالاختلافات التي نلاحظها بين الرسوم المختلفة ترجع إلى أسباب تاريخية .

نلاحظ أولاً وقبل كل شيء أن اللغات المشتركة التي تعبّر عنها هذه الرسوم قد تكونت في عهود على جانب من القدم . ثم نلاحظ بعد ذلك أن التطور الصوتي في بعض اللغات أسرع منه في غيرها وأنه يغير نطق الكلمات تغييراً تاماً : فالإيطالية والأسبانية قد بقيتا أقرب إلى اللاتينية من الفرنسية بكثير . والإنجليزية قلبت النظام الصوتي الذي ورثته عن الجرمانية . ولنلاحظ على وجه الخصوص أن الظروف التي نشأت فيها الرسوم كانت تختلف في كل قطر عنها في الآخر . وقد أثر على الرسم كثير من الأسباب الخارجية بل والفردية . مثل ذلك تأثير المصلح الديني الغالي سالسبوري Salisbury الذي صارت ترجمته للكتاب المقدس في سنة ١٥٦٧ حجة ؛ فالمادة التي أدخلها في كتابة الضمير الذي لا ينطق إلا i (إي) على هذا النحو ei ظلت متبعة حتى أيامنا هذه . وفي روسيا أثر تقاليد اللغة السلافية القديمة ، وهي لغة دينية كانت من القوة بحيث جعلت الروسية الحديثة تكتب حالة من حالات الإضافة togo في حين تنطقها tavo . وتأثر الرسم عندنا في نهاية القرن السادس عشر بأثر العلماء المشربين بالروح الكلاسيكية ومسائل علم الاشتقاق . فهم أول المسئولين عن المتاعب التي نمانى اليوم نتائجها ، ولكنهم كانوا على اتفاق

مع روح العصر الذى عاشوا فيه . وهذه الحالة النفسية بذاتها قد وقعت فى أيرلندة حيث وضع الرسم بعد محاولات عديدة قام بها قوم من المتحذلقين المفتونين بحب التقاليد . فى غضون القرن السادس عشر قامت محاولات لاصلاح رسم اللغة الغايلية فى المخطوطة الشهيرة التى قام بنسخها السير جيمس مكجربجور Sir James MacGregor ، عميد لسمور Lismore (فى أرجيلشير Argyllshire ؛ وبفضل هذا الكتاب يمكننا أن نحكم بمقدار اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة فى ذلك الحين . ولكن لا ينبغي لنا أن نبالغ فى تقدير ما فى الرسم الأيرلندى من تعقيدات فجزء كبير منها يرجع إلى غلطة مبدئية تنحصر فى اتخاذ الحروف علامات لتحديد نطق الحروف الأخرى ؛ وهذا قد طبع الكتابة بطابع ممل ، ولكن يمكن التعمود عليه بعد قليل من الممارسة . والدليل على جودة الرسم التقليدى . فى بعض الأحيان أننا نستطيع بشئ كثير من الدقة أن نقرأ النصوص الأيرلندية المعقدة التى ترجع إلى عهد مخطوطة عميد لسمور ، بينما نعجز عن تحديد ما لبعض رسوم هذه المخطوطة نفسها من قيمة .

وهذا لا يعنى أننا نرى حتما علينا أن ندافع عن الرسم الأيرلندى ، ومعه الرسم الفرنسى ، ذلك الرسم المحشو بحروف لا فائدة فيها . فقد عانت لغتنا أكثر من غيرها من آثر المتحذلقين الضار . ألم يمنح بها الخيال إلى كتابة كلمة sire « سيد » فى صورة syre زعماء منهم أنها مشتقة من الكلمة الإغريقية ξυριος ، وهو زعم زائف ؟ نعم إننا لم تتبعهم فى هذه النقطة ، ولكننا تتبعهم فى كتابة كلمة poids « وزن » بحرف « d » وكلمة vingt « عشرون » بحرف « t » ، نضع أن هذين الحرفين لم يلفظ بهما فى أية فترة من تاريخ اللغة ، كما أن إضافة الدال فى الحالة الأولى تتنافى تماماً مع الاشتقاق : لأن كلمة poids مشتقة من كلمة pensum وليست من pondus . وهم الذين أدخلوا فى الرسم حروفاً لا تلفظ فى اللغة منذ عهد سحيق . وقد أدى الخط البائر أحياناً إلى نطق هذه الحروف من جديد ، فوأننا نلفظ الـ « s » « س » من الفعل festoyer « يحتفل بالعيد » برغم أننا نقول fête « عيد » دون (س) ؛ ونسمع أناساً ممن يفاخرون بإجادة اللغة

ينطقون الكلمات *chaptel* « سلالة » و *dompter* « يروض » و *sculpter* « ينحت » و *promptement* « على الفور » بالمجموعة الصوتية *pt* (بت) ، وهو نطق غير سليم . وهناك ما هو أنكى من ذلك : فإن كلمة *lais* القديمة — وهي من فعل *laisser* « يدع » — قد كسيت رداء جديداً لم يكن من حقها أن تلبسه ، فصارت تكتب *legs* بحرف *g* ، وذلك تحت تأثير الفعل *léguer* « يودع » . واليوم ينطقها الكثيرون بهذا الحرف كما ينطقون اسم العلم *Leygues* . ومن ثم رى أن الرسم من العوامل التي تؤدي إلى تغيير المفردات ^(١) : ففراه يفصل بين *fête* و *festoyer* وبين *legs* و *laisser* بينما نراه يصل *foršené* (« متهور غضباً ») بكلمة *force* « قوة » وذلك بكتابتها *forcené* . كما أنه يحرف الاشتقاق بعض الأحيان : فإن الاستهال *السي* ، *«ge»* بدلا من « ز » قد أوجد كلمة *gageure* التي ينطق بها سواد الناس في عصرنا هذا على وزن *beurre* ، مع أنها مشتقة من *gager* « راهن » بواسطة اللاحقة *-ure* مثل *picûre* « لدغة » من *piquer* « لدغ » و *mouillure* « تبلل » من *mouiller* « بلل » . وإذا أردنا أن نعدد هنا آثام الرسم في الفرنسية ذلن نستطيع الانتهاء منها ^(٢) . وإن المناقشات التي دارت حديثاً حول هذا الموضوع قد سمحت بتسجيل قوائم بهذه الآثام وإن في مادتها من الغزارة ومن الشهرة ما يعفينا من محاولة ذكرها في هذا المكان .

وهي دائماً في سبيل الزيادة ، لأن أزمة الرسم تتوقف على الظروف الاجتماعية التي تتطور فيها اللغة ، فبمقدار اتساع الخلاف بين الفرنسية الأدبية والفرنسية الكلامية (انظر ص ٣٤٣ — ٣٤٤) تزداد حدة الشر . لأن عدداً من الكلمات التي تستعمل الآن في المحادثة سيرك نهائياً اللغة المكتوبة وعندئذ لا يحفظ إلا من الكتب ولا تعمل على الاحتفاظ بسلامة نطقها أية رواية شفوية ، فتصبح هذه

(١) عن وجود حالات من هذا القبيل في الألمانية انظر *Behaghe* : تأثير الكتابة في مفردات اللغة ، مجلة اتحاد اللغة الألمانية ، مجلد ١٨ ، ص ٣٥ — ٤٠ و ص ٦٨ — ٧٦ .
(٢) ١ . جازيه *A. Gazier* : الرسم عند آبائنا وعند أطفالنا في *Mélanges* *de littérature et d'histoire* ، باريس (١٩٠٤) ص ٣٢١ .

الكلمات بمثابة الكلمات الأجنبية التي تدخل في اللغة بواسطة الكتب : فنحن نقول rail (شريط السكة الحديد) أو wagon (عربة القطار) متأثرين بالصورة المطبوعة فنطبق النطق الفرنسي على الرسم الإنجليزي ؛ ولكننا نقول Bifteck ، على النطق الإنجليزي ، لأننا أخذنا هذه الكلمة عن الرواية الشفهية . وكلمة gageure كلمة صحفية مثل كلمة rail وكلمة wagon ؛ وهذا يفسر لنا ما طرأ عليها . فالكتاب يمسك دائماً في اللغة رد فعل الصورة المكتوبة على الصورة الشفوية .

وفي إنجلترا أيضاً يعلن تباين اللغتين عن نفسه منذ زمن طويل . فرطانات الأقاليم الإنجليزية مشربة جميعها باللغة الأدبية من تأثير الكتب والصحف بوجه خاص . وهذه اللهجات ليست في غالب أمرها إلا اللغة الأدبية بعد أن صيغت بالصيغة اللهجية كما هي الحال في فرنسا (انظر ص ٣٣٦ و ٣٣٧) . غير أن صيغ اللغة الأدبية بالصيغة اللهجية يمرض صاحبها للوقوع في الأخطاء . وهذا مثل عودجى من تلك الأخطاء : كلمة light التي تنطق laït في اللغة المشتركة لا تزال تنطق lixt في شمال القطر . وبالقياص على ذلك راح أهل الأقليم ينطقون كلمة delight كأنها dilixt بدلا من dilaït ، مع أنها من أصل آخر غير الكلمة الأولى ؛ وقد يجمعون بين الخططين فيقولون في light ، laixt ، وهي طريقة أخرى لصيغ اللغة بالصيغة اللهجية على نحو خاطئ ،^(١) .

تأثير الرسم على النطق في الألمانية أشد منه في الفرنسية أو الإنجليزية ، وهذا يرجع إلى أن الألمانية المشتركة لغة كتابية أولا وقبل كل شيء . (انظر ص ٣٣٢) ففي إبان تكوين اللغة المشتركة سوى النطق على الرسم في غالب الحالات . لأن الرغبة كانت تتجه في ذلك الحين إلى إقامة نطق عام ، لاهو نطق إقليم معين ولا نطق مجموعة إجتماعية بعينها ؛ فلا استعمال كان يتجه ولا زال يتجه إلى تطبيق الألمانية الكلامية على رسم الألمانية الأدبية . فن ذلك مثلا ، أن الحركة المركبة ie في الألمانية العليا الوسطى صارت i طويلة (ي) دون أن يتغير الرسم لهذا السبب ، ولكن لما كانت الاستشارية السكونية تكتب je بدلا من ie عندما تكون

(١) و . هورن : رقم ١٦٦ ، ص ٥٥ .

في مبدأ الكلمة ، فقد أدخل هذا الاختلاف في النطق أيضاً ، ومن ثم نرى jemand (بعض الناس) و je في مقابلة niemand (لا أحد) و nie (لا) ^(١) . ومع ذلك فإن الألمانية تمتاز عن الفرنسية والإنجليزية بأن الرسم بعد أن استقر فيها بقي ثابتاً . أما في الفرنسية فإن التباين الذي بين الفرنسية الكتابية والفرنسية الكلامية لا يزداد مع الأيام إلا اتساعاً .

* * *

لا يمكننا إلا أن نمتدح المجهودات التي تبذل لإصلاح عيوب الرسم . وحجة القاعمين بها تلخص فيما يلي : الرسم الفرنسي عبارة عن نظام توافقي قام بوضعه جملة وتفصيلاً طائفة من متحذلقى العلماء . وما وضعه التوافق يستطيع التوافق أن يلفيه . وليس في إصلاح رسم اللغة إضرار باللغة نفسها . بل إن في ذلك تخليصاً لها من داء ينخر في جسمها وتوفيرا للوقت ثمين يضيع على أولادنا هباء متبورا وتسهيلا للأجانب الذين يتعلمون لغتنا .

وكلها أسباب وجيهة وكنا نتمنى لو أنصت لها الناس في كل مكان . وامله كان يلزم لذلك أن تكلف لجنة من العلماء المختصين بالبحث عن الوسائل الناجمة في إصلاح الرسم في الفرنسية ، وأن يكون ذلك بصفة دائمة . كما يفعل الأطباء إذ يسهرون المريض حتى شفائه التام . وهذا العمل يستلزم وقتاً طويلاً ، إذ لا ينبغي أن يسار فيه إلا ببطء شديد . إذ أن هناك أسباباً كثيرة تبعث على التبصر في هذا الأمر . وسنشير فيما يلي إلى بعضها .

فإذا قمنا بإصلاح شامل دفعة واحدة كنا قد استبدلنا مكان اللغة المكتوبة التي تمودنا عليها لغة كتابية أخرى جديدة . ويترتب على هذا أن نطرح وراء ظهرنا دفعة واحدة جميع المطبوعات التي نشرت بالفرنسية منذ قرون ، وهو أمر مستحيل ؛ هذا إلى أن مثل ذلك العمل يوجب على جيل أو جيلين من الفرنسيين أن يتعلموا لتثني بدلا من لغة واحدة ، وإن هناك من العادات والتقاليد الأدبية ما لا يستطيع المرء أن يغيره بجمرة قلم واحدة . وطبعاً من الواجب جعل الفرنسية

(١) و. برونه : في توحيد اللغة الألمانية ، في Akademische Festrede ، هال (١٩٠٥) .

أسهل تحصيلاً وأقرب مثالا بالنسبة للأجانب . وعلى الفرنسيين الذين يرجون لقطرهم مستقبلاً استثمارياً ناجحاً ، أن يفكروا فى صعوبة كتابتهم الكفيلة بأن ينفر منها من يريد تعلمها من سكان إفريقية الوسطى أو الشرق الأقصى . ولكن يبدو أن صعوبات الكتابة الإنجليزية لم تعرقل نجاح الإمبراطورية الإنجليزية . وإنه ينبغى بذل الاضطراب فى العادات التى درج عليها مواطنونا فى سبيل إرضاء بعض الأجانب . والواقع أن أقل تغيير فى قواعد الرسم كفيل بزعة العادات المكتسبة زعزعة ضارة . لأننا إذا طبقنا الحد الأدنى من الإصلاحات التى يقترحها المصلحون ، لم تبق صفحة واحدة مكتوبة بالفرنسية دون أن تتغير تغيراً تاماً . ويتحتم على العيين والفكر أن يظلا ساهرين على تصحيح مايقع من أخطاء حتى يصابا فى نهاية الأمر بالملل . ولكن يمكن الإجابة على تلك الاعتراضات بأن الصعوبات الناشئة لا يمكن أن تؤثر على أكثر من جيل أو جيلين ، وأن ما نعمل نحن على نسيانه من العادات القائمة يوفر على أحفادنا مؤونة حفظه . وهذه إجابة وجيهة . ومع ذلك فإن الاعتراض ينهنا إلى مقدار التبصر الذى يجب أن نراعيه فى كل إصلاح للرسم .

فإذا ما اقتصرنا على التبسيط التدريجى حسب خطة موضوعة ، فإننا نكون قد احترمنا حقوق اللغة الكتابية التى لا ينبغى لنا أن نهدها .

يميل بعض العلماء إلى اعتبار اللغة المكتوبة خادماً مطيعاً للغة الكلام . وهذا رأى طائفة من علماء الأصوات وأساندة اللغات الحية الذين يهتمون بالحد من تطرف أساندة المدارس ، أولئك الذين يحصرون اللغة كلها فى اللغة الكتابية . ولكن هل يجوز لنا حقاً أن نقول بأن تلك الكلمة المكتوبة تنطق على هذا النحو وأن تلك الكلمة الملفوظة تكتب على ذاك ؟ وهل توجد الكلمة فى الصوت المنبعث من الفم أم فى الكتابة التى تسود وجه الصحيفة ؟ الواقع أنها بالنسبة لكل شخص متحضر توجد فى هذه وفى تلك على السواء . فكثير من المتحضرين يتفاهمون فيما بينهم بالكتابة أكثر مما يتفاهمون بالكلام . وأغلب الظن أننا إذا رجعنا إلى أصول الكتابة وجدنا أن اللغة المتكلمة هى النبع الذى استمدت منه اللغة الكتابية . فمتدا اعترم قلبيلا

Wulfila أن يسجل لغة القوطيين اجتهد في أن يوجد لكل صوت من أصوات اللغة صورة كتابية مناسبة . وبهذا المعنى يصح لنا أن نقول إن الكتابة قد اقتفت أثر النطق . ويسير الحال على هذا المنوال في أيامنا عندما يعمد أحد الجوانين إلى تسجيل لغة من لغات البدائيين لم تكن قد كتبت من قبل . طبعاً لا يدرك الأعمى من الكلمة إلا صورتها السمعية ، ولكن عندما تنتشر الكتابة ويفرض تعلم القراءة على جميع أبناء القطر تزداد أهمية الكلمة المكتوبة شيئاً فشيئاً .

واليوم لا نستطيع أن نتصور اللغة دون صورتها الكتابية . ولا تظهر الكلمات أمام أذهاننا إلا في الثوب الذى يخلعه عليها الرسم . فيمكننا أن نقول هنا إن العضو قد خلق الوظيفة ؛ وأية وظيفة ؟ وظيفة بلغت من الطغيان حداً جعل اللغة المكتوبة تفوق اللغة الكلامية وضوحاً عند بعض الناس ، وهم أولئك الذين نطلق عليهم اسم البصريين . فنسمع بطلا من أبطال دى موسيه يقول بأنه لا يستطيع أن يفهم بوضوح إلا ما كان مكتوباً بالخط المستدير الجسم . هذه الفكاهة السلية يمكن أن تنطبق على كثير من الناس . فهذا مثلاً لا يفهم صفحة يسممها ولا يحسن فهمها إلا إذا قرأها . وذلك لا يستفيد من درس يلقى عليه إلا إذا هيء له بعد ذلك أن يرى غواه مطبوعة أمام عينيه . إن هذه حالة قصوى تلفت النظر بندرتها . ولكن إذا راقب كل منا نفسه بعض الشيء ، تحقق من قربه منها إن قليلاً وإن كثيراً .

عندما نسمع حديثاً ما نلاحظ في أغلب الأحيان أن الكلمات تقرع في نفس اللحظة جهازنا البصرى بقدر ما تقرع جهازنا السمعى ، بمعنى أن الأثر الواقع على المراكز السمعية ينتقل بدوره إلى المراكز البصرية . وحينئذ نبصر الكلمات التى تسممها أذننا . بل نحن أيضاً عندما نتكلم نرى الكلمات التى نلفظها ، فتمر أمام عقولنا كأنها مسطورة فى كتاب مفتوح . والصورة التى تتخذها على شففتينا محددة غالباً بالمنظر الذى تظهر فيه أمام عقولنا . لذلك كان من خير الوسائل لتجنب أخطاء النطق أن ترجع إلى صورة الكلمة البصرية التى تصحب دائماً صورتها السمعية فى ذهننا . وكذلك صورة الكلمة البصرية يصحبها عند القراءة إحساس سمعى ،

ففرانا نفى لأنفسنا جل الكتاب الذى نقرؤه ، وعندما نكتب ، نرى قلما يتبع الإشارات التى يملها عليه الصوت الداخلى . فيمكننا أن نقول بأنه فى أثناء النشاط اللغوى لدى الشخص المتحضر المادى ، تشترك صور اللغة جميعها فى العمل .

اللغة الكتابية إذن ذات أهمية عظيمة فى سيكولوجية اللغة ، فإدما نعلم القراءة والكتابة للأطفال ، يجب ألا نسقط من حسابنا حقوق اللغة الكتابية وإن تمارضت أحيانا مع حقوق اللغة الكلامية ، ولكن هذه الحقيقة لا تستبعد إمكان إصلاح الرسم . إذ من الطيبى أن نعمل على تضيق الشقة بين اللغة الكتابية واللغة الكلامية . ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أن الحصول على تعادل تام بين اللغتين أمر مستحيل ؛ وإذا كانت الكلمة توجد فى الصورة الكتابية وفى الصورة الكلامية على السواء ، فلهل ليس من الشر أن يوجد فى الرسم بعض وجوه من الشذوذ والنفور والعيوب . فبذلك تحفر صورة الكلمات فى الذاكرة بطابع أعمق . وإن غرابة اللباس تعبر بشكل أوضح عن الفكرة التى ترتدبه .

يقول فولتير « الكتابة صورة الصوت ، فكلمة قربت منه فى سبيلها ، كانت خيراً » وهذا القول لا يصدق إلا من الناحية النظرية ، ولا يمكن أن يتخذ مبدأ وطريقة إلا عندما يحتاج الأمر إلى وضع كتابة للغة جديدة . أما فى لغة كاللغة الفرنسية ، فإننا نجد من نطاق الكتابة دون مبرر ، إذا أردنا أن نجعل منها صورة للكلام . نعم أغلب الظن أن اللغة المكتوبة قد ولدت من اتفاق قام بين بضعة أفراد . ولكن هذا الاتفاق قد امتد حتى شمل المجتمع بأسره وفرض نفسه عليه بقوة صارمة . وليس العقل هو الذى ينظم حياتنا الاجتماعية ، بل العادة ؛ وحجج الفلاسفة كلها عبث فى عبث أمام قدرة العادة . فعندما أريد الاستفادة فى العمل من نور النهار أطول مدة ممكنة ، كان المقول أن تُغير مواعيد العمل ، لا أن تُغير الساعة ؛ ومع ذلك فإن الساعة هى التى غيرت ، لأننا لم نقبل أن نتناول طعام الغداء فى الساعة الحادية عشرة إلا إذا أُطلق على هذه الساعة اسم الظهر . فنحن عبيد العادات الاجتماعية إلى هذا الحد ! والرسم هو إحدى هذه العادات بالنسبة لكل شخص متحضر . فلا يمكن إصلاحه إلا بأشد الحذر وباستحياء المادة نفسها .

خاتمة

تقدم اللغة

تقدم لنا الكتابة مثلاً دائماً على تلك الأدوات التي يخلقها الإنسان والتي تستكمل مع الزمن جميع وجوه الكمال التي يستلزمها الاستعمال أو يوحى بها . فبين العلامات التي كانت تحفر بالأسس على الأحجار وبين الحروف التي تطبع اليوم على الورق تقدم شاسع لا ينحصر في الناحية المادية وحدها .

يتوقع الإنسان أن يصل إلى مثل هذه الخاتمة في دراسة اللغة باعتبارها نتيجة عمل عقلي قامت به الأجيال المتوالية . أليست أداتنا اللغوية أيضاً تسير في طريق الإصلاح المستمر ؟ والتراكيب المتنوعة التي يصب فيها العقل الأصوات لكي تترجم عن الأفكار ، ألم تحقق هي أيضاً شيئاً من التقدم في خلال الأجيال ؟ واللغة تبدو لنا في حركة دائمة ؛ أي حركة خادعة تبلي مكانها في مجهودات عقيمة ؟ أم أن اللغة تهدف نحو غاية مثالية لا نتي تقترب منها في كل خطوة من خطوات تطورها ؟ نحن نعرف تاريخ بعض اللغات في خلال فترات واسعة ممتدة . وراها في غالب الأجيال تغيير بسرعة عظيمة . فنحن إذن على حق أن نتساءل عن معنى هذه التغيرات ، أو بعبارة أخرى أن نعرض على بساط البحث مسألة تقدم اللغة .

* * *

ولكن من المناسب أولاً وقبل كل شيء أن نحدد ماذا نعني بكلمة « تقدم اللغة » . فأولئك الذين يستعملونها لا يفعلون أكثر من إدخالهم في علم اللغة مصطلحاً من تاريخ الأدب . إذ أن العادة قد جرت وقتاً طويلاً على اعتبار معنى التقدم في الأدب ديناً ومذهباً ؛ فكان الناس لا يرون في تطور الأنواع الأدبية genres littéraires إلا صعوداً نحو الكمال أو انحداراً إلى الانحلال . وهذا هو الرأي الكلاسيكي الذي يذهب إلى أن الفن والذوق بعد أن يصلا إلى درجة

كلهما لا يسمهما إلا الأبحار والفساد . وعلماء الفيلولوجيا الكلاسيون قد تناولوا هذه الفكرة إلى الدراسة اللغوية متخيلين أنه يوجد في تاريخ الإغريقية واللاتينية نقطة كمال وصلت إليها هاتان اللتان بعد مجهودات طويلة ، ومن بعدها سارتا في طريق الاضمحلال .

ففي اللاتينية كان شيشيرون هو المقياس ؛ ومع ذلك كان يروق لهؤلاء الباحثين أن يقتشوا في كتاباته عن مواضع النقص ؛ فأبعدوا من آثاره الخطابات التي كان يكتبها لأصدقائه على أنها كم مهملا لا يليق بقدره . واللاتينية الحقبة عندهم تتلخص في طائفة من الخطب والدراسات الفلسفية التي تركها الخطيب الكبير ، وقد يضيفون إليها شروح قيصر وتراجم كرنليوس نيبوس Cornelius Nepos . أما بقية الكتاب اللاتينيين فكانوا موضع ريب أو رفض صريح . فلكريس Lucrece كان خشناً قليل العناية ؛ وبلوت Plaute متبربر لم يُسقل بعد ؛ وسلوست Salluste موبوء بالحوشية ، وتيت ليف Tite - live يفوح بالرقية و Tacite غريب الأطوار مشتت الذهن ، كأنه يجدد في الإكثار من الأخطاء اللغوية . وكانوا لا يقدرون مؤلفي العصر الإمبراطوري إلا بمقدار اقترابهم ، بواسطة التقليد الأعمى ، من لغة شيشيرون التي قرروا أنها مقياس اللغة اللاتينية . ويمكننا أن نقول هذا القول بعينه في اللغة الإغريقية . وهذه الطريقة في معالجة اللغات القديمة تقوم على الخلط الكريه بين اللغة الأدبية واللغة بوجه عام ، اللغة التي يتكلمها جميع الناس في القطر كله والتي تتغير مع الزمن . نعم ، لعلماء اللاتينية أن يقرروا مثلاً أعلى للغة اللاتينية وأن يفرضوه على طلاب هذه اللغة في موضوعاتهم الإنشائية . فهذه خطة النحو المذهبي الذي يتلخص في هذه العبارة التقليدية : قل كذا ، ولا تقل كذا . واتباعها يتفق مع تقاليد الكتاب اللاتينيين الذين كانوا يرون في شيشيرون أستاذاً ومثالاً يحتذى . ولكن هذه الخطة الصناعية لا ينبغي أن تطبق على دراسة اللغة .

ومع ذلك فهذا ما كان يعمل له لغويو القرن المنصرم^(١) الذين كانوا يقررون

(١) ولا سيما شليتر : رقم ١٩٧ ، ص ٣٤ ؛ ورقم ١٩٨ ، مجلد ١ ، ص ١٣ — ١٧ .

لكل لغة مثلاً أعلى من الكمال . وكانوا يجعلون هذا المثل الأعلى في العهد الماضي ، وفي الماضي السحيق بطبيعة الحال . ويؤمنون أنه كانت توجد في العصر « البدائي » لغة كاملة ذات اطراد مطلق . وأنه لما كان التغير من قوانين اللغة ، كان من المحتوم أن يسير تطور اللغة بها إلى الا بتماد عن مثلها الأعلى البدائي . لذلك يتكلمون عن هذا التطور اللغوي في عبارات غريبة ، فهو عندهم تشويه أو تحريف أو فساد ! وليست لغاتنا الحديثة ، هذه المواليد التأخرة الألوان التي رى بها حظها المائر في شيخوخة الزمان ، إلا بقايا مزدرة ، أو على حد تعبير شليشر الألماني ، إلا « فتاتاً مخزنة المنة »^(١) . فكلما تقدم عهد اللغة ، عظم جانبها من الاحترام . ويحكى أن عالماً شيخاً من علماء اليونانية القديمة سئل في مسألة ما من مسائل الإغريقية الحديثة يفرض الإجابة بازدرأ ، قالاً بأنه لا يقبل إطلاقاً أن يتعلم لغة تستعمل *ἀπὸ* في موضع النصب^(٢) . فلعل هذا العالم كان يصفق إعجاباً بشليشر^(٣) المتقدم ذكره لو سمعه يقول بأن « التاريخ عدو اللغة » (*die Geschichte, jene Feindin der Sprache*) وهي كلمات حمقاء تجعل اللغة نفسها عدواً للحياة التي تغذيها .

من المبعث أن تؤكد أن الفرض القائل بأن هناك لغة كاملة قدت في عهد سحيق مما قبل التاريخ فرض خيالي محض ، شأنه شأن الفكرة القائلة بأنه يمكن أن توجد لغة لا تتغير وتبقى جامدة في سكوتها أبد الأبدن . يجب أن نلم بالتغير لأنه أمر حتمي ، وألا نستسلم للبكاء على العصر الذهبي ، لأنه عبث في عبث سواء أكان ذلك في اللغة أم في غيرها . ثم أو ليس للتغيير مزاياه العديدة ؟ ذلك ما نقول به مدرسة أخرى أخذت وجهة النظر المخالفة للمدرسة السابقة على خط مستقيم وذلك بنقلها للمثل الأعلى للغة من الماضي إلى المستقبل^(٤) . أخذت هذه المدرسة

(١) رقم ١٩٦ ، ص ٢٧ .

(٢) يقال في الإغريقية الحديثة : *ἔλασα γράμμα ἀπ' τὸν πατέρα μου* : « قلت

خطاباً من والدي » ، برونو : رقم ١٠٩ ، ص ١٨٠ و ص ٤٤٤ .

(٣) ١٩٨ ، مجلد ٢ ، ص ١٤٤ ، وفارن جيسبرسن : ١٣٤ ، ص ٨ .

(٤) هذه المدرسة يمثلها جيسبرس خير تمثيل ، رقم ١٣٤ .

على عاتقها أن تردّ إلى اللغات الحديثة اعتبارها . وترى أن أكل اللغات هي تلك التي قطعت في التطور أطول شوط وهي بذلك لا تؤدي إلا إلى إيقاظ تلك المعركة الخالدة ، معركة القديم والجديد ، بتطبيقها على المسائل اللغوية . وتتجدد هذه المعركة ، كل خمسين عاماً ، فتكشف لنا عن ميل الناس إلى الأشياء المتناقضة وعن الإغراء الذي توجهه إليهم الأشياء القديمة والأشياء الحديثة كل بدورها .

ولا شك أن بعض اللغات الحديثة كالفرنسية والإنجليزية تتمتع بأدنى قسط من المرونة واليسر والطواعية . فالفرنسية تمتاز خاصة بدقتها ووضوحها ، لا تطيق التبذل ولا الإغراق في المبالغة ولا ذلك البريق الذي تميزه لغات مجاورة ، وإنما مسماها الأول إلى الدقة الذي لا تحتاج إلى مزيد من شرح ولا تدعو حالتها إلى اعتذار عن تقصير على حد تعبير فولتير . ولكن هل يستطيع إنسان أن يدعى أن اللغات القديمة كالإغريقية أو اللاتينية نقل عنها شيئاً ؟ وإذا كان علينا أن نختار من بين سائر اللغات تلك اللغة التي تستحق أن تكلل بالغار ، فنسجى على تضحية اللغة الإغريقية ؟ ومن ذات مرة حلالة هذه اللغة ذات الجوهر الرباني ، وجد كل لغة عداها ، إما تافهة وإما مرّة . ولسنا نتكلم عن الأفكار التي جعلت تلك اللغة وعاء لها ، ولا تلك الآداب التي تمتزج بمدرسة للحكمة والجمال . و « كنزاً من دواء الروح » كما كان يتكلم المصريون عن كتبهم . فاللغة الإغريقية في شكلها الخارجي ، دون أى اعتبار آخر ، تمدّ متعة عقلية معدومة النظير . وليس ائتلاف النغم ورقة الأصوات وثرأ المفردات كل مزاياها ، بل ليست أقوم مافيا من مزايا . ففي ميدان النحو تمتاز الإغريقية من بين سائر اللغات بدقة دوال النسبة فيها التي ترهف تركيب الكلمات ، وبالرونة الخفيفة التي تميز تنظيمها وتعمل على إظهار التفكير في كل قيمته وتحيط بكل حناياه وتمعرجاته ، وتكشف بشفافيتها عن كل دقائقه . ولا نعلم أن الوجود قد رأى أداة أكل منها في التعبير عن الفكر الإنساني . ولكن إذا علمنا أنه قد أمكن للغات أخرى من نوع آخر أن توفى بالحاجات المتنوعة التي تطلبها أفكار لا نقل عن الأفكار الإغريقية ثراءً وتمقيداً ، رأينا أنه من العبث أن نبحت عن المثل الأعلى للكمال اللغوي في نوع من اللغات دون سواه .

وقد يكون من السلي أن يقوم إنسان بالبرهان على أن اللغة التي كتب بها هوميرو وأفلاطون وأرسطيد تفوق لغة شكسبير ونيوتن ودارون أو تتخلف عنها . فقد أمكن لكل هؤلاء أن يعبروا تعبيراً تاماً عما أرادوا التعبير عنه ، ولكن بوسائل مختلفة . وكلهم يتساوون في الفضل لأن كلا منهم أمكنه أن يجد في لغته العبارة المساوية لفكرته . والواقع أننا لا نعلم إطلاقاً لغة قد قصرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها . فلا ننصت إذن إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحملون لغاتهم مسئولية النقص الذي في مؤلفاتهم ؛ لأنهم هم المسئولون على وجه العموم عن هذا النقص .

نعم ، إن من حسن طالع الكاتب أن يجد أمامه تقاليد يسير عليها وأن يستعمل لغة قامت بتحضيرها وصقلها سلسلة طويلة من الكتاب . ولكن الأمر هنا لا يبدو الاختلاف في درجة الصعوبة . يقول ديكارت Descartes في « حديث المنهج » : « أولئك الذين يفكرون خير تفكير ويهضمون أفكارهم خير هضم ليجعلوها واضحة مفهومة ، يستطيعون دائماً أكثر ممن عداهم أن يفهموا الآخرين آراءهم ولو لم يتكلموا غير البريتانية السفلى » .

ومع ذلك فإن المسئولية لا تقع كلها على موهبة الكاتب وحدها . إذ يجب أن نعمل حساباً للوسط الذي يمش فيه أيضاً . إذ لما كان التكلم لا يتكلم إلا لسمع والكاتب لا يكتب إلا ليقرا ، كان من الضروري للكاتب أن يجد له جمهوراً على درجة من الثقافة تسمح له بفهمه . لقد قال بوفون Buffon في مثل ذلك : « لم نصل إلى الكلام الجدي والكتابة الجدية إلا في العصور المستنيرة » . ولو أن بريتانياً أراد أن يكتب مؤلفاً فلسفياً بلغته ، لتيسر له ذلك على أرجح الفروض ؛ ولكن البريتانيين ، أو الذين يتكلمون منهم البريتانية على الأقل ، لا يمحفون بالفلسفة لسوء الحظ ؛ كما أن الفلاسفة لا يفهمون شيئاً في البريتانية على وجه العموم . ولذلك يحنى على صاحبنا ألا يقرأ إنسان ولا يفهم إنسان . فطاقة اللغة تتوقف على عدد الذين يمارسونها ودرجة تعلمهم . وهذا هو السبب في أن اللغات الكتبية أقل قيمة من اللغات الرومانية أو الجرمانية . ومع ذلك فقد استطاعت الإيرلندية والغالية طوال عصور

عديدة أن تعبّراً عن أفكار شعرية فائقة الجمال ، لعلها آصل ما خلفته العصور الوسطى من هذا القبيل . وقد نأسف على أن دافيد أب جويليم Dafydd ab Gwilym لم يكتب بالإيطالية كما كتب دانتي أوباً لألانية كما كتب فلقرم فون إيشنباخ Wolfram von Eschenbach : فكان يستطيع اليوم أن يتذوق شعره عدد كبير من الناس . ولكن ما معنى ذلك ؟ أين يذهب مجد هومير أو أفلاطون في اليوم الذي يزول فيه تعلم الإغريقية من المدارس ؟ لا شك أن نعيم الغراب وتغريد المعنديل يستويان تماماً يوم لا يجدان أحداً يصنى إليهما .

* * *

إذا تابعنا المناقشة المتقدمة ، أفحصنا أنفسنا في طريق لا يؤدي إلى غاية . قيمة اللغات من الناحية الجمالية أو النفعية لا يصح أن يكون لها حساب في الكلام على تقدم اللغة . فوهبة الكتاب تستطيع في فترة من النشاط الأدبي القوى والرخاء الوطني والسيادة السياسية ، أن تخلع على اللغة درجة من الكمال تكاد تكون مطلقة وبالتالي حالا من أهمية تفرضها على الكون بأسره . وهذا ما تيسر للاغريقية في العهد الأتيكي وللاتينية في عهد أغسطس وللفرنسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولكن ينبغي في الكلام على مسألة تقدم اللغة أن ننض النظر عن مثل هذا الكمال المؤقت الذي قد تصادفه هذه اللغة أو تلك . بل إن فكرة الكمال بعيدة عن تقدير التقدم إلى حد أننا لا نستطيع تبريرها إذا أردنا تطبيقها على جزء واحد من أجزاء اللغة ، كالأصوات مثلاً أو الصور النحوية .

تمتاز بعض اللغات على بعضها الآخر بالانسجام والعذوبة ، ويمتاز بعضها على غيره بسهولة النطق . ومع ذلك فليس القصد إلى تزويد النطق ببعض الزايات التي تنقصه هو الذي يتحكم في مصير التغيرات الصوتية . هذا إلى أن تقدير هذه الزايات يرجع إلى حد كبير إلى الذوق الشخصي ، ومن ثم يدخل في المناقشة عنصر ذاتي من شأنه أن يزيّفها من أساسها .

كذلك ليس من اليسير أن نبرر فكرة التقدم في ميدان النظام الصرفي ، إذا اقتصرنا في ذلك على البنية النحوية .

كان ميدان البحث اللغوى منذ أربعين عاماً يخضع للنظرية القائلة بأن اللغات تمر بمحالات ثلاث على التتابع : حالة العزل وحالة الإلصاق وحالة الإعراب . وكان من المسلم به أن كل لغة من اللغات المعروفة كانت على إحدى هذه الحالات الثلاث وفقاً لمرحلة التطور التي عرفناها فيها . ومعنى ذلك أن هذه النظرية كانت تسمى إلى حصر التقدم اللغوى فى النظام الصرفى^(١) .

ما سبق أن قلناه عن تغيرات النظام الصرفى والروابط التى بين دوال النسبة والكلمات ، يكفى للحكم على ما فى تصور تاريخ اللغات على هذا النحو من زيف . لسنا ننكر أن العناصر النحوية آتية فى غالب الأحيان من بلى كلمات قديمة كانت قائمة بذاتها . وأننا قد نجد فى المفردات أصل اللواحق ، بل والزوائد التى عمل الزمان على إلصاقها بالكلمات المنتهية بها ؛ ومن ثم كان إلصاق العناصر التى كانت منزلة فى يادى أمرها يسمح للغات بأن تجدد نظامها الصرفى . ومن جهة أخرى ، كثيراً ما يعمل البلى الصوتى على اختزال طول الكلمات وهدم الإعراب وإرجاع الكلمات التى كانت قد صارت متعددة المقاطع إلى حالة وحدة المقطع ، أى إلى إحياء حالة الإلصاق من جديد .

ولكن هذه الحالات المختلفة تنشأ عن أسباب تعمل جميعها فى وقت واحد فى كل اللغات : أسباب تؤثر على كل نقطة فى النظام الصرفى ويتوقف إخفاؤها أو نجاحها المؤقتان على ظروف خاصة بكل لغة . هذا إلى أن التنير لا يكون تاماً إطلاقاً فكثيراً ما تبقى الصيغ القديمة إلى جانب الصيغ المستحدثة ، حتى لنلاحظ فى النظام العام للغات التى لها تاريخ طويل والتى عانت تطوراً ضخماً كالفرنسية أو الإنجليزية مزيجاً من النظم التى تضم حالات مختلفة .

وهكذا كانت وحدة المقطع تعتبر فى يوم من الأيام من مميزات اللغة الإنجليزية . والواقع أن الإنجليزية تمتاز بصيغها القصيرة التى قد تصل إلى وحدة المقطع ، بخلاف صيغ الإنجليزية القديمة المكسدة بالمقاطع والثقلة باللواحق والزوائد . وهذه نتيجة البلى الصوتى الذى كان بعيد المدى فى الإنجليزية . وكان يمكن للغة

(١) انظر خاصة هو فلاك : رقم ٨٤ ، مستبلى : رقم ١٨٢ ، وسيس : رقم ١٣٨ .

أن تقاوم هذا البلي كما فعلت لغات أخرى . فاللغات الرومانية مثلاً تتجنب وحدة القطع بإضافة اللواحق . إذ نقول في الفرنسية soleil (شمس) حيث كان يقول اللاتينيون sol ، واستعضنا بالفعل gémir (il gémit : يئن) عن الفعل القديم geindre « il geint : يئن » (مقطع واحد) . وقد لوحظ أن اللغة الأسبانية لا تكاد تحتوى على كلمة واحدة تتكون من مقطع واحد .

ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نبالغ في وحدة القطع الإنجليزية التي ليست في غالب أمرها إلا مسألة ظاهرية محضة^(١) . ولنحاذر أن نخدع هنا بالكتابة أو بالعادات التي يفرضها علينا استعمال كتب النحو والمعاجم : فكثير من بين الكلمات الإنجليزية التي يمكن تمييزها بالتحليل النحوي ، ليس لها وجود مستقل ، وكثير منها ليست إلا دوال نسبة أولاً ولا توجد إلا في تراكيب ثابتة متصلة بدوال نسبة لا تستطيع الانفصال عنها . فجملة I do'nt know لا تحتوى على كلمات أكثر مما في اللاتينية nescio . إذ أن المنصر know — وهو أكثر عناصرها دلالة — لا يستعمل منفرداً .

وكذلك العناصر الأخرى ليس لها وجود مستقل . وإنما هي أدوات نحوية غير قائمة بذاتها ؛ ولا توجد إلا بوصفها عناصر من مجاميع قائمة بذاتها . هذا إلى أن وحدة القطع في الكلمات الإنجليزية الأصل قد تضاءلت في وسط الكلمات التي استعارتها للغة من اللاتينية والفرنسية . ونحن نعرف مقدار ترجيح الإنجليزية باستقبال الكلمات الأجنبية التي تراها مفيدة أو صالحة .

هذه المادة تسمح لها بالآلا تستعمل الاشتقاق في مفرداتها إلا لئلا . فبينما تراها تترك جانباً كبيراً من الكلمات الوحيدة المقتطعة الموروثة من المتاع القديم على ما هي عليه دون أن تضيف إليها لواحق أو مزيداً من العناصر العرضية ، تراها في الوقت نفسه تستقبل بين مفرداتها عدداً كبيراً من الكلمات الفرنسية أو اللاتينية المتعددة المقاطع عن طريق الاستعارة .

كما أن معارضة حالة التصريف بحالة العزل أو الإلصاق تبدو وهماً من الأوهام إذا رجعنا إلى الصورة الكلامية التي فيها تختلط هذه الحالات المختلفة في تأليف

(١) جيسرسن : رقم ١٣٣ ، ص ١٠ .

يوفق بينها . فالتكلم إنما يتكلم بحمل لا بكلمات منفردة . والفرق الوحيد الذى يوجد بين اللغات ينحصر فى مكان دوال النسبة ، وفى طبيعة الرباط الذى يربط هذه الدوال بالكلمات . وهو اختلاف عرضي لا جوهري . فلا نستطيع أن نستخلص منه قاعدة لتصنيف اللغات ، ومن باب أولى لا يمكننا أن نرى فيه عنصراً نقيس به مسألة التقدم اللغوى .

ولا ينبغي أن ننسى أن كل تجديد لغوى لا يمكن أن يكون إلا ضئيلاً . إذ لا يوجد فى الميدان اللغوى كسب دائم يوفر للغة التى تحصل عليه ثراء نهائياً .

فالمريخ المكتسب عرض زائل فى كل الأحوال وكثيراً ما تقابله خسائر من ناحية أخرى . لقد رأينا كيف تمكنت الفرنسية من خلق أداة استفهام لها .

ولزم لهذه الأداة ، كى تحيا وتشتد وتنمو ، تعاون ظروف عدة كلها عرضية . ويمكننا أن نتنبأ ، دون أن نتعرض لخطأ كبير ، بأن هذه الأداة بدورها ستفقد

عن طريق التطور الطبيعى هذه التعبيرية التى تملكها الآن وتصور عديده القيمة ثم تخرج من الاستعمال . هذا هو تاريخ كل ما تكونه اللغة . ونحن نعرف كيف

نشأت أدوات الاستفهام اللاتينية ، على مالها من صلاحية وقوة فى التعبير؛ وكما أننا نعرف أيضاً كيف بادت . فعبارة Num uides « لعلك ترى؟ » ، إذا نطقت بنعمة

الاستفهام صارت عبارة استفهامية فى حالة توقع جواب منفي « كلا » وعبارة videsne « لا ترى؟ » ، إذا نطقت بنعمة الاستفهام صارت استفهامية كأنها

« أأنت ترى؟ » وذلك فى حالة ما يكون الجواب المتوقع بالإيجاب : « بلى » . وكان ذلك ربماً قياً للغة اللاتينية ولكنه لم يدم ؛ إذ لم يلبث أن تلاشى بفعل البلى

الصوت الذى حرم ne, num من قوتهما التعبيرية . فالتقدم ، إذا صح لنا أن نستعمل هذه الكلمة ، لم يكن إلا عابراً .

الخسائر أيضاً لا يمكن أن تفسر بافتراض التقدم . فما يؤسف له أن الفرنسية الحديثة قد صيرت الزمنيين الماضيين اللذين كانت تملكهما وهما الماضى المحدد والماضى

غير المحدد ، زمناً واحداً : مع أن الخلاف الذى كان يفرق بينهما كان خلافاً حقيقياً ، وكان استعمالها يمكن القارئ من البيان عن معان دقيقة ، اختفت اليوم من الوجود

لاختفاء ما يُعبّر به عنهما . ونحن نعرف السبب الذى أدّى بأحد هذين الرمتين (وهو الماضى المحدد على وجه العموم) إلى الضياع : وذلك أن الرمتين قد تكافأا وتعادلا ، لأن الماضى غير المحدد (من قبيل j'ai fait) ، كان فى بادئ أمره زمناً مركباً ثم اتحد جزأه وفقد القيمة الحرفية التى كانت لا تزال تُحسّ فى فعله الساعد . ومن الممكن أن تشمر اللغة ، بعد أن تعالى أثر هذا النقص ، بالحاجة إلى التعويض عنه ؛ فتصل يوماً بوسيلة ، إلى التمييز بين القصص البسيط الذى كان يعبر عنه فيما مضى بالماضى المحدد (il fit) وبين الحدث الذى كان يعبر عنه بالماضى غير المحدد (il a fait) . ولكن سنظل حتى هذه اللحظة نتكلم لغة جرّدت من أحد عناصرها الفيدة . أما عن الماضى التابع غير التام L'imparfait du subjonctif فلا يمكن لأحد أن يشمر بمثل هذا الأسف على فقدانه ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الزمن يقوم بكثير من الخدمات الجليلة ، إذ كان يسدّ فراغاً كبيراً فى نظامنا الفعلى بتكمله لسلسلة الأزمان . ومع ذلك فلا معنى للأسف عليه . لقد اختفى بالرغم من جهود المدرسة لحفظه من الضياع ، إذ راح هو أيضاً نخبة لاتبهايات لا تستطيع الإرادة الإنسانية لها دفعا .

وإذا كانت قائمة الأرباح والخسائر على هذا النحو فى كل تطور صرفى ، فلن نستطيع الوصول إلى تحرير معنى التقدم . فكل تغير يقع على اللغة لا يصيب إلا جزئية خاصة من جزئياتها ، وليس له فى ذاته أثر عام . نعم ، لا شك أننا إذا نظرنا إلى لغة واحدة فى فترتين من تاريخها ، وجدنا أنفسنا أمام حالتين مختلفتين : فنلاحظ أن العناصر التى تكوّناتها قد تغيرت وتبدّل مكانها وانقلبت ، ولكن الأرباح والخسائر تكاد تتعادل فى مجموعها . وقد بينا فيما سبق لماذا لا نستطيع اللغة مطلقاً أن تصل بتطورها الطبيعى إلى الكمال المنطقى الذى يمنح متحاً إرادياً للغات قد وضعت وضماً صناعياً من أولها إلى آخرها (انظر ص ٢١٣) . فالحالات المختلفة لكل تطور صرفى تذكرنا بالصّور المختلفة التى تراها فى الكاليدوسكوب Kaléidoscope الذى يمكن للانسان أن يحركه دون خطة مرسومة فيتغير

ترتيب العناصر التي تكونه دون أن نحصل من هذا التغير على شيء آخر غير ترتيب جديد .

ومع ذلك فإن كل شيء يتوقف على اليد التي تحرك الآلة .

والطور اللغوى يعتمد اعتماداً وثيقاً على الظروف التاريخية ؛ فبين التطور اللغوى والظروف الاجتماعية التي تتطور فيها اللغة صلة وثيقة . إذ أن تطور المجتمع يستتبع تطور اللغة في طريق معينة . لذلك يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان تاريخ اللغة يمثل مرآة ينعكس فيها تاريخ الحضارات ، وإذا نظرنا إلى مسألة تقدم اللغة هذه النظرة ، رأيناها تبدو أمام أعيننا في وضع جديد ، يجدر بنا الآن أن نناقشه .

كثيراً ما لوحظ أن تطور اللغات يزداد سرعة بازدياد انتشارها في الخارج وبازدياد عدد الناس الذين يتكلمونها وتنوعهم . إذ أن انتشارها في أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى يعرضها لأن تفقد خصائصها الموهلة في الذاتية ؛ والتأثير الذي يقع عليها من الخارج يؤدي بها إلى التغير السريع . فإذا ما قارنا لهجة موطن أصلي بلهجة مستعمراته ، تبين لنا أن هذه الأخيرة قد فقدت بعض القواعد النحوية الخفية الدقيقة : ذلك لأن التقاليد قد أبت عليها في مهبط رأسها ؛ ثم تلاشت بهجرتها بعيداً عن موطنها . من ذلك أن الاختلاف بين I will و I shall لم يعد له وجود في الإنجليزية المتكلمة في أمريكا : فلا يقال الآن إلا I will .

ومن جهة أخرى نرى أن حمل اللغة بعيداً عن موطنها يساعد الاتجاهات الكامنة فيها على التفتح بصورة أسرع وأكمل مما لو بقيت في مكانها . ومن ثم ظهرت بعض المستحدثات في الفرنسية المتكلمة في كندا قبل أن تظهر في غرب فرنسا الذي هاجرت منه الفرنسية إلى أمريكا في القرن السابع عشر ؛ فالفرنسية الكندية تبدو فرنسية حوشية في بعض نواحيها ، ولكنها في البعض الآخر تسبق فرنسية فرنسا نفسها ، إذ أنها تخلصت قبل هذه الأخيرة من بعض السمات الميتة

التي عملت التقاليد على إبقائها^(١) . كذلك الهولندية التي يتكلمها البوير قد سبقت هولندية هولندا في طريق التطور^(٢) .

اللغات التي لا تنتقل تمدّ لغات محافظة على وجه العموم . إذ أن اللغات التي لا تتكلم إلا في مساحة محكمة الحدود بعيدة عن ملتقى طرق المواصلات الكبرى — التي تختلط فيها الأجناس — ذات طابع حوضي بّين في غالب الأحيان . فالتوانية أكثر اللغات الهندية الأوربية حوشية ، لأنها لغة قوم زراعيين يقطنون إقليم غابات فقير ، في معزل عن الأقطار الأوربية الكبيرة . وأصلح الأماكن للمحافظة على سلامة اللغة هي الأقاليم الجبلية وأطراف أشباه الجزر حيث يضؤل التأثير الخارجي . ومن ثم احتفظت البسكية بطابعها لانهصارها بين وديان البرينية ، وكذلك البريتانية لتحصنها وراء المحيط .

يؤثر المسكن أيضاً على تطور اللغات . فإذا كان السكان مغلغلين متفرقين ، فإن هذا التبديد يساعد على الانقسام إلى لهجات . وإذا كان السكان يعيشون متجمعين في محلات ومدن ، فإن هذا النوع من الحياة يساعد على خلق اللغات المشتركة التي ليست في واقع الأمر إلا منزلة وسطى بين لغات الطبقات الاجتماعية المختلفة التي تضمها المحلة أو المدينة . ومن ذلك نرى أن التأثير الاجتماعي لا يعوق تطور اللغة أو يجعل به فحسب ، بل أيضاً يمين اتجاه هذا التطور ومداه . وكل ما قلناه فيما سبق عن أحوال اللغات المشتركة واللهجات واللغات الخاصة يصلح تمثيلاً لهذا المبدأ العام .

وتوجه العوامل الاجتماعية نشاطنا العقلي أيضاً . فتاريخ اللغات حين يشمل فترة طويلة من الزمن ، يسمح لنا بأن نبتين بعض تأثير التطور الاجتماعي على عقلية البشر . وقد لاحظنا مثلاً اتجاه اللغات العام نحو التخلص من الخصائص الفنية لتسير في سبيل العقلية ونحو نبذ التعبير عن الأفكار المشخصة لترقى صعوداً في معارج التجريد . ونحو اللغات الهندية الأوربية في أقدم صورها أكثر ذاتية

(١) جدس : Study of a Canadian French dialect ، وقل عنه

(٢) Meyer Lübke في Germ-Rom - Monatschrift جلد ١ ، ص ١٣٣ .

(٣) ه . مير Die Sprache der Buren : H. Meyer جوتنجن (١٩٠١) .

وتشخيصاً مما صار إليه فيما بعد ، ففكرة الزمن في الهندية الأوروبية تكاد تنحصر في التعبير عن الناحية الذاتية ، أى في الدلالة على زمن الاستنراق ؛ وعبور العصور اتجهت إلى التعبير عن فكرة الزمن بمعناه الحقيقي ، أى فكرة اللحظة .

وبحث لغات البدائيين بعض هذه الملاحظة المستخرجة من التاريخ . فهذه اللغات تقدم لنا حالة لغوية ليس فيها نصيب أولاً يكاد يكون فيها نصيب لا نسميه بالمدينة . فهي مفعمة بالفصائل الشخصية والخاصة وبذلك تختلف عن لغات المتحضرين ، التي تسير فيها الفصائل دائماً نحو التدرج والتعميم . ذلك أن البدائي يعبر بدقة نادرة عن جحفل من التفاصيل المادية التي تغيب عنا . ويوجه إلى الاعتبارات المكانية مثلاً نصيباً من الالتفات يفوق النصيب الذى نوجه نحن إلى الاعتبارات الزمنية . إذ أن الحدث يمثل فى ذهنه محصوراً بحيز . والروابط المكانية التي بين الأشخاص والأشياء يعبر عنها فى لفته بفصائل خاصة كالروابط الزمنية أو أكثر منها^(١) . ونحن نعرف أن الزمن أرفع من المكان فى مرتبة التجريد . ومن ثم زاننا نحن المتحضرين نسقط من نظامنا العرفى فكرة الحيز الشخصية وقبل بارتياح على التعبير عن فكرة الزمن المجردة . وهذه نتيجة للمدينة .

لذلك نرى الطريقة التي تتلشى بها الفصائل التشخيصية من اللغات تعضد أهمية الدور الذى تلعبه المدينة هنا . ومن أوضح الحالات التي من هذا القبيل حالة المثنى فى الإغريقية (انظر ص ١٣٤) . فاستعمال المثنى فى اللهجات مرتبط بدرجة المدينة : واللهجات التي فقدت هذا العدد منذ فترة ما قبل التاريخ هي نفس اللهجات التي كان يتكلمها أكثر الناس ثقافة . فلهجات المستعمرات سبقت فى ذلك لهجة الوطن الأصلي ؛ ونجد اللهجة الواحدة تحتفظ بالمثنى فى القارة وتفقد عندما تستعمل فى آسيا الصغرى أو فى الجزر . هذه القاعدة عامة وتخلو من الاستثناء إذا غرضنا النظر عن بعض اللهجات كالأتينية حيث تتدخل تأثيرات خاصة وثانوية ، وإن كان تعرف هذه التأثيرات تعرفاً جيداً بعضد القاعدة . ولهجات المواسم ، كما قلنا من قبل ، أشد محافظة من لهجات المستعمرات : لأن الأخيرة تمثل لغة صفوة سكان

(١) رقم ٨٨ ص ١٥٨ .

المدن الإغريقية ، لغة المقصر الذى يعد أكثر العناصر نشاطاً وذكاء ، وحيوية .
فى المستعمرات بدأت عوامل الحضارة فى الازدهار ، وكان الأدب فى مقدمة هذه
العوامل . وعلى هذا ، فالاحتفاظ بالثنى يبدو كما لو كان دليلاً على حضارة متأخرة ،
واختفاؤه على العكس من ذلك يدل على تقدم الحضارة .

ولكن ينبغي لنا ألا نبالغ فى أهمية المثل الذى استمرناه من اللغة الإغريقية ،
لأن هناك أسباباً أخرى ، لغوية خالصة ، تفسر بدورها أن الثنى قد اختفى فى
المستعمرات قبل أن يختفى فى العواصم (انظر ص ٣٦٤) . ولكن المثل الذى ضربناه
باللغة الإغريقية ليس مقصوداً عليها ؛ إن تاريخ معظم اللغات ليؤيده . ، وحتى تلك
اللغات التى لا تنضوى تحت لواء المجموعة الهندية الأوروبية . ونفس بدعة حذف
الثنى تراهى أيضاً فى اللغات السامية والفينية الأجرية . فاللغات التى تعد من أقدم
اللغات السامية تقدماً ، لغات الحضارة القديمة كالآشورية والعبرية والآرامية
والحبشية ، لم تعد تستعمل الثنى إلا فى بعض كلمات ذات دلالة مزدوجة ؛ أما اللغة
العربية — التى كانت حتى القرن السابع الميلادى لغة بدو ذوى حظ يسير من
الحضارة — فقد احتفظت بالثنى فى الاسم والضمير والفعل ؛ ويمكننا أن
نقول أيضاً إن درجة الحضارة تحدد درجة الاحتفاظ بالثنى فى تاريخ اللغة العربية .
وفى المجموعة الفينية الأجرية ، نرى أن اللهجتين اللتين احتفظتا بالثنى هما أقل
اللهجات تطوراً وهما اللهجتان الفوجولية والأستياكية ، ولم تعد نعتراً للثنى على
أثر لا فى الهنغارية ولا فى الفنلندية .^{١٠} وإذا هبطنا درجات فى سلم الحضارات ،
وجدنا لغات تستعمل المثلث ، كما هو الحال فى لغات بعض الشعوب الأمريكية.
أو الاسترالية^(١) .

ومما لا يحتاج إلى تنبيه أننا حين ندرس هنا العمليات النفسية التى تعدّ
العدة للغة ، فإننا ننقض النظر عن الظروف النحوية التى تتكون فيها اللغة لأنهما
شيئان يجب العناية بالترقية بينهما . إن ضعف التشخيص لا يحول دون التعميد
النحوى . وليست هناك أية صلة تقام بين طبيعة أطوار النفس وبين العدد أو بين
ما فى الفصائل النحوية من تعقيد . فالفصائل النحوية تعتمد قبل كل شئ على

الذاكرة . والذاكرة عند البدائيين نامية عادة نمواً كبيراً . لقد فرضتها عليهم حاجيات كبيرة الأهمية وضرورات حيوية بالنسبة لهم . ففشاطهم العقل لا تماونه تلك الطرق العديدة التي تحل في سهولة ويسر عند المتحضرين محل الذاكرة وتورثها الكسل دون أى ضرر في ذلك . ويخيل إلى أنه لم يُهتَم بعد بدراسة أثر الذاكرة في تطور اللغات . مع أننا نشاهد بعض لغات غير المتحضرين قد ملئت بالصيغ المتنوعة وظلت بهذا الوضع زمناً طويلاً جداً ، فنظّمها الصرفية شديدة التعقيد أو أن مفرداتها كثيرة الثراء ، ومثل هذه اللغات مرتبطة دون شك بتطور عجيب للذاكرة . ومن الطبيعي أن تكون الذاكرة محافظة . وعلى هذا فليس البناء النحوي هو الذى يكشف عن آثار اختلافات الحضارة ، وإنما يكون ذلك في العناية التي يعبّر بها عن التفصيلات الشخصية . فهناك رابطة بين درجة الحضارة والطابع الشخص إلى حد ما لأطوار النفس .

وبما أن ظاهرة سير اللغة نحو التجريد مرتبطة بتطور الحضارة ، فإنها تربنا كيف يجب علينا أن نفرس الأمثلة السابقة . إننا نعلم تماماً أن اللغة تعدّ بمثابة انمكاس للضمير البشرى ، وأنها تعرفنا صورة النفس التي تحملها . ونفس الإنسان المتحضر أكثر قابلية للتجريد من نفس الإنسان البدائي لأن ظروف حياة المتحضر توجه العقل إلى الاعتبار المجردة على حساب كل ما هو مشغول . فالتجارة تستلزم الحساب وبمباراة أخرى التفكير ؛ وتطور الحياة السياسية تجذب عادة ذوق الآراء العامة ؛ وتغمر الفكر ينتقل بطبيعة الحال من الأمور الشخصية إلى الأمور المجردة . ونستطيع أن نحكم على ذلك بأنفسنا ، فلو أننا وازنا بيننا وبين أناس قريبي الجوار منا فأي فروق تتضح لنا ، من وجهة نظر التجريد ، بين العقليتين . والفلاح الأي الذى يتكلم الفرنسية مثله تقريباً مثل غير المتحضر الذى ليس في متناول يده للتعبير عن آرائه غير اللغة الفرنسية . وإن عقليته لتصورها أداة ناقصة . وعلى هذا فهو لا يمجّز عن أن يستكمل ما فيها من نقص ليجعلها صالحة لاستعماله . فهو يحميد بها عن المجردات ليسلكها في الشخصيات التي يهتم بها دون سواها . إنه ليدخل فيها مثلاً أسماء الأسوات وصيغ التمجيد ؛ وإنه ليحل المفردات محل

الفصائل الشخصية إذا غابت ؛ وهو يقضى على كل ما هو قطعى ومنطقى فى مجملنا بإساءة نطقها وتفكيك أوصالها .

لا ينبغي لنا أن نمجب حين رى لغة غير التحضرين تفيض بالمصطلحات الشخصية التى يذهلنا ما فيها من تنوع وتحديد . وهى حالة نجدها فى كل اللغات الرفيعة . لقد شوهد ذلك فى اللغة الليتوانية ، حيث ألفت قصة بأسماء أصوات متتابعة^(١) . ونستطيع أن نجد ذلك أيضاً فى رطانات الريف الفرنسى . فلنوازن بين قصة تؤلف بالرطانة الرفيعة الخالصة وبين خطاب يلقيه فى مدرسة المناطقة أحد كتابنا السياسيين ممن عاشوا فى القرن الثامن عشر . فالقصة تفيض بالشخصات ؛ وهى مفككة ، مججوجة ، لا منطق فيها إلا أنها رغم هذا كله جدّ معبرة . أما الخطاب فينطوى على تتابع عبارات مجردة وعامة ، متسلسلة كما لو كانت قضية منطقية . هذان ضربان من اللغة يمثلان ضربين من التفكير . ويجب ألا نطرب من فكرة أن لغاتنا الكبرى ذات الحضارة قد دخلت تماماً من كل تصوف . إذ ليس هذا إلا فى الظاهر بحسب . لأن عنصر التصوف ليس فى اللغة وإنما فى الفكر . أو على الأصح فإنه إذا وجد فى اللغة فقد وجد من قبل فى الفكر . ومع ذلك ، فلسنا فى حاجة كبيرة إلى البحث طويلاً فى لغة الأيمن من عشرتنا لندرى عنصر التصوف يظهر أمامنا فى خير مستقر له . فسلطان الاسم وخلق قصص أسماء الأعلام واستعمال الصيغ والرقى السحرية ، ومنع استعمال المفردات فى « فلكلور » ريفنا ، أيمد هذا كله شيئاً آخر غير عقلية المتخلفين عن الحضارة وقد تفتحت فى لغة المتحضرين ؟ .

ولكن بعد هذا كله ، لو أننا تصورنا طوفاناً سياسياً أو اجتماعياً قد اكتسح الحواجز الموجودة اليوم بين المجموعات البشرية وخلط ممثلى الطبقات والجنسيات والأجناس المختلفة بعضهم ببعض ، وقضى على حضارتنا القديمة واستبدل بها حضارة جديدة تقوم على أسس أخرى ، لو صح هذا كله ألن تكون اللغة أول

١ Schallnachahmungen und Schallverba im Litauischen : Leskien (١)

ما يصاب بهذا التمييز ؟ وهذه العقلية الصوفية والشخصية التي كاد يقضى عليها في لغاتنا الكبرى المشتركة ، ألن تعود لها قوتها لتشكّل لغاتنا من جديد وفقاً لها وتفرض عليها عاداتها ؟ وماذا تصبح إذن اللغة الفرنسية ؟ لا أكثر ولا أقل من لغة قوم تخلفوا عن الحضارة . ستسلك طريقاً مضاداً للطريق الذي سلكته من قبل والذي أدى بها إلى حالتها الراهنة . سنتنقل من التجريد إلى التعبير بالشخصيات ، وستمثّل ، بالفصائل الصوفية والذاتية . هل سيكون هناك ما يدعو إلى تقديم اللغة أو أنها تدور حول نفسها وتتأخّر عما هي عليه ؟ لا هذا ولا ذاك ، على الأقل وفقاً لوجهة النظر اللغوية . وليس لنا أن نقيم وزناً للغزايا أو الأضرار ، التي تمتدّ نسبية ، لتغير حضارة من الحضارات ، حتى ولا للمودة إلى ما يسمى التبرّبر . وليس لنا الحق في أن نمدّ لغة من اللغات عقلية وبجردة ، في مرتبة أعلى من لغة مشخصة وصوفية ، لا شيء ، إلا أنها لغتنا . إننا في مثل هذه الحالة نواجه عقليتين مختلفتين لا ندم كل منهما أن تكون لها مزاياها . ولا شيء يدل على أن أهل سربوس لا ينظرون إلى عقلية المتحضر كما لو كانت مرادفة لفساد النوع .

ومن هذا ، نرى كيف ينبغي لنا أن ندرك افتراض التقدم اللغوي . التقدم بالمعنى المطلق لا سبيل إليه ؛ كما لا سبيل إلى التقدم المطلق في الأخلاق أو في السياسة . هناك أوضاع مختلفة يتلو بعضها بعضاً ، وفي كل وضع منها تسيطر بعض قوانين عامة يفرضها توازن القوى الموجودة . وهذا ما يصيب اللغة . نستطيع أن نرى في تاريخ اللغات بعض تقدمات نسبية . فهناك لغات تتلاءم مع بعض حالات الحضارة إن قليلاً وإن كثيراً . فالتقدم يتكوّن من أن اللغة تتلاءم وحاجات المتكلمين بها على خير وجه . ومهما يكن هذا التقدم حقيقياً ، فإنه لن يكون نهائياً إطلاقاً ، إن صفات لغة من اللغات تظل قائمة طالما احتفظ أهلها بنفس عاداتهم في التفكير ؛ وإلا فهذه الصفات قابلة للفساد والاندثار والضياع . ومن الخطأ أن نمدّ اللغة كائناتاً مثالياً ، تتطور مستقلة عن البشر ، وتتبع أغراضها الخاصة بها .

إن اللغة لا توجد خارج أولئك الذين يفكرون ويتكلمون . إنها تمد جذورها في أعماق الضمير الفردى ؛ ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاء الناس . غير أن الضمير الفردى ليس إلا عنصراً من عناصر الضمير الجمعى الذى يفرض قوانينه على كل فرد من الأفراد . وعلى هذا فتطور اللغات ليس إلا مظهراً من مظاهر تطور الجماعات . فليس لنا أن نرى فيه سيراً فى طريق متصل نحو غاية محددة . وإن دور اللغوى لينتهى حينما يعلم أن اللغة لعبة تتقاذفها القوى الاجتماعية وردود أفعال التاريخ .

المراجع

ملاحظة : القائمة التالية لاتسمو إطلافاً إلى أن تعد ثباتاً كاملاً للسائل التي تتصل باللغة بل لاتزعم أنها تستوعب مراجع السائل التي ترمضنا لها في هذا الكتاب . وهي لا تضم إلا أهم المؤلفات التي تعد بتنوعها خير ما يعبر عن فكرة المظاهر المتباينة لعلم اللغة . اقدأفردنا للمؤلفات الفرنسية مكاناً يعتبر كبيراً نسبياً لتبين الدور الذي قامت به فرنسا في تطور الدراسات اللغوية .

أولاً : المجلات

١ - باللغة الفرنسية

Annales de Bretagne, Rennes, 1886 et suiv.	١
Année sociologique, Paris 1898 et suiv.	٢
Bulletin de dialectologie romane, Bruxelles 1909 et suiv.	٣
Bulletin de la Société de linguistique, Paris.	٤
Journal asiatique, Paris, 1822 et suiv.	٥
Mémoires de la Société de linguistique, Paris.	٦
La Parole, Paris.	٧
Revue Celtique, Paris, 1870 et suiv.	٨
Revue internationale de Sociologie, Paris.	٩
Revue de métaphysique et de morale, Paris 1893 et suiv.	١٠
Revue de philologie, de littérature et d'histoire ancienne Paris, 1877 et suiv.	١١
Revue de phonétique, Paris, 1911 et suiv.	١٢
Revue des études anciennes, Bordeaux, 1897 et suiv.	١٣
Revue des études ethnographiques et sociologiques, Paris, 1908 et suiv.	١٤
Revue des études basques.	١٥

Revue des études grecques, Paris, 1888 et suiv.	١٦
Revue des langues romanes, Montpellier, 1870 et suiv.	١٧

٢ — باللغة الإنجليزية

American Journal of Philology, Baltimore.	١٩
Classical Philology, Chicago, 1906 et suiv.	٢٠
Classical Review (The), London, 1887 et suiv.	٢١
Harvard Studies in classical philology, Boston 1890 et suiv.	٢٢
Transactions of the Philological Society, London.	٢٣

٣ — باللغة الألمانية

Annalen der Naturphilosophie (Ostwald's Annalen).	٢٤
Archiv für das Studium der neueren Sprachen und Litteraturen, Braunschweig, 1846 et suiv.	٢٥
Beiträge zur Geschichte der deutschen Sprache und Literatur (Paul und Braune's Beiträge), Halle, 1874 et suiv.	٢٦
Beiträge zur Kunde der indogermanischen Sprachen (Bezzenger's Beiträge) Göttingen, 1877 et suiv.	٢٧
Finnisch-Ugrische Forschungen, Helsingfors, 1891 et suiv.	٢٨
Glotta, Göttingen, 1907 et suiv.	٢٩
Indogermanische Forschungen. Strassbourg, 1891 et suiv.	٣٠
Internationale Zeitschrift für allgemeine Sprachwissenschaft Leipzig, 1884 et suiv.	٣١
Neue Jahrbücher für das Klassische Altertum, Leipzig 1898 et suiv.	٣٢
Wörter und Sachen, Heidelberg, 1909 et suiv.	٣٣
Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft, Leipzig 1847 et suiv.	٣٤

Zeitschrift für deutsches Altertum (Haupt's Zeitschrift), Leipzig. 1841 et suiv.	٣٥
Zeitschrift für deutsche Wortforschung, Strassburg, 1900 et suiv.	٣٦
Zeitschrift für vergleichende Sprachforschung (Kuhn's Zeitschrift), Berlin, 1852 et suiv.	٣٧
Zeitschrift für romanische Philologie (Gröber's Zeitschrift), Halle, 1877 et suiv.	٣٨
Sitzungsberichte der kais. akademie des Wissenschaften. Wien 1848 et suiv.	٣٩
Berichte über die Verhandlungen des kön. sächs. Gesellschaft der Wissenschaften, Leipzig, 1848 et suiv.	٤٠

٣ — باللغة الإيطالية :

Archivio glottologico Italiano, Roma - Torino - Firenze 1873 et suiv.	٤١
Scientia, Bologna, 1907 et suiv.	٤٢
وتحتوى هذه المجلة أيضا على مقالات باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية .	

ثانياً : الكتب

١ — باللغة الفرنسية

L. Adam, Le genre dans les diverses langues, Paris 1883.	٤٣
Ch. Bally, Le langage et la vie, Genève 1913.	٤٤
Ch. Bally, Précis de stylistique, Genève 1905.	٤٥
Ch. Bally, Traité de stylistique française, Paris-Heidelberg 1909, 2 Vol.	٤٦
D. Barbelenet, De l'aspect verbal en latin, Paris 1913.	٤٧

PH. Berger, Histoire de l'écriture dans l'antiquité. Paris 1891.	٤٨
J. Bloch, La formation de la langue marathe, Paris 1914.	٤٩
M. Bonnet, Le latin de Grégoire de Tours, Paris 1890.	٥٠
E. Bourciez, Éléments de linguistique romane, Paris 1910.	٥١
Bourdon, L'expression des émotions et des tendances dans le langage, Paris 1892.	٥٢
P. Boyer et N. Spéranski, Manuel de langue russe, Paris 1905.	٥٣
M. Bréal, Mélanges de mythologie et de linguistique, Paris 1878.	٥٤
M. Bréal, Essai de sémantique 3e édit. Paris 1904.	٥٥
F. Brunot, Grammaire historique de la langue française, Paris.	٥٦
F. Brunot, Histoire de la langue française, Paris, 5 vol.	٥٧
P. Cadière, Phonétique annamite, Paris 1901.	٥٨
L. Clédât, Dictionnaire étymologique de la langue française.	٥٩
L. Couturat et Leau, Histoire de la langue universelle, Paris 1903.	٦٠
A. Cuny, Le nombre duel en grec, Paris 1906.	٦١
A. Darmesteter, La vie des mots étudiée dans leur signification, Paris 1887.	٦٢
A. Darmesteter, Cours de grammaire historique de la lan- gue française.	٦٣
J. Darmesteter, Ormazd et Ahriman, Paris 1877.	٦٤
A. Dauzat, Essai de méthodologie linguistique, Paris 1906.	٦٥
Densusianu, Histoire de la langue roumaine, Paris 1901.	٦٦
E. Deschanel, Les déformations de la langue française, Paris 1898.	٦٧
G. Dottin, Manuel pour servir à l'étude de l'antiquité celtique, 2e édit. Paris 1915.	٦٨
A. Dutens, Etude sur la simplification de l'orthographe Paris 1906.	٦٩
A. Ernout, Les éléments dialectaux du vocabulaire latin, Paris 1909.	٧٠

G. Ferrand, Essai de phonétique comparée du malais et des dialectes malgaches, Paris 1909.	٧٨
C. Fossey, Manuel d'assyriologie, t.I, Paris 1904.	٧٢
R. Gauthiot, Essai sur le vocalisme du sogdien, Paris 1913.	٧٢
R. Gauthiot, La fin de mot en indo-européen, Paris, 1913.	٧٣
A. Van Gennep, Religions, moeurs et légendes, Paris 1908-1909	٧٤
Gilliéron et Mongin, Etude de géographie linguistique (Scier dans la Gaule romane) Paris 1905.	٧٥
Gilliéron et M. Roques, Étude de géographie linguistique, Paris 1912.	٧٦
J. Van Ginneken, Principes de linguistique psychologique (traduit du hollandais) Paris-Amsterdam-Leipzig 1907	٧٧
M. Grammont, Traité pratique de Prononciation française, Paris 1914.	٨٧
M. Grammont, La dissimilation consonantique. Dijon 1895	٧٩
L. Havel, Métrique grecque et latine 3e édit. Paris 1893.	٨٠
V. Henry, Précis de grammaire comparée du grec et du latin 6e édit. Paris 1918	٨١
V. Henry, Essai sur l'analogie, Paris, 1883.	٨٢
V. Henry, Antinomies linguistiques, Paris 1896'	٨٣
A. Hovelacque, La linguistique, 4e édit. Paris 1888.	٨٤
H. Hubert et M. Mauss, Melanges d'histoire des religions, Paris 1909.	٨٥
C. Juret, Dominance et resistance dans la phonétique latine, Paris 1913	٨٦
B. Leroy, Le langage, Paris, 1905.	٨٧
L. Levy - Bruhl, Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures, Paris 1910.	٨٨
T. Loth, Les mots latins dans les langues brittoniques, Paris, 1892.	٨٩

V. Magnien, Le futur grec, Paris 1913.	90
J. Marouzeau, la phrase à verbe être en latin, Paris 1910.	91
A. Mazon, Emploi des aspects du verbe russe, Paris 1914.	92
A. Meillet, Aperçu d'une histoire de la langue grecque, 2e édit. Paris 1920.	93
A. Meillet, Introduction à l'étude comparative des langues indo-européennes, 4e édit. Paris.	94
A. Meillet, Caractères généraux des langues germaniques.	95
A. Meillet, Recherches sur l'emploi du génitif-accusatif en vieux-slave, Paris 1897	96
A. Meillet, Les dialectes indo-européens. Paris 1908.	97
Mélanges de linguistiques offerts à F. De Saussure, Paris 1908.	98
Mélanges linguistiques offerts à A. Meillet, Paris 1902.	99
Mélanges d'indianisme offerts à Sylvain Lévi, Paris 1911.	100
Mélanges Louis Havet, Philologie et Linguistique, Paris 1909.	101
G. Millardet, Étude de dialectologie landaise, Toulouse 1910.	102
Max Muller, La science du langage, trad. Harris et Perrot, Paris 1867.	103
Max Muller, Nouvelles leçons sur la science du langage, trad. Harris et Perrot, 1867—1868.	104
K. Nyrop, Grammaire historique de la langue française, 4. vol. Paris 1913.	105
G. Paris, Mélanges Linguistiques, Paris, 1906	106
P. Passy, Étude sur les changements phonétiques, et leurs caractères généraux, Paris 1890.	107
H. Pernot, Étude de linguistique néo — hellénique, I, Paris 1907.	108
H. Pernot, Grammaire du grec moderne, Paris.	109
E. Renan, Essai sur l'origine du langage, 3e édit, Paris 1862.	110

E. Renan , Grammaire générale et comparée des langues sémitiques, I.	١١١
T. Rosset, Les origines de la prononciation moderne étudiées au XVIIe siècle, Paris, 1911.	١١٢
L. Rousset, Eléments de Phonétique. générale, Paris 1911 .	١١٣
P. Rousselot et F. Laclotte, Précis de prononciation française, Paris.	١١٤
P. Rousselot, Principes de phonétique expérimentale, Paris 1897—1909	١١٥
P. Rousselot, Les modifications phonétiques du langage étudiées dans le patois d'une famille de Cellefrouin, Paris 1892.	١١٦
Ch. Sacleux, Grammaire des dialectes swahilis, Paris 1909.	١١٧
Ch. Sacleux, Essai de phonétique avec son application à l'étude des idiomes africains, Paris 1905.	١١٨
L. Sainéan, L'argot ancien, Paris 1896.	١١٩
F. De Saussure, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Leipzig 1879.	١٢٠
F. De Saussure, Cours de linguistique générale, Paris-Lausanne, 1916.	١٢١
Ch-A. Séchehaye, Programme et méthodes de la linguistique théorique, Genève- Paris- Leipzig, 1908.	١٢٢
P. Stapfer, Récréations grammaticales et littéraire, Paris, 1900.	١٢٣
A. Terracher, Les aires morphologiques dans les parlers populaires du nord-ouest de l'Angoumois, Paris 1914	١٢٤
A. Thomas, Mélanges d'étymologie française, Paris 1902. Essais de philologie française, Paris 1898. Nouveaux essais de philologie française. Paris 1905.	١٢٥
Ch. Thurot, La prononciation française depuis le commencement	

- du XVI^e siècle d'après les témoignages de grammairiens,
Paris 1881-1883, 2 vol. ١٢٦
- Leite de Vasconcellos, Esquisse d'une dialectologie portugaise,
Paris 1901. ١٢٧
- H. Weil, L'ordre des mots, 3^e édit. Paris, 1879. ١٢٨
- D. Whitney, La vie du langage (trad. de l'anglais), 3^e édit,
Paris 1880. ١٢٩

٢ — باللغة الإنجليزية

- Fr. Boas, Handbook of American Indian Languages (Smithsonian
Institution Bureau of American Ethnology, Bulletin 40),
Washington 1911. ١٣٠
- J. Byrne, General principles of the structure of language,
London 1885 ١٣١
- P. Giles, A short manual of Comparative Philology, 2^e edit.
London 1901. ١٣٢
- O. Jespersen, on Growth and Structure of the English Language
2^e edit. Leipzig 1912. ١٣٣
- O. Jespersen, Progress in Language, 2^e edit. London. ١٣٤
- J. Morris-Jones, A Welsh Grammar, Oxford, 1913. ١٣٥
- F.-W.-H. Migeod, The languages of West Africa, London,
1911—1913, 2 vol. ١٣٦
- H. Oertel, Lectures on the Study of Language, New York
and London, 1902. ١٣٧
- A.-H. Sayce, Introduction to the Science of Language, 2 vol, 3^e
édit. London, 1890. ١٣٨
- Wheeler Scripture, The elements of experimental Phonetics,
New York and London, 1902. ١٣٩

H. Sweet, *Primer of Phonetics*, 2e. edit. Oxford, 1902.

D. Whitney, *Language and the Study of Language*. New York
and London.

٣ - باللغة الألمانية

Baudouin De Courtenay, *Versuch einer Theorie phonetischer*

Alternationen, Strassburg, 1895.

F. Bechtel, *Die Hauptprobleme der indogermanischen Lautlehre*

seit Schleicher, Göttingen, 1892.

O. Behaghel, *Geschichte der deutschen Sprache*, Strassburg 1911.

F. Bopp, *Vergleichende Grammatik des Sanskrit, Zend,*

Griechischen, Lateinischen, Letthauischen, Gothischen

und Deutschen, Berlin, 1833.

K. Borinski, *Der Ursprung der Sprache*, Halle, 1911.

O. Bremer, *Deutsche Phonetik*, Leipzig 1893.

C. Brockelmann, *Grundriss der vergleichenden Grammatik der*

semitischen Sprachen, Berlin, 1907—1908 2 vol.

O. Bröck, *Slavische Phonetik*, Heidelberg, 1911.

K. Brugmann und B. Delbrück, *Grundriss der vergleichenden*

Grammatik der indogermanischen Sprachen, 2e édit. Strassburg

Th.-W. Danzel, *Die Anfänge der Schrift*, Leipzig, 1912.

B. Delbrück, *Grundfragen des Sprachforschung*, 1901.

B. Delbrück, *Einleitung in das Sprachstudium*, 5e édit. Leipzig, 1908

B. Delbrück, *Zur Stellung des Verbums*, Leipzig, 1911.

O. Dittich, *Grundzüge der Sprachpsychologie*, 1, Halle, 1904.

O. Dittich, *Die Probleme der Sprachpsychologie*, Leipzig, 1914.

K.-O. Erdmann, *Die Bedeutung des Wortes*, 2e édit. Leipzig, 1910.

S. Feist, *Europa im Lichte der Vorgeschichte*, Berlin, 1910.

S. Feist, Kultur, Ausbreitung und Herkunft der Indogermanen, Berlin, 1913:	109
F.-N. Finck, Die Aufgabe und Gliederung der Sprachwissenschaft Halle, 1905.	170
F.-N. Finck, Die Haupttypen des Sprachbaus, Leipzig, 1910.	171
F.-N. Finck, Die Sprachstämme des Erdkreises, Leipzig, 1909.	172
G. von der Gabelentz, Die Sprachwissenschaft, 2e édit, Leipzig, 1901.	173
O. Ganzmann, Ueber Sprach und Sachvorstellungen, Berlin 1902.	174
H. Gutzmann, Physiologie der Stimme und Sprache, Braunschweig 1909.	175
H. Hirt, Der indogermanische Ablaut, Strassburg, 1900.	176
H. Hirt, Die Indogermanen, ihre Verbreitung, ihre Urheimat und ihre Kultur, 2 vol., Strassburg, 1905—1907.	177
O. Hoffmann, Geschichte der griechischen Sprache, Leipzig 1911.	178
W. Horn, Untersuchungen zur neuenglischen Lautgeschichte, Strassburg, 1905.	179
W. Horn, Historische neuenglische Grammatik, I, Strassburg 1908	180
H. Hübschmann, Das indogermanische Vocalsystem, Strassburg, 1885.	181
K. Jaberg, Sprachgeographie, Aarau, 1903.	182
O. Jespersen, Lehrbuch der Phonetik, 2e édit, Leipzig, 1913	183
F. Kluge, Urgermanisch, Strassburg, 1913.	184
F. Kluge, Von Luther bis Lessing, 4e édit. Strassburg, 1904	185
F. Kluge, Unser Deutsch, 2e édit. Leipzig, 1910	186
P. Kretschmer, Einleitung in die Geschichte der griechischen Sprache, Göttingen, 1896.	187

- F. Mauthner, Beiträge zu einer Kritik der Sprache, 3 vol.,
Stuttgart, 1900—1902. ११४
- C. Meinhof, Grundriss einer Lautlehre der Bantusprachen 2e
édit. Berlin, 1910. ११५
- R. Meringer und Mayer, Versprechen und Verlesen, Stuttgart,
1895. ११६
- W. Meyer—Lubke, Einführung in das Studium der romanischen
Sprachwissenschaft, Heidelberg, 1901. १११
- F. Misteli, Charakteristik der hauptsächlichsten Typen des
Sprachbaus, Berlin, 1893. ११२
- L. Morsbach, Ueber den Ursprung der neuenglischen Schrift-
sprache, Heilbronn, 1888. ११३
- H. Möller, Semitisch und Indogermanisch, Kjöbenhavn, 1906. ११४
- F. Müller, Grundriss der Sprachwissenschaft, Wien, 1876—1888. ११०
- K. Nyrop, Das Leben der Wörter (trad. du danois par Vogt),
Leipzig, 1903 १११
- H. Osthoff, Das Verbum in der Nominalkomposition, Iena. 1877. ११२
- H. Paul, Prinzipien der Sprachgeschichte, 4e édit. Halle, 1909 ११३
- H. Pedersen, Vergleichende Grammatik der keltischen Sprachen
2 vol., Göttingen, 1909—1913 ११४
- P. Persson, Beiträge zur indogermanischen Wortforschung,
2 vol., Uppsala und Leipzig, 1912 ११०
- J. Poirot, Phonetik (aus dem Handbuch der physiologischen
Methodik, hsggb. von R. Tigerstedt), Leipzig 1911 १११
- V. Porzezinski, Einleitung in die Sprachwissenschaft (trad.
du russe par E. Böhme), Leipzig, 1910. ११२
- J. Von Rozwadowski, Wortbildung und Wortbedeutung,
Heidelberg, 1904. ११३

W. Scherer, Zur Geschichte der deutschen Sprache, 2e édit. Leipzig, 1878	191
A. Schleicher, Compendium der vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen 1861 (4e édit., 1874).	195
A. Schleicher, Ueber die Bedeutung der Sprache für die Naturgeschichte der Menschen 1865.	197
A. Schleicher, Die deutsche Sprache, 2e édit, 1869	199
A. Schleicher, Sprachvergleichende Untersuchungen, 2 vol. 1848—1850	198
J. Schmidt, Die Verwandtschaftsverhältnisse der indogermanischen Sprachen, Weimar, 1872	199
O. Schrader, Sprachvergleichung und Urgeschichte, Jena, 1890.	200
O. Schrader, Die Indogermanen, Leipzig 1911.	201
O. Schrader, Reallexikon der indogermanischen Altertumskunde, Strassburg, 1901	202
H. Schuchardt, Slawodeutsches und Slawoitalienisches.	203
H. Schuchardt, Ueber die Lautgesetze gegen die Junggram- matiker, Berlin, 1885.	204
E. Sievers, Grundzüge der Phonetik, 5e édit, Leipzig, 1901	205
H. Socin, Schriftsprache und Dialekte im deutschen, Heilbronn, 1888.	207
H. Steintal, Abriss der Sprachwissenschaft, 2e édit, Berlin, 1881	209
F. Stolz, Geschichte der lateinischen Sprache, Leipzig, 1911	218
J. Storm, Englische Philologie, 2e édit., 1892.	219
W. Streitberg, Urgermanische Grammatik, Heidelberg 1894	210
S. Szimonyi, Die ungarische Sprache, Strassburg, 1907	211
J. Sziinyei, Finnisch—ugrische Sprachwissenschaft, Leipzig 1910	212

A. Thumb, Die griechische Sprache im Zeitalter des Hellenismus, Strassburg, 1901	٢١٢
R. Thurneysen, Die Etymologie, Friburg-i.-B., 1904.	٢١٤
M. Trautmann, Die Sprachlaute im allgemeinen und die Laute des englischen, französischen und deutschen im besonderen Leipzig, 1884—1886	٢١٥
W. Viëtor, Elemente der Phonetik, 5e édit. Leipzig 1904.	٢١٦
W. Vondrak, Vergleichende slavische Grammatik, 2 vol., Göttingen, 1906—1908.	٢١٧
K. Vossler, Sprache als Schöpfung und Entwicklung, Heidelberg, 1905.	٢١٨
K. Vossler, Frankreich's Kultur im Spiegel seiner Sprachen- entwicklung, Heidelberg, 1913.	٢١٩
J. Wackernagel, Studien zum griechischen Perfektum, Göttingen, 1904.	٢٢٠
D. Westermann, Grammatik der Ewe-Sprachen, Berlin 1907	٢٢١
H. Winkler, Der grammatische Geschlecht, Berlin 1889.	٢٢٢
W. Wundt, Völkerpsychologie, Bd. I, Die Sprache, 3e éd. Strassburg, 1911—1912	٢٢٣
A. Zauner, Romanische Sprachwissenschaft, Leipzig.	٢٢٤

— باللغة الإيطالية —

M. Barone, Sui verbi perfettivi in Plauto e in Terenzio, Roma, 1908	٢٢٥
M. Barone, Sull' origine del genere grammaticale nell' Indoeuropeo, Roma, 1909	٢٢٦
F. Rizzo, I derivativi sigmatici e la formazione del futuro . Indoeuropeo, Napoli, 1905	٢٢٧
Trombetti, L'unità d'origine del linguaggio, Bologna, 1905.	٢٢٨

٥ — باللغة الدنمركية

- | | |
|--|-----|
| O. Jespersen, Sprogets logik. København, 1913 | ٢٢٩ |
| H. Pedersen, Et Blik på Sprogvidenskabens Historie,
København, 1916 | ٢٣٠ |
| Y. Thomsen, Sprogvidenskabens historie, København, 1902. | ٢٣١ |



الملحق الأول

إن كتاباً في علم اللغة فرغ من تأليفه عام ١٩١٤ يستدعى عدة تصحيحات ليجارى حالة العلم عام ١٩٢٤ . فقد حدث في السنوات الأخيرة ، ولم يكن ذلك مجرد مصادفة ، أن كان علم اللغويات العام موضوع مؤلفات متنوعة ، لم ر من قبل ما يماثلها عدداً أو قيمة .

فكتاب « دراسة في اللغويات العامة » تأليف الأستاذ فرديناند دي سوسير ، الذى نشر عام ١٩١٦ (الطبعة الثانية عام ١٩٢٢) لم يمكن الانتفاع به إلا بعد أن تم تأليف هذا الكتاب ، اللهم إلا بذكره مرجعاً مرة أو مرتين في ذيل الصفحات ؛ وهو ينطوى على نظرات مبتكرة عميقة ، كان من المفيد أن توضح بها عدة فصول من كتابنا هذا .

وحيثما قارب هذا المؤلف نهاية طبعه ، نشر الأستاذ م . ميه « علم اللغة التاريخي وعلم اللغة العام » وهو مجموعة مقالات ، يكون مجرد إلحاقها بعضها ببعض عنصر مذهب فيه سعة وانسجام . وبما أن معظم هذه المقالات قد ظهرت من قبل في مجموعات مختلفة ، فقد أفدنا منها وأشرنا إليها مع ذكر مواضع النشر الأصلية . وظهر في نفس الوقت كتاب صغير يسمى « اللغويات أو علم اللغة » جمل فيه مؤلفه الأستاذ مروزو بصورة يسيرة واضحة المشا كل التى درسها اللغويون فى متناول الجمهور .

وظهر بعد طبع مؤلفنا هذا ، كتابان فى الطبقة الأولى يحمل كل منهما نفس العنوان « اللغة » : أحدهما تأليف الأستاذ سير^(١) والآخر تأليف الأستاذ جيسرسن^(٢) . وكما كان المؤلف يود لو أنه استطاع الرجوع إليهما ليندئ ويزين بهما الكثير من المسائل التى عرض لها ، وكان يود لو انتفع بكتاب الأستاذ

(١) Language, An Introduction to the study of speech . — نيويورك

عام ١٩٢١ .

(٢) Language : its nature , development and origin . لندن عام ١٩٢٢

ترومبتي (Elementi di glottologia في مجلدين ، بولونيا ١٩٢٢) حيث تدعم معلومات لغوية ، تكاد تكون مطلقة ، نظرية شخصية لتطور اللغة .

وقد كَوّن بعض تلاميذ الأستاذ شوخارت Schuchardt ، بجمع منتخبات اختيرت في ذوق سليم من مؤلفات أستاذهم الواسعة ، كتاباً صغيراً لعلم اللغة العام يفيض بمعلومات قيمة ومفيدة . وهذا المؤلف — Hugo-Schuchardt Brevier — (هال ١٩٢٢) هو حقاً كما يدل عليه عنوانه الثاني « ein Vademekun der allgemeinen sprachwissenschaft . »

ويتناول الأستاذ فرديناند برينو علم اللغة العام في كتابه « الفكر واللغة » (باريس ١٩٢٢) دون أن يخرج من النطاق الفرنسي ؛ وهو يطبق منهجاً جديداً لدراسة العوامل اللغوية بترتيبها وفقاً للأفكار التي يراد التعبير عنها . والنقد الذي يوجهه إلى التبويب التقليدي القديم يتفق مع بعض الملاحظات الواردة في باب الفصائل النحوية .

وهناك توجيهات كثيرة ومفيدة تؤخذ من كتاب الأستاذ ميّاردييه Millardet « علم اللغة واللهجات الرومانية » (مونبليه وباريس ١٩٢٣) ؛ فقد تعرض فيه لمسائل أساسية تتناول المنهج اللغوي تعرضاً صريحاً وناقشها في حماس . وأخيراً يقدم Festschrift Wilhelm Streitberg الذي ظهر حديثاً (هيدلبرج ١٩٢٤) كما يتبين من عنوانه الثاني عرضاً لحالة علم اللغة في أيامنا هذه ، وللواجبات التي تعرض للعاملين في هذا الميدان . ويلخص الأستاذ يونسكر تلخيصاً وافياً الآراء السائدة في ألمانيا عن علم اللغة العام .

لا نريد أن ندعو القارئ للرجوع إلى هذه المؤلفات المختلفة ، فهي — حتى حين تعرض آراء تشبه ما بسط هنا — تتناولها من وجهة نظر مختلفة مع فهم إتيقار والنسب فهماً يختلف كل الاختلاف ؛ فكل منها يحتوي على أمثلة جديدة كان يمكن الاستفادة منها بإدخالها في هذا الكتاب أو استعمالها بدلا من الأمثلة الواردة فيه . إلا أنه ليس من بين هذه المؤلفات ما يبدو بطبيعته متطلباً تغييراً للطريقة العامة التي اتبعناها في مؤلفنا هذا ؛ وفي ذلك دليل على أن علم اللغة قد بلغ

درجة لا يمكن معها أن يُتصور له كل إجمالى إلا فى صورة واحدة . ولعل جزءاً واحداً فقط يتطلب بعض التعديل ؛ وهو الجزء الأول الذى خصص للأصوات ، وذلك لأنه رتب فعلاً وفقاً لنظام قد يبدو الآن قديماً . فبعد مؤلف الأستاذ جرامونسمى « المائنة » (باريس شامبيون ١٩٢٤) — ذلك الكتاب الذى يهد به لمؤلفه فى « علم الأصوات العام » الذى ترقب صدوره — نرى طريقة أيسر وأقرب أيضاً إلى النهج العلمى فى جمع الأحداث .

وقد كان ترتيب هذا الكتاب يحتمل فصلاً سادساً فى آخر الجزء الرابع يخصص لتوزيع الأسر اللغوية على أرجاء العالم ، إلا أننا استبعدناه لأسباب عملية . غير أن الفكرة التى لم تكن ليشار إليها هنا إلا إشارة يسيرة ، قد تحققت اليوم بكل ما تتطلبه من إطناب بفضل كتاب « اللغات فى العالم » الذى نشرته جماعة من اللغويين (عند الناشر شامبيون) تحت إشراف الأستاذين ميه وكوهين . والجزم الذى اقتضاه هذا المرجع الكبير يبرر القرار الذى اتخذناه فى عدم معالجة السألة فى كتابنا هذا .

وقد كان على المؤلف أن يبرز فى صورة أوضح وأن يزيد مذهبه ثباتاً ، وأن يجعل هذا المذهب على الأخص أكثر ملاءمة لتقدم علم النفس ، نظراً لما أبداه كثير من الفلاسفة من الاهتمام بهذا الكتاب . والكتاب الذى ينشره الآن الأستاذ دى لا كروا ويصدر فى نفس الوقت مع هذه الطبعة « الفكر واللغة » (باريس ، السكان ١٩٢٤) ، يجعل هذه الرغبة عديمة الجدوى : لأن اللغويين جميعاً سيسرون بالعون الذى يمدهم به إخصائى مذهب قريب من مذهبنا . ومن جهة أخرى ، نرى فيلسوفاً ألمانياً هو الأستاذ أ . كسبرير قد نشر حديثاً (عام ١٩٢٣) كتاباً عنوانه : Philosophie der symbolischen Formen , Itz Teil , die Sprache ، يمس فيه نقطاً جوهرية من علم اللغة العام .

ولو أن الظروف قد آتاحت طبعة جديدة لهذا الكتاب ، لا مجرد نشر جديد كما هى الحال هنا ، لاضطر المؤلف إلى أن يدخل عليه عدة تصحيحات وإضافات .

وقد وجد في الملاحظات المتطوية على كثير من اللطف والتي وجهها إليه الأساتذة جرامون ، نيدرمان ، ل . كليدا ، فيجو برونال ، ١ . دوزا وج . اسنو اقتراحات مفيدة كل الفائدة . وقد وجه إلى المؤلف كثير من الأصدقاء والزملاء — أمثال الأساتذة لالاند ، مراكو ، ماير طبير ، أم كسترو ، ي . يود — بيانات وملاحظات يشكرهم عليها كل الشكر . ومن جهة أخرى فإن قائمة المراجع قد زاد في السنوات العشر الأخيرة زيادة كبيرة جداً ، وسنقتصر فيما يلي على ذكر أهم التعديلات التي يجب أن ندخلها على نص هذا الكتاب مصحوبة بذكر أهم المراجع .

ص ٢٩ ، يضاف إلى الهامش رقم ١ : V. Henry ، رقم ٨٣ : F. Ribezzo
Eco della Cultura ، نابولي ، ك : ١٥ (١٩١٦) .

ص ٣٦ ، ٢٥ ، يضاف : G. Ballet , Le langage intérieur et les
Le Traité, de في Foix ؛ ١٨٨٨ ، باريس diverses formes de l'aphasie
: Déjerine ؛ ٥ مجلد ، pathologie mentale de Sergent
، ٣١ Traité de médecine : Gilbert et Thoinot ؛ Sémiologie
Sémiologie nerveuse , le chapitre sur l' aphasie .

ص ٣٨ ، فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا قبل التاريخ ، انظر الآن الكتاب المفيد
من تأليف الأستاذ Boule : L'homme fossile , éléments de
paléontologie humaine ، باريس ، ماسون ١٩٢٠ .

ص ٣٩ يضاف إلى هامش ١ : Fred : « the genesis of speech :
Newton scott (publications of the Modern Language Association
of America مجلد ٢٣ ، ٤ ، ١٩٠٨ ، ص ١ — ٢٩) .

ص ٥٠ ، سطر ٩ ، اقرأ : أسنانية (السين S الفرنسية والشاء الإنجليزية
th في thank أو thick ، في وضع مخالف لطرف اللسان) .

ص ٦٦ ، س ١١ ، أضف بعد الأوسية : وقد لوحظت أيضاً في مجموعة لغات
البنو . ص ٧٨ ، س ٢٢ ، أضف إلى آخر السطر : وفي مقاطعة Aberdeen
(في اسكتلندا) تنطق ال f : wh (W. Grant et I. M. Dixon)

- Manual of Modern Scots ، كبردج ، ١٩٢١ ، ص ٣٢) .
ص ٨١ ، س ٥ ، أضف : انظر Suétone : Vesp. : ٨ ، ٢٢ .
ص ٨٨ ، ١٥ ، يضاف : وص ١٧٢ ، ٥ ؛ قارن Vondrak رقم ٢١٧ ،
ج ١ ، ص ٢٤٣ .
ص ٨٩ ، ٢٥ ، يضاف Psichari ، رقم ٦ ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٩ .
ص ١٠٤ : في كل ما يتعلق بالمسائل التي يتناولها الجزء الثاني انظر الآن :
« فلسفة النحو » تأليف جيسبرسن The Philosophy of Grammar
(لندن ١٩٢٤) .
ص ١٢٥ ، ١٥ ، يضاف : Zur Logik der Sprachwissenschaft .
H. J. Pos هيدلبرج عام ١٩٢٢ .
ص ١٣١ ، ١٥ ، يضاف : ميه : « اللغويات التاريخية واللغويات العامة »
ص ٢١١ .
ص ١٣٢ ، س ٤ : للفرقة بين المادة الحية والمادة غير الحية في الأسبانية
والرومانية .
انظر Eléments de linguistique romane: Bourciez الطبعة الثانية
الفقرات ٢٣٦ ، ٣٨١ ، ٤٩٩ ، ٥٣١ ؛ وانظر Linguistique : Millardet
et dialectologie romane ، ص ٤٥١ .
ص ١٤٨ ، س ٥ : قارن Kr. Sandfeld — Jensen der Schwund
des infinitivs im rumänischen und den Balkanspraehen
(Rumänske Studier ، مجلد ١ عام ١٩٠٢) .
ص ١٦٤ ، س ١ : ومن هنا يأتي ما وقع فيه بسكال من خطأ ، إذ يعترض
على إمكان وجود تعريف للكائن بحجة أن كل تعريف لهذه الكلمة يجب أن يبدأ
ب « أنه C'est » وفي هذا افتراض لما يطلب إثباته (de l'Esprit géomet-
rique)
ص ١٧٦ ، س ١ : لأحداث مشابهة في اللغة الروسية ، يرجع إلى Boyer
Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ١٦ ، ٥٥ .

ص ١٨٢ ، فيما يختص باللغة الفاعلة ، يرجع إلى Wegner : Der Wort-
tsatz رقم ٣٠ ، مجلد ٣٩ ، ص ١ — ٢٥ .

ص ١٨٢ ، ١٥ : يضاف Leo Spitzer : Aufsätze zur romanis-
chen Syntax und stylistik ، هال عام ١٩١٨ .

ص ١٨٨ ، ٢٥ : يضاف J. Marouzeau : L'ordre des mots en
latin رقم ١ ، Les formes nominales باريس ١٩٢٢ .

ص ١٩٧ ، س ١٠ : قارن هـ . پول ، رقم ١٨٨ ، ص ٢٨٥ وما بعدها .
ص ٢٠٥ : فيما يختص بالقياس ، كبداً للمحافظة ، يرجع إلى فرديناند دي
سوسير ، رقم ١٢١ ، ص ٢٤٢ .

ص ٢٠٨ : في القابلة بين النحو وحصر المفردات أى بين القمء وغيره ،
انظر فرديناند دي سوسير ، رقم ١٢١ ، ص ١٨٧ .

ص ٢٣٤ ، ٢٥ : الكلمة لكس مول . ٣٥ ، يضاف إردمان ، رقم ١٥٧
ص ١٠٧ .

ص ٢٣٥ ، س ١٥ : انظر Court de Góbelin : « العالم البدائي ، تحليله
ومقارنته بالعالم الحديث ، منظوراً إليه من ناحية التاريخ الطبيعى للكلام ، أو أصل
اللغة والكتابة مع رد على نقد مجهول » . باريس ١٧٧٥ .

ص ٢٥٧ ، ٢٥ : يضاف : ميه « لغويات تاريخية ولغويات عامة » ص ٢٤٤ .
ص ٢٦٣ — ٢٦٤ : توجد أمثلة أخرى في Dottin : « Quelques faits
de sémantique dans les parlers du Bas-Maine . » (Mélanges
Wilmette) ، باريس ، شامبيون ١٩٠٩ .

ص ٢٦٦ : فيما يختص بما بين اللغتين الألمانية والفرنسية من فرق في علاقات
كل منهما بروح المحافظة ، انظر الملاحظات الدقيقة التى أبدتها مدام دي ستايل
Mme de Staël في كتابها : De l'Allemagne ، الجزء الأول ، الفصل ١٢
ص ٢٧٢ : يضاف هامش ما يلي : فرديناند برينو : رقم ٥٧ ، مجلد ١ ،
ص ١٣١ : ميه : « لغويات تاريخية ولغويات عامة » ص ٢٦٤ . كل الفصل
يتطلب مراجعة على ضوء الآراء التى أوردها الأستاذ جيليرون Gilliéron فى كتبه :

- « Généalogie des mots qui ont désigné l'abeille. » باريس ١٩١٨
- « La faillite de l'étymologie phonétique. » نيفيل ١٩١٩ ؛
- « Les étymologies des étymologistes et celles du peuple. » باريس ١٩٢٢ .
- ص ٢٨٠ ، س ١٠ و ١١ : يقرأ sich erbrechen بدلا من ausbrechen
- ص ٢٨٠ ، س ٢٠ : usqiman « يقتل » ويضاف Verbleichen و dahingehen و dahinscheiden « يموت » .
- ص ٢٨٢ ، فقرة : « لا ينحصر الأثر الناتج » فيما يختص بهذه الفقرة
- راجع إردمان : رقم ١٥٧ ، ص ١١٤ .
- ص ٢٨٨ ، الفقرة الأخيرة : قارن Leo Spitzer : Über einige Wörter der Liebessprache ، لينزج ١٩١٨ .
- ص ٢٨٩ : يمكن أن تشير أيضاً إلى تأثير لغة الصيادين ، قارن Nicolas Edgar
- « Les expressions figurées d'origine cynogétique en français » أسالا ، عام ١٩٠٦ .
- ص ٣٠٧ : في الشروط التي يجب أن تتوافر للغة مشتركة عالية ، انظر خاصة
- ميه : « اللغات في أوروبا الحديثة » ، باريس ١٩١٨ .
- ص ٣١٠ : في الجغرافيا اللغوية ، يرجع إلى كتاب صغير قيم للأستاذ دوزا
- « الجغرافيا اللغوية » (باريس ، فلاديمير ١٩٢٢) .
- ص ٣١٤ : عن لغة الشعر في العصور الوسطى ، يرجع إلى Gertrud Wac-
- Beiträge) Dialekt und Schriftsprache im Altfranzösischen : ker
- zur Geschichte der romanischen Sprach und Litteraturen
- رقم ٢ ، هال عام ١٩١٦) .
- ص ٣١٥ : عن العامية الخاصة ، انظر الأستاذ G. Esnault : « مجلة
- القيولوجيا الفرنسية والأدب » مجلدات ٢٧ و ٢٨ و ٣٥ ، و كتابه : Le poilu
- ، باريس ١٩١٩ . tel qu'il se parle

ص ٣١٨ : يدخل في رطانات الطلبة الألمانين عدد كبير من كلمات اللهجات
(قارن Kluge : Studentensprache ، ص ٦٥) .

ص ٣٢٠ : الأستاذ شيرون في مجلة (المدرسة الفرنسية في الشرق الأقصى ،
رقم ٥ و ٤٧) ذكر وجود لغات خاصة يستعملها في التوشكان بأمة الخنازير والحبوب
والنوتية والمنغيات ، وكل هذه اللغات مشوهة من الألمانية .

ص ٣٣١ ، ١٥ : يضاف Navarro Tomas : Manual de pronun-
ciación española ، مدريد ١٩١٨ ، J. J. Nunes : Compendio de
grammatica historica portuguesa ، لشبونة ١٩١٩ .

ص ٣٣٣ ، ٣٥ : يضاف F. Kluge : « Deutsche Sprachges-
chichte, Werden und Wachsen unserer Muttersprache von
ihren Anfängen bis zur gegenwart.

ليبرز عام ١٩٢٠ .

ص ٣٣٦ : أما فيما يختص بالعلاقات بين إنجليزية اسكتلندية والإنجليزية العادية
فيرجع إلى Manual of Modern Scots : W. Grant et J. M. Dixon
(كمبردج ١٩٢١) . أما فيما يتصل بمسألة اللغات في النرويج ، فيرجع إلى
Bakmal og Talemaal i Norge : Ragnvald Olversen (١٩٦٠ -
١٩٣٠) كريستيان ١٩٢١ ، وخاصة يرجع إلى A. Burgun « التطور اللغوي
في النرويج منذ عام ١٨١٤ » كريستيان ١٩١٩ - ١٩٢١ .

ص ٣٣٧ ، ٢٥ : يضاف M. G. Bartoli : Alle fonti del Neola-
tino estratto dalla Miscellanea di studi in onore di Attilio
Hortis تريستا ١٩١٠ .

ص ٣٤٨ ، ١٥ : يضاف G. Hempl : « Language Rivalry and
speech differenciation in the case of Race - mixture. »
(من دراسات الرابطة الأمريكية للفيولوجيا ، مجلد ٢٩ ، ١٨٩٨) ؛ وارجع الآن إلى
دراسات الأستاذ Marrar ونظريته عن « اليابشية » التي تقول بوجود عدة لغات

مختلطة) Recueil Japhétique بترغراد ١٩٢٢ — ١٩٢٣ ؛ Japhetitische

. Studieu zur Sprache und Kultur Eurasiens ، ليزج — برلين) .

ص ٣٥٢ : توجد اليوم جماعة من السكان تتكلم اللغة البروفنسية في فرتمبرج

بيورست (في نيوهنجست) وفي بناسي — سر ، قارن Morosi ، رقم ٤١

مجلد ١١ ، ص ٣٩٣ و A. Rosoger : Ges- Neu Hengstett (Burset),

chichte und sprache einer Waldenserkolonie in Württemberg
Greifswald 1883.

ص ٣٦٥ : فيما يختص باللغة الأسبانية التي يتكلمها سكان جزائر ماريان ،

انظر مقال العالم الندركي K. Wulff في K. Wulff Festschrift نومسن ١٩١٢ .

ص ٣٩٣ ، الفقرة الثانية : انظر التطور الذي يمد شديد القراءة لنظام الكتابة

الذي اخترع في أيامنا هذه في الكرون بواسطة نجوبا ، ملك الكرون (دلافوس

مجلة علم الأجناس والتقاليد الشعبية ، ١٩٢٢ رقم ٩) .

ص ٣٩٥ ، ١٥ ، يضاف : أدولف قطاوى بك : شاميليون وفك رموز

الهيروغليفية ، القاهرة ١٩٢٢ ؛ وخاصة Sottas و Driotton ، مقدمة في دراسة

الهيروغليفية ، باريس ١٩٢٢ .

ص ٤١١ هـ ٢ : G. Paris : Mélanges linguistiques ، باريس ،

شامبيون ١٩٠٦ — ١٩٠٩ (ملحق : تاريخ الرسم في اللغة الفرنسية) .

ص ٤٢٧ ، يضاف : لبيان المستقبل (H. L. Hencken) : « اللغة

الأمريكية » ، الطبعة الثانية ، نيويورك ١٩٢١ ، ص ١٧٨ — ١٧٩) . ويضاف

إلى الهامش : Louvigny de Montigny : اللغة الفرنسية في كندا ، آناوا

عام ١٩١٦ .

ص ٤٢٩ ، ١٥ ، يضاف : ليفي بريل : العقلية البدائية ، باريس ١٩٢٢ .

ص ٤٣٨ : E. Bourciez : Eléments de linguistique romane

الطبعة الثانية ، ١٩٢٣ . Densusianu. « تاريخ اللغة الرومانية » المجلد الأول ،

باريس ١٩٠١ ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ، باريس ١٩١٤ .

، Die Bedeutung des wortes : K. O. Erdmann ، ٤٤٣ ص

الطبعة الثالثة ، ليزج ١٩٢٢. O. Hoffmann. Geschichte der Griechis-

، chen Sprache ، الطبعة الثانية ، عام ١٩١٦ .

، الطبعة الثالثة، Einführung, etc. : W. Meyer-Lübke، ٤٤٥ ص

ميدلبرج ١٩٢٠ .

Sprachvergleichung und Urges- . O. Schrader ، ٤٤٦ ص

، الطبعة الثالثة، ١٩٠٧ و ص ٤٤٧ A. Zauner Romanische Spra-

، chwissenschaft، المجلد الثاني الجزء الأول، الطبعة الرابعة ، ١٩٢١ ؛ المجلد الثاني

الطبعة الثالثة عام ١٩١٤ .

، Nutidssprog hos boern : O. Jespersen يضاف ٤٤٨ ص

، كوينهاجن ١٩١٦ . og voxne.

الملحق الثاني

لقد انقضى على تأليف هذا الكتاب عشرون عاماً ظهر خلالها في جميع البلاد عدد من النظريات أو الاكتشافات الجديدة التي غيرت علم اللغة . وعليه يجب إدخال زيادة محسوسة على الملحق القصير المكون جزئياً من قاعة مراجع ، والذي أضيف إلى الطبعة الثانية ، ليتعرف القارئ كل التقدم الذي تم في هذا الميدان . وإن أردنا أن نجعل الكتاب مجارياً للحالة الحاضرة وجب مراجعة جميع الفصول مراجعة دقيقة ، وإعادة كتابة بعضها ، وسنقتصر هنا على بعض البيانات الأساسية . أما فيما يخص علم اللغة فهناك كتابان على درجة من الأهمية ييسران ما يتعلق به تيسيراً كبيراً : أحدهما هو الكتاب السنوي للجرمانية الهندية الأوربية *Indogermanisches Jahrbuch* ، وهو يفسح حالياً مع المجلة التي يصدر عنها *Indogermanische Forschungen* مكاناً لعلم اللغة العام يتسع يوماً بعد يوم . والآخر هو نشرة الجماعة اللغوية *Bulletin de la société de linguistique* ، والتي يقوم الأستاذ ميه بتحرير الجزء الأكبر منها ، وحيث يبين كل سنة في عناية كبيرة قيمة المؤلفات التي تظهر حديثاً . ومجموعة بياناته التي بلغت حداً كبيراً من التنوع والتراء تمدنا بتاريخ حقيقي للاتجاهات ، كما أنها تعرض الآراء عرضاً نقدياً في نفس الوقت .

وقد وفق لنويون من جميع البلاد إلى تنظيم أول مؤتمر دولي لهم عقد في لاهاي عام ١٩٢٨ ، فماد ذلك على دراستهم بأجل الفوائد . وعقد مؤتمر ثان في جنيف عام ١٩٣١ ثم ثالث في روما عام ١٩٣٣ ، وينشردائماً لهذه المؤتمرات قرارات مفصلة . والقرارات الخاصة بثالثها لا يزال تحت الطبع . وتقدم هذه المؤتمرات بفضل راجعها التي توضع في حكمة نتائج ذلك العلم الذي قد أصبح علماً بالفعل مع بيانات مفيدة لهذا العلم الذي لا يزال في دور التكوين . وهذه المؤتمرات تساعد في نفس الوقت على تنظيم بعض المسائل العملية كسألة المصطلحات التي عينت لها

لجنة . وقد أقدم السيو ماروزو في شجاعة على القيام بأول محاولة لهذا العمل في معجمه للمصطلحات اللغوية (باريس عام ١٩٣٣) .

وقد تكون خلال السنوات الأخيرة مركزان للدراسات اللغوية أولهما مفتوح على مصراعيه للمسائل التي تتعلق بالنظريات وبالطريقة العلمية ؛ أحدها في أوسلو وهو يصدر مجلة Sprogvidensk Norsk Tidskeift for بيراج ؛ وأعمال المركز اللغوي بيراج قد فتحت الطريق لمنهج جديد سنتحدث عنه فيما بعد . وأخيراً تكونت في أمريكا جماعة لغوية وهي تنشر فضلاً عن نشرة لغوية دورية خاصة عنوانها « اللغة » مجموعات من الدراسات في موضوعات معينة . وهذه المراكز الجديدة تظهر حيوية الدراسات اللغوية في العالم ، أما وجد قبل الآن من هذه المراكز اللغوية فلم تنقطع عن العمل والإنتاج .

وبعد ما نشر في علم اللغة العام مما سبق ذكره فقد شاهدنا أيضاً في السنوات الأخيرة ظهور البادئ في النحو العام principes de grammaire générale كوينهاجن عام ١٩٢٩ للأستاذ Lovis Hjelmslev ومؤلف الأستاذ (cenni storicie summario di lnguistia arcoeuropea, A. pagliaro questioni teoriche) (روما عام ١٩٣٠) ومؤلف الأستاذ بالي Bally « اللغويات العامة واللغويات الفرنسية » باريس عام ١٩٣٢ ومؤلف الأستاذ بلومفيلد Bloomfield « اللغة » نيويورك عام ١٩٣٣ . وهذه المؤلفات وبينها اختلافات واضحة من عمل لغويين إخصائيين ، ولكن المشكلات اللغوية ما زالت موضع اهتمام الفلاسفة وخاصة علماء النفس الذين يدين لهم اللغويون بمعلومات قيمة . وإذا لم تتكلم عن كتاب الأنسة دي لاجونا Mlle de Laguna : الكلام ، وظيفته وتطوره Speech , its function and development نيوهيفن عام ١٩٢٧ ، فقد ظهر في السنوات الأخيرة مجلد ثالث للأستاذ كاسيرر Philosophie der symbolischen ormen (Phenomenologie der Erkenntnis برلين عام ١٩٢٩ ، وظهرت طبعة جديدة تنطوي على زيادة كثيرة للكتاب القيم تأليف الأستاذ دي لاكروا « اللغة والفكر » باريس عام ١٩٣٠ . ويحتل علم النفس أيضاً

مكاناً واسعاً في مؤلف عالم لنوى هو Weisgerber عنوانه *Muttersprache und Geistesbildung* جوتنجن عام ١٩٢٩ . ومما يظهر إظهاراً أوضح ما بين علماء النفس واللغة من اتفاق مجد هو نشر مجلد من مجلة علم النفس عام ١٩٢٣ ، خصص للغة . وقد عرض فيه مساعدون آتوا من كل البلاد آراء مبتكرة تتعلق بمدة مسائل أساسية في علم اللغة .

ويبدو أن علم الأصوات هو الذي طرأ عليه أعمق التجديدات . لقد أنشأ جماعة من اللغويين ينتمون إلى هيئة راج ، منهجاً جديداً هو « الصوتيات » (*La phonologie*) مستوحين في ذلك الآراء التي ذكرها من قبل بودوان دي كورتنيه وفردبناند دي سوسور . فالصوتيات تتميز عن علم الأصوات (*la phonétique*) بأنها ترجع دراسة الأصوات إلى حيز الأحداث اللغوية . والصوتيات تنظر إلى الأصوات لا كوحدة قائمة بذاتها ولكن وفقاً للدور الذي تؤديه كعوامل لها دلالتها في النظام اللغوي . وقد حفز تطبيق هذا المبدأ على القيام بمدة بمحور نشرت خاصة في أعمال المركز اللغوي بيراج فأظهرت إنتاجه الخصب . وفي نفس الوقت كان الأستاذ أدوارد هرمان يناقش من جديد مسألة القوانين الصوتية في : *Lautgesetz und Analogie* (*Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften*) ، جوتنجن ١٩٣١ ؛ بينما كان فان جنكن يعمل على إبراز أهمية الوراثة في التغيرات الصوتية وخاصة في (تقرير مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث للغويين) . وتتصل بالأصوات دراسة وزن الشعر التي تناولها من جديد فيما يختص بالفرنسية الأستاذ بول فريبه (الشعر الفرنسي ، مجلدان ، باريس ٩٣١ - ١٩٣٧) . وتناولها من وجهة نظر عامة الأستاذ ا . دي جروت في « العروض العام والوزن » (*la métrique générale et le rythme*) (نشرة الجمعية اللغوية مجلد ٣٠ ، ص ٢٠٢) وفي كتاب « الوزن » *der Rhythmus* (نيوفيلوجوس عام ١٩٣٤) . وقد نشر الأستاذ ب . فوشيه (عام ١٩٢٧ ، ستراسبورج) « دراسات في علم الأصوات العام » حيث يتناول بنوع خاص اتحاد حروف اللين بعضها مع بعض وتداخل الحروف الساكنة . غير أن أهم كتاب خصص لعلم الأصوات هو بلارييه

كتاب الأستاذ موريس جزامون *Traité de phonétique* « دراسة في علم الأصوات » باريس ، ١٩٣٣ ، الذي كان ينتظر صدوره بفارغ الصبر ؛ وقد عرض فيه المؤلف بصورة كاملة نظريته الخاصة التي تسود جميع أعماله العلمية مدعماً ذلك بالأمثلة . وهذه النظرية قد تمدل أو تناقض أيضاً بعض النقط في المعلومات التي بسطناها هنا في الفصول المختصة لعلم الأصوات .

ومراجع الفصول الأخرى تتطلب إضافات جديدة ، نورد فيما يلي أهمها :

ص ١٢٥ ، Albert Sechehaye : « محاولة في دراسة التكوين النطقى للجملة » باريس عام ١٩٢٦ ، ف. برونдал : *Ordklassernes, Studier over de sproglige Kategorier* ، كوبنهاجن ١٩٢٨ .

ص ١٣٥ ، G. Guillaume : *Temps et mode, théorie des aspects, des modes et des temps* ، باريس ١٩٢٩ .

ص ١١٨ ، F. Boillot : *Psychologie de la construction dans la phrase française moderne* ، W. Havers : باريس ، عام ١٩٣٠ ؛ *Handbuch der erklärenden Syntax* ، هيدلبرج ١٩٣١ .

ص ٢٤٦ ، ظهر الجزء الخامس والأخير من كتاب نيروپ : *Ordenes liv* ، عام ١٩٣٢ .

ص ٢٩٥ ، آتو جيسبرسن : « النوع البشرى ، الأمة والفرد من وجهة نظر لغوية » أوسلو ١٩٢٥ .

ص ٣٠٨ ، فيما يتعلق بمسألة لجنة دولية مساعدة ، انظر أعمال المؤتمر الثانى للغويين ، ص ٧٢ وما يليها .

ص ٣٣٠ ، ا. دوزا : تاريخ اللغة الفرنسية ، باريس ١٩٣٠ ؛ و. فون وتربرج « تطور تركيب اللغة الفرنسية » ليزج — برلين ١٩٣٤ ؛ ويوالى الأستاذ فرديناند برينو نشر كتابه العظيم (رقم ٥٧) وقد ظهر الجزء الأول من المجلد الثامن عام ١٩٣٤ .

ص ٣٣٣ ، *Die deutsche Sprache* : S. Feist ، الطبعة الثانية ،

Die Entstehung unserer Schrifts- : Alois Bernt ؛ ميونخ ١٩٣٣ ؛ prache. برلين ، عام ١٩٣٤ .

ص ٣٦٧ ، ا. ميه : « الطريقة المقارنة في اللغويات التاريخية » ، أوصلو ١٩٢٥ . والمسائل الخاصة بالقرابة اللغوية وبالجوهر قد تجددت بدراسة الأستاذ كر . سندر فيلد : « لغويات بلقانية ، مسائل ونتائج » باريس ١٩٣٠ . ويرجع أيضاً إلى دراسة الأستاذ جكبسون في أعمال الهيئة اللغوية بيراج ، المجلد الرابع ، ص ٢٣٤ عن خطوط الحدود الصوتية .

ص ٣٧٣ ، Herman Jacobsohn : Arier und Ugrofinnen ، جوتنجن ١٩٢٢ ؛ Albert Cuny : Etudes prégrammaticales sur le domaine des langues indo-européennes et chamito-sémitiques باريس ١٩٢٤

ص ٣٨٣ ، فيما يتعلق بالنحو المقارن للغات القوقازية ، نشر الأستاذ ديمزيل مجموعة من الدراسات (باريس ، شامبيون ، ١٩٣٢ و ١٩٣٣) تواجه وتناقش عدداً من المسائل الجديدة .

ص ٤٠٥ ، فيما يختص بالرسم نرى أن كتاب فان چنكن : Grondbeginse- len Van de schrijfwijze der nederlandse taal (هيلفرسوم ١٩٣١) وإن كان قد كرس خاصة للغة الهولندية إلا أنه يقدم آراء شخصية ذات طابع عام .

ويجدر بنا أخيراً أن نذكر كتاب الأستاذ ه. بدرسن : « علم اللغة في القرن التاسع عشر » (مطبعة جامعة هرفارد ١٩٣١) ؛ وهو مترجم عن اللغة الدنمركية ، ويعرض فيه الأستاذ التقدير ما قام به لغويو القرن الماضي من أعمال مقدراً لهم ما بذلوا من جهود علمية .

الملحق الثالث

لقد بدا لنا من المفيد أن تقدم في ملحق ثالث بعض البيانات المتعلقة بأهم المطبوعات التي ظهرت في السنوات الأخيرة ، وذلك ربما يتيسر لنا أن نقوم بمراجعة دقيقة على الأقل لمختلف فصول هذا الكتاب إن لم يكن بصياغتها من جديد ؛ وهو أمر نرجو أن يتم تحقيقه بعد أن مضى خمسة وعشرون عاماً على صدوره . فالفترة الحالية هي بالفعل من أخصب الفترات ، ونشاط العلماء — في جميع أنحاء ميدان علم اللغة الفسيح — بعيد كل البعد عن التواني ، بل هو يبعث كل يوم على ابتكارات جديدة تملخص الطرق القديمة أو تبتكر طرقاً جديدة بدلاً منها .

وكان بعض تلاميذ وأصدقاء الأستاذ أنطوان ميه قد عزموا على أن يظهروا بالاتفاق معه ، ملحقاً لكتابه « اللغويات التاريخية واللغويات العامة » الذي رجع صدوره إلى عام ١٩٢١ ، وذلك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده السبعين . وقد ظهر في أواخر عام ١٩٣٧ مجلد ثان يضم المقالات ذات الطابع اللغوي العام التي نشرت بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٦ . ولكن لم يتيسر للأستاذ ميه أن تفرغه بهتمام هذا العمل ، لأن الموت فاجأه في ٢١ من سبتمبر عام ١٩٣٦ ، بعد أن قاسى المرض شهوراً طويلة ، فترك فخره فراغاً كبيراً في الدراسات اللغوية أحست به جميع الأقطار . فهو لم يكف حتى اليوم الأخير من حياته ، لا عن الاطلاع على أقل الأعمال التي يقوم بها غيره فحسب ، بل كان يساهم بدراساته الخاصة في تقدم هذا العلم . وقد خصصت له « جماعة علم اللغة » كتيباً يقع في ثمان وستين صفحة ، ويشمل فضلاً عن ترجمة حياته ، بياناً كاملاً لمؤلفاته قد رتب وفقاً للتواريخ والمواد (باريس ، كلينكسك ١٩٣٧) . ويظهر لنا هذا الكتيب في نفس الوقت قيمة الرجل وأهمية أعماله العلمية .

ولقد تابعت المؤتمرات الدولية ، التي كان ميه أول العاملين على عقدها والذي ظلّ يجدها في حماس ، جلساتها الدورية في توفيق كبير . فقد عقد المؤتمر الرابع

للفنوين اجتماعاته في كوبنهاجن عام ١٩٣٦ ؛ وتمتدّ المدة الآن لعقد مؤتمر خامس في صيف عام ١٩٣٩ في بروكسل . وفي نفس الوقت تتابعت المؤتمرات الدولية لعلم النفس وعلم الأجناس ، وقد نال علم النفس فيها مكاناً له أهميته ، كل ذلك عند المؤتمرات التي خصصت لدراسات معينة مثل الشرقيات والرومانيات والسلافات . وتعدّ لعلم الأصوات مؤتمرات خاصة منذ عام ١٩٣٢ ، (عقد ثالثها بمدينة جاند « بيلجيكا » عام ١٩٣٨) . وقد نالت للمرة الأولى دراسات أسماء الأعلام وأسماء الأجناس والأماكن شرف مؤتمر دولي عقد بباريس عام ١٩٣٨ . وهذه المؤتمرات المختلفة يتبعها نشر أعمالها العلمية مثل : — (أعمال المؤتمر الدولي الثالث للفنوين ، فلورنسا ١٩٣٥) ، وهي تطلع الناس على الآراء والاتجاهات الجديدة والمناقشات التي دارت حولها .

يمكن أن نجد أيضاً فائدة كبيرة في كتب « الانتخابات » التي يزداد عددها يوماً بعد يوم ، تلك الكتب التي تقدم هدايا لعلماء بارزين في الاحتفالات اليوبيلية . وقد كُرِّم في السنوات الأخيرة الأساتذة : ا. بوازاك ، ا. كوك ، بارج ، نابولييه جريرسون ، مائيسوس ، ميسكولا ، سلفيردا دي جراف ، وديروسو وغيرهم من العلماء ، لقد كرموا بمختارات يستطيع الفنوين أن يستمدوا منها الشيء الكثير من المعلومات . والمختارات التي قدمت أخيراً للأساتذة هيرمان هيرت وب . كرتشمير ويدرسن وفان جنكيكن وبالي ، لها أهمية كبيرة من جهة العدد وتنوع المواد التي تناولتها . وهناك نوع من المختارات يتكوّن من جمع أعمال مختلفة يوزعها المهدى في كتب يصعب في الغالب الحصول عليها ، ونحن نوصي بها خاصة ، لكبير فائدها . وقد كوّن على هذا النمط « لينجويستيكا » للأستاذ آتو جيسبرسن و *Kleine Schriften* للأستاذ *Wilhelm Schulze* (عام ١٩٣٣) .

وقد ازدادت المجالات اللغوية في السنوات الأخيرة ازدياداً كبيراً . ويحسن أن نذكر كثيراً *l'Archivio glottologico Italiano* ، و *Studi Baltici* ومجلة المركز اللغوي بكوبنهاجن ، والمجلة اللغوية ببوخارست ، ومجلة الدراسات الهندية الأوربية ببوخارست أيضاً . وقد تابع المركز اللغوي بيزاج نشر (م - ٣٠)

أعماله ، فقد ظهر مجلد سادس بمناسبة المؤتمر الدولي الرابع للغويين وقد أهدى إلى هذا المؤتمر . وعاضرات المعهد اللغوى بباريس ، الذى يعقد جلسات سنوية ، تظهر بانتظام فى مطبوعات منفصلة (ظهر الجزء الخامس منها عام ١٩٣٨) .

أشرنا فيما سبق إلى تقدم علم الصوتيات ، وهذا المذهب الجديد الذى أصبح ينتمى إليه المركز اللغوى ببراج ، قد بحث على وضع كتاب جامع فى الموضوع هو الصوتيات للأستاذ Van Wijk (عام ١٩٣٩) ، فضلا عن عدد وفير من الدراسات التى تناولت جزئيات الموضوع . أما النحو المقارن بالمعنى الصحيح ، الذى يمد فى غنى عن تجديد طرقة ، فقد ضم إلى ثروته عام ١٩٣٥ كتابين مبتكرين لهما فيه أثر بعيد ، وضع أولهما الأستاذ بنفينست : « أصول تكوين الأسماء الهندية الأوربية » ، وألف الثانى الأستاذ Kurylowicz « دراسات هندية أوربية » . وهذان المؤلفان يدينان بما ورد فيهما من آراء جديدة إلى اكتشاف وتفسير النصوص الحديثة التى فك رموزها الأساتذة هروترى وسومير وفردريك وغيرهم ، والتى وضع لها كتاباً فى النحو كل من الأستاذين سترثان ودلاپورت . ومما يجدر الإشارة إليه بين الكتب العامة التى ظهرت أخيراً علاوة على الفراغ من « نحو الهندية الجرمانية » لهيرمان هيرت ، كتابى الأستاذين Sprach-theo- : Bühler و La Catégorie des Cas : Hjelmslev (عام ١٩٣٥) . ودراسة عوامل تركيب الجمل ولا سيما فى علاقتها بالأسلوب فقد تناولها الأستاذ ماروزو فى كتابه : Traité de stylistique appliquée au latin (عام ١٩٣٥) وفى كتابه : « ترتيب الكلمات فى الجملة اللاتينة ، الجزء الثانى ، الفعل (عام ١٩٣٨) . ولم يكن عدم ذكرنا لكتابا الأستاذ W.Schmid : Die sprachfamilien und : W.Schmid : sprachenkreise der Erde (عام ١٩٢٦) إلا مجرد النسيان .

وقد كانت « اللغة » الفرنسية فى المدة الأخيرة موضوع مؤلفات مختلفة ذات طابع عام ، قام بها لغويون ممن عرفت مقدرتهم العلمية . ويوسفنا حقاً أن يبقى « تاريخ اللغة الفرنسية » غير كامل ، وهو ذلك المؤلف الجليل الذى وضعه المرحوم

الأستاذ فرديناند برينو ، الذي وافاه أجله في أوائل عام ١٩٣٨ ، ولم يظهر من كتابه هذا شيء ، بعد المجلد السادس عشر . ويحتل الصدارة ، من بين الأعمال الشاملة ، تلك الدراسة الواسعة التي قام بها الأستاذان داموريت وبيشون : « من الكلمات إلى الفكر » ، بحث في نحو اللغة الفرنسية « وهو كتاب ينطوى على عدد وفير من الملاحظات العميقة التي تتعلق بتركيب اللغة الفرنسية للتخاطب في أيامنا هذه وعن اتجاهات اللغة ؛ وقد ظهر الجزء الخامس عام ١٩٣٦ . ومن المؤلفات ذات الموضوعات المعينة ، يجب علينا أن نذكر أعمال الأستاذ بلنسكرنبرج : « نظام الكلمات في اللغة الفرنسية الحديثة » والأستاذ س . دي بوير : « مقدمة لدراسة تركيب الكلام في اللغة الفرنسية » وك . ساندفيلد : « تركيب الكلام في الفرنسية الحديثة » وهي مؤلفات ظهرت من بضع سنوات ، وهناك مؤلف حديث وضعه الأستاذ جوجنهايم : « نظام نحوى للغة الفرنسية » . وقد نشرت الآنسة دوران نتائج بحث يمد شديد الابتكار هو : « النوع النحوى في الفرنسية » وندين للأستاذ أنطوان جريجوار بدراسة هامة عن « التدريب اللغوى » ظهر عام ١٩٣٦ . وقد ازدادت قائمة المراجع الخاصة بلهجات فرنسي المستعمرات بكتاب ألفته الآنسة سلفان : « لهجة فرنسي هايتى » عام ١٩٣٦ ، وهو مؤلف يقوم على أسس لغوية متينة .

ويجدر بنا أن نشير أخيراً إلى نشاط إيلالا (IALA) International Auxiliary Language Association « الرابطة الدولية للغة المساعدة » ، وهي بجانب عنايتها بإيجاد واختيار أفضل لغة مساعدة للتخاطب الدولي ، تعنى عناية شديدة بمقترحات اللغويين المتخصصين . وهي حين تحقق الأغراض التي تسعى إليها تفيد اللغويين المختصين بالدراسات التي تقوم بها . وقد أصبحت بعض مطبوعاتها تقدم نتائج مفيدة للغويات عامة وخاصة ما كان يتصف من هذه المطبوعات بطلاب إحصائي .

ج . فندريس

الفهرس

صفحة	
٢١ - ٢٤	تقديم : كلمة للمربين
٢٤ - ٢٨	تصدير : اللغة وأداة التفكير للأستاذ هنري ر
٢٨ - ٤٢	مقدمة : للأستاذ ج. شندريس
٢٩ - ٤٢	تمهيد : أصل اللغة

مشكلة أصل اللغة تتجاوز الطرق التي في حوزة علم اللغة ؛ وهي تدخل في دائرة التاريخ البدائي للبشرية . اللغة — وهي نظام من العلامات يستخدم في التخاطب بين الناس — تمتد نظاماً يتطلب وجوده تحقيق ظروف معينة سيكلوجية واجتماعية .

الجزء الأول : الأصوات

٤٣ - ٦١	الفصل الأول : المادة الصوتية
	الترتيب الفسيولوجي للأصوات التي يمكن أن يحدثها الجهاز البشري والإشارة إلى التغيرات الأساسية التي قبلها الأصوات .
٦٢ - ٨٢	الفصل الثاني : النظام الصوتي وتغيراته .
	الأصوات التي يصدرها كل شخص بتكلم تكون نظاماً صوتياً ، تتغير عناصره بطريقة غير محسوسة ، مطلقة ومنظمة . قوانين واتجاهات صوتية . التفرقة بين التغيرات بالتطور والتغيرات بالإبدال .

٨٣ - ١٠٣	الفصل الثالث : الكلمة الصوتية والصورة اللفظية .
	تنوع العناصر التي تكون الكلمة الصوتية ؛ أثر بعضها في البعض الآخر . الصورة اللفظية والجملة . الموارد التي تنتج في تحقيق الصورة اللفظية .

الجزء الثاني : النحو

صفحة

١٠٤ — ١٢٤

الفصل الأول : الكلمات والأصوات .

التفرقة بين دوال النسبة ودوال الماهية . الفروق بين دوال النسبة فيما يختص بطبيعتها ومكانها وبالرابط الذي يربطها بدوال الماهية . لا يمكن تعريف الكلمة إلا إذا انتبهنا إلى التغيرات الصرفية

١٢٥ — ١٥٤

الفصل الثاني : الفصائل النحوية .

دراسة الفصائل النحوية الأساسية من حيث (النوع والعدد والزمن والحالة الفعلية) ؛ العلاقة بين الفصائل النحوية وصعوبة التوفيق بين النحو والنطق .

١٥٥ — ١٨١

الفصل الثالث : الأنواع المختلفة للكلمات :

نقد التصنيف الجارى لأجزاء الكلام . المقابلة بين الاسم والفعل . محاولة تصنيف منطقي يقوم على تحليل للجملة الاسمية والجملة الفعلية . بيان تصنيف سيكلوجي .

١٨٢ — ٢٠٢

الفصل الرابع : اللغة الانفعالية :

أهمية التأثير في اللغة . الطرق اللغوية التي يبرّ بها عن التأثير . نظام الكلمات . العلاقات بين اللغة الانفعالية واللغة النحوية .

٢٠٣ — ٢٢٤

الفصل الخامس : التغيرات الصرفية :

الظواهر العامة للتطور الصرفي . الاتجاه إلى التوحيد وطريقة القياس . الاتجاه إلى التعبيرية وتحول الكلمات المستقلة إلى أدوات نحوية .

الجزء الثالث : المفردات

٢٢٥ — ٢٤٥

الفصل الأول : طبيعة المفردات ومداها :

علم الاشتقاق . القيمة الحالية القريبة للكلمات التي نستعملها حين نتكلم . كيف تتجمع الكلمات في الذهن . رمزية الكلمات . تمذر إحصاء المفردات .

صفحة

٢٧٠ — ٢٤٦

الفصل الثاني : كيف تغير الكلمات معانيها ؟

حياة الكلمات والتأقلم . تغير المعاني بالتخصيص وبالتعميم .
شروط إيجاد دلالة عامة .

٢٩٤ — ٢٧١

الفصل الثالث : كيف تغير الأفكار أسماءها ؟

البلي الصسوتى والبلي المعنوى للكلمات . التحريم والتورية .
الأسباب الاجتماعية لتغير المفردات . كيف تخلق كلمات جديدة ؟

الجزء الرابع : تكون اللغات

٣٠٨ — ٢٩٥

الفصل الأول : اللغة واللغات :

اللغة يجب أن تعرف مستقلة عن الجنس وعن عقلية المتكلمين بها
على أنها الصورة اللغوية الشالية التي تفرض على جميع الأفراد
الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة . تنوع اللغات يمسك بمقد
العلاقات الاجتماعية .

٣٢٥ — ٣٠٩

الفصل الثاني : لهجات ولغات خاصة :

تعريف اللهجات . توزيع اللهجات وحدودها . تعريف اللغات
الخاصة : اللهجات العامية واللغات الدينية .

٣٤٧ — ٣٢٦

الفصل الثالث : اللغات المشتركة :

توجد اللغات المشتركة من الاتجاه إلى التوحيد اللغوى . الأنواع
المختلفة لتكوين اللغات المشتركة . العلاقة بين اللغات المشتركة
وبين هذه اللغات واللهجات .

٣٦٦ — ٣٤٨

الفصل الرابع : احتكاك اللغات واختلاطها .

النتائج المختلفة لصراع اللغات وفقاً لقيمتها الذاتية . كيف تموت
اللغات ؟ شروط تكوين لغات مختلطة .

٣٨٣ — ٣٦٧

الفصل الخامس : القرابة اللغوية والمنهج القارن :

كيف يجب علينا فهم القرابة بين اللغات ؟ مظهر التابع ومظهر
الوضع . قيمة المنهج القارن فى تكوين الأسر اللغوية .

الجزء الخامس : الكتابة

صفحة

٣٨٤ — ٤٠٢

الفصل الأول : أصل الكتابة وتطورها :

تفترض الكتابة إدراكاً عقلياً للعلامة الكتابية . الكتابة
المرسومة والكتابة التصويرية والكتابة الصوتية . المقطعية
والأبجدية .

٤٠٣

الفصل الثاني : اللغة المكتوبة والرسم :

المظاهر العامة للغة المكتوبة ؛ علاقتها بلغة الكلام . الفقر في
الرسم ؛ إلى أى حد يمكن إصلاح الرسم ؟

٤١٧

الخاتمة : تقدم اللغة

ضرر إدخال فكرة الكمال بمعناها الأدبي في علم اللغة .
تغير العناصر المختلفة للغة لا يؤدي إطلاقاً إلى كمال دائم في اللغة .
تطور اللغات ما هو إلا انكاس لتطور المجتمعات ، فبأية حيطة
يجب علينا أن نقبل الافتراض القابل بتقدم اللغة ؟

٤٣٥

المراجع :

٤٤٩

الملاحق : الأول والثاني والثالث

٤٦٨

فهرس : المواد

٤٧٢

التصويب :

تصويب

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
مشروع	مشرع	٦	٢
ولا تقول	ولا تول	١٧	١٠
ظنه	مؤساته	١٩	١٠
النظم	الؤسات	٢٠	١٠
تقف	تترف	٩	١١
تدلنا	ندلنا	٢	٣٠
اللفة	اللة	٣	٣٨
الأذن	الإذن	٥	٤٣
احتكاكية	احتكاكة	١	٥١
لجمع	لمجمع	٢٠	٦٠
النبر	النبر	١٠	٨٧
نار عادية	نار عادية	٢	١٠٢
دوت	دو	١٠	١٢٠
ومهما	مهما	١٠	١٢٥
فإن	إلى	١٠	١٢٥
الإغريقية القديمة	الآغريقية	١١	١٢٥
لحظة	لحظة	٢٢	١٣٧
vais	vois	٢٣	١٣٧
إذا	إذ	٢٦	١٣٩
père	pere	٣٩	١٤٠
إذ يرى نفسه	إذ يرى	٤٢	١٤٠
a maison ou	la maison ou	٢٠	١٤٥
الصرفي	الصوفي	٥	٢٤٦
Gaston	aston	٦	٢٤٦
دى بروس	دى بروسى	١٤	٢٤٦
من	مر	٢٤	٢٤٦
أو إلى	أ إلى	١٤	٢٤٦
مرادفتين	مرادفتان	١٤	٢٤٦
قد توضع	قد توضع	٥	٢٩٦
ليست	ليس	٥	٣١٠
الحامة . هـ	الحامة ٣٢	٢ هامش	٣١٥
والعشرين	والعشرين	٥	٣٥٦
الرياضة الذهنية	الرياضة النفسية	٣	٣٨٥
طويلا	طالايلا	١٥	٣٩٠
منساوية	مساوية	١٢	٣٩١
فسي	فسيء	٤	٤٠٩
حي	حيء	١٤	٤١٥
مطبوعا	مطبوعة	١٥	٤١٥
ألا تكون	ألن تكون	٢٣	٤٣٢

الإشراف اللغوى: عزة شبل

الإشراف الفنى: محسن مصطفى

تصميم أساسى للخلاف: أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوع